القصص والتاريخ في القرآن الكريم

إبراهيم أبو عواد

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

مقدمة

الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وإخْوَتِهِ الأنبياءِ الكِرَامِ، وآلِ كُلٍّ ، وصَحْبِ كُلٍّ .

إنَّ القَصَصَ والأحداثَ التاريخية المَذكورة في القرآن الكريم لَمْ تَجِئْ للتَّسليةِ وَمَلْءِ وقت الفَرَاغ ، بَلْ جاءتْ مِن أجْلِ الاتِّعَاظِ وأخذِ الدُّروسِ والعِبَرِ ، وتَعليمِ الناس الأبعاد العقائدية والفكرية والتاريخية ، وهذا يَقُودهم إلى تَكوين حصيلة كبيرة مِن الوَعْي ، مِمَّا يَجعلهم عناصر فاعلة في المُجتمع قادرة على ربط الماضي بالحاضر ، والاستفادة مِنهما في رسم خريطة المُستقبَل .

والقُرآنُ الكريم لَيْسَ كِتابًا تاريخيًّا أو رِوايةً قصصية أو مَادةً أرشيفية تأريخية ، وإنَّما هُوَ وَحْيٌ إلهيٌّ وَكِتابٌ سماويٌّ دِينيٌّ اشتمل على قَصَص تاريخية ، وعَرَضَ أحداثَها بالتفصيلِ أو الإيجازِ ، لِكَي يَقُوم الناسُ بِتَبَنِّي الإيجابيات وتَفَادي السَّلبيات . وكارثةٌ كُبرى أن تَرتكب الأُمَمُ نَفْسَ أخطاء الأُمَم السابقة ، لأنَّ العاقل يُفْتَرَض به أن يَتَّعِظ بِغَيْرِه بِعَكْسِ الجاهل الذي يَتَّعِظ بِنَفْسِه . ومَن لَمْ يَسْتَفِدْ مِن القَصَصِ والتاريخ ، فَسَوْفَ يُكَرِّر نَفْسَ الأخطاءِ السابقةِ ، ويَقَع في نَفْسِ الخَطَايا الماضيةِ ، وبالتالي ، سَيُلاقي نَفْسَ المصيرَ الكارثي . والتاريخُ ذاكرةُ الحضارات ، ومِرْآةُ الشُّعُوبِ والعُقولِ ، وحقلُ تجارب الأُمَم ، وفِيه دُروس وعِبَر للمُتَأمِّلين ، وفِيه مواعظ وإرشادات للمُفَكِّرين ، لأنَّه نِتَاج عقول أجيال كاملة ، وأُسلوب حياة ، وطريقة تفكير ، ونمط ثقافة .

والذينَ يَنْسَوْنَ مَصَائِبَ الشُّعُوبِ والأُمَمِ الغابرة سَوْفَ يُعايشونها مِن جَديد . والتاريخُ يُكَرِّر نَفْسَه بأشكال حديثة وصُوَرٍ مُتَجَدِّدَة ، ومَآسِي الماضي هِيَ عِبَرُ المُستقبَل ، وسُنَنُ اللَّهُ لا تَتَغَيَّر ولا تَتَبَدَّل . وأهَمُّ خُطوة للاستفادةِ مِن القَصَصِ والتاريخِ هِيَ القِراءة الواعية المُتَدَبِّرَة . وللأسف الشديد ، فإنَّ أُمَّة " اقْرَأ " لا تَقْرَأ ، وهذا هُوَ سبب تَخَلُّفِهَا وانهيارِها ، فهي لَمْ تَسْتَفِدْ مِن أحداثِ الماضي ، ولَمْ تأخذ مِنها العِبْرَةَ والعِظَةَ ، لذلك فهي تَقَع دائمًا ضَحِيَّةَ المُفَاجَأة القاتلة ، كما أنَّها لا تَمتلِك مراكز أبحاث مُتقدمة لدراسةِ الماضي وتَحليلِ الحاضرِ واستشرافِ المُستقبَل . والأُمَّةُ المَقطوعةُ عن تُراثها ، والعاجزةُ عن فَهْم حاضرها ، هي أُمَّةٌ ضائعةٌ بلا بُوصلة ، وتائهةٌ بلا خريطة ، وَلَن تَجِدَ طريقَها إلى المُستقبَل . ولا يَذهَب بعيدًا مَن لا يَعرِف إلى أين هُوَ ذاهب . وصَدَقَ الشاعرُ :

اقْرَؤُوا التاريخَ إذْ فِيهِ العِبَر ضَلَّ قَوْمَ لَيْسَ يَدْرُونَ الخَبَر

وكما أنَّ للإنسان دَوْرَةً حيوية (الوِلادة ، الطُّفولة ، الشباب ، النُّضْج ، الشَّيخوخة ، المَوْت)، فكذلك لِكُلِّ حضارة فترة ضَعْف وقُوَّة ونُضْج وسُقوط.وكُلُّ مَرحلةٍ مِن هذه المَراحل ضَرورية ، ولها مُدَّة مُحَدَّدَة. والمَاضِي لا يَمْضِي.وبِدُون الماضي فَإنَّ الحاضرَ لَن يَحْضُرَ.والعاقلُ يُحَوِّل التاريخَ إلى مِفتاح لباب المُستقبَل ، والجاهلُ يُحَوِّل التاريخَ إلى ذاكرةٍ للنِّسْيَانِ ، وخَنجرٍ في ظَهْرِ المُستقبَل .

وقَد أرشدَ القُرْآنُ إلى ضَرورة السَّيْرِ في الأرضِ ، ورُؤيةِ آثارِ الأُمَم الغابرة ، للاستفادةِ مِن تَجاربها وتفاصيلِ حياتها ، ومَعرفةِ الأحداثِ اليوميةِ والوقائعِ التاريخية والتأثيراتِ العقائديَّة والاجتماعية المُختلفة التي صَبَغَتْ وُجُودَها على هذه الأرض . والنظرُ في السُّلوكِ الاجتماعي للحضاراتِ والأُمَمِ والشُّعُوبِ يُعْطي تَصَوُّرًا واضحًا وشُمُوليًّا للأفكارِ وتطبيقاتِها على أرض الواقع .

سَوْفَ نَستعرض أحداثًا تاريخية مُنتقاة بشكل مُوجَز، وتَسليط الضَّوْء عليها مِن أجْلِ الوُقوفِ على معالم طريق الأُمَم الغابرة . ولَسْنَا هُنا في مَعْرِضِ البَحْثِ التَّفصيلي في كُلِّ القَصَصِ القُرْآنِيَّة ، لكنَّنا نُحاول استعراضَ بعض الأحداث لتكوين صُورة مُتكاملة عن قَضايا الوُجودِ والإنسانيَّةِ .

تأتي قِصَّةُ ابْنَي النَّبِيِّ آدم ﷺ لِتَصويرِ الصِّرَاعِ الحَتْمِي بَين الخَيْرِ والشَّرِّ،والصِّدَامِ المُؤكَّد بَين الحَقِّ والباطِلِ . وتَظهَر تَضحياتُ الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ومُعاناتهم الهائلة ، وصَبْرهم في طريق الدَّعوة الشاق ، وتَبْرُز بعضُ الأحداث الشهيرة كَقِصَّةِ أصحاب الكَهْفِ. ونُحاول دِراسةَ شخصية ذِي القَرْنَيْن الذي حَكَمَ الدُّنيا . ونُحَلِّل قِصَّةَ أصحابِ الأُخدود المُؤمنين الذي ضَحُّوا بحياتهم في سبيل اللَّه تعالى ، وننتقل إلى الضِّد ، فَنُحَلِّل قِصَّةَ أصحاب الفيل الذين حاولوا هَدْمَ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَة ، لكنَّ للبَيْتِ رَبًّا يَحْمِيه ، وقَد صانَ اللَّهُ بَيْتَه الحَرَامِ مِن الأذى ، وحَمَاه مِن الأعداء ، وَجَعَلَهُم أثَرًا بَعْدَ عَيْن ، وعِبْرَةً لِمَن يَعْتَبِر .

وكُلَّمَا تَعَمَّقْنَا في دراسة هذه الأحداث ، والنظر في تفاصيلها وأبعادها ، ازدادَ إيمانُنا باللَّهِ تعالى ، وتَعَمَّقَتْ مَعرفتنا بالقُدرة الإلهيَّة المُطْلَقَة المُسيطِرة على التاريخِ والجُغرافيا والحضاراتِ والشُّعُوبِ والأُمَمِ المُتَعَاقِبَة، حيث إنَّ الحضارات تَصْعَد وتنهار ، والأشخاصُ يَظْهَرُون ثُمَّ يَخْتَفُون ، والأُمَمُ تأتي وتَذهَب . واللَّهُ باقٍ ، يُغَيِّر ولا يَتَغَيَّر ، ولا يَذهَب ، ولا يَزُول . وسُنَنُ اللَّهِ ثابتةٌ بلا تَغيير ولا تَحويل ، والجَميعُ خاضعٌ لِقَانُونِ الحَضَارَاتِ الإلهيِّ بإرادته ورَغْمَ أنْفِه .

والجديرُ بالذِّكْرِ أنَّ هذا الكِتَاب تَمَّ تأليفُه بشكل مُخْتَصَر مُوجَز ، كما أنَّه لَمْ يَعْتَمِدْ على الترتيبِ الزَّمَني للقَصَصِ والأحداثِ التاريخية . وإنْ وَجَدْتَ خيرًا فَمِنَ اللَّهِ وَحْدَه ، وإنْ وَجَدْتَ غَيْرَ ذلك فَمِن نَفْسِي والشَّيطانِ . والحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِين .

إبراهيم أبو عواد

١ــ السَّيْرُ في الأرْضِ والنَّظَرُ في عَاقِبَةِ المَاضِين

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا في الأرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبين ﴾ [آل عِمران : ١٣٧] [١] .

هذا خِطَابٌ إلهيٌّ عظيمٌ للمُؤمنين الذينَ أُصِيبوا يَوْمَ أُحُد ، وقُتِلَ مِنهُم سَبْعُون . قَدْ جَرَى نَحْو هذا على الأُمَم الذين كانوا مِن قَبْلِكُم مِن أتباع الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ، ثُمَّ كانت العاقبة لهم ، والدائرةُ على الكافرين . والعِبرةُ بالخواتيم ، ومَن يَضحك أخيرًا يَضحك كثيرًا .

قَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ في الأُمَم الماضية بإمهالهم ثُمَّ إهلاكهم واستئصالهم بسبب رفضهم الإيمان ، ومُخالفتهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والسُّنَنُ جَمْعُ سُنَّة ، وهي الطريق المُستقيم .

قال الواحدي في الوجيز (١/ ٢٣٣) : ((قَدْ مَضَتْ مِنِّي فِيمَن كانَ قَبْلَكُم مِن الأُمَمِ الكافرة سُنَن بإمهالي إيَّاهُم حتى يَبْلُغُوا الأجَلَ الذي أجَّلْتُهُ في إهلاكهم ، وبَقِيَتْ لهم آثار في الدُّنيا ، فِيها أعظم الاعتبار)) .

فَسِيروا أيُّها المؤمنون في الأرض ، وتَعَرَّفُوا أخبارَ المُكَذِّبين ، ومَا نَزَلَ بِهم مِن العذابِ ، لِتَتَّعِظُوا وَتَعْتبروا بِما تَرَوْنَ مِن آثار إهلاكهم .

إنَّ اللَّهَ يُمهِل الكافرين حتى يَبْلُغَ الأجَلُ الذي أجَّلَ في نُصرةِ النبيِّ ﷺ وصحابته رضي اللَّهُ عنهم ، واللَّهُ ناصرُ أوليائه ، ومُهْلِكُ أعدائه ، ووعدُ اللَّهِ واقعٌ لا مَحَالة ، وكائنٌ بِلا رَيْب ، في الوقتِ الذي يَختاره اللَّهُ تعالى ، واللَّهُ لا يُخْلِف وَعْدَه .

والآيةُ تَسليةٌ مِن اللَّهِ تعالى للمُؤمنين، وَتَثبيتٌ لهم ، ورَفْعٌ لِمَعنوياتهم ، مِمَّا يُؤَدِّي إلى تَقويةِ قُلوبهم ، وتجذيرِ الإيمان فيها .

---

١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤٦٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ . السُّنَن جَمْع سُنَّة ، وهي الطريقة . وفي معنى الكلام قَولان : أحدهما قَدْ مَضَى قَبْلَكُم أهلُ سُنَن وشرائع ، فانظروا ماذا صَنَعْنَا بالْمُكَذِّبين مِنهُم ، وهذا قول ابن عباس . والثاني قَدْ مَضَتْ قَبْلَكُم سُنَن اللَّه في إهلاك مَن كَذَّبَ مِن الأُمَم ، فَاعْتَبِرُوا بهم ، وهذا قَوْل مُجاهد . وفي مَعنى ﴿ فَسِيرُوا في الأرْضِ ﴾ قَولان: أحدهما أنَّه السَّيْر في السَّفَر ، قاله الزَّجَّاج . إذا سِرْتم في أسفاركم عَرَفتُم أخبارَ الهالكين بتكذيبهم ، والثاني أنَّه التَّفَكُّر. ومعنى ﴿ فَانظُرُوا ﴾ اعْتَبِرُوا ، والعاقبةُ آخِرُ الأمر)) .

سِيرُوا أيُّها المؤمنون في الأرضِ ، فانظروا كيف كانَ آخِرُ أمْرِ الكافرين ، فإنَّهُم خَالَفوا أنبياءهم عليهم الصلاة والسلام ، بالحِرْصِ على الدُّنيا ، ثُمَّ جاءهم عذابُ الاستئصال ، وزالوا ، وانقَرَضُوا ، فَلَمْ يَبْقَ مِن دُنياهم التي فَضَّلُوها على الآخِرَةِ أثَرٌ .

والهدفُ مِن هذا السَّيْرِ لَيْسَ السِّياحة واللَّهْو واللعب وإضاعة الوقت ، وإنَّما حُصول المعرفة ، وأخذ الدُّرُوس والعِبَر ، والاستفادة مِنها ، والعاقلُ مَن اتَّعَظَ بِغَيْرِه ، ولَمْ يُكَرِّرْ أخطاءَ الآخَرِين .

والسَّيْرُ لَيْسَ مَقصودًا لِنَفْسِه ، ولَيْسَ هدفًا بِحَدِّ ذاته ، وإنَّما هُوَ وسيلة لِحُصُولِ المعرفة . وإذا حَصَلَت المعرفةُ بِدُون السَّيْرِ فَقَدْ حَصَلَ المَقصودُ ، وإنْ كانَ لِمُشاهدة الآثار زيادة غَيْر حاصلة لِمَن لَمْ يُشاهدها ، ولَيْسَ الخَبَرُ كالمُعَايَنَة .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ١٠٩) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ ، قال عطاء : شرائع . وقال الكَلْبي : مَضَتْ لِكُلِّ أُمَّةٍ سُنَّةٌ ومِنهاج إذا اتَّبَعُوها رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم . وقال مُجاهِد : قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكم سُنَنٌ بالهلاك فِيمَن كَذَّبَ قَبْلَكُم . وقِيل : سُنَن ، أي : أُمَم . والسُّنَّة : الأُمَّة . قال الشاعر :

مَا عَايَنَ الناسُ مِن فَضْلٍ كَفَضْلِكُم ولا رَأَوْا مِثْلَكُم في سَالِفِ السُّنَنِ

وقِيل : مَعْنَاه : أهل السُّنَن ، والسُّنَّةُ هي : الطريقة المُتَّبَعَة في الخَيْرِ والشَّر . يُقَال : سَنَّ فُلانٌ سُنَّةً حَسَنَةً وسُنَّةً سَيِّئَةً ، إذا عَمِلَ عَمَلًا اقْتُدِيَ بِه مِن خَيْرٍ وشَر . ومعنى الآية : قَدْ مَضَتْ وَسَلَفَتْ مِنِّي سُنَنٌ فِيمَن كانَ قَبْلَكُم مِن الأُمَم الماضية الكافرة بإمهالي واستدراجي إيَّاهُم ، حَتَّى يَبْلُغَ الكِتابُ فِيهِم أجَلِي الذي أجَّلْتُهُ لإهلاكِهم ، وإدالةِ أنبيائي عليهم ، ﴿ فَسِيرُوا في الأرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبين ﴾ ، أي : آخِر أمْر المُكَذِّبين . وهذا في حَرْبِ أُحُد . يَقُول اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : فأنا أُمْهِلُهُم وأستدرجهم حتى يَبْلُغَ أجَلِي الذي أجَّلْتُ في نُصرةِ النبيِّ ﷺ وأوليائه وإهلاكِ أعدائه)) .

يجب على المَرْءِ أن يَتَّعِظ بسيرة الأُمَم الماضية التي أُهْلِكَتْ ، وصارتْ أثَرًا إثْرَ عَيْن ، فآثارُهم تدلُّ على وُجودهم . ولا بُد مِن دراسةِ آثارهم والاستفادةِ مِن تجاربهم ، والسَّيْرِ في الأرض معَ إعمالِ العقلِ والتَّفَكُّرِ والتَّأمُّلِ والتَّحليلِ والتَّفْسيرِ والاستنباطِ ، والنظرِ بِعَيْن الباحث عن المَوعظةِ والاعتبار ، مِمَّا يُؤَدِّي إلى تَنقيةِ السُّلوكِ الإنسانيِّ مِن السَّلْبِيَّاتِ والأخطاءِ والخطايا .

إنَّ الأُمَم الغابرة يُمكِن معرفة عقائدها وسُلوكها ونظام حياتي المَعنوي والمادي ، مِن خِلال آثارها التي يَمُرُّ عليها الناسُ في النهار والليل . وهذه الآثارُ أو البقايا تُعْتَبَر هُوِيَّةً معرفية غَيْر قابلة

للتَّزوير . والعاقلُ مَن يَدْرُس ويُحَلِّل تَجَارِبَ الأُمَمِ السابقة، فَيَقِف على نِقاط قُوَّتها ونِقاط ضَعْفها ، ويَفْهَم مَسَارَها التاريخي لِكَي يَستفيد مِن الإيجابيَّات فَيُنَمِّيها، ويَستفيد مِن السَّلْبِيَّات فَيَتجاوزها ، ولا يَقَع فيها . وفي الدُّر المَنثور للسُّيوطي (٢ / ٣٢٩) : ((وأخرجَ عَبْد بن حُمَيد وابن جرير وابن المُنذِر وابن أبي حاتم عن مُجَاهِد في قَوْله : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ ، يَعْنِي تَدَاوُل مِن الكُفَّارِ والمُؤمنين في الخَيْرِ والشَّر)) .

والتَّدَاوُلُ سُنَّةٌ كَوْنِيَّة ، فالحضاراتُ تتعاقب ، والسَّنَوَاتُ تَدُور ، والتاريخُ يُعيد نَفْسَه بأدوات جديدة تَتَنَاسَب معَ طبيعة كُلِّ عَصْرٍ . والدَّهْرُ يَوْمَان : يَوْمٌ لَكَ ، ويَوْمٌ عَلَيْكَ . يَوْمٌ تَضحك فيه ، ويَوْمٌ تَبْكِي فيه . والتداولُ حاصلٌ بين المؤمنين والكفار في السَّرَّاء والضَّرَّاء . ومَهْمَا عَلا صَوْتُ الكافرين ، وارتفعتْ مكانتهم الدُّنيوية ، وسَمَتْ رُتْبَتهم الماديَّة ، فلا بُد أن يَسقطوا في فَخِّ انحرافهم العَقَدِي، ويَدفعوا ثَمَنَ كُفْرِهم وضَلالِهم في الدُّنيا قبل الآخِرَةِ . والتاريخُ شاهدٌ على ذلك. وهُناك سَاعَة حَرِجَة يَبْلُغ الباطلُ فِيها ذِرْوَةَ قُوَّتِه ، ويَبْلُغ الحَقُّ فِيها أقْصَى مِحْنته ، والثباتُ في هذه الساعة الشديدة هو نُقْطَة التَّحَوُّل المصيرية .

إنَّ الحَقَّ أبْلَجُ ، والباطلَ لَجْلَجٌ ، أي إنَّ الحَقَّ واضحٌ مُشْرِق ، والباطل غَامضٌ مُختلِط . وَدَوْلَةُ الباطلِ سَاعَةٌ ، ودَوْلَةُ الحَقِّ إلى قِيام السَّاعَة . والحَقُّ قُوَّتُه ذاتيَّة دائمة راسخة ، أمَّا الباطلُ فَقُوَّته وهميَّة زائلة لأنها مُستمدة من عوامل إسناد خارجيَّة . وللباطلِ جَوْلَةٌ ثُمَّ يَضمحل ، وللحَقِّ دَوْلَةٌ لا تَنخفض ولا تَذِل ، والعاقلُ لا يُبْطِل حَقًّا ، ولا يُحِق باطلًا ، والرُّجُوعُ إلى الحَقِّ خَيْرٌ مِن التمادي في الباطل . والتدافعُ بَين الحَقِّ والباطلِ أمْرٌ حَتْمِيٌّ ، وسُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ في كَوْنِه . والحَقُّ والباطلُ ضِدَّان لا يَجتمعان، ونَقيضان لا يَلْتقيان ، بَلْ لَمْ يَزَلْ أحدُهما يَنْفِر مِنَ الآخَر ، ويُدافِعه ، حتى يُزيلَه ويَطْرُدَه ، أوْ على الأقل يُضْعِفه ويَمْنعه مِن أن يَكُون له تأثير في واقع الحياة ، لذلك فَمَنْ حاولَ الجَمْعَ بَين الحَقِّ والباطلِ لَمْ يَجتمعا له ، وكان الباطلُ أَوْلَى به . والعجيبُ أنَّ أهْلَ الباطل لا يَكْفِيهم بَقَاؤُهم على باطلهم ، وإنَّما يَسْعَوْنَ إلى إزالةِ الحَقِّ وتَدميرِ أهْلِه ، وصَدِّ الناسِ عَنْهُ بِكُلِّ مَا أُوتُوا مِن قُوَّة ، وَيَحْتَالُون في إضْلالِهم بِكُلِّ حِيلة ، وإمالتهم إلَيهم بِكُلِّ وَسيلة . والباطلُ مَهْمَا مَلَكَ مِنَ القُوَّةِ والعَتَادِ دائمًا ذليل ، والحَقُّ دائمًا عزيز . والثابت بيقين أنَّ الغَلَبَةَ دائمًا للحَقِّ ، أمَّا الباطلُ فَأمْرُه إلى زَوَال واضمحلال ، وتِلْك سُنَّةٌ إلَهِيَّةٌ لا تَتَخَلَّف أبدًا .

ويَجِب أنْ يُعْرَف أنَّه إذا كان النَّصْرُ أمْرًا لا شَك فيه ، فَإنَّه لا يَأتي دُون جُهْدٍ عظيم يُبْذَلُ وتضحيات جليلة تُقَدَّم ، كَمَا أنَّه قَدْ يَتَأخَّر ، لأنَّ اللَّهَ تعالى يُريد لأهْلِه النَّصْرَ الأكبرَ والأكملَ

والأعظمَ والأكثر تأثيرًا في واقع الحياة وفي عُموم الناس ، يدلُّ على ذلك أنَّ نَصْرَ النبيِّ ﷺ وصحابته _ رَضِيَ اللَّهُ عنهم _ ، لَمْ يَحْصُلْ في يوم ولَيْلة ، ولا سَنَة واحدة ، وإنَّما تَأخَّرَ مُدَّة ، ثُمَّ جاءهم النَّصْرُ الإلهيُّ الذي دَخَلَ بسببه الناس في دِين اللَّهِ أفواجًا .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أفَلَمْ يَسِيرُوا في الأرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [يُوسُف : ١٠٩] .

أفَلَمْ يَسِرْ كُفَّارُ مَكَّة في الأرضِ فَيَنظروا نَظَرَ تَفَكُّرٍ وتَدَبُّرٍ إلى مَصَارِعِ الأُمَمِ المُكَذِّبَةِ فَيَعْتبروا بهم حَتَّى يَنْزِعُوا عَمَّا هُم فِيه مِن التكذيب ؟ ، والاستفهامُ للتَّوبيخ . لقد أهلكهم اللَّهُ بتكذيبهم الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ .

وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٣١٥) : ((قَوْلُه : ﴿ أفَلَمْ يَسِيرُوا في الأرْضِ ﴾ ، يَقُول تعالى ذِكْرُه : أفَلَمْ يَسِرْ هؤلاء المُشركون الذين يُكَذِّبُونك يَا مُحَمَّد ، ويَجْحَدُون نُبُوَّتَكَ ، ويُنكِرُون مِا جِئتهم بِه مِن تَوحيدِ اللَّهِ وإخلاصِ الطاعةِ والعِبادةِ له ، ﴿ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ إذْ كَذَّبُوا رُسُلَنا ؟ ، أَلَمْ نُحِل بِهم عُقوبتنا فَنُهْلِكْهُم بِها ، ونُنَجِّ مِنها رُسُلَنا وأتْبَاعَنَا ، فَيَتفكروا في ذلك ويَعْتبروا ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أفَلَمْ يَسِيرُوا في الأرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإنَّهَا لا تَعْمَى الأبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ التي في الصُّدُورِ ﴾ [الحَج : ٤٦] .

أفَلَمْ يُسَافِرْ كُفَّارُ مَكَّة الذين يَرفضون وَحدانيةَ اللَّهِ ويَجْحَدُون نُبُوَّةَ مُحَمَّد ﷺ ، في البِلاد ، ويَرَوْا هذه القُرَى المُدَمَّرة ، فَيَعْتبروا ويَتَّعِظُوا بِما حَلَّ بأصحابها مِن العُقوبة والعَذاب ، ويَحْرِصُوا على عَدَم نُزول العذاب الإلهيِّ بِهم كما نَزَلَ بالأُمَم الكافرة قبلهم ؟ . واللَّهُ يَحُثُّهم على السَّفَر لِيَرَوْا مَصَارِعَ الأقوام التي أهلكها اللَّهُ بِكُفْرِهم وضَلالِهم ، ويَتَّعِظُوا بمصيرها السَّيئ .

أفَلَمْ يَسيروا في الأرض فَيُشاهِدوا بأعينهم مَصَارِعَ الكافرين مِن الأُمَم السابقة ، ومَوَاضِعَ هَلاكِهم وعَذابِهم ، فَيَتفكروا ويَعْتبروا ويَتَّعظوا ، ويُدْرِكوا أنَّ مصير الكافرين المُكَذِّبين هو الهَلاك والعذاب ، وأنَّ عذاب اللَّه شديد وأليم واستئصالي ، فَيَتركوا الشِّرْكَ ، ويَعبدوا اللَّهَ وَحْدَه ، ويَلتزموا أوامرَه، ويَجتنبوا نَوَاهيه ؟. وكُفَّارُ مَكَّة قَدْ سَافَرُوا كثيرًا في حياتهم للتِّجَارةِ وغَيْرِها، ولَكِنَّهم لَمْ يُسافروا للاتِّعَاظ بمواضع هلاك الأُمَم السابقة والاعتبار بأحوالهم . لذلك ، تَمَّ اعتبارُهم غَيْر مُسافرين ، ودُعُوا إلى ذلك. واللَّهُ يُنكِر على أهل مَكَّة عدم الاعتبار بالآثار والأطلال وبقايا الدِّيَار ، وعدم الاتِّعَاظ بمصير الأُمَم السابقة التي كَفَرَتْ باللَّهِ تعالى، وكَذَّبَتْ أنبياءه عليهم الصلاة والسلام.

والسَّيْرُ في الأرض إنَّما هُوَ سَيْرٌ بالأبدانِ والفِكْرِ مَعًا . السَّيْرُ بالأبدان لِمُشاهدة مواقع هلاك الكافرين وعذابهم ، والسَّيْر بالفِكْرِ لتحليلِ هذه المَشَاهِد ، وأخذِ الدُّروس والعِبَر مِنها .

وفي تفسير ابن كثير (٣ / ٣٠٥) : ((قال بعضُ الحُكَماء : أَحْيِ قَلْبَكَ بالمواعظ ، ونَوِّرْهُ بالتَّفَكُّر ، ومَوِّتْهُ بالزُّهْد ، وقَوِّهِ باليقين ، وذَلِّلْهُ بالمَوْتِ ، وقَرِّرْهُ بالفَنَاء ، وبَصِّرْهُ فَجَائعَ الدُّنيا ، وحَذِّرْهُ صَولةَ الدَّهْرِ وفُحْشَ تَقَلُّبِ الأيام ، واعْرِضْ عليه أخبارَ المَاضِين، وذَكِّرْهُ مَا أصابَ مَن كان قَبْلَه ، وسَيِّرْهُ في دِيارهم وآثارهم ، وانظُرْ مَا فَعَلُوا ، وأيْنَ حَلُّوا ، وعَمَّ انقلبوا ، أي : فانظُروا مَا حَلَّ بالأُمَم المُكَذِّبة مِن النِّقَم والنَّكَال)) .

واللَّـهُ يَـدْعُوهم إلـى التَّفَكُّـرِ والتفكيـر والاعتبـار والاتِّعَـاظ، ومَعرفـةِ حُجَـجِ اللَّـهِ علـى خَلْقِـه ، وضَـرورة أن يَفْهَمُـوا الإيمـانَ والتَّوحيـد ، ويَعْرفوهمـا حَقَّ المَعرفـة . ويَنبغي أن يَسـتمعوا إلـى الحَقِّ والمَواعظِ والإرشادات وأخبار الأُمَم السابقة الهالكة التي مَصْدَرُها الوَحْيُ الإلهيُّ .

وقَـد أُضِـيفَ العَقْـل إلى القَلْـب ، لأنَّ القَلْـب هـو مَحَـلُّ العقـل ، كمـا أنَّ الأُذُن مَحَـلُّ السـمع . وقَد جَعَلَ اللَّهُ الجَوارحَ والحَوَاس خاضعةً للقلب ، وتابعةً له . ومَا استقرَّ في القلب ظَهَرَ عليها . والقلبُ مَلِكُ الأعضاء ، وأمْرُ المَلِكُ يَسْرِي على كُلِّ مَن هُوَ دُونَه .

وقـال الثعـالبي فـي تفسـيره (٣/ ٨٣) : ((وَبَّخَهُـم تعـالى علـى الغَفلـة وتَـرْكِ الاعتبـار بِقَوْلِـه : ﴿ أفَلَـم يَسـيروا فـي الأرضِ فَتَكُونَ لهـم قُلـوبٌ يَعْقِلُونَ بِهـا ﴾ . وهـذه الآيـة تَقْتضـي أنَّ العقـل فـي القلب،وذلك هو الحَق،ولا يُنكَر أنَّ للدِّمَاغ اتِّصَالًا بالقلب يُوجب فساد العقل متى اخْتَلَّ الدِّمَاغ)).

وفي حقيقة الأمر، إنَّ العَمَى الحقيقي لَيْسَ الذي يُصِيب البَصَرَ ، وإنَّما الذي يُصيب البصيرةَ . والقلبُ الأعمى لا فائدة مِنه ، لأنَّه لا يَعْتبر ولا يَتَّعظ ولا يَستوعب حقيقةَ الإيمان . وأعمى البَصَرِ يَستطيع رُؤيةَ الآيات والتفكر بها والاعتبار والاستدلال . أمَّا أعمى القلب فلا يَتفكر ولا يَتَّعظ . والمُشكلةُ إنَّما كانت في بصائر الكافرين لا أبصارهم، والخَلَلُ في عُقولهم لا حَوَاسِّهم ، لأنَّهُم غارقون في تقليد آبائهم ، ومُتَّبِعُون لأهوائهم وشَهَوَاتهم ، ومُنْهَمِكُون في غَفْلتهم وضلالهم .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٩١) : ((معناه أنَّ العَمَى الضَّار هو عَمَى القلب ، فأمَّا عَمَى البَصَر فليس بضار في أمر الدِّين . قال قَتادة : البَصَر الظاهر : بُلغة ومُتعة ، وبَصَرُ القلب : هو البَصَر النافع)) .

وقال ابنُ حَزْم في الإحكام (١ / ٩) : ((وقال بعضُ السلف الصالح : تَرَى الرَّجُلَ لَبِيبًا دَاهِيًا فَطِنًا ، ولا عَقْلَ له ، فالعاقلُ مَن أطاعَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ)) .

أَبُنَيَّ إنَّ مِنَ الرِّجَالِ بَهِيمَةً في صُورَةِ الرَّجُلِ السَّمِيعِ المُبْصِرِ
فَطِنٌ بِكُلِّ مُصِيبَةٍ في مَالِهِ وإذا أُصِيبَ بِدِينِهِ لَمْ يَشْعُرِ

والقُلُوبُ لا تُوجَد إلا في الصُّدُور ، وهذا أَمْرٌ مَعروف للجميع . لذلك كانت الآية : ﴿ التي في الصُّدورِ ﴾ للتأكيد على الكلام وتَوكيده ، وإثبات الأمر على حقيقته ، ونَفْي تَوَهُّمِ المَجَاز .

وقال ابنُ الجَوْزي في زاد المسير (٥/ ٤٣٩): ((قَوْلُه تعالى : ﴿ أفَلَمْ يَسيروا ﴾ . قال المُفَسِّرُون : أفَلَمْ يَسِرْ قَوْمُكَ في أرضِ اليَمَنِ والشام ، ﴿ فَتَكُونَ لهم قُلوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ﴾ إذا نَظَرُوا آثارَ مَن هَلَكَ، ﴿ أوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ﴾ أخبارَ الأُمَم المُكَذِّبَة ﴿ فَإنَّهَا لا تَعْمَى الأبصارُ ﴾، قال الفَرَّاء: الهاء في قَوله: ﴿ فَإنَّهَا ﴾ عِمَاد ، والمَعنى أن أبصارهم لَمْ تَعْمَ ، وإنَّما عَمِيَتْ قُلُوبُهُم. وأمَّا قَوْلُه : ﴿ التي في الصُّدورِ ﴾ ، فهو تَوكيد ، لأنَّ القلب لا يَكُون إلا في الصَّدْر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا في الأرضِ فانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العَنكبوت : ٢٠] .

قُلْ لهؤلاء الكافرين المُنكِرين للبَعْث الذين لا يَعترفون بالثَّوَابِ والعِقاب بعد المَوت : سِيرُوا في الأرض ، فانظُروا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ على كَثْرتهم، واختلاف صُوَرهم وأشكالهم وألوانهم ولُغَاتهم وصِفاتهم وأجناسهم وأحوالهم ، وكَيْفَ قَدَرَ اللَّهُ على خَلْق الشُّعُوب السابقة والأُمَم الماضية ابتداءً مِن العَدَم ، وانظُروا إلى دِيار الأُمَم الماضية ومساكنها وآثارها ، كَيف أهلكهم اللَّهُ وأزالهم مِن الوُجود ، وجَعَلَهُم أثَرًا إثْرَ عَيْن، لِتَعْلَمُوا بذلك كَمالَ قُدرةِ اللَّه المُطْلَقَة، ثُمَّ اللَّهُ الذي أوجدَ الخَلْقَ مِن العَدَم (النَّشْأة الأُولَى) يُعيده عِند البَعْث (النَّشْأة الثانية) ، ومَن قَدَرَ على البَدَاءة، قَدَرَ على الإعادة،والإعادةُ أهْوَنُ وأسهلُ على اللَّه مِن البَدَاءة. إنَّ اللَّهَ قادرٌ على كُلِّ شَيْء، ولا يُعْجِزه شيء . وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٣٠) : ((إنَّ اللَّه على إنشاء جميع خَلْقه بعد إفنائه كَهَيئته قبل فَنَائه ، وعلى غَير ذلك مِمَّا يَشاء فِعْلَه قادر ، لا يُعجِزه شيء أراده)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٨١) : ((﴿ قُلْ سِيرُوا في الأرضِ فانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ﴾ على كَثرتهم ، واختلاف ألوانهم وطبائعهم وألسنتهم ، وانظُروا إلى مساكن القُرُون الماضية والأُمَم الخالية وآثارهم، لِتَعْلَمُوا بذلك كَمَالَ قُدرة اللَّه ،وقِيل إنَّ المعنى:قُل لهم يا مُحمَّد: سِيرُوا . ومَعنى قَوله: ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ﴾ أنَّ اللَّه الذي بَدَأَ النَّشأةَ الأُولَى وخَلَقَها على تلك الكَيفية يُنشئها نَشأةً ثانية عِند البَعْث . والجُملة عَطْف على جُملة ﴿ سِيرُوا في الأرضِ ﴾ داخلة معها في حَيِّز القَوْل . وجُملة ﴿ إنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تَعليل لِمَا قَبْلَها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسيروا في الأرضِ فَيَنظروا كَيْفَ كانَ عاقبةُ الذينَ مِن قَبْلِهِم كانوا أشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً وأثارُوا الأرضَ وعَمَرُوها أكثرَ مِمَّا عَمَرُوها وجاءَتْهُم رُسُلُهُم بالبَيِّناتِ فما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُم وَلَكِن كانوا أنفُسَهُم يَظْلِمُون ﴾ [الرُّوم : ٩] .

أَوَلَمْ يُسَافِرْ هؤلاء المُشركون (كُفَّار مَكَّة) الذين يَجْحَدُون وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ ويُكَذِّبون مُحَمَّدًا ﷺ ، في البِلاد ، فَيَنظروا إلى مَصَارِعِ الأُمَمِ والأقوامِ الذين أهلكهم اللَّهُ بِكُفرهم وضَلالهم ، واستأصلهم بالعذاب، فَيَعتبروا ويَتَّعظوا ؟! . يَنْبغي أن يَسيروا بأجسامهم لرؤية مواطن عذاب الأمم الماضية ، ويسيروا بعقولهم وبصائرهم لتحليل مَشَاهِد العذاب، وسَماع أخبار الماضين، وأخذ الدُّروس والعِبَر مِن هلاكهم وعذابهم وعاقبة أمرهم السَّيئة. والهدفُ مِن دراسة التاريخ هو عدم تَكْرار الأخطاء، لأنَّ تَكْرار الأخطاء يعني الوُصول إلى نَفْس المصير الكارثي (الهلاك والعذاب والدَّمَار والخَراب).

والاستفهامُ في ﴿ أَوَلَمْ يَسيروا في الأرضِ ﴾ للتَّوْبيخ ، لعدم تفكُّرهم في آثار الأمم الماضية ، والاعتبار بها ، والاتِّعاظ بعاقبة أمرها . كانت الأممُ الماضيةُ أقوى أجسامًا مِن كفار مكة ، وأطْوَل أعمارًا ، وأكثر أموالًا وأولادًا ، واسْتَخْرَجُوا المعادنَ مِن باطن الأرض ، وحرثوها للزراعة _ وأهل مكة ليس لهم علاقة بالزِّراعة والحِراثة_ ، واستخدموا أحدث الوسائل لاستغلال الأرض والاستفادة مِنها، وعَمَرُوها بالأبنية والزراعة أكثر مِمَّا عَمَرَها كُفَّارُ مكة ، بسبب طُول أعمارهم وشِدَّة قُوَّتهم . فأهلكهم اللَّهُ وعذَّبهم بِكُفْرِهِم وتكذيبهم لِرُسُلِه ، فَلَمْ تَمْنعهم قُوَّتهم مِن بَأس اللَّهِ تعالى ، ولَمْ يَحْمِهم تَقَدُّمُهم العُمْرَاني والاقتصادي مِن عذاب اللَّه تعالى ، ولَمْ تَعْصِمْهُم قُوَّةُ أجسامهم وكثرة أموالهم وأولادهم مِن العُقوبة والهَلاك . فماذا أنتم فاعلون يا كُفَّار مكة وأنتم أضعف مِنهم وأقل شأنًا مِنهم في كل المجالات؟!.إنَّ الأُمَم الماضية التي أهلكها اللَّهُ وعَذَّبَها كانوا أكثر زراعةً وعِمارةً مِن أهل مكة . وهذا تَهَكُّم بأهل مكة وسُخرية مِنهم واستهزاء بِهم وتَقليل لِشَأنهم .

وجاءتهم رُسُلُهم بالمُعجِزات الواضحة، والبراهين الجَلِيَّة ، والآيات الباهرة ، والأدلة المنطقية، وكُلُّها تُشير إلى وَحدانية اللَّهِ تعالى ، وصِدْقِ رُسُلِه ، فَكَذَّبُوهم ، فعاقبهم اللَّهُ أشدَّ العِقاب ، وأهْلَكَهُم ، وعَذَّبَهم .

واللَّهُ لَمْ يَظْلِمْهُم بهذا العذاب الذي كان سببه الكُفْر باللَّهِ تعالى، وإنكار آياته وتكذيب رُسُله ، ولَمْ يَكُن اللَّهُ لِيُعَذِّبَهم بلا جريمة ولا معصية ، ولَمْ يَكُن اللَّهُ لِيُهْلِكَهُم وهُم مُؤمنون أبرياء أنقياء .

لَقَد أرسلَ اللَّهُ إلَيهم الرُّسُلَ لإرشادهم، ومَنَحَهُم الفُرَصَ لتصحيح أوضاعهم ، وأقامَ عليهم الحُجَّةَ ، وقَطَعَ أعذارَهم ، ولَكِنَّهم ظَلموا أنفسَهم باختيارهم الكُفْر على الإيمان ، وقادوها إلى

الخُلود في عذاب النار ، فاستحقوا الهلاك والعذاب والدمار . وهذا دليل على أنَّهُم لَمْ يُؤْمِنُوا فَعُذِّبُوا وأُهْلِكُوا . أي إنَّ إصرارهم على الكُفْر كان سبب هلاكهم وفَنَائهم وعذابهم. والكُفْرُ أسوأ أنواع الظُّلْم ، حَيث يَظْلِم الكافرُ نَفْسَه ، بأن يَقُودَها إلى الهلاك الشامل والعذابِ الأبديِّ ، وبذلك يَكُون قَد أضاعَ نَفْسَه بِنَفْسِه ، ومَشَى إلى الهاوية السحيقةِ بِرِجْلَيْه .

والإنسانُ قَد يَخدع الآخرين ويَتحايل عليهم ويَظلمهم لتحقيق مصالح شخصية ومنافع معنوية ومادية ، أمَّا أن يَظْلِمَ نَفْسَه ويَخْدَعَهَا ، فهذه هي المُصيبةُ العظيمة ، والكارثةُ الحقيقية .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٨) : ((﴿ أوَلَمْ يَسيروا في الأرضِ فَيَنظروا كَيْفَ كانَ عاقبةُ الذينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ ، تقرير لِسَيرهم في أقطار الأرض ، ونظرهم في آثار المُدمَّرين قَبْلَهم . ﴿ كانوا أشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً ﴾ كَعَاد وثَمُود ، ﴿ وأثارُوا الأرضَ ﴾ وقلبوا وجهها لاستنباط المياه ، واستخراج المعادن ، وزرع البذور وغَيرها، ﴿ وعَمَرُوها ﴾ وعَمَروا الأرض ﴿ أكثرَ مِمَّا عَمَرُوها ﴾ مِن عِمارة أهل مكة إيَّاها ، فإنهم أهل واد غَيْر ذِي زَرْع ، لا تَبَسُّط لهم في غَيْرها ، وفيه تَهَكُّم بهم مِن حيث إنَّهُم مُغْتَرُّون بالدُّنيا ، مُفتخِرون بها ، وهُم أضعف حَالًا فيها ، إذْ مَدَار أمرها على التَّبَسُّط في البلاد ، والتَّسَلُّط على العباد ، والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العِمارة ، وهُم ضُعَفاء مُلْجَؤُون إلى دار لا نفع لها ، ﴿ وجاءَتْهُم رُسُلُهُم بالبَيِّناتِ ﴾ بالمُعْجِزات أو الآيات الواضحات ، ﴿ فما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُم ﴾ لِيَفْعَل بهم مَا تَفْعَل الظَّلَمَةُ فَيُدَمِّرهم مِن غَيْر جُرْم ولا تذكير ، ﴿ ولَكِن كانوا أنفُسَهُم يَظْلِمُون ﴾ ، حَيْث عَمِلُوا مَا أدَّى إلى تَدْميرهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ وكانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ ولا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فَاطِر : ٤٤] .

في الآيةِ استشهادٌ على كُفَّار مَكَّة بما كانوا يَشْهَدُونه في مَسَايرهم إلى الشام واليمن والعِراق مِن آثار المَاضِين وعلامات هلاكهم ودمارهم ، وحَثٌّ على مُشاهدة آثار مَن قَبْلَهُم مِن المُكَذِّبين ، مِن أجْلِ الاعتبارِ والاتِّعَاظ ، وأخذِ الدُّروس والعِبَر ، والعاقلُ مَن اتَّعَظَ بِغَيْرِه .

أوَلَمْ يُسَافِرْ كُفَّارُ مَكَّة ويَمُرُّوا على القُرى التي أهلكها اللَّهُ بسبب كُفْرِ أهْلِها ، فَيَرَوْا آثارَ دمار الأُمَم الماضية حِين كَذَّبُوا أنبياءهم ، ماذا صَنَعَ اللَّهُ بهم ؟ ، إنَّ ذلك هُوَ مِن سُنَّةِ اللَّهِ في المُكَذِّبين التي لا تَتَبَدَّل ولا تَتَحَوَّل،وآثارُ عذابهم ومَا أنزلَ اللَّهُ بِهِم مَوجودة في مساكنهم ظاهرة في منازلهم. والجديرُ بالذِّكْر أنَّ أهل مَكَّة كانوا تُجَّارًا يُسافرون في البِلاد، ويَمُرُّون على القُرى والدِّيَار والأطلال.

وكانوا أقوى مِن أهلِ مَكَّة أجسادًا ، وأطْوَلَ أعمارًا ، وأكثرَ مِنهُم أموالًا وأولادًا ، واللَّهُ تعالى لا يَفُوته شَيْء ، ولا يَخْفَى عليه شَيْء ، ولا يَصْعُب عَلَيْه أمْرٌ في هذا الكَوْن ، إنَّ اللَّهَ بَالغُ العِلْمِ والقُدرةِ ، عَالِمٌ بِشُؤون الخَلْقِ ، قادرٌ عَلى الانتقام مِمَّن عَصَاه .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٤ / ٣١٣) : ((أوَلَمْ يَرَوْا مَا أنزَلْنَا بِعَادٍ وثَمُود وبِمَدْيَن وأمثالِهم لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ، فَتَدَبَّرُوا ذلك بنظرهم إلى مَسَاكنهم ودُورهم ، وبِما سَمِعُوا على التَّوَاتُر بِمَا حَلَّ بِهِم ، أفَلَيْسَ فِيه عِبْرَة وبَيَان لهم ، لَيْسُوا خَيْرًا مِن أُولئك ولا أقوى ، بَلْ كان أُولئك أقوى ، دليلُه قَوْلُه: ﴿ وكانوا أشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ في السَّمَاوَاتِ ولا في الأرْضِ ﴾ أي إذا أرادَ إنزالَ عَذاب بِقَوْم لَمْ يُعْجِزْه ذلك ، ﴿ إنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أوَلَمْ يَسِيرُوا في الأرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وآثَارًا في الأرْضِ فَأخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [غَافِر : ٢١]. أوَلَمْ يَسِرْ هؤلاء المُشركون المُكَذِّبُون بِوَحدانيَّةِ اللَّهِ ونُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ في الأرض ، فَيَرَوْا آثارَ المُكَذِّبين وبَقَايا دِيارهم ، ومَا حَلَّ بِهِم مِن العَذابِ والنَّكَالِ ؟ . لَقَد أرشدهم اللَّهُ إلى الاعتبار بِغَيْرِهِم ، والعاقلُ مَن اعْتَبَرَ بِغَيْرِه واتَّعَظَ بِه .

وكانوا أشدَّ قُوَّةً مِن كُفَّار مَكَّة، وأقوى آثارًا في الأرضِ مِن الحُصُونِ والقُصُورِ والجُنْدِ الأشِدَّاء. ومعَ هذه القُوَّة العظيمة والبأسِ الشديد ، أهلكهم اللَّهُ لَمَّا كَذَّبُوا الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام .

لقد عَذَّبَهم اللَّهُ ، وأهلكهم إهلاكًا فظيعًا بسبب ذُنوبهم ومعاصيهم وإجرامهم وتكذيبهم أنبياءَ اللَّه تعالى ، ومَا كانَ لَهُم أحَد يَدفَع عنهم عذابَ اللَّهِ تعالى ، ولا يَحْمِيهم مِن عِقابه الشديد .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٥١) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : أوَلَمْ يَسِرْ هؤلاء المُقِيمون على شِركهم باللَّهِ المُكَذِّبُون رَسُولَه مِن قُرَيش ، في البِلاد ، ﴿ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ، يَقُول : فَيَرَوْا مَا الذي كان خاتمة أُمَم الذين كانوا مِن قَبْلِهِم مِن الأُمَم الذين سَلَكُوا سبيلَهم في الكُفْرِ باللَّهِ وتَكذيبِ رُسُلِه ، ﴿ كَانُوا هُمْ أشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ، يَقُول : كانتْ تِلْك الأُمَم الذين كانوا مِن قَبْلِهِم أشدَّ مِنهُم بَطْشًا ، وأبقى في الأرض آثارًا ، فَلَمْ تَنْفَعْهُم شِدَّةُ قُوَاهم ، وَعِظَمُ أجسامهم إذْ جاءهم أمرُ اللَّه ، وأخَذَهم بما أجرموا مِن مَعَاصيه ، واكْتَسَبُوا مِن الآثام ، ولكنَّه أبادَ جَمْعَهم ، وصارتْ مَساكنُهم خاويةً مِنهُم بِما ظَلَمُوا ، ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ ، يَقُول : ومَا كانَ لَهُم مِن عذاب اللَّه إذْ جاءهم مِن وَاقٍ يَقِيهم فَيَدْفعه عَنهُم ، كالذي حَدَّثَنَا بِشْر قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد عن قَتَادة ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ يَقِيهم ولا يَنفعهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أفَلَمْ يَسِيرُوا في الأرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أمْثَالُهَا ﴾ [مُحَمَّد : ١٠] .

أفَلَمْ يَسِرْ هؤلاء المُشركون المُكَذِّبون بِوَحدانيَّةِ اللَّهِ ونُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ في الأرض ، لِيَرَوْا مَا حَلَّ بِمَن سَبَقَهم مِن الأُمَم الطاغية والأقوام المُكَذِّبَة ، كَيْفَ كانَ مَآلُهُم ؟، وماذا حَلَّ بِهِم مِن العذاب؟، فَإنَّ آثارَ دِيارهم تُنْبِئ عن أخبارهم وأحوالهم . وهذا تَوبيخٌ مِن اللَّهِ لهم ، لأنَّهُم كانوا يُسافرون إلى الشام فَيَرَوْنَ نِقمةَ اللَّهِ التي أحَلَّهَا بِثَمُود ، ويَرَوْنَ في سَفَرهم إلى اليمن مَا أحَلَّ اللَّهُ بِسَبَأ .

عَذَّبَهُم اللَّهُ أشدَّ العذاب ، وأهْلَكَهُم ، واستأصلَ كُلَّ مَا يَخُصُّهم مِن مَالٍ وبَنِين ومَتَاع ، وصاروا أثَرَ إثْرَ عَيْن . وعِبارةُ " دَمَّرَ عَلَيهِم " أبْلَغ وأقوى تأثيرًا مِن " دَمَّرَهُم " ، لأنَّ مَعناها : أهْلَكَهُم معَ أموالهم ودُورهم وأولادهم ، وأطبقَ عَلَيهِم الهلاكَ إطباقًا ، فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ إلا شَمِلَه الدَّمَار .

وَلِكُفَّارِ مَكَّةَ أمثالُ تِلْك العاقبة الوخيمة والعَذاب المُدمِّر .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٤٧) : ((خَوَّفَ سُبحانَه الكُفَّارَ ، وأرشَدَهم إلى الاعتبار بحال مَن قَبْلَهم ، فقال : ﴿ أفَلَمْ يَسِيرُوا في الأرْضِ ﴾ ، أي : ألَمْ يَسِيروا في أرض عاد وثَمُود وقَوْم لُوط وغَيْرهم لِيَعْتبروا ، ﴿ فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ، أي : آخِر أمْر الكافرين قَبْلَهُم ، فإنَّ آثار العذاب في دِيارهم باقية ، ثُمَّ بَيَّنَ سُبحانَه مَا صَنَعَ بِمَن قَبْلَهُم ، فقال: ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ، والجُمْلَةُ مُسْتَأنَفَة جواب سؤال مُقَدَّر ، والتَّدمير : الإهلاك ، أي : أهْلَكَهُم واسْتَأصَلَهُم ، يُقَال: دَمَّرَه وَدَمَّرَ عَلَيه بمعنى ، ثُمَّ تَوَعَّدَ مُشركي مَكَّة ، فقال: ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أمْثَالُهَا ﴾ أي : لهؤلاء الكافرين أمثالُ عاقبة مَن قَبْلَهم مِن الأُمَم الكافرة . قال الزَّجَّاجُ وابنُ جرير : الضمير في ﴿ أمْثَالُهَا ﴾ يَرْجِع إلى ﴿ عَاقِبَةُ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ، وإنَّما جَمَعَ لأنَّ العواقب مُتَعَدِّدَة بِحَسَب تَعَدُّد الأُمَم المُعَذَّبَة . وقيل : أمثال العُقوبة ، وقيل : الهَلَكَة ، وقيل : التَّدميرة ، والأوَّلُ أوْلَى ، لِرُجوع الضمير إلى مَا هُوَ مَذكور قَبْلَه)) .

٢ــ العِبَر التاريخية في أنباء القُرى

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ألَمْ يَرَوْا كَمْ أهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِن قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ في الأرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَكُمْ وَأرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِين ﴾ [الأنعام : ٦] .

هذه دَعْوَةٌ إلهيَّة للاعتبار والاتِّعَاظ بحال الأُمَم الغابرة التي أهلكها اللَّهُ وعَذَّبَها بسبب تكذيبها للأنبياء. والآيةُ تَحُضُّ على أخذ الدُّروس والعِبَر والاستفادة مِنها. والرؤيةُ هُنا رؤية القلب لا العَين.

أَلَمْ يَرَ المُشركون الذين يُكذِّبون بآياتِ اللَّه ، ويَجْحَدُون نُبُوَّتَكَ يا مُحَمَّد ، ماذا حصل للأُمَم الماضية التي كَفَرَتْ باللَّهِ ، وكَذَّبَتْ أنبياءه ؟ . لقد أهلكهم اللَّهُ وعَذَّبَهم، ومَحَاهم مِن الوُجود، وجَعَلَهُم أثَرًا إثْرَ عَيْن ، ألا يَعْتبرون بحالهم ويَتَّعظون ويأخذون الدُّروس والعِبَر ؟ . أَلَمْ يَعْرِفُوا حالَ الأُمَم الماضية بسماع أخبارهم ورُؤية آثارهم ؟ . إنَّ العاقل مَن اتَّعَظَ بِغَيْرِه ، والجاهل مَن اتَّعَظَ بِنَفْسِه ، ويَنبغي أخذ الفوائد مِن التاريخ لعدم تَكْرار الأخطاء والخطايا .

لَقَد أعطاهم اللَّهُ الأموالَ والأولادَ والجَاهَ وطُولَ الأعمار والقُوَّةَ البدنية والقُوَّةَ العسكرية والرَّخَاءَ الاقتصادي ، ومَنَحَهم أسبابَ التَّقَدُّم والازدهار والحضارة والتَّمكين في الأرض ، مَا لَمْ يُعْطِكُم يا كُفَّار مَكَّة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ١٤٦) : ((والمَعْنى : إنَّا أعْطَيْنَا القُرونَ الذينَ هُم قَبْلَكُم مَا لَمْ نُعْطِكُم مِن الدُّنيا ، وطُولَ الأعمار وقُوَّةَ الأبدان . وقَد أهلكناهم جميعًا ، فإهلاككم وأنتم دُونَهم بالأَوْلَى)) .

وأنزلَ عليهم المَطَرَ مِن السَّمَاءِ غزيرًا دائمًا ، و﴿ مِدْرارًا ﴾ تدلُّ على كثرة المطر في أوقات الحَاجَة وحَسَب المَنفعة والمَصلحة ، وعُبِّرَ عنه بِـ﴿ السماءَ ﴾ ، لأنَّ المَطَرَ يَنْزِل مِن السَّمَاء .

وفي زاد المسير (٣/ ٦) : ((والمُراد بالمِدْرَار المُبَالَغة في اتِّصَال المطر ودَوَامه ، يَعْني أنَّها تُدِرُّ وقت الحَاجَة إليها ، لا أنَّهَا تَدُوم لَيْلًا ونهارًا فَتُفْسِد ، ذَكَرَه ابنُ الأنباري)) .

وجَعَلَ الأنهارَ تَجْري مِن تَحْت أشجارهم ومنازلهم، وهذا يُشير إلى أنَّهُم يَعيشون في رَخَاء وسَعَة ، ويَتَمَتَّعون بِرَغَدِ العَيْشِ والخِصْبِ ، ويَغْرَقُون في النِّعَمِ الإلهيَّة الكثيرة ، لكنَّهم جَحَدُوها ، ولَمْ يَشكُروا اللَّهَ عليها ، فأهلكهم اللَّهُ بسبب كُفْرهم وضلالهم ومَعَاصيهم وآثامهم ، مِمَّا يدلُّ على أنَّ الذُّنُوب سبب العذاب وزوال النِّعَم . وأوجدَ اللَّهُ جِيلًا آخَر بعد إهلاك الجِيل الأول ، وذلك مِن أجْلِ اختبارهم وامتحانهم . فَلْيَحْذَرُوا مِن العُقوبة أيضًا . وهذا يدلُّ على قُدرةِ اللَّهِ المُطْلَقَة ، وسُلطانه الواسع، وحِكْمته الباهرة ، فَهُوَ يُحْيِي ويُمِيت ، ويُوجِد مَن يَشَاء ، ويُفْنِي مَن يَشَاء . وفي هذا دليلٌ على البَعْث ، واحتجاجٌ على مُنكِريه . والآيةُ تَحْمِل تَهديدًا شديدًا لِكُفَّار مَكَّة : احْذَرُوا أن يُصيبكم مَا أصابهم . لا تُكَرِّروا أخطاءهم ، فَيَحِل عليكم العذاب ، وتَنْزِل بِكُم العُقوبة ، ويُهْلِككم اللَّهُ بِكُفْرِكم ومَعاصيكم كما أهلكَ الأُمَمَ التي قَبْلَكُم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٦٩) : ((فَاحْذَرُوا أيُّهَا المُخَاطَبُون أن يُصيبكم مِثْل مَا أصابهم ، فما أنتم بِأعَز على اللَّهِ مِنهُم ، والرَّسُول الذي كَذَّبْتُمُوه أكرم على اللَّهِ مِن رُسُولهم ، فأنتم أَوْلَى بالعذاب ومُعَاجَلَة العُقوبة مِنهُم ، لَوْلا لُطفه وإحسانه)) .

يَنْبغي النظر إلى الأُمَم الخالية التي أُوتِيَتْ مِن أسباب القُوَّة والسَّعَة والقُدرات الفائقة مَا لَمْ يَحْصُل عَلَيه أهل مَكَّة . ومعَ هذا أهلكهم اللَّهُ تعالى وهُم أصحاب التَّمْكِين والمَنَعة . إذَن ، ماذا سَتَكُون حالُ أهل مَكَّة وهُم أضعف مِنهُم بكثير ؟! . إنَّ القادر على إهلاك الجبابرة لن يَعْجِزَ عَن إهلاك الضُّعَفاء . ومِن هُنا تَنْبُع أهميةُ التَّفَكُّر في أحوال الأقوام السابقين الذين اعتمدوا على قُوَّتهم الذاتية والأسبابِ المادية مُعتقدين أنَّها كفيلة بجعلهم صامدين في وجه الأزمات ، وضمان بقائهم على طُول الدَّهْر ، لكنَّ شيئًا مِن هذا لَمْ يَحْدُثْ ، والمُشكلةُ الكُبْرَى في عقليَّة الظالمين عَبْر العُصور، هي اعتقادهم أنَّهُم استثناء مِن القاعدة ، وأنَّ مَا يَنطبق عَلى غَيْرِهم لا يَنطبق عليهم . وهذا الوَهْمُ مَرجعه إلى غُرور القُوَّة الذي يَمنع المَرْءَ مِن رُؤية الأمور على حقيقتها ، فالظالِمُ سائرٌ إلى حَتْفِه بِكُلِّ غُرور وتَكَبُّر . فَقَدْ غَرَّهُ حِلْمُ اللَّهِ عليه ، وطُولُ أمله ، وثَنَاءُ الناس عليه . وَلَوْ كان الظالِمُ قارئًا للتاريخ لأدركَ أنَّ للَّهِ سُنَنًا ثابتة تنطبق على الجميع ، ولا تَتَغَيَّر . وإنَّ الحَضَارات العُظْمَى التي زالتْ، وعُتَاةَ الجَبَابرة الذين ذهبوا إلى غَيْر رَجْعَة، وانتصار المظلوم على الظالم وَلَوْ بَعْد حِين. كُلُّ هذه الأمور تَدْعُو إلى التَّفَكُّرِ مِن أجْلِ اتِّخَاذ القَرَار المُنَاسِب في الوقت المُنَاسِب .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١/ ٣٩٢) : ((﴿ أَلَم يَرَوْا كَمْ أهْلَكْنا مِن قَبْلِهِم مِن قَرْنٍ ﴾ أي: مِن أهل زمان . والقَرْن مُدَّة أغلب أعمار الناس ، وهي سبعون سنة، وقِيل : ثمانون، وقِيل : القَرْنُ أهل عصر فيه نبيٌّ أوْ فائق في العِلْم ، قَلَّت المُدَّةُ أوْ كَثُرَتْ ، واشتقاقه مِن قرنت. ﴿ مَكَّنَّاهُم في الأرضِ ﴾ جَعَلْنَا لهم فيها مَكَانًا ، وقَرَّرْنَاهُم فيها ، وأعْطَيْنَاهُم مِن القُوَى والآلات مَا تَمَكَّنُوا بِها مِن أنواع التَّصَرُّف فيها ﴿ ما لَم نُمَكِّن لكم ﴾ مَا لَمْ نَجعل لكم مِن السَّعَة وطُول المُقام يا أهل مَكَّة ، مَا لَمْ نُعْطِكُم مِن القُوَّةِ والسَّعَةِ في المال والاستظهار في العَدَد والأسباب.﴿ وأرْسَلْنا السماءَ عَلَيهم﴾ أي: المطر أو السَّحَاب أو المِظَلَّة فإن مَبْدَأ المطر منها . ﴿ مِدْرارًا ﴾ أي مِغزارًا ﴿ وَجَعَلْنا الأنهارَ تَجري مِن تَحْتِهم ﴾ فعاشوا في الخِصْب والرِّيف بَين الأنهار والثِّمَار﴿ فأهْلَكْناهُم بِذُنوبِهم ﴾ أي لَمْ يُغْنِ ذلك عَنهُم شيئًا ، ﴿ وأنشَأنا ﴾ وأَحْدَثْنا ﴿ مِن بَعْدِهِم قَرْنًا آخَرِين ﴾ بَدَلًا مِنهُم . والمَعْنَى أنَّه سُبحانَه وتَعَالى كما قَدَرَ على أن يُهْلِكَ مَن قَبْلَكُم كعاد وثَمُود ، ويُنشِئ مكانهم مَن يُعَمِّر بِهم بِلادَه، يَقْدِر أن يَفْعَلَ ذلك بكم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُم يَتَضَرَّعُون﴾ [الأنعام : ٤٢] .

هذه تَسليةٌ للنبيِّ ﷺ ، وتَخفيفٌ عنه ، ورفعٌ لِمَعنوياته . لَقَد أرسلَ اللَّهُ رُسُلًا إلى أُمَم كثيرين مِن قَبْلِكَ يا مُحَمَّد ، فَكَفروا بِهم ، وكَذَّبُوهم ، فأخذهم اللَّهُ بالفقرِ والبُؤْسِ والأسقامِ والأوجاعِ ، لِكَي يَتَضَرَّعُوا إلى اللَّهِ بالتَّذَلُّلِ والإنابةِ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ١٦٨) : ((قَوْلُه : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ ﴾ كلام مُبْتَدَأ مَسُوق لِتَسليةِ النبيِّ ﷺ ، أي : وَلَقَدْ أرْسَلْنا إلى أُمَم كائنة مِن قَبْلِك رُسُلًا فَكَذَّبُوهُم ، ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ ، أي : البُؤس والضُّر ، وقِيل : البأساء : المصائب في الأموال ، والضَّرَّاءُ: المصائب في الأبدان ، وبه قال الأكثر ، ﴿ لَعَلَّهُم يَتَضَرَّعُون﴾ ، أي: يَدْعُون اللَّهَ بِضَرَاعَةٍ مَأخوذ مِن الضَّرَاعَة ، وهي الذُّل)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٨) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ ﴾ ، في الآيةِ مَحذوفٌ ، تقديره : وَلَقَدْ أرْسَلْنا إلى أُمَم مِن قَبْلِكَ رُسُلًا ، فَخَالَفُوهُم ، فأخذناهم بالبأساء ، وفيها ثلاثة أقوال : أحدها أنَّهَا الزَّمَانَة والخَوْف ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، والثاني أنَّهَا البُؤس ، وهو الفَقْر ، قاله ابن قُتَيْبَة ، والثالث أنَّهَا الجُوع ، ذَكَرَه الزَّجَّاج . وفي الضَّرَّاء ثلاثة أقوال : أحدها البَلاء والجُوع ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، والثاني النَّقْص في الأموال والأنفُس ، ذَكَرَه الزَّجَّاج ، والثالث الأسقام والأمراض ، قاله أبو سُلَيمان. قَوْلُه تعالى : ﴿ لَعَلَّهُم يَتَضَرَّعُون﴾ ، أي : لِكَي يَتَضَرَّعُوا . والتَّضَرُّعُ : التَّذَلُّلُ والاستكانةُ . وفي الكلام مَحذوفٌ تقديره : فَلَمْ يَتَضَرَّعُوا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَوْلا إذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ [الأنعام : ٤٣] .

" لَوْلا " للتَّحضيض . هَلَّا تَضَرَّعُوا حِين جاءهم العذاب ، ولَجَؤُوا إلى اللَّهِ تعالى ، ودَعَوْهُ بصدق وإخلاص ، ولكنَّهم لَمْ يَتَضَرَّعوا . وقَسَتْ قُلُوبُهُم ، ولَمْ تَلِنْ للإيمان ، وبَلَغُوا مِن القَسْوَةِ والعِنَاد والاستكبار مَبْلَغًا عظيمًا . وقَسْوَةُ قُلوبهم قادتهم إلى الهلاك . وقَد عَابَ اللَّهُ عَلَيهِم قَسْوَةَ قُلُوبهم ، وعدم خُضوعهم له ، ورَفْض دُعَائه .

والآيةُ تَشتمل على عِتَابٍ إلهيٍّ لهم على تركِ الدُّعَاء ، وتُخْبِر عنهم أنَّهُم لَمْ يَتَضَرَّعُوا معَ قِيَام مَا يَدْعُوهُم إلى التَّضَرُّع .

وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ الذُّنُوبَ والمعاصي والإصرارَ على الكُفْرِ والضَّلالِ .

بَـيَّنَ اللَّـهُ للنَّبِـيِّ ﷺ ووَضَّـحَ لـه حـالَ الأقـوام السـابقة . فقـد أرسـلَ اللَّـهُ إلـيهم رُسُـلًا ، وقَطَـعَ حُجَجَهـم ، وأزالَ أعـذارَهم ، ولكـنَّهُم بَلَغُوا مِـن القَسْـوَةِ والعِنـاد والاسـتكبار مَبْلَغًـا عظيمًـا . فقـد أُخِذُوا بالشِّدَّة والعذاب والعِقاب ، فَلَمْ يَخضعوا للَّهِ ، ولَمْ يُطيعوه . وأصَرُّوا على كُفْرِهم وَضَـلالِهم، وتكذيبهم بالوَحْي والنُّبُوَّةِ . وَلَوْ أنَّهُم عِند مَجِيء العذاب خَضَعُوا للَّهِ ، واسْتَسْلَمُوا لأمْرِه، لَرَفَعَ اللَّـهُ عنهم العذابَ .

وحَسَّـنَ لَهُـمُ الشَّـيطانُ مـا كـانوا يَعملـون مِـن الكُفْـرِ والمعاصـي والآثـام والـذُّنُوب ، وأغْـوَاهم بالإصرار على الكُفْر ، وأغراهم بالشَّهَوَات والمَلَذَّات ، فَتَمَسَّكُوا بالكُفْرِ واسْتَمَرُّوا على الضَّلالِ .

ولَـمْ يَكُـن لَـدَيهِم عُـذر فـي تَـرْك الـدعاء إلا العِنَـاد والاسـتكبار ، ولا مـانع لهـم مِـن التَّضَـرُّع إلا قَسْوَة قُلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم الباطلة التي حَسَّنَهَا لهم الشَّيطان ، وجَمَّلَها لهم .

وطبيعةُ النَّفْسِ البشرية أنَّها تَخضَع للَّهِ عِند الشدائد ، وتَستسلم له في الأزمات والكوارث ، وتَلْجَأ إليـه فـي المصـائب . أمَّـا هـؤلاء القَـوم ، فقـد رَفضـوا أمـرَ اللَّـهِ ، وخَـالَفُوا الطبيعـةَ البشـرية ، وذلـك لِقَسـوةِ قُلـوبهم ، وعِنـادهم ، وغُـروهم ، واسـتكبارهم . وقَسـوةُ القلـبِ نتيجـةٌ للمعاصـي والذُّنُوب والإصرار عليها .

وقال القُرْطبي في تفسيره (٦/ ٣٨٩) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ فَلَوْلا إذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ . لَوْلا تَحْضِيض ، وهي التي تَلِي الفِعْل ، بِمَعنى هَلَّا . وهذا عِتَاب على تَـرْك الدُّعَاء ، وإخبار عنهم أنَّهُم لَمْ يَتَضَرَّعُوا حِين نُزول العَذاب . يَجُوز أن يَكُونوا تَضَـرَّعُوا تَضَـرُّعَ مَن لَـمْ يُخْلِصْ، أوْ تَضَـرَّعُوا حِين لابَسَهم العذاب. والتَّضَرُّعُ على هذه الوُجوه غَيْر نافع. والدُّعَاءُ مَأمور بِه حال الرَّخَاء والشِّدَّة. ﴿ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، أي : صَلُبَتْ وغَلُظَتْ . وهي عِبارة عن الكِبْرِ والإصرار على المَعصية، نَسأل اللَّهَ العافيةَ ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ أي أغْوَاهُم بالمَعَاصِي وحَمَلَهُم عَلَيها)).

وفي الـدُّر المَنثور (٣ / ٢٦٨) أنَّ قَتَـادة قـال : ((ولا تَعَرَّضُـوا لِعُقوبـةِ اللَّـهِ بالقَسْـوَة ، فإنَّـه عَابَ ذلك على قَوْم قَبْلَكم)) .

لا يُمكِن للعاقل أن يَستهين بِقَسْوَةِ القلب ، أوْ يَعتبر المشاعرَ والأحاسيس مُجَرَّد رَفَاهِيَة وكَمَالِيَّات لا وَزْنَ لها . فالأمرُ لا يَتَعَلَّق بِقِصَّة حُب رُومانسيَّة ، أوْ أُغْنِيَة عاطفيَّة . إنَّ القضية مُتعلقة بِقُدرة القلب على تَقَبُّل الإيمان أوْ عَجْزه عن ذلك . ومصيرُ الإنسان مُتَوَقِّف على مُحتويات قلبه ، والقلبُ هو مَحَلُّ نَظَر اللَّهِ تعالى. ومَن كانَ قَلْبُه صالحًا فهو نَاجٍ، ومَن كانَ قَلْبُه فاسدًا فهو هالك.

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُون ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

فَلَمَّا تَرَكُوا مَا وُعِظُوا وخُوِّفُوا بِه مِن البَأساءِ والضَّرَّاءِ فَلَمْ يَتَّعِظُوا ، فَتَحَ اللَّهُ عليهم أبوابَ كُلِّ شَيْءٍ مِن النِّعَمِ والخَيراتِ ورَخَاءِ الدُّنيا وسُرُورِها ، مَكْرًا بِهِم ، واستدراجًا لَهُم ، حتى إذا فَرِحُوا بالأموالِ والأولادِ والأرزاقِ، وازدادوا بَطَرًا وغُرورًا واستكبارًا ، أخَذَهُم اللَّهُ بالعَذابِ فَجْأةً ، على حِين غَفْلَةٍ مِنهُم ، فإذا هُم يائسون قانطون مِن كُلِّ خَيْر . إنَّهُم أُعْجِبُوا بِما أُعْطُوا مِن النِّعَمِ ، فازدادوا بَطَرًا، واشتغلوا بالنِّعَمِ ، ونَسُوا المُنْعِمَ ، ولَمْ يَقُوموا بِحَقِّهِ سُبحانَه وتعالى . والجديرُ بالذِّكْرِ أنَّ أخْذَهُم في حَالِ فَرَحِهِم وسُرُورِهِم لِيَكُونَ أشَدَّ لِتَحَسُّرِهِم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٧٩) : ((﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ، أي: أعْرَضُوا عَنْهُ، وتَنَاسَوْهُ ، وجَعَلُوه وراء ظُهورهم ، ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، أي : فَتَحْنَا عليهم أبوابَ الرِّزْق مِن كُلِّ مَا يَختارون ، وهذا استدراج مِنْهُ تعالى ، وإملاء لهم ، عِيَاذًا باللَّهِ مِن مَكْرِه ، ولهذا قال : ﴿ حَتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ ، أي : مِن الأموالِ والأولاد والأرزاق ، ﴿ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ ، أي : عَلى غَفْلَة ، ﴿ فَإِذَا هُم مُبْلِسُون ﴾ ، أي : آيِسُون مِن كُلِّ خَيْرٍ . قال الوالبي عن ابن عباس : المُبْلِس : الآيِس . وقال الحسن البَصْري : مَن وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيه فَلَمْ يَرَ أنَّهُ يَمْكُر بِه فلا رأي له ، ومَن قَتَّرَ عَلَيه فَلَم يَرَ أنَّه يَنظُر له فلا رأي له ، ثُمَّ قرأ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُون ﴾ . قال : مَكَرَ بالقَوْمِ وَرَبِّ الكَعْبَة ، أُعْطُوا حَاجَتَهُم ثُمَّ أُخِذُوا . رواه ابن أبي حاتم . وقال قَتَادَة : بَغَتَ القَوْمَ أمْرُ اللَّهِ ، ومَا أَخَذَ اللَّهُ قَوْمًا قَط إلا عِند سَكْرتهم وغِرَّتهم ونِعْمتهم ، فلا تَغْتَرُّوا باللَّهِ ، فإنَّه لا يَغْتَر باللَّهِ إلا القَوْمُ الفاسقون . رواه ابن أبي حاتم أيضًا . وقال مالك عن الزُّهْري : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، قال : رَخَاء الدُّنيا ويُسْرها)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ١٦٨) : ((قَوْلُه : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ، أي : تَرَكُوا مَا ذُكِّرُوا بِه ، أوْ أعْرَضُوا عَمَّا ذُكِّرُوا بِه ، لأنَّ النِّسيان لَوْ كان على حقيقته لَمْ يُؤَاخَذُوا به ، إذْ لَيْسَ هُوَ مِن فِعْلِهِم ، وبه قال ابن عباس وابن جُرَيج وأبو علي الفارسي . والمعنى : أنَّهُم لَمَّا تَرَكُوا الاتِّعَاظَ بِما ذُكِّرُوا بِه مِن البَأساءِ والضَّرَّاءِ ، وأعْرَضُوا عن ذلك ، ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : لَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِه استدرجناهم بفتح أبواب كُلِّ نَوْع مِن أنواع الخَيْر عليهم ، ﴿ حَتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ مِن الخَيْرِ على أنواعه فَرَحَ بَطَر وأَشَر ، وأُعْجِبُوا بذلك، وظَنُّوا أنَّهُم إنَّما أُعْطُوه

لِكَوْنِ كُفْرهم الذي هُم عليه حَقًّا وصَوَابًا ، ﴿ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ ، أي : فَجْأَةً ، وهُم غَيْر مُتَرَقِّبِين لذلك ، والبَغْتَةُ : الأخذُ عَلى غِرَّة مِن غَيْر تَقْدِمَة أَمَارَة . قَوْلُه : ﴿ فَإِذَا هُم مُبْلِسُون ﴾ ، المُبْلِسُ : الحزينُ الآيِسُ مِن الخَيْرِ لِشِدَّةِ مَا نَزَلَ بِه مِن سُوء الحال ، ومِن ذلك اشْتُقَّ اسم إبليس . ... . والمَعنى : فإذا هُم مَحْزُونون مُتَحَيِّرُون آيِسُون مِن الفَرَح)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الذينَ ظَلَمُوا وَالحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ [الأنعام: ٤٥].

اسْتُؤْصِلُوا بالعذابِ ، وهَلَكُوا عَن آخِرِهم ، فَلَمْ يَبْقَ مِنهُم باقية ، بسبب كُفْرِهم باللَّهِ ، وتكذيبهم لِرُسُلِه عليهم الصلاة والسلام ، والثَّنَاءُ الكاملُ والشُّكْرُ التام للَّهِ رَبِّ العَالَمِين على نَصْرِ الرُّسُلِ ، وإهلاكِ الكافرين .

ولا شَك أنَّ هَلاكَ الكُفَّارِ والطُّغَاةِ والعُصَاةِ تَخليصٌ لأهلِ الأرضِ مِن شُؤْمِ عقائدهم ، وسُوءِ أعمالهم ، وهذه نِعمة جليلة يَجِب أن يُحْمَد اللَّهُ عليها .

وفي الآيةِ تَعليمٌ للمُؤمنين كَيْفَ يَحْمَدُون اللَّهَ سُبحانَه عِند نُزول النِّعَم التي مِن أجَلِّهَا هَلاكُ الظالمين الذين يُفْسِدُون في الأرض ، فإنَّهُم أشَدُّ على الناس مِن كُلِّ المصائبِ والكوارثِ .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ١٤٤) : ((﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الذينَ ظَلَمُوا ﴾ ، أي : آخِرُهُم. ... . ومَعْنَاه أنَّهُم اسْتُؤْصِلُوا بالعذاب، فَلَمْ يَبْقَ مِنهُم باقية، ﴿ وَالحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ حَمِدَ اللَّهُ نَفْسَه على أن قَطَعَ دَابِرَهم ، لأنَّه نِعْمَة على الرُّسُل ، فَذَكَرَ الحَمْدَ للَّهِ تَعليمًا لَهُم وَلِمَن آمنَ بهم أن يَحْمَدُوا اللَّهَ على كِفَايته شَرَّ الظالمين ، وَلْيَحْمَدْ مُحَمَّدٌ ﷺ وأصحابُه رَبَّهُم إذا أهْلَكَ المُكَذِّبين)) .

وعَن عُقْبَة بن عامر عن رسول اللَّه ﷺ قال : ((إذا رأيتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي العَبْدَ ما يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ على مَعَاصِيه ، فإنَّما ذلك له مِنْهُ استدراج))،وَنَزَعَ بهذه الآية: ((﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُون (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الذينَ ظَلَمُوا وَالحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِين (٤٥) ﴾)) [٢] .

مِن سُنَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في كُلِّ زمان ومكان : الإمهالُ للعاصي واستدراجُه بما يُحِبُّ حتى يَفْرَح ويَغْتَر ، ثُمَّ يَأتِيَه عِقَابُ اللَّه على حِين غَفْلَة . وبَسْطُ الدُّنيا للعاصي لَيس دليلًا على كرامته على اللَّه

---

٢ رواه البَيهقي في شُعَب الإيمان (٤ / ١٢٨) برقم (٤٥٤٠) . وقال العِراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٤٨) : ((رواه أحمد والطبراني والبَيهقي في الشُّعَب بسند حسن)) .

عَزَ وَجَلَّ ، أوْ مَحَبَّة اللَّه عَزَّ وَجَلَّ له ، بَل الحقيقة أنَّ ذلك مِن مَكْر اللَّه به ، فَيُعطيه مِن الدُّنيا مَا يُحِب ، ويَمنحه الصِّحَّةَ والأموالَ والأولادَ والنِّعَمَ المُختلفة ، فَيَغْتَر ويَفْرَح ، ثُمَّ يأخذه اللَّهُ بَغْتَةً ، فلا يُغْنِي عنه ذلك شيئًا .

والحديثُ يُوضِّح حَقَارَةَ الدُّنيا عِند اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، ولحقارتها عِنده لَم يَجعلها ثوابًا للطائعين ، كما لَم يَجعل الحِرمانَ مِنها عُقوبةً للعَاصِين . واللَّهُ يَبْسُط الدُّنيا لأهل المعصية ، ويُبْعِدها عن أهل الطاعة، وما ذاك إلا لدناءتها . وأمَّا الجَنَّة فَلِقَدْرِها وعَظَمَتها جَعَلَها اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ثوابًا لأهل طاعته، وجَعَلَ الحِرمانَ مِنها عِقَابًا لأهل معصيته .

إنَّ اللَّه يَستدرج العَاصِي ، أي : يأخذه قليلًا قليلًا إلى مَا يُهْلِكُه . يُدْنِيه مِن العذاب دَرَجَةً دَرَجَةً بالإمهال ، وإدامة الصِّحَّة ، وازدياد النِّعْمَة ، ثُمَّ يأخذه على حِين غَفْلَة مِنه ، وهو سَاهٍ لاهٍ .

وقال المُناوي في فَيض القدير (١/ ٣٥٤ و٣٥٥) : (((إذا رأيتَ اللَّهَ تعالى) أي: عَلِمْتَ أنَّه (يُعْطِي العبدَ) عبَّر بالمُضَارِع إشارةً إلى تَجَدُّد الإعطاء وتَكَرُّره (مِنَ الدُّنيا) أي : مِن زَهْرَتها وزِينتها (ما يُحِبُّه) أي : العبد ، مِن نَحْو مال وولد وجاه (وهو مُقِيم) أي والحال أنَّه مُقِيم (على مَعَاصيه) أي عاكف عليها مُلازِم لها (فإنَّما ذلك) أي : فاعْلَمُوا أنَّما إعطاؤه ما يُحِبُّ مِنَ الدُّنيا (مِنْهُ) أي: مِنَ اللَّه (استدراج) أي : أخذ بتدريج واستنزال مِن دَرَجَة إلى أُخْرَى ، فَكُلَّمَا فَعَلَ مَعصيةً قَابَلَهَا بِنِعْمَة ، وأنساه الاستغفارَ ، فَيُدْنِيه مِن العذاب قليلًا قليلًا ، ثُمَّ يَصُبُّه عليه صَبًّا . قال إمام الحَرَمَيْن : إذا سَمِعْتَ بحال الكُفَّار وخُلودهم في النار ، فلا تَأمَنْ على نَفْسِك ، فإنَّ الأمر على خَطَر، فلا تدري ماذا يَكُون ، وما سَبَقَ لَكَ في الغَيْب ، ولا تَغْتَر بصفاء الأوقات ، فإنَّ تَحتها غوامض الآفات . وقال عليٌّ كرَّم اللَّهُ وَجْهَه : كَم مِن مُسْتَدْرَج بالإحسان ، وكَم مِن مَفتون بِحُسْن القَول فيه ، وكَم مِن مَغرور بالسَّتْر عَلَيه . وقِيل لِذِي النُّون : ما أقْصَى ما يُخْدَع به العبد ؟ قال : بالألطاف والكَرَامات ، ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِن حَيْثُ لا يَعْلَمُون ﴾ [القَلَم : ٤٤] . وفي الحِكَم : خِفْ مِن وُجود إحسانه إلَيك ، ودَوَام إساءتك مَعَه ، أن يكون ذلك استدراجًا . والاستدراجُ الأخذُ بالتَّدريج لا مُبَاغَتَةً . والمُراد هُنا تقريبُ اللَّهِ العبدَ إلى العُقوبة شيئًا فشيئًا ، واستدراجه تعالى للعبد أنَّه كُلَّمَا جَدَّدَ ذَنْبًا جَدَّدَ له نِعْمَةً ، وأنساه الاستغفارَ ، فَيَزداد أَشَرًا وَبَطَرًا ، فيندرج في المعاصي بسبب تَوَاتُر النِّعَم عليه ظَانًّا أنَّ تواترها تقريب مِن اللَّه ، وإنَّما هو خِذلان وتبعيد)) .

وقال السُّيوطي في الدُّر المنثور (٣/ ٥٠٧): ((وأخرج ابن أبي حاتم عن إسماعيل بن رافع قال : مِن الأمن لِمَكْر اللَّه إقامة العبد على الذَّنْب يَتَمَنَّى على اللَّه المغفرةَ)) .

مَن ارتكبَ ذَنْبًا فتجب عليه التَّوبة فَوْرًا بشُروطها الأربعة : الإقلاعُ عن الذَّنْب ، والنَّدَمُ ، والاستغفارُ، والعَزْمُ على عدم العَودة إلَيه . وإذا كانت التَّوبةُ مِن مَظَالِم العِبَاد في مال أوْ عِرْض أو نَفْس ، أوْ غَير ذلك ، فتزيد شرطًا خامسًا ، وهو التَّحَلُّل مِن صاحب الحق ، أوْ إعطاؤه حَقَّه .

أمَّا إقامةُ العبد على الذَّنْب بلا تَوبة ، ويتمنَّى على اللَّه المَغفرةَ ، فهذا مِن الأمن لِمَكْرِ اللَّه . وقد فسَّر بعضُ العُلماء المَكْرَ بأنَّ اللَّه يَستدرجهم بالنِّعَم إذا عَصَوْهُ ، مِن صِحَّة الأبدان ورَغَدِ العَيش ، وغَيْرِها ، ويُمْلِي لهم ، ثُمَّ يأخذهم أخذَ عَزيزٍ مُقتدِر .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وكَم مِن قَرْيَةٍ أهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أوْ هُمْ قَائِلُون ﴾ [الأعراف: ٤].

وكثيرٌ مِن القُرى أهلكناها بِمُخالفة الأنبياء وتَكذيبهم ، فأعقبهم ذلك خِزْي الدُّنيا مَوصولًا بِذُلِّ الآخِرة . والمُرادُ بالقريةِ أهْلُها . و " كَم " تدلُّ على الكثرة ، و " رُبَّ " مَوضوعة للقِلَّة . والمَعنى : وكَم مِن أهل قرية ، فَحُذِفَ الأهل ، لأنَّ في الكلام دليلًا عليه .

فجاءها عذابُ اللَّهِ لَيْلًا ، أوْ جاءها عذابُ اللَّهِ وهُم قائلون ، والقَيلولةُ استراحةُ نِصْف النهار إذا اشتدَّ الحَرُّ ، وإنْ لَمْ يَكُن معها نَوْم . جاءهم عذابُ اللَّهِ وهُم غافلون غَيْر مُتَوَقِّعِين له ، إمَّا لَيْلًا وهُم نائمون ، أوْ نهارًا وهُم قائلون. وتَخصيصُ هَذَين الوَقْتَيْن ، لأنَّهُمَا وَقْتَان للسُّكُونِ والرَّاحَةِ ، فَمَجِيء العذاب فِيهما أشد وأفْظَع ، لِمَا فِيه مِن البَغْتَة والفَجْأة .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٢١٣) : ((﴿ وكَم مِن قَرْيَةٍ أهْلَكْنَاهَا ﴾ بالعذاب ، و " كَم " للتَّكثير ، و (رُبَّ) للتقليل ، ﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ عَذَابُنَا ﴿ بَيَاتًا ﴾ لَيْلًا ﴿ أوْ هُمْ قَائِلُون ﴾ مِن القَيلولة ، تَقديرُه : فجاءها بأسُنا لَيْلًا وهم نائمون ، أوْ نهارًا وهُم قائلون ، أي : نائمون ظَهِيرةً ، والقَيلولةُ : الاستراحة نِصْف النهار ، وإنْ لَمْ يَكُن مَعَهَا نَوْم . ومعنى الآية : إنَّهُم جاءهم بأسُنا وهُم غَيْر مُتَوَقِّعِين له إمَّا لَيْلًا أوْ نهارًا . قال الزَّجَّاج : و " أوْ " لِتَصريفِ العذاب مَرَّةً لَيْلًا ، وَمَرَّةً نهارًا . وقِيل : مَعْنَاه : مِن أهْلِ القُرى مَن أهلكناهم لَيْلًا ، ومِنهُم مَن أهلكناهم نهارًا . فَإنْ قِيل : مَا مَعْنَى ﴿ أهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ ؟ ، فكيف يَكُون مَجِيء البأس بعد الهَلاك ؟ ، قِيل : مَعْنَى قَوْلِه : " أهْلَكْنَا " ، أي : حَكَمْنَا بإهلاكها فَجَاءَهَا بَأسُنَا . وقِيل : ﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ هُوَ بَيَان قَوْلِه : ﴿ أهْلَكْنَاهَا ﴾ ، مِثْل قَوْل القائل : أعْطَيْتَنِي فأحسنتَ إلَيَّ ، لا فَرْق بَيْنَه وبَيْن قَوْلِه : أحسنتَ إلَيَّ فَأعْطَيْتَنِي ، فَيَكُون أحدُهما بَدَلًا مِن الآخَر)) .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١ / ٤) : ((﴿ وكَم مِن قَرْيَةٍ ﴾ وكثيرًا مِنَ القُرَى ﴿ أهْلَكْنَاهَا ﴾ أرَدْنَا إهلاكَ أهلها ، أوْ أهلكناها بالخِذلان ، ﴿ فَجَاءَهَا ﴾ فَجَاءَ أهْلَهَا ﴿ بَأْسُنَا ﴾ عَذَابُنَا ﴿ بَيَاتًا ﴾

بائتين كَقَوْمِ لُوط ، مَصْدَر وَقَعَ مَوْقِعَ الحَال ، ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُون ﴾ عطف عليه ، أي : قائلين نِصْف النهار كَقَوْمِ شُعَيب . وإنَّمَا حُذِفَتْ واو الحال استثقالًا لاجتماع حَرْفَي التَّعْبِيرَيْن ، مُبَالَغَةً في غَفْلَتِهِم وأمْنِهِم من العذاب ، ولذلك خَصَّ الوَقْتَيْن ، ولأنهما وَقْت دَعَة واستراحة ، فَيَكُون مَجِيء العذاب فِيهما أفْظَع)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إلا أن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِين﴾[الأعراف:٥].

فَمَا كانَ دُعَاؤُهُم واسْتِغَاثَتُهُم وتَضَرُّعُهُم حِينَ شَاهَدُوا العّذابَ ، إلا اعترافَهم بِظُلْمِهِم فِيما كانوا عليه تَحَسُّرًا ونَدَامَةً حِين لا يَنفع الندم . لَقَد اعترفوا بِكُفْرِهم وضَلالِهم وذُنُوبِهم بعد فَوَات الأوان . والمَعْنَى: لَمْ يَقْدِرُوا على رَدِّ العذاب،وكانَ حاصلُ أمْرِهم الاعترافَ بالجِنَايَة حِين لا يَنفَع الاعتراف.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٢٧٥) : ((فَمَا كانَ دُعَاؤُهُم رَبَّهُم عِند نُزول العذاب إلا اعترافَهم بالظُّلْمِ على أنفسهم . ... . وقِيل : الدَّعْوَى هُنَا بِمَعنى الادِّعَاء ، والمَعْنَى : مَا كانَ مَا يَدَّعُونه لِدِينِهِم ويَنتحلونه إلا اعترافَهم بِبُطلانه وفَسَاده . واسْمُ كان : ﴿ إلا أن قَالُوا ﴾ وَخَبَرُهَا ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ ، ويَجُوز العَكْس ، والمَعْنَى : مَا كانَ دَعْوَاهُم إلا قَوْلَهُم : إنَّا كُنَّا ظالمين)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا في قَرْيَةٍ مِن نَبِيٍّ إلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُون ﴾ [الأعراف : ٩٤] .

ومَا أرْسَلَ اللَّهُ في قرية مِن نَبِيٍّ فَكَذَّبَه أهْلُها ، إلا عاقبهم اللَّهُ بالبُؤْسِ والفقر والجُوع والمرض، كَي يَتَضَرَّعُوا ويَخضعوا ويَتُوبوا مِن ذُنُوبهم ، ويَتركوا مَا هُم عليه مِن الاستكبار وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣١١) : ((يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَمَّا اخْتَبَرَ بِه الأُمَمَ الماضية الذين أرسلَ إليهم الأنبياءَ بالبأساءِ والضَّرَّاءِ ، يَعْني بالبأساء : مَا يُصِيبهم في أبدانهم مِن أمراض وأسقام ، والضَّرَّاءُ : مَا يُصِيبهم مِن فَقْر وحَاجَة ، ونَحْو ذلك ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُون ﴾ ، أي : يَدْعُون ويَخْشَعُون ويَبْتَهِلُون إلى اللَّهِ تعالى في كَشْفِ مَا نَزَلَ بِهم . وتقديرُ الكلام أنَّه ابتلاهم بالشِّدَّة لِيَتَضَرَّعُوا ، فَمَا فَعَلُوا شيئًا مِن الذي أرادَ مِنهُم ، فَقَلَبَ عليهم الحالَ إلى الرَّخَاء لِيَختبرهم فيه ، ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ ﴾)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُون ﴾ [الأعراف : ٩٥] .

ثُمَّ أعطاهم اللَّهُ بَدَلَ مَا كانوا فيه مِن البَلاءِ والفقرِ والمرضِ الرَّخَاءَ والغِنى والصِّحَّةَ ، كَثُرُوا وَسَمِنُوا وكَثُرَتْ أموالُهم وأولادُهم ، وأبْطَرَتْهُم النِّعمةُ ، فقالوا جِهْلًا وكُفْرًا واستكبارًا بَعْدَمَا صاروا

إلى الرَّخَاء : هذه عادةُ الدَّهْرِ ، وقَد مَسَّ آباءَنا مِثْل ذلك مِن المَصائبِ ومِن الرَّخَاء ، ولَيْسَتْ بِعُقوبةِ مِن اللَّهِ ، فَتَمَسَّكُوا بِدِينِكم ، وكُونوا عَلى مَا أنتم عَلَيه كَمَا كانَ آباؤكم ، فإنَّهُم لَمْ يَتركوا دِينَهم لِمَا أصابهم مِن الضَّرَّاء ، فأخَذَهم اللَّهُ بالهلاكِ والعَذابِ فَجْأةً مِن حَيْث لا يَدْرُون .

إنَّ اللَّهَ ابتلاهم بالسَّيئةِ لِيَتوبوا ويَرجعوا إلَيه ، فَمَا فَعَلُوا ، ثُمَّ ابتلاهم بالحَسَنَةِ لِيَشكروه ، فَمَا فَعَلُوا ، فَلَمَّا فَسَدُوا في الحَالَيْن ، لَمْ يَبْقَ إلا أن يأخذهم بالعذاب ، وقَد أخَذَهُم اللَّهُ بَغْتَةً .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١ / ٤٢) : ((﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ ﴾ ، أي : أعْطَيْنَاهُم بَدَلَ مَا كانوا فِيه مِن البَلاءِ والشِّدَّةِ السَّلامةَ والسَّعَةَ ابتلاءً لَهُم بالأمْرَيْن ، ﴿ حَتَّى عَفَوا ﴾ كَثُرُوا عَدَدًا وعُدَدًا ، يُقَال : عَفَا النَّبَاتُ ، إذا كَثُرَ ، ومِنه إعفاء اللحى ، ﴿ وقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ كُفْرَانًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ ، ونِسْيَانًا لِذِكْرِه ، واعتقادًا بأنَّه مِن عَادَةِ الدَّهْرِ ، يُعَاقِب في الناس بَيْن الضَّرَّاء والسَّرَّاء ، وقَد مَسَّ آباءَنا مِنْه مِثْلُ مَا مَسَّنَا ، ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ فَجْأةً ، ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُون ﴾ بِنُزُولِ العذاب)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ أنَّ أهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

وَلَوْ أنَّ أهلَ القُرى الذينَ كَذَّبُوا وعُذِّبُوا، صَدَّقُوا بِوَحدانيَّةِ اللَّهِ ، وَبِرُسُلِه عليهم الصلاة والسلام، واتَّقَوا الكُفْرَ والمَعَاصِي، وفَعَلُوا الطاعاتِ ، وتَرَكُوا المُحَرَّمَاتِ، لَوَسَّعْنَا عليهم الخَيْرَ مِن كُلِّ جانب، وقِيل : المطر مِن السَّمَاء ، والنَّبَات مِن الأرض . وهذا في أقوام مَخْصُوصِين ، إذْ قَدْ يُمْتَحَن المُؤمنون بِضِيقِ العَيْشِ ، ويَكُون تَكفيرًا لِذُنُوبهم . ولكنْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ ، فعاقبناهم بالهلاك بِسُوءِ كَسْبِهم ، أي : بِما كانوا يَكْسِبُون مِن الكُفْرِ والذُّنُوبِ والمَعَاصِي .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٣٢) : ((واللامُ في ﴿ القُرَى ﴾ للعَهْدِ ، أي : ﴿ وَلَوْ أنَّ أهْلَ القُرَى ﴾ التي أرْسَلْنَا إلَيهِم رُسُلَنَا ﴿ آمَنُوا ﴾ بالرُّسُلِ المُرْسَلِين إلَيهِم ﴿وَاتَّقَوْا ﴾ مَا صَمَّمُوا عَلَيه مِن الكُفْرِ ، ولَمْ يُصِرُّوا على مَا فَعَلُوا مِن القبائح ، ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ ﴾ أي : يَسَّرْنَا لَهُم خَيْرَ السَّمَاءِ والأرضِ ، كما يَحْصُل التَّيسير للأبواب المُغْلَقَة بفتح أبوابها . قِيل: المُراد بِخَيْر السَّمَاء: المطر ، وخَيْر الأرض: النبات. والأَوْلَى حَمْل مَا في الآية على مَا هو أعَمُّ مِن ذلك . ويَجُوز أن تكون اللام في " القُرى " للجِنْس، والمُراد: لَوْ أنَّ أهل القُرى أين كانوا وفي أيِّ بلاد سَكَنُوا ﴿ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ ، إلى آخِرِ الآية ، ﴿ وَلَكِن كَذَّبُوا ﴾ بالآياتِ والأنبياءِ ، وَلَمْ يُؤمِنُوا ، ولا اتَّقَوْا ، ﴿ فَأَخَذْنَاهُم ﴾ بالعذاب بسبب مَا كانوا يَكْسِبُون مِنَ الذُّنُوبِ المُوجِبَة لِعَذابهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أفَأَمِنَ أهْلُ القُرَى أن يَأتِيَهُم بَأسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نائمون ﴾ [الأعراف: ٩٧].

الهمزةُ للإنكار ، أي : هَلْ أَمِنَ هؤلاء الكافرون المُكَذِّبُون (أهل مَكَّة ومَا حَوْلَها) أن يَأتِيَهُم عذابُ اللَّهِ لَيْلًا وهُم نائمون غافلون عنه ؟ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٣٣٢) : ((والاستفهامُ في ﴿ أفَأَمِنَ أهْلُ القُرَى ﴾ للتَّقريعِ والتَّوبيخِ . وأهلُ القُرى هُم أهل القُرى المَذكورة قَبْلَه ، والفاء للعَطْف . ... . وقِيل : المُراد بالقُرى مَكَّة ومَا حَوْلَهَا لتكذيبهم للنَّبِيِّ ﷺ ، والحَمْلُ عَلى العُمُوم أَوْلَى . قَوْلُه : ﴿ أن يَأتِيَهُم بَأسُنَا بَيَاتًا ﴾ ، أي : وَقْت بَيَات، وهو الليل، على أنَّه مَنصوب على الظَّرْفِيَّة . ... . وجُملةُ ﴿ وَهُمْ نائمون ﴾ في مَحَلِّ نَصْب على الحال)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿أوَ أمِنَ أهْلُ القُرَى أن يَأتِيَهُم بَأسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُون ﴾ [الأعراف: ٩٨].

أَمْ هَلْ أَمِنَ أهلُ القُرَى أن يَأتِيَهُم عذابُ اللَّهِ نَهَارًا جِهَارًا ، وهُم سَاهُون لاهُون ، يَلْهُون ويَشتغلون بِمَا لا يُجْدِي ولا يَنْفَع ، كَأنَّهُم يَلْعَبُون ؟ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٣٣٢) : ((والاستفهامُ في ﴿أوَ أمِنَ أهْلُ القُرَى أن يَأتِيَهُم بَأسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُون ﴾ كالاستفهام الذي قَبْلَه ، والضُّحَى ضَحْوَةُ النهار ، وهو في الأصل اسم لِضَوْءِ الشمس إذا أشرقتْ وارتفعتْ . ... . وجُملةُ ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُون ﴾ في مَحَلِّ نَصْب على الحال ، أي : يَشتغلون بِما لا يَعُود عليهم بفائدة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿أفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إلا القَوْمُ الخَاسِرُون﴾ [الأعراف: ٩٩].

أفَأَمِنُوا أن يَستدرجهم اللَّهُ بالنِّعْمَةِ ويأخذَهم بَغْتَةً مِن حَيث لا يَحْتَسِبُون ؟ ، أوْ : أفَأَمِنُوا استدراجَ اللَّهِ إيَّاهم بالنِّعْمَة حتى يَهْلِكُوا في غَفْلَتهم ؟ ، فلا يَأمن ذلك إلا القَوْمُ الذين خَسِرُوا أنفسَهُم بالكُفْرِ ، وتَرْكِ النظرِ والاعتبارِ .

وتَكريرُ " مَكْر اللَّه " للتَّكِير لزيادة التَّقرير . ومَكْرُ اللَّه : استدراجُ اللَّهِ إيَّاهم بما أنعمَ عليهم في دُنياهم ، وأخذهم مِن حَيث لا يَحْتَسِبُون . وقِيل : مَكْرُ اللَّهِ يَعْني أخْذَه وعذابَه .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ١١) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : أَفَأَمِنَ يا مُحَمَّد هؤلاء الذين يُكَذِّبُون اللَّهَ ورسولَه ، ويَجْحَدُون آياتِه استدراجَ اللَّهِ إيَّاهم بما أنعمَ به عليهم في دُنياهم مِن صِحَّة الأبدان ورَخَاء العَيْش ، كما استدرجَ الذين قَصَّ عليهم قَصَصَهم مِن الأُمَم قَبْلَهم ، فإنَّ مَكْرَ اللَّه لا يَأمَنُه _ يقول : لا يَأمَن ذلك أن يكون استدراجًا معَ مُقَامهم على كُفرهم وإصرارهم على مَعصيتهم _ ﴿ إلا القَوْمُ الخَاسِرُون ﴾ وهُم الهالكون)) .

لقد أَمِنُوا مَكْرَ اللَّه لمَّا استدرجهم بالسَّرَاء والنِّعَم،فاسْتَبْعَدُوا أن يكون ذلك مَكْرًا.وما أَخَذَ اللَّهُ قَوْمًا قَط إلا عِند غَفْلتهم وغَرَقهم في النِّعَم والمَلَذَّات والشَّهَوَات . خَدَعَهم رَغَدُ العَيش ، وغرَّتهم النِّعَمُ، فكانَ الوَهْمُ طريقَهم إلى الهَلاك في الدُّنيا والآخِرة، ويجب على أن العبد أن لا يَغْتَرَّ باللَّه .

وفي تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٢) : ((قال الحَسَن البَصْري رحمه اللَّهُ : المُؤمِنُ يَعْمَل بالطاعات وهو مُشْفِق وَجِل خائف ، والفاجرُ يَعْمَل بالمعاصي وهو آمِن)) .

وَصَدَقَ القائل :

أحْسَنْتَ ظنَّكَ بالأيامِ إذْ حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ ما يأتي بِهِ القَدَرُ

وسَالَمَتْكَ الليالي فاغْتَرَرْتَ بِها وعِندَ صَفْوِ الليالي يَحْدُثُ الكَدَرُ

لا يَأمَن عذابَ اللَّهِ وبَأسَه ونِقْمَتَه وقُدْرَتَه عليهم وأخْذَه إيَّاهم في حَالِ سَهْوِهم وغَفْلَتهم إلا الفاجرون المُجْرِمُون الهالكون ، وهذا يُوضِّح أنَّ الأمن مِن مَكْرِ اللَّهِ مِن أعظم الذُّنُوب وأكبرِ المَعَاصي ، ويُنافي كمالَ التَّوحيد ، ويُرشِد إلى أنَّ المؤمن يَسِير إلى اللَّه بين الخَوف والرَّجاء .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٣٢) : ((والاستفهامُ في ﴿أفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ للتقريعِ والتوبيخ، وإنكارِ ما هُم عَلَيه مِن أمَان ما لا يُؤْمَن مِن مَكْر اللَّه بِهم، وعُقوبته لهم . وفي تَكرير هذا الاستفهام زيادةُ تقرير، لإنكار ما أنكَرَه عَلَيهم ، ثُمَّ بيَّن حالَ مَن أَمِنَ مَكْرَ اللَّه ، فقال : ﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إلا القَوْمُ الخَاسِرُون﴾ ، أي : الذين أَفْرَطُوا في الخُسْرَان ، وَوَقَعُوا في وَعِيده الشديد . وقِيل : مَكْرُ اللَّهِ هُنا هو استدراجُه بالنِّعْمَة والصِّحَّة ، والأَوْلَى حَمْلُه على ما هو أَعَم مِن ذلك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ للذينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أن لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُون ﴾ [الأعراف : ١٠٠] .

أَوَلَمْ يَتَبَيَّنْ ويَتَّضِحْ للذينَ يَخْلُفُون الأرضَ بعد هَلاكِ أَهْلِها الذين كانوا يَعْمُرونها قَبْلَهم ، والمُراد كُفَّار مَكَّة ومَنْ حَوْلَهُم ، أن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لأهلكهم بسبب ذُنُوبهم ومعاصيهم ، كما أهلكَ مَن قَبْلَهُم ، ويَخْتِم على قُلوبهم ، فلا يَقْبَلُون مَوعظةً ولا تَذكيرًا ، حتى يَمُوتوا على الكُفْر ، فَيَدْخُلُوا النارَ . والمَعنى : أَلَمْ يَعْلَمُوا أنَّا لَوْ نَشَاء فَعَلْنَا ذلك .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ١١) : ((يَقُول : أَوَلَمْ يَبِنْ للذين يُسْتَخْلَفُون في الأرضِ بَعْد هَلاكِ آخَرِين قَبْلَهُم كانوا أَهْلَها ، فَسَارُوا سِيرَتَهُم ، وعَمِلُوا أعمالَهم ، وَعَتَوْا عَن أمْرِ رَبِّهِم ، ﴿ أن لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، يَقُول : أن لَوْ نَشَاء فَعَلْنَا بِهِم كَمَا فَعَلْنَا بِمَن قَبْلَهُم ، فأخذناهم بِذُنوبهم، وعَجَّلْنَا لَهُم بَأسَنا كَمَا عَجَّلْنَا لِمَن كانَ قَبْلَهم مِمَّن وَرِثُوا عنه الأرض فأهلكناهم بِذُنُوبهم ،

﴿ وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ ﴾ ، يَقُول : ونَخْتِم عَلى قُلُوبهم ، ﴿ فَهُمْ لا يَسْمَعُون ﴾ مَوعظةً ولا تَذكيرًا سَمَاعَ مُنْتَفِع بِهِمَا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ تِلْكَ القُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أنبائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الكافرين ﴾ [الأعراف : ١٠١] .

تِلْكَ القُرى التي أهلكَ اللَّهُ أهْلَها ، يَتْلُو عليك يا مُحَمَّد مِن أخبارها كَيْفَ أُهْلِكَتْ ، لِيَعتبر بذلك السامعُ ، ومَا حَدَثَ أهْوَل وأفْظَع. وهذه تَسليةٌ للنَّبِيِّ ﷺ وللمُؤمنين .

ولقد جاءتهم رُسُلُهُم بالمُعْجِزَاتِ والأدلةِ الواضحةِ والحُجَجِ القاطعةِ ، فَمَا كانوا لِيُؤمنوا بما جاءتهم بِه الرُّسُلُ لِتَكذيبهم إيَّاهُم قَبْلَ مَجِيئهم بالمُعْجِزَاتِ وبعد مَجِيئهم بها ، فحالُهم واحدةٌ في الكُفْرِ والضَّلالِ والتَّكذيبِ . أي إنَّهُم استمروا على التَّكذيب مِن مَجِيء الرُّسُلِ إلَيهم إلى أن ماتوا مُصِرِّين ، لا يَنتفعون بِتَكرارِ المَواعظِ عليهم ، ولا يَستفيدون مِن تَتَابُعِ الآياتِ .

مِثْل ذلك الطَّبْعِ الشديد المُحْكَم ، يَطْبَع اللَّهُ على قُلوب الكافرين ، لِمَا عَلِمَ مِنهُم أنَّهُم يَختارون الثَّباتَ عَلى الكُفْر ، لذلك لا يُؤَثِّر فيهم الوَعْظُ والإرشادُ، ولا يَنتفعون بالأدلةِ والحُجَجِ والبراهينِ والآياتِ ، ولا يَستفيدون مِن الترغيبِ والترهيبِ .

وقَد كَتَبَ اللَّهُ عليهم ألا يُؤْمِنُوا أبدًا ، أي إنَّهُم يَمُوتون على الكُفْرِ ، لأنَّهُم لا يَستحقون نَيْلَ شَرَفِ الإيمانِ . والإيمانُ شَرَفٌ لا يَمنحه اللَّهُ لِكُلِّ شخص ، وإنَّما يَمنحه لأشخاص مُحَدَّدِين . وفي الآيةِ تَحذيرٌ للسامعين .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٢٦١) : ((﴿ تِلْكَ القُرَى ﴾ ، أي : هذه القُرى التي ذَكَرْتُ لَكَ أمْرَها وأمْرَ أهْلِها ، يَعْني : قُرى قَوْم نُوح وعَاد وثَمُود وقَوْم لُوط وشُعَيب ، ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أنبائِهَا ﴾ أخبارِها لِمَا فِيها مِن الاعتبار ، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ ﴾ بالآياتِ والمُعْجِزَاتِ والعَجَائِبِ ، ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ ، أي : فَمَا كانوا لِيُؤْمِنُوا بَعْد رُؤية المُعْجِزَاتِ والعَجائِبِ بِما كَذَّبُوا مِن قَبْل رُؤيتهم تِلْك العجائب . ... . قال ابن عباس والسُّدي : يَعْني فَمَا كان هؤلاء الكُفَّار الذينَ أهلكناهم لِيُؤْمِنُوا عِند إرسال الرُّسُلِ بِما كَذَّبُوا مِن قَبْل يَوْم أخْذِ مِيثاقهم حِين أخْرَجَهُم مِن ظَهْرِ آدم ، فَأقَرُّوا باللسان ، وأضْمَرُوا التكذيب . وقال مُجَاهِد: مَعْنَاه: فَمَا كانوا لَوْ أحْيَيْنَاهُم بعد إهلاكهم لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبوا بِه مِن قَبْلِ هلاكهم . ... . ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الكافرين ﴾ ، أي : كَمَا طَبَعَ اللَّهُ على قُلوب الأُمَم الخالية التي أهلكهم، كذلك يَطْبَع اللَّهُ على قُلوب الكُفَّار الذين كُتِبَ عَلَيهِم أن لا يُؤْمِنُوا مِن قَوْمِك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيم ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

يُخْبِر اللَّهُ عَن حِكْمَتِهِ البالغةِ وَتَمَامِ عَدْلِه ، بأنَّه سُبحانَه وتَعَالى لا يُغَيِّر نِعْمَةً أنعَمَهَا على أحَدٍ إلا بسبب ذَنْبٍ ارتكبه .

ذلك الذي حَلَّ بهم مِن العَذاب بسبب أنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ عادلٌ في حُكْمِه وفِعْلِه، لا يَظْلِم أحدًا ، ولا يُغَيِّر نِعمةً أنعمها على أحَدٍ إلا بسبب ذَنْبٍ ارتكبه،ولا يَسْلُب قَوْمًا نِعمةً حتى يَعْمَلُوا بِمَعَاصِيه، ولا يُبَدِّل النِّعْمَةَ بالنِّقْمَةِ حتى يُبَدِّلُوا نِعمةَ اللَّهِ بالكُفْرِ والضَّلالِ والعِصْيَانِ ، كَتَبديلِ كُفَّار قُرَيْش نِعْمَة اللَّه مِن الخِصْبِ والسَّعَةِ والأمْنِ والعافية ، بالكُفْرِ والصَّدِّ عن سبيل اللَّه وقِتالِ المؤمنين .

وقَدْ أنعمَ اللَّهُ على قُرَيْش بالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَكَفَرُوا بِه ، وكَذَّبُوه ، فَنَقَلَه اللَّهُ إلى الأنصار في المَدينة ، وحَلَّ بالمُشركين العِقَابُ والعذابُ . ومَا ظَلَمَهم اللَّهُ في ذلك ، بَلْ كانوا هُم الظالمين .

واللَّهُ سَمِيعٌ لِمَا يَقُولون ، عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُون. وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٢٦٩) : ((قَوْلُه : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيم ﴾ ، يَقُول: لا يَخْفَى عَلَيْه شَيْء مِن كلام خَلْقِه ، يَسْمَع كَلامَ كُلِّ ناطِقٍ مِنهُم بِخَيْرٍ نَطَقَ أوْ بِشَرٍّ ، ﴿ عَلِيم ﴾ بِمَا تُضْمِره صُدُورُهم ، وَهُوَ مُجَازِيهم ومُثِيبهم عَلى مَا يَقُولون ويَعْمَلُون ، إنْ خَيْرًا فَخَيْرًا ، وإنْ شَرًّا فَشَرًّا)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٤٦٣) : ((والإشارةُ بِقَوْلِه : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى العِقَابِ الذي أنزله اللَّهُ بِهِم ، وهو مُبْتَدَأ ، وخَبَرُه مَا بَعْدَه ، والجُملةُ جارية مَجْرَى التَّعليل لِمَا حَلَّ بِهِم مِن عذاب اللَّهِ . والمَعنى : أنَّ ذلك العِقَاب بسبب أنَّ عَادَة اللَّهِ في عِبَادِه عَدَم تَغْيير نِعَمِه التي يُنْعِم بها عَلَيهِم ، ﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأنفُسِهِمْ ﴾ مِن الأحوالِ والأخلاقِ بِكُفْرَانِ نِعَمِ اللَّهِ ، وغَمْطِ إحسانِه، وإهمالِ أوامره ونَوَاهيه ، وذلك كما كانَ مِن آل فِرْعَوْن ، ومَن قَبْلَهُم ، ومِن قُرَيْش ومَن يُمَاثِلهم مِن المُشركين ، فإنَّ اللَّهَ فَتَحَ لهم أبوابَ الخَيْرَاتِ في الدُّنيا ، ومَنَّ عَلَيهِم بإرسال الرُّسُلِ ، وإنزالِ الكُتُب، فَقَابَلُوا هذه النِّعَم بالكُفْر، فاسْتَحَقُّوا تَغْيِيرَ النِّعَم ، كَمَا غَيَّرُوا مَا كان يَجِب عَلَيهِم سُلُوكُه، والعملُ بِه مِن شُكْرِها وقَبولها . وجُملةُ ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيم ﴾ مَعطوفة على ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً ﴾ داخلة معها في التعليل،أي:ذلك بسبب أنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا ، إلخ. وبسبب أنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيم ، يَسْمَع مَا يَقُولونه ، ويَعْلَم مَا يَفْعَلُونه)) .

إذا كُنْتَ في نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فإنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ
وَحَافِظْ عَلَيْهَا بِتَقْوَى الإلَهِ فإنَّ الإلَهَ سَرِيعُ النِّقَمْ

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ كالذينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأولادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الذينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كالذي خَاضُوا أُولئكَ حَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ وَأُولئكَ هُمُ الخَاسِرُون ﴾ [التَّوبة : ٦٩] .

أنتم أيُّها المُنافقون حالُكم كحالِ مَن سَبَقَكُم مِن المُكَذِّبين الضَّالِّين ، كانوا أقوى مِنكُم أجسامًا ، وأشَدَّ بَطْشًا ، وكانوا أكثرَ أموالًا وأولادًا ، ومعَ هذا فَقَدْ أهلكهم اللَّهُ تعالى ، فاحْذَرُوا أن تَكُونوا مِثْلَهم ، وأن يَحِلَّ بِكُم مَا حَلَّ بِهِم ، فَتَمَتَّعُوا بنصيبهم وحَظِّهِم مِن مَلَذَّاتِ الدُّنيا وشَهَوَاتِها، فَتَمَتَّعْتُم بِمَلَذَّاتِ الدُّنيا وشَهَوَاتِها كما تَمَتَّعَ أُولئكَ الذينَ سبقوكم بنصيبهم مِنها ، وخُضْتُم في الكُفْرِ والضَّلالِ كما خاضوا فيه . أُولئكَ المَوصوفون بِما ذُكِرَ مِن قَبيحِ الأفعالِ ، ذَهَبَتْ أعمالُهم باطلًا ، فلا ثَوَاب لها ولا أجْر ، لأنَّها فاسدة ، ولَيْسَ لهم إلا عذاب النار الشديد ، وأُولئكَ هُم الكاملون في الخُسْرَان .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٤١٢) : ((﴿ كالذينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ مِنَ الأُمَمِ الذين فَعَلُوا فِعْلَكُم ، فأهلكهم اللَّهُ ، وَعَجَّلَ لَهُم في الدُّنيا الخِزْيَ معَ مَا أعَدَّ لهم مِن العُقوبةِ والنَّكَالِ في الآخِرَةِ . يَقُول لهم جَلَّ ثَنَاؤُه : واحْذَرُوا أن يَحِلَّ بِكُم مِن عُقوبة اللَّه مِثْلُ الذي حَلَّ بِهِم ، فإنَّهم كانوا أشدَّ مِنكُم قُوَّةً وبَطْشًا ، وأكثرَ مِنكُم أموالًا وأولادًا ، ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ ﴾ ، يَقُول : فَتَمَتَّعُوا بنصيبهم وحَظِّهم مِن دُنياهم ودِينهم ، وَرَضُوا بذلك مِن نَصِيبهم في الدُّنيا عِوَضًا مِن نَصِيبهم في الآخِرَةِ،وقَد سَلَكْتُم أيُّها المُنافقون سبيلَهم في الاستمتاع بِخَلاقِكُم،يَقُول:فَعَلْتُم بِدِينِكم ودُنياكم كما استمتعَ الأُمَمُ الذينَ كانوا مِن قَبْلِكم الذينَ أهْلَكْتُهُم بِخِلافهم أمْري،بِخَلاقِهِم ، يَقُول: كَمَا فَعَلَ الذينَ مِن قَبْلِكم بنصيبهم مِن دُنياهم ودِينهم ، وخُضْتُم في الكَذِبِ والباطلِ على اللَّهِ كالذي خاضوا، يَقُول:وخُضْتُم أنتُم أيضًا أيُّها المُنافقون كَخَوْضِ تِلْك الأُمَم قَبْلَكم. ... ﴿ حَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ ﴾ ، يَقُول : ذَهَبَتْ أعمالُهم باطلًا ، فلا ثَوَاب لها إلا النار ، لأنَّها كانت فِيما يُسْخِط اللَّهَ ويَكْرَهه ، ﴿ وَأُولئكَ هُمُ الخَاسِرُون ﴾ ، يَقُول : وأُولئكَ هُمُ المَغْبُونون صَفْقتهم بِبَيْعِهِم نَعِيمَ الآخِرَةِ، بِخَلاقِهِم مِن الدُّنيا اليسير الزهيد)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٥٥٢) : ((قَوْلُه : ﴿ كالذينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ، شَبَّهَ حَالَ المُنافقين بالكُفَّار الذين كانوا مِن قَبْلِهِم مُلْتَفِتًا مِن الغَيْبَة إلى الخِطَاب ، والكاف مَحَلُّها رَفْع على خَبَرِيَّة مُبتدأ مَحذوف ، أي : أنتم مِثْل الذين مِن قَبْلِكُم ، أوْ مَحَلُّها نَصْب ، أي : فَعَلْتُم مِثْلَ فِعْل الذين مِن قَبْلِكم مِن الأُمَم . وقال الزَّجَّاج : التقدير : وَعَدَ اللَّهُ الكُفَّارَ نارَ جَهَنَّم وَعْدًا ، كَمَا وَعَدَ

الذين مِن قَبْلِكم . وقِيل : المَعنى : فَعَلْتُم كأفعال الذين مِن قَبْلِكم في تَرْكِ الأمرِ بالمَعروفِ ، والنَّهْيِ عن المُنكَر ، فَحَذَفَ المُضَاف ، ثُمَّ وَصَفَ حَالَ أُولئكَ الكُفَّار الذين مِن قَبْلِهِم ، وَبَيَّنَ وَجْهَ تَشْبيههم بِهِم ، وتَمثيل حالهم بحالهم ، بأنَّهُم كانوا أشدَّ مِن هؤلاء المُنافقين والكُفَّارِ المُعَاصِرين للنَّبِيِّ ﷺ ﴿ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأولادًا فَاسْتَمْتَعُوا ﴾ ، أي : تَمَتَّعُوا ﴿ بِخَلاقِهِمْ ﴾ ، أي : نصيبهم الذي قَدَّرَه اللَّهُ لهم مِن مَلاذِّ الدُّنيا ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُم ﴾ أنتم ﴿ بِخَلاقِكُمْ ﴾ أي: نَصِيبكم الذي قَدَّرَه اللَّهُ لَكُم ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الذينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ ﴾ ، أي: انتفعتم بِه كَمَا انتفعوا بِه ، والغَرَضُ مِن هذا التمثيل ذَمُّ هؤلاء المُنافقين والكُفَّارِ بسبب مُشَابهتهم لِمَن قَبْلَهم مِن الكُفَّار في الاستمتاع بما رَزَقَهم اللَّهُ . وقَد قِيل : مَا فائدةُ ذِكْر الاستمتاع بالخَلاق في حَقِّ الأوَّلِين مَرَّةً ثُمَّ في حَقِّ المُنافقين ثانيًا ثُمَّ تَكْريره في حَقِّ الأوَّلِين ثالثًا ؟ ، وأُجِيب : بأنَّه تَعَالى ذَمَّ الأوَّلِين بالاستمتاع بِمَا أُوتُوا مِن حُظوظ الدُّنيا وحِرْمانهم عَن سَعادة الآخِرة بسبب استغراقهم في تِلْك الحُظوظ ، فَلَمَّا قَرَّرَ تَعَالى هذا،عَادَ فَشَبَّهَ حالَ المُنافقين بحالهم، فَيَكُون ذلك نِهَايَةً في المُبَالَغَة. قَوْلُه: ﴿ وَخُضْتُمْ كالذي خَاضُوا ﴾ مَعْطُوف عَلى مَا قَبْلَه ، أي : كالفَوْجِ الذي خَاضُوا ، أوْ كالخَوْضِ الذي خَاضُوا . ... . والمَعنى : خُضْتُم في أسباب الدُّنيا واللَّهْوِ واللعب . وقِيل : في أمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ بالتَّكذيب ، أي : دَخَلْتُم في ذلك . والإشارةُ بِقَوْلِه : ﴿ أُولئكَ ﴾ إلى المُتَّصِفِين بهذه الأوصاف مِن المُشَبَّهِين والمُشَبَّه بِهِم ، ﴿ حَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ ﴾ ، أي : بَطَلَتْ ، والمُرادُ بالأعمال مَا عَمِلُوه مِمَّا هُوَ في صُورة طاعة لا هذه الأعمال المَذكورة هُنا فإنَّها مِن المَعَاصِي . ومَعْنَى ﴿ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ ﴾ أنَّها باطلة على كُلِّ حال ، أمَّا بُطْلانها في الدُّنيا فَلأنَّ مَا يَتَرَتَّب على أعمالهم فِيها لا يَحْصُل لهم بَلْ يَصِير مَا يَرْجُونه مِن الغِنَى فَقْرًا ، ومِن العِزِّ ذُلًّا ، ومِن القُوَّةِ ضَعْفًا ، وأمَّا في الآخِرَةِ فلأنَّهم يَصِيرون إلى عذاب النار ، ولا يَنتفعون بِشَيْءٍ مِمَّا عَمِلُوه مِن الأعمال التي يَظنُّونها طاعةً وقُرْبَةً ، ﴿ وَأُولئكَ هُمُ الخَاسِرُون ﴾ ، أي : المُتَمَكِّنُون في الخُسْرَان ، الكاملون فِيه في الدُّنيا والآخِرَةِ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٨٥) : ((قال ابن جُرَيج عن عمرو بن عطاء عن عِكْرمة عن ابن عباس في قَوْلِه : ﴿ كالذينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ الآية . قال ابن عباس : مَا أشبَهَ الليلة بالبارحة ، ﴿ كالذينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ هَؤلاء بَنُو إسرائيل ، شَبَّهَنَا بِهِم ، لا أعْلَمُ إلا أنَّه قال : " والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَتَّبِعُنَّهُم حَتَّى لَوْ دَخَلَ الرَّجُلُ مِنهُم جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوه " . قال ابن جُرَيج : وأخبرني زياد ابن سعد عن مُحَمَّد بن زياد بن مُهَاجِر عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبَري عن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ : " والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين مَن قَبْلَكُم شِبْرًا بِشِبْر ،

وذِرَاعًا بِذِرَاع ، وبَاعًا بِبِاع ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوه " ، قالوا : ومَن هُم يا رسول اللَّه أهْلُ الكِتَابِ ؟ ، قال : " فَمَنْ ؟ " . وهكذا رواه أبو مَعْشَر عن أبي سعيد المَقْبَري عن أبي هُرَيرة عن النَّبِيِّ ﷺ ، فَذَكَرَه ، وزادَ: قال أبو هُرَيرة : اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُم القُرْآنَ ﴿ كالذينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ الآية. قال أبو هُرَيرة : الخَلَاقُ : الدِّين ، ﴿ وَخُضْتُمْ كالذي خَاضُوا ﴾ ، قالوا : يا رسول اللَّه كَمَا صَنَعَتْ فَارِسُ والرُّومُ ؟ ، قال : " فَهَل الناسُ إلا هُمْ ؟ " ، وهذا الحديث له شاهد في الصحيح)) .

عن أبي سعيد رضي اللَّه عنه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُم شِبْرًا بِشِبْر ، وَذِرَاعًا بِذِرَاع ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوه)). قُلْنَا: يا رسول اللَّه ، اليهود والنصارى ؟، قال : ((فَمَنْ ؟)) [٣] .

للمُسْلِمِ هُوِيَّتُهُ التي تُمَيِّزُه عَن غَيْرِه ، وشريعتُه التي فَضَّلَه اللَّهُ بِها عَلى العَالَمِين ، وقَدْ كانَ النَّبِيُّ ﷺ حَريصًا على بَقاءِ هذا التَّمَيُّزِ والتَّفضيلِ ، ومِن ثَمَّ كانَ ﷺ يَأمُر بِمُخَالَفَةِ أهْلِ الكِتابِ مِن اليَهُودِ والنَّصَارى ، ويُحَذِّر مِن مُتابعتهم .

يُخْبِر النَّبِيُّ ﷺ بِما يَكُون عليه حالُ أُمَّتِه في فَتْرَةٍ مِن الفَتَرَاتِ التي تأتي بعد زَمانِه ﷺ ، وهي مُتَابَعَةُ أهْلِ الأهواءِ والبِدَعِ مِن اليَهُودِ والنَّصَارى الذين بَدَّلُوا دِينَهم ، فقالَ ﷺ : " لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُم " ، والسَّنَنُ : هي الطريقةُ والأفعالُ ، والمَعنى : أنَّكُم تَتَّبِعُون طَرِيقةَ اليَهُودِ والنَّصَارى في أفعالِهم وحَيَاتِهم مُتَابَعَةً دقيقةً شديدةً ، تاركين سُنَّتَه ﷺ ، وَصَوَّرَ النَّبِيُّ ﷺ شِدَّةَ هذا الاتِّبَاع ، فقال: " شِبْرًا بِشِبْر ، وَذِرَاعًا بِذِرَاع " ، وهذا كِنايةٌ عَن شِدَّةِ المُوافقة لهم ، واتِّبَاعِهم في عَادَاتِهم وتَقَاليدِهم ، حتى لَوْ دَخَلَ اليَهُودُ والنَّصَارى جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلَه المُسْلِمُون وَرَاءَهم ، والضَّبُّ : حَيَوَان جُحْرُه شديدُ الظُّلْمَةِ نَتِنُ الرِّيحِ ، وهو مِن الزَّواحف يَكْثُر في الصَّحَاري العربية . ووَجْهُ التَّخصيصِ بِجُحْرِ الضَّبِّ : شِدَّةُ ضِيقِه ورَداءته ، ومعَ ذلك فإنَّهُم _ لاقتفائهم آثارَهم واتِّبَاعِهم طَرائقَهم _ لَوْ دَخَلُوا في مِثْلِ هذا الضِّيقِ الرَّديءِ لَوَافَقُوهُم ! .

وفي هذا الحَديثِ مُعْجِزَةٌ للنَّبِيِّ ﷺ ، فَقَدْ وَقَعَ مَا أخبرَ بِه النَّبِيُّ ﷺ ، وانتشرَ ذلك في الأزمنةِ المُتَأخِّرَةِ ، مِن اتِّبَاعِ كثير مِن المُسْلِمين لأعداءِ اللَّهِ تعالى في عاداتهم وتقاليدهم وسُلوكياتهم ، فَقَلَّدُوهُم في مَلابسهم وشعائرهم وأعيادهم ، وفِيما هُم عليه مِن أخلاق ذَميمة ، وعاداتٍ فاسدةٍ تُخَالِف شَريعةَ الإسلامِ المُطَهَّرَةَ ، وكان ذلك نتيجةً لِغَلَبَةِ الكُفَّار ، والمَغلوبُ مُولَعٌ بِتَقليدِ الغَالِب.

---

٣ متفق عليه. البخاري (٣ / ١٢٧٤) برقم (٣٢٦٩)، ومسلم (٤ / ٢٠٥٤) برقم (٢٦٦٩) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢١٩ و٢٢٠) : ((السَّنَنُ ، بِفَتْحِ السِّينِ والنُّون ، وهو الطريق ، والمُرَادُ بالشِّبْرِ والذِّرَاعِ وجُحْرِ الضَّبِّ التَّمثيلُ بِشِدَّةِ المُوَافَقَة لَهُم ، والمُرادُ المُوَافَقَةُ في المَعَاصِي والمُخَالَفَاتِ ، لا في الكُفْرِ . وفي هذا مُعْجِزَة ظاهرة لرسول اللَّه ﷺ ، فَقَدْ وَقَعَ مَا أخبرَ بِه ﷺ)) .

وقال المُنَاوي في فَيْض القدير (٥ / ٢٦١ و٢٦٢) : (((لَتَرْكَبُنَّ) في رواية للشَّيْخَيْن لَتَتَّبِعُنَّ (سَنَنَ) بفتح السِّين طَرِيق (مَن كانَ قَبْلَكُم) سَبيلَهم ومناهجَهم . قيل : يا رسول اللَّه اليَهُودُ والنَّصَارى ؟ ، قال : " فَمَن إذَنْ ؟ " ، هكذا هو ثابت عند الحاكم (شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ) بِذَال مُعْجَمَة وشِبْرًا نُصِبَ بنزع الخافض ، أي لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُم اتِّبَاعًا شِبْرًا مُتَلَبِّسًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا مُتَلَبِّسًا بِذِرَاع ، وهو كِنَاية عن شِدَّة المُوَافَقَة لهم في المُخَالَفَات والمَعَاصِي لا الكُفْر، ثُمَّ إنَّ هذا لفظ خَبَر معناه النَّهْي عَن اتِّبَاعهم ومَنْعهم مِن الالتفات لِغَيْرِ دِين الإسلام ، لأنَّ نُورَه قَد بَهَرَ الأنوارَ ، وشريعته نَسَخَت الشرائعَ ، وذَا مِن مُعْجِزَاته ، فَقَد اتَّبَعَ كثيرٌ مِن أُمَّتِه سَنَنَ فارس في شِيَمِهم ومَرَاكبهم وملابسهم وإقامة شِعَارهم في الحُروب وغَيْرِها وأهل الكِتَابَيْن في زَخرفة المساجد وتَعظيم القُبور ، حتى كادَ أن يَعْبُدَها العَوَام ، وقَبول الرِّشا ، وإقامة الحُدود على الضُّعَفاء دُون الأقوياء ، وتَرْك العمل يوم الجُمُعَة ، والتَّسليم بالأصابع ، وعَدَم عِيادة المريض يوم السَّبْت ، والسُّرور بِخَمِيس البَيْض، وأنَّ الحائض لا تَمَسُّ عَجِينًا ، إلى غَيْر ذلك مِمَّا هو أشنع وأبشع (حَتَّى لَوْ أنَّ أحَدَهُم دَخَلَ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُم) مُبَالَغَة في الاتِّبَاع ، فإذا اقتصروا في الذي ابتدعوه فستقتصرون ، وإنْ بَسَطُوا فستبسطوا ، حتى لَوْ بَلَغُوا إلى غاية لَبَلَغْتُمُوهَا حتى كانت تَقْتُل أنبياءَها، فَلَمَّا عَصَمَ اللَّهُ رَسُولَه قَتَلُوا خُلَفَاءَهُم تَحقيقًا لِصِدْقِ الرَّسُولِ ﷺ . ... . (وحتى لَوْ أنَّ أحَدَهُم جَامَعَ امْرَأتَهُ بالطريقِ لَفَعَلْتُمُوه) . قال ابنُ تَيْمِيَّة : هذا خَرَجَ مَخْرَجَ الخَبَر عَن وُقوع ذلك ، والذَّم لِمَن يَفْعَله ، كما كانَ يُخْبِر عَمَّا يَفْعَل الناسُ بَيْنَ يَدَي الساعة مِن الأشراط والأُمور المُحَرَّمَة . قال الحَرَالِّي : وجَمْعُ ذلك أنَّ كُفْر اليهود أضَلُّ مِن جِهَة عدم العمل بِعِلْمِهِم ، فَهُم يَعْلَمُون الحَقَّ ولا يَتَّبِعُونه عَمَلًا ولا قَوْلًا ، وكُفْرُ النَّصَارى مِن جِهَة عَمَلِهم بِلا عِلْم ، يَجْتهدون في أصناف العِبَادة بلا شريعة مِن اللَّه ، ويَقُولون مَا لا يَعْلَمُون . فَفِي هذه الأُمَّة مَن يَحْذُو حَذْوَ الفَرِيقَيْن ، ولهذا كان السَّلَفُ كَسُفيان بن عُيَيْنة يَقُولون : مَن فَسَدَ مِن عُلَمائنا فَفِيه شَبَهٌ مِن اليَهُود ، وَمَن فَسَدَ مِن عُبَّادِنا فَفِيه شَبَهٌ مِن النَّصَارَى . قَضَاءُ اللَّهِ نافذٌ بِمَا أخبرَ رَسُولَه ﷺ بِما سَبَقَ في عِلْمِه ، لكن لَيْسَ الحديث إخبارًا عن جميع الأُمَّة ، لِمَا تَوَاتَرَ عنه أنَّها لا تَجتمع على ضَلالة ، ثُمَّ إنَّه فُسِّرَ هُنا

باليَهُود والنصارى ، وفي خَبَر البُخاري بفارس والرُّوم . ولا تَعَارُض لاختلاف الجواب بِحَسَبِ اختلاف المَقَام ، فَحَيْث قِيل : فارس والرُّوم ، كانَ ثَمَّ قَرِينة تَتَعَلَّق بالحُكْم بَيْن الناس وسِيَاسة الرَّعِيَّة ، وحَيْث قِيل : اليَهُود والنصارى ، كان هُناك قَرِينة تَتَعَلَّق بأمْرِ الدِّيَانات أُصُولِها وفُرُوعِها)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِين ﴾ [يُونُس : ١٣] .

لقد أهلكَ اللَّهُ الأُمَمَ الماضية التي كَذَّبَتْ رُسُلَهَا مِن قَبْلِكم أيُّهَا المشركون (كُفَّار مَكَّة) ، لَمَّا ظَلَمُوا أنفسَهم باختيار الكُفْر على الإيمان ، وغَرَقهم في العِنَاد والمُكَابَرَة . والكُفْرُ هُوَ أقبح أنواع الظُّلْم ، لأنَّ الكافر ظَلَمَ نَفْسَه بأنْ قَادَهَا إلى الخُلود في عذاب النار الشديد .

وجاءتهم رُسُلُهم بالمُعْجِزات والبراهين على وَحدانيَّةِ اللَّهِ وصِدْقِ الرُّسُلِ . وقَد أهْلَكَهُم اللَّهُ لِعِلْمِه أنَّهُم لا يُؤْمِنُون ، إذْ إنَّ قُلُوبَهم نَجِسَة رافضة للإيمان ، ولَيْسَ لَدَيْهِم استعداد نَفْسِي لِقَبول الحَق . وقَد طَبَعَ اللَّهُ على قُلوبهم عُقوبةً لهم على كُفْرهم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٨) : ((﴿ وَمَا كانوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ ومَا استقامَ لهم أن يُؤْمِنُوا لفساد استعدادهم ، وخِذلان اللَّه لهم ، وعِلْمِه بأنَّهُم يَمُوتون على كُفْرهم، واللام لتأكيد النَّفْي)).

والآيةُ تَشتمل على تخويف شديد لأهل مَكَّة ، احْذَرُوا أن يُهْلِكَكُم اللَّهُ كما أهلكَ الأُمَمَ التي قَبْلَكم . وقَد أمهلَ اللَّهُ أهلَ مكة المُشركين ، ولَمْ يُعاجلهم بالعُقوبة والعذاب ، رحمةً بهم ، وكرامةً للنبيِّ ﷺ ، ولِعِلْمِه تعالى أنَّ مِن المُشركين مَن سَيُؤْمِن ، وسَيَخْرُج مِن أصلاب المُشركين مَن يُوحِّد اللَّهَ تعالى ، ويَعْبُده بِلا شَريك ولا نِد .

وكما أنَّ اللَّهَ عَذَّبَ الأُمَمَ الماضية وأهلكها بسبب كُفرهم وتكذيبهم للأنبياء،وعَاجَلَها بالعُقوبة، ولَمْ يُمهلهم ، لِعِلْمِه بعدم جَدْوى إمهالهم ، ولا فائدة مِن تأجيل عذابهم ، بعد إقامة الحُجَّة عليهم بإرسال الرُّسُل ، وقَطْعِ أعذارهم ، كذلك يُعَاقِب ويُهْلِك ويُعذِّب الذين يُكذِّبون النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ . أي إنَّ اللَّهَ يُهْلِك الذين يُكذِّبون النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ كما أهلكَ مَن قَبْلَهم جَزَاءَ كُفْرِهم وضَلالِهم ورفضهم للحَقِّ والهُدى .

واللَّهُ يُحَذِّر كُفَّارَ مَكَّة ويُخوِّفهم بعذاب الأُمَم الماضية الكافرة . وهذا وعيدٌ شديد لهم على إجرامهم وتكذيبهم للنَّبِيِّ ﷺ . ووَضْعُ المُظْهَر مَوْضِع الضَّمِير في ﴿ نجزي القَوْمَ المجرمين ﴾ للتسجيل عليهم بِكُفْرهم ، وبيان جريمتهم الشنيعة ، ووَصْمهم بالخِزْي والعار ، وتوضيح أنَّ جُرْمَهم (كُفْرَهم) سبب عذابهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٦٢٢): ((أي : مِثْل ذلك الجَزَاء نَجْزِي القَوْمَ المُجْرمين، وهو الاستئصال الكُلِّي لِكُلِّ مُجْرِم ، وهذا وعيد شديد لِمَن كان في عَصْرِه مِن الكُفَّار، أوْ لِكُفَّار مَكَّة على الخُصُوص)) .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٣٨) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : كَمَا أهْلَكْنَا هذه القُرونَ مِن قَبْلِكم أيُّهَا المُشركون بِظُلْمِهم أنفسَهم ، وتكذيبهم رُسُلَهم ، ورَدِّهم نَصِيحتهم ، كذلك أفعلُ بكم فأُهْلِككم كما أهلكتهم بتكذيبكم رَسُولَكم مُحَمَّدًا ﷺ ، وظُلْمكم أنفسَكم بِشِرككم بِرَبِّكُم إنْ أنتم لَمْ تُنيبوا وتَتُوبوا إلى اللَّهِ مِن شِرككم ، فإنَّ مِن ثَوَاب الكافر بِي على كُفْره عِنْدي أن أُهْلِكَه بِسَخَطِي في الدُّنيا ، وأُورِده النارَ في الآخِرة)) .

وقال ابنُ الجَوْزي في زاد المسير (٤/ ١٣):((قَوله تعالى: ﴿ ولقدْ أهْلَكْنا القُرونَ مِن قَبْلِكُم ﴾ قال مُقاتل: هذا تَخْويف لِكُفَّار مَكَّة، والظُّلْمُ هاهُنا بمعنى الشِّرْك.وفي قَوْله: ﴿ وما كانوا لِيُؤمِنُوا ﴾ قَوْلان : أحدهما أنَّه عائد على أهل مكة ، قاله مُقَاتِل . والثاني : على القُرُون المُتَقَدِّمَة ، قاله أبو سُلَيمان . قال ابن الأنباري : ألْزَمَهُم اللَّهُ تَرْكَ الإيمانِ لِمُعاندتهم الحق ، وإيثارهم الباطل . وقال الزَّجَّاج : جائز أن يَكُون جَعَلَ جَزَاءَهُم الطَّبْعَ على قُلُوبهم ، وجائز أن يكون أعْلَمَ مَا قَدْ عَلِمَ مِنهُم. قَوْلُه تعالى:﴿ كذلكَ نجزي ﴾ أي نُعَاقِب ونُهْلِك ﴿القَوْمَ المجرمين ﴾ يعني المُشركين مِن قَوْمِك)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أنبَاءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيد ﴾ [هُود : ١٠٠].

ذلك النَّبَأ مِن أنباءِ القُرى التي أهلكَ اللَّهُ أهْلَها بِكُفْرِهم وتَكذيبهم الرُّسُل ، نَقُصُّه عليك يا مُحَمَّد ، ونُخْبِرك عنه بطريق الوَحْي ، مِن هذه القُرى ما هو عامر قَد هَلَكَ أهْلُه وبَقِيَ بُنيانُه ، ومِنها ما هو خراب قَد اندثرَ بأهْلِه ، فَلَمْ يَبْقَ له أثَر كالزَّرْعِ المَحصود . والقائمُ مَا يُرى مَكَانُه ، والحَصِيدُ لا يُرى أثَرُه .

وقال الطبري في تفسيره(١٠٩/٧): ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحَمَّدٍ ﷺ : هذا القَصَصُ الذي ذَكَرْناه لَكَ في هذه السُّورة ، والنَّبَأ الذي أنْبَأنَاكَهُ فِيها مِن أخبار القُرى التي أهْلَكْنَا أهْلَها بِكُفْرِهم باللَّهِ وتَكذيبِهم رُسُلَه ، ﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ فَنُخْبِرك بِه ، ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ ﴾ ، يَقُول: مِنها قائم بُنيانُه بائدٌ أهْلُه هَالِك ، ومِنها قائمٌ بُنيانُه عامرٌ ، ومِنها حَصِيدٌ بُنيانُه خراب مُتداعٍ ، قَدْ تَعَفَّى أثَرُه دَارِس ، مِن قَوْلِهم : زَرْعٌ حَصِيد ، إذا كان قَد اسْتُؤْصِلَ قَطْعُه ، وإنَّما هُوَ مَحصود ، ولكنَّه صُرِفَ إلى فَعِيل)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ فَمَا أغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ التي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب ﴾ [هُود : ١٠١] .

ومَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ بإهلاكهم بِغَيْرِ ذَنْبٍ ، ولكنْ ظَلموا أنفسَهم بالكُفْرِ والمعاصي ، فاسْتَحَقُّوا عذابَ اللَّهِ ونِقْمَتَه ، فَمَا نفعتهم آلِهَتُهُم التي عَبَدُوها مِن دُون اللَّهِ تعالى ، ولا دَفَعَتْ عنهم شيئًا مِن عِقَابِ اللَّهِ ، ولا أنقذتهم مِن عذابه الشديد ، حِينَ جَاءَ قَضَاءُ اللَّهِ بعذابهم ، ومَا زادتهم تِلْك الآلهةُ غَيْرَ تَخْسِيرٍ وتَدميرٍ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٧٥٦) : ((﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بِمَا فَعَلْنَا بِهِم مِن العذاب ﴿وَلَكِن ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ ﴾ بالكُفْرِ والمَعَاصِي ﴿فَمَا أغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ﴾ أي: فَمَا دَفَعَتْ عَنهُم أصنامُهم التي يَعْبُدونها مِن دُون اللَّهِ شيئًا مِن العذاب ﴿ لَمَّا جَاءَ أمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي : لَمَّا جَاءَ عَذَابُه ، ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب ﴾ ، الهَلاك والخُسْرَان ، أي : مَا زادتهم الأصنامُ التي يَعْبُدونها إلا هَلاكًا وخُسْرَانًا ، وقَد كانوا يَعتقدون أنَّها تُعِينهم على تحصيل المنافع)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إنَّ أخْذَهُ أليمٌ شَدِيد ﴾ [هُود : ١٠٢] . مِثْلُ ذلك الأخذِ والإهلاكِ الذي أَخَذَ اللَّهُ بِه أهلَ القُرى الظالمين المُكَذِّبين ، يأخذ سُبحانَه بعذابه الفَجَرَةَ الظالمين . أي : كَمَا أهْلَكْنَا أُولئكَ القُرُون الظالمة المُكَذِّبَة لِرُسُلِنَا ، كذلك نَفْعَل بأشباههم. والإشعارُ بأنَّهُم إنَّما أُخِذُوا بسبب ظُلْمِهِم ، لِيَكُون ذلك عِبْرَةً لِكُلِّ ظالم . وفي الآية مِن إنذار الظالم مَا لا يَخْفَى .

إنَّ عذاب اللَّه مُوجِع شديد ، لا أحَد يُفْلِت مِنْه . وهذا مُبَالَغَة في التَّهديدِ والوَعِيدِ والتَّحذير.

وقال الطبري في تفسيره (٧ / ١١١) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : وكَمَا أخذتُ أيُّها الناس أهْلَ هذه القُرى التي اقْتَصَصْتُ عَلَيْكَ نَبَأَ أهلها بِما أخَذْتُهُم بِه مِن العَذاب ، عَلى خِلافهم أمْرِي ، وتَكذيبهم رُسُلي ، وجُحُودهم آياتي ، فكذلك أخْذِي القُرى وأهْلَها إذا أخَذْتُهُم بِعِقَابي ، وهُم ظَلَمَة لأنفسهم بِكُفْرِهِم باللَّهِ ، وإشراكِهم بِه غَيْرَه ، وتَكذيبِهم رُسُلَه ، ﴿ إنَّ أخْذَهُ أليمٌ شَدِيد ﴾ ، يَقُول : إنَّ أخْذَ رَبِّكُم بالعِقَاب مَن أخَذَه ﴿ أليمٌ ﴾ ، يَقُول : مُوجِع ﴿ شَدِيد ﴾ الإيجاع . وهذا أمْرٌ مِن اللَّه تَحْذير لهذه الأُمَّة أن يَسْلُكُوا في مَعْصيته طريقَ مَن قَبْلَهُم مِن الأُمَم الفاجرة ، فَيَحِل بِهِم مَا حَلَّ بِهِم مِن المَثُلات (العُقُوبات))) .

وعن أبي مُوسَى ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((إنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي للظالِم ، حتى إذا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْه)) . قال : ثُمَّ قرأ : ((﴿ وكَذَلِكَ أخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إنَّ أخْذَهُ أليمٌ شَدِيد ﴾)) [٤] .

---

٤ متفق عليه. البخاري (٤ / ١٧٢٦) برقم (٤٤٠٩) ، ومسلم (٤ / ١٩٩٧) برقم (٢٥٨٣) .

إنَّ اللَّهَ يُمْهِل الظالمَ حتى يَتمادى في ظُلْمِه ، فلا يُعاقبه فَوْرًا ، حتى إذا أخذه لَمْ يُطْلِقْهُ ، ولَم يَنفلت مِنه ، ولا يُخلِّصه ، لكثرة مَظالِمه إنْ كان مُشرِكًا ، أوْ لَمْ يُخلِّصه مُدَّةً طويلةً إنْ كانَ مؤمنًا . وعُقوبةُ اللَّه شديدة ، وعذابُه مُوجِع لا يُطاق ، ولا يُمكن تَحَمُّلُه . وفي هذا تحذير عظيم مِن الظُّلْم ، بالكُفر أوْ بِغَيره ، لِنَفْسِه أوْ لِغَيره .

وفي الحديث تَسليةٌ للمَظلوم في الحال ، ووعيدٌ للظالم لِئَلا يَغترَّ بالإمهال .

ولا يَنبغي للعبد أن يَغْتَرَّ بِحِلْمِ اللَّه عليه ، أوْ يَنخدع بِثَنَاءِ الناس عليه ، وَدَوَامُ الحالِ مِن المُحَالِ . وقَد يَكُون مَا عليه مِن الأمْنِ والأمانِ في المعصية والظُّلْم لِنَفْسِه وَلِغَيره ، إنَّما هو استدراج مِنَ اللَّه تعالى له ، حتى إذا سَبَقَ الكِتابُ أخَذَه اللَّهُ بما قَدَّمَ مِن عَمَلٍ ، فلا يَجِد له مِن دُونِه وَلِيًّا ولا نصيرًا .

إنَّ اللَّهَ يُعْطِي الظالِمَ فُرَصًا زمنية عديدة ، فيُطيل له في المُدَّة ، ويُمْهِلُه ولا يُهْمِلُه ، وإذا أخذه لَمْ يُطْلِقْه ، لأنَّ أَخْذَه _ سُبحانَه وتعالى _ أليم شديد . فإذا رأيتَ ظالِمًا يَزداد تَكَبُّرًا وغَطرسةً ونُفُوذًا وسَطوةً وقُوَّةً، فَاعْلَمْ أنَّ اللَّه يَستدرجه. والعاقلُ مَن يَقرأ حركةَ التاريخ جَيِّدًا ، ويَتَّعظ بِغَيره ، فالقويُّ لا يظل قَوِيًّا حتى النهاية ، والضعيف لَن يبقى ضعيفًا للأبد ، والدُّنيا دَوَّارَة ، والدَّهْرُ يَوْمَان: يَوْمٌ لَكَ ، ويَوْمٌ عليك . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٣٧) : ((مَعْنى " يُمْلِي " : يُمْهِل ويُؤَخِّر ويُطِيل له في المُدَّة ، وهو مُشتق مِن الملوة ، وهي المُدَّة والزَّمان ، بضم الميم وكسرها وفتحها . ومعنى " لَمْ يُفْلِتْه " لَمْ يُطْلِقْه)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٢٦٤) : (((إنَّ اللَّه تعالى لَيُمْلِي) بفتح اللام الأُولَى ، أي : لَيُمْهِل ، والإملاءُ : الإمهال والتأخير وإطالة العُمُر (للظالم) زيادة في استدراجه لِيَطُول عُمُرُه ويَكْثُر ظُلْمُه فَيَزداد عِقَابُه ﴿ إنَّمَا نُمْلِي لَهُم لِيَزْدَادُوا إثمًا ﴾ [آل عِمران : ١٧٨] ، فإمهالُه عَيْنُ عِقَابِه (حتى إذا أَخَذَه) أي : أنزلَ به نِقْمَتَه (لَمْ يُفْلِتْه) أي : لَمْ يُفْلِتْ مِنه ، أوْ لَمْ يُفْلِتْهُ مِنه أحد ، أي : لَمْ يُخلِّصه أبدًا ، بَلْ يُهلِكه لكثرة ظُلْمِه بالشِّرْك ، فإنْ كان مؤمنًا لَم يُخلِّصه مُدَّةً طويلة بِقَدْر جِنايته . وقَولُ بعضهم : معنى " لَمْ يُفْلِتْه " : لَمْ يُؤَخِّرْه ، تَعَقَّبَه ابن حجر بأنَّه يُفْهَم أنَّ الظالم إذا صُرِفَ عَن مَنصبه أوْ أُهِينَ ، لا يَعُود إلى غَيره ، والمُشَاهَد في بَعضهم بِخِلافه، فالأَوْلَى جَعْلُه غالبيًّا مِن الإفلات ، وهُوَ خُروج مِن مَضِيق . وتَمَامُ الحديث في البُخاري : ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وكَذَلِكَ أخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إنَّ أخْذَهُ أليمٌ شَدِيد ﴾ ، وفيه تَسْلية للمظلوم ، ووعيد للظالم ، وأنَّه لا يَغْتَر بالإمهال ، فإنَّه لَيْسَ بإهمال)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴾ [مريم : ٧٤] .

وكثيرٌ مِن الأُمَم المُكَذِّبين بآياتِ اللَّهِ تعالى أَهْلَكَهُم اللَّهُ بِكُفْرِهم وضَلالِهم وذُنُوبِهم ومَعَاصيهم، كانوا أكثرَ مِن هؤلاء مَالًا ومَتَاعًا ، وأحسنَ لِبَاسًا وثِيَابًا ، وأجملَ صُورةً ومَنْظَرًا ، فَكَمَا أهلكَ اللَّهُ السابقين لِكُفْرِهم يُهْلِك اللاحقين ، فلا يَغْتَر هؤلاء بما لَدَيهِم مِن النَّعيمِ والمَتَاعِ . وَلَوْ كانَ مَا آتَاهُم اللَّهُ لِكَرَامتهم عليه لَمَا عَذَّبَهُم وأَهْلَكَهُم .

وفي الآيةِ مِنَ التَّهديدِ والوعيدِ مَا لا يَخْفَى ، كأنَّه قِيل: فَلْيَنْتَظِرْ هؤلاء أيضًا مِثْلَ ذلك.ولا شَك أنَّ العاقل مَن اتَّعَظَ بِغَيْرِه ، واستفادَ مِن تجارب الآخرين ، وأخذَ مِنها الدُّرُوسَ والعِبَرَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ١٨١) : ((﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ ﴾ ، أي : وَكَمْ مِن أُمَّةٍ وقَرْنٍ مِن المُكَذِّبين قَدْ أهلكناهم بِكُفْرِهِم ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴾ ، أي : كانوا أحسنَ مِن هؤلاء أموالًا ومناظر وأشكالًا وأمتعةً)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٩٨] .

" كَمْ " للتَّكثير. كَمْ مِن الأُمَمِ الماضية أهلكهم اللَّهُ بِتَكذيبهم الرُّسُل. وفي هذا وَعْدٌ للنَّبِيِّ ﷺ بهلاكِ الكافرين ، ووعيدٌ لهم ، واللَّهُ يُخَوِّف أهلَ مَكَّة . هَل تَرَى مِنهُم أحَدًا ؟، أوْ تَسْمَع صَوْتًا خَفِيًّا ؟ . لا ، لَقَد تَمَّ استئصالُهم جميعًا ، فَلَمْ يَبْقَ مِنهُم عَيْنٌ ولا أثَر . والمعنى أنَّهُم بَادُوا وهَلَكُوا، وَخَلَتْ مِنهُم الدِّيَار ، وَأَوْحَشَتْ مِنهُم المنازل ، فكما أهلكَ اللَّهُ أُولئك يُهْلِك هؤلاء .

وقال الطبري في تفسيره (٨ / ٣٨٧) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : وكثيرًا أَهْلَكْنَا يَا مُحَمَّد قَبْل قَوْمِك مِن مُشركي قُرَيش ﴿ مِن قَرْنٍ ﴾ ، يَعْني مِن جَماعة مِن الناس ، إذْ سَلَكُوا في خِلافي ، وركوب مَعَاصِيَّ مَسْلَكَهُم ، ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِنْ أَحَدٍ ﴾ ، يَقُول : فَهَلْ تُحِسُّ أنتَ مِنهُم أحَدًا يَا مُحَمَّد فَتَرَاه وتُعَاينه ، ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ، يَقُول : أوْ تَسْمَع لَهُم صَوْتًا، بَلْ بَادُوا وهَلَكُوا وَخَلَتْ مِنهُم دُورُهم ، وأوْحَشَتْ مِنهُم مَنازلُهم)) .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ٣٧) : ((﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ ﴾ ، تَخْوِيفٌ للكَفَرَةِ ، وتَجسيرٌ للرَّسُولِ ﷺ على إنذارهم ، ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِنْ أَحَدٍ ﴾ ، هَلْ تَشْعُر بأحدٍ مِنهُم وتَرَاه ، ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ، ... ، والرِّكْزُ : الصَّوْتُ الخَفِيُّ . وأصلُ التركيب هو الخَفَاء)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ القُرونِ يَمْشُونَ في مَسَاكِنِهِم إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لأُولِي النُّهَى ﴾ [طه : ١٢٨] .

أفَلَمْ يَتَبَيَّنْ لِكُفَّار مَكَّة الذينَ كَذَّبُوكَ يَا مُحَمَّد بَيَانًا يَهْتَدُون بِه إذا نَظروا إلى آثار الأُمَم السابقة التي كَفَرَتْ بأنبيائها وكَذَّبَتْهُم ، فَدَفَعَتْ ثَمَنَ كُفْرِها وتكذيبِها ، وتَمَّ تعذيبُها عذابًا شديدًا .

والاستفهامُ في ﴿ أفَلَمْ ﴾ للإنكار والتوبيخ والتقريع .

لقد أعرضَ كُفار مكة عن الحَقِّ والهُدى ، وغَرِقُوا في الشَّهَوَاتِ والشُّبُهَاتِ، فَلَمْ يَتَأَمَّلُوا حالَ الأُمَم السابقة التي صَارَتْ أثَرًا إثْرَ عَيْن، واعتقدوا أنَّهم في أمن وأمان، وأنَّهم استثناء مِن القاعدة ، ومُحَصَّنون مِن العذاب . وهذا هو الغُرور القاتل ، والوَهْم المُدَمِّر . لَقَد اغْتَرُّوا بِحِلْمِ اللَّهِ عليهم ، وثَنَاءِ الجُهَّال عَلَيهم ، وغَرَّهُم رَغَدُ العَيْشِ ، وطُولُ الأملِ ، وكَثرةُ الأموالِ والأولادِ . وهذه الرَّفَاهِيَةُ مَنَعَتْهُم مِن النظر والتفكر والاعتبار ، ودائمًا غُرور القُوَّة قاتل . والعاقلُ مَن اتَّعَظَ بِغَيْرِه ، والجاهلُ مَن اتَّعَظَ بِنَفْسِه . وعلى الإنسان دراسة التاريخ لأخذِ الدُّرُوسِ والعِبَرِ وتَجَنُّبِ الأخطاءِ .

والمُشكلة أنَّ الناس لا يَتَعَلَّمُون مِن التاريخ ، لاعتقادهم أنَّهُم استثناء ، وأنَّ مَا أصابَ غَيْرَهم لَن يُصيبهم ، لذلك يُكَرِّرون نَفْسَ الأخطاء ، ويَرتكبون الكوارثَ ذَاتَهَا ، ويَسِيرون إلى حَتْفهم بأقدامهم ، ثُمَّ يَنْدَمُون بَعْدَ فَوَات الأوان ، ويَوْمَ لا يَنفَع الندم .

لقد كان كُفَّار مُكَّة (قُرَيْش) يُسافرون إلى الشام مِن أجل التِّجَارة ، ويَرَوْنَ دِيَارَ عاد وثَمُود وقُرَى قَوْم لُوط ﷺ ، ومَا فِيها مِن آثار الهلاك والعذاب. وكانوا يُشاهدون بأعينهم آثارَ هلاكهم ، أفلا يَتَّعِظُون ويَعْتَبِرُون ؟! .

يَنْبَغِي أن يَأخذوا العِبَرَ مِمَّا يُشاهدونه ، ولا يَسِيروا في نَفْسِ طريقهم لِكَيْلا يُلاقوا نَفْسَ مَصِيرهم ، وهو العذاب والدَّمَار والهَلاك . والمَفروضُ أنَّ مُشاهدتهم لآثار هلاكهم تُوجِب أن يَعتبروا ويَتَّعظوا ويَهْتدوا إلى الحَقِّ ، لِئلا يَحِلَّ بهم مَا حَلَّ بأُولئك مِن العذاب والهلاك . ومَن لَمْ يَتَعَلَّمْ مِن التاريخ مَحكومٌ بإعادةِ الأخطاءِ ، وتَكرارِ الخَطَايا .

إنَّ في آثار هذه الأُمَم الهالكة لَعَلامات ودَلالات وعِبَرًا لأصحاب العقول السليمة التي تَنْهَى أصحابَها عن التغافل والتَّعامي والمعاصي والقبائح . وَلَوْ تَفَكَّرَ كُفَّارُ مَكَّة في حال الأُمَم السابقة ، لَعَلِمُوا أنَّ استئصالهم بالعذاب بسبب كُفْرِهم وتكذيبِهم وجُحودِهم ، فلا يَفْعَلون مِثْلَ مَا فَعَلُوا .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٦/ ٤٩) : ((﴿ إنَّ في ذلكَ ﴾ تعليل للإنكار، وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم ، و﴿ ذلكَ ﴾ إشارة إلى مَضمون قَوله تعالى : ﴿ كَم أهْلَكْنا ﴾ إلخ . وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بِبُعد مَنْزلته ، وعُلُوِّ شأنه في بابه ، لآيات كثيرة عظيمة ، واضحات الهداية ، ظاهرات الدَّلالة على الحق)) .

وإهلاكُ الأُمَمِ السابقة واضحٌ أمام الأنظار ، إذْ إنَّ آثار ديارهم ماثلة أمام الناس الذين يَمُرُّون بِها في أسفارهم، فيُشاهدون بقايا الأمم السابقة بكل وضوح. فالديارُ الخاليةُ التي هَلَكَ أصحابُها تُشير إلى حالهم ، وتدلُّ على وجود أقوام سابقين عَمَرُوا المَكَانَ ثُمَّ زالوا . ومِن آثارهم تَعْرفونهم . وهذا الخَرَابُ الجاثم على صَدْر المكان يُشير إلى العذاب الذي حَلَّ بهؤلاء الأقوام، لكنَّ أصحاب العقول وَحْدَهم هُم القادرون على التَّفَكُّرِ والتَّأمُّلِ وأخْذِ العِبَرِ ، والاستفادةِ مِن دُروس التاريخ .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٤٧٥) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحَمَّدٍ ﷺ : أَفَلَمْ يَهْدِ لِقَوْمِكَ المُشركين باللَّهِ . ومعنى يَهْدِ : يُبَيَّن. يقول: أفَلَمْ يُبَيَّنْ لهم كثرة ما أَهْلَكْنا قَبْلَهم مِن الأُمَم التي سَلَكَتْ قَبْلَهَا ، التي يَمْشُون في مساكنهم ودُورهم ، وَيَرَوْنَ آثارَ عُقوباتنا التي أحْلَلْناها بهم سُوء مَغَبَّة مَا هُم عَلَيه مُقيمون مِن الكُفْرِ بآياتنا ، ويَتَّعِظُوا بِهم ، ويَعْتبروا، ويُنيبوا إلى الإذعان، ويُؤْمِنُوا باللَّهِ ورَسُولِه ، خَوْفًا أن يُصيبهم بِكُفْرِهم باللَّهِ مِثْل مَا أصابهم . ... . وقَوله : ﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لأُولِي النُّهى ﴾ ، يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : إنَّ فِيمَا يُعَاين هؤلاء ، وَيَرَوْنَ مِن آثار وقائعنا بالأُمَم المُكَذِّبة رُسُلَهَا قَبْلَهم ، وحُلول مَثُلاتنا (عُقُوباتنا) بِهم لِكُفْرِهم باللَّهِ ﴿ لآياتٍ ﴾ ، يقول : لَدَلالات وعِبَرًا وعِظَات ﴿ لأُولِي النُّهى ﴾ ، يَعْني : لأهل الحِجَى والعُقول ، وَمَن يَنْهَاه عَقْلُه وفَهْمُه ودِينُه عَن مُوَاقَعَة مَا يَضُرُّه)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٣٠) : ((يُريد أهلَ مَكَّة ، أي : أفَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُم خَبَر مَن أَهْلَكْنَا قَبْلَهم مِن القُرون ، يَمْشُون في مَسَاكنهم إذا سافروا وخرجوا في التِّجَارة طَلَبَ المَعِيشة ، فَيَرَوْنَ بِلادَ الأُمَم الماضية والقُرون الخالية خاوية ، أي : أفَلا يَخَافون أن يَحِلَّ بهم مِثْلُ مَا حَلَّ بالكُفَّار قَبْلَهُم ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وأنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[الأنبياء:١١].

كَمْ أهلكَ اللَّهُ مِن قَرْيَةٍ كانَ أهْلُها كُفَّارًا مُكَذِّبين ، وخَلَقَ أُمَّةً أُخْرَى بَعْدَ إهلاكِ أهْلِها .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٥٧٣) : ((أوْعَدَهُم وحَذَّرَهم مَا جَرَى عَلى الأُمَم المُكَذِّبَة، فقال : ﴿وكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ ، " كَمْ " في مَحَلِّ نَصْب على أنَّها مَفعول. ﴿ قَصَمْنَا ﴾ وَهِيَ الخَبَرِيَّة المُفِيدة للتَّكثير، والقَصْمُ كَسْرُ الشَّيْءِ ودَقُّه . يُقَال : قَصَمْت ظَهْرَ فُلان: إذا كَسَرْته ، واقْتَصَمَتْ سِنُّه : إذا انكسرتْ . والمَعْنَى هُنا : الإهلاكُ والعذاب . وأمَّا الفَصْمُ بالفاء فهو الصَّدْع في الشَّيْء مِن غَيْر بَيْنُونة . وجُملةُ ﴿ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ في مَحَلِّ جَر صِفَة لقرية . وفي الكلام مُضاف مَحذوف ، أي : وكَمْ قَصَمْنَا مِن أهل قرية كانوا ظالمين ، أي كافرين باللَّهِ مُكَذِّبين

بآياته . والظُّلْمُ في الأصل : وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْر مَوْضِعِه ، وهُم وَضَعُوا الكُفْرَ في مَوْضِع الإيمان ، ﴿ وأنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِين﴾ ، أي : أوْجَدْنَا وأحْدَثْنَا بعد إهلاك أهْلِها قَوْمًا لَيْسُوا مِنها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا أحَسُّوا بَأْسَنَا إذا هُم مِنْهَا يَرْكُضُون ﴾ [الأنبياء : ١٢] .

فَلَمَّا رَأَوْا عذابَ اللَّهِ بِحَاسَّةِ البَصَرِ، وَتَيَقَّنُوا أنَّ العَذابَ واقعٌ بِهِم لا مَحَالة كَمَا وَعَدَهُم نَبِيُّهُم، إذا هُمْ مِن قَرْيتهم يَهْرُبُون مُسْرِعِين فَارِّين مُنهزمين .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٥٧٣) : ((﴿ فَلَمَّا أحَسُّوا بَأْسَنَا ﴾ ، أي : أدْرَكُوا أوْ رَأَوْا عَذَابَنَا. وقال الأخفش: خَافُوا وَتَوَقَّعُوا، أو البأس: العذاب الشديد، ﴿ إذا هُم مِنْهَا يَرْكُضُون ﴾ الرَّكْضُ:الفِرَارُ والهَرَبُ والانهزامُ. وأصْلُه مِن رَكَضَ الرَّجُلُ الدَّابَّةَ بِرِجْلَيْه. يُقَال: رَكَضَ الفَرَسَ:إذا كَدَّهُ بِسَاقَيْه، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قِيل: رَكَضَ الفَرَسُ إذا عَدَا . والمعنى: أنَّهُم يَهْرُبُون مِنها راكضين دَوَابَّهُم)).

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسألون﴾[الأنبياء: ١٣].

تَقُول لهم المَلائكةُ استهزاءً بِهِم وسُخْرِيَةً مِنهُم : لا تَركضوا هاربين مِن نُزولِ العَذابِ ، وارجعوا إلى مَا كُنتم فيه مِنَ النِّعْمَةِ والسُّرُورِ وَرَغَدِ العَيْشِ ، وارجعوا إلى مَساكنكم الطَّيبة ، التي كُنتم تَعِيشون فيها ، وتَفْتخرون بها ، لَعَلَّكُم تُسألون عَمَّا جَرَى عَلَيكُم . وهذا على طريقةِ التَّهَكُّمِ بِهِم ، والتَّوبيخِ لهم .

وقال القُرطبي في تفسيره (١١ / ٢٤٣) : ((﴿ لا تَركُضُوا ﴾ ، أي: لا تَفِرُّوا . وقِيل : إنَّ المَلائكة نادتهم لَمَّا انهزموا استهزاءً بِهِم ، وقالت: ﴿لا تَركُضُوا ﴾ ، ﴿ وَارْجِعُوا إلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ أي : إلى نِعَمِكُم التي كانت سَبَبَ بَطَرِكم ، والمُتْرَف : المُتَنعِّم . يُقَال : أُتْرِفَ على فُلان أي وُسِّعَ عَلَيه في مَعَاشِه . وإنَّما أتْرَفَهُم اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . ... . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسألون﴾ ، أي : لَعَلَّكُم تُسألون شَيْئًا مِن دُنياكم ، استهزاءً بِهِم ، قاله قَتَادَة . وقِيل : المَعنى : لَعَلَّكُم تُسألون عَمَّا نَزَلَ بِكُم مِن العُقوبةِ فَتُخْبِرُون به . وقيل : المَعنى : لَعَلَّكُم تُسألون أن تُؤْمِنُوا كما كُنتم تُسألون ذلك قَبْل نُزول البأس بِكُم . قِيل لهم ذلك استهزاءً وتَقْريعًا وتَوْبيخًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ [الأنبياء : ١٤] .

قالوا : يا هَلاكَنَا ودَمَارَنا ، إنَّا كُنَّا ظالمين لأنفُسِنا بالكُفْرِ باللَّهِ ، وتَكذيبِ الرُّسُل . لقد اعترفوا ونَدِمُوا بَعْدَ فَوَات الأوان، حِينَ لا يَنفعهم النَّدَمُ، ولا يُفِيد الاعترافُ. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٥٧٣) : ((أي: قالوا لَمَّا قالت لهم الملائكة : لا تَركضوا ، يَا وَيْلَنَا، أي يا هَلاكَنَا، إنَّا كُنَّا ظالمين لأنفُسِنا مُسْتَوْجِبِين العذابَ بِمَا قَدَّمْنَا، فاعترفوا على أنفُسِهم بالظُّلْمِ المُوجِب للعذاب)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خامدين ﴾ [الأنبياء: ١٥].

فَمَا زالتْ هذه المَقَالَةُ يَدْعُون بها ، ويُكَرِّرُونها ، ويُرَدِّدُونها ، ويَقُولون : يَا وَيْلَنَا ، حتى أهلكهم اللَّهُ بالعذابِ ، وتَرَكَهُم مِثْلَ الحَصِيدِ مَوْتَى كالزَّرْعِ المَحصودِ بالمَنَاجِل .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٧٣) : ((﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ ، أي: مَا زالتْ هذه الكَلِمَة دَعْوَاهُم ، أي : دَعْوتهم ، والكَلِمَةُ هِيَ قَوْلُهُم : يَا وَيْلَنَا ، أي: يَدْعُون بِها ويُرَدِّدُونها ، ﴿ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا ﴾ ، أي : بالسُّيُوفِ ، كما يُحْصَد الزَّرْعُ بالمِنْجَلِ ، والحَصِيدُ هُنَا بِمَعْنَى المَحْصُود ، وَمَعْنَى ﴿ خامدين ﴾ أنَّهُم مَيِّتُون ، مِن خَمَدَت النارُ ، إذا طُفِئَتْ ، فَشُبِّهَ خُمُود الحَيَاة بِخُمُود النار ، كما يُقَال لِمَن مَاتَ : قَد طُفِئ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلى قَرْيَةٍ أهْلَكْنَاهَا أنَّهُمْ لا يَرْجِعُون ﴾ [الأنبياء : ٩٥] .

وَمُمْتَنَعٌ على أهلِ قَريةٍ كافرة ، غَيْر مُتَصَوَّر مِنهُم ، أهلكها اللَّهُ بعذاب الاستئصال أن يَرجعوا إلى الدُّنيا . إنَّهُم مَمنوعون مِن ذلك ، لأنَّ اللَّهَ تعالى قَضَى على مَن أهلكه أن يَبقى في البَرْزَخِ إلى يَوْمِ القِيَامة . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٦٢) : ((يَقُول تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلى قَرْيَةٍ ﴾ . قال ابن عباس : وَجَبَ ، يَعْنِي قَدْ قَدَّرَ أنَّ أهل كُلِّ قرية أُهْلِكُوا أنَّهُم لا يَرْجِعُون إلى الدُّنيا قَبْل يَوْمِ القِيَامة. هكذا صَرَّحَ بِه ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقَتَادة وغَيْر واحد . وفي رواية عن ابن عباس : أنَّهُم لا يَرجعون ، أي : لا يَتُوبون ، والقَوْلُ الأول أظهر ، واللَّهُ أعلم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَكَأيِّن مِن قَريةٍ أهْلَكْناها وَهِيَ ظالمةٌ فَهِيَ خَاويةٌ على عُروشِها وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ [الحَج : ٤٥] .

كَمْ مِن قَريةٍ أهلكَ اللَّهُ أهلَها بعذاب الاستئصال ، وجَعَلَهَا أثَرًا إثْرَ عَيْن ، لأنَّ أهْلَها كانوا ظالمين لأنفسهم ، يَكْفُرون باللَّهِ ، ويَعْصُونه ، ويُكَذِّبون رُسُلَه ، وقَد سَقَطَتْ سُقُوفُها على الأرض ، وانهارتْ حِيطانُها فَوْقَ السُّقُوف ، فهي مُهَدَّمَة مَهجورة مَتروكة مُخَرَّبَة ، لا فائدة مِنها ، ولا أثر للحياة فيها . وَكَمْ مِن بِئْرٍ عُطِّلَتْ وتُرِكَتْ لا يُسْتَقَى مِنها، لِفَنَاءِ أهْلِها وهَلاكِهم، ولا يأتي إلَيها أحَد بَعْد أن كان الناس يَزدحمون عليها . وَكَمْ مِن قَصْر مَنِيع حَصِين مَرفوع البُنيان ، أصبحَ مَهجورًا وخاليًا بِلا سُكَّان بسبب هلاك أهله . والتَّقَدُّمُ الحضاري ، والرَّخَاءُ الاقتصادي ، وقُوَّةُ البِنَاءِ وإحكامُه ، كُلُّ ذلك لَمْ يَحْمِ الناسَ مِن عَذابِ اللَّهِ وشِدَّةِ بَأسِه . إنَّ هذا دَرْس بليغ تَجِب الاستفادةُ مِنه ، وعِبْرَة واضحة مِن أجْلِ الاعتبار والاتِّعَاظ ، وعدم تَكْرار أخطاء السابقين ، فإنَّ عذاب اللَّه أليم شديد ، يَنْبغي الابتعاد عنه ، وذلك بالتزام أوامر اللَّه واجتنابِ نَوَاهيه .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٦٨) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : وَكَمْ يَا مُحَمَّد مِن قَرية أهلكتُ أهْلَها وهُم ظالمون . يَقُول : وهُم يَعْبُدُون غَيْرَ مَنْ يَنبغي أن يُعْبَد ، ويَعْصُون مَن لا يَنْبغي لهم أن يَعْصُوه . وقَوْلُه : ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُروشِها ﴾ . يَقُول : فبادَ أهلُها وخَلَتْ وخَوَتْ مِن سُكَّانها ، فَخَرِبَتْ وَتَدَاعَتْ وتَساقطتْ عَلى عُروشها، يَعْني على بِنائها وسُقوفها... . وقَوْلُه: ﴿ وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ ﴾ يَقُول تعالى : فَكَأيِّن مِن قرية أهلكناها ، وَمِن بِئْرٍ عَطَّلْنَاها بإفناء أهلها وهَلاكِ وارديها ، فاندفنتْ ، وتَعَطَّلَتْ ، فلا واردة لها ، ولا شاربة منها ، وَمِن قَصْرٍ مَشِيد رفيع بالصُّخُور والجِصِّ ، قَد خَلا مِن سُكَّانه بِما أذَقْنَا أهْلَه مِن عذابنا بِسُوء فِعَالهم ، فبادوا ، وبَقِيَ قُصُورُهم المَشِيدة خاليةً مِنهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿وَكَأيِّن مِن قَرْيَةٍ أمْلَيْتُ لها وَهِيَ ظالمةٌ ثُمَّ أخَذْتُها وَإلَيَّ المصيرُ ﴾ [الحَج: ٤٨]. هذا تحذيرٌ إلهيٌّ شديد ، ودَعوة واضحة لعدم الاغترار بِحِلْمِ اللَّهِ وصَبْرِه . وفي الآية مُبالَغة في تَهويل أمر إهلاك الأُمَم وتَعظيمه وتَعْميمه ، مِن أجْلِ أخذ الحَيْطَةِ والحَذَر .

لقد أمهلَ اللَّهُ أقوامًا كثيرين مَعَ كُفرهم وضلالهم وظُلْمهم،وإصرارهم على انحرافهم، وأجَّلَهم ، وأخَّرَهم ، ومَنَحَهُم الفُرُصَ المُتتابعة ، ولَمْ يُعَاجِلْهُم بالعُقوبة والعَذاب ، فاغتروا بهذه المُهْلَة ، وفَهِمُوا حِلْمَ اللَّهِ عليهم بشكل خاطئ ، فَتَمَادَوْا في كُفْرهم وضَلالهم ، وازدادوا ظُلْمًا إلى ظُلمهم . ثُمَّ أخذهم اللَّهُ بالعذاب الشديد بعد طُول الإمهال ، وعَذَّبَهم في الدُّنيا ، واستأصلهم مِن الوُجود ، فَلَمْ يَعُدْ لهم أثَر ولا صَوْت . وإلى اللَّهِ المَرجعُ والمصيرُ ، ولَيْسَ لأحَدٍ آخَر ، واللَّهُ هو الحَكَمُ الحاكم ، لا شريك له في حُكْمه وأمره . ولا أحَد يَهْرَب مِنْهُ سُبحانَه ، ولا يَفُوته شيء . وكما عَذَّبَهم في الدُّنيا سَيُعذِّبهم في الآخِرة أشد العذاب . وهُم خالدون في النار ولَن يَخرجوا مِنها أبَدًا.وهذا وعيدٌ لكفار قُرَيش وتهديد وتخويف لهم ، فقد اغترُّوا بِحِلْمِ اللَّهِ عليهم، وطُولِ الإمهال، مَعَ كُفْرهم باللَّهِ وتكذيبِهم للنبيِّ ﷺ . فَلْيحذروا وَلْيَنتبهوا ، لِئلا يُعذِّبهم اللَّهُ كما عَذَّبَ مَن قَبْلَهم .

والآيةُ تُشير إلى حِلْمِ اللَّهِ وصَبْرِه ، وتُشير أيضًا إلى ظُلْم المُستعجِلين بالعذاب وجَهْلهم وضلالهم. وقال أبو حَيَّان في البحر المُحيط (٦/ ٣٧٩): ((لَمَّا كان تعالى قد أمهلَ قُرَيْشًا حتى استعجلتْ بالعذاب ، ذَكَرَ الآيةَ تنبيهًا على أنَّ السابقين أُمْهِلُوا ثُمَّ أُهْلِكُوا ، وأنَّ قُرَيْشًا وإنْ أملى تعالى لهم وأمهلهم ، فإنَّه لا بُد مِن عذابهم ، فلا يَفْرَحُوا بتأخير العذاب عنهم)) .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ١٧٢) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : ﴿وكَأيِّن مِن قَرْيَةٍ أمْلَيْتُ لها ﴾ يَقُول : أمْهَلْتُهُم وَأخَّرْتُ عَذَابَهم وهُم باللَّهِ مُشركون ، ولأمْرِه مُخَالِفُون ، وذلك كانَ ظُلْمَهم الذي وَصَفَهُم اللَّهُ بِه جَلَّ ثَنَاؤُه فَلَمْ أعْجَلْ بعذابهم ، ﴿ ثُمَّ أخَذْتُها ﴾ ، يَقُول : ثُمَّ أخَذْتُهَا بالعذاب

فَعَذَّبْتُهَا في الدُّنيا بإحلالِ عُقوبتنا بِهِم ، ﴿ وَإِلَيَّ المصيرُ ﴾ ، يَقُول : وَإِلَيَّ مَصِيرُهم أيضًا بَعْد هَلاكهم، فَيَلْقَوْنَ مِن العذاب حِينئذ مَا لا انقطاع له. يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : فكذلك حالَ مُسْتَعْجِليك بالعذاب مِن مُشركي قَوْمِكَ،وإنْ أمْلَيْتُ لهم إلى آجالهم التي أجَّلْتُهَا لهم،فَإنِّي آخُذُهُم بالعذاب، فَقَاتِلْهُم بالسَّيْفِ، ثُمَّ إلَيَّ مَصِيرُهُم بَعْد ذلك، فَمُوجِعهم إذَنْ عُقوبة عَلى مَا قَدَّمُوا مِن آثامهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِنَ القُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ [الأحقاف : ٢٧] . أهلكَ اللَّهُ القُرى المُجَاوِرَة لِكُم يا أهْلَ مَكَّة والمُحِيطة بِكُم ، كَقُرى عاد وثَمُود وسَبَأ وقَوْم لُوط ﷺ ، وغَيْرهم مِن الأُمَم المُهْلَكَة ، والمُراد بإهلاك القُرى إهلاكُ أهْلِهَا . وكانتْ أخبارُ القُرى المُجَاوِرَة لِبلادِ الحِجَازِ مُتَوَاتِرَةً عِند أهل مَكَّة. وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٠٧) : ((وقَوْلُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِنَ القُرَى﴾ ، يَعْنِي أهلَ مَكَّة. وَقَدْ أهلكَ اللَّهُ الأُمَمَ المُكَذِّبَةَ بالرُّسُلِ مِمَّا حَوْلَهَا كَعَاد ، وكانوا بالأحقاف بِحَضْرَمَوْت عِند اليَمَن ، وثَمُود ، وكانت مَنَازِلُهُم بَيْنَهُم وبَيْن الشام ، وكذلك سَبَأ ، وهُم أهل اليَمَن ، ومَدْيَن ، وكانتْ في طَرِيقهم ومَمَرِّهم إلى غَزَّة ، وكذلك بُحَيْرَة قَوْم لُوط ، كانوا يَمُرُّون بِها أيضًا)) .

وكَرَّرَ اللَّهُ الحُجَجَ والدَّلالاتِ والمَواعظَ والبَيِّنَات ، وَوَضَّحَهَا لَهُم لَعَلَّ أهْلَ القُرى يَرجِعُون عَن كُفْرِهِم وضَلالِهِم ، فَلَمْ يَرْجِعُوا ، فأهلكناهم . وهذا تَخويفٌ لِكُفَّار مَكَّة . وقِيل : صَرَّفْنَا آياتِ القُرْآن في الوَعْدِ والوَعِيدِ والقَصَصِ والإعجازِ ، لَعَلَّ هَؤلاء المُشركين يَرْجِعُون .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٢٩٥) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه لِكُفَّار قُرَيْش ، مُحَذِّرَهم بَأسَه وسَطْوَتَه أن يَحِلَّ بِهِم عَلى كُفْرِهم : ﴿ وَلَقَدْ أهْلَكْنَا ﴾ أيُّهَا القَوْمُ مِن القُرى مَا حَوْلَ قَرْيتكم كَحِجْر ثَمُود وأرض سَدُوم ومَأرِب ونَحْوِها، فَأنْذَرْنَا أهْلَهَا بالمَثُلاتِ (العُقُوبات) ، وخَرَّبْنَا دِيارَهم ، فَجَعَلْنَاهَا خَاوِيَةً عَلى عُرُوشِها . وقَوْلُه : ﴿ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ ﴾ ، يَقُول : وَوَعَظْنَاهُم بأنواع العِظَاتِ ، وذَكَّرْنَاهُم بِضُرُوبٍ مِن الذِّكْرِ والحُجَجِ ، وبَيَّنَّا لهم ذلك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وكَأيِّن مِن قَرْيَةٍ هِيَ أشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ التي أخْرَجَتْكَ أهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [مُحَمَّد : ١٣] . يُخَوِّف اللَّهُ كُفَّارَ مَكَّة بأنَّه قَد أهْلَكَ مَن هُوَ أقَوْى مِنهُم . وكَمْ مِن أهْلِ قَريةٍ كافرة ظالمة كانوا أقوى مِن أهل مَكَّة الذينَ أخرجوكَ يا مُحَمَّد مِنها ، أهلكهم اللَّهُ بالعذاب الشديد ، بسبب تكذيبهم للرُّسُل عليهم الصلاة والسلام، فَلَمْ يَنْصُرْهُم أحَد، ولَمْ يَدْفَعْ عَنهُم العذابَ ، فكذلك نَفْعَل بهؤلاء . بِالأَوْلَى مَن هُوَ أضعف مِنهُم ، وهُم قُرَيْش الذين هُم أهل قَرْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَهِيَ مَكَّة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٢٣) : ((قَوْلُه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ التي أخْرَجَتْكَ ﴾ يَعْنِي مَكَّة ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ ، وهذا تَهديدٌ شَديدٌ وَوَعِيدٌ أكيدٌ لأهل مَكَّة في تَكْذيبهم لرسول اللَّه ﷺ ، وَهُوَ سَيِّدُ الرُّسُلِ وخَاتَمُ الأنبياءِ ، فإذا كانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أهلكَ الأُمَمَ الذين كَذَّبُوا الرُّسُلَ قَبْلَه بسببهم ، وقَدْ كانوا أشدَّ قُوَّةً مِن هؤلاء ، فماذا ظَنُّ هَؤلاء أن يَفعل اللَّهُ بِهِم في الدُّنيا والأُخْرَى ؟ ، فإنْ رَفَعَ عَن كثير مِنهُم العُقوبةَ في الدُّنيا لِبَرَكَةِ وُجود الرَّسُول نَبِيِّ الرَّحمة ، فإنَّ العذاب يُوَفَّر على الكافرين بِه في مَعَادِهم . ... . وقَوْلُه تَعَالى : ﴿ مِن قَرْيَتِكَ التي أخْرَجَتْكَ ﴾ ، أي : الذينَ أخرجوكَ مِن بَيْنِ أظْهُرِهم . وقال ابن أبي حاتم : ذَكَرَ أبي عن مُحَمَّد بن عبد الأعلى عن المُعْتَمِر بن سُلَيْمَان عَن أبيه عن حَنَش عَن عِكْرِمَة عَن ابن عَبَّاس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا خَرَجَ مِن مَكَّة إلى الغَارِ ، أراه قالَ : فالتفتَ إلى مَكَّة ، وقال : " أنتِ أَحَبُّ بِلادِ اللَّهِ إلى اللَّهِ ، وأنتِ أَحَبُّ بِلادِ اللَّهِ إلَيَّ ، وَلَوْلا أنَّ المُشركين أخْرَجُوني لَمْ أَخْرُجْ مِنْكِ " ، فَأَعْدَى الأعداءِ مَن عَدَا على اللَّهِ تَعَالى في حَرَمه ، أوْ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِه ، أوْ قَتَلَ بِذُحُولِ الجَاهِلِيَّة (يَعْنِي أحقادَها وثأرَها) ، فأنزلَ اللَّهُ تَعَالى عَلى نَبِيِّه ﷺ : ﴿ وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ التي أخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾)) .

قال النَّبِيُّ ﷺ مُخَاطِبًا مَكَّةَ المُكَرَّمَة ، بَلَدَه العزيز المُحَبَّب إلى نَفْسِه الشَّريفة : ((وَاللَّهِ إنَّكِ لَخَيْرُ أرضِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ أرضِ اللَّهِ إلى اللَّهِ ، وَلَوْلا أنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ)) [٥] .

هذا يدلُّ على عَظَمَةِ مَكَّة، وتَفَوُّقِها على سائر البلاد ، فهي أعظمُ بُقْعَة على كوكب الأرض، وأحَبُّ مكان إلى اللَّه تعالى. وكُلُّ هذه الدلائل تُشير إلى مَكَانة مَكَّة الدِّينية والحَضَارية والتاريخية والجُغرافية، ومَركزيتها العظيمة ذات القَدَاسَة في الأرضِ والسماءِ، وأهميةِ الوطن في حياة الإنسان.

ولا شَكَّ أنَّ إخراج الإنسان مِن وَطنه يُعادِل قَتْلَه . إنَّه القَتْلُ المَعنويُّ ، حَيْث تَتِمُّ مُصَادَرَة تاريخه ، وتهشيم مراحل عُمُره ، وتَحْطيم ذِكْرياته ، وقَطْع العلاقات الاجتماعية معَ أهله وبيئته .

إنَّ مَكَّة المُكَرَّمَة هي أفضلُ البِقَاعِ على وَجْهِ الأرضِ ، وهي أحبُّ البِلادِ إلى اللَّهِ تعالى ، وشُرِّفَتْ بِبَيْتِ اللَّهِ الحَرَام .

قالَ النَّبِيُّ ﷺ مُخَاطِبًا مَكَّةَ المُكَرَّمَة : " وَاللَّهِ إنَّكِ لَخَيْرُ أرضِ اللَّهِ " ، أي : أفْضَلُها وأعْظَمُها، " وَأَحَبُّ أرضِ اللَّهِ إلى اللَّهِ ، وَلَوْلا أنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ " ، أي : بأمْرٍ مِنَ اللَّهِ تعالى ، وذلك بَعْدَمَا

---

٥ رواه الحاكم في المستدرَك (٣ / ٨) برقم (٤٢٧٠) وصَحَّحه ، ووافقه الذهبي .

زَادَ أذى قُرَيْش لَهُ وَلِمَنْ أسلمَ مَعَه ، " مَا خَرَجْتُ " ، أي : لَبَقِيتُ بِمَكَّة المُكَرَّمَة ، وكانَ النَّبِيُّ ﷺ خَرَجَ مُهَاجِرًا مِن مَكَّة إلى المَدِينة .

وفي الحَديثِ : أفضليَّةُ مَكَّةَ المُكَرَّمَة عَلى غَيْرِها مِن سَائرِ البُلْدَان . وفيه : تَعظيمُ الأدبِ في مُفَارَقَة بَيْتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وقال المباركفوري في تُحفة الأحوذي(١٠/٢٩٤) : (((فقال) أي مُخَاطِبًا للكَعْبَةِ وَمَا حَوْلَهَا مِن حَرَمِهَا (وَلَوْلا أنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ) أي بِأمْرٍ مِن اللَّهِ (مَا خَرَجْتُ) فِيه دَلالة عَلى أنَّه لا يَنْبغي للمُؤمن أن يَخرج مِن مَكَّة إلا أن يُخْرَج مِنها حقيقةً أوْ حُكْمًا، وَهُوَ الضَّرورة الدِّينية أو الدُّنيوية)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وكَمْ أهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ هُمْ أشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا في البِلادِ هَلْ مِن مَحِيص ﴾ [ق : ٣٦] .

أهلكَ اللَّهُ قَبْلَ كُفَّارِ قُرَيْش أُمَمًا كَثيرين مِن الكُفَّار المُجرمين ، أقْوَى مِن كُفَّار قُرَيْشٍ قُوَّةً ، وأعْظَم مِنهُم فَتْكًا وبَطْشًا ، فَسَارُوا في البلاد ، وطَوَّفُوا فِيها ، وجالوا في أقطارها ، فَهَلْ كانَ لَهُم مِن المَوْتِ مَهْرَبٌ ؟ ، وَهَلْ كانَ لَهُم مِن عَذابِ اللَّهِ مَخْلَصٌ ؟ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٩٢) : ((يَقُول تَعَالى : وكَمْ أهْلَكْنَا قَبْلَ هَؤلاء المُكَذِّبِين ﴿ مِن قَرْنٍ هُمْ أشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ ، أي : كانوا أكثرَ مِنهُم ، وأشدَّ قُوَّةً ، وأثاروا الأرضَ وعَمَرُوها أكثرَ مِمَّا عَمَرُوها ، ولهذا قالَ تَعَالى هَهُنا : ﴿ فَنَقَّبُوا في البِلادِ هَلْ مِن مَحِيص ﴾ . قال ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عنهما: أثَّرُوا فيها. وقال مُجَاهِد : ﴿ فَنَقَّبُوا في البِلادِ ﴾ ضَرَبُوا في الأرض. وقال قَتَادَة: فَسَارُوا في البلاد ، أي : سَارُوا فِيها يَبْتَغُون الأرزاقَ والمَتاجر والمكاسب أكثرَ مِمَّا طُفْتُم بِهَا . ويُقَال لِمَن طَوَّفَ في البِلاد : نَقَّبَ فِيها . قال امْرُؤُ القَيْس :

لَقَدْ نَقَّبْتُ في الآفاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الغَنِيمَةِ بالإيَابِ

وَقَوْلُه تَعَالى : ﴿ هَلْ مِن مَحِيص ﴾ ، أي : هَلْ مِن مَفَرٍّ كانَ لَهُم مِن قَضاءِ اللَّهِ وقَدَرِه ؟ وهَلْ نَفَعَهُم مَا جَمَعُوه وَرَدَّ عَنهُم عَذابَ اللَّهِ إذْ جاءهم لمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ؟ ، فأنتم أيضًا لا مَفَر لَكُم ، ولا مَحِيد ، ولا مَنَاص ، ولا مَحِيص)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١١٣) : ((خَوَّفَ سُبحانَه أهْلَ مَكَّة بِمَا اتَّفَقَ للقُرُون الماضية : ﴿ قَبْلَهُم ﴾ ، أي : قَبْل قُرَيْش ومَن وَافَقَهُم ﴿ مِن قَرْنٍ ﴾ أي : مِن أُمَّةٍ ﴿ هُمْ أشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ ، أي : قُوَّةً كَعَاد وثَمُود وغَيْرِهما ، ﴿ فَنَقَّبُوا في البِلادِ ﴾ ، أي: سَارُوا وتَقَلَّبُوا فِيها وطافوا بقاعها ، وأصله مِن النَّقْب ، وهو الطريق . قال مُجَاهِد : ضَرَبُوا وطَافُوا . وقال النَّضْرُ بن شُمَيْل :

دَوَّرُوا . وقال المُؤرِّج : تَبَاعَدُوا ، والأوَّلُ أَوْلَى . ... . ﴿ هَلْ مِن مَحِيص ﴾ ، أي : هَلْ لَهُم مِن مَهْرَبٍ يَهْرُبُون إلَيه أوْ مَخْلَص يَتَخَلَّصُون بِه مِن العذاب ؟ . قال الزَّجَّاج : لَمْ يَرَوْا مَحِيصًا مِن المَوْتِ . ... . والجُملةُ مُسْتَأنَفَة لبيان أنَّه لا مَهْرَب لهم . وفي هذا إنذارٌ لأهلِ مَكَّة أنَّهُم مِثْل مَن قَبْلَهم مِن القُرُون ، لا يَجِدُون مِن المَوْتِ والعَذابِ مَفَرًّا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد﴾[ق:٣٧].

إنَّ فِيما ذُكِرَ مِن إهلاكِ القُرى الظالمةِ تَذكرةً ومَوعظةً لِمَن كانَ له عَقْل واعٍ يَتَدَبَّر بِه ، ويَتَفَكَّر في الحقائق ، أوْ أصغى إلى المَوعظةِ والإرشادِ ، وهو حاضرُ القلبِ ، وحاضرٌ بِفِطْنته ، لَيْسَ بغافلٍ ولا سَاهٍ ، لِيَفْهَمَ المَعَاني ، ويَتَذَكَّر وَيَتَّعِظ . ومَن لا يَفْهَم في حُكْمِ الغائبِ ، وإنْ حَضَرَ بِجِسْمِه ، فهو لَمْ يَحْضُرْ بِفَهْمِه ، والشخصُ لا يَكُون حاضرًا وقلبُه غائب. وَمَن لا يَحْضُر ذِهْنُه فكأنَّه غائب، ومَن لا يَعِي قلبُه فكأنَّه لا قلب له .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٨ / ٢٢) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ يَعْني الذي ذَكَرَه مِن إهلاك القُرى ﴿ لَذِكْرَى ﴾ ، أي : تَذكرة وَعِظَة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ . قال ابن عباس : أي: عَقْل . قال الفَرَّاءُ : وهذا جائز في اللغة أن تَقُول : مَا لَكَ قَلْب ، ومَا مَعَكَ قَلْبُك ، تُريد العَقْل . وقال ابنُ قُتَيبة : لَمَّا كان القَلْبُ مَوْضِعًا للعَقْلِ ، كَنَّى بِه عَنْه . وقال الزَّجَّاج : المَعْنَى : لِمَن صُرِفَ قَلْبُه إلى التَّفَهُّم ، ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ ، أي : استمعَ مِنِّي ، ﴿ وَهُوَ شَهِيد﴾ ، أي : وَقَلْبُه فِيما يَسْمَع . وقال الفَرَّاء : ﴿ وَهُوَ شَهِيد﴾ ، أي : شاهد لَيْسَ بغائب)) .

وفي تَنكيرِ ﴿ قَلْبٌ ﴾ وإبهامِه تَفخيمٌ وإشعارٌ بأنَّ كُلَّ قَلْبٍ لا يَتَفَكَّر ولا يَتَدَبَّر، وُجُودُه كَعَدَمِه.

وعَبَّرَ عَن العقلِ بالقلبِ لأنَّه مَوْضِعُه ومَحَلُّ استقرارِه ، كما قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ التي في الصُّدُورِ ﴾ .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨ / ١٣٤) : ((﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ ، أي : فِيما ذُكِرَ مِن قِصَّتهم . وقِيل : فِيما ذُكِرَ في السُّورة ، ﴿ لَذِكْرَى ﴾ لَتذكرة وَعِظَة ، ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ ، أي : قَلْبٌ سَلِيمٌ يُدْرِك بِه كُنْهَ مَا يُشاهده مِن الأُمُور ويَتَفَكَّر فِيها كَمَا يَنْبغي، فَإنَّ مَن كان له ذلك يَعْلَم أنَّ مَدَار دَمَارهم هُوَ الكُفْر ، فَيَرتدع عَنْهُ بِمُجَرَّد مُشَاهَدَة الآثار مِن غَيْرِ تَذكير ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ أي : إلى مَا يُتْلَى عَلَيه مِنَ الوَحْي الناطق بِما جَرَى عَلَيهم ، فَإنَّ مَن فَعَلَه يَقِف عَلى جَلِيَّة الأمر ، فَيَنزجر عَمَّا يُؤَدِّي إليه مِن الكُفْرِ ، فكلمةُ " أوْ " لِمَنعِ الخُلُوِّ دون الجَمْع ، فإنَّ إلقاء السَّمْع لا يُجْدِي بِدُون سلامة القلب ، كَمَا يَلُوح بِه قَوْلُه تعالى : ﴿ وَهُوَ شَهِيد﴾ ، أي : حَاضِرٌ بِفِطْنته ، لأنَّ

مَن لا يَحْضُر ذِهْنُه فكأنَّه غائب . وتَجريدُ القلب عَمَّا ذُكِرَ مِن الصِّفَات للإيذان بأنَّ مَن عُرِّيَ قَلْبُه عَنها ،كَمَن لا قَلْبَ له أصْلًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴾ [الطلاق : ٨] .

تَوَعَّدَ اللَّهُ مَن خَالَفَ أمْرَه ، وكَذَّبَ رُسُلَه ، وَسَلَكَ غَيْرَ مَا شَرَعَه ، وأخبرَ عَمَّا حَلَّ بالأُمَمِ السالفةِ بسبب ذلك ، مِن أجل أخذِ الدُّرُوسِ والعِبَرِ ، وعَدَم تَكْرار أخطاء الآخرين وخطاياهم ، والعاقلُ مَن اتَّعَظَ بِغَيْرِه .

وكثيرٌ مِن القُرى الكافرةِ الظالمةِ ، والمَقصودُ أهْلُها ، طَغَتْ وَتَمَرَّدَتْ عَلى أوامرِ اللَّهِ وأوامرِ رُسُلِه الكِرَامِ _ عليهم الصلاة والسلام _ ، فَحَاسَبَهَا اللَّهُ على عِصْيَانها وطُغْيَانها ، وعَذَّبَهَا عَذابًا مُنْكَرًا عظيمًا يَفُوق التَّصَوُّرَ ، والمُرادُ حِسَابُ الآخِرَةِ وعَذَابُ النار ، ولَفْظُهُمَا ماضٍ ، ومَعْناهما الاستقبال ، والتَّعبيرُ بلفظ الماضي للتَّحقيق .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٤٥) : ((﴿ وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ يَعْنِي : عَصَتْ ، والمُراد : أهْلُها ، والمَعْنَى : وكَمْ مِن أهْلِ قَريةٍ عَصَوْا أمْرَ اللَّهِ ورُسُلِه ، أوْ أعْرَضُوا عَن أمْرِ اللَّهِ ورُسُلِه عَلى تَضْمِين ﴿ عَتَتْ ﴾ مَعْنَى أعْرَضَتْ. .... . ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾ ، أي : شَدَّدْنَا عَلى أهْلِها في الحِسَاب بِما عَمِلُوا . قال مُقَاتِل : حَاسَبَهَا اللَّهُ بعملها في الدُّنيا ، فَجَازَاهَا بالعذاب ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِه : ﴿ وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴾ ، أي : عَذَّبْنَا أهْلَهَا عذابًا عظيمًا مُنْكَرًا في الآخِرَةِ. وقِيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخير ، أي : عَذَّبْنَا أهْلَهَا عَذابًا نُكْرًا في الدُّنيا بالجُوعِ والقَحْطِ والسَّيْفِ والخَسْفِ والمَسْخِ ، وحاسبناهم في الآخِرَةِ حِسابًا شديدًا . والنُّكْرُ : المُنْكَر)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٩] .

فَذَاقَتْ عَاقِبَةَ كُفْرِها وطُغيانِها وتَمَرُّدِها على أوامرِ اللَّهِ ورُسُلِه الكِرَامِ عليهم الصلاة والسلام ، ونَدِمُوا حَيْث لا يَنفعهم النَّدَمُ ، وبَعْدَ فَوَاتِ الأوانِ . وكانتْ نتيجةُ بَغْيِها الهلاكَ والدَّمَارَ ، والخُسْرَانَ الذي مَا بَعْدَه خُسْرَان ، لأنَّهُم فَضَّلُوا حُطَامَ الدُّنيا الفاني على نَعيمِ الآخِرَةِ الباقي ، وآثَرُوا اتِّبَاعَ أهوائهم على اتِّبَاعِ أوامرِ اللَّهِ تعالى . وَجِيءَ بلفظ الماضي ، لأنَّ وَعْدَ اللَّهِ وَوَعِيدَه واقعان لا مَحَالة ، وكائنان بلا شَك . ومَا سَيَكُون فَكَأنَّه قَدْ كانَ وتَمَّ في الحقيقة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٤٥) : ((﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ ، أي : عَاقِبَةَ كُفْرِهَا ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ ، أي : هَلاكًا في الدُّنيا ، وعَذابًا في الآخِرَة)) .

٣ــ ابْنَا آدم (هابيل وقابيل)

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ المُتَّقِين ﴾ [المائدة : ٢٧] .

وَاقْصُصْ يا مُحَمَّدُ خَبَرَ ابْنَي آدَمَ لِصُلْبِه على هؤلاء اليهودِ وغَيْرِهم بالحَقِّ والصِّدْقِ الثابت الذي لا لَبْسَ فِيه ولا كَذِب ولا زيادة ولا نُقْصَان ، وذَكِّرْهُم بهذه القِصَّة فهي قِصَّة حقيقية واقعية ، حِينَ أَخْرَجَ كُلُّ واحدٍ مِن الأخَوَيْن شيئًا يُتَقَرَّب بِه مِن اللَّهِ تعالى ، وَهُوَ كَبْشٌ لهابيل ، وزَرْعٌ لقابيل، فَتُقُبِّلَ مِن هابيل بأن نَزَلَتْ نارٌ مِن السَّمَاء فأكلتْ قُربانَه، ولَمْ يُتَقَبَّلْ مِن قابيل . والقُرْبَانُ اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُتَقَرَّب بِه إلى اللَّهِ تعالى مِن ذَبيحة أوْ غَيْرها. غَضِبَ قابيل ، وَحَسَدَ أخاه ، وَتَوَعَّدَه بالقتل. قال هابيل : إنَّما يَتَقَبَّل اللَّهُ العَمَلَ مِمَّن اتَّقَى رَبَّهُ ، وأخْلَصَ نِيَّته . فَأيُّ ذَنْبٍ لِي يُوجِبُ لَكَ قتْلي إلَّا أنِّي اتَّقَيْتُ اللَّهَ الذي تَقْوَاه واجبةٌ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ ؟! ، فَكُنْ أنتَ مِن المُتَّقِين حَتَّى يُتَقَبَّلَ مِنْكَ أيضًا .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ٣١٤) : ((﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ ﴾ قابيل وهابيل . أَوْحَى اللَّهُ سُبحانَه وتَعَالى إلى آدم أن يُزَوِّجَ كُلَّ واحدٍ مِنهما تَوْأمَةَ الآخَر ، فَسَخِطَ مِنْهُ قابيل ، لأنَّ تَوْأمَتَه كانتْ أجْمَل ، فقال لَهُمَا آدم : قَرِّبَا قُرْبَانًا ، فَمِن أيِّكُمَا قُبِلَ تَزَوَّجَهَا ، فَقُبِلَ قُرْبَان هابيل ، بأنْ نَزَلَتْ نار فَأكَلَتْهُ ، فازدادَ قابيل سَخَطًا ، وَفَعَلَ مَا فَعَلَ ، .... . ﴿ بِالحَقِّ ﴾ صِفَة مَصْدَر مَحذوف ، أي : تِلاوة مُلْتَبِسَة بالحَقِّ ، أوْ حال مِن الضَّمير في " اتْلُ " ، أوْ مِن " نَبَأ " أي مُلْتَبِسًا بالصِّدْقِ مُوَافِقًا لِمَا في كُتُبِ الأوَّلين ، ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ ، ... . وقِيل: تَقْديره : إذْ قَرَّبَ كُلُّ واحدٍ مِنهما قُرْبَانًا. قِيل : كان قابيل صَاحِب زَرْع ، وَقَرَّبَ أردأَ قَمْح عِندَه ، وهابيل صَاحِب ضَرْع، وَقَرَّبَ جَمَلًا سَمِينًا ، ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ ، لأنَّه سَخِطَ حُكْمَ اللَّهِ سُبحانَه وتعالى ، ولَمْ يُخْلِص النِّيَّةَ في قُرْبَانِه ، وَقَصَدَ إلى أخَسِّ مَا عِندَه ، ﴿ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ تَوَعَّدَه بالقَتْلِ لِفَرْطِ الحسد له عَلى تَقَبُّل قُرْبَانه ، ولذلك ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ المُتَّقِين ﴾ في جَوَابِه ، أي : إنَّما أُتِيتَ مِن قِبَل نَفْسِك بِتَرْكِ التَّقْوَى لا مِن قِبَلي ، فَلِمَ تَقْتُلُني ؟ . وفيه إشارة إلى أنَّ الحاسد يَنبغي أن يَرى حِرْمَانَه مِن تَقْصِيره ، ويَجتهد في تَحصيل مَا بِه صَار المَحسود مَحظوظًا، لا في إزالة حَظِّه ، فإنَّ في ذلك مِمَّا يَضُرُّه ولا يَنفعه ، وأنَّ الطاعة لا تُقْبَل إلا مِن مُؤمِن مُتَّقٍ)) .

إنَّ قِصَّةَ ابْنَي النَّبِيِّ آدم ﷺ (هابيل وقابيل) تَعكِس الصِّرَاعَ بَين الخَيْرِ والشَّر ، فَقَدْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن هابيل ، ولَمْ يُتَقَبَّلْ مِن قابيل ، فأرادَ قابيلُ قتلَ أخيه . وقَدْ نَفَّذَ جريمته بالفِعْل ، فأقدمَ

على قَتْلِ أخيه . وعَلى المَرْءِ أن يُفَكِّر في عواقب الأُمور قَبْل الخَوْض فِيها ، لِكَيْلا يَنْدَم يَوْم لا يَنفَع النَّدَم ، وبعد فَوَات الأوان .

إنَّ أصل المُشكلة كامنٌ في الطَّمَعِ والشَّهْوَةِ الإنسانية المُتَأجِّجة . والنَّفْسُ البشرية لا تَشْبَع ، وهي تُريد المَزيدَ باستمرار. وقابيل تَحَركت غَريزته بِكُلِّ شَرَاسة ، وغَضِبَ على أخيه بسبب موضوع الزَّوَاج ، ثُمَّ ازدادَ حَنَقًا وَغَضَبًا لأنَّ قُرْبَانَه لَمْ يُقْبَلْ ، وهذا مَا قاده إلى اقتراف أول جريمة قَتْل في تاريخ العَالَم . والغَضَبُ والحَسَدُ سَلَبَا مِنْهُ العَقْلَ ، والقُدرةَ على التَّفكير في عواقب الأُمُور .

والجَديرُ بالذِّكْرَ أنَّ اسْمَي هَابيل وقابيل لَمْ يَرِدَا في القُرْآنِ الكريم ، لكنَّهما وَرَدَا في التَّوراة : ((وَعَرَفَ آدَمُ حَوَّاءَ امْرَأتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايين . وقالت اقْتَنَيْتُ رَجُلًا مِن عِندِ الرَّبِّ . ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أخَاهُ هابيل)) [تَكْوين ٤ : ١و٢] .

وعن عبد اللَّه بن مسعود ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : ((لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إلا كانَ عَلى ابْنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِن دَمِهَا ، وَذَلِكَ لأنَّهُ أوَّلُ مَن سَنَّ القَتْلَ)) [٦] .

مِن سُنَنِ اللَّهِ في خَلْقِه ومِن عَدْلِه وحِكمتِه أنَّ مَن ابتدعَ في الدِّينِ أوْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئةً ، فإنَّ عليه وِزْرَ ذلك وَوِزْرَ مَن عَمِلَ بها إلى يَومِ القِيامة .

لَمَّا كانَ ابنُ آدمَ الأوَّلُ الذي قَتَلَ أخاه هُوَ أوَّلَ مَن سَنَّ القَتْلَ بِغَيرِ حَقٍّ (جَعَلَه طَريقةً مُتَّبَعَةً وسِيرةً سَيِّئةً ولَمْ يَقْتُلْ قَبْلَه أحدٌ أحدًا) ، فإنَّ عليه نصيبًا مِن كُلِّ قَتْلٍ يَحْدُث إلى يَومِ القِيامة .

وفي هذا حَثٌّ على اجتنابِ البِدَعِ والمُحْدَثَاتِ في الدِّينِ ، لأنَّ الذي يُحْدِث البِدْعَةَ رُبَّمَا تَهَاوَنَ بها لِخِفَّةِ أمْرِها في الأوَّل ، ولا يَشْعُر بِما يَترتَّب عليها مِن المَفسدةِ ، وهو أن يَلْحَقَه إثمُ مَن عَمِلَ بِها مِن بَعْدِه ، إذْ كانَ هو الأصلَ في إحداثها .

وفي الحَديثِ تَحريمُ دَمِ المُسْلِمِ إلا بالحَقِّ ، كَمَا قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بالحَقِّ ﴾ [الإسراء : ٣٣] .

إنَّ قابيل هو إمام القاتلين ، لأنَّه أوَّل مَن ارتكبَ جريمةَ القَتْلِ في التاريخ ، فَسَنَّ سُنَّةً قبيحةً سَيَظَلُّ عَلَيه وِزْرُها حتى يوم القيامة . وبارتكابه لهذه الجريمة الشنيعة يَكُون قَدْ فَتَحَ بابَ القَتْل ، وكُلُّ مَن اقتدى بِه في هذا المَجَال سَيَكُون آثِمًا ، كما أنَّ قابيل سَيَتَحَمَّل آثامَهم أيضًا ، لأنَّه قَد أرشدهم إلى طَريقِ الغَوَاية والضَّلال .

---

٦ متفق عليه. البخاري (٣ / ١٢١٣) برقم (٣١٥٧) ، ومسلم (٣ / ١٣٠٣) برقم (١٦٧٧) .

وفي هذا دَلالةٌ واضحة على أنَّ الإمام يَتَحَمَّل آثامَ الأتْبَاع إنْ أرشدهم إلى الضَّلالِ ، لأنَّه قُدوة ومَثَل أعلى لأتْبَاعه . وفي الجِهة المُقابِلة إنْ فَتَحَ لهم أبوابَ الخير والصلاح فَسَوْف يَنَال الأجْرَ ، وأجْرَ مَن يَتَّبِعه إلى يَوم القِيامة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مُسْلِم (١١ / ١٦٦) : ((وهذا الحديث مِن قواعد الإسلام ، وهو أنَّ كُلَّ مَن ابتدعَ شيئًا مِن الشَّر كانَ عَلَيه مِثْل وِزْر كُلِّ مَن اقتدى به في ذلك العمل مِثْل عَمَلِه إلى يَوم القِيامة . ومِثْلُه مَن ابتدعَ شيئًا مِن الخَيْر كانَ له مِثْل أجْر كُلِّ مَن يَعْمَل به إلى يَوم القِيامة ، وهو مُوافِق للحديث الصحيح : " مَن سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً " ، " ومَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً " ، وللحديث الصحيح : " مَن دَلَّ عَلى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فاعله " ، وللحديث الصحيح : " مَا مِن دَاعٍ يَدْعُو إلى هُدى " ، " وَمَا مِن دَاعٍ يَدْعُو إلى ضَلالة " ، واللَّهُ أعلم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني مَا أنا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إلَيْكَ لأقْتُلَكَ إنِّي أخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِين ﴾ [المائدة : ٢٨] [٧] .

قال هابيل لأخيه قابيل : لَئِن مَدَدْتَ إلَيَّ يَدَكَ ظُلْمًا لأجْلِ قَتْلي مَا كُنْتُ لأُقابلكَ بالمِثْل . أي: لَئِن بَدَأتني بالقتلِ فَمَا أنا بالذي أبْدَؤُكَ بالقَتْلِ ، والمَعنى: مَا أنا بِمُنْتَصِر لِنَفْسِي ، وأنا لا أَمُدُّ يَدِي إلَيْكَ لأنِّي أخافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِين في قَتْلِكَ .

قِيل : كان هابيل أقوى مِن قابيل ، وأبطشَ مِنْه ، ولكنْ تَحَرَّجَ عَن قَتْلِ أخيه ، واستسلمَ له خَوْفًا مِن اللَّهِ تعالى ، وطَلَبًا للأجر ، لأنَّ الدَّفْعَ لَمْ يَكُن مُبَاحًا في ذلك الوقت ، وقِيل : بَلْ كان ذلك واجبًا ، فإنَّ فيه إهلاك نَفْسِه ومُشاركة للقاتل في إثمِه ، وإنَّما قَتَلَه فَتْكًا عَلى غَفْلَةٍ مِنْه .

وإنَّما قال : ﴿ مَا أنا بِبَاسِطٍ ﴾ في جَوَاب ﴿ لَئِن بَسَطتَ ﴾ للتَّبَرِّي عَن هذا الفِعْلِ الشَّنيع رَأسًا، والتَّحَرُّزِ مِن أن يُوصَف بِه ، ويُطْلَق عَلَيه ، لذلك أكَّدَ النَّفْيَ بالباء .

---

٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣٣٤ و٣٣٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ مَا أنا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إلَيْكَ لأقْتُلَكَ ﴾ ، فيه قَوْلان : أحدهما مَا أنا بمنتصر لِنَفْسِي ، قاله ابن عباس. والثاني مَا كُنْتُ لأبتدئكَ ، قاله عِكْرمة. وفي سبب امتناعه مِن دَفعِه عنه قَولان: أحدهما أنَّه مَنَعَه التَّحَرُّجُ معَ قُدرته على الدَّفع وجَوَازه له ، قاله ابن عُمَر وابن عباس. والثاني أنَّ دَفع الإنسان عَن نَفْسِه لم يَكُن في ذلك الوقت جائزًا ، قاله الحسن ومجاهد . وقال ابن جرير : لَيْسَ في الآية دليلٌ على أنَّ المقتول عَلِمَ عَزْمَ القاتلِ على قَتْلِه ثم تَرَكَ الدفعَ عَن نَفْسِه ، وقَد ذُكِرَ أنَّه قَتَلَه غِيلةً (خُفْيَةً واغتيالًا) ، فلا يُدَّعَى مَا لَيْسَ في الآية إلا بدليل)) .

وقال الطبري في تفسيره (٤ / ٥٣٢) : ((إنَّ اللَّه عَزَّ ذِكْرُه قَد كانَ حَرَّمَ عليهم قَتْلَ نَفْس بِغَيْر نَفْس ظُلْمًا ، وأنَّ المَقتول قال لأخيه : مَا أنا بباسط يَدِيَ إلَيْكَ إنْ بَسَطْتَ إلَيَّ يَدَكَ ، وإنَّما كانَ حَرامًا عليه مِن قَتْلِ أخيه مِثْل الذي كانَ حرامًا على أخيه القاتل مِن قَتْلِه،فأمَّا الامتناع مِن قَتْلِه حِينَ أرادَ قَتْلَه فَلا دَلالة على أنَّ القاتل حِينَ أرادَ قَتْلَه وعَزَمَ عليه كان المقتول عَالِمًا بما هو عليه عازم مِنْه ومُحَاوِلٌ مِن قَتْلِه، فَتَرَكَ دَفْعَه عن نَفْسِه،بَلْ قَد ذَكَرَ جماعة مِن أهل العِلْم أنَّه قَتَلَه غِيلةً، اغتاله وهو نائم ، فَشَدَخَ رَأسَه بصخرة . فإذا كان ذلك مُمْكِنًا ولَمْ يَكُن في الآية دَلالة على أنَّه كان مَأمورًا بترك مَنْع أخيه مِن قَتْلِه ، لَمْ يكن جائزًا ادِّعَاء مَا لَيْسَ في الآية إلا بِبُرْهَان يَجِب تَسْلِيمُه . وأمَّا تأويلُ قَوْلِه : ﴿ إنِّي أخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِين ﴾ فإنَّه : إنِّي أخافُ اللَّهَ في بَسْطِ يَدِي إلَيْكَ إنْ بَسَطْتُهَا لِقَتْلِك . ﴿ رَبَّ العَالَمِين ﴾ يَعْني: مَالِك الخَلائق كُلِّهَا أن يُعَاقبني على بَسْط يَدِي إلَيْكَ)).

وقال القُرطبي في تفسيره (٦ / ١٣٠) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إلَيَّ يَدَكَ ﴾ الآية . أي: لَئِن قَصَدْتَ قَتْلي فأنا لا أقْصِد قَتْلَكَ ، فهذا استسلام مِنْهُ . وفي الخَبَر : " إذا كانت الفِتْنَةُ فَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَي آدم " . وروى أبو داود : [عن سعد بن أبي وَقَّاص قال : قُلْتُ : يا رسول اللَّه ، إنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتي وَبَسَطَ يَدَهُ إلَيَّ لِيَقْتُلَنِي ؟ ، قال : فقال رسول اللَّه ﷺ : " كُنْ كَخَيْرِ ابْنَي آدم" وتلا هذه الآية ﴿ لَئِن بَسَطتَ إلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني ﴾] . قال مُجَاهِد : كانَ الفَرْضُ عَلَيه حِينئذٍ ألا يَسْتَلَّ أحدٌ سَيْفًا ، وألا يَمْتَنِع مِمَّن يُريد قَتْلَه . قال عُلَمَاؤنا : وذلك مِمَّا يَجُوز وُرود التَّعَبُّد بِه ، إلا أنَّ في شَرْعِنا يَجُوز دَفْعُه إجماعًا . وفي وُجوب ذلك عليه خِلاف ، والأصحُّ وُجوب ذلك لِمَا فيه مِن النَّهْي عن المُنْكَر . وفي الحَشْوِيَّةِ قَوْمٌ لا يُجَوِّزُون للمَصُول عَلَيه الدَّفْع ، واحْتَجُّوا بحديث أبي ذَر . وحَمَلَه العُلماءُ على ترك القِتال في الفِتْنَة ، وكَف اليد عِند الشُّبْهَة ، على مَا بَيَّنَّاه في كِتاب التَّذكرة . وقال عبد اللَّه بن عمرو وجُمهور الناس : كان هابيل أشدَّ قُوَّةً مِن قابيل ، ولكنَّه تَحَرَّجَ . قال ابنُ عَطِيَّة : وهذا هو الأظهر، ومِن هَاهُنا يَقْوَى أنَّ قابيل إنَّما هو عاصٍ لا كافر ، لأنَّه لَوْ كانَ كافرًا لَمْ يَكُن للتَّحَرُّجِ هُنا وَجْه ، وإنَّما وَجْهُ التَّحَرُّج في هذا أنَّ المُتَحَرِّج يَأبى أن يُقَاتِل مُوَحِّدًا ، ويَرْضَى بأن يُظْلَم لِيُجَازَى في الآخِرة ، ونَحْو هذا فَعَلَ عُثمان ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ وقِيل : المَعْنى : لا أقْصِد قَتْلَكَ بَلْ أقْصِد الدَّفْعَ عَن نَفْسِي . وعلى هذا قِيل : كان نائمًا فجاء قابيل وَرَضَخَ رَأسَه بِحَجَر على ما يأتي . ومُدَافَعَة الإنسان عَمَّن يُريد ظُلْمَه جائزة ، وإنْ أتى على نَفْسِ العادي.وقِيل : لَئِنْ بَدَأتَ بِقَتْلي فلا أبدأ بالقتل . وقِيل : أرادَ لَئِن بَسَطْتَ إلَيَّ يَدَكَ ظُلْمًا فَمَا أنا بظالم ، إنِّي أخاف اللَّهَ رَبَّ العَالَمِين)) .

وفي سُنَنِ أبي داود (٢ / ٥٠١) أنَّ سَعْد بن أبي وَقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عنه قال : يا رسول اللَّه، أرأيتَ إنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي، وَبَسَطَ يَدَهُ لِيَقْتُلَنِي ؟، قال: فقال رسولُ اللَّه ﷺ: ((كُنْ كَابْنَي آدَمَ)). وتَلا يَزيد _ أحد رُواة الحديث _ ﴿ لَئِن بَسَطتَ إلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني ﴾ الآية .

إنْ وَصَلَتْ تِلْك الفِتْنَة إلى بَيْتي وأُريدَ فيها قَتْلِي، " كُنْ كَابْنَي آدَمَ "،أي: كُنْ مِثْلَ ابن آدَمَ ﷺ المقتولِ عِندما أرادَ أخُوه قَتْلَه ، فَلَمْ يَدْفَعْهُ بِقِتَالٍ حتى كانَ هُوَ المَقتولَ . وقراءةُ الآية : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني مَا أنا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إلَيْكَ لأقْتُلَكَ إنِّي أخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِين ﴾ إتمامٌ لِتَحذيرِ النَّبِيِّ ﷺ مِن المُشاركة في الفِتْنَة ، حَتَّى لَوْ كانَ فيها مَقْتَلُه ، فَلْيَكُنْ فيها مَقتولًا خَيْرًا مِن أن يَكُون فيها القاتلَ ، والمُرادُ بالفِتْنَة : هي التي يَختلِط فيها الحَقُّ بالباطل بَين أهلِ الإسلام ، فَيَصْعُب على المُطَّلِع الفَصْلُ والتَّمييزُ فيها بَيْنَ الحَقِّ والباطلِ .

وقال المباركفوري في تُحفة الأحوذي (٦ / ٣٦٣) : (((قال) أي سَعْد (أفرأيتَ) أي فأخْبِرْني (إنْ دَخَلَ عَلَيَّ) بتشديد الياء (وَبَسَطَ يَدَه) أي مَدَّهَا (كُنْ كَابْنِ آدم) المُطْلَق يَنصرِف إلى الكامل ، وفيه إشارة لطيفة ، أي أنَّ هابيل المقتول المَظلوم هو ابن آدم لا قابيل القاتل الظالم. ... ، كَذا في المِرْقَاة . قال النَّوَوي : هذا الحديث وَمَا في مَعْنَاه مِمَّا يَحْتَج بِه مَن لا يَرَى القِتَالَ في الفِتْنَة بِكُلِّ حال . وقد اختلفَ العُلماءُ في قِتال الفِتْنَة ، فقالت طائفة : لا يُقَاتِل في فِتَنِ المُسْلِمين وإنْ دَخَلُوا عليه بَيْتَه وطَلَبُوا قَتْلَه ، فلا يَجُوز له المُدَافَعَة عَن نَفْسِه ، لأنَّ الطالب مُتَأوِّل ، وهذا مَذهَب أبي بَكْرَة _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ وغَيْرِه . وقال ابنُ عُمَر وعِمْرَان بن الحُصَيْن رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم وغَيْرُهُمَا : لا يَدْخَل فِيها ، لكنْ إنْ قَصَدَ الدَّفْعَ عَن نَفْسِه ، فَهَذان المَذهبان مُتَّفِقَان على تَرْكِ الدُّخُولِ في جميع فِتَن الإسلام . وقال مُعْظَم الصَّحَابَةُ والتابعين وعَامَّة عُلَمَاء الإسلام : يَجِب نَصْرُ المُحِقِّ في الفِتَن ، والقِيَام مَعَه بِمُقَاتَلَة البَاغِين ، كما قالَ تَعَالى : ﴿ فَقَاتِلُوا التي تَبْغِي ﴾ الآية ، [الحُجُرات : ٩] . وهذا هو الصحيح . وتُتأوَّل الأحاديث على مَن لَمْ يَظْهَرْ له المُحِق أوْ على طائفتَيْن ظالمتَيْن ، لا تأويل لواحد مِنهما . وَلَوْ كانَ كما قالَ الأوَّلون لَظَهَرَ الفَسَادُ ، واستطالَ أهلُ البَغْي والمُبْطِلُون)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنِّي أُرِيدُ أن تَبُوءَ بِإثْمِي وَإثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظالمين ﴾ [المائدة : ٢٩] .

قال هابيل لأخيه قابيل:إنِّي أُريد أن تَحْمِلَ إثمَ قَتْلِي وإثمَ الذي كانَ مِنْكَ قَبْلَ قَتْلي،فَتَصِير مِن أهْلِ النار ، وذلك عِقَاب مَن تَعَدَّى وعَصَى أمْرَ اللَّهِ تعالى. وقَدْ خَوَّفَه بالنار فَلَمْ يَنْتَهِ وَلَمْ يَنْزَجِرْ.

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٤٣) : ((﴿ إنِّي أُرِيدُ أن تَبُوءَ ﴾ تَرْجِع، وقِيل: تَحتمِل ﴿ بِإثْمِي وَإثْمِكَ ﴾ ، أي : بِإثمِ قَتْلِي إلى إثمك ، أي : إثم مَعَاصِيك التي عَمِلْتَ مِن قَبْل ، هذا قَوْل أكثر المُفَسِّرين . ورَوَى ابنُ أبي نَجِيح عن مُجاهِد قال : مَعْنَاه إنِّي أُريد أن يَكُون عَلَيْكَ خَطِيئتي التي عَمِلْتُهَا أنا إذا قَتَلْتَنِي وإثمك ، فَتَبُوء بِخَطِيئتي ودَمِي جميعًا ، وقِيل : مَعْنَاه أن تَرْجِعَ بإثم قَتْلي وإثمِ مَعصيتك التي لَمْ يُتَقَبَّلْ لأجلها قُرْبَانُكَ ، أوْ إثمِ حَسَدِك . فإنْ قِيل : كَيْفَ قَال: إنِّي أُريد أن تَبُوء بإثمي وإثمك ، وإرادة القَتْل والمَعصية لا تَجُوز ؟ ، قِيل : لَيْسَ ذلك بحقيقة إرادة ، ولكنَّه لمَّا عَلِمَ أنَّه يَقْتُله لا مَحَالة ، وَطَّنَ نَفْسَه على الاستسلام طَلَبًا للثَّوَاب ، فكأنَّه صَارَ مُرِيدًا لِقَتْلِه مَجَازًا ، وإنْ لَمْ يَكُن مُريدًا حقيقةً . وقِيل : مَعْنَاه إنِّي أُريد أن تَبُوء بِعِقَاب قَتْلي ، فَتَكُون إرادةً صحيحةً ، لأنَّها مُوافِقة لِحُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلا يَكُون هذا إرادةً للقَتْل ، بَلْ لِمُوجَبِ القَتْلِ مِن الإثم والعِقَاب ، ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظالمين ﴾)) .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٥٣٣): ((﴿ فَتَكُونَ مِنْ أصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظالمين ﴾ ويَقُول : فَتَكُون بِقَتْلِكَ إيَّايَ مِن سُكَّانِ الجَحِيمِ وَوَقُود النار المُخَلَّدِين فِيها ، ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظالمين ﴾ ، يَقُول : والنارُ ثَوَابُ التاركين طريقَ الحَقِّ ، الزائلين عَن قَصْدِ السَّبِيلِ ، المُتَعَدِّين مَا جُعِلَ لهم إلى مَا لَمْ يُجْعَلْ لهم . وهذا يدلُّ على أنَّ اللَّهَ عَزَّ ذِكْرُه قَدْ كانَ أَمَرَ ونَهَى آدمَ بَعْد أن أهبطه إلى الأرض وَوَعَدَ وأوعدَ . ولَوْلا ذلك مَا قال المَقتولُ للقاتل: ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أصْحَابِ النَّارِ ﴾ بقتلك إيَّايَ ، ولا أخْبَرَه أنَّ ذلك جَزَاء الظالمين)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢ / ٣٣٥ _ ٣٣٧) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ إنِّي أُرِيدُ أن تَبُوءَ بِإثْمِي وَإثْمِكَ ﴾ فِيه قَوْلان : أحدهما إنِّي أُريدُ أن تَرْجِع بإثمِ قَتْلي وإثمِكَ الذي في عُنُقِك ، هذا قَوْل ابن مسعود وابن عَبَّاس ومُجاهِد وقَتَادة والضَّحَّاك . والثاني أن تَبُوء بإثمي في خَطَايَاي وإثمِكَ في قَتْلِكَ لِي ، وهو مَرْوِيٌّ عَن مُجَاهِد أيضًا. قال ابنُ جرير : والصحيح عن مُجَاهِد القَوْل الأوَّل . ... . فإنْ قِيل :كَيْفَ أرادَ هابيل وَهُوَ مِن المُؤمنين أن يَبُوء قابيل بالإثم وهو معصية والمُؤمنُ يُحِب لأخيه مَا يُحِب لِنَفْسِه ؟ ، فَعَنْه ثلاثة أجوبة : أحدها أنَّه مَا أرادَ لأخيه الخطيئةَ ، وإنَّما أرادَ إنْ قَتَلْتَني أردتُ أن تَبُوء بالإثم ، وإلى هذا المَعْنى ذَهَبَ الزَّجَّاج . والثاني أنَّ في الكلام مَحذوفًا ، تَقْديره : إنِّي أُريد أن لا تَبُوء بإثمي وإثمك ، فَحَذَفَ " لا " ، ... . والثالث أنَّ المَعْنَى أُريد زَوَالَ أن تَبُوءَ بإثمي وإثمك وبُطلانَ أن تَبُوءَ بإثمي وإثمك ، فَحَذَفَ ذلك ، وَقَامَتْ " أن " مَقَامَه . ... . ذَكَرَه والذي قَبْلَه ابنُ الأنباري.قَوْلُه تَعَالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظالمين ﴾ الإشارة إلى مُصَاحَبَة النار)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأصْبَحَ مِنَ الخاسرين ﴾[المائدة: ٣٠].

زَيَّنَتْ لَهُ نَفْسُه وسَهَّلَتْ لَهُ قَتْلَ أخيه ، فَقَتَلَه ، فَخَسِرَ وشَقِيَ . خَسِرَ دُنياه بإسخاط وَالِدَيْه ، وخَسِرَ آخِرَتَه بِسَخَطِ اللَّه عَلَيه . وَلَمْ يَدْرِ مَا يَصنع بِه ، لأنَّه أوَّل مَيِّت على وجه الأرض مِن بَنِي آدم ﷺ ، فَحَمَلَه عَلى ظَهْرِه .

وقال ابنُ الجَوْزي في زاد المسير (٢ / ٣٣٧) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ ﴾ فِيه خَمْسَة أقوال : أحدها تَابَعَتْهُ على قَتْلِ أخيه ، قاله ابن عباس . والثاني شَجَّعَتْهُ ، قاله مُجَاهِد . والثالث زَيَّنَتْ لَهُ ، قاله قَتَادة . والرابع رَخَّصَتْ له ، قاله أبو الحسن الأخفش . والخامس أنَّ " طَوَّعَتْ " فَعَّلَتْ مِن " الطَّوْع " ، والعرب تقول : طَاعَ لهذه الظَّبْيَة أُصُول هذا الشَّجَر ، وطَاعَ لَهُ كذا ، أي : أتاه طَوْعًا ، حَكَاه الزَّجَّاج عن المُبَرِّد . وقال ابنُ قُتَيْبَة : شَايَعَتْهُ وانقادتْ له ، يُقَال: لِسَاني لا يَطوع بكذا ، أي لا يَنقاد ، وهذه المعاني تتقارب . وفي كيفية قَتْلِه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه رَمَاه بالحِجَارة حَتَّى قَتَلَه ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني ضَرَبَ رَأسَه بصخرة وهو نائم ، رواه مُجاهِد عن ابن عَبَّاس والسُّدي عن أشياخه . والثالث رَضَخَ رَأسَه بَيْنَ حَجَرَيْن ، قال ابن جُرَيج : لَمْ يَدْرِ كيف يَقْتله فَتَمَثَّلَ له إبليسُ ، وأخذَ طائرًا فَوَضَعَ رَأسَه على حَجَر ثُمَّ شَدَخَه بِحَجَر آخَر ، فَفَعَلَ به هكذا . وكان لِ هابيل يَوْمئذ عِشرون سَنَة. وفي مَوْضِع مَصْرَعِه ثلاثة أقوال : أحدها عَلى جَبَل ثَوْر ، قاله ابن عَبَّاس ، والثاني بالبَصْرَة ، قاله جعفر الصادق ، والثالث عِند عَقْبَة حِرَاء ، حَكَاه ابنُ جرير الطبري . وفي قَوْلِه : ﴿ فَأصْبَحَ مِنَ الخاسرين ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها مِن الخاسرين الدُّنيا والآخِرَةَ ، فَخُسْرَانُه الدُّنيا : أنَّه أسخطَ وَالِدَيْه ، وَبَقِيَ بِلا أخٍ . وخُسْرَانُه الآخِرَةَ : أنَّه أسخطَ رَبَّهُ ، وصارَ إلى النار ، قاله ابن عباس . والثاني أنَّه أصبحَ مِن الخاسرين الحَسَنَات ، قال الزَّجَّاج . والثالث مِن الخاسرين أنفسَهم بإهلاكهم إيَّاها ، قاله القاضي أبو يَعْلَى)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ في الأرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أعَجَزْتُ أنْ أكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أخِي فَأصْبَحَ مِنَ النادمين ﴾ [المائدة : ٣١] .

أرسلَ اللَّهُ غُرَابًا يُثير التُّرَابَ مِن الأرض على غُرَابٍ مَيِّت ، لِيُرِيَ القاتلَ كَيْفَ يَسْتُر جُثَّةَ أخيه ، حَيْث إنَّه لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُواريه لِكَوْنِه أوَّلَ مَيِّت مات مِن بَنِي آدم ﷺ .

قال قابيل مُتَحَسِّرًا : يا وَيْلي ويا هَلاكي ، أضَعُفْتُ أن أكُونَ مِثْلَ هذا الطَّيْر فَأسْتُر جُثَّةَ أخي في التُّرَاب كما فَعَلَ هذا الغُرابُ ؟ ، فَصَارَ نادمًا على عَدَمِ الاهتداء إلى دَفْنِ أخيه لا عَلى قَتْلِه . وَلَوْ كانَ نَدَمُه على قَتْلِه لكانَ النَّدَمُ تَوْبَةً له . والنَّدَمُ هُوَ رُكْنُ التَّوْبَةِ الأعظمُ .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢ / ٣٣٨ و٣٣٩) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ ﴾ ، قال ابن عباس: حَمَلَه عَلى عَاتِقِه ، فكانَ إذا مَشَى تَخُطُّ يَدَاه وَرِجْلاه في الأرض، وإذا قَعَدَ وَضَعَه إلى جَنْبِه ، حَتَّى رأى غُرَابَيْن اقْتَتَلا ، فَقَتَلَ أحدُهما الآخَرَ ، ثُمَّ بَحَثَ له الأرض حَتَّى واراه بَعْد أن حَمَلَه سِنين . وقال مُجَاهِد : حَمَلَه على عَاتِقِه مِائةَ سَنَة . وقال عَطِيَّة : حَمَلَه حَتَّى أَرْوَحَ _ أَنْتَنَ _ . وقال مُقَاتِل : حَمَلَه ثلاثة أيام . وفي المُراد بِسَوْأةِ أخيه قَوْلان : أحدهما عَوْرَة أخيه ، والثاني جِيفَة أخيه . قَوْلُه تَعَالى : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النادمين ﴾ ، فَإن قِيل : أَلَيْسَ النَّدَمُ تَوْبَةً ، فَلِمَ لَمْ يُقْبَلْ مِنْه ؟، فعنه أربعة أجوبة : أحدها أنَّه يَجُوز أن لا يَكُون النَّدَمُ تَوْبَةً لِمَن تَقَدَّمَنَا ، ويَكُون تَوْبَةً لهذه الأُمَّة ، لأنَّها خُصَّتْ بخصائص لَمْ تُشَارَكْ فِيها ، قاله الحسن بن الفَضْل . والثاني أنَّه نَدِمَ على حَمْلِه لا على قَتْلِه ، والثالث أنَّه نَدِمَ إذْ لَمْ يُوَارِه حِين قَتَلَه ، والرابع أنَّه نَدِمَ على فَوَات أخيه لا على رُكُوبِ الذَّنْب. وفي هذه القِصَّة تحذيرٌ مِن الحَسَدِ، لأنَّه الذي أهلكَ قابيل)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ مِن أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

مِن أجلِ قَتْلِ ابنِ آدم أخاه ظُلْمًا (حادثة قتل قابيل لهابيل) ، فَرَضَ اللَّهُ على بني إسرائيل ، وحَكَمَ عليهم أنَّه مَن قَتَلَ نَفْسًا بريئة ظُلْمًا وعُدوانًا ، أو قَتَلَها بغير فساد في الأرض (مِثل الشِّرْك أو قَطْع الطريق) فكأنَّه قَتَلَ جَميعَ الناس، لأنه لا فرق بين نَفْسٍ ونَفْسٍ . ومَن سَاهَمَ في الإبقاء على حياة نَفْسٍ بشرية، وأنقذها من الهلاك، كالقتل أو الغرق أو الحَرْق أو الهدم ، فكأنه أحيا جَميعَ الناس . وهذا هو المعنى المقصود . أمَّا إحياءُ النَّفْس بَعد مَوتها ، فلا يَقْدِر عليه إلا اللَّه .

وهذا التشريعُ الإلهيُّ العظيمُ يدلُّ على أنَّ الاعتداء على النَّفْس الإنسانية عُدوانًا وظُلْمًا ، هو اعتداء على جميع النُّفُوس بلا استثناء، فالكِيَانُ الآدميُّ كُلٌّ لا يَتَجَزَّأ ، ووَحدة واحدة لا انفصال فيها . وقد كرَّم اللَّهُ الإنسانَ مَهما كان دِينُه وعَقيدته وجِنْسه وعِرْقه. وقتلُ الفرد هو تكريسٌ لقتل الجماعة ، وهدم للمُنجَزات الحضارية ، وتدمير لمعالم المدنية والإنسانية ، كما أنه يَفتح البابَ أمام الأحقاد الاجتماعية ، وثقافة الانتقام ، والثأر ، والقتل ، والإبادة . وإذا زال الجُزءُ زال الكُلُّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٦٥) : ((يقول تعالى : مِن أجْلِ قَتْلِ ابن آدم أخاه ظُلْمًا وعُدوانًا ، ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : شَرَعْنا لهم وأعلمناهم ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعًا ﴾ أي: مَن قَتَلَ نَفْسًا بغير سبب مِن قِصَاص ، أو فساد في الأرض ، واسْتَحَلَّ قَتْلَها بلا سبب ولا جِناية ، فكأنما

قَتل الناسَ جميعًا ، لأنَّه لا فَرْقَ عِنده بَيْنَ نَفْسٍ ونَفْسٍ . ﴿ وَمَن أحياها ﴾ أي : حَرَّمَ قَتْلَها واعتقدَ ذلك فقد سَلِمَ الناسُ كُلُّهم مِنه بهذا الاعتبار)) .

الآيةُ تُنفِّر مِن قَتْلِ الأبرياء،وسَفْكِ الدم الحرام.وجريمةُ القتلِ في غاية السُّوء والقُبْح.وقتلُ شخص واحد وقتل جميع الناس سَوَاءٌ في نُزول غضب اللَّه، واستحقاق العذاب والعِقاب. والشريعةُ الإلهيَّةُ تُحرِّم القَتْلَ إلا في ثلاث حالات : كُفْر بعد إيمان ، أوْ زِنا بعد إحصان ، أوْ قَتْل نَفْسٍ بريئة .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره(١/ ٣١٩): ((﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي:بِغَير قَتل نَفْسٍ يُوجب الاقتصاص ، ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ ﴾ أوْ بِغَير فساد فيها كالشِّرْك أو قطع الطريق ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ، مِن حَيث أنه هَتَكَ حُرمةَ الدماء ، وَسَنَّ القتلَ ، وجَرَّأ الناسَ عليه ، أوْ مِن حَيث إنَّ قتل الواحد وقتل الجميع سَواء في استجلاب غضب اللَّه سُبحانَه وتعالى ، والعذاب العظيم ، ﴿ وَمَن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعًا ﴾ ، أي : ومَن تَسَبَّبَ لبقاء حياتها بِعَفْو أوْ مَنْع عن القتل ، أو استنقاذ مِن بعض أسباب الهَلَكَة ، فكأنما فَعل ذلك بالناس جميعًا. والمقصود مِنه تعظيم قَتْل النَّفْس ، وإحيائها في القُلوب ترهيبًا عن التعرُّض لها ، وترغيبًا في المُحاماة عليها)) .

وقال القُرْطبي في تفسيره (٦ / ١٣٩) : ((وخُصَّ بني إسرائيل بالذِّكْر ، وقَد تَقَدَّمَتْهُم أُمَم قَبلهم كان قَتل النَّفْس فِيهم محظورًا ، لأنهم أوَّل أُمَّة نزل الوعيد عليهم في قَتل الأنفُس مكتوبًا ، وكان قَبْل ذلك قَوْلًا مُطْلَقًا ، فَغُلِّظَ الأمر على بني إسرائيل بالكِتاب ، بِحَسَبِ طُغيانهم وسَفْكهم الدِّمَاء)) .

في هذا دَلالةٌ واضحة على أن بني إسرائيل استمرؤوا القتلَ ، ومارسوه بكثرة ، واعتمدوا سَفْكَ الدماء منهجًا حياتيًّا ثابتًا وراسخًا ، فكانَ لا بُد من تَوجيههم ، والتَّشديد عليهم ، وتحذيرهم ، وتنبيههم ، ورَدْعهم ، وتخويفهم من خطورة قتل الأبرياء مَعصومي الدم ، وضرورة الابتعاد عن سَفْك الدم الحرام. وجاءَ التَّشديد عليهم،وتخصيصهم بالذِّكْر ، بسبب كثرة جرائمهم وضَلالهم وعِنَادهم.

والآيةُ تُشير إلى خُطورة القتل وسَفْك الدماء ، وأنَّ الكِيان الإنساني له احترامه في المنظور الإسلاميِّ ، ولا فَرْق بين الفرد والجماعة من حيث المكانة الاعتبارية ، إذْ إنَّ قَتْلَ الفرد قتلٌ للجماعة . وهذه النظرة الشرعية تَقُود إلى تدعيم الوَحدة الاجتماعية ، وتقوية الروابط بين أفراد المجتمع ، وإحاطة الكِيان الإنساني بِسُورٍ واقٍ يَحميه من عبث العابثين وجرائم الفاسدين .

وكُلُّ إنسان معصوم الدم حتى يَثبت العكس ، ولا يُهْدَر دَم إنسان ولا يُراق إلا بأحكام الشريعة الإلهيَّة . وهذه الحَصَانَة الإلهيَّة الممنوحة للإنسان تُشير إلى مركزيته في الأرض ، ودَوره المِحْوَري

في إعمارها ، وأهميته في بناء الحضارة الإنسانية ، وأنه كائن محترم وشريف ومُكرَّم ، وله حُرمة مُعْتَبَرَة ، ومكانة وجودية عظيمة ، ومنزلة اجتماعية رفيعة .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٣٤٠ و٣٤١و٣٤٢) : ((ومعنى ﴿ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي : قَتَلَهَا ظُلْمًا ، ولَم تَقْتُلْ نَفْسًا ، ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ ﴾ فساد مَنسوق على نَفْس . المعنى: أوْ بغَير فساد تستحق به القتل.وقِيل: أراد بالفساد هاهُنا الشِّرْك.وفي معنى قَوله: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ خمسة أقوال : أحدها أن عليه إثم مَن قَتَلَ الناسَ جميعًا ، قاله الحسن والزَّجَّاج . والثاني أنه يَصْلى النار بقتل المُسلم كما لو قَتل الناس جميعًا ، قاله مجاهد وعطاء . وقال ابن قُتَيبة : يُعذَّب كما يُعذَّب قاتل الناس جميعًا . والثالث أنه يجب عليه مِن القِصَاص مِثْل ما لَوْ قَتَلَ الناسَ جميعًا ، قاله ابن زيد . والرابع أن معنى الكلام ينبغي لجميع الناس أن يُعينوا وَلِيَّ المقتول حتى يَقِيدوه منه ، كما لَوْ قَتَلَ أولياءهم جميعًا ، ذكَره القاضي أبو يعلى . والخامس أنَّ المعنى مَن قَتل نبيًّا أو إمامًا عادلًا ، فكأنما قَتَلَ الناسَ جميعًا ، رواه عِكْرمة عن ابن عباس. والقول بالعُموم أصَح . فإن قِيل : إذا كان إثم قاتل الواحد كإثم مَن قَتل الناسَ جميعًا ، دَلَّ هذا على أنه لا إثم عليه في قَتْل مَن يَقْتله بعد قتل الواحد إلى أن يَفْنَى الناس ، فالجواب أن المِقدار الذي يستحقه قاتل الناس جميعًا معلوم عند اللَّه مَحدود ، فالذي يَقتل الواحدَ يَلزَمه ذلك الإثم المعلوم . والذي يَقتل الاثنين يلزمه مِثْلاه ، وكُلما زاد قتلًا زاده اللَّهُ إثمًا . ومِثْل هذا قَوله : ﴿ مَن جَاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمثالها ﴾ [الأنعام : ١٦٠] . فالحسنة معلوم عند اللَّه مِقدار ثوابها ، فعاملُها يُعطَى بِمِثْل ذلك عَشْرَ مَرَّات ، وهذا الجواب عن سؤال سائل إن قال: إذا كان مَن أحيا نَفْسًا فله ثواب مَن أحيا الناس، فما ثواب مَن أحيا الناس كُلَّهم؟. هذا كُلُّه مَنقول عن المُفسِّرين . والذي أراه أن التَّشبيه بالشيء تقريب منه ، لأنه لا يجوز أن يكون إثم قاتل شخصَيْن كإثم قاتل شخص ، وإنما وقع التشبيه بِـ " كأنما " لأن جميع الخلائق مِن شخص واحد ، فالمقتول يُتصوَّر مِنه نشر عدد الخَلْق كُلِّهم . وفي قَوله : ﴿ وَمَن أحياها ﴾ خمسة أقوال : أحدها استنقذها مِن هَلَكَة ، رُوِيَ عن ابن مسعود ومجاهد . قال الحسن : مَن أحياها مِن غَرَقٍ أوْ حَرَقٍ أوْ هَلاك ، وفي رواية عِكرمة عن ابن عباس : " مَن شَدَّ عَضُدَ نبيٍّ أو إمام عادل ، فكأنما أحيا الناس جميعًا" . والثاني تَرَكَ قَتْلَ النَّفْس المُحرَّمة ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد في رواية . والثالث أن يَعْفُوَ أولياء المقتول عن القِصَاص ، قاله الحسن وابن زيد وابن قُتَيبة. والرابع أن يَزجُر عَن قَتْلها ويَنهَى . والخامس أن يُعِين الوَلِيَّ على استيفاء القِصَاص، لأنَّ في القِصَاص حَيَاةً، ذَكَرَهما القاضي أبو يَعلى.

وفي قَوله : ﴿ فكأنما أحيا الناسَ جميعًا ﴾ قَولان : أحدهما فله أجر مَن أحيا الناس جميعًا ، قاله الحسن وابن قُتَيبة . والثاني فعلى جميع الناس شُكْره ، كما لَوْ أحياهم ، ذَكَرَه المَاوَرْدِي)) .

إنَّ بني إسرائيل غَرِقُوا في القَتْل وسَفْك الدماء ، وتعاملوا معَ الأنبياء الكرام بوقاحة وعِناد ، وتكبَّروا عليهم ، وأهانوهم ، وكذَّبوهم ، وقتلوهم. وقد اعتنقَ بنو إسرائيل القتلَ منهجًا حياتيًّا وجوديًّا راسخًا لا رَجْعَة عنه ، وارتكبوا أسوأ أنواع الجرائم ، واقترفوا الذُّنُوبَ والآثام والمُوبِقات .

لقد أرسلَ اللَّهُ الأنبياءَ إلى بني إسرائيل لهدايتهم إلى الحق ، وإرشادهم إلى الصواب ، وإخراجهم من ظُلمات الجهل والكفر إلى نُور العِلم والإيمان ، وإنقاذهم من النار ، وقيادتهم إلى الجَنَّة . فماذا كانت النتيجة ؟ . تعاملَ اليهودُ معهم باحتقار وازدراء واستكبار ، وقتلوهم بدم بارد ، بلا إثم ولا ذَنْب ولا جريمة ، دُون وازع ديني أو رادع أخلاقي ، ودُون التفات إلى الشريعة ، أو العلاقات الاجتماعية ، أو القِيَم الإنسانية .

٤ــ نُوح

أ ــ قَوْم نُوح

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِين ﴾ [الشُّعَراء : ١٠٥] .

كَذَّبَ قَوْمُ نُوحٍ ﷺ رُسُلَ اللَّهِ تعالى ، وهو أوَّل رَسُول بَعَثَه اللَّهُ إلى أهل الأرض بَعْدَمَا عُبِدَت الأصنامُ والأندادُ . وأرادَ بالمُرْسَلِين نُوحًا ﷺ ، وإنَّمَا ذَكَرَه بِصِيغةِ الجَمْعِ تَعظيمًا له ، وتَنْبيهًا على أنَّ مَن كَذَّبَ رَسُولًا واحدًا فَقَد كَذَّبَ جَميعَ المُرْسَلِين ، لاشتراكهم في المَجيء بالتَّوحيد . وتأنيثُ قَوْم باعتبار مَعْناه، وتَذكيره باعتبار لَفْظِه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ١٥٦) : ((قَوْلُه : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِين ﴾ ، أنَّثَ الفِعْلَ لِكَوْنِه مُسْنَدًا إلى قَوْم ، وهو في مَعْنى الجَمَاعة أو الأُمَّة أو القبيلة، وأوقعَ التكذيبَ على المُرْسَلِين وهُم لَمْ يُكَذِّبُوا إلا الرَّسُولَ المُرْسَلَ إلَيهم ، لأنَّ مَن كَذَّبَ رَسُولًا فَقَد كَذَّبَ الرُّسُلَ ، لأنَّ كُلَّ رسول يأمر بِتَصديق غَيْرِه مِن الرُّسُل . وقِيل : كَذَّبُوا نُوحًا في الرِّسَالة ، وكَذَّبُوه فِيما أخبرَهم بِه مِن مَجِيء المُرْسَلِين بَعْدَه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِن قَبْلُ إنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فاسقين ﴾ [الذاريات : ٤٦] .

وأهلكَ اللَّهُ قَوْمَ نُوحٍ ﷺ بالطُّوفانِ مِن قَبْلِ إهلاك ثَمُود ، لأنَّهُم كانوا مُخَالِفين أمْرَ اللَّهِ ، خارجين عن طاعته بالكُفْرِ والعِصْيَانِ . والآيةُ : ﴿ إنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فاسقين ﴾ تَعليلٌ للهَلاكِ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ١٢٩) : ((﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِن قَبْلُ ﴾ ، أي : مِن قَبْلِ هؤلاء المُهْلَكِين ، فإنَّ زَمَانَهم مُتَقَدِّم عَلى زمن فِرْعَوْن وعاد وثَمُود ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فاسقين ﴾، أي : خارجين عن طاعة اللَّه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾[القَمَر: ٩].

كَذَّبَ قَبْلَ أهْلِ مَكَّة (قَوْمِ النَّبِيِّ مُحَمَّد ﷺ) قَوْمُ النَّبِيِّ نُوح ﷺ ، أي كَذَّبُوا نَبِيَّهُم نُوحًا ﷺ ، وفي هذا تَسليةٌ للنَّبِيِّ مُحَمَّد ﷺ ، ورفعٌ لِمَعنوياته ، فَكَذَّبُوا عَبْدَ اللَّهِ نُوحًا ، وقالوا إنَّه مَجنون ، وانتَهَرُوه وَزَجَرُوه عَن دَعوته ومَقالته بالشَّتْمِ والتَّخويفِ والوعيدِ والتهديدِ بالقتلِ . وهذه حُجَّةُ العاجزِ دائمًا وأبدًا ، فالشخصُ حِينَ يَعْجِز عن تقديم الأدلةِ والبراهين ، فإنَّه يَلْجَأ إلى الشتائم والتهديد .

لَمْ يَقْنَعُوا بتكذيب نَبِيِّهِم نُوح ﷺ حَتَّى نَسَبُوه إلى الجُنون ، أي إنَّه يَقُول مَا لا يَقْبَله عاقل ، وذلك مُبَالَغَة في تكذيبهم . وإنَّما قال : ﴿ عَبْدَنَا ﴾ تَشريفًا له وخُصُوصِيَّة بالعُبودية .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٥٥٠) : ((هذا وعيد مِن اللَّهِ تعالى ذِكْرُه ، وتَهديد للمُشركين من أهل مَكَّة ، وسائر مِن أرسلَ إلَيه رَسُولَه مُحَمَّدًا ﷺ على تَكْذيبهم إيَّاه ، وَتَقَدَّمَ مِنْه إلَيهم إنْ هُم لَمْ يُنيبوا مِن تَكذيبهم إيَّاه أنَّه مُحِل بهم مَا أَحَلَّ بالأُمَم الذين قَصَّ قَصَصَهم في هَذه السُّورةِ مِن الهَلاكِ والعذابِ ، ومُنَجِّ نَبِيَّه مُحَمَّدًا والمُؤمنين به ، كما نَجَّى مِن قَبْلِه الرُّسُلَ وأتباعَهم مِن نِقَمِه التي أحَلَّها بأُمَمهم، فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُه لِنَبِيِّه مُحَمَّدٍ ﷺ : كَذَّبَتْ يا مُحَمَّد قَبْلَ هَؤلاء الذين كَذَّبُوكَ مِن قَوْمِكَ الذين إذا رَأَوْا آيةً أعْرَضُوا ، وقالوا : سِحْر مُستمِر ، قَوْمُ نُوح ، فَكَذَّبُوا عَبْدَنا نُوحًا إذْ أرْسَلْنَاه إلَيهم ، كَمَا كَذَّبَتْكَ قُرَيْش ، إذْ أتَيْتَهُم بالحَقِّ مِن عِندنا ، وقالوا : هُوَ مَجنون ، وازْدُجِرَ)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٧ / ١١٦) : ((قَوْلُه تَعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ، ذَكَرَ جُمَلًا مِن وَقَائع الأُمَم الماضية ، تأنيسًا للنَّبِيِّ ﷺ ، وتَعْزِيَةً له ، ﴿ قَبْلَهُمْ ﴾ ، أي: قَبْل قَوْمِك، ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ ، يَعْنِي نُوحًا . الزَّمخشري : فَإنْ قُلْتَ : مَا مَعْنى قَوْلِه : ﴿ فَكَذَّبُوا ﴾ بَعْد قَوْلِه: ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ ، قُلْتُ : مَعْنَاه : كَذَّبُوا فَكَذَّبُوا عَبْدَنا ، أي : كَذَّبُوه تَكذيبًا عَلى عَقِب تَكْذيب ، كُلَّمَا مَضَى مِنْهُم قَرْنٌ مُكَذِّبٌ تَبِعَه قَرْنٌ مُكَذِّبٌ ، أوْ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الرُّسُلَ ، فَكَذَّبُوا عَبْدَنا ، أي : لَمَّا كانوا مُكَذِّبين بالرُّسُلِ جَاحِدين للنُّبُوَّةِ رأسًا ، كَذَّبُوا نُوحًا لأنَّه مِن جُمْلَةِ الرُّسُل ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ أي : هُوَ مَجْنُون ، ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ ، أي : زُجِرَ عَن دَعْوَى النُّبُوَّةِ بالسَّبِّ والوَعيدِ بالقتل . وقِيل : إنَّما قال : ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ بلفظ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه ، لأنَّه رأس آية)) .

ب_ الطُّوفان

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ للنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا للظالمينَ عَذَابًا أليمًا ﴾ [الفُرقان : ٣٧] .

وأغرقَ اللَّهُ قَوْمَ نُوحٍ ﷺ بالطُّوفانِ لَمَّا كَذَّبُوا رَسُولَهم نُوحًا ﷺ ، وجَعَلَهُم اللَّهُ عِبْرَةً لِمَن يَعْتَبِر ، وَعِظَةً لِمَن يَتَّعِظ ، أي إنَّ اللَّهَ جَعَلَ إغراقَهم أوْ قِصَّتَهُم عِبْرَةً لِكُلِّ الناس على العُموم ، يَتَّعِظ بِها كُلُّ مُشَاهِد لها ، وسامع لِخَبَرها . وأعَدَّ اللَّهُ لَهُم في الآخِرَةِ عَذابًا شديدًا مُوجِعًا سِوَى مَا حَلَّ بِهِم في الدُّنيا مِن عَاجِلِ العَذابِ .

وإنَّمَا قالَ : ﴿ الرُّسُلَ ﴾ بالجَمْعِ مَعَ أنَّهُم كَذَّبُوا نُوحًا ﷺ وَحْدَه، لأنَّ تَكْذيبَه تَكْذيبٌ للجَمِيعِ ، لاتِّفَاقِهِم على التَّوحيدِ والإسلامِ .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ٣٨٩) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا رُسُلَنا ، وَرَدُّوا عَلَيهِم مَا جاؤوهم بِه مِن الحَقِّ ، أغرقناهم بالطُّوفان ، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ للنَّاسِ آيَةً ﴾ ، يَقُول : وَجَعَلْنَا تَغْرِيقَنا إيَّاهم وإهلاكَنا عِظَةً وَعِبْرَةً للناس يَعْتبرون بِها ، ﴿ وَأَعْتَدْنَا للظالمينَ عَذَابًا أليمًا ﴾ ، يَقُول : وَأعْدَدْنَا لَهُم مِن الكافرين باللَّهِ في الآخِرَةِ عَذابًا أليمًا سِوَى الذي حَلَّ بِهِم مِن عَاجِلِ العذاب في الدُّنيا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أرْسَلْنَا نُوحًا إلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ ألْفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِينَ عَامًا فَأخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظالمون ﴾ [العنكبوت : ١٤] .

بَعَثَ اللَّهُ نُوحًا ﷺ إلى قَوْمِه ، فَمَكَثَ فِيهِم تِسعمائة وخَمْسِين سَنَة يَدْعُوهم إلى تَوحيدِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلا،وكانوا عَبَدَةَ أصنام، فَكَذَّبُوه، فأهلكهم اللَّهُ بالطُّوفانِ،أي الماء الكثير طَافَ بِهِم وعَلَاهُم، وهُمْ مُصِرُّون عَلى الكُفْرِ والضَّلالِ .

واللَّهُ لا يُعَذِّب عَلى مُجَرَّد وُجود الظُّلْم ، وإنَّما يُعَذِّب على الإصرار عَلى الظُّلْم ، ولهذا قال : ﴿ وَهُمْ ظالمون ﴾ يَعْني أهْلَكَهُم وهُم عَلى ظُلْمِهِم .

والجَدِيرُ بالذِّكْر أنَّ اللَّهَ ذَكَرَ قِصَّةَ النَّبِيِّ نُوحٍ ﷺ للنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ تَسْلِيَةً لَهُ عَمَّا يَلْقَاه مِن أذى المُشركين، ورفعًا لِمَعنوياته . أي : ابْتُلِيَ الأنبياء قَبْلَكَ يا مُحَمَّد ، وَعَانَوْا أشدَّ المُعَانَاة مِن الكُفَّار ، فَصَبَرُوا . وفيه تثبيتٌ للنَّبِيِّ ﷺ ، كأنَّه قِيل له : إنَّ نُوحًا لَبِثَ ألْفَ سَنَة إلا خَمْسِين عَامًا يَدْعُو قَوْمَه وَلَمْ يُؤْمِن مِنهم إلا قليل ، فأنتَ يا مُحَمَّد أوْلَى بالصَّبْرِ لِقِلَّةِ مُدَّة لَبْثِكَ ، وكَثرةِ عَدَد أُمَّتِك .

وخَصَّ اللَّهُ نُوحًا ﷺ بالذِّكْر ، لأنَّه أوَّل رَسُول أُرْسِلَ إلى الأرض، وَقَد امتلأتْ كُفْرًا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٣٩) : ((هذه تَسْلِيَةٌ من الله تعالى لعبده ورسوله مُحَمَّد ﷺ يُخْبِره عَن نُوح عليه السلام أنَّه مَكَثَ في قَوْمِه هذه المُدَّة يَدْعُوهم إلى اللَّهِ تَعَالى لَيْلًا ونَهَارًا ، وسِرًّا وجِهَارًا ، ومعَ هذا مَا زادهم ذلك إلا فِرَارًا عَن الحَقِّ ، وإعراضًا عَنْه ، وتَكْذيبًا له ، ومَا آمَنَ مَعَه مِنهم إلا قليل ، ولهذا قال تَعَالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظالمون ﴾ ، أي : بَعْد هذه المُدَّة الطويلة مَا نَجَعَ فِيهم البَلاغُ والإنذارُ ، فأنتَ يَا مُحَمَّد لا تأسف على مَن كَفَرَ بِكَ مِن قَوْمِك ، ولا تَحْزَنْ عليهم ، فَإنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء ، ويُضِل مَن يَشَاء ، وبيده الأمر ، وإلَيه تُرْجَع الأُمُور ، واعْلَمْ أنَّ اللَّهَ سَيُظْهِرُك ، ويَنْصُرُك ، ويُؤَيِّدُك ، ويُذِل عَدُوَّك ، ويَكْبتهم ، ويَجْعلهم أسفلَ السافلين)) .

إنَّ النَّبِيَّ نُوح ﷺ مِن أُولي العَزْم، فَقَدْ دَعَا قَوْمَه بإخلاص وثبات ومَحَبَّة طِيلة تِسعمائة وخَمْسِين سَنَة ، وعلى الرَّغْم مِن كُفْرِهم ، وقَسْوَةِ قُلوبهم ، وقِلَّة عَدَد المُؤمنين فِيهم ، إلا أنَّه لَمْ يَستسلم في طريق الدَّعْوَة . وقَدْ نَجَّى اللَّهُ المُؤمنين ، وأهلكَ الكافرين بالطُّوفان الذي كان عَذابًا شاملًا جَزَاءً على سُوء أفعالهم ، وهذا لا يَتعارض معَ رحمة اللَّه التي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْء ، فَقَوْمُ نُوح ﷺ رَفضوا الإيمانَ والدَّعْوَةَ النَّبَوِيَّة ، وبالتالي يَتَحَمَّلُون المَسؤوليةَ كاملةً ، وهُم مُستحقون للعِقَابِ والعَذابِ ، لأنَّ الحُجَّةَ أُقِيمَتْ عَلَيهم ، وانقطعتْ أعذارُهم . ومَن أوردَ نَفْسَه المَهَالِكَ فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه .

إنَّ النَّبِيَّ نُوح ﷺ قَضَى تِسعمائة وخَمْسِين سَنَة في الدَّعْوَة بِلا مَلَل أوْ كَلَل ، ومعَ هذا فَقَد كانت حصيلةُ المُؤمنين قليلة للغاية بسبب عِناد قَوْمِه الذين حَارَبُوه بِشَتَّى الوسائل ، ولَمْ يَزِدْهُم دُعَاؤُه المُخْلِص إلا فِرَارًا مِن الدَّعْوَة ، وكُفْرًا باللَّهِ تَعَالى . وَرَغْمَ هذه النتيجة لَمْ يَستسلم نُوح ﷺ ، بَلْ كانَ رابطَ الجَأشِ وصُلْبَ الإرادةِ في كُلِّ مَراحل دَعْوَته العظيمة . وهذا بالتَّأكيد يَشُدُّ مِن أزْرِ النَّبِيِّ مُحَمَّد ﷺ ويُقَوِّيه ويُشَجِّعه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٢٦١ ـ ٢٦٣) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ . في هذه القِصَّة تَسليةٌ للنَّبِيِّ ﷺ ، حَيْث أُعْلِمَ أنَّ الأنبياء قَد ابْتُلُوا قَبْلَه ، وفيها وَعيد شديد لِمَن أقامَ على الشِّرْك ، فإنَّهُم وإنْ أُمْهِلُوا فَقَدْ أُمْهِلَ قَوْمُ نُوح أكثرَ ثُمَّ أُخِذُوا . قَوْلُه تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِينَ عَامًا ﴾. اخْتَلَفُوا في عُمُر نُوح على خمسة أقوال: أحدها بُعِثَ بَعْد أربعين سَنَة ، وعاشَ في قَوْمِه ألف سَنَة إلا خَمْسِين عامًا يَدْعُوهم ، وعاشَ بعد الطُّوفان سِتِّين سَنَة ، رَوَاه يُوسُف بن مِهْرَان عن ابن عباس . والثاني أنَّه لَبِثَ فِيهم أَلْفَ سَنَة إلا

خَمْسِين عامًا ، وعاشَ بَعْد ذلك سَبْعِين عامًا ، فكانَ مَبْلَغُ عُمُرِه ألْفَ سَنَة وعِشْرين سَنَة ، قاله كَعْب الأحبار . والثالث أنَّه بُعِثَ وَهُوَ ابن خَمْسِين وثلاثمائة ، فَلَبِثَ فِيهم ألْفَ سَنَة إلا خَمْسِين عامًا ، ثُمَّ عاش بعد ذلك خَمْسِين وثلاثمائة ، قاله عَوْن بن أبي شَدَّاد . والرابع أنَّه لَبِثَ فِيهم قَبْل أن يَدْعُوهم ثلاثمائة سَنَة ، ودَعَاهم ثلاثمائة سنة ، وَلَبِثَ بَعْد الطُّوفان ثلاثمائة وخَمْسِين سَنَة ، قاله قَتَادَة . وقال وَهْب بن مُنَبِّه : بُعِثَ لِخَمْسِين سَنَة . والخامس أنَّ هذه الآية بَيَّنَتْ مِقدارَ عُمُرِه كُلِّه ، حَكَاه المَاوَرْدِي . فإنْ قِيل : مَا فائدةُ قَوْلِه : ﴿ إلا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ فَهَلَّا قال: تِسعمائة وخَمْسِين ؟ ، فالجواب أنَّ المُراد بِه تَكثير العَدَد ، وذِكْر الألِف أفْخَم في اللفظ وأعْظَم للعَدَد . ... . قَوْلُه تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ فِيه ثلاثة أقوال : أحدها المَوْت ، رَوَتْ عائشة عَن رسول اللَّه ﷺ في قَوْلِه : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ ، قال : " المَوْت " . والثاني المَطَر ، قاله ابن عباس وسعيد بن جُبَير وقَتَادَة. قال ابنُ قُتَيبة : هو المطر الشديد . والثالث الغَرَق ، قاله الضَّحَّاك. قال الزَّجَّاج : الطُّوفان مِن كُلِّ شيء : مَا كانَ كثيرًا مُطِيفًا بالجَمَاعَةِ كُلِّهَا ، فالغَرَقُ الذي يَشتمِل على المُدُنِ الكثيرة: طُوفان، وكذلك القَتْل الذَّرِيع والمَوْت الجارف : طُوفان . قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَهُمْ ظالمون ﴾ ، قال ابن عباس : كافرون)) .

وقد خُصَّ نُوح ﷺ بالذِّكْر ، لأنَّه كان أوَّلَ نَبِيٍّ بَعَثَه اللَّهُ إلى أهل الأرض[كَمَا ثَبَتَ في صحيح البُخاري (٦/ ٢٧٠٨)]. وقَد كان فاتحةَ الخَيْرِ في الدَّعْوَةِ إلى تَوحيد اللَّه على هذه الأرض .

وقال الحافظ في الفتح (١ / ٤٣٦) : ((وأمَّا قَوْلُ أهل المَوْقِف لِنُوح كَمَا صَحَّ في حديث الشَّفَاعَة: "أنتَ أوَّلُ رَسُولٍ إلى أهْلِ الأرْضِ"، فَلَيْسَ المُراد بِه عُموم بَعْثته بَلْ إثبات أوَّلِيَّة إرساله)).

وعَن ابن عَبَّاس ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنهما ــ قال : ((كانَ بَيْنَ نُوحٍ وآدَمَ عَشَرَةُ قُرُون)) [٨] .

وعن عائشة ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنها ــ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : ((لَوْ رَحِمَ اللَّهُ أحَدًا مِن قَوْمِ نُوحٍ لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ)) ، قال رسول اللَّه ﷺ : ((كانَ نُوحٌ مَاكِثًا في قَوْمِهِ ألْفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِينَ عَامًا ، يَدْعُوهُم إلى اللَّهِ ، حَتَّى كانَ آخِرُ زَمَانِه ، غَرَسَ شَجَرَةً فَعَظُمَتْ، وَذَهَبَتْ كُلَّ مَذْهَبٍ ، ثُمَّ قَطَعَهَا، ثُمَّ جَعَلَ يَعْمَلُ سَفِينَةً ، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُ ، وَيَقُولون : يَعْمَلُ سَفِينةً في البَرِّ فَكَيْفَ تَجْرِي ؟، فَيَقُول: سَوْفَ تَعْلَمُون . فَلَمَّا فَرَغَ مِنها فَارَ التَّنُّورُ ، وكَثُرَ الماءُ في السِّكَك ، خَشِيَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَلَيه ، وكانتْ تُحِبُّه حُبًّا شديدًا ، فَخَرَجَتْ إلى الجَبَلِ حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثَه ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الماءُ خَرَجَتْ بِه حَتَّى

---

٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٦) برقم (٤٠٠٩) وصَحَّحه ، ووافقه الذهبي .

بَلَغَتْ ثُلُثَي الجَبَل ، فَلَمَّا بَلَغَهَا خَرَجَتْ حَتَّى اسْتَوَتْ عَلى الجَبَل ، فَلَمَّا بَلَغَ المَاءُ رَقَبَتَهَا ، رَفَعَتْهُ بِيَدِهَا حَتَّى ذَهَبَ بِه الماء ، فَلَوْ رَحِمَ اللَّهُ مِنهُم أحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ)) [٩] .

إنَّ اللَّهَ مُنَزَّهٌ عن الظُّلْم ، وهو أرحم بالعِباد مِن أُمَّهاتهم. وقَوْمُ نُوح ﷺ كان لهم وَضْعٌ خاص ، فَقَد طَبَعَ اللَّهُ على قُلوبهم وخُتِمَتْ بالكُفْر، فَلَنْ يُؤْمِن مِنهم أحَدٌ إلا مَن قَد آمَنَ.وقَد بَقِيَ نُوح ﷺ يَدْعُو قَوْمَه إلى الإيمان تِسعمائة وخَمْسِين سنة بِكُلِّ صِدْقٍ وإخلاص ، لكنَّ قَوْمَه كانوا أصحاب قُلوب قاسية فَرَفَضُوا هذه الدَّعْوَةَ الكريمة ، ولَمْ يُؤْمِنْ مِن قَوْمِه طِيلة هذه المُدَّة الطويلة سِوى عَدَد قليل . حتى إنَّ زوجة النَّبِيِّ نُوح ﷺ وابْنَه كانا كَافِرَيْن ، لذلك عَمَّ العَذَابُ (الطُّوفان) ، وَلَمْ يَنْجُ مِنه إلا المُؤمنون .

وفي زاد المسير(٨/ ٣٧٥):((قال المُفسِّرون:إنَّ اللَّهَ تعالى أخْبَرَ نُوحًا أنَّهُم لا يَلِدُون مُؤمِنًا)).

وهذا يَعْني أنَّ جميع الأطفال هُم كُفَّار المُستقبَل ، فلا يُمكِن انتظار مَجِيء الخَيْر مِنهُم ، أو الانتظار رَيْثَمَا يَكْبَرُون ، لأنَّ قُلوب الجميع ، رِجالًا ونِساءً ، كِبَارًا وصِغَارًا ، طُبِعَتْ على الكُفْر .

وعن ابن عباس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((بَعَثَ اللَّهُ نُوحًا لأربعينَ سَنَة ، وَلَبِثَ في قَوْمِهِ ألْفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُم ، وَعَاشَ بَعْدَ الطُّوفَانِ سِتِّينَ سَنَةً حَتَّى كَثُرَ الناسُ وَفَشَوْا)) [١٠] .

ج ــ امرأة نُوح

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للذينَ كَفروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ كانتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِين ﴾ [التَّحْرِيم : ١٠] . مَثَّلَ اللَّهُ مَثَلًا للكافرين في عدم انتفاعهم بالنَّسَبِ والمُصَاهَرَةِ والقَرَابَةِ ورَابطةِ الدَّمِ بينهم وبَين المُؤمنين ، بحال امرأة نُوح وامرأة لُوط ، عليهما الصلاةُ والسلام . وهَذا المَثَلُ

---

٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٥٩٦) برقم (٤٠١٠) وصَحَّحه . وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٣٦٧) : ((رواه الطبراني في الأوسط، وفيه موسى بن يعقوب الزمعي ، وثَّقه ابنُ مَعِين وغَيْرُه ، وضَعَّفَه ابنُ الْمَدِيني ، وبقية رجاله ثِقات)) .

١٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٥٩٥) برقم (٤٠٠٥) ، وسكت عنه الذهبي . وقال السُّيوطي في الدُّر المنثور (٦ / ٤٥٥) : صَحَّحَه الحاكم .

لِتَنبيه الناس على أنَّ رابطة الدِّين هي المِعيار الوحيد في الآخِرَة . ومُخالطةُ المُؤمنين والتعاملُ مَعَهُم لا يُفيدان الشَّخْصَ مَا لَمْ يَكُن مُؤمِنًا .

إنَّ امرأة نُوح وامرأة لُوط ، كانتا زَوْجَتَيْن لِرَسُولَيْن عَظِيمَيْن ، نُوح ولُوط ، عليهما الصلاة والسلام. وقد وَصَفَهما اللَّهُ بالعُبوديَّة، وأضافهما إلى ذَاتِه المُقَدَّسَة: ﴿ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنا صَالِحَيْنِ ﴾ لِتَكْريمهما وتَشْريفهما وتَعْظيمهما ، ورَفْع ذِكْرهما في الدُّنيا والآخِرة .

إنَّ كُلَّ زوجة كانت شديدةَ القُرْبِ مِن زَوْجِها النَّبِيِّ الكريم ، قريبة مِنه في الليل والنهار ، وبَينهما مُؤاكَلَة ومُضَاجَعَة ومُعَاشَرَة ومُخَالَطَة . ومعَ هذا ، لَمْ تَقْتَبِس الزَّوجةُ مِن نُور النُّبُوَّةِ الذي يَتَجَسَّد في زَوْجِها النَّبِيِّ الكريم ، بَل اختارت الكُفْرَ على الإيمان .

وكُلُّ قَرَابةٍ إذا عَارضت الدِّينَ ، لا فائدة منها. ومَا فَرَّقَه اللَّهُ تَعَالى فَلَن يَجْمَعَه أحد . والذي يَختار الضلالَ لن يَنتفع مِن قَرَابته لِنَبِيٍّ أوْ وَلِيٍّ أوْ رَجُلٍ صالح . واللَّهُ لا يُحَابي ولا يُجَامِل أحدًا ، ولا تُوجَد مُجَامَلة ومَحسوبية وواسطة في يوم القيامة . وهذا دليل واضح على أن رابطة الدَّم لا معنى لها إذا نُزِعَ مِنها الإيمان . والأساسُ الوحيد هُوَ الإيمان ، وإذا لَمْ يَخْضَع النَّسَبُ للإيمان ، فلا أهمية للنَّسَب مُطْلَقًا ، بَل سَيَكُون عِبْئًا ثقيلًا على صاحبه ، وَوَبَالًا عليه ، لذلك جاءَ التَّوضيحُ النَّبَوِيُّ الدَّقيق في الحديث الذي رواه مُسْلِم في صحيحه (٤ / ٢٠٧٤) ، عن أبي هُرَيرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عنه ـ قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : ((مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُه لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُه)) .

يَأمرُ الإسلامُ الناسَ بالإيمانِ والعَملِ الصالح، وعدمِ الاتِّكال على مَكانةِ الآباء ، أوْ شَرَفِ النَّسَب، أو الوَضْعِ الطَّبَقي . ومَن كانَ عَمَلُه فاسدًا لا يَنْتَفِع بِنَسَبِه الشريف، أوْ مَنْزلةِ آبائه الرفيعة . وبِعِبَارة أُخْرَى ، مَنْ أخَّرَه عَمَلُه القَبيحُ ، أوْ إضاعته للعمل الصالح ، لَمْ يَنتفع في الآخِرَةِ بِشَرَفِ نَسَبِه ، أوْ مكانته الاجتماعية الرفيعة . وقال النَّوَوي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٢و٢٣) : ((مَعْناه : مَنْ كانَ عَمَلُه ناقصًا لَمْ يُلْحِقْه بِمَرتبة أصحاب الأعمال ، فَيَنبغي أن لا يَتَّكِلَ عَلى شَرَفِ النَّسَبِ ، وفَضيلةِ الآباءِ ، ويُقَصِّر في العمل)) .

وعَلى المَرْءِ ألا يَعتمد على شَرَفِ النَّسَب ، أوْ قَرَابته مِن العُظَمَاء والفُضَلاء، فهذا لا يَنْفَعه إذا كان قَلْبُه مُنحرفًا عن طريق اللَّه . وكثيرٌ مِن الناس يَعتمدون على علاقاتهم الاجتماعية في الدُّنيا مِن أجل تحقيق منافع ذاتية، والاستحواذ على مكاسب مادية، وبَسْط نُفُوذهم وسُلْطتهم وهَيْمنتهم .

أمَّا يَوْم القِيامة فإنَّ القواعد سَتَتَغَيَّر،لأنَّ اللَّه تعالى هو القاضي العَدْل الذي نَزَّهَ ذَاتَه عن الظُّلْم، وجَعَلَه بَين عِباده مُحَرَّمًا . وكُلُّ إنسان يَجِب أن يَبْنِيَ نَفْسَه بِنَفْسِه إذا أرادَ النَّجَاةَ . ويَكُون ذلك

بالإيمانِ وعَمَلِ الصالحات . أمَّا التَّعويلُ على عناصر خارجية كالنَّسَب والقَرَابة فَلَن يُجْدِيَ نفْعًا . وصَدَقَ القائل :

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ في كُلِّ حَالةٍ ولا تَتْرُك التَّقْوَى اتِّكَالًا على النَّسَبِ
فَقَدْ رَفَعَ الإسلامُ سَلْمَانَ فَارِسٍ وَقَدْ وَضَعَ الكُفْرُ الشَّرِيفَ أبا لَهَبِ

إنَّ كُلَّ زَوجة خانتْ زَوْجَها بالكُفْرِ والضَّلال ورفض الإيمان . والكفرُ هو الخِيانة العُظمى ، والجريمة الكُبرى. وخيانةُ امرأة نُوح لِزَوجها أنَّها اختارت الكُفْرَ، وكانت تَقُول للناس : إنَّه مجنون. أمَّا خِيانة امرأة لُوط لِزَوْجها فهي اختيارها الكُفْر ، وكانت تَدُلُّ قَوْمَها على ضُيوف زَوجها .

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عنهما : ـ ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ . قال: ((ما زَنَتَا. أمَّا امْرَأةُ نُوحٍ فكانتْ تَقُول للناس : إنَّه مَجنون، وأمَّا امْرَأةُ لُوطٍ فكانتْ تَدُلُّ عَلى الضَّيْفِ ، فَذَلِكَ خِيَانَتُهُمَا)) [11] .

هَذه الخِيانةُ الشنيعة تدلُّ على انحراف الزَّوجة عن طريق زوجها، ووُقوفها إلى جانب الباطل. فَهِيَ لَمْ تَستفد شيئًا مِن قَرَابتها لزوجها الرسول العظيم، بَلْ كانتْ عَوْنًا لأهلِ الضَّلالِ عَلَيه ، حَيْث أَيَّدَت الكافرين على المُؤمنين ، ورَفَضَت المَنهجَ الإلهيَّ الذي جاءَ بِه زَوْجُها الكريم ، وبذلك تَكُون قَدْ خَسِرَت الدُّنيا والآخِرَةَ مَعًا ، ولا يُمْكنها التَّعْويل على دَرَجَة القَرَابة أوْ رابطة الدَّم .

إنَّ الخِيانة في الآية لَيْسَتْ بِمَعنى الخِيَانة الزَّوجية وفاحشةِ الزِّنا ، وإنَّما بِمَعنى الخِيانة في الدِّينِ واختيار الكُفْر على الإيمان ، لأنَّ الكُفْر هو الخِيانة العُظمى التي مَا بَعْدَهَا خِيانة. وزَوْجَاتُ الأنبياء مَعْصُومات مِن الزِّنا، ولَكِنَّهُنَّ غَيْر مَعْصُومات مِن الكُفْر، معَ أنَّ الكُفْر أسوأ وأشد خُطورة ، وذلك لأنَّ الكُفْر اختيار قَلْبي ، والإنسان حُر في اختياره ، ويَتَحَمَّل مَسؤوليةَ اختياره أمام اللَّهِ وأمام الناس. وَزوجةُ النبيِّ نُوح ﷺ،وَزوجةُ النبيِّ لُوط ﷺ كانتا كَافِرَتَيْن، وهذا لا يَطْعَن في نُوح ولُوط ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وإنَّما يُشير إلى حُرية اختيار العقيدة ، ولا يُجْبَر أحد على اعتناق الإسلام . أمَّا الزِّنا فهو تَلويث لِسُمعة النَّبِيِّ ، وطَعْن في شَرَفِه ونَسْلِه ونَسَبِه وعائلته ، وهذا يُنَفِّر الناسَ مِنه،ويُبعِدهم عنه، لذلك كانت زَوجاتُ الأنبياء مَعصومات مِن الزِّنا. وَمَا زَنَتْ امرأةُ نَبِيٍّ قَط.

ومَعَ أنَّ نُوحًا ولُوطًا نَبِيَّان عظيمان وكريمان ، ويَحْمِلان شَرَفَ النُّبَوَّةَ والرِّسالة ، إلا أنَّهما لَمْ يُنقِذا امْرَأتَيْهِمَا مِن الهلاك والغضب الإلهيِّ، ولَمْ يَدفعا عنهما ـ بِحَقِّ مَا بَينهما من الزواج ـ شيئًا

---

١١ رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٥٣٨) برقم (٣٨٣٣) وصَحَّحه ، ووافقه الذهبي .

مِن عذاب اللَّه . وهذا دليل وتنبيه على أنَّ العذاب يُدفَع بالعِبادة والطاعة ، ولا يُدفَع بالقَرَابة . وفي الآخِرة لا يُنقِذ القريبُ قريبَه ، ولا يُسَاعِد الحَبِيبُ حَبِيبَه ، ولا يُغْني أحَدٌ عَن أحَد ، إذا فَرَّقَ الدِّينُ بَينهما .

وقِيل لهما في يوم القيامة:ادْخُلا نارَ جَهَنَّم معَ الداخلين إلَيها مِن الكُفَّار المُجرمين أصحاب المَعَاصِي والذُّنُوب ، والذين لا علاقة قَرَابة بَيْنهم وبَين الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ .

وقال ابنُ الجَوْزي في زاد المسير (٨/ ٣١٤و٣١٥) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للذينَ كَفروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ ﴾ . قال المُفسِّرون مِنهُم : مَقَال هذا المَثَل يَتَضَمَّن تَخْويف عائشة وحَفْصَة أنَّهما إنْ عَصَيَا رَبَّهُمَا لَمْ يُغْنِ رسولُ اللَّه ﷺ عَنْهما شيئًا. قال مُقَاتِل: اسمُ امرأة نُوح والهة ، وامرأة لوط والغة . قَوْلُه تعالى : ﴿ كانتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنا صَالِحَيْنِ ﴾ يعني: نُوحًا ولُوطًا عليهما السلام ، ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ . قال ابن عباس : مَا بَغَتْ امرأةُ نَبِيٍّ قَط ، إنَّما كانت خِيانتهما في الدِّين ، كانت امرأةُ نُوح تُخبِر الناس أنَّه مجنون ، وكانت امرأة لُوط تَدُلُّ على الأضياف، فإذا نَزَلَ بِلُوط ضَيْف بالليل أوْقَدَت النارَ ، وإذا نَزَلَ بالنهار دَخَّنَتْ لِيَعْلَمَ قَوْمُه أنَّه قَدْ نَزَلَ بِه ضَيْف . وقال السُّدي : كانتْ خِيانتهما كُفْرَهما . وقال الضَّحَّاك : نَمِيمتهما. وقال ابن السائب : نِفاقهما . قَوْلُه تعالى : ﴿ فَلَم يُغنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ ، أي : فَلَمْ يَدْفَعَا عَنْهما مِن عذاب اللَّه شيئًا . وهَذه الآية تَقْطَع طَمَعَ مَن رَكِبَ المَعصيةَ ، وَرَجَا أن يَنْفَعَه صَلاحُ غَيْرِه)) .

د_ أصحابُ السَّفِينة

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فَأنجَيْنَاهُ وَأصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلعَالَمِين ﴾ [العنكبوت: ١٥].

فأنجَى اللَّهُ النَّبِيَّ نُوحًا ﷺ مِنَ الغَرَقِ ومَن رَكِبَ مَعَهُ في السَّفِينةِ مِن أهْلِه وأولادِه وأتْبَاعِه المُؤمنين ، وجَعَلَ اللَّهُ السَّفينةَ عِظَةً وَعِبْرَةً للناسِ بَعْدَهُم يَتَّعِظُون ويَسْتَدِلُّون بِها ، وحُجَّةً عَلَيهم .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٢٣٦) : ((﴿ فَأنجَيْنَاهُ وَأصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ ، يَعْنِي مِنَ الغَرَقِ ، ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ يَعْنِي السَّفِينَةَ ﴿ آيَةً ﴾ ، أي : عِبْرَةً ﴿ لِلعَالَمِين ﴾ ، فإنَّها كانتْ باقيةً عَلى الجُودِيِّ مُدَّةً مَديدة. وقيل : جَعَلْنَا عُقُوبَتَهُم بالغَرَقِ عِبْرَةً . وقال ابنُ عَبَّاس _ رَضِيَ اللَّهُ عنهما _: بُعِثَ نُوح لأربعين سَنَة ، وَبَقِيَ في قَوْمِه يَدْعُوهُم ألْفَ سَنَة إلا خَمْسِين عامًا ، وعاشَ بَعْدَ الطُّوفَانِ سِتِّين سَنَة حَتَّى كَثُرَ الناسُ وفَشَوْا ، وكانَ عُمُرُه ألْفًا وخمسين سنة)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٢٧٩) : ((﴿ فَأنجَيْنَاهُ وَأصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ ، أي : أنجَيْنَا نُوحًا ، وأنجَيْنَا مَن مَعَهُ في السَّفينةِ مِن أولادِه وأتْبَاعِه ، واخْتُلِفَ في عددهم على أقوال ، ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ أي السَّفِينة ﴿ آيَةً لِلعَالَمِين ﴾ ، أي : عِبْرَةً عظيمةً لَهُم . وفي كَوْنِها آيةً وُجُوه : أحدها أنَّها كانت باقيةً على الجُودِيِّ مُدَّةً مديدةً ، وثانيها أنَّ اللَّهَ سَلَّمَ السَّفينةَ مِن الرِّياح المُزْعِجَة، وثالثها أنَّ الماء غِيضَ قَبْل نَفَاد الزَّاد ، وهذا غَيْر مُنَاسِب لوصف السَّفينة بأنَّ اللَّهَ جَعَلَهَا آيةً . وقِيل : إنَّ الضمير راجع في ﴿ جَعَلْنَاهَا ﴾ إلى الواقعة ، أوْ إلى النَّجَاة ، أوْ إلى العُقوبة بالغَرَق)) .

٥ــ قَوْمُ تُبَّع

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالذينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِين ﴾ [الدُّخَان : ٣٧] .

أهؤلاء المُشركون أقوى وأشَدُّ أَمْ أهْلُ سَبَأ مُلوك اليَمَنِ الذين كانوا أكثرَ أموالًا، وأعظمَ نَعِيمًا مِن كُفَّارِ مَكَّة ؟. وهذا استفهامٌ إنكاري معَ التَّهديد. والذين سَبَقُوهُم مِن الأُمَم العاتية أهْلَكَهُمُ اللَّهُ، وخَرَّبَ بِلادَهم ، وشَتَّتَ شَمْلَهم ، والمُرادُ بِهِم عاد وثَمُود وأمثالُهم مِن كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيد ، أُولِي بَأسٍ شَديد ، فَأُولئكَ كانوا أقوى مِن هؤلاء ، وقَد أهلكهم اللَّهُ معَ مَا كانوا عليه مِن غاية القُوَّة والشِّدَّة، فإهلاكُ كُفَّار مَكَّة أَوْلَى ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِين ﴾ ، تَعْلِيلٌ للإهلاك ، أي : أهلكهم اللَّهُ ودَمَّرَهم بسبب إجرامهم . وفِيه وعيد وتهديد لِقُرَيْشٍ أن يَفْعَلَ اللَّهُ بِهِم مَا فَعَلَ بِقَوْم تُبَّعٍ والمُكَذِّبين . وإنَّمَا ذَكَرَ قَوْمَ تُبَّع لأنَّهُم كانوا أقربَ في الهلاك إلى كُفَّار مَكَّة مِن غَيْرِهِم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ١٨٣) : ((شَبَّهَهُم بأُولئك وقَد كانوا عَرَبًا مِن قَحْطَان ، كما أنَّ هؤلاء عَرَبٌ مِن عَدْنَان ، وقَد كانتْ حِمْيَر ، وهُم سَبَأ ، كُلَّمَا مَلَكَ فِيهِم رَجُلٌ سَمَّوْهُ تُبَّعًا ، كما يُقَال : كِسْرَى ، لِمَن مَلَكَ الفُرْس ، وقَيْصَر ، لِمَن مَلَكَ الرُّومَ ، وفِرْعَوْن ، لِمَن مَلَكَ مِصْرَ كافرًا ، والنَّجَاشِيُّ ، لِمَن مَلَكَ الحَبَشَة ، وغَيْر ذلك مِن أعلام الأجناس)) .

وقَوْمُ تُبَّع أحَد الأقوام الهالكة التي ذَمَّهَا اللَّهُ تعالى ، وأخْزَاها في الدُّنيا ، ويَوْمَ القِيامة يُذِلُّهُم ويُجَلِّلهم بالخِزْيِ والعار. واللَّهُ خَوَّفَ كُفَّارَ مَكَّة عَذابَ الأُمَم قَبْلَهم كَي يَرتدعوا ويَتَّعظوا ويَعْتبروا .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١/ ١٦٣) : ((تُبَّع الحِمْيَري الذي سارَ بالجُيوش ، وحَيَّرَ الحِيرَةَ ، وبَنَى سَمَرْقَنْد ، وقِيل : هَدَمَهَا ، وكانَ مُؤمِنًا ، وَقَوْمُه كافرين ، ولذلك ذَمَّهُم دُونَه)) .

وقَد قِيل لِمُلُوكِ اليَمَنِ التَّبَابِعَة ، لأنَّ كُلَّ تُبَّع يَتْبَع صَاحِبَه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٠٠) : ((كانت سَبَأ مُلوكَ اليَمَنِ وأهْلَها ، وكانت التَّبَابِعَةُ مِنهُم ، وبَلْقِيس صاحبة سُلَيمان _ عليه الصلاة والسلام _ مِن جُمْلتهم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٨١٩) : ((﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ ، أي : أهُمْ خَيْرٌ في القُوَّة والمَنَعَةِ أَمْ قَوْمُ تُبَّع الحِمْيَرِي الذي دارَ في الدُّنيا بِجُيوشِه ، وغَلَبَ أهْلَها ، وقَهَرَهم. وفيه وعيد شديد،وقِيل:المُراد بِقَوْمِ تُبَّعٍ جميعُ أتْبَاعِه لا واحد بِعَيْنِه. ... والمُرادُ بِـ﴿ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ عَاد وثَمُود ونَحْوهم . وقَوْلُه : ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأنَفَة ، لِبَيانِ حَالِهم ، وعَاقِبَةِ أمْرِهِم . وجُملةُ ﴿ إنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِين ﴾ تَعْلِيلٌ لإهلاكِهم. والمَعْنَى : أنَّ اللَّهَ سُبحانَه قَدْ أهلكَ هؤلاء بسبب كَوْنِهم مُجْرِمِين ، فإهلاكُه لِمَن هُوَ دُونَهم بسبب كَوْنِه مُجْرِمًا معَ ضَعْفِه وقُصُورِ قُدْرته بالأوْلَى)) .

وعن أبي هُرَيرة رَضِيَ اللَّهُ عنه قال:قال رسولُ اللَّه ﷺ : ((مَا أدْرِي أَتُبَّعٌ لَعِينًا كانَ أَمْ لا،...)) [١٢].

إنَّ العِلْمَ بالأُمُور التاريخية المُوغِلة في القِدَمِ يَنْبغي ألا يُؤْخَذَ إلا عَن يَقِين مِن الأخبار ، بِمَا أخبَرَ بِهِ نَبِيٌّ عَن اللَّه تعالى ، أوْ في كِتَابٍ مُنَزَّلٍ مَحفوظ مِن التَّحريفِ والتَّبديلِ .

يَقُول النَّبِيُّ ﷺ : " مَا أدْرِي أَتُبَّعٌ " ، أي : المَذكورُ في قَوْلِه تعالى : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالذينَ مِن قَبْلِهِمْ أهْلَكْنَاهُمْ إنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِين ﴾ ، " لَعِينًا كانَ أَمْ لا " ، أي : مَطْرُودًا مِن رَحمةِ اللَّهِ ومَغضوبًا عليه ، أوْ لَيْسَ مَطرودًا . وهذا القَوْلُ كانَ قَبْلَ أن يُوحَى إلَيْه شَيْءٌ في أمْرِه . ومِن السُّنَّةِ أن يَقُول المَرْءُ : لا أدْرِي ، عَن الشَّيْء الذي لا يَعْلَمُه .

وفي مُسْنَد أحمد (٥ / ٣٤٠) : عن سَهْل بن سَعْد قال : سَمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يَقُول : ((لا تَسُبُّوا تُبَّعًا ، فإنَّهُ قَدْ كانَ أسْلَمَ)) ، أي : كانَ قَدْ أسلَمَ الوَجْهَ للَّهِ بالتَّوحيدِ . و (تُبَّعٌ) قِيل: إنَّه كانَ مِن مُلوكِ اليَمَنِ في الجاهليَّة،وكانَ يَعْبُد النارَ ، فأسْلَمَ ودَعَا قَوْمَه وهُمْ حِمْيَر إلى الإسلامِ .

وفي الحَديثِ : التَّنبيهُ إلى عَدَمِ القَوْلِ في أيِّ أمْرٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ . وفِيه : أنَّه يَنْبغي التَّوَقُّفُ عَمَّا لَيْسَ للمَرْءِ بِهِ عِلْمٌ مُحَقَّقٌ .

وعن عائشة _ رَضِيَ اللَّهُ عَنها _ أنَّهَا قالتْ : ((كانَ تُبَّعٌ رَجُلًا صَالِحًا ، ألا تَرَى أنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ذَمَّ قَوْمَهُ وَلَمْ يَذُمَّه)) [١٣] .

---

١٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ١٧) برقم (٢١٧٤) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

١٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٤٨٨) برقم (٣٦٨١) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

إنَّ قَوْمَ تُبَّع لَمْ يَستفيدوا مِن صلاح حاكمهم ، بَل اختاروا طريقَ الضلال ، وفَضَّلُوا الكُفْرَ على الإيمان.وهذه الحالة غريبة بعض الشيء،لأنَّ الناس _ في الأغْلَب الأعَمِّ _ على دِينِ مُلوكهم ، أمَّا هؤلاء القَوْمُ فاختاروا طَرِيقًا مُخْتَلِفًا عَن طَرِيقِ مَلِكِهِم ، فقد اختاروا الكُفْرَ بَيْنَمَا هُوَ اختارَ الإيمانَ .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق : ١٤].

وأصحابُ الشَّجَرِ الكَثيرِ المُلْتَف (قَوْم النَّبِيِّ شُعَيْب ﷺ) ، نُسِبُوا إلى الأيْكَةِ ، لأنَّهُم كانتْ تُحِيط بِهِم البساتين والأشجار الكثيرة ، المُلْتَف بَعْضُها على بعض ، وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، وَهُوَ مَلِكٌ كانَ باليَمَنِ ، أسْلَمَ وَدَعَا قَوْمَه إلى الإسلام ، فَكَذَّبُوه ، جميع هؤلاء المَذكورين كَذَّبُوا رَسُولَهم ، وإنَّمَا جَمَعَ الرُّسُلَ لأنَّ مَن كَذَّبَ رَسُولًا فإنَّما كَذَّبَ جَمِيعَ الرُّسُلِ ، كَقَوْلِه تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِين ﴾ [الشُّعَراء : ١٠٥] ، فَوَجَبَ عليهم وَعِيدُ اللَّهِ وعِقَابُه وعَذَابُه ، أي : وَجَبَ نُزُول العَذاب عَلى الجميع ، فلا يَضِيق صَدْرُكَ يَا مُحَمَّد مِن كُفْرِ قُرَيْشٍ بِكَ . وَلْيَحْذَر المُخَاطَبُون أن يُصِيبهم مَا أصابهم ، فإنَّهُم قَد كَذَّبُوا رَسُولَهم كما كَذَّبُوا أُولئك .

والآيةُ تَسْلِيَةٌ للنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَهديدٌ للكَفَرَةِ المُجْرِمين .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ١٠٣) : ((﴿ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ ﴾ ، ... ، ونَبِيُّهُم الذي بَعَثَه اللَّهُ إلَيْهِم شُعَيْب ، ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هُوَ تُبَّع الحِمْيَرِي الذي تَقَدَّم ذِكْرُه في قَوْلِه : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ [الدُّخان : ٣٧] ، واسْمُه سَعْد أبو كَرِب ، وقِيل : أسعد. قال قَتَادَة: ذَمَّ اللَّهُ قَوْمَ تُبَّع، وَلَمْ يَذُمَّه ، ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ ، التَّنْوِينُ عِوَض عَن المُضاف إليه ، أي : كُلُّ وَاحِدٍ مِن هَؤلاء كَذَّبَ رَسُولَه الذي أرْسَلَه اللَّهُ إلَيْه ، وكَذَّبَ مَا جاءَ بِه مِن الشَّرْعِ ، واللام في ﴿ الرُّسُلَ ﴾ تَكُون للعَهْد ، ويَجُوز أن تَكُون للجِنْس ، أي : كُلُّ طائفة مِن هذه الطوائف كَذَّبَتْ جَمِيعَ الرُّسُلِ ، وإفرادُ الضَّمير في ﴿ كَذَّبَ ﴾ باعتبار لفظ ﴿ كُلٌّ ﴾ . وفي هذا تَسْلِيَةٌ لرسولِ اللَّهِ ﷺ،كأنَّه قِيل له: لا تَحْزَنْ ، ولا تُكْثِرْ غَمَّكَ لِتكذيبِ هؤلاء لَكَ ، فهذا شَأنُ مَنْ تَقَدَّمَكَ مِن الأنبياء ، فَإنَّ قَوْمَهُم كَذَّبُوهم ، ولَمْ يُصَدِّقْهُم إلا القليل مِنهُم ، ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ ، أي : وَجَبَ عَلَيْهِم وَعِيدِي ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِم كَلِمَةُ العَذابِ ، وَحَلَّ بِهِم مَا قَدَّرَه اللَّهُ عَلَيْهِم مِن الخَسْفِ ، والمَسْخِ ، والإهلاكِ بالأنواع التي أنزلَها اللَّهُ بِهِم مِن عَذابه)) .

٦_ لُقْمَان وحِكْمَته

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ أنِ اشْكُرْ للَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لُقمان : ١٢] .

أعْطَى اللَّهُ لُقْمَانَ الحِكْمَةَ ، وَهِيَ الفَهْم والعِلْم والعَقْل والتَّعْبير، والإصابةَ في القَوْل ، والسَّدَادَ في الرَّأي ، والنُّطْقَ بِما يُوافِق الحَقَّ. وَحِكَمُه كثيرةٌ مأثورة. وَلَمْ يَكُنْ لُقْمَانُ نَبِيًّا ، وإنَّما كانَ حَكِيمًا.

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ٣٤٦) : ((﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ ﴾ ، يَعْني لُقْمَان ابن باعوراء مِن أولاد آزَر ابن أُخْت أَيُّوب أوْ خالته، وعاشَ حَتَّى أدركَ داود عليه الصلاة والسلام ، وأَخَذَ مِنْهُ العِلْمَ ، وكانَ يُفْتي قَبْل مَبْعَثِه ، والجُمهورُ على أنَّه كان حَكِيمًا ، وَلَمْ يَكُن نَبِيًّا . والحِكْمَةُ في عُرْفِ العُلَمَاء : استكمال النَّفْس الإنسانيَّة باقتباس العُلوم النظرية ، واكتساب المَلَكَة التَّامَّة على الأفعال الفاضلة عَلى قَدْر طاقتها . ومِن حِكْمته أنَّه صَحِبَ دَاوُدَ شُهورًا ، وكانَ يَسْرُد الدِّرْعَ ، فَلَمْ يَسأله عَنْهَا ، فَلَمَّا أتَمَّها لَبِسَهَا ، وقال : نِعْمَ لَبُوس الحَرْب أنتِ ، فقال : الصَّمْتُ حُكْمٌ ، وقليلٌ فَاعِلُه، وأنَّ داود عليه السلام قال له يَوْمًا : كَيْفَ أصبحتَ ؟ ، فقال : أصبحتُ في يَدَيْ غَيْرِي ، فَتَفَكَّر داود فِيه ، فَصَعِقَ صَعْقَةً ، وأنَّه أمَرَه بأن يَذبَح شَاةً ، ويَأتِيَ بِأطْيَبِ مُضْغَتَيْن مِنها ، فأتى باللسانِ والقَلْبِ ، ثُمَّ بَعْد أيَّام أمَرَه بأن يأتيَ بأخبثِ مُضْغَتَيْن ، فأتى بِهما أيضًا ، فسأله عن ذلك ، فقال : هُمَا أطْيَبُ شَيْء إذا طابا ، وأخْبَثُ شَيْء إذا خَبُثَا)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٦ / ٣١٨) : ((وفي صِناعته ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه كانَ خَيَّاطًا ، قاله سعيد بن المُسَيِّب . والثاني رَاعِيًا ، قاله ابن زيد. والثالث نَجَّارًا ، قاله خالد الرَّبَعي . فأمَّا صِفَتُه فقال ابن عباس: كانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، وقال سعيد بن المُسَيِّب: كان لُقْمَانُ أسْوَدَ مِن سُودان مِصْر،وقال مُجَاهِد: كانَ غَلِيظَ الشَّفَتَيْن، مُشَقَّق القَدَمَيْن، وكانَ قاضيًا على بني إسرائيل)).

أَمَرَ اللَّهُ لُقْمَانَ أن يَشْكُرَ اللَّهَ على إنعامِه وإفضالِه عَلَيه ، حَيْث خَصَّه بالحِكمةِ ، وجَعَلَهَا على لسانه . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٨٥) : ((﴿ أنِ اشْكُرْ للَّهِ ﴾ ، أي : أَمَرْنَاه أن يَشْكُرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلى مَا آتاه اللَّهُ وَمَنَحَه وَوَهَبَه مِن الفَضْلِ الذي خَصَّصَه بِه عَمَّن سِوَاه مِن أبناءِ جِنْسِه وأهْلِ زَمَانه)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣ / ٢٨٢) : ((وَقَدْ نَبَّهَ اللَّهُ تعالى على أنَّ الحِكْمَة الأصْلِيَّة والعِلْمَ الحقيقي هو العمل بِهِمَا ، وعِبادة اللَّه ، والشُّكْر له ، حَيْث فَسَّرَ إيتاءَ الحِكْمَة بالحَثِّ عَلى الشُّكْر . وقِيل : لا يَكُون الرَّجُلُ حَكِيمًا حَتَّى يَكُون حَكِيمًا في قَوْلِه وفِعْلِه ومُعاشرته وصُحبته . وقال السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ : الشُّكْرُ أن لا تَعْصِيَ اللَّهَ بِنعَمِه . وقال الجُنَيد : أن لا تَرَى مَعَهُ شَرِيكًا في نِعَمِه . وقِيل : هو الإقرارُ بالعَجْزِ عَن الشُّكْر . والحاصلُ أنَّ شُكْرَ القَلْبِ المَعرفةُ ، وشُكْرَ اللسانِ الحَمْدُ ، وشُكْرَ الأركانِ الطاعةُ ، ورُؤية العَجْز في الكُلِّ دَلِيلُ قَبول الكُلِّ)) .

وَمَن يَشْكُر اللَّهَ ، فَثَوَابُ شُكْرِه راجعٌ لِنَفْسِه ، وفائدته تَعُود إلَيه ، وَهِيَ دَوَام النِّعْمَة ، واستحقاق مَزِيدها ، واللَّهُ لا يَنْفَعُه شُكْر الشاكرين ، ولا يَضُرُّه كُفْر الكافرين . وَهُوَ سُبحانَه غَنِيٌّ عَن المؤمنين والكافرين ، لا يَحتاج إلى الطاعات ، ولا تَضُرُّه المَعَاصِي .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٣٣٧) : ((بَيَّنَ سُبحانَه أنَّ الشُّكْر لا يَنتفع بِه إلا الشاكر، فقال: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ ، لأنَّ نَفْعَ ذلك راجع إلَيه، وفائدته حاصلة له، إذْ بِه تُسْتَبْقَى النِّعْمَة ، وبسببه يُسْتَجْلَب المَزِيد لها مِن اللَّهِ سُبحانَه)) .

ومَن جَحَدَ نِعْمَةَ اللَّهِ فَقَدْ أساءَ إلى نَفْسِه ، لأنَّ اللَّهَ مُسْتَغْنٍ عَن العِبَادِ، مَحْمُودٌ على كُلِّ حال، مُسْتَحِقٌّ للحَمْدِ لِذَاتِه وصِفَاتِه . واللَّهُ سُبحانَه غَيْرُ مُحتاج إلى شُكْرٍ حَتَّى يَتَضَرَّرَ بِكُفْرِ الكافر ، فَهُوَ في نَفْسِه مَحمود ، سَوَاءٌ شَكَرَه الناسُ أَمْ لَمْ يَشْكُروه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٣٣٧) : ((﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ ، أي : مَن جَعَلَ كُفْرَ النِّعَم مَكَانَ شُكْرِها، فإنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَن شُكْرِه غَيْر مُحتاج إلَيه ، حَمِيدٌ مُسْتَحِق للحَمْدِ مِن خَلْقِه لإنعامه عَلَيْهِم بِنِعَمِه التي لا يُحَاط بِقَدْرِها ، ولا يُحْصَر عَدَدُها ، وإنْ لَمْ يَحْمَدْهُ أحَدٌ مِن خَلْقِه، فإنَّ كُلَّ مَوجود ناطق بِحَمْدِه بلسان الحال . قال يَحْيَى بن سَلَّام : غَنِيٌّ عَن خَلْقِه ، حَمِيدٌ في فِعْلِه)) .

إنَّ لُقْمَان الحَكِيم ـ رَضِيَ اللَّهُ عنه ـ رَجُلٌ صالح ، ولَمْ يَكُن نَبِيًّا ، وَقَدْ مَنَحَه اللَّهُ الفِقْهَ في الدِّينِ ، والفَهْمَ ، والعِلْمَ ، والقُدْرَةَ على التعبير . وقد كانَ كثيرَ التَّأمُّل والتَّفَكُّر ، واثقًا باللَّهِ تعالى مُتَوكِّلًا عَلَيه ، حَسَنَ اليَقِينِ ، أَحَبَّ اللَّهَ فَأَحَبَّه ، وصَبَّ في قَلْبِه الحِكْمَةَ ، وأعطاه فَصَاحَةَ اللسانِ وقُوَّةَ الحُجَّة ، وَرَفَعَ مَنزلته في الدُّنيا والآخِرَةِ ، وخَلَّدَ ذِكْرَهُ العَطِرَ فِيهما .

والحِكْمَةُ تَقُود إلى مَعرفة العلاقة بَيْن المَرْءِ ونَفْسِه ، والمَرْءِ وخَالِقِه ، والمَرْءِ والآخَرين . وبالتالي ، فإنَّ الدَّرْبَ المُوصِل إلى اللَّهِ تعالى يَتَّضِح أمام الإنسان الذي يَتَوَجَّب عليه أداء العِبادات على أكمل وجه ، وأداء الحُقوق إلى أصحابها دُون تَكَاسُل .

والحِكْمَةُ تَجْعَل الفَرْدَ قادرًا على تَحديد نُقْطَتَي البِداية والنِّهاية في مَسَاره الوُجودي ، والإجابة عن الأسئلة الكُبْرى مِن قَبِيل : مَن أنا ؟ ، ومَنْ خَلَقَنِي ؟ ، ومَا هِيَ الغايةُ مِن خَلْقِي ؟ ، ومَا هُوَ المَسَارُ والمَصِيرُ ؟ ، ومَا طبيعة هذه المراحل : الحياة والمَوْت ومَا بَعْد المَوْت ؟ . وَبِدُون الحِكمة سَيَظَلُّ الفَرْدُ تائهًا ضِمْن دائرة فَوْضَوِيَّة تَضِيق عَلَيه شَيْئًا فَشَيْئًا إلى أن تَخْنُقَه وتَقْتُلَه .

وَقَد وَرَدَ أنَّ لُقْمَان الحَكِيم كانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا نَجَّارًا ، وكانَ قاضيًا في بَنِي إسرائيل .

وعن أنس ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : ((إنَّ لُقْمَانَ كانَ عِنْدَ دَاوُدَ وَهُوَ يَسْرُدُ الدِّرْعَ ، فَجَعَلَ يَفْتِلُهُ هَكَذَا بِيَدِه ، فَجَعَلَ لُقْمَانُ يَتَعَجَّبُ ، ويُرِيدُ أن يَسْأَلَه ، ويَمْنَعُهُ حِكْمَتُهُ أن يَسْأَلَه ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا صَبَّهَا عَلى نَفْسِه ، فَقَال : نِعْمَ دِرْعُ الحَرْبِ هَذِه ! . فقالَ لُقْمَان : الصَّمْتُ مِنَ الحِكْمَةِ ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُه ، كُنْتُ أرَدْتُ أن أسْألَكَ فَسَكَتُّ حَتَّى كَفَيْتَنِي)) [١٤] .

الصَّمْتُ وطُولُ التَّأمُّلِ والتَّفَكُّرِ وَقُوَّةُ المُلاحَظَة مِن عَلاماتِ الحِكْمَة . والحكيمُ يَلُوذ بالصَّمْتِ عِندما يَكُون الصَّمْتُ أبْلَغَ مِن الكلام ، ويَتَكَلَّم حِينَ يَكُون الكلامُ أفضلَ مِن الصَّمْتِ .

والحِكْمَةُ لَيْسَتْ مِيزَةً طَبَقِيَّةً ، بَلْ هي مِنْحَة رَبَّانِيَّة يَتَفَضَّل بِها اللَّهُ عَلى مَن يَشاء مِن عِباده . وكَوْنُ لُقْمَان عَبْدًا حَبَشِيًّا لَمْ يَمْنعه مِن اكتساب المعارف ، وإسداءِ النصائح ، وتقديم الحِكَم الخالدة عَبْر مراحل الزَّمَن . واللَّهُ تعالى يَنظُر إلى قُلوب العِباد لا صُوَرِهم . فالتَّقِيُّ هو الشريف في قَوْمِه بِغَضِّ النظر عَن مكانته الاجتماعية المادية ــ وَفْق مَنظور الناس ــ . أمَّا المَالُ والأولاد والمَنْصِب والحَسَب والنَّسَب فهي أعراض زائلة ، وزينةٌ ظاهريَّة سَرْعَان مَا تَتَبَخَّر ، وجُزْءٌ مِن مَتَاع الدُّنيا الفاني . والعَرَضُ لا يَدُوم زَمَانَيْن ، ودَوَامُ الحَالِ مِنَ المُحَالِ .

وفي صحيح مُسْلِم(٤/ ١٩٨٦) عن أبي هُرَيرة ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((إنَّ اللَّه لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُم وأمْوَالِكُم ، ولكنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُم وأعْمَالِكُم)) .

إنَّ الصُّوَر الآدَمِيَّة صورٌ ظاهرية زائلة لا تحتوي على العقائد ، لكن القلبَ هو مَلِك الأعضاء ، الذي يَرْسَخ فيه الإيمانُ أو الكفر . وبالتالي إمَّا أن يَقود العبدَ إلى النعيم أو الهلاك . وهذا لا يعني عدم الاهتمام بالظاهر، فَكُلُّ جَوْهَرٍ داخلي له حقيقة ينبغي أن تَظهر ، وتبرز علاماتها . ولكنْ ينبغي التركيز على المنبع وهو القلب . والعاقلُ يُركِّز على الجَوهَر ، ويُحاول جاهدًا تنقيته ، ولا يَنشغل بالأعراض المُؤقَّتة ، والملامحِ الظاهرية ، والزِّينةِ الخارجية الزائلة . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٢١) : ((... الأعمال الظاهرة لا يَحصُل بها التَّقوى، وإنَّما تَحصُل بما يقع في القلب مِن عَظَمَة اللَّه تعالى ، وخَشْيته ، ومُراقبته . ومعنى نظر اللَّه هُنا مُجازاته ومُحاسبته، أي إنَّما يكون ذلك على ما في القلب دُون الصُّوَر الظاهرة، ونظرُ اللَّه رُؤيته، مُحيط بِكُلِّ شيء)).

وقال الحافظ في الفتح (٦ / ٤٦٦) : ((عن سَعِيد بن المُسَيِّب : كان لُقْمَانُ مِن سُودان مِصْر ، ذُو مَشَافِر ، أعطاه اللَّهُ الحِكْمَةَ ، وَمَنَعَه النُّبُوَّةَ . وفي المُسْتَدْرَك بإسناد صحيح عن أنس

---

١٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٤٥٨) برقم (٣٥٨٢) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

قال : " كانَ لُقْمَانُ عِنْدَ دَاوُدَ وَهُوَ يَسْرُدُ الدِّرْعَ ، فَجَعَلَ لُقْمَانُ يَتَعَجَّبُ ويُرِيدُ أن يَسْأَلَه عَن فائدته ، فَتَمْنَعُهُ حِكْمَتُهُ أن يَسْأل " . وهذا صريح في أنَّه عَاصَرَ داود عليه السلام . وقَدْ ذَكَرَه ابنُ الجَوْزي في التَّلْقيح : بَعْد إبراهيم قَبْل إسماعيل وإسحاق . والصحيحُ أنَّه كان في زَمَن داود . وقَد أخرجَ الطبريُّ وغَيْرُه عَن مُجَاهِد أنَّه كان قاضيًا على بني إسرائيل زَمَن داود عليه السلام . وقِيل: إنَّه عاشَ ألف سنة . نُقِلَ عن ابن إسحاق ، وهو غَلَط مِمَّن قاله ، وكأنَّه اختلطَ عليه بِلُقْمَان بن عاد . وقِيل: إنَّه كانَ يُفْتِي قَبْل بَعْث داود . وأغربَ الواقدي فَزَعَمَ أنَّه كانَ بَيْن عِيسَى ونَبِيِّنَا عليهما الصلاة والسلام . وشُبْهته مَا حَكَاه أبو عُبَيدة البَكْري أنَّه كان عبدًا لِبَني الحَسْحَاس بن الأزْد ، والأكثر أنَّه كان صالحًا . قال شُعْبَةُ عَن الحَكَم عن مُجاهِد : كان صالحًا ، وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا ، وقِيل : كان نَبِيًّا ، أخرجه ابنُ أبي حاتم وابن جرير من طريق إسرائيل عن جابر عن عِكْرمة ، قُلْتُ : وجابر هو الجُعْفِي ضعيف . ويُقَال: إنَّ عِكْرِمَة تَفَرَّدَ بِقَوْلِه : كانَ نَبِيًّا . وقِيل : كانَ لِرَجُل مِن بَني إسرائيل فَأَعْتَقَه وأعطاه مَالًا يَتَّجِر فيه . وروى ابنُ أبي حاتم من طريق سعيد بن بشير عن قَتَادَة أنَّ لُقْمَان خُيِّرَ بَيْن الحِكْمَةِ والنُّبُوَّةِ ، فاختارَ الحِكْمَةَ ، فَسُئِلَ عَن ذلك ، فقال : خِفْتُ أن أضْعُفَ عَن حَمْلِ أعباءِ النُّبُوَّةِ. وفي سعيد بن بشير ضَعْف.وقَد رَوى سعيد بن أبي عَرُوبة عن قَتَادَة في قَوْلِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ ﴾ ، قال : التَّفَقُّه في الدِّينِ وَلَمْ يَكُن نَبِيًّا)) .

وقال المُناوي في فَيْض القدير (٤ / ٢٤٠) : (((الصَّمْتُ حِكْمَةٌ) أي : هُوَ حِكْمَة ، أي: شَيْء نافع يَمْنَع مِن الجَهْلِ والسَّفَهِ . قالوا : سُمِّيَ حِكْمَة ، لأنَّه يَنْشَأ عَنها ، وأنَّ الصَّمْت عَن رَدِيء الكلام ومَا لا يَعْنِي يُثْمِر حِكْمَةً في قَلْبِ الصامت ، يَنْطِق عَنْهَا ، ويَنتفع بِها بِبَرَكَةِ كَفِّ نَفْسِه عَن شُؤم عَجَلَةِ طَبْعِه ، أمَّا الصَّمْتُ عَن قَوْلِ الحَقِّ ونَشْرِ العِلْمِ والعَدْلِ فَلا (وَقَلِيلٌ فَاعِلُه) أي : قَلَّ مَن يَصْمُت عَمَّا لا يَعْنِيه ، ويَمْنَع عَن التَّسَارُع إلى النُّطْقِ بِما يَشِينه ويُؤْذِيه في دِينِه ودُنْيَاه لِغَلَبَةِ النَّفْسِ الأمَّارَةِ ، وعَدَمِ التَّهذيب لها بالرِّيَاضَة ، يَعْني استعمال الصَّمْت حِكْمَة ، لكنْ قَليلٌ مَن يَسْتعملها ، ونُقِلَ هذا عَن لُقْمَان أيضًا . قِيل : دَخَلَ على داود وَهُوَ يَسْرُدُ الدِّرْعَ ، وقَدْ لُيِّنَ له الحديد ، فأرادَ أن يَسأله ، فأدركته الحِكْمَةُ ، فَسَكَتَ ، فَلَمَّا أتَمَّها لَبِسَهَا ، وقال : نِعْمَ لَبُوسٌ للحَرْبِ أنتِ . فقال لُقْمَان : الصَّمْت إلخ ، فقال داود : بِحَقِّ مَا سُمِّيتَ حَكِيمًا ، وَلَيْسَ شَيْء على الإنسان أضَر مِن العَيْنِ واللسانِ ، فَمَا عَطِبَ أكثرُ مَنْ عَطِبَ إلا بِهِمَا ، وَمَا هَلَكَ أكثرُ مَنْ هَلَكَ إلا بسببهما ، فَلِلَّهِ كَمْ مِن مَوْرِدٍ هَلَكَة أوْرَدَاه ، أوْ مَصْدَر رَدِيء أصْدَرَاه . قال الغَزَالِيُّ : حَسْبُكَ مِن اللسانِ أنَّ فِيه رِبْحَكَ وغَنِيمَتَكَ وَثَمَرَةَ تَعَبِكَ واجتهادِكَ كُلِّه في الطاعة ، وإحباطها

وإفسادها غالبًا مِن قِبَل اللسان . قال بعضُهم : وإذا كان الإنسانَ حَاسِمًا للسانه عَن الشَّرِّ ، مُتَكَلِّمًا بالخَيْر ، صارَ عَادَةً له ، فَيَثْقُل عليه الكلام في الشَّرِّ والباطلِ ، ويَكْرَهه ويَنْفِر مِنْه)) [15] .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم ﴾ [لُقمان : ١٣] .

ذَكَرَ اللَّهُ بعضَ نصائح لُقْمَان الحَكِيم لابْنِه ، وبدأ بالتَّحذيرِ له مِن الشِّرْكِ ، الذي هُوَ نِهايةُ القُبْحِ والشَّنَاعَةِ ، وأعْظَمُ الذُّنُوبِ ، وأكبرُ الكبائرِ على الإطلاق، وإذا مَاتَ الإنسانُ عَلَى الشِّرْكِ بِلا تَوْبَةٍ، فهو خالد في النار، ولا يَخْرُج مِنها أبدًا. واللَّهُ يَغْفِر الذُّنُوبَ جميعًا لِمَن يَشَاء إلا الشِّرْك.

يَقُول تَعَالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحَمَّدٍ ﷺ : وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّد لِقَوْمِكَ مَوعظةَ لُقْمَان الحكيم لولده ، حِين قالَ لَهُ واعظًا ناصحًا مُرْشِدًا : يا بُنَيَّ ، كُنْ عَاقِلًا ، ولا تُشْرِكْ باللَّهِ أحَدًا ، بَشَرًا أوْ صَنَمًا أوْ وَلَدًا ، إنَّ الشِّرْكَ قَبِيحٌ ، وظُلْمٌ صَارِخٌ ، لأنَّه وَضْعٌ للشَّيْء في غَيْر مَوْضِعِه، وَتَسْوِيَةٌ بَيْنَ مَنْ لا نِعْمَة إلا مِنْهُ وَمَنْ لا نِعْمَة مِنْه .

ومَنْ سَوَّى بَيْنَ الخَالقِ والمَخلوقِ ، وَبَيْن الإلَهِ والصَّنَمِ ، فهو ـ بِلا شَك ـ أحْمَقُ الناسِ ، وأبْعَدُهُم عَن مَنْطِقِ العَقْلِ والحِكْمَة ، وَحَرِيٌّ به أن يُوصَف بالظُّلْم ، ويُجْعَل في عِدَادِ البهائم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٨٦) : ((يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَن وَصِيَّةِ لُقْمَان لِوَلَدِه ، وَهُوَ لُقْمَان بن عنقاء بن سدون ، واسم ابنه ثاران ، في قَوْل حَكَاه السُّهَيْلي . وَقَد ذَكَرَه اللَّهُ تَعَالى بأحسن الذِّكْر ، وأنَّه آتاه الحِكْمَةَ ، وَهُوَ يُوصِي وَلَدَه الذي هُوَ أشفق الناس عَلَيه ، وأحَبُّهُم إلَيْه ، فهو حَقِيق أن يَمْنَحَه أفضلَ مَا يَعْرِف، ولهذا أوْصَاه أوَّلًا بأن يَعْبَدَ اللَّهَ ، ولا يُشْرِك بِه شيئًا ، ثُمَّ قال مُحَذِّرًا له : ﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم ﴾ ، أي : هُوَ أعظم الظُّلْم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٣٣٨) : ((﴿ وإذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ ﴾ . قال السُّهَيْلي : اسْمُ ابنه ثاران، في قَوْل ابن جرير والقُتَيبي. وقال الكَلْبي : مِشْكَم . وقال النَّقَاش : أنعم . وقِيل: ماتان . قال القُشَيري : كان ابنُه وامْرَأتُه كافرَيْن ، فَمَا زالَ يَعِظهما حَتَّى أسْلَمَا ، وهذه الجُمْلَةُ

---

١٥ قال الْمُنَاوي في الحاشية : ((قال الحافظ العِرَاقي : سنده ضعيف. وأوْرَدَه البَيْهَقِيُّ في الشُّعَب مِن طريق أنس ، وقال : غَلِطَ فيه عُثمان بن سعيد ، والصحيح رواية ثابت . قال : والصحيح عَن أنس أنَّ لُقْمَان قاله ، ورواه كذلك ابنُ حِبَّان في رَوْضَة العُقَلاء بسند صحيح إلى أنس ، ورواه العَسْكَرِيُّ في الأمثال عن أبي الدَّرْدَاء ، وزادَ: مَنْ كَثُرَ كَلامُه فِيمَا لا يَعْنِيه كَثُرَتْ خَطَايَاه)) .

مَعطوفة على مَا تَقَدَّمَ ، والتقدير: آتَيْنَا لُقْمَان الحِكْمَةَ حِينَ جَعَلْنَاه شاكرًا في نَفْسِه ، وحِين جَعَلْنَاه واعظًا لِغَيْرِه . قال الزَّجَّاج : " إذْ " في مَوْضِع نَصْب بِآتَيْنَا ، والمَعْنَى : وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ إذْ قالَ . قال النَّحَّاس : وأحْسِبُه غَلَطًا ، لأنَّ في الكلام واوًا ، وَهِيَ تَمْنَع مِن ذلك ، ومَعْنَى ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ ، يُخَاطِبه بالمواعظ التي تُرَغِّبه في التَّوحيد ، وتَصُدُّه عَن الشِّرْكِ ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ ... . ونَهْيُه عَن الشِّرْك يَدُلُّ على أنَّه كان كافرًا ، كَمَا تَقَدَّمَ . وجُمْلَةُ ﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم ﴾ تَعليلٌ لِمَا قَبْلَهَا ، وبَدَأ في وَعْظِه بِنَهْيِه عَن الشِّرْك ، لأنَّه أهَمُّ مِن غَيْرِه ، وقَد اخْتُلِفَ في هذه الجُملة ، فَقِيل : هِيَ مِن كلام لُقْمَان ، وقِيل : هي مِن كَلامِ اللَّهِ ، فَتَكُون مُنقطِعة عَمَّا قَبْلَهَا ، ويُؤَيِّد هذا مَا ثَبَتَ في الحديث الصحيح أنَّها لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ ، شَقَّ ذلك على الصَّحَابَة ، وقالوا : أيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَه ، فأنزلَ اللَّهُ : ﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فطابتْ أنفُسُهُم)) .

وعن عبد اللَّه بن مسعود ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : لمَّا نزلت ﴿ الذينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٢]، شَقَّ ذلك على المُسْلِمين ، فقالوا : يا رسول اللَّه ، أيُّنَا لا يَظْلِمُ نَفْسَه ؟ ، قال : ((لَيْسَ ذلك ، إنَّمَا هُوَ الشِّرْك ، ألَمْ تَسْمَعوا مَا قالَ لُقمانُ لابْنِه وهو يَعِظُه ؟ ﴿ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ باللَّهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لُقمان : ١٣])) [١٦] .

الظُّلْمُ (لُغَةً) : وضع الشَّيء في غَير مَحَلِّه . والظُّلْم (شَرْعًا) : وضع الأُمور الشرعية في غَير مَحَلِّها . وكُلُّ مَا خالفَ الشَّرْعَ يُعْتَبَر ظُلْمًا ، وكُلُّ مَعصيةٍ ظُلْمٌ . والمعاصي تتفاوت من المعصية الصغيرة إلى الشِّرْك (أسوأ الكبائر) .

وعندما نزلت الآيةُ : ﴿ الذينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ ، كانَ وَقْعُها شديدًا على الصحابة ــ رضي اللَّهُ عنهم ــ، وشَقَّ ذلك عليهم ، لأنَّهم فهموا أن التنوين في ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ للتَّنكير ، والنَّكِرَة في سِيَاق النَّفْي تُفيد العُمُوم ، فيدخل فيه جميع أنواع المعاصي ، وهذا الأمرُ كان صعبًا عليهم ، لأنَّ الصحابة غَير مَعصومين ، وكُل إنسان لا بُد أن يَظلِم نَفْسَه بارتكاب المعصية لانتفاء العِصْمَة . وبما أنهم لَيس لَدَيهم عِلْم في هذه القضية ، فقد سألوا النَّبِيَّ ﷺ عنها، وبيَّن لهم أن المُراد بالظُّلْم هو الشِّرْك، وفسَّر الآيةَ بآيةٍ أُخرى ، أي إنَّه فَسَّرَ القُرآنَ بالقُرآن ، وهذا أعظم أنواع التفسير وأفضلها وأشرفها .

---

١٦ متفق عليه. البخاري (٣/ ١٢٦٢) برقم (٣٢٤٦) ، ومسلم (١/ ١١٤) برقم (١٢٤) .

والشِّرْكُ أسوأ أنواع الظُّلْم ، لأنَّ اللَّه هو الخالق الرازق ، وإذا أشركَ العبدُ مَعَه غَيْرَه ، فقد جاء بِظُلْم عظيم ، وَوَضَعَ العبادةَ في غَير مَوضعها . والحديثُ يدلُّ على أن المعاصي لا تُسمَّى شِرْكًا ، وأنَّ دَرَجَات الظُّلْم مُتفاوتة .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤٣/٢): ((وأعلمَ النبيُّ ﷺ أن الظُّلْم المُطْلَق هُناك المُراد به هذا المُقيَّد وهو الشِّرْك،فقال لهم النبيُّ ﷺ بعد ذلك:لَيس الظُّلْم على إطلاقه وعُمومه كَما ظَننتم،إنَّما هو الشِّرْك،كما قال لُقمان لابنه.فالصَّحابة رضي اللَّهُ عنهم حَمَلُوا الظُّلْمَ على عُمومه، والمُتَبَادَر إلى الأفهام مِنه ، وهو وَضْع الشَّيء في غَير مَوضعه ، وهو مُخالفة الشَّرْع، فَشَقَّ عليهم إلى أن أعلمهم النبيُّ ﷺ بالمُراد بهذا الظُّلْم. قال الخَطَّابي: إنَّما شَقَّ عَلَيهم لأن ظاهر الظُّلْم الافتيات(الاستبداد) بحُقوق الناس،وما ظَلموا به أنفسَهم مِن ارتكاب المعاصي،فَظَنُّوا أنَّ المُراد معناه الظاهر،وأصلُ الظُّلْم وَضْع الشيء في غَير مَوْضعه،ومَن جَعَلَ العِبادةَ لِغَير اللَّه تعالى فهو أظلم الظالمين . وفي هذا الحديث جُمَل مِن العِلْم ، مِنها أنَّ المَعَاصي لا تَكُون كُفْرًا ، واللَّهُ أعلم)) .

إنَّ الظُّلْم له مراتب مُتفاوتة ، وهو أنواع : ١_ الشِّرْك باللَّه تعالى ، وهو أسوأ أنواع الظُّلْم . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لُقمان : ١٣] . ٢_ ظُلْم العَبْد نَفْسَه بالمعاصي . قال اللَّهُ تعالى:﴿فَمِنهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنهُم سابقٌ بالخَيْرَاتِ بإذنِ اللَّهِ﴾[فَاطِر:٣٢]. ٣_ ظُلْم العبد لِغَيره، وهو ظُلْم العِبَادِ بَعْضِهم لبعض،قال تعالى: ﴿إنَّما السَّبيلُ على الذينَ يَظْلِمُونَ الناسَ ويَبْغُونَ في الأرضِ بِغَيْرِ الحَقِّ أُولئكَ لَهُم عذابٌ أليم ﴾ [الشُّورى: ٤٢]. وقد يُطلَق الظُّلْم ولا يُراد به المعصية.قال تعالى: ﴿وما ظَلَمُونا ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، أي: ما نَقَصُونا بكُفرهم شيئًا.

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٢٩٥): (((الظُّلْم) قال ابن حَجَر : وهو وَضْع الشَّيء في غَير مَوضعه الشَّرعي (ثلاثة) مِن الأنواع والأقسام (فَظُلْم لا يَغفِره اللَّهُ وظُلْم يَغفِره وظُلْم لا يَتركه فأمَّا) الأوَّل وهو (الظُّلْم الذي لا يَغفِره اللَّهُ فالشِّرْك. قال اللَّهُ : ﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وأمَّا) الثاني وهو (الظُّلْم الذي يَغفِره اللَّهُ فَظُلْم العِبَادِ أنفسَهم فِيما بَيْنَهم وبَيْنَ رَبِّهم) ﴿ والذينَ إذا فَعَلُوا فاحشةً أوْ ظَلموا أنفُسَهُم ﴾ [آل عِمران : ١٣٥] . قالوا : نَكِرَة في سِيَاق الشَّرْط فَعَمَّ كُلَّ ما فيه ظُلْم النَّفْس ، وقال : ﴿ فَمِنهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ [فَاطِر : ٣٢] ، فهذا لا يَدخل فيه الشِّرْك الأكبر.قال ابن مسعود:لمَّا نَزَلَتْ ﴿الذينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُم بِظُلْمٍ ﴾[الأنعام: ٨٢]، شَقَّ ذلك على الصَّحْب، وقالوا : يا رسول اللَّه أيُّنَا لَم يَظْلِمْ نَفْسَه ؟ ، قال : " إنَّما هو الشِّرْك ألَمْ تَسمعوا قَول العبد الصالح؟ ﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ "(وأمَّا)الثالث وهو(الظُّلْم الذي لا يَتركه اللَّهُ

فَظُلْم العِبَادِ بَعْضِهِم بَعْضًا حَتَّى يُدَبِّرَ _ يَقْتَصَّ _ لبعضهم مِن بعض) عُلِمَ مِن هذا ما نقله الذهبيُّ عن بعض المُفسِّرين أنَّ الظُّلْم المُطْلَق هو الكُفر المُطْلَق ﴿ والكافرونَ هُمُ الظالمون ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ، فلا شفيع لهم غدًا ﴿ ما للظالمينَ مِنْ حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطَاع ﴾[غَافِر : ١٨] ، والظُّلْم المُقيَّد قد يَختص بِظُلْم العَبْد نَفْسَه ، وظُلْم بَعْضِهم بعضًا ، فالأوَّل مِن الثاني مَغفور إن شاء اللَّهُ . والثاني تُنصَب له مَوَازين العَدْل ، فَمَن سَلِمَ مِن أصناف الظُّلْم ، فله الأمن التام ، ومَن لَم يَسْلَمْ مِن ظُلْمه لِنَفْسِه فله الأمن ولا بُد أن يَدخل الجَنَّةَ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن في صَخْرَةٍ أَوْ في السَّمَاوَاتِ أَوْ في الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِير ﴾ [لُقمان : ١٦] .

قالَ لُقْمَان الحَكِيم : يا وَلَدِي ، إنَّ الخطيئة والمعصية مَهْمَا كانتْ صغيرةً ، حَتَّى وَلَوْ كانتْ وَزْنَ حَبَّة الخَرْدَل في الصِّغَر ، فَتَكُنْ تِلْك السَّيئة _ مَعَ كَوْنها في أقْصَى غاياتِ الصِّغَر _ في أخْفَى مَكانٍ وأحْرَزِه ، كَجَوْفِ الصَّخْرَاءِ الصَّمَاء _ تَمَّمَ خَفَاءَهَا في نَفْسِهَا بِخَفَاءِ مَكانها _، أوْ في أعلى مكان في السَّمَاء ، أوْ في الأرضِ ، يَعْلَمُهَا اللَّهُ تعالى ، ويُحْضِرُها ، ويُحَاسِب عليها في الآخِرَةِ .

وهذا يَدُلُّ عَلى أنَّ اللَّهَ لا تَخْفَى عليه خافية مِن أعمالِ العِبَاد،فَهُوَ سُبحانَه مُتَّصِفٌ بِسَعَةِ العِلْمِ، وقَدْ أحاطَ بِجَميعِ الأشياءِ صَغِيرِها وكَبيرِها ، وَهُوَ سُبحانَه يَعْلَم أصغرَ الأشياءِ في أخْفَى الأمكنةِ .

إنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ بالعِبَادِ،عَالِمٌ بِبَوَاطِنِ الأُمور. أوْ: إنَّ اللَّهَ لطيفٌ باستخراجِ الحَبَّةِ ، خَبِيرٌ بِمَكَانِهَا.

والآيةُ تَحْتَوي على مَثَلٍ بليغ لأعمال العِبَاد ، والمُرَادُ أنَّ اللَّهَ تعالى يأتي بأعمالهم يوم القيامة ، ويُحاسبهم عليها ، ولا يَغِيب عنه شَيْء ، لأنَّه عِلْمَه مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْء .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٣٣٩) : ((شَرَعَ سُبحانَه في حِكَاية بَقِيَّة كَلام لُقْمَان في وَعْظِه لابنه ، فقال : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ ، الضميرُ في ﴿ إِنَّهَا ﴾ عائدٌ إلى الخَطِيئة ، لِمَا رُوِيَ أنَّ ابْنَ لُقْمَان قال لأبيه : يا أبَتِ إنْ عملتُ الخطيئةَ حَيْث لا يَرَاني أحَد هَلْ يَعْلَمُهَا اللَّهُ ؟ ، فقال : إنَّهَا ، أي الخَطِيئة ، والجُملةُ الشَّرْطِيَّة مُفَسِّرَة للضَّمِير ، أي إنَّ الخَطِيئة إن تَكُ مِثقالَ حَبَّة مِن خَرْدَل. قال الزَّجَّاج : التقديرُ : إنَّ التي سَأَلْتَني عَنها إن تَكُ مِثقالَ حَبَّة مِن خَرْدَل ، وعَبَّرَ بالخَرْدَلَةِ لأنَّها أصغر الحُبوب ، ولا يُدْرَك بالحِسِّ ثِقَلُهَا ، ولا تُرَجِّح مِيزانًا . وقِيل: إنَّ الضَّمير في ﴿ إِنَّهَا ﴾ رَاجِعٌ إلى الخَصْلَة مِن الإساءةِ والإحسانِ ، أي : إنَّ الخَصْلَة مِن الإساءةِ والإحسانِ إن تَكُ مِثقالَ حَبَّة إلخ، ثُمَّ زادَ في بيان خَفَاء الحَبَّة معَ خِفَّتها ، فقال: ﴿ فَتَكُن في صَخْرَةٍ ﴾ ، فإنَّ كَوْنَها في الصَّخْرَة قَدْ صارتْ في أخفى مكان وأحْرَزِه ، ﴿ أوْ في السَّمَاوَاتِ أوْ

في الأرْضِ ﴾ ، أي : أوْ حَيْث كانتْ مِن بِقَاع السَّمَاوات أوْ مِن بِقَاع الأرض ، ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ ، أي : يُحْضِرها ويُحَاسِب فاعلَها عَلَيها ، ﴿ إنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ لا تَخْفَى عَلَيه خَافِيَة ، بَلْ يَصِل عِلْمُه إلى كُلِّ خَفِيٍّ ﴿خَبِير ﴾ بِكُلِّ شَيْء ، لا يَغِيب عَنْه شَيْء)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلى مَا أصَابَكَ إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور ﴾ [لُقمان : ١٧] .

قالَ لُقْمَانُ الحكيم : يا وَلَدِي ، حَافِظْ على الصَّلاةِ في أوقاتها وبِخُشوعها وآدابها ، وَأْمُر الناسَ بِكُلِّ خَيْرٍ وفضيلة ، وَانْهَهُم عَن كُلِّ شَرٍّ ورَذيلةٍ ، بِحَسَب طاقتك وجُهْدِك ، وَاصْبِرْ عَلى المَصائبِ والمِحَنِ والكوارث، لأنَّ الدَّاعِي إلى الحَقِّ مُعَرَّضٌ لإيصال الأذى إلَيْه . والآمِرُ بالمَعروفِ والنَّاهِي عَن المُنكَر لا بُدَّ أن يَنَالَه مِن الناس ضَرَرٌ ، فَأمَرَه بالصَّبْر . والصَّبْرُ على المِحَنِ يُورِث المِنَحَ . إنَّ ذلك المَذكور مِمَّا عَزَمَه اللَّهُ وأَمَرَ به . ومِن حَقيقةِ الإيمانِ الصَّبْرُ عَلى الشَّدائد .

لَقَدْ نَهَى لُقْمَانُ الحَكِيمُ ابْنَه أوَّلًا عَن الشِّرْك : ﴿ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ [لُقمان : ١٣] ، وأخْبَرَه ثانيًا بِعِلْمِ اللَّهِ تَعَالى وبَاهِرِ قُدْرَتِه: ﴿ إنَّهَا إن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن في صَخْرَةٍ أوْ في السَّمَاوَاتِ أوْ في الأرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِير ﴾ [لُقمان : ١٦] ، وأمَرَه بِمَا يُتَوَسَّل بِه إلى اللَّهِ مِن الطاعات ، فَبَدَأ بأشرفها وهي الصلاة : ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ [لُقمان : ١٧] ، ثُمَّ بالأمرِ بالمَعروفِ والنَّهْي عن المُنكَر : ﴿ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ [لُقمان : ١٧] ، ثُمَّ بالصَّبْرِ عَلى مَا يُصِيبه مِن المِحَنِ بسبب الأمْرِ بالمَعروفِ ، فَكَثِيرًا مَا يُؤْذَى فاعل ذلك : ﴿ وَاصْبِرْ عَلى مَا أصَابَكَ ﴾ [لُقمان : ١٧] .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٤ / ٦٣) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ ، وَصَّى ابْنَه بِعُظْمِ الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكَر ، وهذا إنَّما يُريد بِه بَعْد أن يَمْتَثِلَ ذلك هُوَ في نَفْسِه ، ويَزدجر عن المُنكَر ، وهُنا هِيَ الطاعات والفضائل أجْمَع . وَلَقَدْ أحسنَ مَن قالَ : وَابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا فإذا انتَهَتْ عَنْهُ فأنتَ حَكِيم . قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلى مَا أصَابَكَ ﴾ ، يَقْتَضِي حَضًّا على تَغْيير المُنكَر وإنْ نالكَ ضَرَر ، فهو إشعار بأنَّ المُغَيِّر يُؤْذَى أحيانًا ، وهذا القَدْرُ على جِهَة النَّدْبِ والقُوَّةِ في ذَاتِ اللَّهِ ، وأمَّا على اللزوم فلا . وقِيل : أمَرَه بالصَّبْر على شدائد الدُّنيا ، كالأمراض وغَيْرِها ، وألا يَخْرُجَ مِنَ الجَزَعِ إلى مَعصيةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وهذا قَوْل حَسَن لأنَّه يَعُم. قَوْلُه تعالى : ﴿ إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور ﴾ . قال ابن عَبَّاس: مِن حَقيقةِ الإيمانِ الصَّبْرُ عَلى المَكَارِه . وقِيل : إنَّ إقامة الصَّلاةِ والأمر بالمعروف والنَّهْي عَن

المُنكَر مِن عَزْمِ الأُمُور ، أي : مِمَّا عَزَمَه اللَّهُ وَأَمَرَ به ، قاله ابن جُرَيج . ويَحْتَمِل أن يُريد أنَّ ذلك مِن مَكارمِ الأخلاقِ وعَزائمِ أهْلِ الحَزْمِ السالكين طريقَ النَّجَاة ، وقَوْلُ ابن جُرَيج أصْوَب)) .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١/ ٣٤٨) : ((﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ تَكْمِيلًا لِنَفْسِكَ ﴿ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ تَكْمِيلًا لِغَيْرِكَ ، ﴿ وَاصْبِرْ عَلى مَا أصَابَكَ ﴾ مِنَ الشَّدَائِدِ سِيَّمَا في ذلك ، ﴿ إنَّ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الصَّبْرِ ، أوْ إلى كُلِّ مَا أَمَرَ بِه ﴿ مِنْ عَزْمِ الأُمُور ﴾ مِمَّا عَزَمَه اللَّهُ مِن الأُمُور ، أي : قَطَعَه قَطْعَ إيجابٍ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ ولا تَمْشِ في الأرضِ مَرَحًا إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُور ﴾ [لُقمان : ١٨] .

ولا تُمِلْ وَجْهَكَ عن الناس احتقارًا لهم ، ولا تُعْرِضْ عنهم تَكَبُّرًا ، ولا تَمْشِ في الأرض مُتَبَخْتِرًا مُتكبِّرًا . إنَّ اللَّه يَكْرَه المُتكبِّرَ المُعْجَب بِنَفْسِه ، المُفْتَخِر عَلى غَيره . وهذا تَعليل للنَّهْي .

والآيةُ تُقَدِّم درسًا بليغًا في التواضع ، واحترامِ الإنسان ، وحُسن التعامل معَ الناس ، وأدب الحِوار معهم . وكُلُّ هذه المعاني الطَّيبة تعمل على تنقية المجتمع من الضغائن ، وشهوةِ الانتقام ، وعقليةِ الحِقد والثأر . وكُلُّ الناس أصلهم من التراب ، ومرجعهم إلى التراب ، فلا معنى للغُرور والتكبُّر ، ولا فائدة مِن التطاول على الآخرين. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٨٨) : ((قَوله : ﴿ ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ ﴾ ، يقول : لا تُعْرِضْ بوجهك عن الناس ، إذا كَلَّمْتَهم أو كَلَّمُوك ، احتقارًا مِنك لهم ، واستكبارًا عليهم ، ولكن أَلِنْ جانبَك ، وابْسُطْ وَجْهَك إلَيهم ، كما جاء في الحديث : " وَلَوْ أن تَلْقَى أخاكَ ووجهك إليه مُنبسِط ، وإيَّاكَ وإسبالَ الإزار ، فإنها مِن المَخِيلة ، والمَخِيلة لا يُحِبُّها اللَّهُ " . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قَوله : ﴿ ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ ﴾ ، يقول : لا تتكبَّر ، فتُحقِّر عِبادَ اللَّه ، وتُعرِض عَنهم بوجهك إذا كلَّموك ، وكذا روى العَوفي وعِكرمة عنه . وقال مالك عن زيد بن أسلم : ﴿ ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ ﴾ ، لا تتكلَّم وأنتَ مُعْرِض ، وكذا رُوِيَ عن مُجاهد وعِكرمة ويزيد بن الأصم وأبي الجَوزاء وسعيد بن جُبَير والضَّحَّاك وابن زيد وغَيرهم . وقال إبراهيم النَّخَعي : يعني بذلك : التَّشديق في الكلام . والصَّواب القول الأول. قال ابن جرير: وأصلُ الصَّعَر داء يأخذ الإبِل في أعناقها أو رؤوسها ، حتى تَلفِت أعناقَها عن رؤوسها ، فَشُبِّهَ به الرَّجُل المُتكبِّر ، ... . وقَوله: ﴿ ولا تَمْشِ في الأرضِ مَرَحًا ﴾، أي:خُيَلاء مُتكبِّرًا جَبَّارًا عنيدًا، لا تَفعل ذلك يُبغِضك اللَّهُ، ولهذا قال: ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُور ﴾ أي : مُختال مُعْجَب في نَفْسِه، فَخُور، أي: على غَيْرِه)) .

وقال أبو نُوَاس : ومَا الناسُ إلا هَالِكٌ وابْنُ هَالِكٍ وذُو نَسَبٍ في الهَالِكِينَ عَرِيقِ
إذا امْتَحَنَ الدُّنيا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَن عَدُوٍّ في ثِيَابِ صَدِيقِ

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ واقْصِدْ في مَشْيِكَ واغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إنَّ أنكرَ الأصواتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾ [لُقمان: ١٩] .

يأمرُ اللَّهُ نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ بالخُلُق الكريم. لِيَكُنْ مَشْيُكَ قَصْدًا بلا خُيَلاء ولا تَكَبُّر، وتَوَسَّطْ فيه بَين الإبطاء والإسراع ، والْتَزِمْ بالسَّكِينة والوَقَار ، واخْفِضْ مِن صَوتك إذا تَكَلَّمْتَ ، ولا تَرفعه بأكثر مِن الحَاجَة ، فهذا الفِعْل في غاية السُّوء ، ويُؤْذِي السامعَ . والآيةُ تُشير إلى أهمية القَصْد في المَشْي ، والخَفْضِ من الصَّوت ، وضرورة التَّحَلِّي بهاتَيْن الصِّفَتَيْن الجَمِيلَتَيْن . إنَّ أقبحَ الأصواتِ لَصَوْتُ الحمير، أوَّلُه زفير ، وآخِرُه شهيق . والجديرُ بالذِّكْرِ أنَّ اللَّه قال : ﴿ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾ ، ولَم يَقُلْ : لَأصوات الحمير . وإفرادُ الصَّوت ، وإضافته إلى الجَمْع ، لأنَّ المُراد بيان حال صَوت هذا الجِنس مِن بَين سائر الأجناس.وتَشبيهُ الأشخاص الذي يَرفعون أصواتَهم بالحمير، يدلُّ على تَحريم رَفع الصَّوت ، وذَمِّه أشد الذَّم ، والتَّنفير مِنه .

وفي الآيةِ : ﴿ إنَّ أنكرَ الأصواتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾ استعارةٌ تَمثيلية ، حَيْث شَبَّهَ اللَّهُ الرافعين أصواتَهم بالحَمِير، وأصواتَهم بالنَّهِيق ، وَلَمْ يَذكُرْ أداةَ التَّشْبيه ، بَلْ أخْرَجَه مَخْرَجَ الاستعارةِ ، للمُبَالَغَةِ في الذَّمِّ ، والتَّنْفِيرِ عَن رَفْعِ الصَّوْتِ .

والإسلامُ دِينٌ وَسَطي بلا إفراط أوْ تفريط،وتتجلَّى هذه الوسطية في السُّلوك الإنساني.فلا بُدَّ مِن التَّواضع في المَشْي بدُون سُرعة أوْ خُيَلاء،والكلام بصوت مُعتدل مَسموع بلا جَعجعة أو صُراخ أو هَمْس غَير مَفهوم.وهُنا تظهر أهمية الاقتصاد والاعتدال في الفِعل والقَول.وخَيْرُ الأمُورِ أوْسَطُها.

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٨٩) : ((﴿ واقْصِدْ في مَشْيِكَ ﴾ ، أي : لِيَكُنْ مَشْيُكَ قَصْدًا لا تَخَيُّلًا ولا إسراعًا . وقال عطاء : امْشِ بالوَقَار والسَّكِينة ، كَقَوله : ﴿ يَمْشُونَ عَلى الأرضِ هَوْنًا ﴾ [الفُرقان : ٦٣] . ﴿ واغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ ، أنقِصْ مِن صَوتك . وقال مُقاتل : اخْفِضْ مِن صَوتك ﴿ إنَّ أنكرَ الأصواتِ ﴾ أقبحَ الأصوات ﴿ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾ ، أوَّلُه زفير، وآخِرُه شهيق ، وهُما صَوت أهل النار . وقال مُوسى بن أعْيَن : سمعتُ سُفيان الثَّوري يقول في قَوله : ﴿ إنَّ أنكرَ الأصواتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾ . قال : صِياح كُلِّ شيء تسبيح للَّه إلا الحِمَار . وقال جعفر الصادق في قَوله: ﴿ إنَّ أنكرَ الأصواتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾ ، قال : هي العَطْسَة القبيحة

المُنكَرة. قال وَهْب: تَكَلَّمَ لُقمان باثنَي عَشَر ألف باب مِن الحِكمة أدخلها الناس في كلامهم وقضاياهم . وحِكَمه : قال خالد الرَّبَعي : كان لُقمان عبدًا حبشيًّا فدفع مَولاه إليه شاة وقال : اذبحها وائتني بأطْيَب مُضْغَتَيْن مِنها فأتاه باللسان والقلب، ثُمَّ دفع إليه شاة أُخْرَى وقال: اذبحها وائتني بأخبث مُضغتين مِنها فأتاه باللسان والقلب، فسأله مَولاه فقال: لَيس شيء أطْيَب مِنهما إذا طابا ، ولا أخبث مِنهما إذا خَبُثَا)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٦/ ٣٢٣) : ((﴿ إنَّ أنكرَ الأصواتِ ﴾ . ... . ومعنى : ﴿ أنكرَ ﴾ أقْبَح . تَقُول : أتانا فُلان بوجه مُنكَر ، أي: قبيح. وقال المُبرِّد : تأويله أنَّ الجَهْر بالصَّوت ليس بمَحمود، وأنَّه داخل في باب الصَّوت المُنكَر . وقال ابن قُتَيبة : عرَّفه قُبْحَ رفع الأصوات في المُخَاطَبَة والمُلاحَاة بقُبْح أصوات الحمير ، لأنها عالية . قال ابن زيد : لَوْ كان رفع الصوت خيرًا ما جعله اللَّهُ للحمير . وقال سُفيان الثَّوري: صِياح كُلِّ شيء تَسبيح للَّه عَزَّ وَجَلَّ إلا الحِمَار، فإنَّه يَنْهَق بلا فائدة . فإن قِيل: كيف قال: ﴿ لَصَوْتُ ﴾ ، ولَم يَقُلْ : لَأصوات الحمير . الجواب أنَّ لِكُلِّ جِنْسٍ صَوْتًا ، فكأنَّه قال : إنَّ أنكرَ أصوات الأجناس صَوْتُ هذا الجِنس)) .

وعن جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّهُ عنهما: وتلا قَولَ لُقمان لابنه: ﴿ واقْصِدْ في مَشْيِكَ واغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾، قال: ((كان رسولُ اللَّه ﷺ إذا خَرَجَ مَشَوْا بَين يَدَيه ، وخَلَّوْا ظَهْرَه للمَلائكة)) [١٧] .

شَرَّفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّه ﷺ على كُلِّ وَجْه ، وفي كُلِّ مَقَام في الدُّنيا والآخرة . وكان ﷺ إذا خَرَجَ مُتَّجِهًا إلى أيِّ مكان وسار نَحْوَه ، مَشَى أصحابُه أمامَه ، وتَرَكُوا ظَهْرَه للمَلائكة ، لأنَّ الملائكة يَحْرُسُونه ، ويَمْشُون خَلْفَه إعظامًا له ، وإكرامًا مِنَ اللَّه تعالى .

ويُمكن القَول إنَّ النبيَّ ﷺ كان يَسُوق أصحابَه، أي : يُقَدِّمهم أمَامَه ، ويَمْشِي خَلْفَهم تواضُعًا ، ولا يَدَع أحدًا يَمْشي خَلْفَه ، أي إنَّه يَكون مِن وَرائهم كالسَّائق .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٧٦) : ((يُقَدِّمهم أمامَه ، ويَمْشي خَلْفَهم، كأنه يَسُوقهم تواضعًا وإرشادًا إلى نَدْب مَشْي كبير القَوم وراءهم ، ولا يَدَع أحدًا يَمْشي خَلْفَه ، أوْ لِيَختبر حالَهم وينظر إليهم حالَ تَصَرُّفِهم في مَعَاشِهم ، ومُلاحظتهم لإخوانهم ، فيُربِّي مَن يستحق التربية ، ويُكمِّل مَن يَحتاج التَّكميل ، ويُعاقِب مَن يَلِيق به المُعَاقَبَة ، ويُؤَدِّب مَن يُناسبه التأديب ، وهذا شأن المَوْلَى معَ رَعِيَّتِه ، أوْ لأنَّ المَلائكة كانت تَمْشي خَلْف ظَهْرِه ، أوْ لِغَيْرِ ذلك)) .

---

١٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٤٤٦) برقم (٣٥٤٤) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

٧ــ إبراهيم

أ ــ آل إبراهيم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إبراهيمَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النِّسَاء : ٥٤] [١٨] .

حَسَدَ اليهودُ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ على النُّبُوَّة والرِّسَالة وتَلَقِّي وَحْي السَّماء ، وحَسدوا أصحابَه على نِعمة الإيمان والهُدى والمَجْد والعِزَّة والنَّصْر والتمكين في الأرض ، وحَسدوا العربَ لأن النُّبُوَّة ظَهَرَتْ فِيهم ، وخَرَجَتْ من بني إسرائيل . وقد شرَّف اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بالنُّبُوَّة ، وأعلى قَدْرَه وشَأنَه ، وفضَّله على سائر المخلوقات، وشرَّف العربَ بأن اختارَ مِنهُم أعظمَ أنبيائه على الإطلاق ، ولَم يَخْتَرْه مِن بني إسرائيل ، وهذا سبب حِقد اليهود وحسدهم للنبيِّ مُحَمَّد ﷺ وللمؤمنين .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٨٣): ((يَعْني بذلك حَسَدَهم النبيَّ ﷺ على ما رَزَقَه اللَّهُ مِن النُّبُوَّة العظيمة.ومَنَعَهُم مِن تَصْديقهم إيَّاه حَسَدُهم له لِكَوْنه مِن العرب ، ولَيس مِن بني إسرائيل)).

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٢٦٩) : ((حَسَدَت اليهودُ مُحَمَّدًا عليه السلام على مَا آتاه مِن النُّبُوَّة ، وما أباحَ له مِن النِّساء ، وقالوا : لَوْ كان نبيًّا لَشَغَلَه أمرُ النُّبُوَّة عن النساء)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : قَوْلُه : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ ، قال ابن عباس : ((نَحْنُ الناسُ دُونَ الناس)) [١٩] .

---

١٨ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٠٩و١١٠) : ((سبب نزولها أنَّ أهل الكتاب قالوا : يَزْعُم مُحَمَّدٌ أنه أُوتِيَ ما أُوتِيَ في تواضع وله تِسْعُ نِسْوة ، فأيُّ مُلْكٍ أفضلُ من هذا ؟ ، فَنَزلت ، رواه العَوفي عن ابن عباس . وفي : ﴿ أَم ﴾ قَوْلان : أحدهما أنها بمعنى ألف الاستفهام ، قاله ابن قُتَيبة. والثاني بمعنى بَل ، قاله الزَّجَّاج . ... . والحاسدون هاهُنا اليهود . وفي المراد بالناس هاهُنا أربعة أقوال : أحدها النبيُّ ﷺ ، رواه عطية عن ابن عباس ، وبه قال عِكْرمة ومجاهد والضَّحَّاك والسُّدي ومُقاتِل . والثاني: النبيُّ ﷺ وأبو بَكْر وعُمر ، رُوِيَ عن عليِّ بن أبي طالب ــ رضي اللَّهُ عنه ــ . والثالث : العرب ، قاله قَتَادة . والرابع : النبيُّ والصَّحابة ، ذَكَره الماوَردي. وفي الذي ﴿ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها : إباحة اللَّه تعالى لِنَبِيِّه أن يَنْكِحَ ما شاء مِن النساء مِن غَير عدد ، رُوِيَ عن ابن عباس والضَّحَّاك والسُّدي . والثاني أنه النُّبُوَّة ، قاله ابن جُرَيج والزَّجَّاج ، والثالث: بَعْثَة نبيٍّ مِنهم ، على قَوْل مَن قال: هُم العرب)) .

١٩ رواه الطبراني(١١/ ١٤٦) . وقال الهيثمي في المجمع(٦٢/٧): ((وفيه يحيى الحِمَّاني وهو ضعيف)).

والمقصود بالآية ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ﴾ هو النبيُّ مُحَمَّد ﷺ ، وهذا مِن باب تسمية الخاص باسم العام ، إشارة إلى أنَّ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ جُمِعَتْ فيه كَمَالات الأوَّلين والآخِرين وفضائلهم .

إنَّ ظُهُورُ النبيِّ مُحَمَّد ﷺ من العرب مَلأ صُدورَ اليهود غَيْظًا وحِقْدًا ، فَتَمَنَّوْا زوالَ نِعمة النُّبُوَّة عَن مُحَمَّد ﷺ وقَومِه. وهذا الحسدُ دفعهم إلى تكذيب الدعوة الإسلامية ، وعدم تصديق القرآن ، واكتفائهم بالتوراة ومُوسى ﷺ ـعلى حَد زَعْمهمـ. مع أنهم في حقيقة الأمر يسيرون ضد موسى ﷺ والكتابِ الذي جاء به. والكفرُ بمحمد ﷺ هو كفرٌ بجميع الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ . والنُّبُوَّةُ بِناءٌ مُتكامل أسَّسه اللَّهُ في الأرض لهداية الضائعين إلى الطريق المستقيم ، واللَّهُ يُساعد عِبادَه حُبًّا لهم ، وتفضُّلًا عليهم ، وإحسانًا إلَيهم ، وهو سُبحانَه غنيٌّ عنهم ، ولا يحتاجهم .

﴿ فَقَد آتَينا آلَ إبراهيمَ الكِتابَ والحِكمةَ وآتَيناهُم مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ .

حَسَدُ اليهودِ غير منطقي ولا مُبَرَّر ، فاللَّهُ أعطى أسلافَ اليهود مِن ذُرِّية النبيِّ إبراهيم ﷺ النُّبَوَّةَ ، وأنزلَ عليهم الكُتُبَ ، وجَعَلَ مِن بني إسرائيل أنبياء ومُلُوكًا ، وجَمَعَ النُّبُوَّةَ والمُلْكَ العظيم لداود وسُلَيمان ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ، وكِلاهما مِن أنبياء بني إسرائيل . فلماذا يَخُصُّ اليهودُ مُحَمَّدًا ﷺ بالحسد دُون غَيره مِمَّن أنعمَ اللَّهُ عليهم ؟ . والآيةُ توبيخٌ شديد لليهود بسبب الحسد ، ورَد عليهم ، وفضح لباطلهم ، وإلزام لهم بما عرفوه من فضل اللَّه على آل إبراهيم وبني إسرائيل .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ١١١) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَقَد آتَينا آلَ إبراهيمَ الكِتابَ ﴾ يعني التَّوراة والإنجيل والزَّبُور ، كُلُّه كان في آل إبراهيم ، وهذا النبيُّ مِن أولاد إبراهيم. وفي الحِكمة قَولان : أحدهما النُّبُوَّة ، قاله السُّدي ومُقاتل . والثاني الفِقه في الدِّين ، قاله أبو سُلَيمان الدمشقي . وفي المُلْك العظيم خمسة أقوال : أحدها مُلْك سُلَيمان ، رواه عطية عن ابن عباس . والثاني مُلْك داود وسُلَيمان في النِّسَاء ، كان لداود مائة امرأة، وَلِسُلَيمان سبعمائة امرأة وثلاثمائة سُرِّية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال السُّدي. والثالث النُّبُوَّة، قاله مجاهد. والرابع التأييد بالملائكة ، قاله ابن زيد في آخرين . والخامس الجَمْع بين سياسة الدنيا وشَرْع الدِّين ، ذَكَرَه الماوردي)) .

إنَّ اليهود يَحسُدون النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ على النُّبُوَّة وكثرة نِسائه ، وهذا أمرٌ غير منطقي ولا معقول ، فاللَّهُ اتَّخذَ إبراهيم خليلًا، وأعطاه مُلْكًا عظيمًا ، وكلَّم مُوسى تكليمًا ، وأنزلَ عليه التَّوراة، واختارَ عيسى ، وأنزلَ عليه الإنجيلَ ، وجَعَلَه يُبرِئ الأعمى والأبرصَ ويُحْيي المَوتى بإذن اللَّه ،

وأعطى داود مُلْكًا عظيمًا ، وأنزلَ عليه الزَّبُورَ ، وألانَ له الحديد ، وسخَّر له الجبال ، وكان لَدَيه مِائة امرأة ، وأعطى سُلَيمان مُلْكًا عظيمًا لا ينبغي لأحدٍ مِن بَعْده ، وسخَّر له الجِنَّ والإنس والشياطين والرِّياح، وكان لَدَيه ألف امرأة ، واخْتَصَّهم اللَّهُ جميعًا بالنُّبُوَّة والرِّسَالة . ثُمَّ بعد كُلِّ هذا، يَحسُد اليهودُ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ على النُّبُوَّة وتعدُّد الزَّوجات ! . هذا يدلُّ على ضلال اليهود .

وفي تفسير القرطبي (٥/ ٢٤١) : ((فإذا كان في النَّظَر والمَسِّ نَوْع مِن قَضَاء الشَّهْوَة ، قَلَّ الجِمَاع ، والمُتَّقي لا يَنظُر ولا يَمَسُّ ، فتكون الشَّهْوَةُ مُجْتَمِعَةً في نَفْسِه، فيكون أكثرَ جِمَاعًا . وقال أبو بكر الوَرَّاق : كُلُّ شَهْوَة تُقَسِّي القلبَ إلا الجِمَاع، فإنَّه يُصَفِّي القَلْبَ ، ولهذا كان الأنبياءُ يَفعلون ذلك)) .

ب_سَارَة

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هُود : ٧١] .

وامرأةُ النَّبِيِّ إبراهيم ﷺ ، واسْمُهَا سَارَة _ رَضِيَ اللَّهُ عنها _ قائمةٌ وراء السِّتْر ، تَسْمَع كَلامَ المَلائكةِ _ عليهم الصلاة والسلام _ ، فَضَحِكَتْ استبشارًا بِهَلاكِ قَوْمِ لُوط ﷺ .

فَبَشَّرَت المَلائكةُ سَارَة بإسحاق وَلَدًا لها ، ويأتيه مَولودٌ هُوَ يَعقوب ابنًا لولدها (حَفِيدًا لها) . وذلك أنَّهُم بَشَّرُوها بأنها تعيش إلى أن تَرى وَلَدَ وَلَدِها . وخُصَّتْ سَارَة بالبِشَارَة ، لأنَّ النِّسَاء أعظم سُرورًا بالوَلَدِ مِن الرِّجَال ، ولأنَّه لَمْ يَكُن لها وَلَد ، وكان لإبراهيم وَلَد وهو إسماعيل ، عليهما الصلاة والسلام . وتَوْجِيهُ البِشَارَةِ إلى سَارَة _ رَضِيَ اللَّهُ عنها _ للدَّلالة على أنَّ الوَلَد المُبَشَّر بِه يَكُون مِنها لا مِن هَاجَر _ رَضِيَ اللَّهُ عنها _ ، ولأنَّ سَارَة كانتْ عَقِيمَةً حَريصةً على الوَلَد .

إنَّ إبراهيم لَمَّا وُلِدَ لَهُ إسماعيل مِن هَاجَر، تَمَنَّتْ سَارَة أن يَكُون لها ابْن ، وَأَيِسَتْ لِكِبَرِ سِنِّهَا، فَبُشِّرَتْ بِوَلَدٍ يَكُون نَبِيًّا، ويَلِد نَبِيًّا ، فكانَ هذا بِشَارة لها بأن تَرَى وَلَدَ وَلَدِهَا . وقَدْ قِيل : إنَّ سَارَة كانتْ تَبْلُغ تِسْعًا وتِسْعِين سَنَة ، وإبراهيم ﷺ مِائة وعِشرين سَنَة .

وقال ابن الجَوْزي في زاد المسير (٤ / ١٢٩ _ ١٣٢) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ واسْمُها سَارَة . واختلَفوا أيْنَ كانت قائمةً على ثلاثة أقوال : أحدها وَرَاء السِّتْرِ تَسْمَع كَلامَهم ، قاله وَهْب . والثاني كانتْ قائمةً تَخْدِمُهُم ، قاله مُجَاهِد والسُّدي . والثالث كانتْ قائمةً تُصَلِّي ، قاله مُحَمَّد بن إسحاق . وفي قَوْلِه : ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ الضَّحِكَ هَاهُنا بِمَعنى التَّعَجُّب ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أنَّ مَعْنَى " ضَحِكَتْ " : حَاضَتْ ، قاله مُجَاهِد

وعِكْرمة . قال ابنُ قُتَيبة : وهذا مِن قَوْلِهم : ضَحِكَت الأرنبُ ، إذا حَاضَتْ ، فعلى هذا يَكُون حَيْضُها حِينئذ تأكيد للبِشَارَة بالوَلَدِ ، لأنَّ مَن لا تَحِيض لا تَحْمِل . وقال الفَرَّاء : لَمْ نَسْمَعْ مِن ثِقَة أنَّ مَعْنى " ضَحِكَتْ " حَاضَتْ . قال ابن الأنباري : أنكرَ الفَرَّاءُ وأبو عُبَيدة أن يَكُون " ضَحِكَتْ " بِمَعْنى حَاضَتْ . وَعَرَفَه غَيْرُهُم . قال الشَّاعر :

تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلَى هُذَيْلٍ وَتَرَى الذِّئْبَ لَهَا يَسْتَهِلُّ

قال بعضُ أهل اللغة : مَعْناه : تَحِيض . والثالث أنَّه الضَّحِك المَعروف ، وَهُوَ قَوْل الأكثرين . وفي سبب ضَحِكها سِتَّةُ أقوال : أحدها أنَّها ضَحِكَتْ مِن شِدَّةِ خَوْفِ إبراهيم مِن أضيافه ، وقالت : مِن ماذا يَخَاف إبراهيم وإنَّما هُم ثلاثة وَهُوَ في أهْلِه وغِلْمَانه ، رواه الضَّحَّاك عن ابن عباس ، وبه قال مُقَاتِل . والثاني أنَّها ضَحِكَتْ مِن بِشَارة المَلائكة لإبراهيم بالوَلَدِ ، وهذا مَرْوِيٌّ عَن ابن عباس ووَهْب بن مُنَبِّه ، فعلى هذا إنَّما ضَحِكَتْ سُرُورًا بالبِشَارَة ، ويَكُون في الآية تقديم وتأخير، المَعْنى: وامرأته قائمة فَبَشَّرْنَاهَا فَضَحِكَتْ ، وهو اختيار ابن قُتَيبة . والثالث ضَحِكَتْ مِن غَفْلَةِ قَوْم لُوط ، وقُرْب العَذاب مِنهُم ، قاله قَتَادة . والرابع ضَحِكَتْ مِن إمساكِ الأضياف عَن الأكل ، وقالت : عَجَبًا لأضيافنا نَخْدُمُهم بأنفُسِنا وهُم لا يأكلون طَعَامَنا !، قاله السُّدي . والخامس ضَحِكَتْ سُرُورًا بالأمْنِ ، لأنَّهَا خَافَتْ كَخَوْفِ إبراهيم ، قاله الفَرَّاء . والسادس أنها كانتْ قالتْ لإبراهيم : اضْمُمْ إلَيْكَ ابنَ أخيك لُوطًا ، فإنَّه سَيَنْزِل العذابُ بِقَوْمِه ، فلمَّا جاءت المَلائكةُ بعذابهم ضَحِكَتْ سُرُورًا بِمُوافقتها للصَّوَاب ، ذَكَرَه ابنُ الأنباري . قال المُفسِّرون : قال جِبريل لِسَارَة : أبْشِرِي أيَّتُهَا الضَّاحِكَةُ بِوَلَدٍ اسْمُه إسحاق ، ومِن وَرَاء إسحاق يَعقوب ، فَبَشَّرُوهَا أنَّها تَلِد إسحاقَ ، وأنَّها تَعِيش إلى أن تَرى وَلَدَ الوَلَدِ . وفي مَعْنَى الوَرَاء قَولان : أحدهما أنَّه بِمَعنى " بَعْد " ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره مُقَاتِل وابن قُتَيبة . والثاني أنَّ الوَرَاء وَلَد الوَلَد ، رُوِيَ عن ابن عباس ، وبه قال الشَّعْبي ، واختاره أبو عُبَيدة)) .

وعن مُحَمَّد بن إسحاق قال : سَمِعْتُ مُحَمَّد بن كَعْب القُرَظِي يَقُول : إنَّ الذي أَمَرَ اللَّهُ إبراهيمَ بِذَبْحِهِ مِن ابْنَيْهِ إسماعيلُ ، وإنَّا لَنَجِدُ ذلك في كِتاب اللَّهِ في قِصَّةِ الخَبَرِ عَن إبراهيم ، ومَا أُمِرَ بِهِ مِن ذَبْحِ ابْنِه أنَّه إسماعيل ، وذلك أنَّ اللَّهَ يَقُول حِينَ فَرَغَ مِن قِصَّةِ المَذبوحِ مِن ابْنَي إبراهيم، قال: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصالحين ﴾ [الصَّافَّات: ١١٢]، ثُمَّ يَقُول: ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا

بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هُود : ٧١] . يَقُول : بِابْن ، وبِابْن ابْن ، فَلَمْ يَكُنْ يَأمُر بِذَبْحِ إسحاق ، ولهُ فِيه مِنَ اللَّهِ مَوْعُودٌ بِمَا وَعَدَه ، ومَا الذي أُمِرَ بِذَبْحِهِ إلا إسماعيل [٢٠] .

والجَدِيرُ بالذِّكْر أنَّ مِن أبرز مظاهر حَسَدِ اليَهُودِ للعَرَبِ ، أنَّهُم يَعْتبرون الذبيح إسحاق ، لأنَّه أبو اليهود ، مَعَ عِلْمهم أنَّ الذبيح إنَّمَا هو إسماعيل أبو العرب . وهذا ثابتٌ في القُرْآنِ والتَّوْرَاة مَعًا [٢١] . وقَد حَسَدُوا العَرَبَ على هذه الفضيلة ، وجَرَّدُوهم مِنها ، ونَسَبُوها إلى اليهود (بني إسرائيل) .

والآيةُ ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ وَعْدٌ إلَهِيٌّ لا يَتَخَلَّف ، وقَدْ حَدَثَ على أرض الواقع . والقِصَّةُ باختصار : عِندما وُلِدَ لإبراهيم إسماعيل مِن هَاجَر، تَمَنَّتْ سَارَة أن يَكُون لها ابن ، واستبعدتْ ذلك لِكِبَرِ سِنِّها ، فَبَشَّرَهَا اللَّهُ بِوَلَد (إسحاق) يَكُون نَبِيًّا ، ويَلِد نَبِيًّا (يَعقوب) . وهذه بِشَارة إلهيَّة لها بأن تَرى ابْنَ ابنِها في حياتها . وبَعْد هذه البِشَارة الإلهيَّة العظيمة ، لا يُعقَل ولا يَجُوز أن يَأمُر اللَّهُ إبراهيمَ بذبح ابنه إسحاق وهو صغير ، لأنَّ اللَّهَ وَعَدَ _ وَوَعْدُه حَق وصِدْق _ بأن إسحاق سَيَعِيش ، ويَتَزَوَّج ، ويُنجِب ، ويَكُون لَهُ نَسْل ، فكيف يُمكِن بَعْد هذا أن يُؤْمَر إبراهيم ﷺ بذبحِ إسحاق ﷺ صَغِيرًا ؟! .

وفي تفسير الطبري (١٠ / ٥١٠) : ((عن مُحَمَّد بن كَعْب القُرَظي أنَّه حَدَّثَهُم أنَّه ذَكَرَ ذلك لِعُمَر بن عبد العزيز ، وهو خليفة إذْ كان معه بالشَّام ، فقال له عُمَر : إنَّ هذا لَشَيْء مَا كُنْتُ أنظرُ فِيه ، وإنِّي لأراه كما هُوَ ، ثُمَّ أرسلَ إلى رَجُل كانَ عِنده بالشَّام كانَ يهوديًّا فأسلمَ ، فَحَسُنَ إسلامُه ، وكانَ يَرى أنَّه مِن عُلَماء يَهُود ، فسأله عُمَر بن عبد العزيز عن ذلك ، فقال مُحَمَّد ابن كَعْب : وأنا عِند عُمَر بن عبد العزيز ، فقال له عُمَر : أيُّ ابْنَيْ إبراهيم أُمِرَ بذبحه ؟ ، فقال : إسماعيل ، واللَّهِ يا أمير المؤمنين ، وإنَّ يَهُود لَتَعْلَم بذلك ، ولكنَّهم يَحسُدونكم مَعْشَر العَرَبِ على أن يَكُون أباكم الذي كانَ مَن أمَرَ اللَّهُ فيه ، والفَضْل الذي ذَكَرَه اللَّهُ مِنْهُ لِصَبْرِه لَمَّا أُمِرَ بِه ، فَهُم يَجْحَدُون ذلك ، ويَزْعُمُون أنَّه إسحاق ، لأنَّ إسحاق أبُوهُم)) .

هذا يدلُّ على أنَّ حسد اليَهُود للعرب مُتَجَذِّر ، ومُتَأصِّل في نُفُوسهم ، وهذا جَعَلَهُم يَتلاعبون بالدِّين ، ويُطوِّعون نُصُوصَه لمصلحتهم ، وإعلاء مكانتهم ، وإظهار فضلهم وشرفهم على العرب .

---

٢٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٦٠٥) برقم (٤٠٣٩) ، وسكت عنه الذهبي .

٢١ راجع كتاب/دراسات منهجية في القُرآن والتَّوراة والإنجيل، إبراهيم أبو عواد، دار الأيام للنشر والتوزيع.

ويُروَى عن النَّبِيِّ ﷺ : ((أنا ابْنُ الذبيحَيْن)) . والحديثُ مشهور ، ولا أصل له ، لكنَّ مَعْنَاه صحيح.الذبيحُ الأول هو جَدُّه إسماعيلﷺ،والذبيحُ الثاني هو أبوه عبد اللَّه،وذلك أن عبد المُطَّلِب نَذَرَ إنْ بَلَغَ بَنُوه عَشَرَة أن يَذبَح آخِرَ وَلَدِه تَقَرُّبًا ، وكانَ عبد اللَّه (والد النَّبِيِّ مُحَمَّد ﷺ) آخِرًا ، فَفَدَاه بِمِائة مِن الإبِل . ومِنَ الأدلة على أنَّ الذبيح هو إسماعيل ﷺ أنَّه هو الذي كان في مَكَّة . ومتى كان إسحاق ﷺ في مَكَّة ؟! .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيم ﴾ [الذاريات: ٢٩] . فَأقبلت سَارَة_ رَضِيَ اللَّهُ عنها_ نَحْوَهُم حِينَ سَمِعَت البِشَارَةَ في صَيحةٍ عظيمة وضَجَّةٍ هائلة، تُريد أن تَستفسر الخَبَرَ ، فَلَطَمَتْ وَجْهَهَا عَلى عَادةِ النِّسَاءِ عِند التَّعَجُّب ، وقالت : أنا عَجُوزٌ عَقِيم فَكَيْفَ أَلِدُ ؟ . استبعدتْ ذلك لِكِبَرِ سِنِّها ، وَلِكَوْنِها عَقِيمًا لا تَلِد . وفي تَفسير الجَلالَيْن (١ / ٦٩٤) : ((عُمُرُها تِسْع وتِسْعُون سَنَة ، وعُمُر إبراهيم مِائة سَنَة ، أوْ عُمُرُه مِائة وعِشرون سَنَة ، وعُمُرُها تِسعون سَنَة)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٣٠٠) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ ، أي : في صَرخةٍ عَظيمةٍ وَرَنَّة ، قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عنهما ومُجَاهِد وعِكْرمة وأبو صالح والضَّحَّاك وزيد بن أسْلَم والثَّوْري والسُّدي ، وَهِيَ قَوْلُهَا : ﴿ يَا وَيْلَتَى ﴾ [هُود : ٧٢]، ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ ، أي: ضَرَبَتْ بِيَدِهَا على جَبينها، قاله مجاهد وابن سابط. وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنهما: لَطَمَتْ، أي: تَعَجُّبًا كَمَا تَتَعَجَّب النِّسَاءُ مِن الأمر الغريب ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيم ﴾ ، أي: كَيْفَ أَلِدُ وأنا عَجُوز وقَد كُنْتُ في حَالِ الصِّبَا عَقِيمًا لا أحْبَل ؟)).

٨_ أصحابُ الرَّسِّ

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ [الفُرقان : ٣٨] .

الرَّسُّ _ لُغَةً _ هُوَ البِئْر . وقَد قِيل إنَّهُم قَوْم دَسُّوا نَبِيَّهم في البِئْر . وهؤلاء القَوْم أخبرَ اللَّهُ عَنهُم أنَّه أهْلَكَهُم ، وجَعَلَهُم عِبْرَةً لِمَن وَرَاءَهم . وقَد كانوا قَوْمًا كافرين ، فَبَعَثَ اللَّهُ لهم نَبِيًّا مِن أجْلِ هِدايتهم ، وقِيادتهم إلى طريق الحَق ، فاختاروا الكُفْرَ ، وَرَفَضُوا الإيمانَ . وَلَمْ يَقِف الأمرُ عِند هذا الحَدِّ ، بَلْ قَتَلُوا نَبِيَّهم لِكَي يُنهوا مَسيرةَ الدَّعْوَةِ الإسلاميَّة .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١/ ٢١٨) عَنهُم : ((قَوْم كان يَعْبُدون الأصنامَ ، فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالى إلَيهم شُعَيْبًا فَكَذَّبُوه، فَبَيْنَمَا هُم حَوْل الرَّسِّ وهي البِئْر غَيْر المَطوية فانهارتْ ، فخسف بهم وبديارهم.وقيل : "الرَّس" قرية بِفَلْجِ اليَمَامَةِ كانَ فِيها بَقَايا ثَمُود فَبُعِثَ إلَيهم نَبِيٌّ فَقَتَلُوه فَهَلَكُوا)).

٩_ أصحاب القَرْية

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلًا أصْحَابَ القَرْيَةِ إذْ جَاءَهَا المُرْسَلُون ﴾ [يس : ١٣] .

واذكُرْ يَا مُحَمَّد لِقَوْمِكَ الذينَ كَذَّبُوكَ قِصَّةَ أصحاب القَرْية " أنطَاكِيَة " ، حِينَ جَاءَهُم رُسُلُ عِيسَى الذينَ أرْسَلَهُم لِهِدَايتهم .

وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٧٤٨) : ((قال ابنُ إسحاق فِيما بَلَغَه عن ابن عباس _ رَضِيَ اللَّهُ عنهما _ وكَعْب الأحبار ووَهْب بن مُنَبِّه : إنَّها مدينة أنطَاكِيَة، وكانَ بِها مَلِك يُقَال له أنطيخس ابن أنطيخس، وكانَ يَعْبُد الأصنامَ ، فَبَعَثَ اللَّهُ إليه ثلاثةً مِنَ الرُّسُل ، وهُمْ : صَادِق وصَدُوق وشَلُوم ، فَكَذَّبَهُم . وهكذا رُوِيَ عن بُرَيدة بن الحُصَيْب وعِكْرِمَة وقَتَادة والزُّهْرِي أنَّها أنطَاكِيَة)) .

إنَّ عَرْضَ قِصَّة أصحاب القَرْيَة (أنطَاكِيَة) أمامَ مُشركي قُرَيْش ، ومَا فِيها مِن عِبَر ومواعظ مُتَعَلِّقَة بأهمية الإيمانِ وخُطورةِ الكُفْر، يَدُلُّ على أهمية التاريخ الذي يَكشِف مَسَارَ الأُمَم الغابرة وأسبابَ انهيارها الرُّوحي والمادي. والعاقلُ مَن اتَّعَظَ بِغَيْرِه ، أي إنَّه يَتَجَنَّب الطريقَ المُفْضِي إلى الهَلاك ، ويَلتزم طريقَ الحَقِّ . وتجاربُ الأُمَم السابقة سِجِلٌّ مَفتوح تَجِب الاستفادةُ مِنْه في تَحديدِ نِقَاط القُوَّة مِن أجل اعتمادها وتَرْسيخها ، وتَحديدِ نِقَاط الضَّعْفِ مِن أجل اجتنابها والابتعاد عَنها .

وقال الصَّابوني في صَفْوَة التفاسير (٣/ ١٣) : ((مِن مَحاسنِ التَّنْزيلِ الكريم وبَلاغته الخارقة، هُوَ الإيجاز في القَصَصِ والأنباءِ ، والإشارة إلى رُوحِها وسِرِّها ، لأنَّ القَصْدَ مِنَ القَصَصِ التَّذكيرُ والاعتبارُ، ولهذا لَمْ يُذكَرْ في القِصَّةِ اسْمُ البَلْدَة، ولا اسم الشخص الذي دَعَاهم إلى اللَّه، ولا اسم الرُّسُل الكِرَام، لأنَّ كُلَّ ذلك لَيْسَ هو الهدف مِن القِصَّة ، وَقِسْ على هذا سَائِرَ قَصَصِ القُرْآنِ)) .

١٠ _ أصحاب الكَهْف

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أنَّ أصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[الكَهْف: ٩].

أَظَنَنْتَ يَا مُحَمَّد أنَّ قِصَّة أهْلِ الكَهْفِ _ عَلى غَرَابتها _ هِيَ أعْجَبُ آياتِ اللَّهِ تعالى ؟ ، لا تَظُن ذلك ، فَهِيَ لَيْسَتْ بأعْجَب مِن آياتِنا ، فإنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن السَّمَاواتِ والأرض وَمَا فِيهما مِن العجائبِ والغرائبِ أعْجَب مِن قِصَّة أصحابِ الكَهْف . وَحُجَّةُ اللَّهِ ثابتة على مُشركي قُرَيْش وغَيْرِهِم مِن سائر العِبَاد .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٦٥٤) : ((﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ بَلْ أَحَسِبْتَ ﴿ أنَّ أصْحَابَ الكَهْفِ ﴾ وَهُوَ المَغَارة في الجَبَل ، ﴿ وَالرَّقِيمِ ﴾ وهو اللَّوْح الذي كُتِبَتْ فِيه أسماؤُهم وأنسابُهم ، ﴿ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ ، أي : لَمْ يَكُونوا بأعْجَب آياتِنا ، وَلَمْ يَكُونوا العَجَب مِن آياتِنا فَقَط ،

فإنَّ آياتِنا كُلَّهَا عَجَب . وكانتْ قُرَيْشٌ سَألوا مُحَمَّدًا ﷺ عَن خَبَر فِتْيَة فُقِدُوا في الزَّمَان الأوَّل بِتَلقين اليَهُود قُرَيْشًا ذلك)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ١٠٠) : ((﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ يَعْني يَا مُحَمَّد ﴿ أنَّ أصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ ، أي : لَيْسَ أمْرُهم عجيبًا في قُدرتِنا وسُلطانِنا ، فإنَّ خَلْقَ السَّماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتَسْخير الشَّمْس والقمر والكواكب ، وغَيْر ذلك مِن الآياتِ العظيمة الدَّالَّة على قُدرة اللَّه تعالى، وأنَّه عَلى مَا يَشَاء قادر ، ولا يُعْجِزُه شَيْء ، أعْجَب مِن أخبار أصحاب الكهف ، كما قال ابنُ جُرَيج عَن مُجَاهِد : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أنَّ أصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ، يَقُول : قَدْ كانَ مِن آياتِنا مَا هُوَ أعْجَب مِن ذلك . وقال العَوْفي عن ابن عَبَّاس : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أنَّ أصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ، يَقُول : الذي آتَيْتُكَ مِنَ العِلْمِ والسُّنَّةِ والكِتَابِ أفضل مِن شأن أصحاب الكَهْفِ والرَّقِيمِ . وقال مُحَمَّد ابن إسحاق: مَا أظهرتُ مِن حُجَجِي على العِبَاد أعْجَب مِن شأن أصحاب الكَهْفِ والرَّقِيمِ . وأمَّا الكَهْفُ فهو الغار في الجَبَل ، وهو الذي لَجَأ إليه هؤلاء الفِتْيَة المَذكورون ، وأمَّا الرَّقِيم فقال العَوْفي عن ابن عباس : هُوَ واد قريب مِن أَيْلَة ، وكذا قال عَطِيَّة العَوْفي وقَتَادَة ، وقال الضَّحَّاك : أمَّا الكَهْفُ فَهُوَ غار في الوادي ، والرَّقِيمُ اسْمُ الوادي . وقال مُجَاهِد : الرَّقِيمُ كانَ بُنْيَانَهُم ، ويقول بعضُهم : هو الوادي الذي فيه كَهْفهم . ... . وقال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عَبَّاس : الرَّقِيمُ : الكِتَابُ. وقال سعيد بن جُبَير : الرَّقِيمُ : لَوْحٌ مِن حِجَارة كَتَبُوا فِيه قَصَصَ أصحابِ الكَهْف ثُمَّ وَضَعُوه على باب الكَهْف . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرَّقِيم : الكِتَاب ، ثُمَّ قَرَأ : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُوم ﴾ [المُطَفِّفِين : ٩] ، وهذا هو الظاهر مِن الآية ، وهو اختيار ابن جرير . قال : الرَّقِيمُ فَعِيل بِمَعْنَى مَرْقُوم ، كَمَا يُقَال للمَقتولِ : قَتِيل ، وللمَجروح : جَرِيح ، واللَّهُ أعْلَم)) .

إنَّ قِصَّة أصحابِ الكَهْفِ مِن آياتِ اللَّه الباهرة ، وهُم قَوْمٌ فَرُّوا بإيمانهم مِن الاضطهاد ، فَلَجَؤُوا إلى كَهْف ، فَجَعَلَهُم اللَّهُ يَنامون مُدَّةً طويلة جِدًّا ، ثُمَّ أيْقَظَهُم ، وكَشَفَ لهم عَن هذه الآية الرَّبَّانِيَّة العظيمة . واللَّهُ لا يَتَخَلَّى عَن عِباده الصالحين ، بَلْ يُنقِذهم مِن الشدائد ، ويُنَجِّيهم مِن أعدائهم . وهؤلاء الصالحون لَمْ يُسَاوِمُوا على عقيدتهم،ولَمْ يَبيعوا دِينَهم بِعَرَضٍ مِن الدُّنيا قليل ، ولَمْ يَخضعوا لاضطهاد الآخرين وأساليبهم المُلتوية ، واتَّخَذُوا كُلَّ السُّبُلِ المُمْكِنة للمُحَافَظَة على دِينِهم ، لذلك هَرَبُوا مِن الفِتَن مُتَمَسِّكِين بالإيمان ، ورافضين للكُفْر ، ومُؤثِرين الآخِرَةَ على الدُّنيا . وهُنا يَتَجَلَّى بُعْدُ النَّظَر، والالتزام بالشَّريعةِ قَوْلًا وفِعْلًا .

والكَهْفُ هو الغار في الجَبَل ، أمَّا الرَّقِيمُ فهو اللَّوْحُ الذي كُتِبَتْ فيه أسماءُ أصحاب الكهف .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٥٠٥): ((وقد روى عَبْد بن حُمَيْد بإسناد صحيح عن ابن عَبَّاس قِصَّةَ أصحاب الكَهْف مُطَوَّلة غَيْر مَرْفُوعة .... _ قال ابنُ عباس _ : إنَّهُم كانوا في مَملكة جَبَّار يَعْبُد الأوثانَ ، فَلَمَّا رَأَوْا ذلك خَرَجُوا مِنها ، فَجَمَعَهُمُ اللَّهُ عَلى غَيْرِ مِيعاد ، فأخذَ بَعْضُهم على بعض العُهُودَ والمواثيق ، فجاءَ أهاليهم يَطْلُبونهم فَفَقَدُوهُم ، فَأخْبَرُوا المَلِكَ فَأمَرَ بكتابة أسمائهم في لَوْح مِن رَصَاص ، وجَعَلَه في خِزَانته ، فَدَخَلَ الفِتْيَةُ الكَهْفَ ، فَضَرَبَ اللَّهُ على آذانهم فَنَامُوا ، فأرسلَ اللَّهُ مَن يُقَلِّبُهم ، وحَوَّلَ الشمسَ عَنهُم ، فَلَوْ طَلَعَتْ عليهم لأحْرَقَتْهُم ، ولَوْلا أنَّهُم يُقَلَّبُون لأكَلَتْهُم الأرضُ ، ثُمَّ ذَهَبَ ذلك المَلِكُ ، وجاءَ آخَر ، فَكَسَرَ الأوثانَ ، وَعَبَدَ اللَّهَ وعَدَلَ ، فَبَعَثَ اللَّهُ أصحابَ الكَهْف ، فَأرْسَلُوا واحدًا مِنهُم يَأتيهم بِما يَأكلون ، فَدَخَلَ المَدينةَ مُسْتَخْفِيًا فَرَأى هَيئةً وناسًا أنكَرَهُم لِطُول المُدَّة ، فَدَفَعَ دِرْهَمًا إلى خَبَّاز فاستنكرَ ضَرْبَه ، وهَمَّ بأن يَرفعه إلى المَلِك، ... ، فاجتمعَ الناسُ فَرَفَعُوه إلى المَلِك ، فَسَألَه ، فقال : عَلَيَّ باللَّوْحِ ، وكان قَد سَمِعَ به، فَسَمَّى أصحابَه ، فَعَرَفَهُم مِن اللَّوْح ، فَكَبَّرَ الناسُ ، وانطَلَقُوا إلى الكَهْف ، وسَبَقَ الفَتَى لِئَلا يَخافوا مِن الجَيْش ، فلمَّا دَخَلَ عَلَيهم عَمَّى اللَّهُ على المَلِك ومَن مَعَه المَكَانَ ، فَلَمْ يَدْرِ أيْنَ ذَهَبَ الفَتَى، فاتَّفَقَ رأيُهم على أن يَبْنُوا عليهم مَسْجِدًا ، فَجَعَلُوا يَسْتغفرون لَهُم ، ويَدْعُون لهم)).

إنَّ المُؤمنين يَحْرِصُون عَلى دِينِهم ، لأنَّه أغلى مَا يَمْلِكُون . وهُم مُستعدون للتَّضحية بأيِّ شَيْء في سبيل المُحافظة عليه . وكُلُّ شَيْء يُمكِن تَعويضُه إلا الدِّين . وهؤلاء الفِتْيَةُ المُؤمنون فَرُّوا بِدِينِهم ، وهَرَبُوا مِن هذه المَملكة التي تُعبَد فيها الأصنام ، وقَد جَمَعَهُم اللَّهُ على الهُدى ، فكانوا إخْوَةً مُتحابين تَجْمَعهم رابطة الدِّين. وقَدْ حَمَاهُم اللَّهُ تعالى مِن الأذى ، وجَعَلَهم آيةً للناس، وقُدْوَةً في الثَّباتِ على العَقيدةِ ، والتَّمَسُّكِ بِدِينِ الإسلامِ .

١١_ الذي أمَاتَه اللَّهُ مِئةَ عام

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أوْ كالذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِهَا قَالَ أنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأمَاتَهُ اللَّهُ مِائةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَبِثْتَ مِائةَ عَامٍ فَانظُرْ إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إلى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً للنَّاسِ وَانظُرْ إلى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أعْلَمُ أنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

هذه القِصَّةُ مِن آيات اللَّه العظيمة ، إذْ تَتَجَلَّى فِيها القُدرة الإلهيَّة على الإماتةِ والإحياءِ . وهذا الرَّجُل (عُزَيْر عليه السلام) الذي مَرَّ على قرية فوجدها ساقطةً سُقوفها وجُدرانها ، وخالية لَيْسَ فيها أحد ، استبعدَ إحياءها وهي في حالة المَوَات تِلْك، معَ عِلْمِه بأنَّ اللَّه تعالى على كُلِّ شَيْءٍ قدير ، فأرادَ اللَّهُ تعالى أن يُميته ثُمَّ يُحْيِيَه لإعطائه مَوعظة على أرض الواقع مُتجسِّدة في نَفْسِه . وصار عُزَيْرٌ بحد ذاته آيةً ربَّانية، وآيةً قُرْآنية خالدة . واليهودُ تزعم أن عُزَيْرًا (وهو رَجل صالح مُخْتَلَف في نُبُوَّته) هو ابن اللَّه تعالى ، وهذا الغُلُوُّ دَيْدن أهل الكِتاب في كُلِّ مراحل وُجودهم، إذْ إنَّهُم يَتَطَرَّفون في العقائد ، ويُغَالون في تعظيم صالحيهم . وهذا مَرجعه إلى انحرافهم عن الصِّرَاط المُستقيم ، وتحكيمهم لأهوائهم وشَهَواتهم ، وخُضوعهم لرغباتهم ومصالحهم . وهُم يَسيرون في الظلام بِلا بَيِّنة ولا دليل ، وعلى غَيْر هُدى . كما أنَّهُم يَعتمدون على التأويل المُنحرف غَيْر المَبْنِي على أُسُس سليمة، وهذا يُؤَدِّي إلى إخراج النُّصوص الدِّينية عن سِيَاقها الصحيح ، وبالتالي الوُقوع في عقائد باطلة ، ونشر الكفر والضلال بسبب تغيير مُراد اللَّه تعالى، والتلاعبِ بكلامه المُقدَّس .

وفي الدُّر المَنثور للسُّيوطي (٤/ ١٧١) أنَّ ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال : ((أتى رسولَ اللَّه ﷺ سَلامُ بنُ مِشْكَم، ونُعمان بن أوْفَى، وأبو أنس، وشاس بن قَيس ، ومالك بن الصَّيف، فقالوا : كَيْفَ نَتَّبِعُكَ وقَدْ تَركتَ قِبْلَتَنَا وأنتَ لا تَزعُم أنَّ عُزَيْرًا ابنُ اللَّه ؟. وإنَّما قالوا: هو ابن اللَّه مِن أجْلِ أنَّ عُزَيْرًا كان في أهل الكِتاب ، وكانت التَّوراةُ عِندهم يَعْمَلُون بها مَا شاءَ اللَّهُ تعالى أن يَعْمَلُوا ، ثُمَّ أضاعوها وعملوا بغير الحق، وكان التابوت فيهم، فلمَّا رأى اللَّهُ تعالى أنَّهُم قد أضاعوا التَّوراةَ وعَمِلُوا بالأهواء ، رَفَعَ اللَّهُ عنهم التابوتَ، وأنساهم التَّوراةَ ، ونَسَخَهَا مِن صُدورهم ، وأرسلَ عَلَيهِم مَرَضًا، فَاسْتَطْلَقَتْ بُطُونُهُم مِنهم حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَمْشِي كَبِده ، حَتَّى نَسُوا التَّوراةَ ونُسِخَتْ مِن صُدورهم ، وفيهم عُزَير كانَ مِن عُلَمائهم ، فَدَعَا عُزَيْرٌ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وابتهلَ إلَيْه أن يَرُدَّ إلَيْه الذي نُسِخَ مِن صَدْرِه ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُصَلِّي مُبْتَهِلًا إلى اللَّه تعالى ، نَزَلَ نُورٌ مِنَ اللَّهِ فَدَخَلَ جَوْفَه ، فعادَ إلَيه الذي كان ذَهَبَ مِن جَوْفِه مِنَ التَّوراة، فَأَذَّنَ في قَوْمِه فقال: يَا قَوْم قَدْ آتاني اللَّهُ التَّوراةَ ، رَدَّهَا إلَيَّ فَعَلِقَ يُعَلِّمهم، فَمَكَثُوا مَا شاءَ اللَّهُ أن يَمْكُثُوا وَهُوَ يُعَلِّمُهُم ، ثُمَّ إنَّ التابوت نَزَلَ عَلَيهِم بَعْد ذلك ، وبَعْد ذَهَابه مِنهُم ، فَلَمَّا رَأَوا التابوتَ عَرَضُوا مَا كانَ فيه على الذي كانَ عُزَيْرٌ يُعَلِّمهم فَوَجَدُوه مِثْلَه ، فقالوا : واللَّهِ مَا أُوتِيَ عُزَيْرٌ هذا إلا أنَّه ابن اللَّه)) .

وكُلُّ عَقيدةٍ باطلة لها سبب وأصل، ولَمْ تَجِئْ تِلقائيًّا أوْ تَهْبِط مِن الهواء.ولا دُخَان بِدُون نار . والنَّصَارى الذين ألَّهُوا المسيحَ ﷺ اعتمدوا على التأويل المُنحرف للنُّصُوص الدِّينية ، فَوَقَعُوا في

المَحظور ، وهُنا تَبْرُز خُطورةُ عدم فهم دَلالات اللغة ، وتَحويلُ المَجَاز إلى واقع أو العَكْس ، وعدم التمييز بَين المعنوي والمادي ، وكُلُّ هذه القضايا سَتُؤَدِّي بِلا شَك إلى الانحراف العقائدي ، وإضاعة الشريعة . وكُلُّ دِينٍ هُوَ مَبني على النُّصوص اللغوية . وإذا لَمْ تُفْهَم اللغةُ بالشكل الصحيح فإنَّ الدِّين سَيَضِيع لا مَحَالة . كما أنَّهُم اعتمدوا على مُعجِزات خارقة للعادة جرت على يد السيد المَسِيح ﷺ مِثْل إحياء المَوْتَى بإذْنِ اللَّهِ تعالى وغَيْرِها ، فاعتقدوا أنَّ الذي يقوم بهذا العمل هو إلَهٌ أو ابنٌ للَّهِ تعالى. وهذا انحراف عقائدي قبيح . وَلَوْ وُجِدَ إلَهَان في الكَوْن لاخْتَلَّ النظام بسبب اختلاف الإلَهَيْن. ولا تُوجَد دَولة فيها رئيسان ، حتى إنَّ الفاتيكان له بابا واحد لا اثنان . ولكنْ إذا غابت الهِدايةُ الرَّبَّانية فإن الإنسان قد يعتنق أي شيء بلا تمييز .

واليهودُ الذين اعتقدوا بِبُنُوَّة عُزَير ــ أي إنَّه ابن اللَّه تعالى ــ اعتمدوا على خوارق جَرَتْ على يَدَيه ، فَلَمْ يَقْتنعوا بأنَّ هذه الأمور تَحْصُل معَ الصالحين والأولياءِ ، بَلْ تَطَرَّفوا في هذه القضية ، ونَسَبُوا للَّهِ تعالى الوَلَدَ . وهذا أمرٌ ضِد النقل والعقل معًا . ولَوْ أنَّ كُلَّ إنسان جَرَتْ عَلى يَدَيه خَوارق للعَادَةِ والطبيعةِ تَمَّ اعتبارُه ابنًا للَّهِ تعالى ، لكانَ عددٌ كبير مِن الناس أبناء اللَّه تعالى ، وهذا لا يقول به مُؤْمِن ولا عاقل .

لذلك يَنبغي وَضْع الأُمُور في نِصَابِها الصحيح ، وتطهير العقائد مِن الأهواء المُفتقِدة إلى الأدلةِ والبراهين. والجَدِيرُ بالذِّكْرِ أنَّ اليهود في الوقت الحالي لا يَعتقدون بأنَّ عُزَيْرًا ابن اللَّهِ تعالى. فهذه العقيدةُ قديمةٌ وقَد اختفتْ فِيما بَعْد .

وقد كانت هذه العقيدةُ الباطلة سائدةً عِند اليهود في أيام النَّبِيِّ ﷺ،بدليل أنَّ اليهود لَمْ يَتَبَرَّؤُوا مِنها، أوْ يَرُدُّوا عَلَيها. وَلَوْ كانت كَذِبًا لقالَ اليهودُ إنَّ القُرْآن يَفْتري عَلَينا ، وهذا لَمْ يَحْصُلْ . إذَن، فالقِصَّةُ ثابتة عِند اليَهُود ، وهذه عَقيدتهم لَمْ يَقْدِرُوا على التَّهَرُّب مِنها ، ولا إنكارها .

وفي فتح الباري (٣/ ٣٥٩) : ((قال ابن العربي في شرح التِّرْمذي : تَبَرَّأت اليَهُودُ في هذه الأزمان مِن القَوْل بأنَّ العُزَير ابن اللَّه ، وهذا لا يَمْنَع كَوْنَه كانَ موجودًا في زمن النَّبِيِّ ﷺ ، لأنَّ ذلك نَزَلَ في زَمَنِه واليهودُ معه بالمَدينة وغَيْرها ، فَلَمْ يُنْقَلْ عن أحَد مِنهم أنَّه رَدَّ ذلك ولا تَعَقَّبَه ، والظاهر أنَّ القائل بذلك طائفة مِنهُم لا جميعهم)) .

وعن عَلِيٍّ ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ قال : ((خَرَجَ عُزَيْرٌ نَبِيُّ اللَّهِ مِن مَدينته وَهُوَ رَجُلٌ شاب ، فَمَرَّ على قَرية وهي خاوية على عُروشها . قال : ﴿ أنَّى يُحيي هذه اللَّهُ بعد مَوْتها فأماته اللَّهُ مِائةَ عام ثم بعثه ﴾ ، فأوَّلُ مَا خَلَقَ عَيْناه، فَجَعَلَ يَنظُر إلى عِظَامِه يَنْضَمُّ بَعْضُها إلى بعض ، ثُمَّ كُسِيَت لَحْمًا ،

ونُفِخَ فِيه الرُّوحُ وَهُوَ رَجُلٌ شاب ، فَقِيل له : كَمْ لَبِثْتَ ؟، قال : يَوْمًا أوْ بَعْضَ يَوْم ، قال: بَلْ لَبِثْتَ مِائة عام . فأتى المَدينةَ وَقَدْ تَرَكَ جَارًا لَهُ إسكافًا (صانعًا) شابًّا ، فجاءَ وَهُوَ شَيْخٌ كبير)) [٢٢] .

وعُزَيْرٌ غَيْرُ مُتَّفَق عَلى كَوْنِه نَبِيًّا . وهذا الأمر فيه أخذٌ وَرَدٌّ بَين أهْلِ العِلْم . وقال ابنُ حِمْيَر في كتابه تَنْزيه الأنبياء (ص ١٠٥) : ((جاء في الأثر أنَّه كان في بني إسرائيل مِن بعد مُوسَى عليه السلام نَبِيٌّ ، وكان اسمه دانيال ، وإنَّما سُمِّيَ عُزَيْرًا لكثرة تَعْزير اليهود له ، وإعظامِهم لِقَدْرِه عليه السلام ، ثُمَّ غَلَوْا في تَعْظيمه حتى عَبَدُوه ، وسبب ذلك لأنَّه أمَاتَه اللَّهُ مِئةَ سَنَة ، ثُمَّ أحْيَاه)) .

إنَّ ظاهرة تقديس الأولياء وعبادة الصالحين مُنتشرة بكثرة . فكثيرٌ من الناس يَقَعُون في المُغَالاة والتَّطَرُّف ظنًّا مِنهُم أنَّ هذه هي الوسيلة الصحيحة لتمجيد الصالحين وتعظيمهم ، والحِفاظ على ذِكْرهم . والكثيرون لا يَقْدِرون على تَحَمُّل رُؤية المُعْجِزات أو الكَرَامَات ، فَتَحْدُث لَدَيهم صَدْمَة تَقُودهم إلى الانحراف العَقَائدي ، والسُّلوكِ الاجتماعي المُخَالِف للشَّريعة .

وأهلُ الكِتاب يتسابقون إلى الكُفْرِ والضَّلالِ والكذب على اللَّه تعالى . وَكُلُّ طائفة تُريد فَضْلًا ومَجْدًا وشَرَفًا خاصًّا بها، فتعتقد أنَّ إضافة وَلَد إلى اللَّه تعالى سَيَجْعَل مِنهم أصحابَ السِّيَادة والرِّيَادة والمَجْد والعَظَمَة في الدُّنيا والآخِرَة ، فابتكرَ اليهودُ هذا الاختراعَ الأُسطوريَّ ، ولَحِقَهُم النَّصَارى ، وشَابَهَ قَوْلُهم قَوْلَ مَن سَبَقَهُم . لَعَنَهُم اللَّهُ تعالى ، كَيْفَ يُصْرَفُون عَن الحَقِّ ؟ .

١٢_ الذين خَرَجُوا حَذَرَ المَوْتِ

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أحْيَاهُمْ إنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلى النَّاسِ وَلَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُون ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ استفهامُ تَعْجِيبٍ وتَشويقٍ إلى استماع مَا بَعْدَه. أَلَمْ تَعْلَمْ أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ يا مُحَمَّد إلى هؤلاء ، وَهُم قَوْمٌ مِن بَنِي إسرائيل وَقَعَ الطاعونُ ببلادهم فَفَرُّوا . لَقَدْ خَرَجُوا مِن وَطَنِهِم وهُم أُلُوفٌ كثيرة خَوْفَ المَوْتِ ، فأماتهم اللَّهُ ثُمَّ أحْيَاهُم .

وهذا يَدُلُّ على أنَّهُم ماتوا مِيتَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ بأمْرِ اللَّهِ ومَشِيئته ، وتِلْك مِيتة خارجة عن العَادَة ، وفيه تَشجيع للمُسْلِمين على الجِهَاد ، وأنَّ المَوْتَ إذا لَمْ يَكُن مِنْه بُد ، وَلَمْ يَنْفَعْ مِنْهُ مَفَر ، فَالأَوْلَى أن يَكُون في سبيل اللَّهِ ، ثُمَّ أحياهم لِيَعتبروا ويَعْلَمُوا أنَّه لا مَفَر مِن حُكْمِ اللَّهِ وقَضَائِه ، ولا يُغْني حَذَرٌ مِن قَدَر ، ولا مَلْجَأ مِنَ اللَّهِ إلا إلَيْه .

---

٢٢ رواه الحاكم في المستدرَك (٣ / ٣١٠) برقم (٣١١٧) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

إنَّ اللَّهَ ذُو إنعام وإحسان على الناس ، حَيْث يُريهم مِن الآياتِ الباهرةِ والحُجَجِ القاطعةِ مَا يُبَصِّرُهم بِما فِيه سعادتهم في الدُّنيا والآخِرَةِ . والتَّنكيرُ في قَوْلِه : ﴿ فَضْلٍ ﴾ للتَّعظيم ، أي : ذُو فَضْلٍ عظيم على الناس جميعًا، أمَّا هؤلاء الذين خَرَجُوا فَلِأَنَّ اللَّهَ أحْيَاهُم لِيَعْتبروا ، وأمَّا المُخَاطَبُون فَلِأنَّ اللَّهَ أرشدَهم إلى الاعتبارِ والاستبصار بِقِصَّة هؤلاء ، وأخْذِ الدُّرُوسِ المُفيدةِ والمَواعظِ النافعةِ.

ولكنَّ أكثرَ الناس لا يَشكُرون اللَّهَ عَلى نِعَمِه ، بَلْ يُنكِرُون ويَجْحَدُون .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٦٠٠) : ((يَعْني تَعَالى ذِكْرُه : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ يَا مُحَمَّد. وهو مِن رُؤية القلب لا رُؤية العَيْن، لأنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يُدْرِك الذينَ أخبرَ اللَّهُ عَنهُم هذا الخَبَرَ. ورُؤيةُ القلب : مَا رَآه وعَلِمَه بِه ، فَمَعنى ذلك : أَلَمْ تَعْلَمْ يا مُحَمَّد الذين خَرَجُوا مِن دِيَارهم وهُم أُلُوف ؟ ، ... ، عن ابن عباس في قَوْلِه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ ﴾ ، قال : كانوا أربعة آلاف خَرَجُوا فِرَارًا مِن الطاعون، قالوا : نأتي أرضًا لَيْسَ فِيها مَوْت . حتى إذا كانوا بِمَوْضِع كَذَا وكَذَا، قال لهم اللَّهُ : مُوتوا . فَمَرَّ عليهم نَبِيٌّ مِن الأنبياء ، فَدَعَا رَبَّهُ أن يُحْيِيَهُم،فأحياهم،فَتلا هذه الآية: ﴿ إنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلى النَّاسِ وَلَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُون ﴾ ... . وأمَّا قَوْلُه : ﴿ حَذَرَ المَوْتِ ﴾ ، فإنَّه يَعْني أنَّهُم خَرَجُوا مِن حَذَرِ المَوْتِ فِرَارًا مِنْه . ... . وإنَّما حَثَّ اللَّهُ تَعَالى ذِكْرُه عِبَادَه بهذه الآية على المُوَاظَبَة على الجِهاد في سَبيله ، والصَّبْر على قِتال أعداء دِينِه ، وشَجَّعَهُم بإعلامه إيَّاهم وتَذكيره لهم أنَّ الإماتة والإحياء بِيَدَيْه وإلَيْه دُون خَلْقِه ، وأنَّ الفِرَار مِن القِتال ، والهَرَب مِن الجِهادِ ولقاءِ الأعداء إلى التَّحَصُّن في الحُصُون والاختباء في المَنازل والدُّور غَيْر مُنَجٍّ أحدًا مِن قَضَائه إذا حَلَّ بساحته ، ولا دافع عَنْه أسباب مَنِيَّته إذا نَزَلَ بعقوبته ، كما لَمْ يَنْفَع الهاربين مِن الطاعون الذين وَصَفَ اللَّهُ تَعَالى ذِكْرُه صِفَتَهُم في قَوْلِه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ ﴾ فِرَارُهُم مِن أوطانهم ، وانتقالُهم مِن مَنازلهم إلى المَوْضِع الذي أمَّلُوا بالمَصِير إلَيه السَّلامةَ ، وبالمَوْئِل النَّجَاة مِن المَنِيَّة ، حَتَّى أتاهم أمْرُ اللَّهِ ، فَتَرَكَهُم جميعًا خُمُودًا صَرْعَى ، وفي الأرْضِ هَلْكَى ، ونَجَا مِمَّا حَلَّ بِهِم الذين بَاشروا كَرْبَ الوَباءِ ، وخَالَطُوا بأنفسهم عظيمَ البَلاءِ . القَوْلُ في تأويل قَوْلِه تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلى النَّاسِ وَلَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُون ﴾ ، يَعْني تَعَالى ذِكْرُه بذلك : إنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ وَمَنٍّ عَلى خَلْقِه بِتَبصيره إيَّاهم سبيلَ الهُدى ، وتَحْذيره لهم طريق الرَّدَى ، وغَيْر ذلك مِن نِعَمِه التي يُنْعِمُهَا عَلَيهِم في دُنياهم ودِينِهم وأنفُسِهم وأموالِهم ، كما أحْيَا الذين خَرَجُوا مِن دِيَارِهم وهُم أُلُوف حَذَرَ المَوْتِ بَعْد إماتته إيَّاهم ، وجَعْلِهم لِخَلْقِه مَثَلًا وَعِظَةً يَتَّعِظُون بِهِم ، وعِبْرَةً يَعْتبرون بِهِم ،

وَلِيَعْلَمُوا أنَّ الأُمُور كُلَّها بيده ، فَيَستسلموا لِقَضَائِه ، ويَصْرِفُوا الرَّغبةَ كُلَّها والرَّهْبَةَ إلَيْه . ثُمَّ أخبرَ تَعَالى ذِكْرُه أنَّ أكثر مَن يُنْعِم عَلَيه مِن عِباده بِنِعَمِه الجليلةِ ويَمُنُّ عَلَيه بِمِنَنِه الجَسيمةِ ، يَكْفُر به ، ويَصْرِف الرَّغبةَ والرَّهبةَ إلى غَيْرِه ، ويَتَّخِذ إلَهًا مِن دُونِه كُفرانًا مِنه لِنِعَمِه ، التي يُوجِب أصغرُها عليه مِن الشُّكْر مَا يَفْدَحُه، ومِن الحَمْدِ مَا يُثْقِلُه، فقالَ تَعَالى ذِكْرُه : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُون ﴾ يَقُول : لا يَشكُرون نِعْمَتِي التي أنْعَمْتُهَا عَلَيْهِم ، وفَضْلي الذي تَفَضَّلْتُ بِه عَلَيهِم بِعِبادتهم غَيْري ، وصَرْفِهم رَغْبتهم ورَهْبتهم إلى مَن دُوني مِمَّن لا يَمْلِك لَهُم ضَرًّا ولا نَفْعًا ، ولا يَمْلِك مَوْتًا ولا حَيَاةً ولا نُشُورًا)) .

إنَّ اللَّهَ تعالى قَدْ أماتهم ثُمَّ أحياهم مِن أجل الاعتبارِ والاتِّعَاظِ ، وحُصُولِ اليَقِين في نُفُوسِهم بأن لا مَهْرَب مِن القَضَاءِ والقَدَرِ ، ولا تُوجَد إمكانيَّة للهُروبِ مِن المَوْت ، لأنَّ المَوْت هو الحارس الشخصي للإنسان ، وإذا حانتْ سَاعَةُ الوَفَاةِ فَلا شَيْء سَيَحْمِي الإنسانَ ، وإذا لَمْ تَحِنْ سَاعَةُ الوَفَاة ، فلا شَيْء سَيُنْهِي حَيَاتَه . والإنسانُ يَسِير إلى المَوْتِ بِقَدَمَيْه . والكائناتُ الحَيَّةُ كَعَقَارِبِ السَّاعَة ، مُثَبَّتَة بِنُقطة مَركزية لا تَقْدِر على الإفلات مِنها ، ومَهْما دَارَتْ فإنَّها سَتَتَوَقَّف يَوْمًا مَا . والإنسانُ مَربوطٌ بقبره ، ومَهْمَا دارَ وانطلقَ فَلَن يَستطيع الخُروجَ مِن مَدَارِه ، أو التَّخَلُّص مِن نِهايته الحَتْمِيَّة . والمَوْتُ هُوَ الأُمُّ التي سَيَعُود إلَيها ابنُها مَهْمَا طالَ الزَّمَن ، والقَبْرُ هو المرجعية ونُقْطة النهاية الأكيدة.ومَن نَظَرَ إلى القَبْر،فَإنَّ الدُّنيا سَتَصْغُر في عَيْنَيْه،ويُدرك أنَّها لَعِبٌ ولَهْو ، ولكنَّ زينةَ الدُّنيا الخادعة تَغُرُّ الناسَ وتَجْذِبُهم وتُنْسِيهم الغايةَ التي خُلِقُوا مِن أجْلِها.وهكذا يَغْرَق الإنسانُ في اللذة دُون النَّظَر إلى عاقبتها الوَخِيمة ، ويَبْحَث عَن المُتعةِ دُون النَّظَر إلى الألمِ الرَّهيب .

وعن ابن عباس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ : في قَوْلِه تَعَالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ ﴾ ، قال : كانوا أربعةَ آلاف ، خَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الطاعون ، وقالوا : نأتي أرضًا لَيْسَ بِها مَوْت ، فقالَ لَهُمُ اللَّهُ : مُوتُوا ، فَمَاتُوا ، فَمَرَّ بِهِم نَبِيٌّ ، فَسَألَ اللَّهُ أن يُحْيِيَهُم فَأحْيَاهُم ، فَهُمُ الذينَ قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ ﴾ [٢٣] .

مَعنى الآية : أَلَمْ تَعْلَمْ يَا مُحَمَّد خَبَرَ تِلْك الجُمُوع المُؤَلَّفَة مِن آلاف الأشخاص ، الذينَ فَرُّوا مِن دُورِهم ومَوطنِهم ابتغاءَ السَّلامة مِن المَوْتِ ، إمَّا حَذَرًا مِن إصابتهم بِوَبَاءٍ وَقَعَ في بِلادِهم ، أوْ خَوْفًا مِن مُقَاتَلَةِ عَدُوٍّ يَدْهَمُهُم في أرْضِهِم .

---

٢٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٣٠٩) برقم (٣١١٣) وصَحَّحَه .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (١ / ٢٨٨) : ((في مَعْنَى حَذَرِهِم مِنَ المَوْتِ قَوْلان : أحدهما أنَّهُم فَرُّوا مِنَ الطاعونِ وكانَ قَد نَزَلَ بِهِم ، قاله الحسن والسُّدي . والثاني أنَّهُم أُمِرُوا بالجِهَاد فَفَرُّوا مِنْه ، قاله عِكْرِمَة والضَّحَّاك ، وعَن ابن عَبَّاس كَالقَوْلَيْن)) .

١٣_ عاد (قَوْم هُود)

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإلى عَادٍ أخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ أفلا تَتَّقُون ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

أرسلَ اللَّهُ إلى قَوْمِ عاد أخاهم هُودًا ، وَهُوَ أخُوهم في النَّسَبِ لا في الدِّينِ . وكانتْ مَساكنُهم بالأحقافِ باليَمَنِ ، قال لَهُم رَسُولُهُم : اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَه لا شريك له ، فَلَيْسَ لَكُم إلَهٌ إلا هُوَ ، أفلا تَخَافُون عَذَابَه فَتُؤْمِنُون ؟ . والاستفهامُ في ﴿ أفلا تَتَّقُون ﴾ للإنكار .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٥٢٢) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : وَلَقَدْ أرْسَلْنا إلى عَادٍ أخَاهُم هُودًا ، ولذلك نصب ﴿ هُودًا ﴾ ، لأنَّه مَعطوف به على نُوح ، عليهما السلام . قال هُود : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ، فَأفْرِدُوا لَهُ العِبادةَ ، ولا تَجْعَلُوا مَعَهُ إلَهًا غَيْرَه ، فإنَّه لَيْسَ لَكُم إلَهٌ غَيْرُه ، ﴿ أفلا تَتَّقُون ﴾ رَبَّكُم ، فَتَحذرونه وتَخَافون عِقَابَه بِعِبادتكم غَيْرَه ، وهو خالقُكم ورازقُكم دُون كُلِّ مَا سِوَاه ؟)) .

النَّبِيُّ هُود ﷺ أُرْسِلَ إلى قَوْمِه (عاد) ، فَهُوَ أخُوهم بمعنى الانتماء إلى قَبيلتهم ، لا مِن جِهَة أُخُوَّة الدِّينِ . وكُلُّ الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ جاؤوا بالتَّوحيدِ ، ومَكارمِ الأخلاق ، وتأسيسِ المُجتمع الإيمانيِّ الفاضل القائم على العَدْلِ والمُسَاوَاة . وَقَوْمُ عاد قَدْ غَرِقُوا في الشِّرْك، وساروا في طريق عِبادة الأصنام التي اخترعوا أسماءً لها ، وكَوَّنوا شريعةً أُسطورية مُرتبطة بها . وأصلُ (عاد) اسم رَجُل ، ثُمَّ صار اسمًا للقبيلة .

وقال عبد الوَهَّاب النَّجَّار في قَصَص الأنبياء (ص ٧١) : ((وكانت مساكنُ عاد في أرض الأحقاف ، وهي تقع في شمال حَضْرَمَوْت ، وفي شَمالها الرُّبُع الخالي ، وفي شَرْقها عُمَان)) .

وقد تَحَوَّلَتْ حضارتهم إلى رِمَال ، وصارَ العُمْرَانُ خَرَابًا شاسعًا ، فَقَدْ غَرَّتْهُم القُوَّةُ المادية ، ولَمْ يَحْرُسُوا النِّعَمَ الإلهيَّة بالشُّكْر ، لذلك صارت النِّعْمَةُ نِقْمَةً ، وقُدراتُهم وَبَالًا عليهم . وقَدْ أُهْلِكُوا بالرِّيحِ العاتية عِقَابًا لهم ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُم قُوَّتُهُم ، ولَمْ يَقْدِرُوا على حِماية حضارتهم من الانقراض . وهذا حال جميع الأُمَم التي تعتمد على الأسباب ، ولا تَعتمد على خالق الأسباب . وَلَوْ أنَّهُم اعتمدوا شُكْرَ اللَّهِ مِنهاجًا حياتيًّا لازدادتْ قُوَّتُهُم،وَعَلَتْ حضارتهم.فبالشُّكْرُ تَدُوم النِّعَم.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٣١٨) : ((وأخرجَ ابنُ أبي حاتم عن الربيع بن خَيْثَم قال : كانت عاد مَا بَين اليَمَن إلى الشام مِثْل الذَّرِّ . وأخرجَ ابن عساكر عن وَهْب قال : كان الرَّجُل مِن عاد سِتِّين ذِرَاعًا بِذِرَاعهم ، وكانَ هَامَةُ الرَّجُل مِثْل القُبَّة العظيمة ، وكانَ عَيْنُ الرَّجُل لِتُفَرِّخ فِيها السِّبَاع ، وكذلك مَنَاخرهم)) .

وهذه القُوَّةُ الجُسْمَانِيَّة الهائلة لَمْ تَكُن عَوْنًا لهم على طاعة اللَّه تعالى ، بَلْ على العَكْس ، فقد صارتْ وَبَالًا عَلَيْهِم لأنَّهُم اغْتَرُّوا بها ، واعتمدوا على المَادَّة ، ولَمْ يَعرِفُوا خَالَقَ هذه المَادَّة وواهبَها ، فَقَدْ حَشَرُوا تفكيرَهم في دائرة الأسباب الدُّنيوية الفانية التي حَجَبَتْهُم عَن معرفة مُسَبِّب الأسباب،وهذه كانت بداية نهايتهم،ولَمْ يَستطع جَبروتهم وطُغيانُهم أن يَحْمِيَهم مِن الغَضَبِ الإلهيِّ.

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالَ المَلَأُ الذينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إنَّا لَنَرَاكَ في سَفَاهَةٍ وَإنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذبين ﴾ [الأعراف : ٦٦] .

قال السَّادَةُ والزُّعَمَاءُ والأشرافُ مِن قَوْمِ النَّبِيِّ هُود ﷺ له: إنَّا لَنَرَاكَ في حُمْقٍ وجَهَالةٍ وضَلالةٍ ، حَيْث تَهْجُر دِينَ قَوْمِكَ إلى دِين آخَر ، وَتَدْعُونا إلى تَرْكِ عِبادةِ الأصنامِ والإقبالِ على عِبادة اللَّهِ وَحْدَه ، كَمَا تَعَجَّب المَلأُ مِن قُرَيْشٍ مِنَ الدَّعْوَةِ إلى إلَهٍ واحد ، فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلَهًا وَاحِدًا إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : ٥] .

لَقَد نَسَبُوا النَّبِيَّ هُودًا ﷺ إلى الطَّيْشِ وخِفَّةِ العَقْلِ ، ولَمْ يَكتفوا بذلك حتى قالوا : ﴿ إنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذبين ﴾ ، مُؤَكِّدِين لِظَنِّهِم أنَّه كاذبٌ فِي ادِّعَائه الرِّسَالة . وقَدْ كَفَرُوا بِه ظَانِّين لا مُسْتَيْقِنِين .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٥٢٢) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه مُخْبِرًا عَمَّا أجابَ هُودًا بِهِ قَوْمُه الذين كَفَرُوا باللَّهِ : ﴿ قَالَ المَلَأُ الذينَ كَفَرُوا ﴾ يَعْني الذين جَحَدُوا تَوحيدَ اللَّهِ ، وأنكَرُوا رسالةَ هُود إلَيْهِم : ﴿ إنَّا لَنَرَاكَ ﴾ يا هُود ﴿ في سَفَاهَةٍ ﴾ يَعْنُون في ضَلالةٍ عَنِّ الحَقِّ والصَّوَابِ ، بِتَركك دِينَنا وعِبادةَ آلِهَتِنا ، ﴿ وَإنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذبين ﴾ في قِيلك إنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ العَالَمِين)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ العَالَمِين﴾[الأعراف:٦٧].

قالَ النَّبِيُّ هُود ﷺ : يا قَوْمِ لَيْسَ بِي كما تَزْعُمُون نَقْصٌ في العَقْلِ ولا ضَلالةٌ عَن الحَقِّ والصَّوَاب. وقَوْلُه : ﴿ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾ مَوْضِعٌ للأدبِ الرَّفيعِ والخُلُقِ العظيمِ في حُسْنِ المُخَاطَبَة، فإنَّه دَفَعَ مَا نَسَبُوه بِه مِن السَّفَاهَة بِنَفْيِهِ فَقَط . ولَكِنِّي مُرْسَلٌ إلَيكُم بالهِداية مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، أُبَلِّغُكُم رسالةَ رَبِّي، وَأُؤدِّيها إلَيكُم كَمَا أمَرَني أن أُؤَدِّيَهَا، كاملةً بلا زيادة ولا نُقْصَان. وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى، لَسْتُ كَمَا تَزْعُمُون ، بَلْ جِئْتُكُم بالحَقِّ مِنَ اللَّهِ الذي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ومَلِيكُه .

وقال أبو السُّعُود في تفسيره (٣ / ٢٣٨) : ((﴿ قَالَ ﴾ مُسْتَعْطِفًا لَهُم ، ومُسْتَمِيلًا لِقُلُوبهم، معَ مَا سَمِعَ مِنهُم مَا سَمِعَ مِن الكَلِمَةِ الشَّنعاءِ المُوجِبَة لِتَغليظِ القَوْلِ والمُشَافَهَةِ بالسُّوءِ ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾ ، أي : شَيْءٌ مِنها ولا شائبةٌ مِن شَوَائبها ، ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ العَالَمِين ﴾ استدراكٌ مِمَّا قَبْلَه باعتبار مَا يَسْتلزمه ويَقْتضيه مِن كَوْنِه في الغاية القُصْوَى مِنَ الرُّشدِ والأنَاةِ والصِّدْقِ والأمانةِ ، فَإنَّ الرِّسَالةَ مِن جِهَةِ رَبِّ العَالَمِين مُوجِبَةٌ لذلك حَتْمًا ، كأنَّه قِيل : لَيْسَ بِي شَيْءٌ مِمَّا نَسَبْتُمُوني إلَيْه ، ولَكِنِّي في غاية مَا يَكُون الرُّشدُ والصِّدْقُ . ولَمْ يُصَرِّحْ بِنَفْي الكَذِبِ اكتفاءً بِما في حَيِّزِ الاستدراك . و " مِن " لابتداء الغايةِ مَجَازًا مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحذوف وَقَعَ صِفَةً لرسول ، مُؤَكِّدَةً لِمَا أفاده التَّنْوِينُ مِن الفَخَامَةِ الذاتيَّةِ بالفَخَامَةِ الإضافيَّة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أمِين ﴾ [الأعراف : ٦٨] .

قالَ النَّبِيُّ هُود ﷺ لِقَوْمِه : أُبَلِّغُكُم أوامرَ اللَّهِ تعالى كاملةً بلا زيادة ولا نُقْصَان ، وأنا لَكُم نَاصِحٌ فِيما أدْعُوكم إلَيْه ، أمين على الرِّسَالَة ، لا أكذِب فيها ، ولا أخُون . والآيةُ تَشتمل على تَنبيه على أنَّهُم عَرَفُوه بالأمْرَيْن : ناصح وأمين . وهذه الصِّفَات التي يَتَّصِف بِها الرُّسُلُ الكِرَام عليهم الصلاة والسلام: البَلاغُ والنُّصْحُ والأمانةُ . وقال أبو السُّعُود في تفسيره (٣ / ٢٣٨) : ((﴿ وَأنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أمِين ﴾ ، مَعروف بالنُّصْحِ والأمانةِ ، مَشهور بَيْن الناس بذلك . وإنَّما جِيء بالجُملة الاسميَّة دَلالة على الثَّبَات والاستمرار ، وإيذانًا بأنَّ مَن هذا حَالُه لا يَحُوم حَوْلَه شائبة السَّفَاهَة)) .

وجَوَابُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام للذينَ نَسَبُوهُم إلى السَّفَاهَةِ والضَّلالَةِ ، يَدُلُّ على الحِلْمِ الكاملِ والأدبِ الحَسَنِ والخُلُقِ العظيمِ . وفي هذا تعليمٌ للعِبَادِ وإرشادٌ لهم كَيْفَ يُخَاطِبُون السُّفَهَاءَ ، ويُقَابِلُون إساءتهم بالإحسانِ .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٥٢٣) : ((يَعْني بِقَوْله : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي ﴾ أُؤَدِّي ذلك إلَيكُم أيُّها القَوْمُ ، ﴿ وَأنَا لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾ يَقُول : وأنا لَكُم في أمْرِي إيَّاكم بِعِبادةِ اللَّهِ دُون مَا سِوَاه مِن الأندادِ والآلهةِ ، ودُعائكم إلى تَصْديقي فِيما جِئْتُكُم بِه مِن عِند اللَّهِ ، نَاصِحٌ ، فَاقْبَلُوا نَصِيحتي ، فإنِّي أمين عَلى وَحْي اللَّهِ ، وعَلى مَا ائتمنني اللَّهُ عليه مِن الرِّسَالة ، لا أكْذِب فيه ، ولا أزيد ، ولا أُبَدِّل ، بَلْ أُبَلِّغ مَا أُمِرْتُ كَمَا أُمِرْتُ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أوَ عَجِبْتُمْ أن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِن رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ في الخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ [الأعراف : ٦٩] .

قالَ النَّبِيُّ هُود ﷺ لِقَوْمِه: لا تَعْجَبُوا أن بَعَثَ اللَّهُ إلَيكُم رَسُولًا مِن أنفُسِكم لِيُنذركم لِقَاءَ اللَّهِ ، ويُخَوِّفَكُم عَذَابَه ، بَل اشكُروا اللَّهَ على ذلك ، واذكُروا نِعْمَةَ اللَّهِ العظيمةَ حِينَ استخلفكم في الأرض بعد إهلاك قَوْمِ نُوح ﷺ ، وزادَ في أجسامِكم قُوَّةً وضَخَامَةً ، فاذكُروا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيكُم كَي تُفْلِحُوا وتَفُوزوا بالسَّعَادَةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ . وذِكْرُ النِّعْمَةِ سببٌ باعثٌ على شُكْرِها ، ومَن شَكَرَ فَقَدْ أفلحَ . والآيةُ : ﴿ فَاذكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ﴾ تَكريرٌ للتَّذكيرِ لزيادةِ التَّقرير ، وتَعميمٌ بَعْد تَخْصيص .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٥٢٣) : ((﴿ أوَ عَجِبْتُمْ أن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِن رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ ، يَقُول : أوَ عَجِبْتُم أن أنزلَ اللَّهُ وَحْيَه بِتَذكيركم وعِظَتكم على مَا أنتم عَلَيه مُقِيمون مِن الضَّلالةِ ، على رَجُل مِنكُم ، لِيُنذركم بأسَ اللَّهِ ، ويُخَوِّفَكُم عِقَابَه ، ﴿ وَاذكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ ، يَقُول : فَاتَّقُوا اللَّهَ في أنفُسِكم ، واذكُروا مَا حَلَّ بِقَوْمِ نُوح مِن العَذابِ إذْ عَصَوْا رَسُولَهم ، وكَفَرُوا بِرَبِّهِم ، فإنَّكُم إنَّما جَعَلَكُم رَبُّكُم خُلَفَاءَ في الأرض مِنهُم ، لمَّا أهْلَكَهُم أبْدَلَكُم مِنهُم فِيها ، فاتَّقُوا اللَّهَ أن يُحِلَّ بِكُم نظيرَ مَا حَلَّ بِهِم مِن العُقوبةِ ، فَيُهْلِكَكُم ويُبْدِلَ مِنكُم غَيْرَكم ، سُنَّته في قَوْمِ نُوح قَبْلَكم على مَعصيتكم إيَّاه وكُفْركم به ، ﴿ وَزَادَكُمْ في الخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ ، زادَ في أجسامِكم طُولًا وعِظَمًا على أجسام قَوْمِ نُوح ، وفي قُوَاكم على قُوَاهم ، نِعْمَة مِنْه بذلك عَلَيكُم ، فَاذكُروا نِعَمَه وفَضْلَه الذي فَضَّلَكُم بِه عَلَيهِم في أجسامِكم وقُوَاكم ، واشكُروا اللَّهَ عَلى ذلك بإخلاصِ العِبادة له ، وتَرْكِ الإشراك بِه ، وهَجْرِ الأوثانِ والأندادِ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ ، يَقُول : كَي تُفْلِحُوا فَتُدْرِكُوا الخُلودَ والبَقَاءَ في النَّعِيمِ في الآخِرَةِ ، وتَنْجَحُوا في طَلِبَاتِكُم عِنده)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالُوا أجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأعراف : ٧٠] .

قَالَ قَوْمُ هُود ﷺ له : أجِئْتَنَا كَي نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَه ونَتْرُكَ عِبَادَةَ الآلهةِ والأصنامِ ؟ ، وهذا استبعادٌ مِنهُم لِتوحيدِ اللَّهِ تعالى والإعراضِ عَمَّا أشركَ بِهِ آباؤُهُم ، انهماكًا في التَّقليدِ ، وحُبًّا لِمَا أَلِفُوه ، وتَعَوَّدُوا عَلَيه ، مِمَّا يَدُلُّ على تَمَرُّدِهِم وطُغيانِهِم وعِنَادِهِم . فَأتِنَا يا هُودُ بِمَا تَعِدُنا بِه مِن العَذابِ إن كُنتَ مِنَ الصادقين في قَوْلِكَ .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٥٢٨) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : قالت عَادٌ لَهُ : أجِئْتَنَا تَتَوَعَّدُنَا بالعِقَاب مِن اللَّهِ عَلى مَا نَحْنُ عَلَيه مِن الدِّينِ ، كَي نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَه ، ونَدِين لَهُ بالطاعة خالصًا ، ونَهْجُر عِبادةَ الآلهةِ والأصنامِ التي كانَ آباؤُنا يَعْبُدُونها ونَتَبَرَّأ مِنها ؟ ، فَلَسْنَا فَاعِلِي ذلك

ولا نَحْنُ مُتَّبِعُوك عَلى مَا تَدْعُونا إلَيْه ، فَائْتِنَا بِمَا تَعِدُنا مِن العِقَابِ والعَذابِ عَلى تَركِنا إخلاص التَّوحيد للَّهِ، وعِبادتنا مَا نَعْبُد مِن دُونِه مِن الأوثان إن كُنتَ مِن أهْلِ الصِّدْق على مَا تَقُول وَتَعِد)).

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٣١٨) : ((قَوْلُه : ﴿ قَالُوا أجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ﴾ ، هذا استنكارٌ مِنهُم لِدُعَائِه إلى عِبادةِ اللَّهِ وَحْدَه دُون مَعْبوداتهم التي جَعَلُوها شُرَكَاءَ للَّهِ ، وإنَّما كانَ هَذا مُسْتَنْكَرًا عِندَهم لأنَّهُم وَجَدُوا آباءَهم عَلى خِلاف مَا دَعَاهُم إلَيه ﴿ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ أي : نَتْرُك الذي كانوا يَعْبُدُونه ، وهذا دَاخِل في جُمْلَة مَا اسْتَنْكَرُوه . قَوْلُه : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ ، هذا استعجالٌ مِنهُم للعَذابِ الذي كان هُود يَعِدُهم بِه لِشِدَّة تَمَرُّدِهم على اللَّهِ ، ونُكُوصِهم عَن طريق الحق ، وبُعْدِهم عن اتِّبَاع الصَّوَاب)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أتُجَادِلُونَنِي في أسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إنِّي مَعَكُم مِنَ المُنتَظِرِين ﴾ [الأعراف : ٧١] .

قالَ النَّبِيُّ هُود ﷺ لِقَوْمِه : قَدْ وَجَبَ عَلَيْكِم مِنَ اللَّهِ عَذابٌ وَسَخَط ، أتُخَاصِمُونَنِي في أصنامٍ لا تَضُرُّ ولا تَنْفَع ، سَمَّيْتُمُوهَا آلِهَةً أنتُم وآباؤُكُم ، وَلَيْسَ فِيها مَعنى الأُلُوهِيَّةِ ، لأنَّ المُسْتَحِقَّ للأُلُوهِيَّةِ والعِبَادَةِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَه ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، لَمَّا دَعَاهُم رَسُولُهم هُود ﷺ إلى التَّوحيدِ اسْتَنْكَرُوا عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَه ، مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِعِبَادَةِ هذه الأصنامِ الآلِهَةِ الباطلةِ مِن حُجَّةٍ أوْ بُرْهَان ، فَانتَظِرُوا نُزولَ العذابِ ، إنِّي مِنَ المُنتظِرين لِمَا يَحِلُّ بِكُم ، وهذا غاية الوَعيدِ والتَّهديدِ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٣١٨) : ((فأجابَهم بِقَوْلِه : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ ، جَعَلَ مَا هُوَ مُتَوَقَّع كالواقعِ تَنبيهًا على تَحَقُّق وُقوعه ، كما ذَكَرَه أئمةُ المَعَاني والبَيَانِ. وقِيل : مَعْنَى " وَقَعَ " : وَجَبَ ، والرِّجْسُ : العَذاب . وقِيل : هُوَ هُنَا الرَّيْنُ عَلى القَلْبِ بزيادة الكُفْر ، ثُمَّ استنكرَ عَلَيهم مَا وَقَعَ مِنهُم مِن المُجَادَلَة ، فقال : ﴿ أتُجَادِلُونَنِي في أسْمَاءٍ ﴾ ، يَعْني أسماء الأصنام التي كانوا يَعْبُدُونها ، جَعَلَهَا أسماءً ، لأنَّ مُسَمَّيَاتِهَا لا حقيقة لها ، بَلْ تَسْميتها بالآلهة باطلة ، فكأنَّها مَعدومة لَمْ تُوجَدْ ، بَل المَوجود أسماؤُها فقط ، ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا أنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ ، أي : سَمَّيْتُم بِها مَعبوداتِكم مِن جِهة أنفُسِكم أنتم وآباؤكم ، ولا حقيقة لذلك ، ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ ، أي : مِن حُجَّةٍ تَحْتَجُّون بِها عَلى مَا تَدَّعُونه لها مِن الدَّعَاوَي الباطلة ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُم بأشدِّ وَعيد ، فقال: ﴿ فَانتَظِرُوا إنِّي مَعَكُم مِنَ المُنتَظِرِين ﴾ ، أي : فَانتظِرُوا مَا طَلَبْتُمُوه مِن العَذابِ ، فإنِّي مَعَكُم مِن المُنتظِرين له ، وَهُوَ واقعٌ بِكُم لا مَحَالَة ، ونازلٌ عَلَيْكُم بِلا شَك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأنجَيْنَاهُ وَالذينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤمِنِين ﴾ [الأعراف : ٧٢] . فأنجَى اللَّهُ هُودًا ﷺ والذينَ مَعَهُ مِنَ المُؤمنين بِه مِن العَذابِ النازلِ بِمَن كَفَرَ بِه ، ولَمْ يَقْبَلْ رِسَالَتَه ، رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَهُم ، واستأصلَ اللَّهُ الكافرين بالكُلِّيةِ ، وأهْلَكَهُم عَن آخِرِهِم ، ولَمْ يَكُونوا مُصَدِّقِين بِوَحدانيَّةِ اللَّهِ ونُبُوَّةِ هُود ﷺ ، فاستحقوا العذابَ الأليمَ . لَقَدْ أَصَرُّوا عَلى الكُفْرِ والتَّكذيبِ ، وَلَمْ يَرْعَوُوا عن ذلك أبدًا ، فَأَهْلَكَهُم اللَّهُ بالرِّيحِ العَقِيمِ .

﴿ وَمَا كَانُوا مُؤمِنِين ﴾ مَعطوفة عَلى ﴿ كَذَّبُوا ﴾ ، أي : اسْتَأصَلْنَا هؤلاء القَوْم الجامعين بَيْن التَّكذيبِ بآياتِنا وعَدَمِ الإيمان .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٥٢٩) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : فَأنجَيْنَا هُودًا والذينَ مَعَهُ مِن أتْبَاعِه على الإيمان بِه والتَّصديق بِه ، وبِما دَعَا إلَيه مِن تَوحيدِ اللَّهِ وهَجْرِ الآلهةِ والأوثانِ ﴿ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ، يَقُول : وأهْلَكْنَا الذينَ كَذَّبُوا مِن قَوْمِ هُود بِحُجَجِنَا جَمِيعًا عَن آخِرِهِم ، فَلَمْ نُبْقِ مِنهُم أحدًا . ... . ﴿ وَمَا كَانُوا مُؤمِنِين ﴾ ، يَقُول : لَمْ يَكُونوا مُصَدِّقِين باللَّهِ ولا بِرَسُولِه هُود)) .

١٤ــ ثَمُود (قَوْم صالح)

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإلى ثَمُودَ أخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أليم ﴾ [الأعراف : ٧٣] [٢٤] .

---

٢٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٢٢٣ و٢٢٤) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَإلى ثَمُودَ ﴾ ، قال أبو عمرو بن العلاء: سُميت ثمود لِقِلَّةِ مائها . قال ابن فارس: الثَّمَد : الماء القليل الذي لا مَادَّة له . قَوْلُه تَعَالى : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ في إضافتها إليه قَوْلان : أحدهما أنَّ ذلك للتَّخصيصِ والتَّفضيلِ ، كَمَا يُقَال : بَيْت اللَّه ، والثاني لأنها كانت بِتَكْوِينه مِن غَيْر سَبَب. قَوْلُه تعالى: ﴿ لَكُمْ آيَةً ﴾ ، أي : عَلامَة تَدُلُّ على قُدرة اللَّه ، وإنَّما قال : ﴿ لَكُمْ ﴾ لأنَّهُم هُم الذين اقترحوها،وإنْ كانت آيةً لَهُم وَلِغَيْرِهِم.وفي وَجْهِ كَوْنها آية قَولان: أحدهما أنها خَرَجَتْ مِن صَخْرة مَلْسَاء،فَتَمَخَّضَتْ بها تَمَخُّضَ الحامل،ثم انفلقتْ عَنها عَلى الصِّفَة التي طَلَبُوها.والثاني أنها كانت تَشْرَب ماءَ الوادي كُلَّه في يَوْم،وتَسْقيهم اللبنَ مَكَانَه.قَوْلُه تعالى : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أرْضِ اللَّهِ ﴾ ، قال ابنُ الأنباري : لَيْسَ عَلَيْكُم مُؤْنَتُهَا وعَلَفُهَا ، و" تَأْكُلْ " مجزوم على جواب الشرط الْمُقَدَّر، أي: إن تَذَرُوهَا تَأْكُلْ . قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ أي: لا تُصِيبوها بِعَقْر)) .

أرسلَ اللَّهُ النَّبيَّ صَالِحًا ﷺ إلى ثَمُود ، وَهُوَ أخُوهُم في النَّسَبِ لا في الدِّينِ. وكانت مَسَاكِنُهُم الحِجْر بَيْن الحِجَازِ والشَّام إلى وادي القُرَى . قال النَّبِيُّ صالح ﷺ لِثَمُود : يا قَوْمِ ، وَحِّدُوا اللَّهَ ، ولا تُشركوا بِه ، وهذه دَعْوَةُ جميع الرُّسُلِ عليهم الصلاة والسلام ، حَيْث يَدْعُون إلى عِبادةِ اللَّهِ وَحْدَه لا شريك له . قَدْ جَاءَتْكُم مُعْجِزَةٌ ظاهرةٌ جَلِيَّة تَدُلُّ عَلى صِحَّةِ نُبُوَّتي ، هذه النَّاقَةُ مُعْجِزتي إلَيْكُم، وأضافها إلى اللَّهِ للتَّشريفِ والتَّعظيمِ ، لأنَّها خُلِقَتْ بِغَيْر واسطة ، حَيْث خَرَجَتْ مِن الحَجَرِ الصَّلْدِ، فاتركُوهَا تَأكُلْ مِن رِزْقِ اللَّهِ في أرْضِه ، فهي ناقةُ اللَّهِ ، فلا تَمْنَعُوها مِمَّا لَيْسَ لَكُم ولا تَمْلِكُونه ، وقَدْ سَهَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُم أمْرَها ، فَلَيْسَ عَلَيْكُم رِزْقُها ولا مُؤْنَتُهَا ، ولا تَتَعَرَّضُوا لها بِشَيْءٍ مِنَ السُّوءِ إكرامًا لها ، لأنَّها آيةُ اللَّهِ تعالى ، وإذا لَمْ تَتركوا مَسَّهَا بِشَيْءٍ مِنَ السُّوءِ أخذكم عذاب شديد الأَلَم. والتَّنكيرُ في ﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ للتَّقْليلِ والتَّحْقيرِ ، أي : لا تَمَسُّوهَا بأدنى سُوء .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٥٣٠) : ((وإلى بَنِي ثَمُود أخاهم صالحًا . وإنَّما مُنِعَ ثَمُود مِن الصَّرْفِ لأنَّ ثَمُود قبيلة كما بَكْر قبيلة ، وكذلك تَمِيم. ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ، يَقُول : قال صالح لِثَمُود : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَه لا شريك له ، فَمَا لَكُم إلَهٌ يَجُوز لَكُم أن تَعْبُدُوه غَيْرُه ، وقَدْ جاءتكم حُجَّةٌ وبُرْهَان على صِدْق مَا أقُول ، وحَقيقةِ مَا إلَيْه أدْعُو مِن إخلاصِ التَّوحيدِ للَّهِ ، وإفرادِه بالعِبَادَةِ دُون مَا سِوَاه ، وتَصْديقي عَلى أنِّي له رَسُول ، وبَيِّنَتي عَلى مَا أقُول ، وحَقيقةِ مَا جِئْتُكُم بِه مِن عِند رَبِّي ، وحُجَّتي عَلَيه هذه النَّاقَة التي أخرجها اللَّهُ مِن هذه الهَضَبَةِ دَليلًا عَلى نُبُوَّتي ، وصِدْقِ مَقَالتي ، فَقَدْ عَلِمْتُم أنَّ ذلك مِن المُعْجِزَاتِ التي لا يَقْدِر على مِثْلِهَا أحَدٌ إلا اللَّه . وإنَّما استشهدَ صالحٌ فِيما بَلَغَني عَلى صِحَّةِ نُبُوَّتِه عِند قَوْمِه ثَمُود بالنَّاقَة ، لأنَّهُم سَألوه إيَّاها آيةً ، ودَلالةً عَلى حَقيقةِ قَوْلِه)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١ / ٣٥) : ((وإضافةُ النَّاقَةِ إلى اللَّهِ لِتَعظيمها ، ولأنَّهَا جاءتْ مِن عِنده بِلا وسائط وأسباب معهودة ، ولذلك كانت آيَةً ، ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أرْضِ اللَّهِ ﴾ العُشْبَ ، ﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ ، نَهَى عَن المَسِّ الذي هُوَ مُقَدِّمَة الإصابة بالسُّوء الجامع لأنواع الأذى مُبَالَغَةً في الأمْرِ ، وإزاحةً للعُذرِ ، ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أليم ﴾ جَوَاب النَّهْي)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ في الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِين ﴾ [الأعراف: ٧٤] .

قالَ النَّبِيُّ صالح ﷺ لِقَوْمِه ثَمُود واعظًا لهم : واذكُروا نِعمةَ اللَّهِ عَلَيكُم إذ استخلفكم في الأرضِ بَعْدَ إهلاكِ عاد ، وَلَمْ يَقُلْ : خُلَفَاء عاد ، إشارة إلى أنَّ بَينهما زَمَنًا طَويلًا . وأسكنكم اللَّهُ

في أرضِ الحِجْرِ تَبْنُون في سُهولها قُصورًا رفيعةً ، وَتَنْحِتُون الجِبَالَ لِسُكْناكُم . وكانوا يَسْكُنُونها بالشِّتَاءِ ، ويَسْكُنُون القُصُورَ بالصَّيْف . وقد كانوا لِقُوَّتهم وصَلابةِ أبدانِهم يَنْحِتُون الجِبَالَ ، فَيَتَّخِذُون فِيها كُهُوفًا يَسْكُنون فيها ، لأنَّ الأبنية والسُّقُوف كانتْ تَفْنى قَبْل فَنَاءِ أعمارهم . ولا شَكَّ أنَّ اتِّخَاذَ البُيُوتِ في الجِبَالِ يَدُلُّ على طُولِ أعمارهم . فاذكُروا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيكُم ، واشكُرُوه عَلى مَا تَفَضَّلَ بِه ، ولا تَعِيثوا في الأرضِ فَسَادًا .

وقال القُرطبي في تفسيره (٧ / ٢١٣) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَبَوَّأَكُمْ في الأَرْضِ ﴾ فيه مَحذوف ، أي : وَبَوَّأكم في الأرض منازل ، ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ ، أي : تَبْنُون القُصُورَ بِكُلِّ مَوْضِع ، ﴿ وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ ، اتَّخَذُوا البُيُوتَ في الجِبَالِ لِطُولِ أعمارهم ، فإنَّ السُّقُوف والأبنية كانت تَبْلَى قَبْلَ فَنَاءِ أعمارهم . ... . استدلَّ بهذه الآية مَن أجازَ البِنَاءَ الرَّفيع كالقُصُور ونَحْوِها ، وبِقَوْلِه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] . ذُكِرَ أنَّ ابْنًا لِمُحَمَّد بن سِيرين بَنَى دارًا ، وأنفقَ فيها مالًا كثيرًا ، فَذُكِرَ ذلك لِمُحَمَّد بن سِيرين ، فقال : مَا أرى بأسًا أن يَبْنِيَ الرَّجُلُ بِنَاءً يَنفعه . وَرُوِيَ أنَّه عليه السلام قال : " إذا أنعمَ اللَّهُ على عَبْدٍ أحَبَّ أن يَرَى أثرَ النِّعْمَة عَلَيه " . ومِن آثار النِّعمة البِنَاءُ الحَسَن ، والثِّيَابُ الحَسَنَة ، ألا تَرَى لَوْ أنَّه اشترى جاريةً جميلة بمال عظيم ، فإنَّه يَجُوز ، وقَدْ يَكْفيه دُون ذلك، فكذلك البِنَاء، وكَرِهَ ذلك آخَرُون مِنهُم الحَسَن البَصْرِي وغَيْرُه، واحتجوا بِقَوْلِه عليه السلام: " إذا أرادَ اللَّهُ بعبدٍ شَرًّا أهلكَ مَالَه في الطِّينِ واللَّبِنِ " . وفي خَبَر آخَر عَنْه أنَّه عليه السلام قال : " مَنْ بَنَى فَوْقَ مَا يَكْفيه جاءَ بِهِ يَوْمَ القِيامة يَحْمِلُه عَلى عُنُقِه " . قُلْتُ : بهذا أقُول ، لِقَوْلِه عَلَيه السَّلام: " ومَا أنفقَ المُؤمنُ مِن نَفَقَةٍ فإنَّ خَلَفَهَا عَلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إلا مَا كان في بُنيان أوْ مَعصية". رواه جابر بن عبد اللَّه ، وخَرَّجَه الدَّارَقُطْني وقَوْلُه عليه السلام : " لَيْسَ لابْنِ آدَمَ حَقٌّ في سِوَى هذه الخِصَالِ ، بَيْتٌ يَسْكُنُه ، وثَوْبٌ يُوَاري عَوْرَتَه ، وجِلْفُ الخُبْزِ والمَاءِ " ، أخرجه التِّرمذيُّ . قَوْلُه تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ﴾ ، أي : نِعَمَه ، وهذا يدلُّ على أنَّ الكُفَّار مُنْعَم عَلَيْهِم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالَ المَلَأُ الذينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلذينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِن رَبِّهِ قَالُوا إنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤمِنُون ﴾ [الأعراف : ٧٥] .

قال الأشرافُ وزُعَمَاءُ الكُفَّارِ الذينَ استكبروا عن عِبَادَةِ اللَّهِ مِن قَوْمِ النَّبِيِّ ﷺ صالح للمُؤمنين المساكين مِن أتْبَاعِه : أتَعْلَمُون أنَّ اللَّهَ أرسلَ صالحًا إلَيْنَا وإلَيْكُم ؟ ، وهذا قالوه على سبيل السُّخْرية والاستهزاء . أجابهم المؤمنون بالأسلوب الحكيم بالإيمان برسالته . وعُدُولُهُم عَن قَوْلِهِم:

هُوَ مُرْسَل ، إلى قَوْلِهِم : ﴿ إنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤمِنُون ﴾ ، تَنْبيهًا إلى أنَّ أمْرَ رِسالته مَعْلُومٌ واضحٌ مُسَلَّم ، لا يَدْخُله شَك ، ولا يَخْفَى على ذِي رَأي ، ولا يُحتاج أن يُسْأل عَن رِسَالته ، وإنَّما الكلام فِيمَن آمَنَ بِهِ ومَنْ كَفَرَ .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٥٣٧) : ((يَعْني جَلَّ ثَنَاؤُه بِقَوْلِه : ﴿ قَالَ المَلَأُ الذينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ . قال الجماعة الذين استكبروا مِن قَوْمِ صالح عن اتِّبَاع صالح والإيمانِ باللَّهِ وبِهِ ﴿ لِلذينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ ، يَعْنِي : لأهْلِ المَسْكَنَةِ مِن أتْبَاع صالح والمُؤمنين بِهِ مِنهُم ، دُون ذَوِي شَرَفِهِم وأهْلِ السُّؤدُدِ مِنهُم: ﴿ أتَعْلَمُونَ أنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِن رَبِّهِ ﴾ أرْسَلَه اللَّهُ إلَيْنَا وإلَيْكُم ؟ ، قال الذين آمنوا بصالح مِنَ المُسْتَضْعَفِين مِنهُم : إنَّا بِمَا أرسلَ اللَّهُ به صالحًا مِنَ الحَقِّ والهُدى مُؤمنون، يَقُول : مُصَدِّقُون مُقِرُّون أنَّه مِن عِند اللَّه ، وأنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِه ، وعَن أمْرِ اللَّهِ دَعَانا صالحٌ إلَيْه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٣٢١) : ((﴿ قَالَ المَلَأُ الذينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ ، أي : قال الرُّؤَسَاء المُسْتَكْبِرُون مِن قَوْمِ صالح للمُسْتَضْعَفِين ، الذين استضعفهم المُسْتَكْبِرُون . و ﴿ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ بَدَل مِنَ الذينَ اسْتُضْعِفُوا ، بإعادة حَرْفِ الجَرِّ ، بَدَل البَعْض مِن الكُلِّ ، لأنَّ مِن المُسْتَضْعَفِين مَن لَيْسَ بِمُؤمِن ، هذا على عَوْد ضمير ﴿ مِنْهُمْ ﴾ إلى الذين اسْتُضْعِفُوا ، فإنْ عادَ إلى ﴿ قَوْمِهِ ﴾ كانَ بَدَل كُلٍّ مِن المُسْتَضْعَفِين . ومَقُول القَوْل : ﴿ أتَعْلَمُونَ أنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِن رَبِّهِ ﴾ ، قالوا هذا عن طريق الاستهزاءِ والسُّخْرية. قَوْلُه: ﴿قَالُوا إنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤمِنُون ﴾ أجابوهم بأنَّهُم مُؤمنون برسالته ، معَ كَوْن سُؤال المُسْتَكْبِرين لَهُم إنَّما هُوَ عَن العِلْم مِنهُم ، هَلْ تَعْلَمُون برسالته أَمْ لا ؟ ، مُسَارَعَةً إلى إظهار مَا لَهُم مِن الإيمان ، وتَنْبيهًا عَلى أنَّ كَوْنَه مُرْسَلًا أمْرٌ واضح مكشوف ، لا يَحتاج إلى السُّؤال عنه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالَ الذينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا بِالذي آمَنتُم بِهِ كافرون ﴾ [الأعراف : ٧٦] .

قالَ المُسْتَكْبِرُون : نَحْنُ كافرون بِما صَدَّقْتُم بِه مِن نُبُوَّة صالح . وإنَّما لَمْ يَقُولوا : إنَّا بِما أُرْسِلَ بِه كافرون ، إظهارًا لِمُخالفتهم إيَّاهم ، وَرَدًّا لِمَقالتهم . وقَوْلُ المُسْتَكْبِرين : ﴿ إنَّا بِالذي آمَنتُم بِهِ كافرون ﴾ على وَجْهِ المُقَابَلَةِ لِقَوْلِ المُسْتَضْعَفِين : ﴿ إنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤمِنُون ﴾ . وَوَضَعُوا ﴿ آمَنتُم بِهِ ﴾ مَوْضِعَ ﴿ أُرْسِلَ بِهِ ﴾ رَدًّا لِمَا جَعَلَه المُسْتَضْعَفُون واضحًا مَعلومًا مُسَلَّمًا .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٥٣٧) : ((﴿ قَالَ الذينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عَن أمْرِ اللَّهِ وأمْرِ رَسُولِه صالح : ﴿ إنَّا ﴾ أيُّها القَوْمُ ﴿ بِالذي آمَنتُم بِهِ ﴾ ، يَقُول : صَدَّقْتُم بِه مِن نُبُوَّةِ صالح ، وأنَّ الذي جاءَ بِه حَق مِن عِند اللَّهِ ﴿ كافرون ﴾ ، يَقُول : جَاحِدُون مُنكِرُون ، لا نُصَدِّق بِهِ ولا نُقِر)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إن كُنتَ مِنَ المُرْسَلِين ﴾ [الأعراف : ٧٧] .

نَحَرُوا الناقةَ ، واسْتَكْبَرُوا عَن امتثالِ أمْرِ اللَّهِ ، وقالوا : جِئْنَا يا صالح بِما تَعِدُنا مِن العَذابِ الذي تُخَوِّفُنا بِه إنْ كُنتَ للَّهِ رسولًا إلَيْنَا ، استعجالًا مِنهُم للعَذابِ ، وسُخْريةً واستهزاءً بالنَّبِيِّ صالح ﷺ ، وتَعجيزًا له .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ الذي عَقَرَ الناقةَ هُوَ " قُدَار بن سَالِف " ، وإنَّما نَسَبَ اللَّهُ الفِعْلَ إلَيهم جميعًا في قَوْلِه تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ ، لأنَّه كانَ بِرِضَاهُم وأمْرِهِم ، والراضي بالعمل القبيح شريكٌ في الجريمة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٢١) : ((قَوْلُه : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ . العَقْر : الجَرْح. وقِيل : قَطْع عُضْو يُؤَثِّر في تَلَفِ النَّفْسِ ، يُقَال : عَقَرْت الفَرَسَ : إذا ضَرَبْت قوائمَه بالسَّيْف ، وقِيل: أصْلُ العَقْرِ : كَسْر عُرْقُوب البَعِير ، ثُمَّ قِيل للنَّحْرِ عَقْر ، لأنَّ العَقْر سبب النَّحْر في الغالب. وأسند العَقْر إلى الجميع معَ كَوْن العاقر واحدًا مِنهُم ، لأنَّهُم راضون بذلك ، مُوافِقُون عَلَيه . وقَد اخْتُلِفَ في عاقر الناقة مَا كان اسمه ؟ ، فَقِيل : قُدَار بن سَالِف ، وقِيل غَيْر ذلك ، ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ ، أي : اسْتَكْبَرُوا . ... . ﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ مِنَ العَذابِ ﴿ إن كُنتَ مِنَ المُرْسَلِين ﴾ ، هذا استعجال مِنهُم للنِّقْمَة ، وطَلَب مِنهُم لِنُزولِ العَذابِ ، وحُلُولِ البَلِيَّة بِهِم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ جَاثِمِين ﴾ [الأعراف : ٧٨] .

أخذتهم الزَّلزلةُ الشَّديدةُ فصاروا في منازلهم هامدين مَوْتَى لا حَرَاك بِهِم .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٢٤٨) : ((﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ ، وهي زَلْزَلَة الأرض وحَرَكتها ، وأُهْلِكُوا بالصَّيْحَةِ والرَّجْفَةِ ، ﴿ فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ ﴾ ، قِيل : أرادَ الدِّيَارَ ، وقِيل : أرادَ في أرْضِهم وبَلدتهم ، ولذلك وَحَّدَ الدَّارَ ، ﴿ جَاثِمِين ﴾ خَامِدِين مَيِّتِين . قِيل : سَقَطُوا عَلى وُجوههم مَوْتَى عَن آخِرِهِم)) .

عن عمرو بن خارجة ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ قال : أُحَدِّثُكُم عن رسول اللَّه ﷺ عَن ثَمُود ، وكانتْ ثَمُودُ قَوْمَ صالحٍ أعْمَرَهُمُ اللَّهُ في الدُّنيا ، فطالَ أعمارَهم حَتَّى جَعَلَ أحَدُهم يَبْني المَسْكَنَ مِنَ المَدَرِ فَيَنهدم والرَّجُلُ مِنهُم حَيٌّ ، فلمَّا رَأَوْا ذلك اتَّخَذُوا مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِين ، فَنَحَتُوها وجَابُوهَا وجَوَّفُوها ، وكانوا في سَعَةٍ مِن مَعَائِشهم ، فقالوا : يا صالح ، ادْعُ لَنَا رَبَّكَ لِيُخْرِجَ لَنَا آيَةً نَعْلَمُ أنَّكَ رسولُ اللَّه ، فَدَعَا صالحٌ رَبَّهُ ، فأخرجَ لهم الناقةَ ، وكانَ شِرْبُها يَوْمًا ، وشِرْبُهم يَوْمًا

مَعلومًا ، فإذا كانَ يَوْمُ شِرْبها خَلُّوا عَنْهَا ، وعَنِ المَاءِ ، وحَلَبُوا عَنْهَا الماءَ ، فَمَلَئُوا كُلَّ إناءٍ وَوِعَاءٍ وَسِقَاءٍ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إلى صالحٍ أنَّ قَوْمَكَ سَيَعْقِرُونَ نَاقَتَكَ ، فقال لَهُم ، فقالوا : مَا كُنَّا لِنَفْعَلَ ، قال : إنْ لَمْ تَعْقِرُوها أنتُم يُوشِكُ أن يُولَدَ فِيكُم مَولودٌ يَعْقِرُها ، قالوا : مَا عَلامَةُ ذلك المَولود فَوَاللَّهِ لا نَجِدُه إلا قَتَلْنَاه . قال : فَإنَّه غُلامٌ أشْقَرُ أزْرَقُ أصْهَب ، قال : وكانَ في المَدينةِ شَيْخَان عزيزان مَنِيعان لأحدهما ابْنٌ يَرْغَب عَن المَنَاكِح ، وللآخَرِ ابنةٌ لا يَجِدُ لها كُفُوًا ، فَجَمَعَ بَينهما مَجْلِس، فقال أحدُهما لصاحبه : مَا مَنَعَكَ أن تُزَوِّجَ ابْنَكَ ؟ ، قال : لا أجِدُ لَهُ كُفُوًا ، قال : فإنَّ ابْنَتي كُفْءٌ لَهُ ، وأنا أُزَوِّجُ ابْنَكَ ، فَزَوَّجَهُ ، فَوُلِدَ بَينهما ذلك المَولود ، وكان في المَدينةِ ثمانيةُ رَهْطٍ يُفْسِدُون في الأرض ولا يُصْلِحُون ، قال لهم صالحٌ : إنَّما يَعْقِرُها مَولودٌ فِيكُم ، فاختاروا ثمانيةَ نِسْوَةٍ قَوَابِلَ مِن القرية ، وجَعَلُوا مَعَهُم شُرَطًا ، فكانوا يَطُوفون في القَرْيَةِ ، فإذا وَجَدُوا امرأةً تُمْخَضُ نَظَرُوا مَا وَلَدُها ، فإنْ كان غُلامًا فَلَبِثُوا يَنظُرون مَا هُوَ ، وإنْ كانتْ جاريةً أعْرَضُوا عَنْهَا ، فلمَّا وَجَدُوا ذلك المَولودَ صَرَخْنَ النِّسْوَةُ ، قُلْنَ : هَذا الذي يُريدُ رسولُ اللَّهِ صَالِحٌ، فأرادَ الشُّرَطُ أن يَأخذوه ، فحالَ جَدَّاه بَيْنَهُم وبَيْنَه ، وقالوا: إنْ كانَ صالحًا أرادَ هذا قَتَلْنَاه ، وكانَ شَرَّ مَولودٍ ، وكانَ يَشِبُّ في اليَوْمِ شَبَابَ غَيْرِه في الجُمُعَةِ ، ويَشِبُّ في الجُمُعَةِ شَبَابَ غَيْرِه في الشَّهْرِ ، ويَشِبُّ في الشَّهْرِ شَبَابَ غَيْرِه في السَّنَة ، فاجتمعَ الثمانيةُ الذين يُفْسِدُون في الأرض ولا يُصْلِحُون والشَّيْخَان ، فقالوا : نَستعملُ عَلَينا هذا الغُلامَ لِمَنزلته وشَرَفِ جَدِّيْهِ ، فكانوا تِسْعَةً ، وكان صالحٌ لا يَنَامُ مَعَهُم في القرية ، بَلْ كان في البَرِّية في مَسْجَدٍ ، يُقَال له : مَسْجِدُ صالحٍ ، فِيه يَبِيتُ بالليلِ ، فإذا أصبحَ أتاهم فوعظهم وذَكَّرَهم،وإذا أمسى خَرَجَ فِيه يَبِيت بالليلِ،فَبَاتَ فيه.قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: ولمَّا أرادوا أن يَمْكُروا بصالحٍ مَشَوْا حَتَّى أَتَوْا على شِرْبٍ على طريقِ صالحٍ ، فاختبأ فِيه ثمانية ، وقالوا : إذا خَرَجَ عَلَينا قَتَلْنَاه ، وأَتَيْنَا أهلَه فَبَيَّتْنَاهُم ، فأمرَ اللَّهُ الأرضَ فَاسْتَوَتْ عَلَيهم فَاجْتَمَعُوا وَمَشَوْا إلى الناقةِ ، وَهِيَ عَلى حَوْضِها قائمة ، فقال الشَّقِيُّ لأحَدِهِم : ائْتِهَا فَاعْقِرْهَا ، فأتاها فَتَعَاظَمَه ذلك ، فأضربَ عَن ذلك ، فَبَعَثَ آخَرَ فأعظمَ ذلك ، فَجَعَلَ لا يَبْعَثُ رَجُلًا إلا يُعَاظِمُهُ ذلك مِن أمْرِها حَتَّى مَشَى إلَيها ، وتَطَاوَلَ فَضَرَبَ عُرْقُوبَها ، فَوَقَعَتْ تَركضُ ، فأتى رَجُلٌ مِنهُم صالحًا ، فقال : أدْرِكِ الناقةَ فَقَدْ عُقِرَتْ ، فأقبلَ وَخَرَجُوا يَتَلَقَّوْنَهُ ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، إنَّما عَقَرَهَا فُلانٌ لا ذَنْبَ لَنَا، قال : انظُروا هَلْ تُدركون فَصِيلَها ، فإنْ أدركتموها فَعَسَى اللَّهُ أن يَرْفَعَ عَنكُمُ العَذابَ، فَخَرَجُوا يَطْلُبونه ، ولمَّا رأى الفَصِيلُ أُمَّهُ تَضطرب أتَى جَبَلًا يُقَال له الغَارَةُ قَصِيرًا ، فَصَعِدَ وذَهَبُوا يَأخذوه ، فأوحى اللَّهُ إلى الجَبَلِ فطارَ في السَّمَاءِ حتى مَا يَنَالُه الطَّيْرُ ، قال : وَدَخَلَ صالحٌ القريةَ،

فَلَمَّا رَآهُ الفَصِيلُ بَكَى حَتَّى سالتْ دُمُوعُه ، ثُمَّ استقبلَ صالحًا ، فَرَغَا رَغْوَةً ، ثُمَّ أُخْرَى ، ثُمَّ رَغَا أُخْرَى ، فقال صالح : لِكُلِّ رَغْوَةٍ أجَلُ يَوْمٍ ، تَمَتَّعُوا في داركم ثلاثةَ أيام ، ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكذوب، إلا أنَّ آيةَ العَذابِ أنَّ اليَوْمَ الأوَّلَ تُصبح وُجُوهُهُم مُصْفَرَّةً ، واليَوْمَ الثاني مُحْمَرَّةً ، واليَوْمَ الثالثَ مُسْوَدَّةً ، فلمَّا أصبحوا إذا وُجُوهُهم كأنَّما طُلِيَتْ بالخَلُوقِ ، صَغِيرَهم وكَبيرَهم ، ذَكَرَهم وإناثَهم ، فلمَّا أمْسَوْا صاحوا بأجمعهم ألا قَدْ مَضَى يَوْمٌ مِنَ الأجَلِ وَحَضَرَكُم العَذابُ ، فلمَّا أصْبَحُوا يَوْمَ الثاني إذا وُجُوهُهُم مُحْمَرَّةٌ كأنَّما خُضِبَتْ بالدِّمَاءِ ، فَصَاحُوا وضَجُّوا وبَكَوْا وعَرَفُوا أنَّه العَذاب ، فلمَّا أَمْسَوْا صاحوا بأجمعهم ألا قَدْ مَضَى يَوْمَان مِنَ الأجَلِ وحَضَرَكُم العَذابُ ، فلمَّا أصبحوا اليَوْمَ الثالثَ إذا وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ كأنَّما طُلِيَتْ بالقَارِ ، فصاحوا جميعًا ألا قَدْ حَضَرَكُم العَذابُ ، فَتَكَفَّنُوا وتَحَنَّطُوا ، وكانَ حَنُوطَهُم الصَّبْرُ والمُرُّ ، وكانت أكفانُهم الأنطاعَ ، ثُمَّ ألْقَوْا أنفُسَهم بالأرضِ ، فَجَعَلُوا يُقَلِّبُون أبصارَهم إلى السَّمَاءِ مَرَّةً ، وإلى الأرضِ مَرَّةً ، لا يَدْرُونَ مِن حَيْث يَأتيهم العَذابُ مِنْ فَوْقِهِم مِن السَّمَاءِ ، أوْ مِن تَحْتِ أرْجُلِهِم مِنَ الأرضِ خُشَّعًا وفُرُقًا ، فلمَّا أصبحوا اليَوْمَ الرابعَ أتَتْهُم صَيحةٌ مِنَ السَّماءِ فِيها صَوْتُ كُلِّ صَاعقةٍ ، وصَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ صَوْتٌ في الأرضِ ، فَتَقَطَّعَتْ قُلُوبُهُم في صُدورهم ، فأصبحوا في دِيارهم جاثمين [٢٥] .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لا تُحِبُّونَ الناصحين ﴾ [الأعراف: ٧٩].أعرضَ عَنهُم النَّبِيُّ صالح ﷺ بَعْدَ نُزولِ العَذابِ بِهِم وهَلاكِهِم،وقالَ عَلى سَبيلِ التَّفَجُّعِ والتَّحَسُّرِ عَلَيهِم: لَقَدْ بَلَّغْتُكُم الرِّسَالةَ الإلهيَّةَ ، وحَذَّرْتُكُم عَذابَ اللَّهِ تعالى، وَبَذَلْتُ وُسْعِي في نَصِيحتكم، ولكن شأنكم الاستمرار على بُغْضِ الناصحين وعَداوتهم.

والآيةُ : ﴿ وَلَكِن لا تُحِبُّونَ الناصحين ﴾ حِكَاية حال مَاضِيَة ، قَدْ يَقُول الرَّجُل لصاحبه وهو مَيِّت _ وكانَ قَدْ نَصَحَه حَيًّا فَلَمْ يَسْمَعْ مِنْه حتى ألقى بِنَفْسِه في التَّهْلُكَةِ _ : يَا أخي كَمْ نَصَحْتُكَ وأرشدتك وكَمْ قُلْتُ لَكَ فَلَمْ تَقْبَلْ مِنِّي ؟ . وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٠٧) : ((هذا تَقْرِيعٌ مِن صالح عليه السلام لِقَوْمِه ، لمَّا أهلكهم اللَّهُ بِمُخالفتهم إيَّاه ، وتَمَرُّدهم على اللَّه ، وإبائهم عَن قَبول الحَقِّ ، وإعراضهم عن الهُدى إلى العَمَى . قال لهم صالح ذلك بَعْد هلاكهم

---

٢٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٦١٧) برقم (٤٠٦٩) ، وقال : هذا حديثٌ جامعٌ لِذِكْرِ هَلاكِ آل ثَمُود ، تَفَرَّدَ به شَهْر بن حَوْشَب ، ولَيْسَ له إسنادٌ غَيْرُها ، ولَم يَستغنِ عَن إخراجه ، وله شاهد على سبيل الاختصار بإسناد صحيح ، دَلَّ على صِحَّة الحديث الطويل على شرط مُسْلِم .

تَقْرِيعًا وتَوْبِيخًا ، وهُم يَسْمَعُون ذلك ، كَمَا ثَبَتَ في الصحيحَيْن أنَّ رسول اللَّه ﷺ لَمَّا ظَهَرَ على أهل بَدْر ، أقامَ هُناك ثلاثًا ، ثُمَّ أمَرَ براحلته فشدَّت بعد ثلاث مِن آخِر الليل ، فركبها ثُمَّ سارَ حتى وَقَفَ على القَلِيب قَلِيب بَدْر ، فَجَعَلَ يَقُول : " يَا أبا جَهْلِ بنَ هِشَام ، يَا عُتْبَةَ بنَ رَبيعة ، يَا شَيْبَةَ بنَ رَبيعة ، ويَا فُلانَ بنَ فُلان ، هَلْ وَجَدْتُم مَا وَعَدَ رَبُّكُم حَقًّا ؟، فَإنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَني رَبِّي حَقًّا "، فقال له عُمَر : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا تُكَلِّمُ مِن أقوامٍ قَدْ جَيَّفُوا ؟ ، فقال : " والذي نَفْسِي بيده مَا أنتُم بأسمعَ لِمَا أقُولُ مِنهُم ولكنْ لا يُجِيبون " . وفي السِّيرة أنَّه عليه السَّلام قال لهم : " بِئْسَ عَشِيرةُ النَّبِيِّ كُنتُم لِنَبِيِّكُم ، كَذَّبْتُمُوني وَصَدَّقَني الناسُ، وأخرجتموني وآواني الناسُ ، وقاتلتموني ونَصَرَني الناسُ ، فَبِئْسَ عَشِيرةُ النَّبِيِّ كُنتُم لِنَبِيِّكُم". وهكذا صالح عليه السلام قال لِقَوْمِه: ﴿ لَقَدْ أبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أي: فَلَمْ تَنْتفعوا بذلك، لأنَّكُم لا تُحِبُّون الحَقَّ ، ولا تَتَّبِعُون ناصحًا ، ولهذا قال : ﴿ وَلَكِن لا تُحِبُّونَ الناصحين ﴾ . وقَدْ ذَكَرَ بعضُ المُفسِّرين : أنَّ كُلَّ نَبِيٍّ هَلَكَتْ أُمَّتُهُ كانَ يَذهَب فَيُقيم في الحَرَمِ حَرَمِ مَكَّة ، واللَّهُ أعْلَم.وقَدْ قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا وَكِيع حَدَّثَنَا زَمْعَة ابن صالح عَن سَلَمَة بن وَهْرَام عَن عِكْرِمَة عن ابن عَبَّاس قال:لَمَّا مَرَّ رسولُ اللَّه ﷺ بِوَادي عُسْفَان حِينَ حَجَّ قال : " يَا أبا بَكْر ، أيُّ وَادٍ هذا ؟ " ، قال : هذا وادي عُسْفَان ، قال : " لَقَدْ مَرَّ بِهِ هُودٌ وصَالِحٌ عليهما السلام على بَكَرَاتٍ ، خُطُمُهُنَّ اللِّيفُ ، أُزُرُهُمُ العَبَاءُ ، وأرْدِيَتُهُمُ النِّمَارُ ، يُلَبُّونَ يَحُجُّونَ البَيْتَ العَتِيقَ " ، هذا حديث غريب من هذا الوجه لَمْ يُخْرِجْهُ أحدٌ مِنهم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٣٢٢) : ((﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ صَالِحٌ عِند اليأس مِن إجابتهم ، ﴿ وَقَالَ ﴾ لَهُم هَذه المَقالةَ : ﴿ لَقَدْ أبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لا تُحِبُّونَ الناصحين ﴾ . ويَحْتَمِل أنَّه قال لهم هذه المَقالةَ بَعْدَ مَوْتِهِم على طريق الحكاية لحالهم الماضية ، كما وَقَعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مِن التَّكليمِ لأهْلِ قَلِيب بَدْر بَعْد مَوْتِهم ، أوْ قالها لَهُم عِند نُزول العَذاب بِهِم ، وكأنَّه كانَ مُشَاهِدًا لذلك ، فَتَحَسَّرَ عَلى مَا فاتهم مِن الإيمانِ والسَّلامةِ مِن العَذابِ، ثُمَّ أبَانَ عَن نَفْسِه أنَّه لَمْ يَأْلُ جُهْدًا في إبلاغِهم الرِّسَالة ومَحْضِ النُّصْحِ ، لكن أبَوْا ذلك فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْه ، فَحَقَّ عليهم العذاب ، وَنَزَلَ بِهِم مَا كَذَّبُوا بِه واسْتَعْجَلُوه . وقَدْ أخرجَ عبد الرَّزَّاق والفِرْيَابي وابن أبي شَيْبَة وعَبْد بن حُمَيْد وابن جرير وابن المُنذِر وابن أبي حاتم عن أبي الطُّفَيْل قال : قالت ثَمُود لصالح : ائْتِنَا بِآيةٍ إن كُنتَ مِنَ الصادقين ، قال : " اخْرُجُوا " ، فَخَرَجُوا إلى هَضبة مِن الأرض ، فإذا هي تَمَخَّض كَمَا تَمَخَّض الحامل ، ثُمَّ إنَّها انفرجتْ فخرجت الناقةُ مِن وَسَطِها ، فقال لهم صالح : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ [هُود : ٦٤] ، فَلَمَّا مَلُّوها عَقَرُوها ، ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا في

دَارِكُم ثَلاثةَ أيَّامٍ ﴾ [هُود : ٦٥] . وأخرجَ عبد الرزاق وابن المُنذر وابن أبي حاتم وأبو الشَّيخ عن قَتَادة : أنَّ صالحًا قال لهم حِينَ عَقَرُوا الناقةَ : تَمَتَّعُوا ثلاثةَ أيَّامٍ ، ثُمَّ قال لهم : آيةُ هَلاككم أن تُصبح وُجُوهُكم غَدًا مُصْفَرَّةً ، وتُصبح اليَوْمَ الثاني مُحْمَرَّةً ، ثُمَّ تُصبح اليَوْمَ الثالثَ مُسْوَدَّةً ، فأصبحتْ كذلك ، فلمَّا كان اليوم الثالث أيْقَنُوا بالهلاك ، فَتَكَفَّنُوا وتَحَنَّطُوا، ثُمَّ أخذتهم الصَّيحةُ ، فأهمدتهم . وقال عَاقِرُ الناقة : لا أقْتُلُها حَتَّى تَرْضَوْا أجمعين ، فَجَعَلُوا يَدْخُلون على المَرْأةِ في خِدْرِها ، فَيَقُولون : أتَرْضَيْن ؟ ، فَتَقُول : نَعَم ، والصَّبِي حَتَّى رَضُوا أجْمَعُون ، فَعَقَرَهَا . وأخرجَ أحمد والبَزَّار وابن جرير وابن المُنذِر وابن أبي حاتم والطَّبَرَاني في الأوسط وأبو الشيخ والحاكم وصَحَّحَه وابن مَرْدَوَيْه عن جابر بن عبد اللَّه أنَّ رسول اللَّه ﷺ لَمَّا نَزَلَ الحِجْرَ قامَ فَخَطَبَ، فقال : " يا أيُّها الناسُ ، لا تَسألوا نَبِيَّكُم عَن الآيات ، فإنَّ قَوْمَ صالحٍ سَألوا نَبِيَّهُم أن يَبْعَثَ إلَيهم آيةً ، فَبَعَثَ اللَّهُ لهم الناقةَ ، فكانتْ تَرِدُ مِن هذا الفَجِّ ، فَتَشرب ماءهم يَوْمَ وِرْدِها ، ويَحتلبون مِن لَبَنِها مِثْلَ الذي كانوا يأخذون مِن مائها يَوْمَ غِبِّهَا ، وتَصْدُر مِن هذا الفَجِّ ، فَعَتَوْا عَن أمْرِ رَبِّهِم فَعَقَرُوها، فَوَعَدَهُم اللَّهُ العذابَ بعد ثلاثة أيام ، وكانَ وَعْدٌ مِن اللَّهِ غَيْر مَكذوب ، ثُمَّ جاءتهم الصَّيحةُ ، فأهلكَ اللَّهُ مَن كانَ مِنهُم تحت مشارق الأرض ومغاربها إلا رَجُلًا كانَ في حَرَمِ اللَّهِ ، فَمَنَعَه حَرَمُ اللَّهِ مِن عَذابِ اللَّهِ " ، فَقِيل : يا رسول اللَّه ، مَن هُوَ ؟ فقال: " أبو رِغَال ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الحَرَمِ أصابه مَا أصابَ قَوْمَه " . قال ابن كثير : هذا الحديث على شرط مُسْلِم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مَرْدَوَيْه مِن حديث أبي الطُّفَيْل مَرفوعًا مِثْلَه . وأخرجَ أحمد من حديث ابن عُمَر قال : قال رسول اللَّه ﷺ وَهُوَ بالحِجْر : " لا تَدْخُلوا على هؤلاء المُعَذَّبِين إلا أن تَكُونوا بَاكِين،فَإنْ لَمْ تَكُونوا باكينَ فَلا تَدْخُلوا عَلَيْهِم أن يُصِيبَكم مِثْلُ مَا أصابهم". وأصلُ الحديث في الصحيحَيْن مِن غَيْر وجه . وفي لفظ لأحمد من هذا الحديث قال : لمَّا نَزَلَ رسولُ اللَّه ﷺ عَلى تَبُوك ، نَزَلَ بِهِم الحِجْرَ عِند بُيُوتِ ثَمُود . وأخرجَ أحمد وابن المُنذر نَحْوَه مَرفوعًا مِن حديث أبي كَبْشَة الأنماري . وأخرجَ ابن المُنذر عن ابن جُرَيج في قَوْلِه: ﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ ، قال: لا تَعْقِرُوها . وأخرجَ ابنُ أبي حاتم عن السُّدي في قَوْلِه : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ ، قال : كانوا يَنْقُبُون في الجِبَالِ البُيُوتَ . وأخرجَ ابنُ أبي شَيْبَة وعبد بن حُمَيْد وابن جرير وابن المُنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مُجَاهِد في قَوْلِه : ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ ، قال : غَلَوْا في الباطل ، ﴿ فَأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ ، قال : الصَّيْحَةُ . وأخرجَ ابنُ جرير وابن أبي حاتم وأبو الشَّيْخ عن ابن زَيْد ﴿ فَأصْبَحُوا في دَارِهِمْ جَاثِمِين ﴾ ، قال : مَيِّتِين . وأخرجَ عَبْد بن حُمَيْد عَن قَتَادَة مِثْلَه)) .

وعن جابر بن عبد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنهما قال:لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بالحِجْرِ قال: ((لا تَسْألوا الآياتِ، فَقَدْ سَألَهَا قَوْمُ صَالِحٍ، فكانتْ_ يَعْني الناقةَ_ تَرِدُ مِن هذا الفَجِّ ، وَتَصْدُرُ مِن هَذا الفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أمْرِ رَبِّهِم، فَعَقَرُوهَا، فأخذتهم الصَّيْحَةُ، فَأهْمَدَ اللَّهُ مَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ مِنهُم إلا رَجُلًا واحدًا، كَانَ في حَرَمِ اللَّهِ))، قِيل: مَنْ هُوَ ؟، قال: ((أبو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الحَرَمِ أصَابَهُ مَا أصَابَ قَوْمَه)) [٢٦].

يَجِب عَدَمُ طَلَبِ الأمُور العظيمة الخارقة للعَادَةِ،فَمِن سُنَّةِ اللَّهِ أنَّ الأُمَم إذا طَلَبَتْ آيَةً مُعَيَّنَةً ثُمَّ لَمْ تُؤْمِن بها،فَإنَّ اللَّهَ يُعَاجِلها بالعَذاب، لأنَّ عَدَمَ إيمانهم عِنَاد واستكبار بَعْد رُؤيةِ المُعْجِزَةِ بالعَيْنِ.

١٥_ قَوْم لُوط

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلُوطًا إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أتَأتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِين ﴾ [الأعراف : ٨٠] .

واذكُرْ لُوطًا يا مُحمَّد حِينَ قال لِقَومه : أتفعلون تِلك الفَعْلَةَ المُتناهية في السُّوء والقُبْح (إتيان الذُّكُور في أدبارهم) التي ما فَعَلَها أحد قَبْلَكم مِن الإنس والجِن ؟ . والاستفهامُ للإنكار والتَّوبيخ.

ولُوط هو ابن أخي إبراهيم ، عليهما الصَّلاة والسَّلام . وقد أرسلَ اللَّهُ لُوطًا إلى أُمَّة تُسمَّى سَدُوم ، لهدايتهم إلى الحق ، وإرشادهم إلى الصَّواب. وقد أنكرَ النَّبِيُّ لُوط ﷺ على قَومه فِعْلَ الفاحشة، ثُمَّ وبَّخهم بأنهم أوَّل مَن فَعَلَها ، وهذا أسوأ . ومَا رُئِيَ ذَكَرٌ على ذَكَرٍ قَبل قَوم لُوط ﷺ.

وقال أبو حَيَّان في البحر المحيط (٤/ ٣٣٣) : ((ولمَّا كان هذا الفِعْل مَعهودًا قُبْحُه، ومَركوزًا في العُقول فُحْشُه، أتى به مُعَرَّفًا بالألف واللام ﴿ الفاحشةَ ﴾ بِخِلاف الزِّنى، فإنه قال فيه : ﴿ إنَّهُ كانَ فاحشةً ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، فأتى به مُنَكَّرًا ، والجُملة المَنفية ﴿ ما سَبَقَكُم ﴾ تدلُّ على أنهم أوَّل مَن فَعَلَ هذه الفَعلة القبيحة ، وأنَّهم مُبتكروها . والمُبَالَغَة في ﴿ مِنْ أحَدٍ ﴾ حَيث زِيدَت " مِنْ " لتأكيد نَفْي الجِنس ، وفي الإتيان بعُموم ﴿ العَالَمِين ﴾ جَمْعًا)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٥٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ ولُوطًا ﴾ ، أي : وأرْسَلْنا لُوطًا . وقِيل : معناه : واذكُرْ لُوطًا . وهو لُوط بن هاران بن تَارَخ ، ابن أخي إبراهيم ﴿ إذْ قالَ لِقَوْمِهِ ﴾ ، وهُم أهل سَدُوم ، وذلك أنَّ لُوطًا شَخَصَ مِن أرض بابل (سافرَ) مع عَمِّه إبراهيم عليه السلام

---

٢٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٣٥١) برقم (٣٢٤٨) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

مُؤمنًا به، مُهَاجِرًا معه إلى الشام ، فَنَزَلَ إبراهيمُ فِلَسْطِين ، وأنزلَ لُوطًا الأُرْدُن، فأرسله اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى أهل سَدُوم ، فقال لهم : ﴿ أتأتُونَ الفاحشةَ ﴾ يعني إتيان الذُّكْرَان ﴿ ما سَبَقَكُم بِها مِنْ أحَدٍ مِنَ العَالَمِين ﴾ . قال عمرو بن دينار: ما يُرى ذَكَر على ذَكَر في الدُّنيا حَتَّى كان مِن قَوم لُوط)) .

لقد ذَكَرَت الآيةُ عَمَلَ قَوم لُوط ﷺ ، وهو إتيان الرِّجال في أدبارهم . وهذه الفاحشة الشنيعة هي ابتكار قَوم لُوط ﷺ ، الذين اتَّبَعُوا أهواءَهم الشخصية ، وشَهَواتهم الذاتية ، وتَزيينَ الشَّيطان . والشُّذُوذُ الجِنسي عِند الرجال لَم يَكُن مَعروفًا في العَالَم قَبل قَوم لُوط ﷺ [٢٧] .

---

٢٧ مِن الأمور التي يجب الانتباه إليها ، المصطلحات المستخدمة في نُصوصنا الدِّينية ، ومدى التزامها بالقُرآن والسُّنَّة الصحيحة. ومن هذه المصطلحات الشائعة لفظة " اللواط "، وهذه اللفظة سيئة للغاية لأنها مُشتقة من اسم النبيِّ لُوط ﷺ ، وذات دَلالة على فاحشة ، فاشتقاق اسم فاحشة من اسم نبي كُفْرٌ بَوَاح . لذلك ، نَجزِم أن النبيَّ ﷺ لم يَقُلْ لفظة " اللواط " أوْ " لوطي" أو " اللوطية " أو أنه ﷺ اشتق اسم فاحشة من اسم نبيٍّ ، لأن هذا العمل كُفْرٌ ، ومُحال على الأنبياء المعصومين أن يقعوا في هذا الفِعل الشنيع . لذلك ، يجب عدم استعمال لفظة " اللواط " نهائيًّا لأنها كلمة كُفْرية ضد الإسلام تمامًا ، ويجب استعمال مكانها " عَمَل قَوم لُوط " للدَّلالة على إتيان الذَّكَر للذَّكَر . والمعاجمُ الأجنبية لَم تَنْسُب هذا الفعل الشنيع إلى النبيِّ لُوط ﷺ، وإنما نسبته إلى أكبر قُرى قَوم لُوط ، وهي سَدُوم ، فأصبح هذا العمل الشاذ مَنسوبًا إليها . وهنا يبرز مصطلح " Sodomite " أي السَّدُومِيَّة ، للدَّلالة على هذه الفاحشة . وينبغي اعتماد مصطلح " السَّدُومِيَّة " . وينبغي القَول إنَّ خبر الآحاد (خبر الواحد) إذا عارضَ ثوابتَ الدِّين (القُرآن والسُّنَّة المتواترة) فإنه يُرفَض فَوْرًا ، كما أن العلماء وضَّحوا مسألة الحديث الصحيح سَنَدًا الشاذ مَتْنًا. وبالنِّسبة لخبر الآحاد (الواحد) ، قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ١٣١) : ((وأمَّا خبر الواحد فهو ما لم يوجد فيه شروط المتواتر ، سواء كان الراوي له واحدًا أو أكثر ، واخْتُلِفَ في حُكمه ، فالذي عليه جماهير المسلمين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من المحدِّثين والفقهاء وأصحاب الأصول أن خبر الواحد الثقة حُجَّة مِن حُجَج الشرع يَلزَم العمل به ، ويُفيد الظن، ولا يُفيد العِلْم)) اهـ. وفي فتح الباري (٤/ ١٥٦) : ((خبر الواحد إذا جاء بخلاف القواعد لم يُعمَل به)) اهـ . قلتُ: أما بالنسبة للحديث الصحيح سندًا ، الشاذ مَتْنًا ، فقد قال الحاكم في معرفة علوم الحديث (ص ١١٢ و١١٣): ((وإنما يُعَلَّل الحديث من أوجه ليس للجَرْح فيها مدخل، فإن حديث المجروح ساقط واهٍ، وعِلَّة الحديث يكثر في أحاديث الثقات أن يُحدِّثوا بحديث له عِلَّة فيخفى عليهم عِلْمُه، فيصير الحديث

معلولًا ، والحُجَّة فيه عندنا الحفظ والفهم والمعرفة)) اهـ . ولنستعرض الأحاديث الواردة في الموضوع لكي نقف على حقيقة الأمر بشكل عِلمي منهجي تفصيلي. أوَّلًا : وردت العبارة النبوية الشريفة الثابتة " عَمَل قَوم لُوط " في أحاديث كثيرة صحيحة وحسنة منها : [١] عن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : أن رسول اللَّه ﷺ قال : ((مَن وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به)) [الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩٥) برقم (٨٠٤٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي].[٢] عن جابر ــ رضي اللَّهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ : ((إنَّ أخْوَفَ ما أخافُ على أُمَّتي عَمَلُ قَوْمِ لُوط)) [الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩٧) برقم (٨٠٥٧) وصحَّحه، ووافقه الذهبي] . ثانيًا : بالنِّسبة لاشتقاق اسم عمل قوم لوط من اسم النبيِّ لُوط ﷺ ، فقد وردت أحاديث في ذلك ــ مع العِلم أنَّه لم ترد لفظة"اللواط " عن النبيِّ ﷺ في كتب الحديث المعتمدة والمشهورة ــ : [١] ما رواه أبو داود (٢/ ٥٦٤) عن ابن خَيثم قال : سمعتُ سعيد ابن جُبَير ومجاهدًا يُحدِّثان عن ابن عباس في البِكْر يُؤْخَذ على اللوطية ، قال : يُرجَم . [٢] ما رواه أحمد (١/ ٣١٧) : عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ : ((مَلعونٌ مَن عَمِلَ عَمَلَ قَوم لُوط)) ، قالها رسول اللَّه ﷺ مِرارًا ثلاثًا في اللوطية . قلتُ : لفظة " اللوطية" ليست من كلام ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنه ــ كما هو واضح من سياق الحديث الأول ، وفي الحديث الثاني ليست من كلام النبيِّ ﷺ ، وهذا واضحٌ . ويَغلِب على ظَنِّي أنها من كلام أحد الرُّواة الذي اختزلَ عَمَلَ قَوم لُوط بهذه اللفظة الشاذة المعارِضة للعبارة النبوية الثابتة " عَمَل قَوم لُوط "، وأقحمَ فَهْمَه الخاص في الحديث مُعَلِّقًا عليه بهذه اللفظة المرفوضة " اللوطية " . [٣] ما رواه أحمد (١٨٢/٢)عن عمرو بن شُعَيب عن أبيه عن جَدِّه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((هي اللوطية الصغرى)) ، يعني الرَّجل يأتي امرأته في دُبُرها . قلتُ : عبارة " اللوطية الصغرى " وردت ثلاث مرات في مسند الإمام أحمد في ثلاثة أحاديث مختلفة بأرقام : (٦٧٠٦) و (٦٩٦٧) و(٦٩٦٨) مع الانتباه إلى أن هذه الأحاديث الثلاثة مُختَلَف في رفعها ووقفها. فالواجب الالتزام بما صحَّ عن النبيِّ ﷺ وهي عبارة " عَمَل قَوم لُوط "،ورفض ألفاظ مِن قَبيل" اللوطية " أو" اللواط" أو" اللوطي" لأنها ألفاظ كُفرية تَشتق اسمَ فاحشة من اسم نبيٍّ عظيم هو لُوط ﷺ . ولو وردت هذه الألفاظ في أحاديث في أعلى درجات صِحَّة السَّنَد ، فيجب رفضُها لأنها أخبار آحاد ضد قواعد الإسلام الأساسية الآتية مِن القُرآن والسُّنَّة المتواترة . فلا تُتعِب نَفْسَك في الحُكم على السَّنَد ، لأن العِلَّة الأساسية في المتن ــ رغم أنَّ عِلَّة السند الاختلاف في الوَقْف والرَّفع ــ ، إذْ إنَّ تلك الألفاظ الشنيعة طعنٌ في نبيٍّ معصوم قاومَ الفاحشةَ في قَومه ، فهل جزاؤه أن يُشتَق من اسمه الشريف اسمًا للفاحشة ؟. إنها مسألة غاية في الخطورة ، لأن مَن طعن في نبيٍّ فهو كافر ، ومَن رماه بفاحشة أو نقيصة أو ذمَّه فهو كافر . فما بالك

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إِنَّكُم لَتَأتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أنتُم قَوْمٌ مُسْرِفُون ﴾ [الأعراف : ٨١] .

يُوبِّخ النبيُّ لُوط ﷺ قَوْمَه على فِعْلهم : إنَّكُم أيُّها القَوم لَتَأتون الرِّجَالَ في أدبارهم شَهْوَةً مِنكُم لذلك الفِعل القبيح الشنيع ، دُون ما أحَلَّه اللَّهُ لكم مِن النِّسَاء. وانتقلَ النبيُّ لُوط ﷺ مِن الإنكار عليهم وتوبيخهم ، إلى الإخبار عن حالهم السَّيئة التي قادتهم إلى ارتكاب الفاحشة : بَل أنتم قَوم مُجاوزون الحلالَ إلى الحرام .

والمَعنى : لا عُذر لكم ، بَل أنتم عادتكم الإسراف ، وتجاوز الحدود في كُلِّ شيء . وقد تركتم النِّسَاءَ اللواتي هُنَّ مَحَلٌّ لقضاء الشَّهوة ، ومَوضع لطلب اللذة ، ووضعتم شَهوتكم الشَّاذةَ في أدبار الرِّجال ، وصارتْ أدبارُ الرِّجال أشهى عِندكم مِن فُروج النِّسَاء .

وفي التَّقييد بِقَوله : ﴿ شَهْوَةً ﴾ وَصْف لهم بالبهيمية الصِّرْفَة ، وهذا يدلُّ على أن إتيانهم لهذه الفاحشة لقضاء الشَّهوة فقط ، بلا منطق ولا تفكير ولا عقلانية . إنهم كالبهائم التي يَنزو بعضُها على بعض لِمُجرَّد الشَّهوة . وفي هذا تنبيه على أنَّ العاقل ينبغي أن يَعتبر الجِمَاعَ وسيلةً لطلبِ الولد ، وبقاءِ النَّسْل ، لا قضاء الشَّهوة المُؤقَّتة ، أو اللذة المُجرَّدة .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٥٤٠) : ((يُخبِر بذلك تعالى ذِكْرُه عَن لُوط أنَّه قال لِقَومه ، توبيخًا مِنه لهم على فِعْلهم : ﴿ إِنَّكُم ﴾ أيُّها القَوم ﴿ لَتَأتُونَ الرِّجَالَ ﴾ في أدبارهم ﴿ شَهْوَةً ﴾ مِنكُم لذلك ، ﴿ مِن دُونِ ﴾ الذي أباحه اللَّهُ لكم وأحَلَّه مِن ﴿ النِّسَاءِ بَلْ أنتُم قَوْمٌ مُسْرِفُون ﴾ ، يقول :

بهذه اللفظة الشنيعة ؟! . فإياك أن تعتقد أن المسألة تشديد أو غُلُو في الدِّين أو تعقيد، فأسماء الأنبياء الشريفة تدلُّ على شخوصهم الطاهرة ، ويجب أن تظل محفوظة مِن كُل دَنَس أو شُبهة. ولا يَغُرَّنَّكَ تَكرارها في كلام العلماء ، لأنَّ الحق أحق أن يُتَّبَع ، واعرف الحقَّ تعرف رجالَه ، كما أن انتشار هذه الألفاظ مِن عُموم البَلوى . وأنا واثق أن علماءنا لم تظهر لهم المسألة بهذا الارتباط ، أو الاقتران الكارثي بين اسم نبيٍّ واسم فاحشة ، فَظَنُّوا المسألة مُجرَّد لفظ يُطلَق ورد في أحاديث ذات أسانيد مُعتمَدة ، ولا مُشَاحَّة في استخدام الألفاظ _ كما هو سائد _ ، والأمر أكبر من ذلك بكثير ، ونحن نُحسِن الظنَّ بِعُلَمائنا ، ونَعذرهم لأنهم لم ينتبهوا إلى هذه المسألة ، لكن المعصوم هو النبيُّ ﷺ فقط لا غَير ، وجَلَّ مَن لا يسهو . ونختم بما قاله محمد أمين في حاشية ابن عابدين (٧/ ١٦٢) : ((اعلم أن من القواعد القطعية في العقائد الشرعية أن قتل الأنبياء ، أو طعنهم في الأشياء ، كُفر بإجماع العلماء)) .

إنَّكُم لَقَوم تَأتون ما حرَّم اللَّهُ عليكم، وتَعْصُونه بِفِعْلكم هذا، وذلك هو الإسراف في هذا المَوضع)).

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٠٨) : ((يَقول تعالى : ﴿ و ﴾ لقد أرْسَلْنا ﴿ لُوطًا ﴾ ، أوْ تقديره : ﴿ و ﴾ اذكُرْ ﴿ لُوطًا إذْ قالَ لِقَوْمِهِ ﴾ ، ولُوط هو ابن هاران بن آزَر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام،وكان قد آمنَ مع إبراهيم عليه السلام وهاجرَ معه إلى أرض الشام فبعثه اللَّهُ إلى أهل سَدُوم وما حَوْلها مِن القُرى ، يَدعوهم إلى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عمَّا كانوا يرتكبونه مِن المَآثِم والمحارم والفواحش، التي اخترعوها لَم يَسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غَيرهم ، وهو إتيان الذُّكُور دُون الإناث ، وهذا شيء لَم يكن بنو آدم تَعْهَده ، ولا تَألَفه ، ولا يَخطُر ببالهم ، حتى صَنَعَ ذلك أهل سَدُوم عليهم لعائن اللَّه . قال عمرو بن دينار في قَوله : ﴿ ما سَبَقَكُم بِها مِنْ أحَدٍ مِنَ العَالَمِين ﴾ ، قال : ما نَزَا ذَكَرٌ على ذَكَرٍ حتى كان قَوم لُوط . وقال الوليد بن عبد المَلِك الخليفة الأُموي باني جامع دِمَشْق : لَولا أنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ قَصَّ عَلَينا خَبَرَ قَوم لُوط ، ما ظننتُ أنَّ ذَكَرًا يَعلو ذَكَرًا ، ولهذا قال لهم لُوط عليه السلام : ﴿ أتأتُونَ الفاحشةَ ما سَبَقَكُم بِها مِنْ أحَدٍ مِنَ العَالَمِين (٨٠) إنَّكُم لَتَأتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِن دُونِ النِّسَاءِ ﴾ ، أي: عَدَلْتُم عَن النِّساء ، وما خَلَقَ لكم رَبُّكُم مِنهن إلى الرِّجال ، وهذا إسراف مِنكم وجَهْل ، لأنَّه وَضْع الشيء في غَير مَحَلِّه،ولهذا قال لهم في الآية الأُخرى: ﴿ هَؤلاءِ بَنَاتي إن كُنتُم فاعلين ﴾[الحِجْر: ٧١] ، فأرشدهم إلى نسائهم ، فاعتذروا إليه بأنهم لا يَشتهونهن ، ﴿ قالوا لقد عَلِمْتَ ما لَنَا في بَنَاتِكَ مِن حَقٍّ وإنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُريد ﴾ [هُود : ٧٩] ، أي : لقد عَلِمْتَ أنَّه لا أَرَب (لا حَاجَة) لنا في النِّساء، ولا إرادة ، وإنك لَتَعْلَم مُرادَنا مِن أضيافك . وذَكَرَ المُفسِّرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضُهم ببعض ، وكذلك نساؤهم كُنَّ قد اسْتَغْنَيْنَ بعضُهن ببعض أيضًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وما كانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلا أن قالوا أخْرِجُوهُم مِن قَرْيَتِكُم إنَّهُم أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُون ﴾ [الأعراف : ٨٢] .

وما كان جوابَ قَوم لُوط له إذْ وبَّخهم على فِعلهم القبيح إلا أن قال بعضُهم لبعض : أخْرِجُوا لُوطًا وأهْلَه وأتباعَه المؤمنين من بلدتكم ، لأنَّهُم أُنَاس يتنزَّهون عن إتيان الرِّجال في أدبارهم . ويُحْتَمَل أنَّهُم قالوا ذلك على سبيل السُّخرية والاستهزاء .

ولَمْ يُجِبْ قَومُ لُوط عن كلامه ، ولكنهم قَابَلُوا نُصْحَه وإرشادَه بالأمر بإخراجه وأتباعه المؤمنين من قريتهم ، والسُّخرية مِنهُم ، والاستهزاء بهم .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٥٤١) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : وما كان جواب قَوم لُوط لِلُوط إذْ وبَّخهم على فِعْلهم القبيح، وركوبهم ما حرَّم اللَّهُ عليهم مِن العمل الخبيث، إلا أن قال بعضُهم لبعض : أخْرِجُوا لُوطًا وأهْلَه . ولذلك قِيل : ﴿ أخْرِجُوهُم ﴾ ، فَجَمَعَ ، وقد جرى قَبْل ذِكْرُ لُوط وَحْدَه دُون غَيره . وقد يُحْتَمَل أن يكون إنَّما جَمَعَ بمعنى : أخْرِجُوا لُوطًا ومَن كان على دِينه من قريتكم ، فَاكْتُفِيَ بذِكْر لُوط في أوَّل الكلام عَن ذِكْر أتباعه ، ثُمَّ جَمَعَ في آخر الكلام . ... . ﴿ إنَّهُم أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُون ﴾ ، يقول : إنَّ لُوطًا ومَن تَبِعَه أُنَاس يتنزَّهون عمَّا نفعله نحن مِن إتيان الرِّجال في الأدبار . وبِنَحْوِ الذي قُلنا في ذلك قال أهل التأويل . ذِكْر مَن قال ذلك : حدَّثنا ابن وَكِيع ، قال : ثنا هانئ بن سعيد النَّخَعي ، عن الحَجَّاج ، عن القاسم بن أبي بَزَّة ، عن مُجاهد : ﴿ إنَّهُم أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُون ﴾ ، قال : مِن أدبار الرِّجال وأدبار النِّساء . ... . حدَّثنا بِشْر بن مُعاذ ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قَتادة : ﴿ إنَّهُم أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُون ﴾، يقول: عابوهم بغَير عَيْب، وذَمُّوهُم بغَير ذَم)) .

وقد قالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((إنَّ أخْوَفَ مَا أخَافُ عَلى أُمَّتي عَمَلُ قَوْمِ لُوط)) [٢٨] .

مِن أسوأ الفواحش وأخطرها على الإنسانية والحضارة ، إتيان الرَّجُل الرَّجُلَ بَدَلًا عن النِّساء . وقد حذَّر النبيُّ ﷺ مِن هذه الفاحشة ، وبيَّن أنَّ أشدَّ ما يخاف مِنه النبيُّ ﷺ أن تقع الأُمَّةُ المُحمَّدية الإسلامية في هذه المعصية العظيمة (عَمَل قَوم لُوط) ، وهو أن يُجَامِع الرَّجُلُ الرَّجُلَ في دُبُره . ونُسِبَ الفِعْل لِقَوم لُوط ، لأنَّهُم أوَّل مَن فَعَلَ هذه الفاحشة ، ولَم يَسْبِقْهم بها أحد .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٤٢٠) : (((إنَّ أخْوَفَ ما أخافُ على أُمَّتي) قال الطيبي : أضاف أفْعَل إلى ما ، وهي نَكِرة مَوصوفة ، ليدلَّ على أنَّه إذا استقصى الأشياء المَخُوفة شيئًا بعد شيء لَم يَجِدْ أخْوَفَ مِن (عَمَل قَوم لُوط) عبَّر به تلويحًا بكَونهم الفاعلين لذلك ابتداءً، وأنَّه مِن أقْبَح القبيح ، لأنَّ كُلَّ ما أوجده اللَّهُ في هذا العَالَم ، جَعَلَه صالحًا لِفِعْل خاص، فلا يَصْلُح له سِواه ، وجَعَلَ الذَّكَرَ للفاعلية ، والأُنثى للمَفعولية ، ورَكَّب فِيهما الشَّهْوَةَ للتَّنَاسُل وبقاءِ النَّوع ، فَمَن عَكَسَ فقد أبطلَ الحِكمةَ الرَّبَّانِيَّة . وقد تطابقَ على ذَمِّه وقُبحه، شَرْعًا وعَقْلًا وطَبْعًا، أمَّا شَرْعًا فلآية ﴿ وأمْطَرْنا عَلَيهِم حِجَارَةً ﴾ [الحِجْر : ٧٤] . رُوِيَ أنَّ جِبريل عليه السلام رَفَعَ قُرى قَوم لُوط على جَناحه ، حتَّى سَمِعَ أهلُ السماء نُباحَ كلابهم ، وصِياحَ دِيَكَتِهم ، ثُمَّ قَلَبَها، وأمطرَ عليهم

---

٢٨ رواه الحاكم في المستدرك (٤ / ٣٩٧) برقم (٨٠٥٧) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

الحِجارةَ . وأمَّا عَقْلًا ، فلأنَّه تعالى خَلَقَ الإنسانَ أفضلَ الأنواع ، ورَكَّب فيه النَّفْسَ الناطقة المُسَمَّاة بالرُّوح بلسان الشَّرْع ، والقُوَّةَ الحَيَوَانية لمعرفته تعالى ، ومعرفة الأُمور العالية ، التي مِنها معرفة وَجْه حِكمته ، وفي ذلك إبطال حِكمته كما تقرَّر . وأمَّا طَبْعًا ، فلأنَّ ذلك الفِعْل لا يَحْصُل إلا بِمُبَاشَرَة فاعل ومفعول به، والقُبح الطبيعي هو ما لا يُلائم الطَّبْعَ ، وهذا الفِعْل لا يُلائم طَبْعَ المفعول به ، إلا لأحد أمْرَيْن : إمَّا فَيَضَان صُورة الأُنوثة عَلَيه ، وإمَّا لِتَوَلُّد مادة المَنْفَد ، فَيَحْصُل تآكل ورِعْدة بالمَحَل تَسْكُن بالفِعْل به ، وذلك نقيصة لا يُلائم طَبْع الفاعل ، إلا بجعل النَّفْس الناطقة تابعة للقُوَّة الحَيَوَانية ، وهو نَقْص لا يُكْتَنَهُ كُنْهُه (لا يُعرَف قَدْرُه وحقيقته))) .

وروى ابن حِبَّان في صحيحه (١٠/ ٢٦٥) : عن ابن عَبَّاس عن النبيِّ ﷺ قال : ((... ، ولَعَنَ اللَّهُ مَن عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوط)) ، قالها ثلاثًا في عَمَل قَوم لُوط .

طَرَدَ اللَّهُ مِن رحمته مَن عَمِلَ عَمَلَ قَوم لُوط ، بأن واقعَ الرِّجَالَ في أدبارهم ، واشتهى الذُّكُورَ مِن دُون النِّسَاء . ومَن قامَ بهذا العمل القبيح أصابته لعنة اللَّه تعالى ، وَحَلَّ عليه غَضَبُه . وهذا اللعنُ تحذير نبويٌّ ، وتهديد لِمَن استحلَّ هذه الفاحشة أوْ فَعَلَها ، حتى يَتَجَنَّبها المُسلم ، ويبتعد عنها . وهذه الفاحشة له عُقوبة دُنيوية شديدة ، وعذابُ النار في الآخرة أشدُّ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : ((مَن وَجدتموه يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوط ، فاقتلوا الفاعلَ والمفعولَ به)) [٢٩] . قال سُلَيمان بن بلال : سمعتُ يحيى بن سعيد وربيعة يقولان : مَن عَمِلَ عَمَلَ قَوم لُوط ، فَعَلَيه الرَّجْم ، أُحْصِنَ أوْ لَمْ يُحْصَنْ .

مِن أسوأ الفواحش وأخطرها عَمَلُ قَوم لُوط ﷺ ، (إتيان الرَّجُلِ الرَّجُلَ) ، لِمَا في ذلك مِن عَكْس للفِطْرَة السَّليمة ، وطَمْس للهُوية الإنسانية ، وتَعَدٍّ على حُدود اللَّه تعالى .

ومَن عَلِمْتُم أنَّه يَعْمَل عَمَلَ قَوم لُوط، وهو أن يُجَامِع الرَّجُلُ الرَّجُلَ في دُبُره ، ونَسَبَ الفِعْلَ إلى قُوم لُوط ، لأنَّه كان من عاداتهم ، واشْتَهروا به ، فيجب قَتْلُ الرَّجُلَيْن (الفاعل والمفعول به) حَدًّا.

واخْتُلِفَ في حَدِّ مَن فَعَلَ هذه الفاحشة ، لأنَّ القُرآنَ ذَكَرَ أنَّ اللَّه أرسلَ على قَوم لُوط حِجارةً مِن السماء ، فقال بعضُ العلماء بِرَجْمهم لذلك ، ولكن الحديث نَصَّ على أن العُقوبة القَتْل ، فَجَمَعَ بعضُهم بين العُقوبتين بالقَتْل رَمْيًا مِن مكان شاهِق ثُمَّ الرَّجْم . ومِن العُلماء مَن جَعَلَ حَدَّ عَمَل قُوم لُوط كالزِّنا، فيُرجَم المُحصَن، ويُجلَد غَير المُحصَن . وقال آخرون إنَّه يُعزَّر ولا حَد عليه،

---

٢٩ رواه الحاكم في المستدرك (٤ / ٣٩٥) برقم (٨٠٤٧) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

أوْ إنَّ الأمر للحاكم ، إن شاءَ قَتَلَ ، وإن شاءَ عَزَّرَ . والحديثُ يَدعو إلى حِفظ المجتمع ، وحماية الناس ، وذلك باجتثاث أُصول الفاحشة ، والدَّاعين إلَيها ، والواقعين فيها .

وهذه المعصية العظيمة تُحطِّم المُجتمع ، وتُدمِّر حياةَ الإنسان ، ولها تأثير سَيِّئ في العلاقات الاجتماعية ، والأنساقِ البشرية . وهي انتكاسة ضِد الفِطْرة ، وتمرُّد على الشريعة الإلهيَّة . واللَّهُ خَلَقَ الرَّجُلَ للمَرأة ، والمَرأةَ للرَّجُل ، فهما مُتكاملان رُوحًا وجَسَدًا . والانحراف عن هذا السِّياق الواضح يُمثِّل جريمةً بحق الوجود الإنساني، وطبيعةِ الحياة على الأرض . لذلك كانت عقوبة هذا الفِعْل الدَّنيء شديدةً للغاية، كَي تتناسب مع طبيعته القذرة ، وتأثيره الكارثي .

وعَمَلُ قَوم لُوط جِناية على الفِطْرة البشريَّة السَّليمة ، ومَفسَدة للشَّباب بالإسراف في الشَّهوة ، لأنَّه يُنال بسُهولة ، وإذلال للرِّجال ، واحتقار لهم . وانتشارُ هذه الفاحشة يُؤَدِّي إلى قِلَّة النَّسْل ، وإفساد الحياة الزَّوجية ، وتفكُّك العائلات والأُسَر ، وغَرْس العداوة والبَغضاء ، وانهيار المجتمع .

وفي تُحفة الأحوذيِّ (٥/ ١٧) : ((قال في شرح السُّنَّة : اختلفوا في حَدِّ " اللوطي " ، فذهب الشافعيُّ في أظهر قَوْلَيْه وأبو يُوسُف ومُحمَّد إلى أن حَد الفاعل حَد الزِّنى ، أي إن كان مُحْصَنًا يُرجَم ، وإنْ لَم يَكُن مُحْصَنًا يُجلَد مِائة ، وعلى المفعول به عند الشافعي على هذا القَول جَلْد مِائة وتغريب عام ، رَجُلًا كان أو امرأة ، مُحْصَنًا أوْ غَير مُحْصَن ، لأنَّ التَّمكين في الدُّبُر لا يُحْصِنها فلا يَلزَمها حَد المُحْصَنَات ، وذهب قَوم إلى أن " اللوطي " يُرجَم مُحْصَنًا كان أوْ غَير مُحْصَن ، وبه قال مالك وأحمد ، والقَول الآخَر للشافعي أنَّه يُقْتَل الفاعل والمفعول به ، كما هو ظاهر الحديث . وقد قِيل في كَيفية قَتلهما هدم بناء عليهما ، وقِيل : رَمْيهما مِن شَاهِق ، كما فُعِلَ بقَوم لُوط . وعِند أبي حنيفة يُعزَّر ولا يُحَد)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأنجَيْنَاهُ وَأهْلَهُ إلا امْرَأتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِين ﴾ [الأعراف : ٨٣] .

أنجى اللَّهُ النَّبِيَّ لُوطًا ﷺ وأهْلَه المُؤمنين مِنَ العَذابِ الذي حَلَّ بِقَوْمِه إلا امْرَأتَه ، فَلَمْ تَنْجُ ، وكانت مِن الباقين في دِيَارهم الهالكين . وقَدْ كانتْ لِزَوْجِهَا النَّبِيِّ لُوط ﷺ خائنةً ، وباللَّهِ كافرةً ، فَهَلَكَتْ معَ مَن هَلَكَ مِن قَوْم لُوط ﷺ حِين جاءهم العَذاب الشديد . وقَدْ قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مِنَ الغَابِرِين ﴾ ، لِتَغليبِ الذُّكُورِ على الإناثِ ، وَصِفَةُ النِّسَاء مَعَ صِفَة الرِّجَال تُذَكَّر إذا أُشْرِكَ بَيْنَهما .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٠٨) : ((يَقُول تَعَالى : فَأنجَيْنَا لُوطًا وأهْلَه ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِه أحد مِنهم سِوى أهل بَيْتِه فقط ، كما قالَ تَعَالى : ﴿ فَأخْرَجْنَا مَن كانَ فِيها مِنَ المُؤمنين (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ المُسْلِمِين (٣٦) ﴾ [الذاريات] ، إلا امْرَأتَه ، فإنَّها لَمْ تُؤْمِنْ بِه ،

بَلْ كانت على دِين قَوْمِها ، تُمَالئهم عليه ، وتُعْلِمهم بِمَن يَقْدُم عَلَيه مِن ضِيفانه بإشارات بَينها وبَينهم ، ولهذا لمَّا أُمِرَ لُوط عليه السلام لِيَسْرِيَ بأهله أُمِرَ أن لا يُعْلِمَها ولا يُخْرِجَها مِن البلد ، ومِنهم مَن يَقُول : بَل اتَّبَعَتْهُم ، فلمَّا جاء العذابُ التفتتْ هِيَ ، فأصابها مَا أصابهم ، والأظهر أنَّها لَمْ تَخْرُجْ مِن البلد ، ولا أعْلَمَهَا لُوط ، بَلْ بَقِيَتْ مَعَهُم ، ولهذا قال هَهُنَا : ﴿ إلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِين ﴾ ، أي : الباقين ، وقِيل : مِن الهالكين ، وَهُوَ تفسير باللازم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٣٢٤) : ((أخبرَ اللَّهُ سُبحانَه أنَّه أنجى لُوطًا وأهْلَه المُؤمنين بِه ، واستثنى امْرَأتَه مِن الأهل ، لِكَوْنِها لَمْ تُؤْمِنْ بِه ، ومَعنى ﴿ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِين ﴾ أنَّها كانتْ مِنَ الباقين في عَذابِ اللَّهِ . يُقَال : غَبَرَ الشَّيْءُ إذا مَضَى ، وغَبَرَ إذا بَقِيَ ، فهو مِن الأضداد. ... .وقال الزَّجَّاج: ﴿ مِنَ الغَابِرِين ﴾ أي:مِن الغائبين عن النَّجَاة. وقال أبو عُبَيْد : المعنى ﴿ مِنَ الغَابِرِين ﴾ أي مِن المُعَمَّرِين، وكانتْ قَدْ هَرِمَتْ. وأكثرُ أهل اللغة على أنَّ الغَابِرَ الباقي)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمِين ﴾ [الأعراف: ٨٤].

أرسلَ اللَّهُ على قَوْمِ النَّبِيِّ لُوط ﷺ الذينَ كَذَّبُوه ولَمْ يُؤْمِنُوا بِه نَوْعًا مِنَ المَطَرِ عَجِيبًا هُوَ حِجَارَة مِن سِجِّيل فأهْلَكَتْهُم ، كما في الآيةِ الأُخْرَى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم حِجَارَةً مِن سِجِّيل ﴾ [الحِجْر : ٧٤]. وَشَبَّهَ اللَّهُ العَذابَ بالمَطَرِ المِدْرارِ لِكَثْرته ، حَيْثُ أُرْسِلَ إرسالَ المَطَر.فَانظُرْ أيُّها السامعُ إلى عاقبة هؤلاء المُجْرِمين كَيْفَ كانتْ ؟ ، وإلى أيِّ شَيْءٍ صَارَتْ ؟ ، هَلْ كانتْ إلا البَوَارَ والهَلاك ؟! .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٣ / ٢٢٨) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَرًا ﴾ . قال ابن عباس : يَعْني الحِجَارَةَ . قال مُجَاهِد : نَزَلَ جِبريلُ ، فَأدخلَ جَنَاحَه تَحْتَ مَدائن قَوْمِ لُوط ورَفَعَها ، ثُمَّ قَلَبَهَا ، فَجَعَلَ أعلاها أسْفَلَهَا ، ثُمَّ أُتْبِعُوا بالحِجَارَة)) .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١ / ٣٨) : ((رُوِيَ : أنَّ لُوط بن هاران بن تَارَح لمَّا هاجرَ معَ عَمِّه إبراهيم عليه السلام إلى الشَّام نَزَلَ بالأُرْدُن ، فأرسله اللَّهُ إلى أهل سَدُوم لِيَدْعُوهم إلى اللَّهِ ، ويَنْهَاهُم عَمَّا اخترعوه مِن الفاحشة ، فَلَمْ يَنْتهوا عَنها ، فأمطرَ اللَّهُ عليهم الحِجَارَةَ فَهَلَكُوا . وقِيل: خُسِفَ بالمُقِيمين مِنهُم ، وأُمْطِرَت الحِجارةُ على مُسَافريهم)) .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٥٤٢) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : وأمْطَرْنا على قَوْم لُوط الذينَ كَذَّبُوا لُوطًا وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِه مَطَرًا مِن حِجَارة مِن سِجِّيل أهلكناهم به ، ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمِين ﴾ ، يَقُول جَلَّ ثَنَاؤُه : فَانظُرْ يَا مُحَمَّد إلى عاقبة هؤلاء الذين كَذَّبُوا اللَّهَ ورسولَه مِن قَوْمِ لُوط ، فَاجْتَرَمُوا مَعَاصِي اللَّهِ ، وَرَكِبُوا الفَوَاحِشَ ، واسْتَحَلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ مِن أدبار الرِّجَال ، كَيْفَ

كانتْ وإلى أيِّ شَيْءٍ صَارَتْ هَلْ كانتْ إلا البَوَار والهَلاك ؟ ، فإنَّ ذلك أوْ نظيرَه مِن العُقُوبة ، عاقبة مَن كَذَّبَكَ واستكبرَ عَن الإيمانِ باللَّهِ وتَصديقِك إنْ لَمْ يَتُوبوا مِن قَوْمِك)) .

١٦_ أصحاب مَدْيَن (قَوْم شُعَيْب)

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا في الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إن كُنتُم مُؤمِنِين ﴾ [الأعراف : ٨٥] .

أرسلَ اللَّهُ إلى أهْلِ مَدْيَن شُعَيْبًا ﷺ داعيًا لهم إلى تَوحيدِ اللَّهِ وعِبادته . وهذه دَعْوَةُ الرُّسُلِ كُلِّهِم ، وَهِيَ عِبَادَة اللَّه وَحْدَه لا شريك له . وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٠٩) : ((مَدْيَن تُطْلَق على القَبيلةِ ، وعَلى المَدِينةِ ، وهي التي بِقُرْبِ مَعَان مِن طَرِيقِ الحِجَاز)) .

وَقَدْ جَاءَتْهُم مُعْجِزَةٌ تَدَلُّ على صِدْقِ شُعَيْبٍ ﷺ وأنَّه رسولٌ مِن عِند اللَّهِ تعالى . وأمَرَهُم النَّبِيُّ شُعَيْبٌ ﷺ بأن يُتِمُّوا للناسِ حُقُوقَهم بالكَيْلِ الذي يَكِيلُون بِه ، وبالوَزْنِ الذي يَزِنُون بِه ، وكانوا أهْلَ كُفْرٍ وَبَخْسٍ للمِكْيَالِ والمِيزَانِ ، ولا يَظْلِمُوا الناسَ حُقُوقَهم ، ولا يُنْقِصُوهُم إيَّاها ، ولا يَعْمَلُوا في الأرضِ بالكُفْرِ والمَعَاصِي بعد أن أصْلَحَهَا اللَّهُ بِبَعْثَةِ الرُّسُلِ عليهم الصلاة والسلام ، ومَا أمَرَهُم بِهِ النَّبِيُّ شُعَيْبٌ ﷺ مِن إخلاصِ العِبادةِ للَّهِ تعالى ، وإيفاءِ الناسِ حُقُوقَهم ، وتَرْكِ الفَسَادِ في الأرض ، خَيْرٌ لَهُم في عَاجِلِ دُنْيَاهُم وآجِلِ آخرتهم عِند اللَّهِ يَوْمَ القِيَامة، إنْ كانوا مُصَدِّقِين للنَّبِيِّ شُعَيْبٍ ﷺ في قَوْلِه .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٥٤٢) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : وَأرْسَلْنَا إلى وَلَدِ مَدْيَن . ومَدْيَن : هُم وَلَد مَدْيَن بن إبراهيم خليل الرَّحمن ، فِيما حَدَّثَنَا به ابنُ حُمَيد ، قال : ثَنَا سَلَمَة ، عن ابن إسحاق . فإنْ كانَ الأمر كما قال ، فَمَدْيَن قبيلة كَتَمِيم . وزعم أيضًا ابن إسحق أنَّ شُعَيْبًا الذي ذَكَرَ اللَّهُ أنَّه أرسله إلَيهم مِن وَلَدِ مَدْيَن هذا ، وأنَّه شُعَيْب بن ميكيل بن يشجر ، قال : واسْمُه بالسُّرْيَانِيَّة بثرون . فتأويلُ الكلام على ما قاله ابنُ إسحق : وَلَقَدْ أرْسَلْنَا إلى وَلَدِ مَدْيَن أخاهم شُعَيْب بن ميكيل يَدْعُوهم إلى طَاعةِ اللَّهِ ، والانتهاءِ إلى أمْرِه ، وتَرْكِ السَّعْي في الأرض بالفساد ، والصَّدِّ عَن سَبيلِه ، فقال لهم شُعَيْب : يا قَوْم اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَه لا شريك له ، مَا لَكُم مِن إلَهٍ يَستوجب عليكم العبادة غَيْر الإلَه الذي خَلَقَكُم ، وبيده نَفْعُكم وضَرُّكُم ، ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُمْ ﴾ ، يَقُول:قَدْ جاءتكم عَلامَة وحُجَّة مِنَ اللَّهِ بحقيقة مَا أقُول وصِدْق مَا أدعوكم إليه ﴿ فَأَوْفُوا

الكَيْلَ وَالمِيزَانَ ﴾ ، يَقُول : أتِمُّوا للناسِ حُقُوقَهم بالكَيْلِ الذي تَكِيلُون بِه ، وبالوَزْنِ الذي تَزِنُون بِه، ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أشْيَاءَهُمْ ﴾ ، يَقُول : ولا تَظْلِمُوا الناسَ حُقُوقَهم ، ولا تُنْقِصُوهُم إيَّاها . ... . وقَوْلُه : ﴿ وَلا تُفْسِدُوا في الأرْضِ بَعْدَ إصْلاحِهَا ﴾ ، يَقُول : ولا تَعْمَلُوا في أرضِ اللَّهِ بِمَعَاصِيه وَمَا كُنتم تَعْمَلُونه قَبْلَ أن يَبْعَثَ اللَّهُ إلَيكُم نَبِيَّه مِن عِبادة غَيْرِ اللَّهِ ، والإشراكِ به ، وبَخْسِ الناسِ في الكَيْلِ والوَزْنِ ﴿ بَعْدَ إصْلاحِهَا ﴾ ، يَقُول : بَعْدَ أن قَدْ أصلحَ اللَّهُ الأرضَ بابتعاثِ النَّبِيِّ عليه السلام فِيكُم ، يَنهاكُم عَمَّا لا يَحِلُّ لكم ، ومَا يَكْرَهه اللَّهُ لَكُم ، ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ، يَقُول : هذا الذي ذَكَرْتُ لَكُم ، وأمَرْتُكُم بِه مِن إخلاصِ العِبادة للَّهِ وَحْدَه لا شريك له ، وإيفاءِ الناس حُقُوقَهم مِن الكَيْلِ والوَزْنِ ، وتَرْكِ الفَسَاد في الأرض ، خَيْرٌ لَكُم في عَاجِلِ دُنْيَاكم وآجِلِ آخِرتكم عِند اللَّه يَوْمَ القِيَامة ﴿ إن كُنتُم مُؤمِنِين ﴾ ، يَقُول : إن كُنتُم مُصَدِّقِيَّ فِيما أقُول لَكُم ، وأُؤدِّي إلَيكُم عَن اللَّهِ مِن أمْرِه ونَهْيِه)) .

إنَّ اللَّهَ تعالى قَدْ أَرسلَ إلى أولاد مَدْيَن بن إبراهيم ﷺ رَسُولَه شُعَيْبًا ﷺ مِن أجْلِ دَعْوتهم إلى عِبادة اللَّهِ وَحْدَه لا شَرِيك له . وَالنَّبِيُّ شُعَيْب ﷺ أخُوهم في النَّسَبِ لا في الدِّينِ ، فَهُوَ مِن أنفُسِهِم ، لكنَّه لَيْسَ عَلى مِلَّتِهِم . وكانَ يُقَال للنَّبِيِّ شُعَيْب ﷺ خَطِيب الأنبياء ، لِحُسْنِ مُراجعته قَوْمَه ، وقُوَّةِ حُجَّتِه ، وفَصاحةِ عِبارته ، وجَزالةِ مَوْعظته . وقد نَهَى قَوْمَه عَن أن يُنْقِصُوا المِكْيَالَ والمِيزانَ ، لأنَّهُم كانوا _ معَ كُفْرِهم _ أهْلَ تَطْفِيف ، مِمَّا يدلُّ على أنَّ كُفْرَهم (الانحراف العَقَائدي) قَادَهُم إلى التَّطْفِيفِ (الانحراف السُّلوكي الاجتماعي) .

وعن مُحَمَّد بن إسحاق قال : وشُعَيْبُ بنُ مِيكائيلَ النَّبِيُّ ﷺ ، بَعَثَهُ اللَّهُ نَبِيًّا ، فكانَ مِن خَبَرِهِ وَخَبَرِ قَوْمِهِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ في القُرْآنِ ، وكانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا ذَكَرَهُ قالَ : ((ذَاكَ خَطِيبُ الأنبياءِ لِمُرَاجَعَتِهِ قَوْمَه)) [٣٠] .

هذا يدلُّ على فَصاحةِ النَّبِيِّ شُعَيْبٍ ﷺ ، وعُلُوِّ عِبَارته ، وبَلاغته في دِعَاية قَوْمِه إلى الإيمان برسالته القائمة على تَوْحِيدِ اللَّهِ (عِبادته وَحْدَه لا شريك له) ، وهذه دَعوةُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام كُلُّهُم جميعًا بلا استثناء .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِين ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

---

٣٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٦٢٠) برقم (٤٠٧١) ، وسكت عنه الذهبي .

لا تَجْلِسُوا بِكُلِّ طريق تُخَوِّفُون المُؤمنين بالنَّبِيِّ شُعَيْبٍ ﷺ بالقَتْلِ ، وتَصْرِفُون عَن الإسلامِ مَن آمنَ بالنَّبِيِّ شُعَيْبٍ ﷺ، وتُريدون أن تَكُونَ السَّبِيلُ مُعْوَجَّةً غَيْرَ مُستقيمة،بِمَعنى تَصْويرهم أنَّ دِين اللَّه غَيْر مُستقيم ، كما يَقُول كُفَّارُ هذا الزَّمَن : " هذا الدِّين لا يَنطبق معَ العَقْلِ " ، لأنَّه لا يَتوافق معَ أهوائهم الفاجرة وشَهَوَاتِهم الدَّنيئة وشُبُهَاتِهم الضَّالَّة،واذكُروا إذْ كُنتم قِلَّةً مُسْتَضْعَفِين ، فَكَثَّرَكُمُ اللَّهُ بَعْدَ القِلَّةِ ، وأعَزَّكُم بَعْدَ الذِّلَّةِ ، وأغناكم بَعْدَ الفَقْرِ ، فاشكُروا اللَّهَ على نِعْمَتِه ، وانظُروا مَا حَلَّ بالأُمَمِ السابقةِ حِينَ عَصَوا الرُّسُلَ ، كَيْفَ انتقمَ اللَّهُ مِنهُم وأهْلَكَهُم ، واعْتَبِرُوا بِهِم . وهذا وَعِيدٌ أكيد ، وتَهديدٌ شديد .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٠٩) : ((يَنْهَاهُم شُعَيْبٌ عليه السلام عَن قَطْعِ الطريق الحِسِّي والمَعْنوي بِقَوْلِه : ﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ ، تَتَوَعَّدُون الناسَ بالقَتْلِ إنْ لَمْ يُعطوكم أموالَهم . قال السُّدي وغَيْرُه : كانوا عَشَّارين . وعن ابن عباس ومُجاهد وغَيْر واحد : ﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ ، أي : تَتَوَعَّدُون المُؤمنين الآتِين إلى شُعَيْب لِيَتَّبِعُوه ، والأوَّلُ أظهر ، لأنَّه قال : ﴿ بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ وَهُوَ الطريق ، وهذا الثاني هُوَ قَوْلُه : ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ ، أي : وَتَوَدُّون أن تَكُونَ سبيلُ اللَّهِ عِوَجًا مَائلةً ، ﴿ وَاذْكُرُوا إذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أي: كُنتم مُسْتَضْعَفِين لِقِلَّتِكم، فَصِرْتُم أعِزَّةً لكثرة عَدَدِكم، فاذكُروا نِعمةَ اللَّهِ عَلَيكم في ذلك ، ﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِين ﴾ ، أي : مِنَ الأُمَمِ الخاليةِ والقُرُونِ المَاضِيَةِ ، وَمَا حَلَّ بِهِم مِنَ العَذابِ والنَّكَالِ باجترائهم على مَعَاصِي اللَّهِ ، وتَكذيبِ رُسُلِه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٢٧) : ((قَوْلُه : ﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾، الصِّرَاط : الطَّرِيق ، أي : لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ طريق تُوعِدُون الناسَ بالعذابِ . قِيل : كانوا يَقْعُدُون في الطُّرُقَاتِ المُفْضِيَة إلى شُعَيْب ، فَيَتَوَعَّدُون مَن أرادَ المَجِيءَ إلَيْه ، ويَقُولون إنَّه كَذَّاب ، فَلا تَذهَب إلَيه ، كما كانتْ قُرَيْشٌ تَفْعله معَ النَّبِيِّ ﷺ ، قاله ابن عَبَّاس وقَتَادَة ومُجَاهِد والسُّدي وغَيْرُهُم . وقِيل : المُراد : القُعُود على طُرُق الدِّين ، وَمَنْع مَن أرادَ سُلُوكَها ، وَلَيْسَ المُراد بِه القُعُود على الطُّرُق حقيقةً ، ويُؤَيِّده : ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ ، وقِيل : المُراد بالآيةِ النَّهْيُ عَن قَطْعِ الطريق ، وأخْذِ السَّلَبِ ، وكانَ ذلك مِن فِعْلِهِم ، وقِيل : إنَّهُم كانوا عَشَّارين يَأخذون الجِبَايَةَ في الطُّرُق مِن أموال الناس ، فَنُهُوا عَن ذلك ، والقَوْلُ الأوَّلُ أقربها إلى الصَّوَاب ، معَ أنَّه لا مانع مِن حَمْلِ النَّهْي على جميع هذه الأقوال المَذكورة . وجُملةُ ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ في مَحَلِّ نَصْب على الحال، وكذلك مَا عُطِفَ عَلَيها، أي: لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ طَرِيقٍ مُوعِدِين لأهْلِه، صَادِّين عن سبيل اللَّهِ ،

بَاغِين لها عِوَجًا ، والمُرادُ بالصَّدِّ عن سبيل اللَّه : صَد الناس عن الطريق الذي قَعَدُوا عَلَيه ، ومَنْعهم مِن الوُصُول إلى شُعَيْب ، فإنَّ سُلوك الناس في ذلك السَّبِيل للوُصُول إلى نَبِيِّ اللَّهِ هُوَ سُلوك سبيل اللَّهِ ، و ﴿ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ مَفعول ﴿ تَصُدُّونَ ﴾ ، والضَّميرُ في ﴿ آمَنَ بِهِ ﴾ يَرْجِع إلى اللَّهِ ، أوْ إلى سبيل اللَّه ، أوْ إلى كُلِّ صِرَاط ، أوْ إلى شُعَيْب ، ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ ، أي : تَطْلُبُون سَبيلَ اللَّهِ أن تَكُونَ مُعْوَجَّةً غَيْرَ مُستقيمة . ... . ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ ﴾ أي وَقْتَ كُنتُم ﴿ قَلِيلًا ﴾ عَدَدكم ﴿ فَكَثَّرَكُمْ ﴾ بالنَّسْلِ . وقِيل : كُنتم فُقَرَاءَ فأغناكم ﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِين ﴾ مِنَ الأُمَمِ الماضية ، فإنَّ اللَّهَ أهْلَكَهُم ، وأنزلَ بِهِم مِنَ العُقُوباتِ مَا ذَهَبَ بِهِم ، وَمَحَا أثَرَهُم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِنكُمْ آمَنُوا بِالذي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِين ﴾ [الأعراف : ٨٧] .

إذا كانَ فَرِيقٌ صَدَّقُوني فِيما جِئْتُهُم بِه مِن الأحكامِ التي شَرَعَهَا اللَّهُ تعالى ، وفريقٌ كَذَّبُوني ، أي : قَدْ اختلفتم عَلَيَّ ، فانتظروا حَتَّى يَفْصِلَ اللَّهُ بِحُكْمِه العادل بَيْنَنَا . وبِعِبارة أُخْرَى ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وبَيْنَكُم بإنجاءِ المُحِقِّين وإهلاكِ المُبْطِلِين ، وهذا وَعْدٌ أكيد للمُؤمنين ، وَوَعِيدٌ شديد للكافرين . وَلَيْسَ هُوَ من باب الأمر بالصَّبْرِ على الكُفْرِ . وحُكْمُ اللَّهُ بَين الفَريقَيْن هو نَصْر المؤمنين على الكافرين . واللَّهُ هُوَ العَدْلُ الذي لا يَجُور ، وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين، ولا مُعَقِّب لِحُكْمِه، ولا ظُلْمَ فِيه .

وهذا الكلامُ مِن أحْسَنِ أساليبِ الحِوَار ، إذْ بَرَزَ المُتَحَقِّق في صُورة المَشْكُوك ، وَهُوَ مِن بارع التَّقْسِيم ، فَيَكُون وَعْدًا للمُؤمنين بالنَّصْر ، ووعيدًا للكافرين بالعَذاب .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٥٤٥): ((يَعْنِي بِقَوْلِه تَعَالى ذِكْرُه : ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِنكُمْ ﴾ وإن كانتْ جَماعة مِنكُم وفِرْقة ﴿ آمَنُوا ﴾ ، يَقُول : صَدَّقُوا ، ﴿ بِالذي أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ مِن إخلاصِ العِبادةِ للَّهِ ، وتَرْكِ مَعَاصيه، وظُلْمِ الناسِ، وبَخْسِهم في المَكَاييلِ والمَوَازين، فَاتَّبَعُوني عَلى ذلك. ﴿ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ ، يَقُول : وجَمَاعة أُخْرَى لَمْ يُصَدِّقُوا بذلك ، ولَمْ يَتَّبعوني عَلَيه ، ﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ ، يَقُول : فَاحْتَبِسُوا على قَضَاءِ اللَّهِ الفاصلِ بَيْنَنَا وبَيْنَكُم ، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِين ﴾ ، يَقُول : واللَّهُ خَيْرُ مَنْ يَفْصِل ، وأعْدَلُ مَنْ يَقْضِي ، لأنَّه لا يَقَع في حُكْمِه مَيْل إلى أحد ، ولا مُحَابَاة لأحد ، واللَّهُ أعْلَم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الذينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالذينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِين ﴾ [الأعراف : ٨٨] .

قالَ أشرافُ قَوْمِ النَّبِيِّ شُعَيْبٍ ﷺ المُسْتَكْبِرُون عَن الإيمانِ باللَّهِ ورُسُلِه للنَّبِيِّ شُعَيْبٍ ﷺ والمؤمنين بِه : لَيَكُونَنَّ أحدُ الأمْرَيْن : إمَّا إخراجُكُم مِنَ القَرْيَة ، وإمَّا العَوْدَة في مِلَّتِنَا ، أي : إلى الكُفْرِ، ولا نُفَارقكم على مُخالفتنا . والمَعنى : لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْب ومَن آمنَ بِكَ مِن بَيْنِ أظْهُرِنا أوْ لَتَرْجِعُنَّ أنتَ وهُمْ إلى دِيننا . والنَّبِيُّ شُعَيْب ﷺ لَمْ يَكُن في مِلَّتِهِم قَط ، لأنَّ الأنبياء لا يَجُوز عَلَيهِم الكُفْر مُطْلَقًا ، ولكنَّهم غَلَّبُوا في الخِطَابِ الجَمْعَ عَلى الواحد ، فَخُوطِب هُوَ وَقَوْمُه بِخِطَابهم ، وعلى ذلك أجْرَى الجَوَابَ . قالَ النَّبِيُّ شُعَيْبٌ ﷺ مُجِيبًا لَهُم : أتُجْبِرُوننا عَلى الخُروجِ مِنَ الوَطَنِ أو العَوْدَة في مِلَّتِكُم وَلَوْ كُنَّا كارهين لذلك ؟ ، والاستفهام للإنكار .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٣٢٧) : ((﴿ قَالَ المَلَأُ الذينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ ، أي : قال الأشرافُ المُسْتَكْبِرُون : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالذينَ آمَنُوا مَعَكَ ﴾ ، لَمْ يَكْتَفُوا بِتَرْكِ الإيمانِ والتَّمَرُّدِ عَن الإجابة إلى مَا دَعَاهُم إلَيْه ، بَلْ جاوزوا ذلك بَغْيًا وبَطَرًا وأشَرًا إلى تَوَعُّدِ نَبِيِّهِم ومَن آمنَ بِه بالإخراج مِن قَرْيتهم ، أوْ عَوْدِه هُوَ وَمَنْ مَعَه في مِلَّتِهِم الكُفْرِيَّة ، أي : لا بُد مِن أحد الأمْرَيْن : إمَّا الإخراج أوْ العَوْد . قال الزَّجَّاج : يَجُوز أن يَكُون العَوْدُ بمعنى الابتداء ، يُقَال : عادَ إلَيَّ مِن فُلان مَكْرُوه ، أي : صارَ ، وإنْ لَمْ يَكُن سَبَقَه مَكْرُوه قَبْلَ ذلك ، فلا يَرِد مَا يُقَال : كَيْفَ يَكُون شُعَيْب على مِلَّتهم الكُفْرِيَّة مِن قَبْل أن يَبْعَثَه اللَّهُ رَسُولًا ؟ . ويُحتاج إلى الجواب بِتَغليبِ قَوْمِه المُتَّبِعين لَه عَلَيه في الخِطَاب بالعَوْد إلى مِلَّتِهِم . وجُملةُ ﴿ قَالَ أوَلَوْ كُنَّا كَارِهِين ﴾ مُسْتَأنَفَة جَوَاب عَن سُؤال مُقَدَّر ، والهمزة لإنكار وُقُوع مَا طَلَبُوه مِن الإخراج أو العَوْد ، والواو للحال ، أي : أتُعِيدُونَنَا في مِلَّتِكُم في حالِ كَرَاهتنا للعَوْدِ إلَيْهَا ، أوْ أتُخْرِجُوننا مِن قَرْيتكم في حالِ كراهتنا للخُروج مِنها ، أوْ في حَالِ كَرَاهتنا للأمْرَيْن جميعًا ، والمَعْنى : إنَّه لَيْسَ لَكُم أن تُكْرِهُونا عَلى أحدِ الأمْرَيْن ، ولا يَصِح لكم ذلك ، فإنَّ المُكْرَه لا اختيار له ، ولا تُعَد مُوافقته مُكْرَهَا مُوافقةً، ولا عَوْدُه إلى مِلَّتِكُم مُكْرَهًا عَوْدًا ، وبهذا التقرير يَندفع مَا استشكله كثير مِن المُفسِّرين في هذا المَقَام حتى تَسَبَّبَ عَن ذلك تَطْويل ذُيول الكلام)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلى اللَّهِ كَذِبًا إنْ عُدْنَا في مِلَّتِكُم بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أن نَعُودَ فِيهَا إلا أن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ وَأنتَ خَيْرُ الفَاتِحِين ﴾ [الأعراف : ٨٩] .

قَدِ اخْتَلَقْنَا على اللَّهِ أعظمَ أنواعِ الكَذِبِ إنْ عُدْنَا إلى دِينِكُم (الشِّرْك) بَعْدَ أن أنقَذَنَا اللَّهُ مِنْهُ بالإيمان ، وهذا تَيْئِيسٌ للكُفَّار مِن العَوْدَةِ إلى دِينِهِم ، ولا يَنْبغي ولا يَصِح لنا أن نَعُودَ إلى مِلَّتِكُم

ودِينِكُم إلا إذا شاءَ اللَّهُ لَنَا الانتكاسَ والخِذلانَ والارتدادَ فَيَمْضِي فِينا قَضَاؤُه ، وفيه دَليلٌ على أنَّ الكُفْرَ بِمَشيئةِ اللَّهِ تعالى ، وَمَا شاءَ كانَ ، ومَا لَمْ يَشَأ لَمْ يَكُنْ .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٢٥٧) : ((﴿ إلا أن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ ، يَقُول : إلا أن يَكُونَ قَدْ سَبَقَ لَنا في عِلْمِ اللَّهِ ومَشِيئته أنَّا نَعُود فِيها ، فَحِينئذ يَمْضِي قَضَاءُ اللَّهِ فِينا ، ويَنْفُذ حُكْمُه عَلَينا . فإنْ قِيل : مَا مَعنى قَوْلِه : ﴿ أوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا ﴾ ، ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أن نَعُودَ فِيهَا ﴾ ، وَلَمْ يَكُن شُعَيْب قَط عَلى مِلَّتِهِم حتى يَصِح قَوْلُهم : تَرْجِع إلى مِلَّتِنَا ؟ . قِيل : مَعناه : أوْ لَتَدْخُلُنَّ في مِلَّتِنَا ، فقال : ومَا كانَ لَنا أن نَدْخُلَ فِيها . وقِيل : مَعْنَاه : إنْ صِرْنَا في مِلَّتِكُم ، ومعنى عَاد : صار . وقِيل: أرادَ بِه قَوْمَ شُعَيْب ، لأنَّهُم كانوا كُفَّارًا فآمَنُوا ، فأجابَ شُعَيْبٌ عَنْهُم. أحاطَ عِلْمُ اللَّهِ بِكُلِّ الأشياءِ ، فلا يَخْرُج عَنْهُ مِنها شَيْء ، عَلى اللَّهِ اعْتَمَدْنَا في أن يُثَبِّتَنَا عَلى الإيمانِ ، ويَحُولَ بَيْنَنَا وبَيْنَ الكُفْرِ وأهْلِه ، ويُتِمَّ عَلَينا نِعْمَتَه ، ويَعْصِمَنَا مِن نِقْمته ، رَبَّنَا احْكُمْ بَيْنَنَا وبَيْنَهُم بِحُكْمِكَ الحَقِّ ، الذي لا جَوْر فِيه ولا ظُلْم ، وأنتَ خَيْرُ الحاكمين .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ٤١) : ((﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ قَدِ اخْتَلَقْنَا عَلَيه ﴿ إنْ عُدْنَا في مِلَّتِكُم بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ شَرْط جَوَابه مَحْذوف دَلِيلُه : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا ﴾ ، وَهُوَ بِمَعنى المُسْتَقْبَل، لأنَّه لَمْ يَقَعْ ، لكنَّه جُعِلَ كالواقع للمُبَالَغَة ، وأُدْخِلَ عَلَيه " قَد " لِتَقْريبه مِن الحال ، أي : قَد افْتَرَيْنَا الآنَ إنْ هَمَمْنَا بالعَوْدِ بعد الخَلاصِ مِنها ، حَيْث نَزْعُم أنَّ للَّهِ تَعَالى نِدًّا ، وأنَّه قَدْ تَبَيَّنَ لَنا أنَّ مَا كُنَّا عَلَيه باطل ، ومَا أنتُم عَلَيه حَق . وقِيل : لأنَّه جَوَاب قَسَم ، وتَقْديره : واللَّهِ لَقَد افْتَرَيْنَا . ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا ﴾ ومَا يَصِح لَنا ﴿ أن نَعُودَ فِيهَا إلا أن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ خِذلانَنا وارتدادَنا . وفيه دليل على أنَّ الكُفْر بِمَشيئة اللَّهِ . وقِيل : أرادَ بِه حَسْمَ طَمَعِهِم في العَوْدِ بالتَّعليقِ على مَا لا يَكُون ، ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ، أي : أحاطَ عِلْمُه بِكُلِّ شَيْء مِمَّا كانَ ومَا يَكُون مِنَّا ومِنْكُم ، ﴿ عَلى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ في أن يُثَبِّتَنَا على الإيمانِ ، ويُخَلِّصَنَا مِنَ الأشرار ، ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ ﴾ احْكُمْ بَيْنَنَا وبَيْنَهُم ، والفَتَّاحُ : القَاضِي ، والفِتَاحَةُ : الحُكُومَة ، أوْ أظْهِرْ أمْرَنا حَتَّى يَنكشِف مَا بَيْنَنَا وبَيْنَهُم ، ويَتَمَيَّز المُحِقُّ مِنَ المُبْطِلِ ، مِن فَتَحَ المُشْكِلَ إذْ بَيَّنَهُ، ﴿ وَأنتَ خَيْرُ الفَاتِحِين ﴾ عَلى المَعْنَيَيْن)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَالَ المَلَأُ الذينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إنَّكُمْ إذًا لَخَاسِرُون ﴾ [الأعراف : ٩٠] . قالَ الزُّعَمَاءُ والأشرافُ مِن قَوْمِه الفَجَرَةُ الكَفَرَةُ:إذا اتَّبَعْتُم شُعَيْبًا وأجَبْتُمُوه إلى مَا يَدْعُوكُم إلَيْهِ، أي : دَخَلْتُم في دِينِه ، وتَرَكْتُم دِينَكُم ، إنَّكُم إذًا لَخَاسِرُون .

وخُسْرَانُهُم : هَلاكُهُم أوْ مَا يَخْسَرُونه بسبب إيفاء الكَيْلِ والوَزْنِ، وتَرْكِ التَّطْفِيفِ الذي كانوا يُعَامِلُون الناسَ به .

والآيةُ تُوضِّح شِدَّةَ كُفْرِهِم وتَمَرُّدِهِم وعُتُوِّهِم ، ومَا هُمْ فيه مِن الضَّلال، ومَا جُبِلَتْ عَلَيه قُلُوبُهُم مِن المُخَالَفَة للحَقِّ .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٥) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : وقالت الجَمَاعَةُ مِن كَفَرَةِ رجال قَوْمِ شُعَيْب، وهُم المَلأ الذينَ جَحَدُوا آياتِ اللَّهِ ، وكَذَّبُوا رَسُولَه، وتَمَادَوْا في غَيِّهِم، لآخَرِين مِنْهُم: لَئِن أنتُم اتَّبَعْتُم شُعَيْبًا على مَا يَقُول ، وأجبتموه إلى مَا يَدْعُوكم إلَيه مِن تَوْحيدِ اللَّهِ ، والانتهاء إلى أمْرِه ونَهْيِه ، وأقْرَرْتُم بِنُبُوَّتِه ، ﴿ إنَّكُمْ إذًا لَخَاسِرُون ﴾ ، يَقُول : لَمَغْبُونُون في فِعْلِكُم ، وتَرْكِكُم مِلَّتَكُم التي أنتُم عَلَيها ، مُقِيمون إلى دِينِه الذي يَدْعُوكم إلَيْه ، وهالكون بذلك مِن فِعْلِكُم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ جَاثِمِين ﴾ [الأعراف : ٩١] .

فأخذتهم الزَّلزلةُ الشَّديدةُ ، فأصبحوا باركين عَلى الرُّكَبِ مَيِّتِين. وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٥) : ((يَقُول : فأخذت الذين كَفَرُوا مِن قَوْمِ شُعَيْبٍ الرَّجْفَةُ. وقَدْ بَيَّنْتُ مَعنى الرَّجْفَةِ قَبْل ، وأنَّها الزَّلزلة المُحَرِكة لِعَذابِ اللَّهِ ، ﴿ فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ جَاثِمِين ﴾ عَلى رُكَبِهِم مَوْتَى هَلْكَى)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ الذينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الذينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الخَاسِرِين﴾ [الأعراف : ٩٢] .

الذين كَذَّبُوا النَّبِيَّ شُعَيْبًا ﷺ كَأن لَمْ يُقِيمُوا في دارهم ، لأنَّ اللَّهَ سُبحانَه استأصلهم بالعَذابِ . وقَدْ أخبرَ عَنْهُم بالخَسَارِ بَعْدَ الهَلاكِ والدَّمَارِ .

والآيةُ : ﴿ الذينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الخَاسِرِين ﴾ ابتداءُ خِطَابٍ ، وَهُوَ مُبَالَغَة في الذَّمِّ والتَّوْبيخِ، وإعادتُه لتعظيم الأمر وتفخيمه. ولمَّا قالوا: ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إنَّكُمْ إذًا لَخَاسِرُون ﴾ ، كَذَّبَهُم اللَّهُ وَرَدَّ عَلَيْهِم قائلًا: ﴿ الذينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الخَاسِرِين ﴾ .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٦) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : فأهلكَ الذين كَذَّبُوا شُعَيْبًا ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِه ، فأبادهم ، فصارتْ قَرْيتهم مِنهُم خاويةً خَلاء ، ﴿ كَأن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ ، يَقُول : كَأن لَمْ يَنْزِلُوا قَط ، وَلَمْ يَعِيشوا بِها حِينَ هَلَكُوا. ... . وقَوْلُه: ﴿ الذينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الخَاسِرِين﴾ يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : لَمْ يَكُن الذين اتَّبَعُوا شُعَيْبًا الخاسرين ، بَل الذين كَذَّبُوه كانوا هُمُ الخاسرين الهالكين ، لأنَّه أخبرَ عَنهُم جَلَّ ثَنَاؤُه أنَّ الذين كَذَّبُوا شُعَيْبًا قالوا للذين أرادوا اتِّبَاعَه : ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إنَّكُمْ إذًا لَخَاسِرُون ﴾ ، فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ بِما أحَلَّ بِهِم مِن عَاجِلِ نَكَالِه ، ثُمَّ قال لِنَبِيِّه

مُحَمَّدٍ ﷺ : مَا خَسِرَ أَتْبَاعُ شُعَيْبٍ ، بَلْ كانَ الذين كَذَّبُوا شُعَيْبًا لَمَّا جاءتْ عُقوبةُ اللَّهِ هُم الخاسرين دُون الذين صَدَّقوا وآمنوا به)) .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ٤٢) : ((﴿ الذينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا ﴾ مُبْتَدَأ ، خَبَرُه : ﴿ كَأن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ ، أي : اسْتُؤْصِلُوا كَأن لَمْ يُقِيمُوا بِها ، والمَغْنَى : المَنْزِل ، ﴿ الذينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الخَاسِرِين ﴾ دِينًا ودُنيا لا الذين صَدَّقُوه واتَّبَعُوه ، كَمَا زَعَمُوا ، فإنَّهُم الرابحون في الدَّارَيْن،وللتَّنبيهِ على هذا والمُبالغةِ فِيه، كَرَّرَ المَوْصُولَ،واستأنفَ بالجُمْلَتَيْن،وأتى بِهِمَا اسْمِيَّتَيْن)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلى قَوْمٍ كَافِرِين ﴾ [الأعراف : ٩٣] .

فأعرضَ النَّبِيُّ شُعَيْبٌ ﷺ عَنْهُم لَمَّا شاهدَ نُزولَ العَذابِ بِهِم ، وقال : يا قَوْمِ ، لَقَدْ أَبْلَغْتُكُم رِسَالاتِ رَبِّي التي أَرْسَلَني بِها إلَيْكُم ، وأَدَّيْتُهَا كاملةً بلا زِيادة ولا نُقْصَان ، ونَصَحْتُ لَكُم ببيان ما فيه سلامة دِينكم ودُنياكم ، قاله تَأسُّفًا لِشِدَّةِ حُزْنِه عَلَى قَوْمِه لأنَّهُم لَمْ يَتَّبِعُوا نُصْحَه ، وتَحَسُّرًا على عدم إيمانهم . فَكَيْفَ أَحْزَنُ على قَوْمٍ كافرين باللَّهِ ، مُصِرِّين على الجُحُودِ ، مُتَمَرِّدِين على الدَّعْوَة ، رافضين للإجابة ؟ .

أي : كَيْفَ أَحْزَنُ عَلى مَن لا يَستحِق أن يُحْزَنَ عَلَيه ؟ ، لَيْسُوا أَهْلَ حُزْنٍ لاستحقاقهم مَا نَزَلَ عَليهم مِن العَذابِ والعِقَابِ بسبب كُفْرِهم .

والنَّبِيُّ شُعَيْبٌ ﷺ بالغَ في الإبلاغِ والإنذارِ ، وبَذَلَ وُسْعَه وأَقْصَى طاقته في النُّصْحِ والإرشادِ والإشفاقِ ، فَكَذَّبُوه ، وكَفَرُوا بِدَعْوَتِه ، فَكَيْفَ يَحْزَن عليهم ؟ . لا دَاعِي للحُزْنِ عليهم لأنَّهُم قادوا أنفسَهم إلى الهلاك . وعَلى نَفْسِهَا جَنَتْ بَرَاقِش .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٧) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : فأدبرَ شُعَيْبٌ عَنْهُم شاخصًا مِن بَيْنِ أظْهُرِهِم حِين أتاهم عذابُ اللَّه، وقالَ لمَّا أيقنَ بِنُزولِ نِقمةِ اللَّهِ بِقَوْمِه الذين كَذَّبُوه حُزْنًا عَلَيْهِم: ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي ﴾ ، وَأَدَّيْتُ إلَيْكُم مَا بَعَثَني بِه إلَيْكُم مِن تَحذيركم غَضَبَه على إقامتكم على الكُفْرِ بِه ، وظُلْمِ الناس أشياءَهم ، ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ بِأمْرِي إيَّاكم بطاعة اللَّهِ ، ونَهْيِكُم عَن مَعْصيته ، ﴿ فَكَيْفَ آسَى ﴾ ، يَقُول : فَكَيْفَ أحْزَن على قَوْمٍ جَحَدُوا وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ ، وكَذَّبُوا رَسُولَه وأتَوَجَّع لهلاكهم ؟ . ... . حَدَّثَنَا ابنُ حُمَيْد قال : ثَنَا سَلَمَة ، عن ابن إسحق قال : أصابَ شُعَيْبًا عَلى قَوْمِه حُزْنٌ لِمَا يَرى بِهِم مِن نِقْمَةِ اللَّهِ ، ثُمَّ قالَ يُعَزِّي نَفْسَه فِيما ذَكَرَ اللَّهُ عَنْه : ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلى قَوْمٍ كَافِرِين ﴾)) .

١٧ــ " ابْنَتَا شُعَيْب "

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِير ﴾ [القَصَص : ٢٣] .

وَلَمَّا وَصَلَ مُوسَى ﷺ إلى مَدْيَن بَلْدَةِ شُعَيْب ﷺ ، وَجَدَ عَلى البِئْرِ الذي يَسْتقي مِنْه الرُّعَاةُ جَمَاعَةً كثيرةً مُختلفين يَسْقُون مَوَاشيهم ، وَوَجَدَ مِن سِوَى الجَماعةِ امْرَأَتَيْن تَمْنَعَان أغنامَهما عَن الماء لِئَلا تَختلط بأغنامهم ، قال مُوسَى ﷺ للمَرْأَتَيْن : ما شَأنُكُمَا تَمْنَعَان الأغنامَ عَن وُرودِ المَاءِ ولا تَسْقِيَان معَ الناسِ ؟ ، قَالَتَا : لا نَسْقِي مَوَاشِينا حَتَّى يَصْرِفَ الرُّعَاةُ مَوَاشيهم عَن المَاءِ حَذَرًا مِن مُزاحمةِ الرِّجَال ومُخالطتهم ، وأبُونا كبيرُ السِّنِّ لا يَستطيع لِضَعْفِه أن يُبَاشِرَ سِقَايَةَ الأغنام ، ولذلك اضْطُرِرْنَا إلى أن نَسْقِيَ بأنفُسِنَا .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ١٩٩) : ((﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ ، وَهُوَ بِئْر كانوا يَسْقُون مِنها مَوَاشيهم ، ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً ﴾ جَمَاعَةً ﴿ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ مَوَاشِيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ يَعْنِي : سِوى الجَمَاعة ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ ، يَعْنِي : تَحْبِسَان وتَمْنَعَان أغنامَهما عَن الماء حتى يَفْرُغَ الناسُ وتَخْلُوَ لهما البِئر. قال الحَسَن: تَكُفَّان الغَنَمَ عَن أن تَختلِط بأغنام الناس. وقال قَتَادَة: تَكُفَّان الناسَ عَن أغنامهما ، وقِيل : تَمْنَعَان أغنامَهما عَن أن تَشِذَّ وتذهب ، والقَوْل الأول أصْوَبُها، لِمَا بَعْدَه ، وَهُوَ قَوْلُه : ﴿ قَالَ ﴾ يَعْنِي : مُوسَى للمَرْأَتَيْن : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ، مَا شَأنُكُمَا لا تَسْقِيَان مَوَاشيكما معَ الناس ؟ ، ﴿ قَالَتَا لا نَسْقِي ﴾ أغنامَنا ﴿ حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ ، قرأ أبو جعفر وأبو عَمْرو وابن عامر : " يَصْدُر " بفتح الياء وضَم الدَّال على اللزوم ، أي : حَتَّى يَرْجِع الرِّعَاءُ عَن المَاء ، وقرأ الآخرون : بِضَم الياء وكَسْرِ الدال ، أي : حتى يَصْرِفُوا هُمْ مَوَاشيهم عن الماء ، والرِّعَاءُ جَمْعُ رَاعٍ ، مِثْل : تَاجِر وتُجَّار . ومَعْنى الآية : لا نَسْقِي مَوَاشينا حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ، لأنَّا امرأتان لا نُطِيق أن نَسْقِيَ ، ولا نَستطيع أن نُزاحِم الرِّجَالَ ، فإذا صَدَرُوا سَقَيْنَا مَوَاشِينا مَا أفْضَلَتْ مَوَاشِيهم في الحَوْضِ ، ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِير ﴾ لا يَقْدِر أن يَسْقِيَ مَوَاشيه ، فلذلك احْتَجْنَا نَحْنُ إلى سَقْي الغَنَم . واختلفوا في اسم أبيهما ، فقال مُجاهِد والضَّحَّاك والسُّدي والحَسَن : هُوَ شُعَيْب النَّبِيُّ عليه السلام . وقال وَهْب بن مُنَبِّه وسعيد بن جُبَيْر : هو يثرون بن أخي شُعَيْب ، وكان شُعَيْب قَدْ ماتَ قَبْل ذلك بَعْدَمَا كُفَّ بَصَرُه ، فَدُفِنَ بَين المَقَامِ وزَمْزَم . وقِيل : رَجُل مِمَّن آمنَ بِشُعَيْب . قالوا : فَلَمَّا سَمِعَ مُوسَى قَوْلَهما رَحِمَهما ، فاقتلعَ صَخْرَةً مِن رأس بِئْر أُخْرَى كانت بِقُرْبهما لا يُطِيق رَفْعَهَا إلا جماعة من الناس . وقال ابنُ إسحاق : إنَّ مُوسَى زاحمَ القَوْمَ ونَحَّاهُم عَن رأس البِئْر ،

فَسَقَى غَنَمَ المَرْأَتَيْن . ويُرْوَى : أنَّ القَوْمَ لمَّا رَجَعُوا بأغنامهم غَطُّوا رَأسَ البِئْرِ بِحَجَرٍ لا يَرْفَعُه إلا عَشَرَة نَفَر ، فَجَاءَ مُوسَى ، وَرَفَعَ الحَجَرَ وَحْدَه ، وسَقَى غَنَمَ المَرْأَتَيْن . ويُقَال : إنَّه نَزَعَ ذَنُوبًا واحدًا ، وَدَعَا فيه بالبَرَكَةِ ، فَرَوَى مِنْه جميعَ الغَنَمِ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إلى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إنِّي لِمَا أنزَلْتَ إلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصَص : ٢٤] .

فَسَقَى مُوسَى ﷺ لَهُمَا أغنامَهما مِن بِئْر أُخْرَى بِقُرْبِهِمَا رَفَعَ عَنها حَجَرًا لا يَرْفَعُه إلا عَشَرَة أشخاص ، رَحمةً بالمَرْأتَيْن ، ومُساعدةً لهما ، ثُمَّ تَنَحَّى جانبًا فَجَلَسَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَة وَهُوَ جائع، فقال : رَبِّ إنِّي مُحتاجٌ إلى فَضْلِكَ وإحسانِكَ ، وإلى الطعام الذي أَسُدُّ بِه جُوعِي . طَلَبَ مِنَ اللَّهِ مَا يَأكله ، وكان قد اشتدَّ عَلَيه الجُوع. وقَدْ عَانَى مُوسَى ﷺ مِن الجُوعِ ، وَهُوَ صَفْوَةُ اللَّهِ مِن خَلْقِه. وهذا يَدُلُّ على أنَّ الدُّنيا تافهةٌ لا تُسَاوِي شيئًا عِنْدَ اللَّهِ تعالى ، فقد جاعَ فيها أنبياءُ اللَّهِ وأولياؤُه .

فَلَوْ كانت الدُّنيا جَزَاءً لِمُحْسِنٍ ... إذًا لَمْ يَكُنْ فِيها مَعَاشٌ لِظَالِمِ

لَقَدْ جَاعَ فِيهَا الأنبياءُ كَرَامَةً ... وَقَدْ شَبِعَتْ فِيهَا بُطُونُ البَهَائِمِ

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١ / ٢٨٩) : ((﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ مَوَاشِيهما رَحمةً عَلَيهما . قِيل: كانت الرُّعَاةُ يَضَعُون على رَأس البِئْر حَجَرًا لا يُقِلُّه إلا سَبْعَة رِجَال أوْ أكثر ، فَأَقَلَّهُ وَحْدَه مَعَ مَا كانَ بِهِ مِنَ الوَصَبِ _ شِدَّة التَّعَب _ والجُوعِ وجِرَاحَةِ القَدَم . وقِيل : كانتْ بِئْرًا أُخْرَى عَلَيها صَخْرَة فَرَفَعَهَا واسْتَقَى مِنها ، ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إلى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إنِّي لِمَا أنزَلْتَ إلَيَّ ﴾ لأيِّ شَيْءٍ أَنزلتَ إلَيَّ ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ قليل أوْ كثير ، وحَمَلَه الأكثرون على الطَّعَام ﴿ فَقِيرٌ﴾ مُحتاج سائل ، ولذلك عُدِّيَ باللام . وقِيل : مَعْنَاه : إنِّي لِمَا أنزلتَ إلَيَّ مِن خَيْرِ الدِّينِ صِرْتُ فقيرًا في الدُّنيا ، لأنَّه كانَ في سَعَة فِرْعَوْن ، والغَرَضُ مِنْهُ إظهار التَّبَجُّح ، والشُّكْر على ذلك)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣ / ٢٣٢) : ((﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ فَسَقَى غَنَمَهما لأجلهما رَغْبَةً في المَعروفِ ، وإغاثةً للمَلهوفِ . رُوِيَ أنَّه نَحَّى القَوْمَ عَن رأس البِئْر ، وسَأَلَهُم دَلْوًا فَأَعْطَوْهُ دَلْوَهُم وقالوا: اسْتَقِ بِها ، وكانتْ لا يَنْزِعُها إلا أربعون ، فاستقى بها ، وصَبَّهَا في الحَوْضِ ، وَدَعَا بالبَرَكَةِ . ... . وإنَّما رَضِيَ شُعَيْب عليه السلام لابنتَيْه بِسَقْيِ الماشية ، لأنَّ هذا الأمر في نَفْسِه لَيْسَ بِمَحظور ، والدِّينُ لا يَأباه ، وأمَّا المُرُوءة فعادات الناس في ذلك مُتباينة ، وأحوال العَرَبِ فيه خِلاف أحوال العَجَم ، ومَذهَبُ أهل البَدْوِ فِيه غَيْر مَذهَب أهْلِ الحَضَرِ ، خُصوصًا إذا كانت الحالة حالة ضَرورة ، ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إلى الظِّلِّ ﴾ أي : ظِلِّ سَمُرَة ، وفِيه دَليل جَوَاز الاستراحة في

الدُّنيا بِخِلاف مَا يَقُوله بعضُ المُتَقَشِّفَة . ولمَّا طالَ البَلاءُ عَلَيه أَنِسَ بالشَّكْوَى ، إذْ لا نَقْص في الشَّكْوَى إلى المَوْلَى ، ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا ﴾ لأيِّ شَيْءٍ ﴿ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ ﴾ قليل أوْ كثير غَث أوْ سَمِين ﴿ فَقِيرٌ﴾ مُحتاج . وعُدِيَ " فقير " باللام ، لأنَّه ضِمْن معنى سائل وطالب . قِيل : كانَ لَمْ يَذُقْ طعامًا سبعة أيام ، قَدْ لَصِقَ بِظَهْرِه بَطْنُه . ويُحْتَمَل أن يُريد إنِّي فقير مِن الدُّنيا لأجْلِ مَا أنزلتَ إلَيَّ مِن خَيْرِ الدِّين ، وهو النَّجَاة مِن الظالمين ، لأنَّه كانَ عِند فِرْعَوْن في مُلْكٍ وثَرْوَة . قال ذلك رِضًا بالبَدَلِ السَّنِيِّ ، وفَرَحًا بِه ، وشُكْرًا له . وقال ابنُ عَطَاء : نَظَرَ مِن العُبُوديَّة إلى الرُّبُوبيَّة ، وتَكَلَّمَ بِلِسَانِ الافتقار لِمَا وَرَدَ عَلى سِرِّه مِن الأنوار)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أبي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظالمين ﴾ [القَصَص:٢٥].لمَّا رَجَعَت المَرْأتَان سريعًا بالأغنامِ إلى أبيهما،أنكرَ حالَهما بسبب مَجِيئهما سريعًا، فسألهما عن خَبَرهما ، فَقَصَّتَا عَلَيه مَا فَعَلَ مُوسَى ﷺ ، فَبَعَثَ إحْدَاهُمَا إلَيْه لِتَدْعُوه إلى أبيها .

جَاءَتْهُ تَمْشِي مِشْيَةَ الحَرَائرِ بِحَيَاءٍ وخَجَلٍ قَدْ سَتَرَتْ وَجْهَهَا بِثَوْبِهَا . وهذا دَليل كمال إيمانها ، وشَرَفِ عُنصرِها ، وكَرَمِ أصْلِها . وتَنكيرُ ﴿ اسْتِحْيَاءٍ ﴾ للتَّفْخِيم .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٦ / ٢١٤) : ((وفي سبب استحيائها ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه كان مِن صِفتها الحَيَاء ، فهي تَمْشِي مَشْيَ مَن لَمْ يَعْتَد الخُروجَ والدُّخُولَ . والثاني لأنَّها دَعَتْهُ لِتُكافئه ، وكانَ الأجمل عِندها أن تَدْعُوه مِن غَيْر مُكَافأة . والثالث لأنَّها رَسُولُ أبيها)) .

قالتْ : إنَّ أبي يَطْلُبُكَ لِيُعَوِّضَكَ عَن أجْرِ السِّقَايةِ لأغنامِنا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥١٠) : ((﴿ قَالَتْ إِنَّ أبي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ ، وهذا تَأدُّب في العِبارة ، لَمْ تَطْلُبْهُ طَلَبًا مُطْلَقًا لِئَلا يُوهِم رِيبةً ، بَلْ قالتْ : ﴿ إِنَّ أبي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ ، يَعْنِي : لِيُثِيبَكَ ويُكَافِئَكَ عَلى سَقْيِكَ لِغَنَمِنَا)) .

فلمَّا جَاءَه مُوسَى ﷺ ، وَذَكَرَ لَهُ مَا كانَ مِن أمْرِه ، وسبب هَرَبه مِن مِصْر ، أي إنَّه أخبرَه عَن قَتْلِه للقِبْطِيِّ ، وقَصْدِهم قَتْلَه ، وخَوْفِه مِن فِرْعَوْن . قالَ لَهُ شُعَيْب : لا تَخَفْ ، فأنتَ في بَلَدٍ آمِن (مَدْيَن) لا سُلطان لِفِرْعَوْن عَلَيه ، وقَدْ نَجَّاكَ اللَّهُ مِن كَيْدِ المُجْرِمين .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥١٠) : ((﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ ﴾ ، أي : ذَكَرَ لَهُ مَا كان مِن أمْرِه ، ومَا جَرَى له مِن السَّبَبِ الذي خَرَجَ مِن أجْلِه مِن بَلَدِه ، ﴿ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظالمين ﴾ ، يَقُول: طِبْ نَفْسًا، وَقَرَّ عَيْنًا، فَقَدْ خَرَجْتَ مِن مَمْلكتهم ، فَلا حُكْمَ

لَهُم في بِلادنا ، ولهذا قال : ﴿ نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظالمين ﴾ . وقَد اختلفَ المُفسِّرون في هذا الرَّجُل مَنْ هُوَ ؟ ، على أقوال : أحدها أنَّه شُعَيْب النَّبِيُّ عليه السلام الذي أُرْسِلَ إلى أهل مَدْيَن ، وهذا هو المشهور عِند كثير مِن العُلَمَاء ، وقَد قاله الحَسَن البَصْرِي وغير واحد ، ورواه ابن أبي حاتم : حَدَّثَنَا أبي حَدَّثَنَا عبد العزيز الأويسي حَدَّثَنَا مالك بن أنس أنَّه بَلَغَه أنَّ شُعَيْبًا هُوَ الذي قَصَّ عَلَيه مُوسَى القَصَصَ ، قال : ﴿ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظالمين ﴾ . وقَدْ رَوَى الطَّبَرَاني عَن سَلَمَة بن سَعْد العَنَزِيِّ أنَّه وَفَدَ على رسول اللَّه ﷺ ، فقال له : " مَرْحَبًا بِقَوْمٍ شُعَيْب ، وأُخْتَان مُوسَى ، هُدِيت " . وقال آخَرُون : بَلْ كان ابن أخي شُعَيْب ، وقِيل : رَجُل مُؤمِن مِن قَوْم شُعَيْب ، وقال آخَرُون : كان شُعَيْب قَبْلَ زَمَان مُوسَى عليه السلام بِمُدَّة طويلة ، لأنَّه قالَ لِقَوْمِه : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُم بِبَعِيد ﴾ [هُود : ٨٩] . وقَد كانَ هَلاك قَوْم لُوط في زَمَن الخليل عليه السلام بِنَصِّ القُرْآنِ . وقَدْ عُلِمَ أنَّه كان بَين الخليل ومُوسَى عَلَيهما السلام مُدَّة طويلة تَزِيد على أربعمائة سَنَة ، كَمَا ذَكَرَه غَيْرُ واحد ، ومَا قِيل إنَّ شُعَيْبًا عاش مُدَّةً طويلة ، إنَّما هُوَ ـ واللَّهُ أعْلَم ـ احتراز مِن هذا الإشكال ، ثُمَّ مِن المُقَوِّي لِكَوْنِه لَيْسَ بِشُعَيْب أنَّه لَوْ كان إيَّاه لأوشكَ أن يَنُصَّ على اسمه في القُرْآنِ هَهُنا ، ومَا جاء في بعض الأحاديث مِن التَّصريح بِذِكْرِه في قِصَّة مُوسَى لَمْ يَصِح إسنادُه ، ثُمَّ مِن المَوجود في كُتُب بني إسرائيل أنَّ هذا الرَّجُل اسمه ثيرون ، واللَّهُ أعْلَم . قال أبو عُبَيدة ابن عبد اللَّه بن مسعود : ثيرون هو ابن أخي شُعَيْب عليه السلام. وعن أبي حَمْزَة عن ابن عباس قال : الذي استأجرَ مُوسَى يثرى صَاحِب مَدْيَن ، رواه ابن جرير به ، ثُمَّ قال : الصَّوَاب أنَّ هذا لا يُدْرَك إلا بِخَبَر، ولا خَبَر تَجِب بِه الحُجَّة في ذلك)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٢٤٠) : ((قَوْلُه : ﴿ فَجَاءَتْهُ إحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ ، في الكلام حذفٌ يَدُلُّ عَلَيه السِّيَاق . قال الزَّجَّاج : تقديرُه : فَذَهَبَتَا إلى أبيهما سَرِيعَتَيْن ، وكانتْ عادتهما الإبطاء في السَّقْي ، فَحَدَّثَتَاه بما كان مِن الرَّجُل الذي سَقَى لهما ، فأمرَ الكُبْرَى مِن ابْنَتَيْه ، وقِيل : الصُّغْرى ، أن تَدْعُوه له ، فجاءته . وذَهَبَ أكثرُ المُفسِّرين إلى أنَّهما ابْنَتَا شُعَيْب ، وقِيل : هُمَا ابْنَتَا أخي شُعَيْب ، وأنَّ شُعَيْبًا كانَ قَد مَات ، والأوَّلُ أرجح ، وهو ظاهرُ القُرْآن . ومَحَلُّ ﴿ تَمْشِي ﴾ النَّصْب على الحَال مِن فاعل " جاءتْ " ، و ﴿ عَلى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ حال أُخْرَى ، أي : كائنة على استحياء حَالَتَي المَشْي والمَجِيء فَقَط . وجُمْلَةُ : ﴿ قَالَتْ إنَّ أبي يَدْعُوكَ ﴾ مُسْتَأنَفَة ، جواب سُؤال مُقَدَّر ، كأنَّه قِيل : ماذا قالتْ لَهُ لَمَّا جَاءَتْهُ ؟ ، ﴿ لِيَجْزِيَكَ أجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ ، أي: جَزَاء سَقْيِكَ لَنَا ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ ﴾ ، " القَصَص " مَصْدَر

سُمِّيَ بِه المَفعول ، أي : المَقْصُوص ، يَعْني : أخْبَرَه بجميع مَا اتَّفَقَ لَهُ مِن عِند قَتْلِه القِبْطِي إلى عِند وُصوله إلى مَاء مَدْيَن ، ﴿ قَالَ ﴾ شُعَيْب : ﴿ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القَوْم الظالمين ﴾ ، أي : فِرْعَوْن وأصحابه ، لأنَّ فِرْعَوْن لا سُلْطَان لَهُ عَلى مَدْيَن)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالَتْ إحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأجِرْهُ إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأجَرْتَ القَوِيُّ الأمِينُ ﴾ [القَصَص : ٢٦] . قالتْ إحدى المَرْأتَيْن اللتَيْن سَقَى لَهُمَا مُوسَى لأبيها حِينَ أتاه مُوسَى ﷺ ، وقِيل : القائلةُ هي المَرْأةُ التي جَاءَتْهُ واسْتَدْعَتْهُ : اسْتَأجِرْهُ لِرَعْي أغنامِنا وسِقَايتها . وهذا دليلٌ على أنَّ الإجَارَة كانتْ عِندَهم مَشروعةً مَعلومةً ، وكذلك كانتْ في كُلِّ مِلَّة ، وهي ضَرورة حياتية ومَصلحة اجتماعية . إنَّ أفضلَ مَن استأجرتَ مَن كانَ قَوِيًّا أمينًا . وهذا كَلامٌ حَكِيمٌ جامعٌ ، لأنَّه إذا اجتمعت القُوَّةُ والأمانةُ في الشخص ، فإنَّ يَقُوم بالمَسؤولية على أكْمَلِ وَجْه وأحسنِ صُورة . وإنَّما سَمَّتْهُ قَوِيًّا لرفعه الحَجَر عن رأس البِئْر ، وَسَمَّتْهُ أمِينًا لأنَّه أمَرَهَا أن تَمْشِي خَلْفَه ، فَرَغِبَ الشَّيْخُ في مُصاهرته وتَزْويجه بإحدى بَنَاته . وَوَرَدَ الفِعْلُ ﴿ اسْتَأجَرْتَ ﴾ بلفظ الماضي ، للدَّلالة على أنَّ قُوَّتَه وأمانته أمْرَان مُتَحَقِّقَان ، وأنَّه شَخْصٌ مُجَرَّب مَعروف . وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٢٠٢) : ((﴿ قَالَتْ إحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأجِرْهُ ﴾ ، اتَّخِذْهُ أجيرًا لِيَرعى أغنامَنا ، ﴿ إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأجَرْتَ القَوِيُّ الأمِينُ ﴾ ، يَعْنِي : خَيْر مَن استعملتَ مَن قَوِيَ على العمل، وأدَّى الأمانةَ ، فقال لها أبُوها : ومَا عِلْمُكِ بِقُوَّتِه وأمانته ؟ ، قالت : أمَّا قُوَّتُه : فَإنَّه رَفَعَ حَجَرًا مِن رَأسِ البِئْرِ لا يَرْفَعُه إلا عَشَرَة ، وقِيل : إلا أربعون رَجُلًا ، وأمَّا أمانته : فإنَّه قال لِي : امْشِي خَلْفِي حَتَّى لا تَصِفَ الرِّيحُ بَدَنَكِ)) .

وعن عبد اللَّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عنه قال : ((أفْرَسُ الناسِ ثلاثة : العَزِيزُ حِينَ قالَ لامرأته: أكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أن يَنفَعَنَا أوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، والتي قالتْ : يَا أَبَتِ اسْتَأجِرْهُ إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأجَرْتَ القَوِيُّ الأمِينُ ، وأبو بَكْرٍ حِينَ تَفَرَّسَ في عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عنهما)) [٣١] .

أصْدَقُهُم فِرَاسَةً هؤلاء الثلاثة. وقَدْ أحسنَ الصَّحَابيُّ الجليلُ عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّهُ عنه في الجَمْعِ بَيْنَهُم ، وهذا يدلُّ على عِلْمه الواسع ، ودِقَّةِ مُلاحظته . والفِرَاسَةُ مَأخوذة مِن التَّفَرُّس بالشَّيْء،وهي خَاطِر يَهْجُم على القَلْب،ويَثِب عليه وُثُوبَ الأسَدِ عَلى فَرِيسته.والفِرَاسَةُ (اصطلاحًا): الاستدلالُ بالأحوال الظاهرة في الجسد (الأشكال والألوان والأعضاء) على الأحوال الباطنة . وقال الحافظ في الفتح (٤ / ٤٤٠) : ((وذَكَرَ ابنُ جَرِير اختلافًا في أنَّ أبَاهُما هَلْ هُوَ شُعَيْب

---

٣١ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٣٧٦) برقم (٣٣٢٠) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

النَّبِيُّ ، أوْ ابن أخيه ، أوْ آخَر اسْمُه يثرون أوْ يثري ، أقوالٌ لَمْ يُرَجِّحْ مِنها شيئًا . ورَوَى مِن طريق عليِّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قَوْلِه : ﴿ إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأجَرْتَ القَوِيُّ الأمِينُ ﴾ ، قال: قَوِيٌّ فِيما وَلِيَ ، أمِينٌ فِيمَا اسْتُودِعَ . ورَوَى مِن طريق ابن عباس ومُجاهد في آخَرين أنَّ أباها سألها عَمَّا رَأتْ مِن قُوَّتِه وأمَانَتِه ، فَذَكَرَتْ قُوَّتَه في حَالِ السَّقْي، وأمَانَتَه في غَضِّ طَرَفِه عَنها ، وقَوْلُه لها: امْشِي خَلْفِي ، وَدُلِّيني عَلى الطريق . وهذا أخرجه البَيْهَقِيُّ بإسناد صحيح عن عُمَر بن الخَطَّاب ، وزادَ فِيه : فَزَوَّجَهُ ، وأقامَ مُوسَى مَعَه يَكْفِيه ، ويَعْمَل له في رِعَاية غَنَمِه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالَ إنِّي أُرِيدُ أنْ أُنكِحَكَ إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلى أن تَأجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإنْ أتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أنْ أشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُني إن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ [القَصَص : ٢٧] . قال الشَّيْخُ لِمُوسَى : إنِّي أُرِيدُ أن أُزَوِّجَكَ إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْن الصُّغْرَى أو الكُبْرَى بِشَرْط أن تَكُون أجيرًا لِي ثَمَاني سِنين تَرْعَى فِيها أغنامي ، فَإنْ أكْمَلْتَهَا عَشْرَ سِنين ، فذلك تَفَضُّل مِنْكَ ، ولَيْسَ بواجب عَلَيْكَ ، وَمَا أُرِيدُ أن أُوقِعَكَ في المَشَقَّةِ باشتراط العَشْرِ سِنين، سَتَجِدُني إن شاءَ اللَّهُ (للتَّبَرُّكِ) حَسَنَ المُعَامَلَةِ ، لَيِّنَ الجانبِ ، وَفِيًّا بالعَهْد .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٢٤١) : ((﴿ قَالَ إنِّي أُرِيدُ أنْ أُنكِحَكَ إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ ، فِيه مَشروعيَّة عَرْض وَلِيِّ المَرْأة لَهَا عَلى الرَّجُل ، وهذه سُنَّة ثابتة في الإسلام ، كما ثَبَتَ مِن عَرْضِ عُمَر لابنته حَفْصَة على أبي بَكْر وعُثمان ، والقِصَّةُ مَعروفة، وغَيْر ذلك مِمَّا وَقَعَ في أيَّام الصَّحَابة أيَّام النُّبُوَّة ، وكذلك مَا وَقَعَ مِن عَرْضِ المَرأة لِنَفْسِهَا على رسول اللَّه ﷺ ، ﴿ عَلى أن تَأجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ ، أي : عَلى أن تَكُونَ أجيرًا لِي ثَمَاني سِنين . قال الفَرَّاء : يَقُول : عَلى أن تَجْعَلَ ثَوَابي أن تَرْعَى غَنَمِي ثَمَاني سِنين ، ومَحَلُّ ﴿ عَلى أن تَأجُرَنِي ﴾ النَّصْب على الحَالِ ، وَهُوَ مُضَارِع أَجَرْتُهُ ، ومَفعوله الثاني مَحذوف ، أي : نَفْسَكَ ، و ﴿ ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ ظَرْف . ... . ﴿ فَإنْ أتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ ، أي : إنْ أتممتَ مَا استأجرتك عَلَيه مِن الرَّعْي عَشْرَ سِنين فَمِن عِندك ، أي: تَفَضُّلًا مِنْكَ لا إلزامًا مِنِّي لَكَ ، جَعَلَ مَا زادَ على الثمانية الأعوام إلى تَمَام عَشْرَة أعوام مَوكولًا إلى المُروءةِ ، وَمَحَلُّ ﴿ فَمِنْ عِندِكَ ﴾ الرَّفْع ، على تقدير مُبتدَأ ، أي : فَهِيَ مِن عِندك ﴿ وَمَا أُرِيدُ أنْ أشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ بإلزامك إتمام العَشْرَة الأعوام ، ... ، ثُمَّ رَغَّبَه في قَبول الإجارة ، فقال : ﴿ سَتَجِدُني إن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ في حُسْنِ الصُّحْبَةِ والوَفَاءِ ، وقِيل : أرادَ الصَّلاحَ على العُموم ، فَيَدخُل صَلاح المُعامَلة في تِلْك الإجَارة تَحْتَ الآية دُخولًا أوَّلِيًّا ، وقَيَّدَ ذلك بالمَشيئة تَفْويضًا للأمر إلى تَوفيقِ اللَّهِ ومَعُونته)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أيَّمَا الأجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلى مَا نَقُولُ وَكِيل ﴾ [القَصَص : ٢٨] .

قالَ مُوسَى : إنَّ مَا قُلْتُهُ وَعَاهَدْتَني عَلَيه قائمٌ بَيْنَنَا جميعًا لا نَخْرُج عَنْه ، وأيَّ المُدَّتَيْن الثماني أو العَشْر أدَّيْتُهَا لَكَ فَلا إثم ولا حَرَج عَلَيَّ ، واللَّهُ شاهدٌ عَلى مَا تَعَاهَدْنَا وتَوَاثَقْنَا عَلَيه .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٦٣) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : ﴿ قَالَ ﴾ مُوسَى لأبي المَرْأتَيْن : ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ ، أي : هذا الذي قُلْتَ مِن أنَّكَ تُزَوِّجُني إحدى ابْنَتَيْكَ عَلى أن آجُرَكَ ثَمَانِيَ حِجَج ، واجبٌ بَيْني وبَيْنَكَ ، على كُلِّ واحد مِنَّا الوفاء لصاحبه بِما أوجبَ له على نَفْسَه . وقَوْلُه : ﴿ أيَّمَا الأجَلَيْنِ قَضَيْتُ ﴾ ، يَقُول : أيَّ الأجَلَيْن مِن الثَّمَاني الحِجَج والعَشْر الحِجَج قَضَيْتُ ، يَقُول : فَرَغْتُ مِنها فَوَفَّيْتُكَهَا رَعْيَ غَنَمِك وماشيتك ﴿ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ ، يَقُول : فَلَيْسَ لَكَ أن تَعتديَ عَلَيَّ فَتُطالبني بأكثر مِنْه ، ... . وقَوْلُه: ﴿ وَاللَّهُ عَلى مَا نَقُولُ وَكِيل ﴾ يَقُول : واللَّهُ عَلى مَا أوجبَ كُلُّ واحد مِنَّا لصاحبه على نَفْسِه بهذا القَوْلِ شهيدٌ وحفيظٌ)) .

وقَد اختلفَ المُفسِّرون وأصحابُ السِّيَر ، فَمِنهُم مَن يُثْبِت المُصَاهَرَةَ بَيْن الرَّسُولَيْن مُوسَى وشُعَيْب ، عَلَيهما الصلاة والسلام ، ومِنهُم مَن يَنْفِي ذلك ، ويَستبعد لِقاءَهما مِن الأصل .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٦ / ٢١٦) : ((واختلفَ العُلماءُ في هذا الرَّجُل الذي استأجرَ مُوسَى ، على أربعة أقوال : أحدها أنَّه شُعَيْب نَبِيُّ اللَّه ﷺ ، وعلى هذا أكثر أهل التَّفسير ، وفيه أثر عن النَّبِيِّ ﷺ يدلُّ عَلَيه ، وبه قال وَهْب ومُقاتِل . والثاني أنَّه صاحب مَدْيَن ، واسْمُه يثرى، قاله ابن عباس . والثالث رَجُل مِن قَوْم شُعَيْب ، قاله الحَسَن . والرابع أنَّه يثرون ابن أخي شُعَيْب ، رواه عمرو بن مُرَّة عن أبي عُبَيدة بن عبد اللَّه بن مسعود ، وبه قال ابن السائب . واختلفوا في التي تَزَوَّجَهَا مُوسَى مِن الابْنَتَيْن ، عَلى قَوْلَيْن: أحدهما الصُّغْرَى ، رُوِيَ عن ابن عباس، والثاني الكُبْرَى، قاله مُقاتِل . وفي اسم التي تَزَوَّجَهَا ثلاثة أقوال : أحدها صفوريا ، حَكَاه أبو عِمران الجَوْني ، والثاني صفورة ، قاله شُعَيْب الجُبَّائي ، والثالث صبورا ، قاله مُقاتِل)) .

وعن ابن عباس قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((سَألْتُ جِبريلَ : أيَّ الأجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى ؟ ، قال: أكْمَلَهُمَا وأتَمَّهُمَا)) [٣٢] .

---

٣٢ رواه أبو يَعْلَى في مُسنَده (٤ / ٢٩٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ١٩٩): ((رواه أبو يَعْلَى ، ورجاله رجال الصحيح غير الحَكَم بن أبَان ، وهو ثِقة)) اهـ . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٤/ ٧٨):

الأنبياءُ _ عليهم الصَّلاة والسَّلام _ أَكْمَلُ الناسِ خُلُقًا ، وأصْدَقُهُم حديثًا . وقَدْ كَثُرَ في القُرآنِ ذِكْرُ النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ ، لِمَا لَهُ مِن عَزْمٍ وصَبْرٍ .

" سَأَلْتُ جِبريلَ : أيَّ الأجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى ؟ " ، يَعْنِي: أقَضَى أطْوَلَهما أوْ أقْصَرَهما ؟ ، ويَقْصِد قَوْلَ اللَّهِ تعالى : ﴿ إنِّي أُرِيدُ أنْ أُنكِحَكَ إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلى أن تَأجُرَني ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإنْ أتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ ، يَعْنِي أن تَكُونَ أجيرًا لِي ثَمَانِيَ سِنين ، فإنْ أتممتَ عَشْرًا ، فذلك تَفَضُّلٌ مِنْكَ لَيْسَ بواجب عَلَيك ، " قال: أكْمَلَهُمَا وأتَمَّهُمَا " ، يَعْني : عَشْرَ سِنين . وفي صحيح البُخاري عَلَّلَ ابنُ عباس ذلك ، فقالَ : " إنَّ رسول اللَّه ﷺ إذا قَالَ فَعَلَ " ، أي : مَن اتَّصَفَ بالرِّسَالة ، إذا قالَ قَوْلًا فَعَلَه ، لأنَّ مَحَاسِنَ الأخلاقِ النَّبَوِيَّةِ مُقْتَضِيَةٌ لذلك ، وقَدْ قالَ مُوسَى ﷺ : ﴿ أيَّمَا الأجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾)) .

وعن أبي ذَر قال: قال لِي رسولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وآلِهِ وسَلَّمَ : ((إذا سُئِلْتَ : أيَّ الأجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى ؟ ، فَقُلْ : خَيْرَهُمَا وأتَمَّهُمَا وأبَرَّهُمَا ، وإنْ سُئِلْتَ : أيَّ المَرْأتَيْنِ تَزَوَّجَ ؟ ، فَقُل : الصُّغْرَى مِنهُمَا، وهي التي جاءتْ ، وقالت : يَا أبَتِ اسْتَأجِرْهُ إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأجَرْتَ القَوِيُّ الأمِينُ ، قال : مَا رَأيْتِ مِن قُوَّتِهِ ؟ ، قالتْ : أَخَذَ حَجَرًا ثقيلًا فألقاه عَن البِئْرِ ، قال : وَمَا الذي رَأيْتِ مِن أمَانَتِه ؟ ، قالتْ : قال : امْشِي خَلْفِي ، ولا تَمْشِي أمَامِي)) . لَمْ يَرْوِهِ عَن أبي عِمْرَان إلا ابْنُه [٣٣] .

يَدُلُّ الحديثُ عَلى عَظَمَةِ مُوسَى ﷺ ، وأخلاقِه الحَميدة ، حَيْثُ أتَمَّ العَشْرَ سِنين ، معَ أنَّ هذا لَيْسَ بواجب عَلَيه ، كما يَدُلُّ على قُوَّتِه الهائلة ، حَيْث رَفَعَ حَجَرًا ثقيلًا وَحْدَه ، وأمَانَتِه الجليلة حَيْثُ طَلَبَ مِنَ المَرْأةِ أن تَمْشِي خَلْفَه لا أمَامَه ، لِكَيْلا يَرَاها والرِّياح تُحَرِّك ثِيَابَها وتُحَدِّد جَسَدَهَا .

(((سألتُ جِبريلَ أيَّ الأجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى) لِشُعَيْب ، هَلْ هُوَ أطْوَلُهُما الذي هو العَشْر أوْ أقْصَرُهُما الذي هو الثَّمَان (قال) قَضَى (أكْمَلَهُمَا وأتَمَّهُمَا) وهو العَشْر . مِن حديث ابن عُيَينة عن إبراهيم ابن يحيى عن الحَكَم بن أبَان عن عِكْرمة (عن ابن عبَّاس) قال الحاكم : صحيح ، وَرَدَّه الذهبي بأنَّ إبراهيم لا يُعرَف ، انتهى . وقال في المنار : هو رَجُل صالح لكنَّه لا يُعرَف ، ولَيْسَ كُلُّ صالحٍ ثِقَةً في الحديث ، بَلْ لَمْ يُرَ الصالحين في شَيْء أكذب مِنهُم في الحديث ، لِسَلامةِ صُدورهم ، وحُسْنِ ظَنِّهِم عَن تحديثهم ، وشُغْلهم بما هُمْ فيه عَن الضَّبْطِ والحِفْظِ ، انتهى . ورواه الطَّبَرَاني عن جابر ، قال الهيثمي : وفيه مُوسَى ابن سهل ، لَمْ أعرفه ، وبَقِيَّة رجاله ثِقَات)) .

٣٣ رواه الطبراني في الصغير (٢ / ٧٩) ، وحَسَّنَه الهيثمي في المجمع (٧ / ٢٠١) .

وفي صحيح البُخاري (٢ / ٩٥٣) عن سَعِيد بن جُبَير قال : سَألَني يَهوديٌّ مِن أهْلِ الحِيرَةِ، أيَّ الأجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى ؟ ، قُلْتُ : لا أدْرِي ، حَتَّى أقْدَمَ على حَبْرِ العَرَبِ ، فَأسْألَه ، فَقَدِمْتُ، فَسَألْتُ ابنَ عَبَّاسٍ ، فقالَ : قَضَى أكْثَرَهُمَا وأطْيَبَهُمَا ، إنَّ رسول اللَّه ﷺ إذا قَالَ فَعَلَ)) .

يُخبِر التابعيُّ سَعِيد بن جُبَير أنَّ يَهوديًّا مِن أهْلِ الحِيرَةِ _ وهي مَدينةٌ قَديمةٌ بالعِراق قُرْبَ الكُوفة ، وكانتْ مَنْزِلَ المُلوكِ _ ، سَألَه : أيَّ الأجَلَيْن قَضَى مُوسَى ؟ ، يُشير إلى قَوْلِ اللَّهِ تعالى في قِصَّةِ مُوسَى ﷺ : ﴿ إنِّي أُرِيدُ أنْ أُنكِحَكَ إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلى أن تَأجُرَني ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإنْ أتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ ، يَعْنِي : أن تَكُونَ أجيرًا لِي ثَمانيَ سِنين ، فإنْ أتممتَ عَشْرَ سِنين ، فذلك تَفَضُّلٌ مِنْكَ لَيْسَ بواجب عَلَيك ، فَنَفَى له سعيدٌ مَعْرِفَتَه بأيِّهما فَعَلَ مُوسَى ﷺ ، حتى يَذهب إلى حَبْرِ العَرَبِ، يَعْني عبد اللَّه بن عَبَّاس _ رَضِيَ اللَّهُ عنهما_ في مَكَّة، فَيَسأله عن ذلك ، والحَبْرُ هُوَ العَالِم ، وَهُوَ لقب ابن عَبَّاس _ رَضِيَ اللَّهُ عنهما _ . فلمَّا جاءَ إلى ابن عَبَّاس سَألَه ، فأخبَرَه ابنُ عَبَّاس أنَّ مُوسَى ﷺ قَضَى أتَمَّهُمَا وأكْمَلَهُمَا وأطْيَبَهُمَا ، أي : عَشْر سِنين ، وقَوْلُه : " إنَّ رسول اللَّه ﷺ " ، المُراد بِه كُلُّ رَسُولٍ ، ويَتناول هذا مُوسَى ﷺ بالأوْلَى ، لأنَّ الكلام عنه ، " إذا قَالَ فَعَلَ " ، لأنَّ مِن كَمالِ الأخلاقِ النَّبَوِيَّة أنَّهُم يُوفُون بِوُعودِهم . وفي الحَديثِ : الحَثُّ والتَّرغيبُ على الوَفاءِ بالوَعْدِ . وعن عَمرو بن مَيمون عَن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عنه : ﴿ فَجَاءَتْهُ إحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ [القَصَص:٢٥] ، قال : كانتْ تَجِيءُ وَهِيَ خَرَّاجَةٌ وَلَّاجَةٌ وَاضِعَةٌ يَدَهَا عَلى وَجْهِهَا ، فقامَ مَعَهَا مُوسَى ، وقالَ لها : امْشِي خَلْفِي ، وانْعَتِي لِيَ الطريقَ ، وأنا أمْشِي أمَامَكِ، فإنَّا لا نَنظُرُ في أدبارِ النِّسَاءِ ، ثُمَّ قالتْ : ﴿ يَا أبَتِ اسْتَأجِرْهُ إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأجَرْتَ القَوِيُّ الأمِينُ ﴾ [القَصَص : ٢٦]، لِمَا رَأتْهُ مِن قُوَّتِهِ ، وَلِقَوْلِهِ لَهَا مَا قالَ ، فَزَادَهُ ذَلِكَ فِيه رَغْبَةً ، فقال : ﴿ إنِّي أُرِيدُ أنْ أُنكِحَكَ إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلى أن تَأجُرَني ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإنْ أتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أنْ أشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُني إن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ [القَصَص : ٢٧] ، أيْ فِي حُسْنِ الصُّحْبَةِ ، والوَفَاءِ بِمَا قُلْتُ . قال مُوسَى : ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أيَّمَا الأجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ [القَصَص: ٢٨]، قال : نَعَمْ . قال: ﴿ وَاللَّهُ عَلى مَا نَقُولُ وَكِيل ﴾ [القَصَص : ٢٨] . فَزَوَّجَهُ وأقامَ مَعَهُ يَكْفِيهِ ، وَيَعْمَلُ لَهُ في رِعَايَةِ غَنَمِهِ، وَمَا يَحتاجُ إلَيْهِ مِنْهُ ، وَزَوَّجَهُ صَفُورَةَ أوْ أُخْتَهَا شَرْقَاءَ ، وهُمَا اللتان كَانَتَا تَذُودَان [٣٤] .

---

٣٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٤٤١) برقم (٣٥٣٠) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

١٨ــ ذُو القَرْنَيْن ويَأجُوج ومَأجُوج

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكَهْف: ٨٣].

يَسألك اليَهُودُ يا مُحَمَّد عَن ذِي القَرْنَيْن ، مَا شأنُه ؟ ومَا قِصَّتُه ؟ ، وصِيغةُ الاستقبال للدَّلالة على استمرارهم على ذلك إلى وُرود الجَواب. قُلْ لَهُمْ: سَأقُصُّ عَلَيْكُم مِن نَبَأه وخَبَرِه قُرْآنًا وَوَحْيًا .

وذُو القَرْنَيْن رَجُلٌ مُؤمِن صالحٌ مَلَكَ الدُّنيا ، وبَسَطَ نُفُوذَه عَلَيها بفضل اللَّه تعالى وتوفيقه ، فَنَشَرَ الإيمانَ والحَقَّ والعَدْلَ في الأرجاء . وقَدْ كانَ شديدَ البأس ، قَوِيَّ الشَّكِيمة ، لا يَلِين ، ولا يَسْتكين . وقَد اخْتُلِفَ في نُبُوَّتِه ، معَ الاتِّفاق على إيمانِه وصَلاحِه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ١٣٦) : ((يَقُول تَعَالى لِنَبِيِّه ﷺ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ ﴾ يا مُحَمَّد ﴿ عَن ذِي القَرْنَيْنِ ﴾ ، أي : عَن خَبَرِه . وقَدْ قَدَّمْنَا أنَّه بَعَثَ كُفَّارُ مَكَّة إلى أهل الكِتاب يَسألون مِنهُم مَا يَمتحنون به النَّبِيَّ ﷺ ، فقالوا : سَلُوه عَن رَجُل طَوَّاف في الأرض ، وعَن فِتْيَة لا يُدْرَى مَا صَنَعُوا ، وعَن الرُّوح ، فَنَزَلَتْ سُورةُ الكَهْفِ . وقَدْ أوردَ ابنُ جرير هَهُنا والأُمَوِيُّ في مَغَازيه حديثًا أسْنَدَه وَهُوَ ضَعِيف، عَن عُقْبَة بن عامر أنَّ نَفَرًا مِن اليَهُود جَاؤُوا يَسألون النَّبِيَّ ﷺ عَن ذِي القَرْنَيْن، فَأخْبَرَهم بِما جَاؤوا له ابتداءً ، فكانَ فِيما أخْبَرَهم بِه أنَّه كانَ شابًّا مِن الرُّوم ، وأنَّه بَنَى الإسكندريةَ، وأنَّه عَلا بِه مَلَكٌ إلى السَّمَاء ، وذَهَبَ بِه إلى السَّد ، ورَأى أقوامًا وُجوههم مِثْل وَجْه الكِلاب ، وفِيه طُول ونَكَارة ، ورَفْعُه لا يَصِح ، وأكثرُ مَا فِيه أنَّه مِن أخبار بَنِي إسرائيل . والعَجَب أنَّ أبا زُرْعَة الرازي معَ جَلالةِ قَدْرِه ، سَاقَه بتمامه في كتابه دلائل النُّبُوَّة ، وذلك غَرِيب مِنْه ، وفيه مِن النَّكَارَة أنَّه مِن الرُّوم ، وإنَّما الذي كانَ مِنَ الرُّوم الإسكندر الثاني ، وهو ابن فيليبس المَقدوني ، الذي تُؤَرِّخ بِه الرُّوم)) .

ومَا يُذكَر بأنَّ ذَا القَرْنَيْن هُوَ الإسكندر المَقدوني اليُوناني الذي بَنَى الإسكندريَّةَ خَطَأ شنيع، لأنَّ هذا وَثني كافر ظالم ، أمَّا ذُو القَرْنَيْن فكانَ مَلِكًا مِن مُلوكِ الأرضِ ، وعبدًا صالحًا مُسْلِمًا ، طافَ الأرضَ يَدْعُو إلى الإسلام ، ويُقَاتِل عَلَيه مَن خَالَفَه ، فَنَشَرَ الإسلامَ ، وَقَمَعَ الكُفْرَ وأهْلَه ، وأعانَ المظلومَ ، وأقامَ العَدْلَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٠٣) : ((ذَكَرَ اللَّهُ تعالى ذَا القَرْنَيْن هذا ، وأثنى عليه بالعَدْلِ ، وأنَّه بَلَغَ المَشارقَ والمَغاربَ ، وَمَلَكَ الأقاليمَ ، وقَهَرَ أهْلَها ، وسارَ فِيهم بالمَعْدَلَةِ التَّامَّة، والسُّلطانِ المُؤيَّد المُظَفَّر المَنصور القاهر المُقْسِط . والصحيحُ أنَّه كانَ مَلِكًا مِن المُلوكِ العادلين. وقِيل: كانَ نَبِيًّا، وقِيل : رَسُولًا ، وأغربَ مَن قالَ : مَلَكًا مِنَ المَلائكة)) .

وقال الحافظ في الفتح (٦ / ٣٨٣) : ((وقَد اخْتُلِفَ في ذِي القَرْنَيْن ، فَقِيل : كانَ نَبِيًّا ، وهَذا مَرْوِيٌّ أيضًا عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ، وعَلَيه ظاهر القُرْآن)) .

لَقَدْ اختلفَ الناسُ في ذِي القَرْنَيْن اختلافًا كثيرًا ، هَلْ كَانَ نَبِيًّا أَمْ عَبْدًا صَالِحًا ، وَمَلِكًا عَادِلًا ، مَعَ اتِّفَاقِهِمْ على أَنَّهُ مُسْلِمٌ مُوَحِّدٌ طَائِعٌ للَّهِ تعالى .

وَالصَّوَابُ هُوَ التَّوَقُّفُ في شَأنِهِ ، وَعَدَمُ الخَوْضِ في شَخْصِهِ، فَعَن أبي هُرَيرة_ رَضِيَ اللَّهُ عنه_ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : ((... ، ومَا أدْرِي ذَا القَرْنَيْنِ أنَبِيًّا كانَ أَمْ لا ، ...)) [٣٥] .

وفي تفسير القُرْطبي (١١ / ٤٥): ((قال ابن إسحق : وكانَ مِن خَبَرِ ذِي القَرْنَيْن أنَّه أُوتِيَ مَا لَمْ يُؤْتَ غَيْرُه ، فَمُدَّتْ له الأسباب حتى انتهى مِن البلاد إلى مَشارقِ الأرض وَمَغاربها ، لا يَطَأ أرضًا إلا سُلِّطَ على أهلها حتى انتهى مِن المَشرقِ والمَغربِ إلى مَا لَيْسَ وَرَاءَه شَيْء مِن الخَلْق)) .

وهذا يدلُّ على سَعَة مُلْكِ ذِي القَرْنَيْن ، فالشَّخْصُ الذي يَبْسُط نُفُوذَه وسُلْطته بين المَشرقِ والمَغربِ دُون مُنازِع ، لا بُدَّ أنَّه قائدٌ عظيمٌ قوي شُجاع .

وقَد ذَهَبَ فريقٌ إلى اعتبار ذِي القَرْنَيْن والإسكندر شخصيةً واحدةً مُعتمِدين على مَا رواه الطبري في تفسيره (٨ / ٢٧٠) أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَن ذِي القَرْنَيْن ، فقال : ((كانَ شابًّا مِنَ الرُّوم ، فجاءَ فَبَنَى مَدِينةَ مِصْرَ الإسكندريَّة ، ...)) [٣٦] . لكن الحديث ضعيف لا يُعَوَّل عليه . وقد ضَعَّفَه ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣٦) ، وضَعَّفَه الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨٣) .

---

٣٥ رواه الحاكم في المستدرك (١ / ٩٢) برقم (١٠٤) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

٣٦ في سنده ابن لَهِيعة .وإلَيْكَ أقوال العُلماء فيه مِن تهذيب التهذيب (٥/ ٣٣١):[قال أحمد بن صالح: ((كان ابنُ لَهِيعة مِن الثِّقَات إلا أنَّه إذا لُقِّنَ شيئًا حَدَّثَ به)).وقال النَّسَائي عن أبيه : ((لَيْسَ بِثِقَة)). وقال ابنُ مَعِين : ((كان ضعيفًا لا يُحْتَج بحديثه)) . وقال مسعود عن الحاكم : ((لَم يَقصد الكذبَ وإنما حَدَّثَ مِن حِفْظِه بعد احتراق كُتُبه فأخطأ)) . وقال الجوزجاني : ((لا يُوقَف على حديثه ولا ينبغي أن يُحْتَج به ولا يُغْتَر بروايته)) . وقال ابن أبي حاتم : ((سألتُ أبي وأبا زُرْعَة عن الإفريقي وابن لَهِيعة أيُّهُمَا أحَبُّ إلَيْكَ ؟ ، فقال : جميعًا ضعيفان ، وابن لَهِيعة أمره مُضطرب يُكْتَب حديثه على الاعتبار)) . وقال أبو زُرْعَة : ((كان لا يَضبِط)). وقال ابن عَدِي: ((حديثه كأنَّه نِسْيَان وهو مَن يكتب حديثه)). وقال محمد بن سعد : ((كان ضعيفًا ومَن سمع مِنْه في أوَّل أمره أحسن حَالًا في روايته ممن سمع مِنْه بآخِرِه)). وقال مُسْلِم في الكُنَى : ((تَرَكَه ابن مهدي ويحيى بن سعيد وَوَكِيع)) . وقال الحاكم أبو أحمد :

وهُناك فُروقات بَين ذِي القَرْنَيْن والإسكندر نَقَلَهَا الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨٢و٣٨٣) عن الفخر الرازي ، نُوردها باختصار : ذُو القَرْنَيْن مُؤمِن ، أمَّا الإسكندر فكافر ، وقَد كانَ تِلميذًا للفَيلسوف الشهير أرِسْطُو طاليس . وذُو القَرْنَيْن مِنَ العَرَبِ ، أمَّا الإسكندر فَمِن اليُونان ، والعَرَبُ كُلُّها مِن وَلَد سام بن نُوح ﷺ ، واليُونان مِن وَلَدِ يَافِث بن نُوح ﷺ .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨٢) : ((والذي يَظهَر أنَّ الإسكندر المُتَأخِّر لُقِّبَ بِذِي القَرْنَيْن تَشبيهًا بالمُتَقَدِّم ، لِسَعَةِ مُلْكِه ، وغَلَبَتِه عَلى البلاد الكثيرة ، أوْ لأنَّه لمَّا غَلَبَ عَلى الفُرْسِ وقَتَلَ مَلِكَهُم ، انتظمَ له مُلْكُ المَمْلَكَتَيْن الوَاسِعَتَيْن الرُّوم والفُرْس ، فَلُقِّبَ ذَا القَرْنَيْن لذلك ، والحَقُّ أنَّ الذي قَصَّ اللَّهُ نَبَأهُ في القُرْآنِ هُوَ المُتَقَدِّم)) .

وقَد اخْتُلِفَ في سَبَبِ تَسميته بِذِي القَرْنَيْن . وبشكل عام ، إنَّ هذا اللقب يَدُلُّ على سَعَةِ مُلْكِه ، وسُلْطته المَبسوطة على كوكب الأرض . قال البَغَوي في تفسيره (١٩٧/١) : ((قال الزُّهْري: لأنَّه بَلَغَ قَرْنَي الشَّمْس مَشْرقها ومَغْربها. وقِيل : لأنَّه مَلَكَ الرُّومَ وفارس . وقِيل : لأنَّه دَخَلَ النُّورَ والظُّلْمَةَ . وقِيل : لأنَّه رَأى في المَنَامِ كأنَّه أخذَ بِقَرْنَي الشَّمْس . وقِيل : لأنَّه كانتْ له ذُؤَابتان حَسَنَتَان . وقِيل : لأنَّه كانَ لَهُ قَرْنَان تُوَاريهما العِمَامَة)) .

وقال الحافظ في الفتح (٦ / ٣٨٥): ((وَوَقَعَ ذِكْرُ ذِي القَرْنَيْن أيضًا في شِعْر امرئ القَيْس، وأَوْس بن حَجَر ، وطَرَفَة بن العَبْد ، وغَيْرِهم . وأخرجَ الزُّبَير بن إبراهيم بن المُنذِر عن مُحَمَّد ابن الضَّحَّاك بن عُثمان عن أبيه عن سُفيان الثَّوْري قال : بَلَغَنِي أنَّهُ مَلَكَ الدُّنيا كُلَّها أربعة ، مُؤمِنان وكافران ، سُلَيْمَان النَّبِيُّ عليه السلام ، وذُو القَرْنَيْن ، ونُمْرُود ، وبُخْتُنَصَّر . ورواه وَكِيع في تفسيره عن العلاء بن عبد الكريم سَمِعْتُ مُجَاهِدًا يَقُول : مَلَكَ الأرضَ أربعة ، فَسَمَّاهُم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّا مَكَّنَّا لَهُ في الأرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكَهْف : ٨٤] .

إنَّ اللَّهَ يَسَّرَ لِذِي القَرْنَيْن أسبابَ المُلْكِ والسُّلطانِ والفَتْحِ والعُمْرَانِ ، وأعْطَاه كُلَّ مَا يَحتاج إلَيه للوُصول إلى غَرَضِه مِن أسبابِ العِلْمِ والقُدْرَةِ والتَّصَرُّفِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ١٣٦) : ((قَوْلُه : ﴿ إنَّا مَكَّنَّا لَهُ في الأرْضِ ﴾ ، أي : أعْطَيْنَاه مُلْكًا عظيمًا مُمَكَّنًا فِيه مِن جَميع مَا يُؤْتَى المُلوك مِن التَّمكينِ والجُنودِ وآلاتِ الحَرْبِ

((ذاهب الحديث)) . وقال ابن حِبَّان : ((سَبَرْتُ أخبارَه فرأيتُه يُدَلِّس عن أقوام ضُعَفاء على أقوام ثِقَات قَدْ رآهم)) . وقال أبو جعفر الطبري في تهذيب الآثار : ((اختلطَ عَقْلُه في آخِرِ عُمُرِه))] .

والحِصَاراتِ ، ولهذا مَلَكَ المَشارقَ والمَغاربَ مِن الأرضِ ، ودانتْ له البِلاد ، وخَضَعَتْ لَهُ مُلوكُ العِباد ، وخدمته الأُمَمُ مِن العَرَبِ والعَجَمِ ، ولهذا ذُكِرَ بعضُهم أنَّه إنَّما سُمِّيَ ذَا القَرْنَيْن ، لأنَّه بَلَغَ قَرْنَي الشَّمْس مَشرقها ومَغربها ، وقَوْلُه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ ، قال ابنُ عَبَّاس ومُجاهِد وسعيد بن جُبَير وعِكْرمة والسُّدي وقَتَادة والضَّحَّاك وغَيْرُهم : يَعْنِي عِلْمًا ، وقال قَتَادَة أيضًا في قَوْلِه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ ، قال : مَنازل الأرض وأعلامها . وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسْلَم في قَوْلِه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ ، قال : تَعليم الألسنة ، قال : كانَ لا يَغْزُو قَوْمًا إلا كَلَّمَهم بلسانهم . وقال ابنُ لَهِيعة : حَدَّثَني سالم بن غَيْلان عن سعيد بن أبي هِلال أنَّ مُعاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار : أنتَ تَقُول : إنَّ ذَا القَرْنَيْن كانَ يَرْبِطُ خَيْلَهُ بالثُّرَيَّا ؟ ، فقال له كَعْب : إنْ كُنْتُ قُلْتُ ذلك ، فإنَّ اللَّه تعالى قال : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ ، وهذا الذي أنكره مُعاوية رَضِيَ اللَّهُ عنه على كَعْب الأحبار هُوَ الصَّوَاب ، والحَقُّ معَ مُعاوية في ذلك الإنكار ، فإنَّ مُعاوية كان يَقُول عن كَعْب : إنْ كُنَّا لَنَبْلُو عَلَيه الكَذِبَ ، يَعْنِي فِيما يَنقُله لا أنَّه كان يَتَعَمَّد نَقْلَ مَا لَيْسِ في صُحُفِه ، ولكنَّ الشَّأن في صُحُفِه أنَّها مِن الإسرائيليَّات التي غالبها مُبَدَّل مُصَحَّف مُحَرَّف مُخْتَلَق ، ولا حَاجَة لنا معَ خَبَرِ اللَّهِ تعالى ورسولِ اللَّه ﷺ إلى شَيْء مِنها بالكُلِّية ، فإنَّه دَخَلَ مِنها على الناس شَر كثير وفساد عريض ، وتأويلُ كَعْب قَوْل اللَّه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ ، واستشهاده في ذلك على مَا يَجِدُه في صُحُفِه مِن أنَّه كانَ يَرْبِط خَيْلَه بالثُّرَيَّا غَيْر صحيح ، ولا مُطَابِق ، فإنَّه لا سبيل للبشر إلى شَيْء مِن ذلك ، ولا إلى التَّرَقِّي في أسباب السَّمَاوات ، وقَدْ قالَ اللَّهُ في حَقِّ بَلْقِيس : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النَّمْل : ٢٣] ، أنَّه مِمَّا يُؤْتَى مِثْلُها مِن المُلوك ، وهكذا ذُو القَرْنَيْن ، يَسَّرَ اللَّهُ له الأسبابَ ، أي : الطُّرُق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرَّسَاتيق والبلاد والأراضي ، وكَسْرِ الأعداء ، وكَبْتِ مُلوك الأرض ، وإذلال أهل الشِّرْك ، قَدْ أُوتيَ مِن كُلِّ شَيْء مِمَّا يَحتاج إلَيه مِثْلُه سببًا ، واللَّهُ أعْلَم . وفي المُختارة للحافظ الضِّيَاء المَقدسي مِن طريق قُتَيبة عن أبي عَوَانة عَن سِمَاك بن حَرْب عن حبيب بن حِمَاز، قال : كُنْتُ عِند عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنه ، وسأله رَجُل عَن ذِي القَرْنَيْن ، كَيْفَ بَلَغَ المَشرقَ والمَغرب ؟ ، فقال : سُبحانَ اللَّهِ ، سَخَّرَ لَهُ السَّحَابَ ، وقَدَّرَ له الأسبابَ ، وبَسَطَ لَهُ اليَدَ)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ١٩٨) : ((قَوْلُه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إنَّا مَكَّنَّا لَهُ في الأرْضِ ﴾ ، أوْطَأْنَا ، والتَّمكين : تَمهيد الأسباب . قال عليٌّ : سَخَّرَ له السَّحَابَ ، فَحَمَلَه عَلَيها ، ومَدَّ لَهُ في الأسباب ، وبَسَطَ له النُّورَ ، فكانَ الليلُ والنهارُ عَلَيه سَوَاء ، فهذا مَعْنى تَمْكينه في الأرض ، وهو

أنَّه سَهَّلَ عليه السَّيْرَ فيها ، وذَلَّلَ له طُرُقَها ، ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ ، أي : أعْطَيْنَاه مِن كُلِّ شَيْء يَحتاج إلَيه الخَلْقُ . وقِيل : مِن كُلِّ مَا يَستعين به المُلوك على فتح المُدُن ، ومُحاربة الأعداء ، ﴿ سَبَبًا ﴾ ، أي : عِلْمًا يَتَسَبَّب بِه كُل مَا يُريد ، ويَسير به في أقطار الأرض ، والسَّبَب : مَا يُوصِل الشَّيْءَ . وقال الحَسَن : بَلاغًا إلى حَيْث أراد . وقِيل : قَرَّبْنَا إليه أقطارَ الأرض)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكَهْف : ٨٥]. سَلَكَ ذُو القَرْنَيْن طَرِيقَه الذي يَسَّرَه اللَّهُ لَهُ ، وسارَ جِهَةَ المَغرِب . والسَّبَبُ مَا يُتَوَصَّل بِهِ إلى المَقصود مِن عِلْمٍ أوْ قُدرة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٢٠) : ((أي: فَأرادَ بُلُوغَ المَغرِب فَاتَّبَعَ سَبَبًا يُوصِله إلَيه)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ حَتَّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إمَّا أن تُعَذِّبَ وَإمَّا أن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ [الكَهْف : ٨٦] .

حتى إذا وَصَلَ ذُو القَرْنَيْن إلى مَوْضِع غُروب الشمس (جِهة المَغرِب) ، وَجَدَ الشمسَ تَغرُب في ماء وطِين _ حَسَب مَا شاهده بِعَيْنِه لا حَسَب الحقيقة _ ، فإنَّ الشمسَ أعظم مِن الدُّنيا ، كما أنَّ راكب البَحْر يَرى الشمسَ كأنَّها تَغِيب في البَحْر إذا لَمْ يَرَ الشاطئَ ، وَهِيَ في الحقيقة تَغِيب وراء البَحْر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ١٣٨) : ((قَوْلُه : ﴿ حَتَّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ ، أي: فَسَلَكَ طريقًا حَتَّى وَصَلَ إلى أقْصَى مَا يُسْلَك فِيه مِن الأرض مِن ناحية المَغْرِب ، وهو مَغْرِب الأرض ، وأمَّا الوُصول إلى مَغْرِب الشمس مِن السَّماء فَمُتَعَذِّر . ومَا يَذكُره أصحابُ القَصَص والأخبار مِن أنَّه سارَ في الأرضِ مُدَّةً، والشمسُ تَغْرُب مِن وَرائه ، فَشَيْء لا حقيقة له ، وأكثر ذلك مِن خُرَافات أهل الكِتَابِ واختلاف زَنَادقتهم وكَذِبهم . وقَوْلُه : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ ، أي : رَأى الشمسَ في مَنظره تَغْرُب في البَحْرِ المُحِيط ، وهذا شأن كُلِّ مَن انتهى إلى ساحله ، يَرَاها كأنَّها تَغْرُب فيه)) .

وَوَجَدَ ذُو القَرْنَيْن عِند تِلْك العَيْنِ الحَارَّة ذات الطِّين قَوْمًا مِنَ الأقوام ، قُلْنَا لَهُ بطريق الإلهام : إمَّا أن تَقْتُلَهُم أوْ تَدْعُوَهُم بالحُسْنَى إلى الهِدَايةِ والإيمانِ.لَقَدْ كانوا كُفَّارًا،فَخَيَّرَه اللَّهُ بَيْنَ أن يَقْتُلَهم على كُفْرِهم، أوْ يَدْعُوَهم إلى الإسلام ويُعَلِّمَهُم الشرائع، فَيُحْسِن إلَيهِم. وقِيل: خَيَّرَهم اللَّهُ بَيْنَ القَتْلِ إنْ لَمْ يَدخُلوا الإسلامَ،وَبَيْن الأسْرِ لتعليمهم الهُدى ، وسَمَّى الأسْرَ إحسانًا في مُقابَلة القتل .

واسْتَدَلَّ بهذه الآية : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا القَرْنَيْنِ ﴾ مَن زَعَمَ أنَّه كانَ نَبِيًّا ، فإنَّ اللَّهَ تعالى خَاطَبَه . والصَّحيحُ أنَّه لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا ، والمُراد مِنْه الإلهامُ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٤٤٠) : ((﴿ حَتَّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ ، أي : نِهاية الأرض مِن جِهة المَغرب ، لأنَّ مِن وَراء هذه النِّهَايةِ البَحْرَ المُحيط ، وهو لا يُمكِن المُضِي فيه ، ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ ، ... ، أي : كثيرة الحَمْأة ، وهي الطِّينة السَّوْداء . ... . قِيل : وَلَعَلَّ ذا القَرْنَيْن لَمَّا بَلَغَ ساحلَ البَحْرِ المُحيط رَآها كذلك في نَظَرِه ، ولا يَبْعُد أن يُقَال : لا مانع مِن أن يُمَكِّنَه اللَّهُ مِن عُبور البَحْرِ المُحِيط ، حتى يَصِل إلى تِلْك العَيْن التي تَغْرُب فيها الشمس ، ومَا المانع مِن هذا بَعْد أن حَكَى اللَّهُ عنه أنَّه بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس ، ومَكَّنَ له في الأرض، والبَحْرُ مِن جُمْلتها ، ومُجَرَّد الاستبعاد لا يُوجِب حَمْلَ القُرْآنِ على خِلاف ظاهره ، ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ ، الضَّمِير في " عِندها " إمَّا للعَيْنِ أوْ للشمس . قِيل : هُم قَوْم لِباسهم جُلود الوَحْش ، وكانوا كُفَّارًا ، فَخَيَّرَه اللَّهُ بَيْنَ أن يُعَذِّبَهم وبَيْنَ أن يَتركهم ، فقال : ﴿ إمَّا أن تُعَذِّبَ وَإمَّا أن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ ، أي : إمَّا أن تُعَذِّبَهم بالقَتْلِ مِن أوَّل الأمر ، وإمَّا أن تَتَّخِذَ فِيهِم أمْرًا ذَا حُسْن أوْ أمْرًا حُسْنًا ، مُبَالَغَةً بجعل المَصْدَر صِفَة للأمر ، والمُرَاد دَعْوتهم إلى الحَقِّ ، وتَعْليمهم الشرائع)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالَ أمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ [الكَهْف : ٨٧] . قالَ ذُو القَرْنَيْن : مَن أَصَرَّ على الكُفْرِ فَسَوْفَ نَقْتُلُه ، ثُمَّ يُرْجَع إلى اللَّهِ بَعْدَ قَتْلِه ، فَيُعَذِّبُه عَذابًا عظيمًا مُنْكَرًا فظيعًا في نار جَهَنَّم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٤٤١) : ((﴿ قَالَ ﴾ ذُو القَرْنَيْن مُختارًا للدَّعْوَةِ التي هي الشَّق الأخير مِن التَّرديد ، ﴿ أمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ نَفْسَه بالإصرار على الشِّرْكِ ، وَلَمْ يَقْبَلْ دَعْوَتي ، ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ بالقَتْلِ في الدُّنيا ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ ﴾ في الآخِرَةِ ، ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ﴾ فِيها ﴿ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ ، أي : مُنْكَرًا فظيعًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَأمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكَهْف : ٨٨] .

قالَ ذُو القَرْنَيْن: وأمَّا مَن آمنَ بِوَحدانيَّةِ اللَّهِ تعالى ، وعَمِلَ بطاعته ، فَجَزَاؤُه الجَنَّة يَتَنَعَّم فِيها، ثَوابًا على إيمانِه وطَاعَتِه . وَسَنُيَسِّر عَلَيه في الدُّنيا فلا نُكَلِّفُه بِما هُوَ شاق ، بَلْ بالسَّهْلِ المُيَسَّر .

اختارَ المَلِكُ العادلُ ذُو القَرْنَيْن دَعْوَتَهُم بأُسلوب لطيف جميل جَذَّاب، فَمَن آمنَ فَلَهُ الجَنَّة، والمُعَامَلَة الطَّيبة والمَعُونة والتَّيسير ، وَمَنْ بَقِيَ عَلى الكُفْرِ فَلَهُ العَذاب والنَّكَال في الدُّنيا والآخِرَةِ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٤٤١) : ((﴿ وَأمَّا مَنْ آمَنَ ﴾ باللَّهِ وَصَدَّقَ دَعْوَتي ، ﴿ وَعَمِلَ ﴾ عَمَلًا ﴿ صَالِحًا ﴾ مِمَّا يَقْتضيه الإيمان ، ﴿ فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى ﴾ ، قرأ أهلُ المدينة

وأبو عمرو وعاصم وابن كثير وابن عامر : ﴿ فَلَهُ جَزَاءً ﴾ بالرَّفْعِ على الابتداء ، أي: جَزَاءُ الخَصْلَةِ الحُسْنَى عِند اللَّهِ ، أو الفَعْلَة الحُسْنَى وَهِيَ الجَنَّة ، قاله الفَرَّاء . وإضافةُ الجَزَاءِ إلى الحُسْنَى التي هي الجَنَّة كإضافة حَقِّ اليَقِين ودار الآخِرَة ، ويَجُوز أن يَكُون هذا الجَزَاءُ مِن ذِي القَرْنَيْن ، أي : أُعْطِيه وأتَفَضَّل عَلَيه . وقرأ سائرُ الكُوفيين : ﴿ فَلَهُ جَزَاءَ الحُسْنَى ﴾ بِنَصْب ﴿ جَزَاءً ﴾ وتَنْوينه . قال الفَرَّاء : انتصابُه على التَّمييز . وقال الزَّجَّاج : هُوَ مَصْدَر في مَوْضِع الحال ، أي : مَجْزِيًّا بِها جَزَاءً . ... . ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ ، أي : مِمَّا نَأمُر بِه قَوْلًا ذا يُسْر ، لَيْسَ بالصَّعْبِ الشاق ، أوْ أطلقَ عَلَيه المَصْدَرَ مُبَالَغَةً)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكَهْف : ٨٩] .

ثُمَّ سَلَكَ ذُو القَرْنَيْن طَرِيقًا بِجُنْدِه نَحْوَ المَشْرِق .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٥ / ٢٤٣) : ((﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ ، أي : طَرِيقًا راجعًا مِن مَغْرِبِ الشَّمْسِ مُوصِلًا إلى مَشْرِقِها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ حَتَّى إذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَهُم مِن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ [الكَهْف : ٩٠] .

حتى إذا وَصَلَ ذُو القَرْنَيْن أقْصَى المَعمورة مِن جِهة الشَّرْقِ ، حَيْثُ مَطْلِع الشَّمْسِ في عَيْنِ الرَّائي ، وَجَدَ الشمسَ تُشْرِقُ على قَوْمٍ عُراة ، لَيْسَ لَهُم مِن اللباس والبِناء مَا يَسْتُرُهم مِن حَرِّ الشَّمْسِ ، فإذا طَلَعَت الشمسُ دَخلوا في أسراب تحت الأرض ، وإذا غَرَبَتْ خَرَجُوا لمكاسبهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٤٤٢) : ((﴿ حَتَّى إذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ ، أي : المَوْضِع الذي تَطْلُع عليه الشَّمْسُ أوَّلًا مِن مَعمورِ الأرض ، أوْ مَكَان طُلوعها ، لعدم المانع شَرْعًا ولا عَقْلًا مِن وُصوله إليه ، ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَهُم مِن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ يَسْتُرُهم ، لا مِن البُيوت ، ولا مِن اللباس ، بَلْ هُمْ حُفَاة عُرَاة ، لا يَأوُون إلى شَيْء مِن العِمَارَةِ ، قِيل : لأنَّهُم بأرض لا يُمكِن أن يَستقر عليها البِناء)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ [الكَهْف : ٩١] .

كذلك فَعَلَ ذُو القَرْنَيْن بأهل المَشْرِق، مَن آمَنَ تَرَكَه، ومَن كَفَرَ قَتَلَه، كَمَا فَعَلَ بأهل المَغْرِب، وقَدْ أحَطْنَا عِلْمًا بأحوالِه وأخبارِه، وعَتَادِه وجُنُودِه، فأمْرُه مِنَ العَظَمَةِ وكَثرةِ المال بِحَيْث لا يُحِيط بِه إلا عِلْمُ اللَّهِ اللطيفِ الخَبِيرِ . وقال البَيضاوي في تفسيره (١ / ٥٢١) : ((﴿ كَذَلِكَ ﴾ ، أي : أمْر ذِي القَرْنَيْن كما وَصَفْنَاه في رِفْعَةِ المَكَانِ ، وبَسْطَةِ المُلْكِ ، أوْ أمْرُه فِيهِم كأمْرِه في أهل

المَغْرِبِ مِن التَّخييرِ والاختيار . ... . ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ مِنَ الجُنودِ والآلاتِ والعُدَدِ والأسبابِ ﴿ خُبْرًا ﴾ عِلْمًا تَعَلَّقَ بظواهره وخَفَاياه ، والمُراد أنَّ كَثْرَة ذلك بَلَغَتْ مَبْلَغًا لا يُحِيط بِه إلا عِلْمُ اللطيفِ الخبير)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكَهْف : ٩٢] .

ثُمَّ سَلَكَ ذُو القَرْنَيْن طريقًا ثالثًا بَين المَشْرِقِ والمَغْرِبِ يُوصِله جِهَةَ الشَّمَال .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١ / ٥٢١) : ((﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ ، يَعْنِي طَرِيقًا ثالثًا مُعْتَرِضًا بَين المَشْرِقِ والمَغْرِبِ آخِذًا مِن الجَنُوبِ إلى الشَّمَال)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ حَتَّى إذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ [الكَهْف : ٩٣] .

حَتَّى إذا وَصَلَ ذُو القَرْنَيْن إلى مَنطقة بَين حَاجِزَيْن عَظِيمَيْن ، بِمُنْقَطَعِ أرض بِلاد التُّرْك مِمَّا يَلِي أرمينية وأذربيجان، وَجَدَ مِن وَرَاءِ السَّدَّيْن قَوْمًا مُتَخَلِّفِين لا يَفْهَمُون كَلامَ غَيْرِهم . وكانوا لا يَفْقَهُون القَوْلَ لِغَرَابَةِ لُغَتِهِم، وَبُطْءِ فَهْمِهِم،وبُعْدِهِم عَن مُخَالَطَةِ غَيْرِهِم،وَمَا فُهِمَ كلامُهم إلا بواسطة مُتَرْجِم.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ١٤١) : ((﴿ حَتَّى إذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ ، وهُمَا جَبَلان مُتَنَاوِحَان _ مُتَقَابِلان _ بَينهما ثُغْرَة ، يَخْرُج مِنها يَأجُوج ومَأجُوج على بِلاد التُّرْكِ ، فَيَعِيثُون فِيها فَسَادًا ، ويُهْلِكُون الحَرْثَ والنَّسْلَ . ويَأجُوج ومَأجُوج مِن سُلالةِ آدَم عليه السَّلام ... . ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ ، أي : لاستعجامِ كَلامِهِم ، وبُعْدِهِم عَن الناس)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قَالُوا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إنَّ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ مُفْسِدُونَ في الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلى أن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [الكَهْف : ٩٤] .

قالَ القَوْمُ لِذِي القَرْنَيْن: إنَّ يَأجُوج ومَأجوج مُفْسِدُون في أرْضِنَا بالقَتْلِ والسَّلْبِ والنَّهْبِ وَسَائِرِ وُجُوهِ الشَّرِّ [٣٧] ، فَهَلْ نُخْرِج لَكَ جُزْءًا مِن أموالِنا كَخَرَاجٍ كَي تَجْعَلَ بَيْنَنَا وبَيْن يَأجوج ومَأجوج

---

٣٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ١٩١) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ ، في هذا الفساد أربعة أقوال : أحدها أنهم كانوا يَفْعَلُون فِعْلَ قَوْمِ لُوط ، قاله وَهْب بن مُنَبِّه . والثاني أنهم كانوا يَأكلون الناسَ، قاله سعيد بن عبد العزيز . والثالث يَخرُجون إلى الأرض الذين شَكَوْا مِنهُم أيَّام الرَّبيع ، فلا يَدَعُون شيئًا أخضر إلا أكَلُوه ، ولا يابسًا إلا احْتَمَلُوه إلى أرضهم ، قاله ابن السائب . والرابع كانوا يَقْتُلُون الناسَ ، قاله مُقاتِل)) .

حاجزًا وسَدًّا يَحْمِينا مِن شَرِّهِم ولا يَصِلُون إلَيْنَا ؟ . وهذا استدعاءٌ مِنهُم لِقَبول مَا يَبْذُلونه على جِهة حُسْنِ الأدَبِ معَ ذِي القَرْنَيْن .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١ / ٥٢٢) : ((﴿ إنَّ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ ﴾ قَبِيلتان مِن وَلَدِ يَافِث ابن نُوح . وقِيل : يأجوج مِن التُّرْك ، ومأجوج من الجيل ، وهُما اسْمَان أعجميَّان ، بدليل مَنْع الصَّرْف ، وقِيل: عَرَبِيَّان ، مِن أَجَّ الظَّلِيمُ ، إذا أسرعَ . ... . ﴿ مُفْسِدُونَ في الأرْضِ ﴾ ، أي : في أرْضِنا بالقَتْلِ والتَّخريبِ وإتلافِ الزَّرْعِ . قِيل : كانوا يَخْرُجُون أيَّامَ الربيع فلا يَتركون أخضرَ إلا أكَلُوه ولا يابسًا إلا احتملوه ، وقِيل : كانوا يأكلون الناسَ ، ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ نُخْرِجُه مِن أموالِنا. ... . ﴿ عَلى أن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ ، يَحْجُز دُون خُروجهم عَلَينا)) .

إنَّ يَأجُوج ومَأجُوج قَبِيلتان مِن وَلَدِ يَافِث بن نُوح ﷺ [٣٨] ، في خَلْقِهم تَشْويه ، فَمِنهُم مُفْرِط في الطُّول ، ومِنهُم مُفْرِط في القِصَر. وقد عاثوا في الأرض فسادًا ، فكانوا يَقْتُلُون ويُخَرِّبون ، ويُتْلِفون الزَّرْعَ ، فالفسادُ صِفةٌ لازمة لهم ، وقد اعتمدوه منهجًا حياتيًّا لا مَحِيد عَنْه ، ولا شَيْء يَرْدَعُهم ، إذْ إنَّهُم يَفْتَقِدُون الوازعَ الديني أو الرادع الأخلاقي . وقَدْ تَنَوَّعَتْ جرائمُهم، وتَعَدَّدَتْ انحرافاتُهم . وهذا مُؤشِّر على قَسْوَةِ طِبَاعهم ، وطبيعتهم البِدائية الهمجيَّة ، وعدم وجود شريعة تَحْكمهم . وهذا السُّلوك الإجراميُّ يدلُّ على أنَّهُم سائرون وَفْق أهوائهم ، وغارقون في ضَلالهم وفَسادهم ، لا يَعْرِفُون غَيْرَ القتل والتدمير والتخريب .

وفي الحديث أنَّ يَأجُوج ومَأجُوج: ((لا يَمُرُّونَ بِمَاءٍ إلا شَرِبُوه، ولا بِشَيْءٍ إلا أفْسَدُوه)) [٣٩] .

هذا يُشير إلى كَثرة عَدَدِهم المُذهِلة ، وضَلالِهم الواضح ، وفَسَادِهم الشديد ، وأنَّهُم يَمتازون بِقُدرات خارقة ، وإمكانيات هائلة ، ولَدَيهم أجسام ضخمة .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكَهْف : ٩٥] . قال ذُو القَرْنَيْن بِعِفَّةٍ ودِيَانَةٍ وصَلاحٍ وقَصْدٍ للخَيْر : مَا أعطاني اللَّهُ مِنَ القُدْرَةِ والمُلْكِ أفضلُ وأعظمُ مِمَّا تَبذُلونه لِي مِنَ المال ، فلا حَاجَة لي إلَيه ، وأجْعَل لَكُم السَّدَّ تَبَرُّعًا،

---

٣٨ وَرَدَتْ حِكاية في بعض المصادر أنَّ آدم ﷺ نامَ فاحتلمَ فاختلطَ مَنِيُّه بِتُرابٍ فَتَوَلَّد مِنْهُ وَلَد يَأجُوج ومَأجُوج مِن نَسْلِه.وهذه خُرافة لا أساس لها مِن الصِّحَّة. فالأنبياءُ _عليهم الصلاة والسلام_ لا يَحْتَلِمُون. وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨٦): ((وهو قَوْل مُنكَر جِدًّا ، لا أصل له إلا عن بعض أهل الكِتاب)) .

٣٩ رواه الحاكم في المستدرك (٤ / ٥٣٤) برقم (٨٥٠٢) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

فَأعِينوني بالأيدي والرِّجَالِ ، أجْعَلْ بَينكم وبَين يأجوج ومأجوج سَدًّا مَنِيعًا ، وحاجزًا حَصِينًا . والمَعنى : إنَّنِي لا أُريد المالَ ، بَلْ أعينوني بأبدانكم وقُوَّتكم .

وهذا يدلُّ على الأخلاق الرفيعة لِذِي القَرْنَيْن ، وكرامته ، وشَهامته ، ونَخْوته ، حَيْثُ رَفَضَ قَبولَ المَالِ ، وَتَطَوَّعَ بِبِنَاءِ السَّد ، واكتفى بِعَوْنِ الرِّجَالِ .

وقال القُرطبي في تفسيره (١١ / ٥٨) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ ، فيه مَسألتان: الأُولَى: قَوْلُه تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ ، المَعنى: قالَ لَهُم ذُو القَرْنَيْن : مَا بَسَطَه اللَّهُ تعالى مِنَ القُدْرَةِ والمُلْكِ خَيْرٌ مِن خَرْجِكم وأموالِكم ، ولكنْ أعِينُوني بِقُوَّةِ الأبدان ، أي : بِرِجَالٍ وعَمَلٍ مِنكُم بالأبدان،والآلة التي أبْني بِهَا الرَّدْمَ ، وهو السَّد. وهذا تأييد مِنَ اللَّهِ تعالى لِذِي القَرْنَيْن في هذه المُحَاوَرَة، فَإنَّ القَوْمَ لَوْ جَمَعُوا لَهُ خَرْجًا لَمْ يُعِنْهُ أحد ، وَلَوَكَلُوه إلى البُنْيَان ، ومَعُونته بأنفسهم أجْمَل بِه ، وأسْرَع في انقضاء هذا العمل ، ورُبَّمَا أرْبَى مَا ذَكَرُوه لَهُ عَلى الخَرْجِ . ... . الثانية : في هذه الآيةِ دَلِيلٌ على أنَّ المَلِكَ فَرْض عَلَيه أن يَقُوم بِحِماية الخَلْقِ في حِفْظِ بَيْضَتِهِم ، وسَدِّ فُرْجتهم ، وإصلاحِ ثُغُورهم مِن أموالهم التي تَفِيء عَلَيهِم ، وحُقوقهم التي تَجْمعها خِزانتهم تَحْت يَدِه ونَظَرِه ، حتى لَوْ أكلتها الحُقوق ، وأنفذتها المُؤَنُ ، لكانَ عليهم جَبْر ذلك مِن أموالهم ، وعَلَيه حُسْن النَّظَر لهم ، وذلك بثلاثة شروط : الأوَّل : ألا يَستأثر عَلَيهِم بِشَيْء، الثاني : أن يَبْدَأ بأهل الحَاجَة فَيُعينهم ، الثالث : أن يُسَوِّيَ في العَطَاء بَينهم عَلى قَدْرِ مَنَازلهم، فإذا فَنِيَتْ بَعْد هذا وَبَقِيَتْ صِفْرًا فأطلعت الحوادثُ أمرًا بَذَلُوا أنفسَهم قَبْلَ أموالهم ، فإنْ لَمْ يُغْنِ ذلك فأموالُهم تُؤْخَذ مِنهُم على تقدير ، وتُصْرَف بتدبير ، فهذا ذُو القَرْنَيْن لمَّا عَرَضُوا عليه المالَ في أن يَكْفِيَ عَنهُم مَا يَحْذرونه مِن عَادِيَةِ يَأجُوج ومَأجُوج ، قال : لَسْتُ أحتاج إلَيه ، وإنَّما أحتاج إلَيكُم ، ﴿ فَأعِينُوني بِقُوَّةٍ ﴾ ، أي : اخْدِمُوا بأنفسِكم مَعِي ، فإنَّ الأموال عِندي ، والرِّجَال عِندكم ، ورَأى أنَّ الأموال لا تُغْنِي عَنهُم، فَإنَّه إنْ أخَذَها أُجْرَةً نَقَصَ ذلك مِمَّا يَحتاج إلَيه ، فَيَعُود بالأجر عَلَيهم ، فكانَ التَّطَوُّع بِخِدمة الأبدان أَوْلَى ، وضَابِطُ الأمر أنَّه لا يَحِلُّ مال أحد إلا لِضَرورة تُعْرَض، فَيُؤخَذ ذلك المال جَهْرًا لا سِرًّا ، ويُنْفَق بالعَدْلِ لا بالاستئثار ، وبِرَأيِ الجَمَاعَةِ لا بالاستبداد بالأمر ، واللَّهُ تَعَالى المُوَفِّق للصَّوَاب)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٤٤٦) : ((﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾ ، أي : قال لَهُم ذُو القَرْنَيْن : مَا بَسَطَه اللَّهُ لِي مِنَ القُدْرَةِ والمُلْكِ ﴿ خَيْرٌ ﴾ مِن خَرْجِكُم ، ثُمَّ طَلَبَ مِنهُم المُعَاوَنَةَ له ، فقال : ﴿ فَأعِينُوني بِقُوَّةٍ ﴾ ، أي : بِرِجَالٍ مِنكُم يَعْمَلُون بأيديهم ، أوْ أعِينوني بآلاتِ

البِناء ، أوْ بِمَجموعهما . قال الزَّجَّاج : بعملٍ تَعْملونه مَعِي . ... . ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ هذا جواب الأمر ، والرَّدْم : مَا جُعِلَ بَعْضُه على بَعْض حتى يَتَّصِل)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ آتُوني زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّى إذا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إذا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ [الكَهْف : ٩٦] .

قالَ ذُو القَرْنَيْن : أَعْطُوني قِطَعَ الحَديدِ ، حَتَّى إذا سَاوَى البِنَاءَ بَين جَانِبَي الجَبَلَيْن ، قال : انفُخُوا على قِطَعِ الحَدِيدِ بالكِيرِ والنارِ، حَتَّى إذا جَعَلَ ذلك الحَدِيدَ المُتراكِم كالنار بِشِدَّةِ الإحماء، قال : أَعْطُوني أَصُبُّ على الحَدِيدِ النُّحَاسَ المُذاب . لَقَدْ صَبَّ النُّحَاسَ المُذابَ عَلى الحَدِيدِ المَحْمِيِّ ، فالتصقَ بَعْضُه ببعض ، فصارَ جَبَلًا صَلْدًا .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٤٤٧) : ((﴿ آتُوني زُبَرَ الحَدِيدِ ﴾ ، أي : أَعْطُوني ونَاولُوني ، وَزُبَرُ الحديد : جَمْع زُبْرَة ، وهي القِطْعَة . قال الخليل : الزُّبْرَةُ مِنَ الحَديدِ : القِطْعَة الضَّخْمَة . ... . ﴿ حَتَّى إذا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ ، والصَّدَفَان : جَانِبَا الجَبَلِ . قال الأزهري : يُقَال لِجَانِبَي الجَبَل صَدَفَان : إذا تَحَاذَيَا لِتَصادفهما ، أي : تَلاقيهما . ... . ومَعنى الآية : أَنَّهُم أَعْطَوْهُ زُبُرَ الحَدِيدِ ، فَجَعَلَ يَبْنِي بِهَا بَيْنَ الجَبَلَيْن حَتَّى سَاوَاهُمَا ، ﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ ، أي : قال للعَمَلَةِ : انفُخُوا على هَذه الزُّبُرِ بالكِيران ، ﴿ حَتَّى إذا جَعَلَهُ نَارًا ﴾ ، أي : جَعَلَ ذلك المَنفوخَ فِيه، وَهُوَ الزُّبُر نارًا ، أي : كالنار في حَرِّها ، وإسنادُ الجَعْلِ إلى ذِي القَرْنَيْن مَجَاز لِكَوْنِه الآمِرَ بالنَّفْخِ . قِيل : كانَ يَأمُر بوضع طاقة مِن الزُّبُر والحِجَارة ، ثُمَّ يُوقِد عليها الحَطَبَ والفَحْمَ بالمَنَافِخ حتى يَتَحَمَّى ، والحديدُ إذا أُوقِدَ عَلَيه صار كالنار ، ثُمَّ يُؤْتَى بالنُّحَاس المُذاب فَيُفْرِغُه على تِلْك الطاقة، وهو مَعنى قَوْلِه : ﴿ قَالَ آتُوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ ، قال أهل اللغة : القِطْرُ : النُّحَاسُ الذائب ، والإفراغُ : الصَّبُّ . وكذا قال أكثر المُفسِّرين . وقالت طائفة : القِطْرُ : الحَدِيد المُذَاب . وقالتْ فِرْقَة أُخْرَى مِنهُم ابنُ الأنباري : هو الرَّصَاص المُذاب)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ [الكَهْف : ٩٧] .

فَمَا قَدَرَ يَأجوج ومَأجوج أن يَعْلُوا السَّدَّ لارتفاعه ومَلاسته ، ومَا قَدَرُوا أن يَنْقُبُوه مِن أسْفَلِه لِصَلابته وسُمْكِه . وبهذا السَّدِّ المَنِيع أغلقَ ذُو القَرْنَيْن الطريقَ على يَأجوج ومَأجوج .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ١٤٢) : ((يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَن يَأجوج ومَأجوج أَنَّهُم مَا قَدَرُوا عَلى أن يَصْعَدُوا مِن فَوْقِ هذا السَّد ، ولا قَدَرُوا على نَقْبِه مِن أسْفَلِه ، ولمَّا كانَ الظُّهُور عَلَيه أسهل مِن نَقْبِه ، قابلَ كُلًّا بِما يُناسبه ، فقال : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ ،

وهذا دليل على أنَّهُم لَمْ يَقْدِرُوا عَلى نَقْبِه ، ولا على شَيْء مِنْه)) اهـ . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٥ / ٢٤٦) : ((فَعَلُوا مَا أُمِرُوا بِه مِن إيتاء القِطْرِ أو الإتيان ، فَأفْرَغَه عَلَيه ، فاختلطَ والتصقَ بعضُه ببعض ، فصارَ جَبْلًا صَلْدًا ، فجاءَ يَأجوجُ ومَأجوجُ ، فَقَصَدُوا أن يَعْلُوه ويَنْقُبُوه ، فَمَا استطاعوا ﴿ أن يَظْهَرُوهُ ﴾ ، أي : يَعْلُوه ويَرْقَوْا فِيه لارتفاعه ومَلاسته ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ لِصَلابته وثَخَانته . وهذه مُعجِزة عظيمة ، لأنَّ تِلْك الزُّبَر الكثيرة إذا أثَّرَتْ فِيها حَرارةُ النار لا يَقْدِر الحَيَوَانُ على أن يَحُوم حَوْلَها فَضْلًا عَن النَّفْخِ فِيها إلى أن تَكُون كالنار، أوْ عَن إفراغ القِطْر عَلَيها، فكأنَّه سُبحانَه وتَعَالى صَرَفَ تأثيرَ تِلْك الحَرَارة العظيمة عن أبدان أُولئك المُباشِرين للأعمال ، فكانَ مَا كانَ ، واللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْء قدير . وقِيل : بَنَاه مِن الصُّخُور مُرتبطًا بعضُها ببعض بكلاليب مِن حَدِيد ونُحَاس مُذاب في تَجَاويفها ، بِحَيْث لَمْ يَبْقَ هُناك فُرْجَة أصلًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكَهْف : ٩٨] .

قال ذُو القَرْنَيْن : هذا السَّدُّ نِعمةٌ مِنَ اللَّهِ ، ورَحمةٌ عَلى عِبَادِه ، لأنَّه مانعٌ مِن خُروجِ يَأجوج ومَأجوج ، فإذا جاءَ وَعْدُ اللَّهِ بِخُرُوجِهِم ، وذلك قُرْب قِيَام السَّاعَة ، جَعَلَه اللَّهُ مَدكوكًا مَبسوطًا مُسَوًّى بالأرض ، وعادَ مُتَهَدِّمًا كأن لَمْ يَكُن بالأمْسِ ، وكانَ وَعْدُ اللَّهِ بِخَرَابِ السَّدِّ وخُرُوجِ يَأجوج ومَأجوج كائنًا لا مَحَالة .

وفي تَفسير الجَلالَيْن (١/٣٩٤): ((﴿ قَالَ ﴾ ذُو القَرْنَيْن ﴿ هَذَا ﴾ أي: السَّد ، أي : الإقدار عَلَيه ﴿ رَحْمَةٌ مِن رَبِّي ﴾ نِعْمَة ، لأنَّه مانعٌ مِن خُروجهم ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ بِخُروجِهم القريب مِنَ البَعْثِ ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ مَدكوكًا مَبسوطًا ﴿ وكَانَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ بِخُروجِهم وغَيْرِه ﴿ حَقًّا ﴾ كائنًا)).

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٥ / ١٩٤ و١٩٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَبِّي ﴾ ، لَمَّا فَرَغَ ذُو القَرْنَيْن مِن بُنْيَانه ، قال : هذا . وفِيما أشارَ إلَيه قَولان : أحدهما أنَّه الرَّدْم ، قاله مُقاتِل ، قال : فالمَعنى : هذا نِعمة مِن رَبِّي عَلى المُسْلِمين لِئَلا يَخْرُجوا إلَيهم. والثاني أنَّه التَّمكين الذي أدركَ بِه عَمَلَ السَّدِّ ، قاله الزَّجَّاج . قَوْلُه تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ ، فِيه قَوْلان : أحدهما القِيَامَة ، والثاني وَعْدُه لِخُروج يَأجوج ومَأجوج)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ حتَّى إذا فُتِحَتْ يَأجُوجُ ومَأجُوجُ وهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُون ﴾ [الأنبياء: ٩٦]. حَتَّى إذا فُتح سَدُّ يأجوج ومأجوج، وهُم لكثرتهم مِن كُلِّ مَكان مُرتفِع (حَدَب) مِن الأرض يُقْبِلُون ، ويَنْزِلُون مُسْرِعين . أي إنَّهُم لكثرتهم يَخرُجون مِن كُلِّ طريق لنشر الفساد في الأرض .

وهذه الصُّورةُ القُرآنيَّةُ البليغةُ تُوضِّح صِفَةَ خُروجهم . وحِين يُفتَح سَد يأجوج ومأجوج الذي كان يَحجُزهم ، فإنهم يُسرِعون إلى الفَساد كأنَّهم أمواج هائلة مُتتابعة. فهُم يَنسِلون مِن كُلِّ ناحية ، وذلك لكثرة أعدادهم. والجدير بالذِّكْر أنَّ خُروجهم مِن عَلامات السَّاعَة الكُبْرَى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٦٢) : ((﴿ حتَّى إذا فُتِحَتْ يَأجُوجُ ومَأجُوجُ وهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُون﴾ ، أي : يُسرِعون في المَشْي إلى الفَساد . والحَدَبُ هو المُرتفَع مِن الأرض ، قاله ابن عباس وعِكرمة وأبو صالح والثَّوري وغَيرهم ، وهذه صِفتهم في حال خُروجهم كأن السامع مُشَاهِد لذلك، ﴿ ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبير ﴾ ، هذا إخبار عَالِم مَا كان ، ومَا يَكُون ، الذي يَعْلَم غَيْبَ السَّمَاوات والأرض ، لا إله إلا هُوَ. وقال ابن جرير : حَدَّثَنا مُحمَّد بن مُثَنَّى ، حَدَّثَنَا مُحمَّد ابن جعفر ، حَدَّثَنا شُعْبَة عن عُبَيْد اللَّه بن يَزيد ، قال : رأى ابنُ عَبَّاس صِبيانًا يَنْزُو بعضُهم على بعض يَلْعَبُون ، _ يعني : يَثِبُون على بعضهم البعض _ ، فقال ابن عباس : هكذا يَخرُج يَأجوجُ ومَأجوجُ . وقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ خُروجهم في أحاديث مُتَعَدِّدة مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّة)) .

وعن أبي رافعٍ مِن حديث أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ في السَّدِّ قال : ((يَحْفِرُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ ، حَتَّى إذا كادوا يَخْرِقُونَهُ قالَ الذي عَلَيْهِم : ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا ، فَيُعِيدُهُ اللَّهُ كَأشَدِّ مَا كانَ ، حَتَّى إذا بَلَغَ مُدَّتَهُم ، وأرادَ اللَّهُ أن يَبْعَثَهُم عَلى الناسِ ، قال الذي عَلَيْهِم : ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا إنْ شَاءَ اللَّهُ ، واسْتَثْنَى ، _ قال _ : فَيَرْجِعُونَ فَيَجِدُونَهُ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَخْرِقُونَهُ ، فَيَخْرُجُونَ عَلى الناسِ ، فَيَسْتَقُونَ المِيَاهَ ، وَيَفِرُّ الناسُ مِنهُم ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِم في السَّمَاءِ ، فَتَرْجِعُ مُخَضَّبَةً بالدِّمَاءِ ، فَيَقُولُون : قَهَرْنَا مَن في الأرضِ ، وَعَلَوْنَا مَن في السَّمَاءِ ، قَسْوَةً وعُلُوًّا ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِم نَغَفًا في أقفائهم فَيَهْلِكُون ، فَوَالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إنَّ دَوَابَّ الأرْضِ تَسْمَنُ وتَبْطَرُ وتَشْكَرُ شَكَرًا مِن لُحُومِهِم)) [٤٠] .

يَأجوجُ ومَأجوجُ أُمَّتَان عظيمتان مِن بَنِي آدَم ﷺ ، وقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبحانَه قِصَّةَ المَلِكِ المُسْلِمِ والقائدِ العظيمِ ذِي القَرْنَيْن مَعَهُم في سُورةِ الكَهْفِ ، وذَكَرَ السَّدَّ الذي بُنِيَ عَلَيهِم مِنَ الحَديدِ والنُّحَاسِ المُذابِ ، وفَصَّلَ القُرآنُ طريقةَ البِناءِ ومَادَّتَه . وخُرُوجُهم في آخِرِ الزَّمَانِ مِن أشراطِ السَّاعَة (عَلامات الساعة الكُبرى) .

---

٤٠ رواه التِّرمذيُّ في سُنَنِه (٥ / ٣١٣) برقم (٣١٥٣) ، وقال : ((حسن غريب)) ، ورواه الحاكم في المستدرك (٤ / ٥٣٤) برقم (٨٥٠١) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

يُخبِر النَّبِيُّ ﷺ عَن خُروجِ يَأجوج ومَأجوج في آخِرِ الزَّمانِ ، وعَن إفسادِهم وشَرِّهِم في الأرض، وكيف يَكُون هَلاكُهم ، حَيْثُ يَقُول أبو هُرَيرة _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ عَن النَّبِيِّ ﷺ " في السَّدِّ " ، والسَّدُّ هُوَ الحاجزُ والمانعُ ، والمَقصودُ بِه السَّدُّ الذي بَنَاه ذُو القَرْنَيْن ، وكانَ مَلِكًا صالحًا عابدًا ، يُؤْمِن باللَّهِ تعالى ، وبَلَغَ مَشارقَ الأرضِ ومَغاربَها ، فقال له أُنَاس: إنَّ هُناك مَن يُفْسِد في الأرضِ ، وهُم قَبيلتا يَأجوج ومَأجوج ، مِن ذُرِّيةِ آدم ﷺ ، فكانوا يُدمِّرون ويُفْسِدُون في البِلادِ ، فَطَلَبَ هؤلاء الناسُ مِن ذِي القَرْنَيْن أن يَجعل بَينهم وبَين يأجوج ومأجوج سَدًّا، فأجابَهم إلى مَا طَلَبُوه مِنْه، وبَنى لهم السَّدَّ مِن الحَديدِ والنُّحَاسِ المُذابِ ، فكانَ حاجزًا وحائلًا بَين الناس وبَين وُصولِ يأجوج ومأجوج إلَيهِم . " قال " ، أي : النَّبِيُّ ﷺ : " يَحْفِرُونه " ، أي : يَأجوج ومَأجوج يَنْقُبُون خَلْفَ السَّدِّ " كُلَّ يَوْمٍ " ، أي : مُستمرين في حَفْرِه يَوْمًا بَعْدَ يَوْم ، " حَتَّى إذا كادوا " ، أي : اقْتَرَبُوا " يَخْرِقُونَهُ " ، أي : يَتَعَدَّوْنَ السَّدَّ ، ويَهْدِمُونه ، " قالَ الذي عَلَيْهِم " ، وهو قائدُهم وسَيِّدُهم : "ارْجِعُوا " ، أي: عُودوا، " فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا "، أي : سَتَفْتَحُون هذا السَّدَّ غدًا ، قال:"فَيُعِيدُهُ اللَّهُ " أي : فَيُرجِع اللَّهُ السَّدَّ " كَأشَدِّ " ، أي : أقْوَى وأمْتَنِ " مَا كانَ " عَلَيه قَبْلَ ذلك ، " حَتَّى إذا بَلَغَ مُدَّتَهُم "، أي: حَتَّى إذا وَصَلُوا إلى الوَقْتِ الذي يَفْتَحُون فيه السَّدَّ ، " وأرادَ اللَّهُ " ، أي : قَدَّرَ اللَّهُ " أن يَبْعَثَهُم عَلى الناسِ " ، أي : أن يُخْرِجَهم اللَّهُ على الناس ، " قال الذي عَلَيْهِم " ، أي : أميرُهم : " ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا " ، أي : عُودوا فَستهدمونه غدًا " إنْ شَاءَ اللَّهُ ، واسْتَثْنَى " أي: ذُكِّرَ بأن يَستثنيَ ويَقُول: إنْ قَدَّرَ لَنَا اللَّهُ ذلك " _ قال _ " ، أي : النَّبِيُّ ﷺ : " فَيَرْجِعُونَ " ، أي: فَيَعُودون " فَيَجِدُونَهُ "، أي : السَّدَّ " كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوه " ، أي : كَمَا تَرَكُوه عَلَيه في اليَوْمِ السابقِ مِنَ الهَدْمِ، " فَيَخْرِقُونَهُ " فَيَهْدِمُونه ، " فَيَخْرُجُونَ عَلى الناسِ " ، أي : مِن كُلِّ ناحيةٍ ، " فَيَسْتَقُونَ" أي : يَشْرَبُون " المِيَاهَ " حَتَّى تَجِفَّ الأنهارُ ، " وَيَفِرُّ الناسُ مِنهُم " ، أي : يَهْرُب الناسُ ويَتَحَصَّنُون مِنهُم " فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِم في السَّمَاءِ " ، أي : يُصَوِّب يَأجوجُ ومَأجوجُ بِسِهَامِهِم إلى السَّمَاء ، " فَتَرْجِعُ " ، أي : تَعُود السِّهَامُ " مُخَضَّبَةً " ، أي : مَصبوغةً بالدِّمَاءِ ، فِتْنَةً مِنَ اللَّهِ وبَلاءً لَهُم ، " فَيَقُولُون : قَهَرْنَا مَن في الأرضِ " ، أي : انْتَقَمْنَا مِن أهلِ الأرضِ ، " وَعَلَوْنَا مَن في السَّمَاءِ " ، أي : غَلَبْنَا أهلَ السَّمَاءِ ، " قَسْوَةً وعُلُوًّا " ، أي : كانَ قَوْلُهم هذا عَن تَكَبُّرٍ وكِبْرٍ لِكُفْرِهِم،" فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِم نَغَفًا " ، أي : فَيُرْسِل اللَّهُ عَلَيهِم نَوْعًا مِنَ الحَشَرَاتِ والدِّيدانِ يُسَمَّى النَّغَف ، " في أقفائهم " ، أي : يَكُون هذا الدُّودُ مِن وَراءِ أعناقِهم ورُؤُوسِهم " فَيَهْلِكُون " ، أي : يَمُوتون . قالَ النَّبِيُّ ﷺ : " فَوَالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ "، أي: والذي حَيَاةُ وأمْرُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه، " إنَّ دَوَابَّ

الأرْضِ"، وَهِيَ مَا يَدِبُّ عَلى الأرضِ مِنَ السِّبَاعِ والهَوَامِّ والحَشَرَاتِ " تَسْمَنُ " ، أي : تَزداد وتَصِير سَمينةً ، " وتَبْطَرُ وتَشْكَرُ شَكَرًا مِن لُحُومِهِم " ، أي : تَمتلئ بُطُونُها شِبَعًا مِن الأكلِ مِن لَحْمِهِم .

وفي الحديثِ : بَيَانُ دَلائِل نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وفيه : بَيَانُ شِدَّةِ فِتْنَةِ يَأجوج ومَأجوج ، وعِظَمِ خَلْقِهِم .

وقال المباركفوري في تُحفة الأحوذي (٨ / ٤٧٤ و٤٧٥) : ((قَوْلُه : (في السَّدِّ) أي : الذي بَنَاه ذُو القَرْنَيْن (يَحْفِرُونَه) الضَّمِيرُ المَرفوع لِيَأجوج ومَأجوج والمنصوبُ للسَّدِّ (قال الذي عَلَيهِم) أي الذي هو أميرٌ عَلَيهِم (فَيُعِيدُه) أي السَّد المَخروق (كأمثلِ مَا كانَ) وفي بعض النُّسخ كأشدِّ مَا كان (حَتَّى إذا بَلَغَ مُدَّتَهُم) وفي رواية ابن مَاجَة : حَتَّى إذا بَلَغَتْ مُدَّتُهُم ، أي المُدَّة التي قُدِّرَتْ لَهُم (وَاسْتَثْنَى) أي قال : إن شاء اللَّهُ (قال) أي : رسولُ اللَّه ﷺ (فَيَسْتَقُونَ المِيَاهَ) وفي رواية ابن مَاجَة : فَيُنَشِّفُون الماءَ . وفي حديث أبي سَعِيد عِند أحمد : وَيَشْرَبُونَ مِيَاهَ الأرضِ (ويَفِرُّ الناسُ مِنهُم) وفي رواية ابن مَاجَة : وَيَتَحَصَّنُ الناسُ مِنهُم في حُصُونهم . وفي حديث أبي سعيد عِند ابن مَاجَة : ويَنحازُ مِنهُم المُسْلِمُونَ حَتَّى تَصِيرَ بَقِيَّةُ المُسْلِمِين في مَدَائِنِهِم وحُصُونِهِم (فَتَرْجِعُ مُخَضَّبَةً بالدِّمَاءِ) أي : فَتَرْجِعُ السِّهَامُ مَصبوغةً بالدِّمَاءِ إلَيهِم (وَعَلَوْنَا مَن في السَّماء) أي غَلَبْنَاهُم (قَسْوَةً وعُلُوًّا) أي يَقُولون هذا القَوْلَ غِلْظَةً وفَظَاظَةً وتَكَبُّرًا (فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِم نَغَفًا) بِفَتْحِ النُّونِ والغَيْنِ المُعْجَمَة : دُودٌ يَكُون في أُنُوفِ الإبِلِ والغَنَمِ جَمْع نَغَفَة (في أقفائهم) جَمْع قَفًا ، وهو وَرَاء العُنُق . وفي حديث النَّوَّاس بن سَمْعَان : في رِقَابِهِم (فَيَهْلِكُون) وفي حديث أبي سعيد عِند ابن مَاجَة : فَيَمُوتون مَوْتَ الجَرَادِ . وفي حديث النَّوَّاس بن سَمْعَان عِند مُسْلِم : فَيُصْبِحُون فَرْسَى ـ قَتْلَى ـ كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحدةٍ (إنَّ دَوَابَّ الأرضِ تَسْمَن) مِنَ السِّمَنِ ضِد الهُزَالِ (وَتَبْطَر) مِنَ البَطَرِ مُحَرَّكَة النَّشَاطُ والأشَر (وتَشْكَر) يُقَال : شَكِرَت الناقةُ : امتلأ ضَرْعُها لَبَنًا ، والدَّابَّةُ سَمِنَتْ . وهذه الأفعال الثلاثة مِن بابَ سَمِعَ يَسْمَع)) .

وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عنه ـ قال : سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول : ((تُفْتَحُ يَأجوجُ ومأجوج ، يَخرُجون على الناس ، كما قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُون ﴾ ، فَيَعِيثُونَ في الأرض ، ويَنحاز المُسْلِمُون إلى مدائنهم وحُصونهم ، ويَضُمُّون إلَيهِم مَوَاشِيهم ، ويَشْرَبُون مِيَاهَ الأرضِ ، حَتَّى إنَّ بَعْضَهم لَيَمُرُّ بالنهر ، فيَشربون ما فيه ، حَتَّى يَتركوه يابسًا ، حتى إنَّ مَن بَعْدَهُم لَيَمُرُّ بذلك النهر فيقول : لقد كان هاهُنا مَاءٌ مَرَّةً ، حَتَّى إذا لَمْ يَبْقَ مِن الناس أحَدٌ إلا أخَذَ في حِصْنٍ أو مدينة ، قال قائلهم : هؤلاء أهلُ الأرض قَد فَرَغْنَا مِنهُم ، بَقِيَ أهلُ السَّمَاء ، قال : ثُمَّ

يَهُزُّ أحَدُهم حَرْبَتَه ، ثُمَّ يَرْمي بها إلى السَّمَاء ، فَتَرْجِعُ مُخَضَّبَةً دَمًا للبَلاءِ والفِتْنَةِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ على ذلك ، بَعَثَ اللَّهُ عَلَيهِم دُودًا في أعناقهم كالنَّغَفِ ، فيَخرج في أعناقهم، فيُصبِحون مَوْتَى لا يُسمَع لهم حِس ، فيَقول المُسلِمون : ألا رَجُلٌ يَشْري لنا بِنَفْسِه ، فيَنظر مَا فعل هذا العَدُوُّ ، قال : ثُمَّ يَتَجَرَّد رَجُلٌ مِنهُم لذلك مُحْتَسِبًا بِنَفْسِه ، قَدْ وَطَّنَها بِنَفْسِه على أنَّه مَقتول ، فيَنزِل فَيَجِدهم مَوْتَى ، بَعْضُهم على بَعْض ، فَيُنادي : يَا مَعْشَرَ المُسلِمين ، أبشِرُوا ، فَإنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَاكُم عَدُوَّكُم ، فيَخرُجون مِن مَدائنهم وحُصونهم ، ويَسْرَحُون مَواشِيهم ، فَمَا يكون لها رَعْيٌ إلا لُحُومُهم ، فَتَشْكَرُ عنه كأحسنِ مَا شَكِرَتْ عَن شَيء مِن نَبَاتٍ أصابته قَط)) [٤١] .

يُوضِّح النَّبِيُّ ﷺ عمليةَ خُروج يَأجوج ومَأجوج في آخِر الزَّمان،ويُخبِر عن إفسادهم في الأرض، وخطرهم ، وشَرِّهم ، وكيفية هلاكهم .

يُفْتَح السَّد الذي بناه ذُو القَرْنَيْن لِحَجْزِ يأجوجَ ومأجوج، فينتشرون مِن كُلِّ الجِهات ، ويأتون مِن كُلِّ الأماكن ، ويَعِيثون في الأرض فسادًا ، ويَتَحَصَّن المُسلِمون في مدائنهم وحُصونهم ، ويَجْمَع المُسلِمون حيواناتهم في الحُصون معهم ، لحمايتها من فساد يأجوج ومأجوج وشَرِّهم ، ويَشرَبون مياهَ الأنهار ، ولا يَتركون مِنها شيئًا ، وهذا يدلُّ على كثرة عددهم ، وقُوَّتهم البدنية ، وشِدَّتهم ، وقَسْوتهم ، وعِظَمِ خَلْقِهم .

وبعد أن يَعِيث يأجوجُ ومأجوجُ في الأرضِ فسادًا ، ويُهلِكون أهلَ الأرض ، يُقَرِّرون أن يُهلِكوا أهلَ السَّماء ، وَفْقَ تفكيرهم القاصر ، ويَرْمي أحدُهم حَرْبَتَه إلى السماء ، فَتَرجع مصبوغةً بالدَّم ، بَلاءً لَهُم وفِتْنَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالى ، فَيَعْتقدون أنَّهُم قَتَلُوا أهلَ السَّماء ،وهذا يُصيبهم بالغُرور والفَخْر والاستكبار ، وبَينما هُم كذلك ، بَعَثَ اللَّهُ عليهم دُودًا في أعناقهم كالنَّغَف (الدُّود الذي يَكون في أُنُوف الإبِلِ والغَنمِ) ، فيموتون ، ولا يَسمع المُسلِمون لهم صَوْتًا ، فيقول المُسلمون وهُم في حُصونهم : ألا رَجُل يَبيع نَفْسَه ، ويَنظر مَا فَعلوا . ويَنزِل مِنهُم رَجُل قد هيَّأ نَفْسَه على أن يَقْتُلوه ، فيَجدهم مَوْتَى ، بعضهم فوق بعض ، بسبب كثرة عددهم ، فيُنادي على المُسلمين في الحُصون ، ويُبشِّرهم بهلاك يأجوج ومأجوج ، وأنَّ اللَّه قد كَفَاهُم عَدُوَّهم ، فيَخرج المُسلمون مِن مدائنهم وحُصونهم، ويُطْلِقُون حيواناتهم، فَمَا يكون لها رَعْيٌ إلا لُحُوم يأجوج ومأجوج ، فتمتلئ بُطُونُها شِبَعًا مِن الأكل مِن لُحومهم .

---

٤١ رواه الحاكم في المستدرك (٤ / ٥٣٥) برقم (٨٥٠٤) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

والحديثُ دليل واضح على صِدق مُحَمَّد ﷺ وصِحَّةِ نُبُوَّته ، لأنَّه إخبار بأمر غَيْبِيٍّ مُسْتَقْبَلِيٍّ ، والنَّبِيُّ ﷺ لا يَعْلَمُ الغَيْبَ إلا إذا أخْبَرَه اللَّهُ بِه . والأنبياءُ مُؤَيَّدُون بالوَحْيِ الإلهيِّ المَعصوم .

ويُبيِّن الحديثُ خُطورةَ فِتْنَة يأجوج ومأجوج ، وكثرة عددهم ، ونشرهم للفساد والشَّر ، وامتلاكهم قُدرات خارقة وإمكانيات هائلة غَيْر مُتَوَفِّرة لدى الناس .

وعَن زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ــ رَضِيَ اللَّهُ عنها ــ أنَّ رسول اللَّه ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا فَزِعًا ، يَقُول : ((لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وَيْلٌ للعَرَبِ مِن شَرٍّ قَد اقتربَ ، فُتِحَ اليَوْمَ مِن رَدْمِ يَأجُوجَ ومَأجُوجَ مِثْلُ هذه)) . وحَلَّقَ بإصْبَعَيْهِ الإبهام ، والتي تَلِيها [٤٢] .

دَخَلَ النبيُّ ﷺ على زَوجته أُم المؤمنين زَينب بنت جَحْش ــ رضي اللَّهُ عنها ــ يَوْمًا خائفًا ، يقَول : " لا إلهَ إلا اللَّهُ " ، على سبيل التَّعظيم ، والتَّعَجُّب مِن هَوْلِ مَا حَصَلَ . والوَيْلُ كَلِمَة تُسْتَعْمَل للحُزْنِ والهَلاك والمَشَقَّة.وتَخصيصُ العَرَبِ بالذِّكْرِ، لأنَّهُم كانوا حِينئذ مُعظَم المُسلِمين ، أوْ: لأنَّهم أكثر مَن يُبتلَى بيأجوج ومأجوج، فإنَّهم يأتون من جِهة المشرق . وهذا تحذير مِن هذه الفِتنة الشديدة ، وتنبيه على خُطورتها .

وقال الحافظ في الفتح (١٣ / ١١) : ((إنَّمَا خُصَّ العَرَبُ بالذِّكْر ، لأنَّهم أوَّل مَن دَخَلَ في الإسلام ، وللإنذار بأنَّ الفِتَن إذا وَقَعَتْ كان الهَلاك أسرعَ إلَيهم)) .

إنَّ العَدَّ التنازلي قَدْ بدأ ، فالسَّدُّ الذي بَناه ذُو القَرْنَيْن لحماية الناس مِن شَرِّ يأجوج ومأجوج ، قَد تَمَّ خَرْقُه مِن قِبَلِهم ، وهذا الخَرْقُ يَتَّسع مَعَ مُرور الوَقْت . وسَوْفَ يَخرُجون في نهاية الزمان لِيَعِيثوا في الأرض فسادًا . وخُروجُ يَأجوج ومأجوج مِن عَلاماتِ السَّاعة الكُبْرى ، وَلَن يَثْبُتَ في ذلك الوَقت العصيب إلا مَن ثَبَّتَه اللَّهُ تعالى . وَلَمْ يَبْقَ لمجيء الشَّر إلا اليسير مِن الزمن .

وقال الحافظُ في الفَتْح (١٣ / ١٠٧ ــ ١٠٩) : ((قَوْلُه : " وَيْلٌ للعَرَبِ مِن شَرٍّ قَدِ اقتربَ " . خُصَّ العَرَبُ بذلك لأنَّهُم كانوا حِينئذ مُعْظَم مَن أسلمَ ، والمُراد بالشَّرِّ مَا وَقَعَ بَعْدَه مِن قَتْلِ عُثمان ، ثُمَّ توالت الفِتَنُ حتى صارت العَرَبُ بَين الأُمَم كالقَصْعَةِ بَيْنَ الأكَلَةِ ، كما وَقَعَ في الحديث الآخَر : " يُوشِكُ أن تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الأكَلَةُ عَلى قَصْعَتِهَا " ، وأن المُخَاطَب بذلك العَرَب ، قال القُرطبي : ويَحْتَمِل أن يَكُون المُراد بالشَّرِّ مَا أشارَ إلَيه في حديث أُمِّ سَلَمَة : " مَاذا أُنزِلَ الليلةَ مِنَ الفِتَنِ ؟ ، ومَاذا أُنزِلَ مِنَ الخَزائنِ ؟ " ، فأشارَ بذلك إلى الفُتُوح

---

٤٢ متفق عليه. البخاري (٦ / ٢٦٠٩) برقم (٦٧١٦) ، ومسلم (٤ / ٢٢٠٧) برقم (٢٨٨٠) .

التي فُتِحَتْ بَعْدَه ، فَكَثُرَت الأموالُ في أيديهم ، فَوَقَعَ التنافسُ الذي جَرَّ الفِتَنَ ، وكذلك التنافس على الإمْرَة ، فإنَّ مُعْظَم مَا أنكَرُوه عَلى عُثمان تَوْلِيَة أقاربه مِن بَنِي أُمَيَّة وغَيْرِهِم ، حتى أفضى ذلك إلى قَتْلِه ، وتَرَتَّب على قَتْلِه مِن القِتال بَين المُسْلِمِين مَا اشْتَهَرَ واستمرَّ . قَوْلُه : " فُتِحَ اليَوْمَ مِن رَدْمِ يَأجوجَ ومَأجوجَ " ، المُراد بالرَّدْمِ السَّدُّ الذي بَنَاه ذُو القَرْنَيْن ، ... . قَوْلُه : " مِثْلُ هذه " ، وحَلَّقَ بِإصْبَعَيْه الإبهام والتي تَلِيها ، أي : جَعَلَهُمَا مِثْلَ الحَلْقَة ، ... . وقَدْ جاءَ في خَبَر مَرفوع أنَّ يَأجوج ومَأجوج يَحْفِرُون السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ . وهو فِيما أخرجه التِّرمذي وحَسَّنَه وابن حِبَّان والحاكم وصَحَّحَاه مِن طريق قَتَادة عَن أبي رافع عن أبي هُرَيرة رَفَعَه في السَّدِّ يَحْفِرُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إذا كادوا يَخْرِقُونَه قالَ الذي عَلَيهِم : ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَه غَدًا فَيُعيده اللَّهُ كأشدِّ مَا كانَ حَتَّى إذا بَلَغَ مُدَّتَهُم وأرادَ اللَّهُ أن يَبْعَثَهُم قال الذي عليهم : ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونه غَدًا إن شاءَ اللَّهُ وَاسْتَثْنَى قال: فَيَرْجِعُون فَيَجِدونه كَهَيئته حِينَ تَركوه فَيَخْرِقُونه فَيَخْرُجُون على الناس . الحديث . قُلْتُ : أخرجه التِّرمذيُّ والحاكم مِن رواية أبي عَوَانَة وعَبْد بن حُمَيْد مِن رواية حَمَّاد بن سَلَمَة وابن حِبَّان مِن رِواية سُلَيمان التَّيْمِي كُلُّهُم عَن قَتَادة ، ورِجالُه رجال الصحيح ، إلا أنَّ قَتَادَة مُدَلِّس ، وقَد رواه بعضُهم عَنْهُ ، فأدخلَ بَينهما واسطةً ، أخرجه ابن مَرْدَوَيْه ، لكن وقع التصريح في رِواية سُلَيمان التَّيْمي عن قَتَادة بأنَّ أبا رافع حَدَّثَه ، وهو في صحيح ابن حِبَّان وأخرجه ابن مَاجَة من طريق سعيد بن أبي عَرُوبة عَن قَتَادة : قال : حَدَّثَ أبو رافع ، وله طريق آخَر عن أبي هُرَيرة أخرجه عَبْد بن حُمَيْد مِن طريق عاصم عن أبي صالح عَنْه ، لكنَّه مَوْقوف . قال ابنُ العربي : في هذا الحديثِ ثَلاثُ آيَاتٍ ، الأُولَى : أنَّ اللَّهَ مَنَعَهم أن يُوَالوا الحَفْرَ لَيْلًا ونهارًا ، الثانية : مَنَعَهُم أن يُحاولوا الرُّقِيَّ عَلى السَّدِّ بِسُلَّمٍ أوْ آلةٍ ، فَلَمْ يُلْهِمْهُم ذلك ولا عَلَّمَهُم إيَّاه . ويَحْتَمِل أن تَكُون أرضُهم لا خَشَب فيها ولا آلات تَصْلُح لذلك . قُلْتُ : وَهُوَ مَردود، فَإنَّ في خَبَرِهم عِند وَهْب في المُبتدَأ أنَّ لهم أشجارًا وزُروعًا وغَيْر ذلك مِن الآلات ، فالأوَّلُ أَوْلَى . وأخرجَ ابنُ أبي حاتم وابنُ مَرْدَوَيْه مِن طريق ابن عمرو بن أوس عن جَدِّه رَفَعَه: أنَّ يَأجوجَ ومَأجوجَ لَهُم نِسَاءٌ يُجَامِعُون مَا شاؤوا ، وشَجَرٌ يُلَقِّحُونَ مَا شَاؤوا . الحديث . الثالثة : أنَّه صَدَّهُم عَن أن يَقُولوا : إن شاءَ اللَّه ، حتى يجيء الوقت المحدود. قُلْتُ : وفيه أنَّ فِيهم أهل صِناعة وأهل وِلاية وسَلاطة ورَعِيَّة تُطِيع مَن فَوْقَها ، وأنَّ فِيهم مَن يَعْرِف اللَّهَ، ويُقِر بِقُدرته ومَشِيئته . ويَحْتَمِل أن تَكُون تِلْك الكَلِمَة تَجْري على لِسَان ذلك الوالي مِن غَيْر أن يَعْرِف مَعْناها ، فَيَحْصُل المَقصود بِبَرَكَتِهَا)) اهـ. وقال العَيني في عُمدة القاري (٢٤/ ١٨١): ((وإنَّما خُص العرب بالذِّكْر ، لأنَّهم أوَّل مَن دَخَلَ في الإسلام، والإنذار بأنَّ الفِتَن إذا وَقَعَتْ كان

الهَلاكُ إليهم أسرعَ. ... . قَوله: " وَيْل للعرب " لَفْظ وَيْل مِثْل وَيْح ، إلا أنَّ وَيْلًا يُقَال لِمَن وَقَعَ في هَلَكَة يَستحقها ، ووَيْحًا يُقال لِمَن لا يَستحقها، وأراد بالعرب أهل دِين الإسلام ، وإنَّما خُصَّ بذِكْرهم ، لأنَّ مُعظَم شَرِّهم راجع إليهم . قَوله : " قَد اقترب " أي : قَرُبَ . قَوله : " فُتح " على صِيغة المَجهول ، " اليَوم " نصب على الظَّرفية . قَوله : " مِن رَدْم يأجوج ومأجوج " ، الرَّدْم السَّد الذي بَيْنَنا وبَيْنَهم . وقال الكِرْماني: يُقَال: إنَّ يأجوج هُم التُّرْك ، وجَرَى مَا جَرَى ببغداد مِنهُم . قُلْتُ : هذا القول غَير صحيح ، لأنَّ التُّرْك مَا لَهُم رَدْم ، والرَّدْمُ بَيْنَنا وبَيْن يَأجوج ومَأجوج ، وهُما مِن بَني آدم مِن أولاد يَافِث بن نُوح عليه السلام . والذي جرى ببغداد كان مِن هُلاكو مِن أولاد جِنكيز خانْ ، فإنَّه هو الذي قَتل الخليفة المُستعصِم باللَّهِ العَبَّاسي ، وأخربَ بغداد في سنة سِت وخمسين وسِتمائة . قَوله : وعَقَدَ سُفيان تِسعين ومائة ، كذا هنا (رواية أُخرى) ، وفي رواية : حَلَّق بإصبعه الإبهام والتي تَلِيها ، وفي لَفْظ : عَقَدَ سُفيان بيده عَشَرَة ... . وقِيل : المُراد التقريب بالتمثيل لا حقيقة التحديد)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٢٢): (((فُتح) بالبناء للمفعول. وفي رواية للبُخاري فَتَحَ اللَّهُ (اليَوْمَ) نصب على الظرفية (مِن رَدْم يأجوج ومأجوج) مِن سَدِّهم الذي بناه ذُو القَرْنَيْن (مِثْلُ) بالرَّفع مَفعول نابَ عن فاعله (هذه) أي الحَلْقَة القَصيرة(وعَقَدَ بيده تِسْعين) بأن جَعل طَرف سَبَّابته اليُمنى في أصل الإبهام ، وضَمَّها مُحْكِمًا ، بحيث انطوت عُقدة إبهامها حتى صارت كالحَيَّة المُطوَّقة . واخْتُلِف في العاقد ، ورجَّح بعضُهم أن العَقْد مُدرَج ، وليس مِن الحديث ، وإنَّما الرُّواة عبَّروا عن الإشارة مِثل هذه بذلك ، والمُراد بالتَّمثيل التقريب لا التحديد . وقَدْ قِيل : إنَّهم يَحفِرون في كُلِّ يَوم حَتَّى لا يَبقَى بَينهم وبَين أن يَخرِقوه إلا قَليلًا، فيَقولون: غدًا نأتي، فيَأتون إلَيه ، فيجدونه عاد كما كان ، فإذا جاء الوَقْت قالوا : عِند المساء غدًا إن شاء اللَّهُ ، فإذا أتَوْا ، ونَقَبُوه خرجوا . تَنْبيه . قال ابن العربي : الإشارة المَذكورة تدلُّ على أنَّ المُصْطَفَى ﷺ كانَ يَعْلَم عَدَدَ الحِسَابِ ، ولَيْسَ فيه ما يُعارِض حديث : " إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَحْسُب ، ولا نَكتُب " ، فإنَّ هذا إنَّما جاء لبيان صُورة مُعيَّنة. قال ابن حَجَر: والأوْلَى أن يُقَال: أراد بنَفْي الحِساب مَا يَتعاناه أهلُ صِناعته مِن الجَمْع والضَّرْب والتَّكعيب، وغَير ذلك . وأمَّا عَقْد الحِساب فاصطلاح تَوَاضَعَه العرب بَينهم استغناءً به عَن اللفظ ، وأكثر استعمالهم له عِند المُسَاوَمَة سَتْرًا عَمَّن حَضَرَ، فَشَبَّهَ المُصْطَفَى ﷺ قَدْرَ مَا فُتح بصفة معروفة بَينهم)) اهـ . وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٣٦٧) عن حَديث آخَر : (((وَيْل) كلمة تُقال لِمَن وَقَعَ في هَلَكَة ، ولا يُتَرَحَّم عَلَيه ، بخِلاف وَيْح ، كذا في

التَّنقيح (للعرب) يعني المُسلِمين (مِن شَرٍّ قَد اقتربَ) وهُو الفِتَن التي حَدَثَتْ بَينهم مِن قَتل عُثمان ، وخُروج معاوية على عليٍّ . قال ابن حَجَر: ثُمَّ توالت الفِتَن حتى صارت العربُ بين الأُمَم كالقَصْعَة بين الأَكَلَة ، كما وَقَع في حديث آخَر : يُوشِك أن تَدَاعَى عَلَيكم الأممُ كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ على قَصْعتها . والخِطاب للعرب . (أفلحَ مَن كَفَّ يَدَه) عَن القِتَال ، ولِسَانَه عَن الكلام في الفِتَن ، لكثرة الخَطَر ، أوْ أرادَ مَا يَقَع مِن مَفْسَدة يأجوج ومأجوج ، أوْ مِن التَّتَار مِن المَفَاسِد الهائلة ، التي قالوا إنَّه لَمْ يُسمَع وُقوع مِثْلِها في العَالَم مِن بَدْءِ الدُّنيا إلى الآن. وقال القُرْطبي : أخبرَ بِما يكون بَعْدَه بين العرب ، وقد وُجد ذلك بِما اسْتُؤْثِرَ عليهم مِن المُلْكِ والدَّولة ، وصارَ ذلك في غَيْرِهِم مِنَ التُّرْكِ والعَجَمِ ، وتَشَتَّتوا في البَوَادي بَعْد أن كان العِزُّ والمُلْكُ والدُّنيا لَهُم بِبَرَكته عليه الصلاة والسلام ، ومَا جاءهم بِه مِن الإسلام، فَلَمَّا كَفُروا النِّعْمَةَ ، فَقَتَلَ بعضُهم بعضًا، وسَلَبَ بعضُهم أموالَ بعض، سَلَبَهَا اللَّهُ مِنهُم، ونَقَلَها لِغَيْرِهِم. ﴿ وإن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُم ﴾ [مُحَمَّد : ٣٨])) .

وعن عبد اللَّه بن عَمْرو ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنهما ــ قال : ((يَأجُوجُ ومَأجُوجُ يَمُرُّ أوَّلُهُم بِنَهَرٍ مِثْلِ دِجْلَة ، ويَمُرُّ آخِرُهُم فَيَقُول : قَدْ كانَ في هذا النَّهْرِ مَرَّةً ماءٌ ، ولا يَمُوتُ رَجُلٌ إلا تَرَكَ ألْفًا مِن ذُرِّيَّتِهِ فَصَاعِدًا ، ...)) [٤٣] .

هذا يدلُّ على أعدادهم الهائلة ، وقُوَّتهم ، وشِدَّة بأسهم ، وانتشارهم المُذهِل في الأرض ، لِنَشْرِ الفَسَادِ والضَّلالِ فيها . وينبغي الاستعدادُ لهذا الحَدَثِ الرهيب ، وأخذ الحَيْطَة والحَذَر .

١٩ــ آل يَعْقُوب

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيم ﴾ [يُوسُف: ٦].

قالَ يَعقوب لابْنِه يُوسُف ــ عليهما الصَّلاة والسَّلام ــ : وكَمَا اختاركَ رَبُّكَ وأراكَ هذه الكواكبَ معَ الشَّمْسِ والقَمَرِ سَاجِدَةً لَكَ، كذلك يَختارك رَبُّكَ للنُّبُوَّةِ والمُلْكِ . ولا شَكَّ أنَّ هذه الرُّؤيا العظيمة تَدُلُّ على الشَّرَفِ والعِزِّ والمَجْدِ وكَمالِ النَّفْسِ. ويُعَلِّمُكَ اللَّهُ تَعبيرَ الرُّؤيا . سُمِّيَ تأويلًا ، لأنَّه يَؤُول أمْرُه إلى مَا رَأى في مَنَامِه ، والتأويلُ مَا يَؤُول إلى عاقبة الأمر .

---

٤٣ رواه الحاكم في المستدرك (٤ / ٥٣٦) برقم (٨٥٠٥) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١ / ٢٧٤) : ((﴿ تَأوِيلِ الأحَادِيثِ ﴾ مِن تَعبيرِ الرُّؤيا، لأنَّها أحاديث المَلَكِ إنْ كانتْ صادقةً ، وأحاديث النَّفْسِ أو الشَّيطان إنْ كانتْ كاذبةً)) .

وَيُتَمِّمُ اللَّهُ فَضْلَه وإنعامَه عَلَيْكَ ، وعَلى ذُرِّيةِ أبيكَ يَعْقُوب ، كَمَا أكْمَلَ النِّعْمَةَ مِن قَبْلِ ذلك على جَدِّكَ إبراهيم وجَدِّكَ إسحاق بالرِّسَالَةِ والاصطفاءِ ، إنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ بِمَن هُوَ أهْلٌ للفَضْلِ ، حَكِيمٌ في تَدْبيرِه لِخَلْقِه . واللَّهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَل رِسَالَتَه . وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٤ / ١٨١ و١٨٢) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ ، قال الزَّجَّاجُ وابنُ الأنباري : ومِثْل مَا رَأيْتَ مِن الرِّفعةِ والحَالِ الجَليلةِ ، يَختارك رَبُّكَ ويَصطفيكَ مِن بَين إخوتكَ . وقال ابنُ عَبَّاس : يَصطفيكَ بالنُّبُوَّةِ . قَوْلُه تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأوِيلِ الأحَادِيثِ ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه تَعْبير الرُّؤيا ، قاله ابنُ عَبَّاس ومُجاهِد وقَتَادَة ، فَعَلَى هذا سُمِّيَ تأويلًا، لأنَّه بَيَان مَا يَؤُول أمْرُ المَنَامِ إلَيْه. والثاني أنَّه العِلْمُ والحِكْمَة، قاله ابن زَيْد. والثالث تأويل أحاديث الأنبياء والأُمَم والكُتُب ، ذَكَرَه الزَّجَّاج . قال مُقَاتِل : و " مِن " هَاهُنا صِلَة. قَوْلُه تعالى : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها بالنُّبُوَّةِ ، قاله ابن عباس . والثاني بإعلاء الكَلِمَةِ.والثالث بأنْ أخْوَجَ إخْوَتَه إلَيْه حَتَّى أنعمَ عَلَيهِم ، ذَكَرَهما المَاوَرْدِيُّ. وفي آلِ يَعْقُوب ثلاثةُ أقوال : أحدها أنَّهُم وَلَدُه ، قاله أبو صالح عن ابن عَبَّاس . والثاني يَعْقُوب وامْرَأتُه وأولادُه الأحَد عَشَر ، أتَمَّ عَلَيهِم نِعْمَتَه بالسُّجُودِ لِيُوسُف ، قاله مُقَاتِل . والثالث أهْلُه ، قاله أبو عُبَيدة ، واحْتَجَّ بأنَّكَ إذا صَغَّرْتَ الآلَ قُلْتَ: أُهَيْل . قَوْلُه تعالى : ﴿ كَمَا أتَمَّهَا عَلى أبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إبْرَاهِيمَ وَإسْحَاقَ ﴾ ، قالَ عِكْرِمَة : فَنِعْمَتُه على إبراهيم أن نَجَّاه مِن النَّارِ، ونِعْمَتُه على إسحاق أن نَجَّاه مِنَ الذَّبْحِ. قَوْلُه تَعَالى : ﴿ إنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ أي: عَلِيمٌ حَيْثُ يَضَع النُّبُوَّةَ ﴿ حَكِيم ﴾ في تَدبيرِ خَلْقِه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَرِثُني وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم : ٦] [٤٤] .

---

٤٤ قال النَّوَوي في شرحه على صحيح مُسلِم (١٢ / ٨١) : ((جُمهور العُلَمَاء على أنَّ جميع الأنبياء ـصَلَوَات اللَّهِ وسَلامُه عَلَيهم أجمعين ـلا يُورَثُون.وحَكَى القاضي عن الحَسَن البَصْري أنَّه قال: عَدَمُ الإرْثِ بَينهم مُختص بِنَبِيِّنَا ﷺ لِقَوْلِه تَعَالى عَن زَكَرِيَّا : ﴿ يَرِثُني وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ وزَعَمَ أنَّ الْمُراد وِرَاثة المال.وقال:وَلَوْ أرادَ وِراثَةَ النُّبُوَّةِ لَمْ يَقُلْ: ﴿وإنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائي ﴾،إذْ لا يَخَاف الموالي عَلى النُّبُوَّة ، وَلِقَوْلِه تَعَالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ ، والصَّوَابُ مَا حَكَيْنَاه عَن الجمهور أنَّ جميع الأنبياء لا يُورَثُون. والْمُرَاد بِقِصَّة زَكريا وداود وِرَاثة النُّبُوَّة،ولَيْسَ المراد حقيقة الإرْثِ،بَلْ قِيَامُه مَقَامَه وحُلُولُه مَكَانَه،واللَّهُ أعْلَم))

قالَ النَّبِيُّ زَكَرِيَّا ﷺ بَعْدَ أن طَلَبَ الوَلَدَ مِنَ اللَّهِ : يَرِثُني وَيَرِثُ أجدادَه في العِلْمِ والنُّبُوَّةِ . والمُرادُ وِرَاثَةُ الشَّرْعِ فَإنَّ الأنبياءَ لا يُوَرِّثُون المالَ ، واجْعَلْهُ يَا رَبِّ بَرًّا تَقِيًّا مَرْضِيًّا عِنْدَكَ وعِند خَلْقِكَ تُحِبُّه وتُحَبِّبُه إلى خَلْقِكَ في دِينِه وخُلُقِه .

والجَديرُ بالذِّكْرِ أنَّ زَكَرِيَّا مِن وَلَدِ يَعقوب ، عَلَيهما الصَّلاة والسَّلام . ويَعْقُوب هُوَ إسرائيل . والمَقصودُ بِـ بَنِي إسرائيل : وَلَد يَعْقُوب ﷺ . ومَعنى إسرائيل : عبد اللَّه ، لأنَّ " إسر" في لُغَتِهِم هو العَبْد ، و " إيل " هُوَ اللَّه . وقِيل : إنَّ لِيَعْقُوب اسْمَيْن ، وقِيل : إسرائيل لَقَب له .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٥ / ٢٠٨ و٢٠٩) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ يَرِثُني وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ . ... . وفي المُراد بهذا المِيراث أربعة أقوال : أحدها يَرِثُني مَالِي ، وَيَرِثُ مِن آلِ يَعْقُوب النُّبُوَّةَ ، رَوَاه عِكْرَمَة عن ابن عَبَّاس ، وبِه قال أبو صالح . والثاني يَرِثُني العِلْمَ ، وَيَرِثُ مِن آلِ يَعْقُوب المُلْكَ ، فأجابه اللَّهُ تَعَالى إلى وِرَاثة العِلْمِ دُون المُلْكِ ، وهذا مَرْوِيٌّ عَن ابن عَبَّاس أيضًا . والثالث يَرِثُني نُبُوَّتي وَعِلْمِي ، وَيَرِث مِن آلِ يَعْقُوب النُّبُوَّةَ أيضًا ، قاله الحسن . والرابع يَرِثُني النُّبُوَّةَ ، وَيَرِثُ مِن آلِ يَعْقُوب الأخلاقَ ، قاله عطاء . قال مُجَاهِد : كانَ زكريا مِن ذُرِّيةِ يَعْقُوب ، وَزَعَمَ الكَلْبي أنَّ آلَ يَعْقُوب كانوا أخوالَه ، وأنَّه لَيْسَ بِيَعْقُوب أبي يُوسُف . وقال مُقَاتِل : هُوَ يَعقوب بن ماثان ، وكان يَعْقُوب هذا وعِمْرَان أبو مَرْيَم أخَوَيْن . والصَّحيحُ أنَّه لَمْ يُرِدْ مِيراثَ المال لِوُجوه : أحدها أنَّه قَدْ صَحَّ عن رسول اللَّه ﷺ أنَّه قال : " نَحْنُ مَعَاشِرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ " . والثاني أنَّه لا يَجُوز أن يَتَأسَّفَ نَبِيُّ اللَّهِ على مَصِير مَالِه بَعْدَ مَوْتِه إذا وَصَلَ إلى وارثه المُستحِق لَهُ شَرْعًا . والثالث أنَّه لَمْ يَكُنْ ذا مَالٍ . وقَدْ رَوَى أبو هُرَيرة عن رسول اللَّه ﷺ أنَّ زَكَرِيَّا كانَ نَجَّارًا . قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ ، قال اللغويون : أي : مَرْضِيًّا ، فَصُرِفَ عَن مَفْعُول إلى فَعِيل ، كَمَا قالوا : مَقْتُول وقَتِيل)) .

إنَّ الأنبياء ــ عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام ــ لَهُم بعضُ الخصائص التي مَيَّزَهم اللَّهُ بِها عَن بَقِيَّة أُمَمِهِم ، ومِن هذا: أنَّهُم لا يُورثُون ، وإنْ تَرَكُوا مالًا فَهُوَ صَدَقَةٌ في سَبيلِ اللَّهِ تعالى ، لأنَّهُم إنَّما يُوَرِّثُون مَن وَراءَهم مِن ذُرِّيةٍ أوْ أتْبَاعٍ : العِلْمَ والدَّعْوَةَ .

والأنبياءُ ــ عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام ــ لَمْ يَأتوا إلى الدُّنيا لِجَمْعِ حُطامها الفاني ، والاستحواذِ على مَتَاعها الزائل ، وتَخزينِ الأموال ، والغَرَقِ في المَلَذَّاتِ والشَّهَوَاتِ . لقد أرسلهم اللَّهُ مِن أجْلِ إخراجِ الناسِ مِن ظُلُمَاتِ الجَهْلِ والكُفْرِ إلى نُور العِلْمِ والإيمانِ ، وقَدْ قاموا بأداء وظيفتهم على أكمل وجه ، وبَلَّغُوا الوَحْيَ السَّمَاوِيَّ كاملًا ، بلا زيادة ، ولا نُقْصَان .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/١٥٠): ((قَدْ ثَبَتَ في الصَّحِيحَيْن مِن غَيْرِ وَجْهٍ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : " لا نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ " . وفي رواية عِند التِّرمذي بإسناد صحيح : " نَحْنُ مَعْشَرَ الأنبياءِ لا نُورَث ")) .

وفي مُسند أحمد (٢/ ٤٦٣) أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((إنَّا مَعْشَرَ الأنبياءِ لا نُورَث)) .

والحِكمة في ذلك أنَّ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام كالآباء للأُمَم والشُّعوب ، فأموالُهم للجميع . وأيضًا ، لِئَلا يُظَن بهم أنَّهُم راغبون في الدُّنيا ، وحريصون على جمع حُطامها الفاني ، ولئلا يَحدُث صِراعات على اقتسام أموالهم ومُمتلكاتهم ، وهذا يُسِيء إلى مَقَام النُّبُوَّة الرفيع .

وعن عائشة ــ رضي اللَّهُ عنها ــ أنَّ أزواج النبيِّ ﷺ حِينَ تُوَفِّيَ رسولُ اللَّه ﷺ أَرَدْنَ أن يَبْعَثْنَ عُثمانَ إلى أبي بَكْرٍ يَسْأَلْنَهُ مِيرَاثَهُنَّ ، فقالت عائشة : أَلَيْسَ قال رسولُ اللَّه ﷺ : ((لا نُورَث ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ)) [٤٥] .

مِن خصائص الأنبياء التي ميَّزهم اللَّهُ بها رَفْعًا لشأنهم ، وتعظيمًا لقَدْرهم ، أنَّهُم لا يُورَثون ، وإذا تَركوا مالًا فهو صَدَقَة في سبيل اللَّه ، يُوزِّعها وليُّ الأمر على الفقراء والمساكين . ولَيس لِوَرَثة الأنبياء إلا ما يَكفيهم مِن القُوت والطعام . والأنبياءُ ورَّثوا العِلْمَ ، وهو مِيراثُهم المُقدَّس ، وتَركوا أتباعًا يُواصلون مسيرةَ الدَّعوة الإسلامية ، لذلك كان العُلماءُ وَرَثَةَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وعن أبي هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: ((لا يَقتسِمُ وَرَثَتِي دِينارًا ، مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسائي وَمَؤُونةِ عَامِلي فَهُوَ صَدَقَة)) [٤٦] .

هذا دليلٌ على أنَّ النبيَّ ﷺ لا يَرِثُه أحد ، فهو لَمْ يَجِئْ لجمع حُطام الدُّنيا وتكديس الأموال ، وتوريث عائلته . ما تَرَكَه بعد نفقةِ نسائه ونفقةِ عَامِله ، فهو صَدَقَة . وقد خَصَّ أزواجَه لأنَّه لا يجوز نِكَاحُهُنَّ ، فَجَرَتْ لَهُنَّ النَّفَقَة، فإنهنَّ كالمُعْتَدَّات . والعامل هو الذي يَتَوَلَّى أمورَ الرَّجل في أمواله ومُمتلكاته وأعماله ، والمقصود بالعامل في الحديث : الخليفة بَعْدَه .

وقال الحافظ في الفتح (٦ / ٢١١) : ((قال الطبري : قِيل: كانَ النبيُّ ﷺ مَلَّكَ كُلًّا مِن أزواجه البَيْتَ الذي هي فيه ، فَسَكَنَّ بعده فِيهنَّ بذلك التمليك. وقِيل : إنما لَم يُنازعهنَّ في مَساكنهنَّ ، لأنَّ ذلك مِن جُملة مُؤْنتهنَّ التي كان النبيُّ ﷺ استثناها لهنَّ مِمَّا كان بيده أيام حياته،

---

٤٥ متفق عليه. البخاري (٦ / ٢٤٧٥) برقم (٦٣٤٩)، ومسلم (٣/ ١٣٧٩) برقم (١٧٥٨) .

٤٦ متفق عليه. البخاري (٣/ ١٠٢٠) برقم (٢٦٢٤)، ومسلم (٣/ ١٣٨٢) برقم (١٧٦٠) .

حيث قال :" مَا تَرَكْتُ بَعد نَفَقَةِ نِسائي ". قال: وهذا أرجح، ويُؤَيِّده أنَّ وَرثتهنَّ لَم يَرِثْنَ عنهنَّ منازلهنَّ ، وَلَوْ كانت البيوت مِلْكًا لهنَّ لانتقلتْ إلى وَرثتهنَّ.وفي ترك وَرثتهنَّ حُقوقَهم مِنها دَلالة على ذلك،ولهذا زِيدت بُيوتهنَّ في المسجد النَّبَوِيِّ بعد مَوتهنَّ ، لِعُموم نفعه للمسلمين ، كما فُعِلَ فيما كان يُصرَف لهنَّ مِن النَّفَقَات، واللَّهُ أعْلَم)) اهـ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٧٤) : ((قال العُلَماء : والحِكمة في أنَّ الأنبياء صَلَوَات اللَّهِ عَلَيهم لا يُورَثون أنَّه لا يُؤْمَن أن يَكُون في الوَرَثَة مَن يَتَمَنَّى مَوْتَه فيَهلِك ، ولئلا يُظَن بهم الرَّغبة في الدنيا لوارثهم ، فيَهلِك الظان ، ويَنفِر الناسُ عنهم)) اهـ . وفي نَفْس المرجع (١٢/ ٨١) : ((ثُمَّ إنَّ جُمهور العُلَماء على أنَّ جميع الأنبياء ـ صَلَوَاتُ اللَّهِ وسَلامُه عليهم أجمعين ـ لا يُورَثُون)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٢٩) : ((ولأنَّهم أحياء ، ولأنَّه تعالى شرَّفهم بقَطْع حُظوظهم مِن الدُّنيا،وما بأيديهم منها إنَّما هو عاريَّة وأمانة ومنفعة لِعِيَالهم وأُمَمهم. وأمَّا قَوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ ، فالمُراد إرْثُ العِلْم ، وكذا قَول زكريا: ﴿ يَرِثُني ﴾ [مَريم: ٦]. وقد كان (النبيُّ مُحمَّد ﷺ) يُنفِق مِن ماله ، ويتصدَّق بفَضْله ، ثُمَّ تُوُفِّيَ ، فَصَنَعَ الصِّدِّيقُ كَفِعْلِه)) .

وعن ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ وعَن السُّدي عَن مُرَّةَ عَن عبد اللَّه قالوا : ((كانَ آخِرَ أنبياءِ بَنِي إسرائيلَ زَكَرِيَّا بْنُ أَدْنَ بْنِ مُسْلِمٍ ، وكانَ مِن ذُرِّيةِ يَعْقُوبَ ، قال : يَرِثُني مُلْكِي ، وَيَرِثُ مِن آلِ يَعْقُوبَ النُّبُوَّةَ)) [٤٧] . وعَن ابن عَبَّاس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنهما ـ وعَن مُرَّةَ الهَمْدَاني عن عبد اللَّه قال : ((دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ سِرًّا ، فقال : رَبِّ إنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي ، واشتعلَ الرَّأسُ شَيْبًا ، وَلَمْ أكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ، وإنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن وَرَائي ، وَهُمُ العَصَبَةُ ، وكانتْ امرأتي عاقرًا ، فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُني ، يَرِثُ نُبُوَّتي ، وَيَرِثُ مِن آلِ يَعْقُوبَ ، يَرِثُ نُبُوَّةَ آلِ يَعْقُوبَ ، واجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا، وَقَوْلُه: هَبْ لِي مِن لَدُنْكَ ذُرِّيةً طَيِّبةً. يَقُول مَنَازِلُه: إنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، وقال : رَبِّ لا تَذَرْني فَرْدًا وأنتَ خَيْرُ الوارثين ، فَنَادَتْهُ المَلائكةُ وَهُوَ جِبْرِيلُ ، وَهُوَ قائمٌ يُصَلِّي في المِحْرَابِ أنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ، لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ، لَمْ يُسَمَّ قَبْلَهُ أحَدٌ يَحْيَى ، وقالت المَلائكةُ : إنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ، يُصَدِّقُ عِيسَى وَحَصُورًا ، والحَصُورُ : الذي لا يُرِيدُ النِّسَاءَ ، فَلَمَّا سَمِعَ النِّدَاءَ جَاءَهُ الشَّيْطَانُ،فقالَ لَهُ: يَا زَكَرِيَّا، إنَّ الصَّوْتَ الذي سَمِعْتَ لَيْسَ مِنَ اللَّهِ ، إنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، سَخِرَ بِكَ ، وَلَوْ كانَ مِنَ اللَّهِ أوْحَاهُ إلَيْكَ كَمَا يُوحِي إلَيْكَ

---

٤٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٦٤٥) برقم (٤١٤٤) ، وسكت عنه الذهبي .

غَيْرَهُ مِنَ الأمْرِ ، فَشَكَّ مَكَانَه ، وقال : أنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ، يَقُولُ : مِنْ أيْنَ يَكُونُ وَقَدْ بَلَغَنِي الكِبَرُ وامرأتي عَاقِرٌ ، قال: كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)) [٤٨] .

٢٠_ الأسباط

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ آمَنَّا باللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويَعقوبَ والأسباطِ ﴾ [آل عِمران : ٨٤] .

قُلْ يا مُحَمَّد : صَدَّقْنا باللَّهِ أنَّه رَبُّنا وإلَهُنا ، لا إلَهَ غَيْرُه ، ولا نَعْبُد أحدًا سِوَاه ، وَصَدَّقْنَا أيضًا بالقُرآنِ الذي أنزله اللَّهُ عَلَينا فَأقْرَرْنا بِه ، وصَدَّقْنَا أيضًا بِمَا أنزلَ اللَّهُ على إبراهيم خليل اللَّه وعَلى ابْنَيْه إسماعيل وإسحاق ، وابنِ ابْنِه يَعْقُوب ، وبِمَا أنزلَ على الأسباط ، وهُم بُطُون بَنِي إسرائيل المُتَشَعِّبَة مِن أولاد يعقوب الاثنَي عَشَر .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١ / ٦٠) : ((أمْرٌ للرَّسُولِ ﷺ بأن يُخْبِرَ عَن نَفْسِه ومُتابعيه بالإيمانِ ، والقُرْآنِ كما هُوَ مُنْزَلٌ عَلَيه بِتَوَسُّط تَبْليغه إلَيهم ، وأيضًا المَنسوب إلى واحد مِنَ الجَمْعِ قَدْ يُنْسَب إلَيهم ، أوْ بأن يَتَكَلَّم عَن نَفْسِه على طَريقةِ المُلوكِ إجلالًا له ، والنُّزُولُ كَمَا يُعَدَّى بإلى لأنَّه يَنْتهي إلى الرُّسُل ، يُعَدَّى بعلى لأنَّه مِن فَوْق . وإنَّما قَدَّمَ المُنْزَلَ عَلَيه على المُنْزَلِ على سائر الرُّسُل ، لأنَّه المُعَرِّفُ لَه ، والعِيَارُ عَلَيه)) .

وقَد استدلَّ بهذه الآيةِ بعضُ المُفسِّرين على أنَّ إخْوَة يُوسُف ﷺ أنبياء ، لأنهم الأسباط . والصحيحُ أن الأسباط لَيْسُوا أولاد يعقوب ﷺ ، وإنَّما هُم القَبائل مِن ذُرِّية يَعْقُوب ﷺ ، كما نَبَّهَ عليه المُحَقِّقُون. وَلَوْ كان إخْوَةُ يُوسُف ﷺ أنبياء لَمَا أقْدَمُوا على الأفعالِ الشنيعة والجرائمِ القبيحة، فالحَسَدُ ، والسَّعْيُ بالفَسَاد ، والإقدام على القَتْل ، والكَذِب، وإلقاء يُوسُف في البِئْر ، كُلُّ ذلك مِن الكَبائر التي تُنَافي عِصْمَةَ الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام . والقَوْلُ بأنهم أنبياء _ مع هذه الجرائم _ ضِد النقلِ والعقلِ معًا . والأنبياءُ مَعصومون عَن كُلِّ مَا يَقْدَح بالنُّبُوَّةِ قَبْلَ البَعْثَةِ وبَعْدَها .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ [النِّسَاء : ١٦٣] . وأوْحَى اللَّهُ إلى إبراهيم خليل اللَّه وابْنَيْه إسماعيل وإسحاق ، وابنِ ابْنِه يَعْقُوب ، والأسباطِ ، وهُمْ بُطُون بَنِي إسرائيل المُتَشَعِّبَة مِن أولاد يعقوب الاثنَي عَشَر .

---

٤٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٦٤٥) برقم (٤١٤٦) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ٢٨٠) : ((خَصَّهُم بالذِّكْرِ مَعَ اشتمالِ النَّبِيِّين عَلَيهِم ، تَعظيمًا لهم، فإنَّ إبراهيم أوَّلُ أُولي العَزْمِ مِنهُم ، ...)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ [الأعراف : ١٦٠] .

فَرَّقَ اللَّهُ بني إسرائيلَ فَجَعَلَهُم قبائلَ شَتَّى اثْنَتَي عَشْرَة قبيلة مِن اثْنَي عَشَر وَلَدًا مِن أولاد يَعقوب ﷺ . والسِّبْطُ في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في وَلَدِ إسماعيل ﷺ .

وهذه نِعمةٌ إلهيَّةٌ عظيمة عَلى بني إسرائيل ، حيث جَعَلَهم اللَّهُ أسباطًا لِيَكُونَ أمْرُ كُلِّ سِبْطٍ مَعروفًا مِن جِهَة رئيسهم ، فَيَخِف الأمرُ على النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٣٧٢) : ((﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا ﴾ ، ... ، المَعنى : صَيَّرْنَاهُم قِطَعًا مُتَفَرِّقَةً ، ومَيَّزْنَا بَعْضَهم مِن بَعْض ، وهذا مِن جُملةِ مَا قَصَّهُ اللَّهُ عَلَينا مِن النِّعَمِ التي أنعمَ بها على بني إسرائيل ، والمَعنى : أنَّه مَيَّزَ بَعْضَهم مِن بَعْضٍ حَتَّى صاروا أسباطًا ، كُلُّ سِبْطٍ مَعروف على انفراده ، لِكُلِّ سِبْطٍ نَقِيبٌ ، كما في قَوْلِه تعالى : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ [المائدة : ١٢] . وقَوْلُه : ﴿ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ﴾ هُوَ ثاني مَفْعُولَي " قَطَّعْنَا " لِتَضَمُّنِه مَعْنَى التَّصْيير ، و ﴿ أَسْبَاطًا ﴾ تَمْييز لَهُ أوْ بَدَل مِنْه ، و ﴿ أُمَمًا ﴾ نَعْتٌ للأسباطِ ، أوْ بَدَل مِنْه . والأسباطُ جَمْع سِبْط : وَهُوَ وَلَدُ الوَلَدِ ، صاروا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُمَّةً مِن اثْنَيْ عَشَرَ وَلَدًا . وأرادَ بالأسباطِ القبائلَ ، ولهذا أنَّثَ العَدَدَ ، كما في قول الشاعر :

وإنَّ قُرَيْشًا كُلَّهَا عَشْرُ أبْطُنٍ وأنتَ بَرِيءٌ مِنْ قَبَائِلِهَا العَشْرِ

أرادَ بالبَطْنِ القَبيلةَ)) .

وقال أبو حَيَّان في البحر المحيط (٤ / ٤٠٦) : ((أي : فَرَّقْنَاهُم وَمَيَّزْنَاهُم أسباطًا لِيَرْجِعَ أمْرُ كُلِّ سِبْطٍ ، أي : قبيلة ، إلى رَئيسه ، لِيَخَفَّ أمْرُهُم عَلى مُوسَى ، لِئَلا يَتحاسدوا فَيَقَع الهَرْجُ، ولهذا فَجَّرَ لَهُم اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا ، لِئَلا يَتَنازعوا ويَقْتتلوا على الماء ، وَجَعَلَ لِكُلِّ سِبْطٍ نَقِيبًا ، لِيَرْجِعُوا في أُمُورهم إلَيه)) .

وعن عبد اللَّه قال : ((وأمَّا الأسباطُ فَهُمْ بَنُو يَعْقُوب : يُوسُفُ وَبِنْيَامِينَ وَرُوبِيلُ وَيَهُوذا وَشَمْعُونُ ولاوي وَدَانُ وَفَهَاتُ ، فكانوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا نَشَرَ اللَّهُ مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ سِبْطًا لا يَعْلَمُ أنْسَابَهُم إلا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾)) [٤٩] .

---

٤٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٦٢٢) برقم (٤٠٨٠) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَالَ الذي اشْتَرَاهُ مِن مِصْرَ لامْرَأتِهِ أكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أن يَنفَعَنَا أوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [يُوسُف : ٢١] .

يُخْبِر اللَّهُ بألْطَافِه بِيُوسُف ﷺ أنَّه قَيَّضَ له الذي اشتراه مِن مِصْر حتى اعتنى به ، وأكْرَمَه ، وأوْصَى أهْلَه به ، وَتَوَسَّمَ فِيه الخَيْرَ والصَّلاحَ .

وقال العَزِيزُ الذي كانَ عَلى خَزائنِ مِصْر ووزيرًا لِمَلِكِهَا لِزَوجته: أحْسِنِي إلى يُوسُف طُولَ مُقَامِه عِندَنَا،عَسَى أن يَكْفِيَنَا_إذا بَلَغَ وَفَهِمَ الأُمُورَ_بَعْضَ شُؤونِنا،أوْ نَتَبَنَّاه،حَيْثُ لَمْ يَكُن يُولَد لهما وَلَد.

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ٢٨٠) : ((﴿ وَقَالَ الذي اشْتَرَاهُ مِن مِصْرَ ﴾ ، وهو العزيز الذي كان على خزائن مِصْر ، واسْمُه قُطفير أو إطفير، وكانَ المَلِكُ يَوْمَئِذ رَيَّان بن الوليد العِمْلِيقي، وقَدْ آمنَ بِيُوسُف عليه السلام ، وماتَ في حَيَاتِه . وقِيل : كانَ فِرْعَوْنُ مُوسَى عاشَ أربعمائة سَنَة بدليل قَوْله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالبَيِّنَاتِ ﴾ [غافر : ٣٤] . والمَشهور أنَّه مِن أولاد فِرْعَوْن يُوسُف . والآيةُ مِن قَبِيل خِطاب الأولاد بأحوال الآباء . رُوِيَ أنَّه اشتراه العزيز وهو ابن سَبْع عَشْرَة سَنَة ، وَلَبِثَ في مَنزله ثلاث عَشْرَة سَنَة ، وَاسْتَوْزَرَه الرَّيَّانُ وَهُوَ ابن ثلاث وثلاثين سَنَة ، وَتُوُفِّيَ وهو ابن مائة وعشرين سَنَة . وَاخْتُلِفَ فِيما اشتراه بِه مَن جَعَلَ شِرَاءَه بِه غَيْرَ الأوَّل ، فَقِيل : عِشرون دِينارًا وَزَوْجَا نَعْل وثَوْبَان أبيضان ، وقِيل : مِلْؤُه فِضَّة ، وقِيل : ذَهَبًا ، ﴿ لامْرَأتِهِ ﴾ راعيل أوْ زَلِيخا ﴿ أكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ اجْعَلِي مُقَامَه عِندَنا كريمًا ، أي : حَسَنًا، والمَعْنَى: أحْسِنِي تَعَهُّدَه ﴿ عَسَى أن يَنفَعَنَا ﴾ في ضِيَاعِنا وأموالِنا ونَستظهر بِه في مَصالِحنا ﴿ أوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ نَتَبَنَّاه ، وكانَ عَقِيمًا لِمَا تَفَرَّسَ فِيه مِن الرُّشْد)) .

وعن عبد اللَّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عنه قال : ((أفْرَسُ الناسِ ثلاثة : العَزِيزُ حِينَ قالَ لامرأته: أكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أن يَنفَعَنَا أوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، ...)) [سَبَقَ تخريجُه] .

هذا يدلُّ على أنَّ فِرَاسَتَه كانتْ صادقةً ، وأنَّه يَمتاز بِبُعْدِ النظرِ ، وقُوَّةِ المُلاحَظَةِ .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ في المَدِينَةِ امْرَأةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إنَّا لَنَرَاهَا في ضَلالٍ مُبِين ﴾ [يُوسُف : ٣٠] .

وقالَ جَماعةٌ مِنَ النِّسَاءِ في مَدينةِ مِصْر ، رُوِيَ أنَّهُنَّ خَمْس نِسْوَة : امرأةُ سَاقِي العَزيزِ ، وامرأةُ الحاجبِ ، وامرأةُ الخَبَّازِ ، وامرأةُ صَاحبِ الدَّوَاب ، وامرأةُ صاحبِ السِّجْنِ . والأظهرُ أنَّ تِلْكَ الواقعة شاعتْ في البلدِ ، واشتهرتْ وتَحَدَّثَ بِها النِّسَاءُ : امرأةُ عَزيز مِصْر تَطْلُب مِن خَادِمِها

وعَبْدِها أن يُوَاقِعَها ، وتُخَادِعُه ، وَتَتَوَسَّلُ إلَيْهِ لِقَضَاءِ وَطَرِهَا مِنْه . قَدْ بَلَغَ حُبُّهُ شَغَافَ قَلْبِهَا ، وَهُوَ غِلافُه ، إنَّا لَنَعْتَقِد أنَّها في ضَلالٍ عَن طَرِيقِ الرُّشْدِ واضحٍ بسبب حُبِّها إيَّاه .

وتَصْرِيحُهُنَّ بإضافتها إلى العزيز : ﴿ امْرَأَةُ العَزِيزِ ﴾ مُبَالَغَةً في التَّشنيع ، لأنَّ النُّفُوسَ أمْيَلُ لِسَمَاعِ أخبار ذَوِي الجَاهِ ، وفضائحِ عِلْيَةِ القَوْمِ. وَعَبَّرْنَ بِـ ﴿تُرَاوِدُ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك صارَ عَادةً لامرأةِ العَزيزِ وسَجِيَّةً لها ، فهي دائمًا تُخَادِعُه عَن نَفْسِه ، لأنَّ المُضَارِعِ يُفيد التَّجَدُّدَ والاستمرارَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٦٢٥) : ((يُخْبِر تَعَالى أنَّ خَبَرَ يُوسُف وامرأة العزيز شاعَ في المَدينةِ ، وهي مِصْر ، حَتَّى تَحَدَّثَ بِه الناسُ . ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ في المَدِينَةِ ﴾ مِثْل نِسَاء الكُبَرَاء والأُمَرَاء ، يُنْكِرْنَ على امرأةِ العَزِيزِ ، وهو الوزير ، وَيَعِبْنَ ذلك عَلَيها ، ﴿ امْرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَفْسِهِ ﴾ ، أي : تُحَاوِل غُلامَها عَن نَفْسِه ، وتَدْعُوه إلى نَفْسِها ، ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ ، أي : قَدْ وَصَلَ حُبُّهُ إلى شَغَافِ قَلْبِها ، وهو غِلافُه . قال الضَّحَّاكُ عن ابن عَبَّاس : الشَّغَفُ : الحُبُّ القاتل ، والشَّعَفُ دُون ذلك ، والشَّغَافُ حِجَابُ القَلْبِ ، ﴿ إنَّا لَنَرَاهَا في ضَلالٍ مُبِين ﴾ ، أي : في صَنِيعها هذا مِن حُبِّهَا فَتَاهَا ومُرَاودتها إيَّاه عَن نَفْسِه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أنَا رَاوَدتهُ عَن نَفْسِهِ وَإنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِين ﴾ [يُوسُف : ٥١] .

قالت زَوجةُ عَزِيزِ مَصْر : الآنَ ظَهَرَ وانكشفَ الحَقُّ وبانَ بَعْدَ خَفَائِه ، وذلك أنَّهَا خَافَتْ إنْ كَذَبَتْ شَهِدَتْ عَلَيها النِّسْوَةُ. أنا التي أغْرَيْتُهُ ودَعَوْتُهُ إلى نَفْسِي ، وَهُوَ بَرِيءٌ مِنَ الخِيَانةِ ، وصادقٌ في قَوْلِه : " هِيَ رَاوَدَتْني عَن نَفْسِي "، وهذا اعترافٌ صريحٌ بِبَراءةِ يُوسُف ﷺ على رُؤوسِ الأشهاد.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٤٩) : ((﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ ﴾ مُنَزِّهَةً لِجَانِبِهِ مُقِرَّةً عَلى نَفْسِها بالمُرَاوَدَة له : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ ﴾ ، أي : تَبَيَّنَ وَظَهَرَ . ... . قال الخليل : مَعْنَاه : ظَهَرَ الحَقُّ بَعْدَ خَفَائِه ، ثُمَّ أوضحتْ ذلك بِقَوْلِها : ﴿ أنَا رَاوَدتهُ عَن نَفْسِهِ ﴾ ، وَلَمْ تَقَعْ مِنْهُ المُرَاوَدَة لِي أصْلًا ، ﴿ وَإنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِين ﴾ فِيمَا قَالَه مِن تَبرئةِ نَفْسِه ، ونِسْبَة المُرَاوَدَة إلَيها . وأرادتْ بالآن زَمَان تَكَلُّمِها بهذا الكلام)) .

٢٢ــ فِرْعَوْن

أــ آل فِرْعَوْن

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإذْ نَجَّيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ يُذَبِّحُونَ أبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِن رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٤٩] .

واذكُروا يا بني إسرائيل نِعمةَ اللَّهِ عَلَيكُم حِين نَجَّى آباءَكُم مِن بَطْشِ فِرْعَوْن وأتْبَاعِه ومَن كانَ على دِينِه . والخِطَابُ للأبناءِ المُعَاصِرِين للنَّبِيِّ ﷺ تَذكيرًا لَهُم بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُؤْمِنُوا ، ولا شَكَّ أنَّ النِّعْمَة على الآباء نِعْمَة على الأبناء ، يُذيقونكم أشَدَّ العَذابِ وأفْظَعَه ، يَقْتُلُون الذُّكُورَ مِنَ الأولاد ، ويَسْتَبْقُون الإناثَ على قَيْدِ الحَيَاةِ للخِدمةِ . وإنَّما فَعَلُوا بِهِم ذلك ، لأنَّ فِرْعَوْن رَأى في المَنَامِ ، أوْ قالَ لَهُ الكَهَنَة : إنَّ مَولودًا يُولَد في بَني إسرائيل يَكُون سببًا في زَوالِ مُلْكِه ، فَلَمْ يَرُد اجتهادُهم مِن قَدَرِ اللَّهِ شيئًا . وفِما ذُكِرَ مِنَ العَذابِ المُهِينِ مِن ذَبْحِ الذُّكُورِ واستحياءِ الإناثِ مِحْنَةٌ واختبارٌ عظيمٌ لَكُم مِنَ اللَّهِ تعالى بِتَسْليطهم عَلَيكُم لِيَتَمَيَّزَ الصالحُ مِنَ الفاسدِ ، والبَرُّ مِنَ الفاجرِ .

إنَّ اللَّهَ يُعَدِّد نِعَمَه الجليلة على بني إسرائيل ، فَقَدْ نَجَّاهم مِن آلِ فِرْعَوْن ، أي : أنقَذَهم مِن قَوْمِ فِرْعَوْن وحاشيته والمُوَالِين له وأهلِ دِينِه ، فَقَد كانوا يُذيقونهم شَتَّى صُنوف العذاب ، يُذبِّحون أبناءَهم ، ويُبْقُون النِّسَاءَ على قَيْدِ الحَيَاة . واللَّهُ يُذكِّر بني إسرائيل بإنقاذهم مِن فِرْعَوْن الذي نَصَّبَ نَفْسَه عَدُوًّا لبني إسرائيل ، وقَدْ عَذَّبَهم أشدَّ العذابِ ، ونَكَّلَ بِهِم دُون رَحْمَة . واللَّهُ يَمُنُّ عَلَيهم بإنقاذهم مِن هذا الكَرْبِ الشديد ، وجَعْلِهم أصحابًا للنَّبِيِّ مُوسَى ﷺ .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٣١) : ((يَقُول تَعَالى : اذكُروا يا بني إسرائيل نِعْمَتي عَلَيكم إذْ نَجَّيْنَاكُم مِن آلِ فِرْعَوْن يَسُومونكم سُوءَ العَذابِ ، أي خَلَّصْتُكُم مِنهُم ، وأنْقَذْتُكُم مِن أيديهم صُحبة مُوسَى عَلَيه السلام ، وقَدْ كانوا يَسُومونكم ، أي : يُوردونكم ويُذيقونكم ويُولُونكم سُوءَ العَذابِ . وذلك أنَّ فِرْعَوْن لَعَنَه اللَّهُ كانَ قَدْ رأى رُؤيا هَالَتْه ، رأى نارًا خَرَجَتْ مِن بَيْتِ المَقْدِسِ فدخلتْ بُيوتَ القِبْطِ ببلاد مِصْر إلا بُيوت بني إسرائيل ، مَضْمُونها أنَّ زَوَالَ مُلْكِه يَكُون عَلى يَدَي رَجُل مِن بني إسرائيل ، ويُقَال بَعْد تَحَدُّث سُمَّاره عِنده بأنَّ بني إسرائيل يَتَوَقَّعُون خُروجَ رَجُل مِنهُم يكون لهم بِه دَوْلَة ورِفْعَة ، ... ، فَعِند ذلك أَمَرَ فِرْعَوْنُ لَعَنَه اللَّهُ بِقَتلِ كُلِّ ذَكَرٍ يُولَد بَعْد ذلك مِن بَنِي إسرائيل ، وأن تُتْرَكَ البَنَات ، وَأَمَرَ باستعمال بني إسرائيل في مَشَاقِّ الأعمال وأرْذَلِها)) .

إنَّ الطُّغَاةَ المُتمسكين بِكُرْسِيِّ الحُكْمِ بالأظافر والأسنان ، هُم مَرْضَى نَفْسِيًّا ، غارقون في العُقَد النَّفْسِيَّة والاجتماعية ، ومُصَابون بِجُنون العَظَمَةِ ، والوساوسِ والهواجسِ التي لا تنتهي . إنَّهُم يَنظُرون إلى الجميع على أنَّهُم تَهْديد مُحْتَمَل لِنِظامِ حُكْمِهم ، وبالتالي يُصبحون مِن حَيْث لا يَشعرون عبيدًا للكُرسي ، وخُدَّامًا لَهُ بَدَلًا مِن أن يَكُون خادمًا لَهُم .

والطاغيةُ فِرْعَوْن مِن هذا الصِّنْف ، فَمِن فَرْطِ تَمَسُّكِه بالكُرسي صارَ مَرعوبًا مِن أيِّ تَهْديد ، سواءٌ كانَ حقيقيًّا أوْ وهميًّا. وَهَا نَحْنُ نَرَاه مُتَعَلِّقًا بالأحلامِ والرُّؤى ، معَ أنَّها لا تَثْبُت بها الأحكامُ

الشَّرْعِيَّةُ . فَمَا يَرَاه الإنسانُ في مَنَامِه قَدْ يَصْدُق وقَدْ لا يَصْدُق . ولكنَّ فِرْعَوْن جَعَلَ مَا رآه في المَنامِ شَرْعًا لازمًا وَاجِبَ النَّفَاذ ، واعْتَبَرَه حقيقةً لا مِرَاء فِيها ، وبدأ بترتيب أحكام واقعية مُستندة إلى مَا رَآه في مَنامه . وهذا يدلُّ على خَوْفِه الشديد ، وشِدَّة حِرْصِه على كُرْسي الحُكْم ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ لَعَنَه اللَّهُ بقتل كُلِّ مَولودٍ ذَكَرٍ يُولَد مِن بني إسرائيل ، وذلك مِن أجْلِ ضَمانِ اختفاء الرِّجَال مِن بَني إسرائيل ، فلا أحد يَسْلُبه كُرْسِيَّ الحُكْمِ ، كَمَا أَمَرَ بِتَركِ البَناتِ لأنَّه اعتبرهنَّ غَيْرَ خطيرات ولا يُشَكِّلْنَ أيَّ تهديد. وأمَرَ باستعمال بني إسرائيل في الأعمال الشَّاقَّة التي تَتَطَلَّب جُهْدًا كبيرًا ، وذلك مِن أجْلِ كَسْرِهم وإخضاعِهم ، ومِن أجْلِ أن تُصبح لُقْمَةُ العَيْشِ وكيفية تَحْصيلها هِيَ هَمَّهُم الشاغل، فلا يَنشغلون بالقضايا السِّياسية والاجتماعية . وهذه هي سِياسةُ الطُّغَاة على مَرِّ العُصور .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٩٠) : ((﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم ﴾ ، يَعْني : أسلافَكم وأجدادَكم ، فَاعْتَدَّهَا مِنَّةً عَلَيهِم لأنَّهُم نَجَوْا بِنَجاتهم ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ : أتباعِه وأهْلِ دِينِه ، وفِرْعَوْن هو الوَليد مُصْعَب بن الرَّيَّان ، وكانَ مِنَ القِبْطِ العَمَاليق ، وعَمَّرَ أكثرَ مِن أربعمائة سَنَة ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ يُكَلِّفُونكم ويُذيقونكم ﴿ سُوءَ العَذَابِ ﴾ أشدَّ العَذابِ وأسْوَأه . وقِيل: يَصْرِفُونكم في العَذابِ مَرَّةً هكذا ، ومَرَّةً هكذا كالإبِلِ السائمة في البَرِّية ، وذلك أنَّ فِرْعَوْن جَعَلَ بني إسرائيل خَدَمًا وخَوَلًا ، وصَنَّفَهم في الأعمالِ ، فَصِنْف يَبْنُون ، وَصِنْف يَحْرُثُون ويَزْرَعُون ، وصِنْف يَخْدِمُونه ، ومَنْ لَمْ يَكُن مِنهُم في عَمَلٍ وَضَعَ عَلَيه الجِزْيَةَ . وقال وَهْب : كانوا أصنافًا في أعمال فِرْعَوْن ، فَذَوُو القُوَّة يَنْحِتُون السَّوَاري مِن الجِبال حَتَّى قَرِحَتْ أعناقُهم وأيديهم ، وَدَبَرَتْ ظُهورُهم مِن قَطْعِها ونَقْلِها ، وطائفة يَنقُلون الحِجارةَ ، وطائفة يَبْنُون له القُصورَ ، وطائفة مِنهُم يَضْرِبُون اللَّبِن ، ويَطْبُخون الآجُر، وطائفة نَجَّارون وحَدَّادون ، والضَّعَفَةُ مِنهُم يُضْرَب عليهم الخَرَاج ضريبةً يُؤَدُّونها كُلَّ يَوْم ، فَمَن غَرَبَتْ عَلَيه الشَّمْسُ قَبْلَ أن يُؤَدِّيَ ضَريبته غُلَّتْ يَمِينُه إلى عُنُقِه شهرًا ، والنِّسَاءُ يَغْزِلْنَ الكَتَّانَ ويَنْسِجْنَ . وقِيل : تفسيره ذِكْر مَا بَعْدَه : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ ، فَهُوَ مَذكور على وَجْهِ البَدَلِ مِن قَوْلِه : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ ﴾ . ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ ، يَتركونهن أحياءً ، وذلك أنَّ فِرْعَوْن رأى في مَنامه كأنَّ نارًا أقبلتْ مِن بَيْتِ المَقْدِس ، وأحاطتْ بِمِصْر ، وأحرقتْ كُلَّ قِبْطِي بها، ولَمْ تَتَعَرَّضْ لبني إسرائيل ، فهاله ذلك ، وسألَ الكَهَنَةَ عَن رُؤياه ، فقالوا : يُولَد في بني إسرائيل غُلام يَكُون على يَدِه هَلاكُك وزَوَالُ مُلْكِك ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ بقتل كُلِّ غُلام يُولَد في بني إسرائيل ، وجَمَعَ القوابلَ ، فقال لَهُنَّ : لا يَسْقُطْنَ على أيديكنَّ غُلام مِن بني إسرائيل إلا قُتِل ، ولا جارية إلا تُرِكَتْ ، وَوَكَّلَ بالقوابل ، فَكُنَّ يَفْعَلْنَ ذلك ، حتى قِيل : إنَّه قَتَلَ في بني إسرائيل اثنَي عَشَر ألف

صَبِي في طَلَبِ مُوسَى . وقال وَهْب : بَلَغَني أنَّه ذَبَحَ في طَلَبِ مُوسَى عليه السلام تِسْعين ألف وَلِيد ، قالوا : وأسرعَ المَوْتُ في مَشْيَخَة بني إسرائيل ، فَدَخَلَ رُؤوسُ القِبْط على فِرْعَوْن ، وقالوا : إنَّ المَوْتَ قَدْ وَقَعَ في بني إسرائيل،أفتذبح صِغَارَهم ويَمُوت كِبَارُهم فَيُوشِك أن يَقَعَ العَمَلُ عَلَينا؟ فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ أن يَذبحوا سَنَةً ويَتركوا سَنَةً ، فَوُلِدَ هَارون في السَّنَة التي لا يَذبَحون فيها ، ومُوسَى في السَّنَة التي يَذبَحون فِيها . ﴿ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِن رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ ، قِيل : البَلاءُ : المِحْنَة ، أي : في سَوْمِهم إيَّاكم سُوءَ العَذابِ مِحْنَةٌ عظيمة ، وقِيل : البلاءُ : النِّعْمَة ، أي : في إنجائي إيَّاكم مِنهُم نِعْمَةٌ عظيمة ، فالبَلاءُ يَكُون بمعنى النِّعْمَة ، وبمعنى الشِّدَّة ، فاللَّهُ تعالى قَدْ يَختبِر على النِّعْمَةِ بالشُّكْرِ ، وعلى الشِّدَّة بالصَّبْر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ فَأنجَيْنَاكُمْ وَأغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأنتُمْ تَنظُرُون ﴾ [البقرة : ٥٠] . واذكُروا أيضًا يا بَنِي إسرائيلَ إذْ فَلَقَ اللَّهُ لَكُمُ البَحْرَ حَتَّى ظَهَرَتْ لَكُمُ الأرضُ اليابسة ، فَمَشَيْتُم عَلَيها ، فأنجاكم مِنَ الغَرَقِ ، وأغْرَقَ فِرْعَوْنَ وقَوْمَه ، وأنتُم تُشاهدون ذلك ، فَقَدْ كانَ آيةً باهرةً مِن آياتِ اللَّهِ في إنجاءِ أوليائه ، وإهلاكِ أعدائه .

وقال الطبري في تفسيره (١ / ٣١٤) : ((أمَّا تأويلُ قَوْلِه : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ﴾ فإنَّه عَطْف على ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم ﴾ ، بِمَعنى : واذكُروا نِعْمتي التي أنعمتُ عَلَيكُم ، واذكُروا إذْ نَجَّيْنَاكُم مِن آلِ فِرْعَوْن ، وإذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ . ومَعنى قَوْلِه : ﴿ فَرَقْنَا بِكُمُ ﴾ فَصَلْنَا بِكُمُ البَحْرَ ، لأنَّهُم كانوا اثنَي عَشَر سِبْطًا، فَفَرَقَ البَحْرَ اثْنَي عَشَر طريقًا،فَسَلَكَ كُلُّ سِبْطٍ مِنهُم طريقًا مِنها، فذلك فَرَّقَ اللَّهُ بِهِم عَزَّ وَجَلَّ البَحْرَ ، وفَصَلَه بِهِم بِتَفريقهم في طُرُقِه الاثنَي عَشَر)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ١٣١) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ فَأنجَيْنَاكُمْ وَأغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأنتُمْ تَنظُرُون ﴾ ، مَعْنَاه : وَبَعْد أن أنقذناكم مِن آلِ فِرْعَوْن ، وَخَرَجْتُم معَ مُوسَى عليه السلام ، خَرَجَ فِرْعَوْنُ في طَلَبِكُم ، فَفَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ، ... ﴿ فَأنجَيْنَاكُمْ ﴾ ، أي : خَلَّصْنَاكُم مِنهُم، وحَجَزْنَا بَيْنَكُم وبَيْنَهُم ، وأغْرَقْنَاهُم وأنتُم تَنظُرون ، لِيَكُون ذلك أشفى لِصُدوركم، وأبْلَغ في إهانةِ عَدُوكم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَالَ المَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا في الأرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُون ﴾ [الأعراف : ١٢٧] .

وقالَ الأشرافُ لِفِرْعَوْن : أتتركُ مُوسَى وجَمَاعَتَه لِيُفْسِدُوا في الأرضِ بالخُروجِ عَن دِينِك ، وتَرْكِ عِبادة آلهتك ؟ ، وهذا الاستفهامُ مِنهُم للإنكار عَلَيه.وفي هذا إغراءٌ لِفِرْعَوْن بالنَّبِيِّ مُوسَى ﷺ

وقَوْمِه ، وتَحريضٌ لَهُ على قَـتْلِهم وتَعذيبِهم . قالَ فِرْعَوْنُ مُجيبًا لَهُم : سَنُقَتِّلُ أبناءَهم الذُّكُورَ ، ونَسْتَبْقِي نِسَاءَهم للاستخدام ، كَمَا كُنَّا نَفْعَل بِهِم ذلك ، وإنَّا عَالُون فَوْقَهم بالقَهْرِ والسُّلطان .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٤٠٨) : ((﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ﴾ لِيَدْعُوا الناسَ إلى مُخالفتك وعِبادةِ غَيْرِك، ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ ، وذلك أنَّ فِرْعَوْن كانَ قَدْ صَنَعَ لِقَوْمِه أصنامًا صِغَارًا ، وأمَرَهم بِعِبَادتها ، وقال : أنا رَبُّكُم وَرَبُّ هذه الأصنامِ ، فلذلك قَوْلُه : ﴿ أنا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : ٢٤] ، فقالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ ، وكانَ قَدْ تَرَكَ قَتْلَ أبناءِ بني إسرائيل ، فلمَّا كانَ مِن أمْرِ مُوسَى مَا كانَ ، أعادَ عَلَيهِم القَتْلَ ، فذلك قَوْلُه : ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ للمِهْنَةِ والخِدْمَةِ ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُون ﴾ وإنَّا على ذلك قادرون)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

فَنَجَّى اللَّهُ مُؤمِنَ آلِ فِرْعَوْن مِن شَدائدِ مَكْرِهِم ، ومِن أنواع العذاب الذي أرادوا إلحاقَه بِه . وقِيل : الضميرُ للنَّبِيِّ مُوسَى ﷺ . لَقَدْ أنقذَ اللَّهُ مُؤمِنَ آلِ فِرْعَوْن في الدُّنيا والآخِرَةِ . أمَّا في الدُّنيا فَنَجَّاه اللَّهُ تعالى معَ النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ ، وأمَّا في الآخِرَةِ فَتَكَرَّمَ اللَّهُ عَلَيه بِمَنْحِه الجَنَّة. وَنَزَلَ بِفِرْعَوْن وجَمَاعَتِه أسْوَأ العَذابِ ، وهو الغَرَق في الدُّنيا ، والنار في الآخِرة ، فَإنَّ أرواحَهم تُعْرَض على النار صباحًا ومَسَاءً إلى قِيَامِ السَّاعَة ، فإذا كانَ يَوْم القِيَامة اجتمعتْ أرواحُهم وأجسادُهم في النار .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٦٥) : ((قَوْلُه: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ ، يَقُول تعالى ذِكْرُه : فَدَفَعَ اللَّهُ عَن هذا المُؤمِن مِن آلِ فِرْعَوْن بإيمانِه ، وتَصديقِ رَسُولِه مُوسَى ، مَكروهَ مَا كانَ فِرْعَوْن يَنَال بِه أهلَ الخِلافِ عَلَيه مِن العَذابِ والبَلاءِ ، فَنَجَّاه مِنْه . وَبِنَحْوِ الذي قُلْنَا في ذلك قال أهل التأويل . ذِكْر مَن قالَ ذلك : حَدَّثَنَا بِشْر قال : ثَنَا يزيد قال : ثنا سعيد عن قَتَادَة ، قَوْلُه : ﴿ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ ، قال : وكانَ قِبْطِيًّا مِن قَوْمِ فِرْعَوْن ، فَنَجَا معَ مُوسَى ، قال : وَذُكِرَ لنا أنَّه بَيْنَ يَدَي مُوسَى يَوْمَئِذ يَسِير ، ويقول : أينَ أمَرْتَ يا نَبِيَّ اللَّه ؟ ، فيقول : أمَامَك ، فيقول له المؤمن : وهَلْ أمامي إلا البحر ؟ ، فَيَقُول مُوسَى : لا واللَّهِ مَا كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ ثُمَّ يَسِير ساعةً ، ويقول : أينَ أمَرْتَ يا نَبِيَّ اللَّه ؟ ، فيقول : أمَامَك ، فَيَقُول : وهَلْ أمامي إلا البحر ؟ ، فيقول : لا واللَّهِ مَا كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ ، حتى أتى على البحر ، فَضَرَبَه بِعَصَاه ، فانفلقَ اثنَي عَشَر طريقًا ، لِكُلِّ سِبْطٍ طَرِيقٌ . وقَوْلُه : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ ﴾ ، يَقُول : وَحَلَّ بِآلِ فِرْعَوْن ، وَوَجَبَ عَلَيهِم ، وعَنَى بآلِ فِرْعَوْن في هذا الموضع أتْبَاعَه ، وأهلَ طاعته مِن قَوْمِه . كما حَدَّثَنَا مُحَمَّد قال : ثنا أحمد قال : ثنا أسباط عن السُّدي في قَوْلِ اللَّهِ : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ

سُوءُ العَذَابِ ﴾ ، قال: قَوْم فِرْعَوْن . وعَنَى بِقَوْلِه : ﴿ سُوءُ العَذَابِ ﴾ : مَا سَاءَهُم مِن عذاب اللَّه ، وذلك نار جَهَنَّم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] .

النارُ يُحْرَقُون بها صباحًا ومَسَاءً،والمَقصودُ هو نارُ القبر وعذابُهم في القبور، بدليل قَوْلِه بَعْدَه: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ ، أي : ويَوْمَ القِيامة يُقَال للمَلائكة : أَدْخِلُوا فِرْعَوْنَ وقَوْمَه نارَ جَهَنَّم التي هي أشدُّ مِن عذاب الدُّنيا .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٦٦) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه مُبَيِّنًا عَن سُوءِ العَذابِ الذي حَلَّ بهؤلاء الأشقياءِ مِن قَوْمِ فِرْعَوْن : ذلك الذي حاقَ بِهِم مِن سُوءِ عَذابِ اللَّهِ ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ ، إنَّهُم لمَّا هَلَكُوا وغَرَّقَهم اللَّهُ جُعِلَتْ أرواحُهم في أجواف طَيْرٍ سُود ، فهي تُعْرَض عَلى النار كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْن ﴿ غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ إلى أن تَقُومَ السَّاعَةُ)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٥ / ٢٧٨) : ((قَوْلُه تعالى : والجُمهورُ على أنَّ هذا العَرْضَ في البَرْزَخِ ، واحتجَّ بعضُ أهل العِلْم في تَثْبيت عذاب القبر بِقَوْلِه : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ ، مَا دَامَت الدُّنيا ، كذلك قال مُجَاهِد وعِكْرِمة ومُقَاتِل ومُحَمَّد بن كَعْب كُلُّهُم ، قال : هذه الآية تدلُّ على عذاب القبر في الدُّنيا ، ألا تَرَاه يَقُول عن عذاب الآخِرة : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٩٥) : ((فَإنَّ عَرْضَهم على النار إحراقُهم بِها ، مِن قَوْلِهم: عُرِضَ الأُسَارَى عَلى السَّيْفِ ، إذا قُتِلُوا بِه ، وذلك لأرواحهم ، كما رَوى ابنُ مسعود أنَّ أرواحهم في أجواف طُيور سُود تُعْرَض على النارِ بُكْرَةً وعَشِيًّا إلى يَوْمِ القِيامة . وَذِكْرُ الوَقْتَيْن يَحْتَمِل التَّخصيصَ والتأبيد . وفيه دليلٌ عَلى بَقَاءِ النَّفْسِ وعَذابِ القَبْرِ ، ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ ، أي : هذا مَا دَامَت الدُّنيا، فإذا قامت السَّاعَةُ قِيل لَهُم : ﴿ ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ ، يا آلَ فِرْعَوْن، ﴿ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ عَذابَ جَهَنَّم ، فإنَّه أشدُّ مِمَّا كانوا فيه ، أوْ أشدُّ عذاب جَهَنَّم . وقرأ حَمْزَة والكِسَائي ونافع ويعقوب وحَفْص : ﴿ أَدْخِلُوا ﴾ ، على أمر الملائكة بإدخالهم النار)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ [القمر : ٤١] . وَلَقَدْ جاءَ فِرْعَوْنَ وقَوْمَه (القِبْطَ) الإنذارُ على لِسَانِ مُوسَى وهَارُون_عَلَيهما الصَّلاةُ والسَّلامُ _ فَلَمْ يُؤْمِنُوا ، ولَمْ يَعْتبروا ، ولَمْ يَتَّعِظُوا . وقِيل : هِيَ الآياتُ التي أنذرهم بِها النَّبِيُّ مُوسَى ﷺ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٣٤٠) : ((يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَن فِرْعَوْن وقَوْمِه : إنَّهُم جاءهم رسولُ اللَّهِ مُوسَى وأَخُوه هارون بالبِشَارَةِ إنْ آمَنُوا ، والنِّذَارَةِ إنْ كَفَرُوا ، وأيَّدهما بِمُعْجِزَاتٍ عَظيمةٍ ، وآياتٍ مُتَعَدِّدَة ، فَكَذَّبُوا بها كُلِّها)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨ / ١٧٣) : ((صُدِّرَتْ قِصَّتُهُم بالتَّوكيد القَسَمِي لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لِغَايةِ عِظَمِ مَا فِيها مِنَ الآيات وكَثْرتها وهَوْل مَا لاقَوْهُ مِنَ العَذاب وقُوَّة إيجابها للاتِّعَاظ . والاكتفاءُ بِذِكْرِ آلِ فِرْعَوْن للعِلْمِ بأنَّ نَفْسَه أَوْلَى بذلك ، أي : وباللَّهِ لَقَدْ جاءهم الإنذارات)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٤٢] .

كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْن بالمُعْجِزَاتِ التِّسْعِ التي أعْطَاها اللَّهُ للنَّبِيِّ مُوسَىﷺ،فانتقمَ اللَّهُ مِنهُم بإغراقهم في البَحْرِ ، وأخَذَهُم بالعَذابِ أخْذَ إلَهٍ غالبٍ في انتقامِه ، قادرٍ على إهلاكهم ، لا يُعْجِزُه شَيْء.

وقال القُرطبي في تفسيره (١٧/ ١٢٦) : ((﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ مُعْجِزاتنا الدَّالة على تَوْحِيدنا، وَنُبُوَّةِ أنبيائنا، وهي العَصَا ، واليَد ، والسِّنُون ، والطَّمْسَة ، والطُّوفان ، والجَرَاد ، والقُمَّل ، والضَّفَادِع ، والدَّم . ... . ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ ، أي : غَالبٍ في انتقامِه ﴿ مُقْتَدِر ﴾ ، أي : قادرٍ على مَا أراد)) .

ب_ فِرْعَوْن

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُوسَى بِآيَاتِنَا إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِين ﴾ [الأعراف : ١٠٣] .

ثُمَّ أرسلَ اللَّهُ مِن بَعْدِ الرُّسُلِ مُوسَى بن عِمْرَان بالمُعْجِزَاتِ الباهراتِ والحُجَجِ الساطعاتِ ، إلى فِرْعَوْن _ مَلِك مِصْر في زَمَنِ النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ _ وأشرافِ قَوْمِه، فَكَفَرُوا وجَحَدُوا بها ظُلْمًا وعِنَادًا . أي إنَّهُم كَذَّبُوا بالآياتِ الواضحاتِ ، والظُّلْمُ : وَضْعُ الشَّيْء في غَيْرِ مَوْضِعِه . وَظُلْمُهُم وَضْعُ الكُفْرِ مَوْضِعَ الإيمانِ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١ / ٤٤) : ((﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ بأن كَفَرُوا بها مكانَ الإيمانِ الذي هُوَ مِن حَقِّها لِوُضوحها ، ولهذا المَعْنَى وَضَعَ " ظَلَمُوا " مَوْضِعَ " كَفَرُوا " . وَفِرْعَوْنُ لَقَبٌ لِمَن مَلَكَ مِصْرَ ، كَكِسْرَى لِمَن مَلَكَ فارس ، وكان اسمه قابوس ، وقِيل : الوليد ابن مُصْعَب بن الرَّيَّان)) .

فانظُرْ أيُّها السامعُ بِعَيْنِ قَلْبِك مَا آلَ إلَيه أمْرُ المُفْسِدِين الظالمين ، كَيْفَ أغْرَقَهُمُ اللَّهُ عَن آخِرِهِم بِمَرْأى مِن النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ وقَوْمِه ، وهذا أبْلَغُ في النَّكَال لأعداءِ اللَّهِ تعالى ، وأشفى لقلوب أوليائه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٣٣٥) : ((قَوْلُه : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُوسَى ﴾ ، أي : مِن بَعْدِ نُوح وهُود وصالح ولُوط وشُعَيْب ، أي : ثُمَّ أرْسَلْنَا مُوسَى بعد إرسالنا لهؤلاء الرُّسُل . وقِيل : الضَّميرُ في ﴿ مِن بَعْدِهِم ﴾ راجعٌ إلى الأُمَمِ السابقة ، أي : مِن بَعْدِ إهلاكهم ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ . فِرْعَوْن هُوَ لَقَب لِكُلِّ مَن يَمْلِك أرضَ مِصْر بعد العمالقة . وَمَلَأُ فِرْعَوْن : أشرافُ قَوْمِه ، وتَخْصِيصُهم بالذِّكْر معَ عُموم الرِّسَالة لَهُم وَلِغَيْرِهِم، لأنَّ مَن عَدَاهُم كالأتْبَاع لَهُم. قَوْلُه : ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ ، أي : كَفَرُوا بِها . وأطلقَ الظُّلْمَ على الكُفْرِ لِكَوْنِ كُفْرِهم بالآيات التي جاء بها مُوسَى كانَ كُفْرًا مُتَبَالِغًا ، لِوُجود مَا يُوجِب الإيمانَ مِنَ المُعْجِزَاتِ العظيمة التي جاءهم بها . والمُرَادُ بالآياتِ هُنا : هِيَ الآياتُ التِّسْعُ . أوْ مَعْنَى ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ ظَلَمُوا الناسَ بسببها لَمَّا صَدُّوهم عن الإيمان بها ، أوْ ظَلَمُوا أنفسَهم بسببها ، ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِين ﴾ ، أي : المُكَذِّبين بالآياتِ الكافرين بِها ، وَجَعَلَهُم مُفْسِدِين ، لأنَّ تَكْذيبَهم وكُفْرَهم مِن أقْبَحِ أنواع الفَسَاد)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَاتَّبَعُوا أمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيد ﴾ [هُود : ٩٧] .

أطاعَ المَلَأُ أمْرَ فِرْعَوْن لَهُم بالكُفْرِ ، حتى اتَّخَذُوه إلَهًا ، وَعَصَوْا أمْرَ اللَّهِ تعالى . وحالُ فِرْعَوْن في الكُفْرِ أمْرٌ واضحٌ ، وكُفْرُ قَوْمِه مِنَ الأشرافِ وغَيْرِهِم إنَّما هُوَ مُسْتَنِد إلى كُفْرِه . وَمَا أمْرُ فِرْعَوْن بِسَدِيد ، لأنَّه لَيْسَ فِيه رُشْد ولا هُدى ، وإنَّما هُوَ جَهْلٌ وضَلال . وأمْرُ فِرْعَوْن لا يُرْشِد إلى خَيْرٍ ، وإنَّما يُؤَدِّي إلى عذاب النار الشديد . وقال البَيضاوي في تفسيره (١ / ٢٥٩) : ((فَاتَّبَعُوا أمْرَه بالكُفْرِ بِمُوسَى ، أوْ فَمَا تَبِعُوا مُوسَى الهادي إلى الحَقِّ ، المُؤَيَّد بالمُعْجِزَاتِ القاهرة الباهرة ، واتَّبَعُوا طريقةَ فِرْعَوْن المُنْهَمِك في الضَّلالِ والطُّغيانِ ، الدَّاعِي إلى مَا لا يَخْفَى فَسَادُه عَلى مَن له أدنى مُسْكَة مِنَ العَقْلِ ، لِفَرْطِ جَهَالتهم وعَدَمِ استبصارهم ، ﴿ وَمَا أمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيد ﴾ مُرْشِد ، أوْ ذِي رُشْد ، وإنَّمَا هُوَ غَيٌّ مَحْض ، وضَلال صريح)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٢ / ١٧٠) : ((﴿ فَاتَّبَعُوا ﴾ ، أي : المَلَأُ ﴿ أمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيد ﴾ ، هُوَ تَجْهيل لِمُتَّبِعيه ، حَيْثُ تَابَعُوه على أمْرِه ، وَهُوَ ضَلال مُبين ، وذلك أنَّه ادَّعَى الأُلُوهِيَّةَ ، وَهُوَ بَشَرٌ مِثْلُهم ، وجاهرَ بالظُّلْمِ والشَّرِّ الذي لا يأتي إلا مِن شَيْطان ومِثْلِه ، بِمَعْزِل عن الأُلُوهِيَّة . وفيه أنَّهُم عَايَنُوا الآياتِ والسُّلطان المُبين ، وعَلِمُوا أنَّ معَ مُوسَى الرُّشْدَ

والحَقَّ ، ثُمَّ عَدَلُوا عَن اتِّبَاعِه إلى اتِّبَاع مَن لَيْسَ في أمْرِه رُشْد قَط ، أوْ المُراد : ومَا أمْرُه بصالحٍ حَمِيدِ العاقبة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠١] .

أعطى اللَّهُ النَّبِيَّ مُوسَى ﷺ تِسْعَ آياتٍ واضحاتِ الدَّلالةِ على نُبُوَّتِه ، وصِحَّةِ مَا جاءَ بِه مِن عِند اللَّه تعالى ، وهي : العَصَا ، واليَد ، والطُّوفان ، والجَرَاد ، والقُمَّل ، والضَّفَادع ، والدَّم ، وانفلاق البَحْر ، والسِّنُون . فاسألْ يا مُحَمَّد بَنِي إسرائيل عَمَّا جَرَى بَيْنَ مُوسَى وفِرْعَوْن ، فإنَّهُم يَعْلَمُونها مِمَّا لَدَيهم في التَّوْرَاة.وَلَيْسَ المَطلوب مِن سُؤال بَنِي إسرائيل أن يَستفيد هذا العِلْمَ مِنهُم، بَل المَقصود أن يَظْهَر لِعَامَّةِ اليهود وعُلمائهم صِدْقُ مَا ذَكَرَه النَّبِيُّ مُحَمَّد ﷺ . أي إنَّ هذا سُؤال استشهاد ، لِيَعْرِفَ اليَهُودُ صِحَّةَ مَا يَقُولُه النَّبِيُّ مُحَمَّد ﷺ بِقَوْلِ عُلَمائهم .

وفي حاشية الصاوي على تفسير الجَلالَيْن (٢ / ٤٥٣) : ((قَوْلُه : ﴿ فَاسْأَلْ ﴾ (يا مُحَمَّد) ﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، أي: لِيَكُونَ قَوْلُهم المُوَافِق لَكَ حُجَّةً عَلى المُشركين ، وعلى هذا ، فالجُملة مُعْتَرِضَة بَيْن قِصَّة مُوسَى وفِرْعَوْن . قَوْلُه : (عَنْهُ) ، أي : عَن مَا جَرَى بَيْنَ مُوسَى وفِرْعَوْن . قَوْلُه : (سُؤال تقرير) ، أي : سُؤالًا يَتَرَتَّب عَلَيه التقرير مِن بَنِي إسرائيل ، وقَوْلُه : (للمُشركين) اللام للتَّعليل ، أي : لأجْلِ المُشركين ، والمَعْنَى : اسْألْ يَا مُحَمَّد بَنِي إسرائيلَ ، عَمَّا جَرَى بَيْنَ مُوسَى وفِرْعَوْن ، لِيَكُونَ ذلك داعيًا لإيمانِ المُشركين وانقيادهم)) .

فقالَ فِرْعَوْنُ للنَّبِيِّ مُوسَى ﷺ : إنِّي لأظنُّكَ يَا مُوسَى سُحِرْتَ فَتَخَبَّطَ عَقْلُكَ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٣٧٥) : ((قَوْلُه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آياتٍ ﴾ ، أي : عَلامَات دَالَّة على نُبُوَّته . ... . قال أكثرُ المُفسِّرين : الآياتُ التِّسْع : هِيَ الطُّوفان ، والجَرَاد، والقُمَّل، والضَّفَادِع، والدَّم، والعَصَا ، واليَد ، والسِّنين ، ونَقْص الثَّمَرَات . ... . ﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، ... ، أي : سَلْهُم يَا مُحَمَّد حِين ﴿ جَاءَهُمْ ﴾ مُوسَى ، والسُّؤالُ سُؤالُ استشهاد لِمَزيد الطُّمَأنينة والإيقان، لأنَّ الأدلة إذا تضافرتْ كان ذلك أقوى ، والمَسؤولون مُؤمنو بني إسرائيل كعبد اللَّه بن سَلَام وأصحابِه ، ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴾ ، الفاءُ هي الفصيحة ، أي : فأظهرَ مُوسَى عِند فِرْعَوْن مَا آتَيْنَاه مِنَ الآياتِ البَيِّنَاتِ ، وبَلَّغَه مَا أُرْسِلَ بِه ، فقال له فِرْعَوْن . والمَسحورُ : الذي سُحِرَ فَخُولِطَ عَقْلُه . وقال أبو عُبَيدة والفَرَّاء : هُوَ بِمَعنى الساحر ، فَوُضِعَ المَفعول مَوْضِعَ الفاعل)) .

عَن عَمْرو بن مُرَّةَ قال: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بنَ سَلَمَةَ يُحَدِّثُ عَن صَفْوَانَ بنِ عَسَّالٍ المُرَادِيِّ قال: قال يَهُودِيٌّ لصاحبه : اذْهَبْ بِنَا إلى هذا النَّبِيِّ ﷺ نَسْأَلُهُ عَن هَذِهِ الآيةِ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ ، فَقَال : لا تَقُولوا لَهُ نَبِيٌّ ، فإنَّهُ لَوْ سَمِعَكَ لَصَارَتْ لَهُ أربعةُ أعْيُنٍ ، قال : فَسَألاه ، فقال : ((لا تُشركوا باللَّهِ شيئًا ، ولا تَسْرِقُوا ، ولا تَزْنُوا ، ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بالحَقِّ ، ولا تَسْحَرُوا ، ولا تَأكُلوا الرِّبَا ، ولا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إلى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَه ، ولا تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً ، وأنتم يا يَهُودُ عَلَيْكُم خَاصَّةً ألا تَعْدُوا في السَّبْتِ)) ، فَقَبَّلا يَدَهُ وَرِجْلَهُ ، وقالا : نَشْهَدُ أنَّكَ نَبِيٌّ ، فقال : ((مَا مَنَعَكُمَا أن تُسْلِمَا ؟)) ، قالا : إنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ دَعَا أن لا يَزَالَ مِن ذُرِّيتِهِ نَبِيٌّ ، وإنَّا نَخْشَى أن يَقْتُلَنَا يَهُودُ [٥٠] .

وَفْقَ هذا الحَديثِ ، فالمُرادُ بالآياتِ الأحكامُ التي كُلِّفُوا بها ، أي : الأحكام العامَّة الشاملة للمِلَلِ الثابتة في جَميعِ الشرائع . سُمِّيَتْ بذلك لأنَّها تَدُلُّ على حَال مَن يَتَعَاطَى مُتَعَلَّقَهَا في الآخِرَةِ مِنَ السَّعَادَةِ أو الشَّقَاوَةِ . وَقَوْلُه : " عَلَيْكُم خَاصَّةً ألا تَعْدُوا في السَّبْتِ " حُكْمٌ مُسْتَأنَف زائد على الجواب مَخصوص باليَهُود ، ولذلك غَيَّرَ فيه سِيَاقَ الكلام .

وقال المباركفوري في تُحفة الأحوذي (٧ / ٤٣٥ _ ٤٣٧) : ((قَوْلُه (قالَ يَهُودِيٌّ لصاحبه) أي مِنَ اليَهُودِ (اذْهَبْ بِنا) الباء للمُصَاحَبَة أو التَّعْدِيَة (إلى هذا النَّبِيِّ) أي لِنَسأله عَن مَسائل (فقالَ صَاحِبُهُ : لا تَقُلْ) أي لَهُ كما في رواية (نَبِيٌّ) أي هُوَ نَبِيٌّ (إنَّه) بكسر الهمزة استئناف فيه معنى التعليل أي لأنَّه (لَوْ سَمِعَكَ) أي سَمِعَ قَوْلَكَ إلى هذا النَّبِيِّ (كانَ لَهُ أربعةُ أعْيُنٍ) ، ...، يَعْني يُسَرُّ بِقَوْلِكَ هذا النَّبِيُّ سُرُورًا يَمُد الباصرةَ ، فَيَزداد بِه نُورًا على نُور ، كَذِي عَيْنَيْن أصبح يُبْصِر بأربع ، فإنَّ الفرح يَمُد الباصرةَ كما أنَّ الهَمَّ والحُزْنَ يُخِل بِها ، ولذا يُقَال لِمَن أحاطتْ بِه الهُموم أظلمتْ عَلَيه الدُّنيا (فَسَألاه) أي امتحانًا (عَن تِسْعِ آياتٍ بَيِّنَاتٍ) أي واضحات ، والآيةُ : العَلامةُ الظاهرة ، تُسْتَعْمَل في المَحسوسات كعلامة الطريق ، والمَعقولات

---

٥٠ رواه الحاكم في المستدرك (١ / ٥٢) برقم (٢٠) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٩٢) : ((فهذا الحديث رواه هكذا التِّرمذيُّ والنَّسَائي وابنُ مَاجَة وابن جرير في تفسيره مِن طُرُق عن شُعْبَة بن الحَجَّاج به ، وقال التِّرمذيُّ : حسن صحيح ، وهو حديث مُشْكِل ، وعبد اللَّه ابن سَلَمَة في حِفْظِه شيء ، وقد تَكَلَّمُوا فيه ، ولَعَلَّه اشتبه عليه التِّسْع الآيات بالعَشْر الكَلِمَات ، فإنها وَصَايا في التَّوراة ، لا تَعَلُّق لها بِقِيَامِ الحُجَّة على فِرْعَوْن، واللَّهُ أعْلَم)) .

كالحُكْم الواضح والمسألة الواضحة ، فَيُقَال لِكُلِّ مَا تَتَفَاوَت فِيه المعرفة بِحَسَبِ التَّفَكُّر فيه والتَّأمُّل وحَسَب منازل الناس في العِلْمِ آيةٌ ، والمُعْجِزَةُ آيَةٌ ، وَلِكُلِّ جُملة دَالَّة على حُكْم مِن أحكام اللَّه آيةٌ ، وَلِكُلِّ كَلامٍ مُنْفَصِل بفصل لفظي آيةٌ ، والمُرادُ بالآيات هاهُنا إمَّا المُعْجِزَات التِّسْع ، وهي العصا واليد والطُّوفان والجَرَاد والقُمَّل والضَّفَادع والدَّم والسِّنُون ونَقْص مِنَ الثَّمَرَات. وعلى هذا فَقَوْلِه : " لا تُشركوا " كلام مُسْتَأنَف ذَكَرَه عَقِيب الجَوَاب ، وَلَمْ يَذكُر الرَّاوي الجوابَ استغناءً بِما في القُرْآن ، أوْ بِغَيْرِه ، ويُؤَيِّده مَا في رواية التِّرمذي في التفسير ، فَسَألاه عن قَوْلِ اللَّهِ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ ، وأمَّا الأحكام العامَّة الشاملة للمِلَلِ الثابتة في كُلِّ الشرائع وبيانها مَا بَعْدَها ، سُمِّيَتْ بذلك لأنَّها تدلُّ على حال المُكَلَّف بِها عن السَّعَادة والشَّقَاوة . وقَوْلُه : " وَعَلَيكُم خَاصَّةً " حُكْم مُسْتَأنَف زائد على الجواب ، ولذا غَيَّرَ السِّيَاقَ (لا تُشركوا باللَّه) أي بذاته وصِفاته وعِبادته (شيئًا) مِنَ الأشياء أو الإشراك (ولا تَمْشُوا بِبَرِيء) بهمزة وإدغام أي بِمُتَبَرِّئ مِنَ الإثم ، والباء للتَّعْدِيَة ، أي : لا تَسْعَوْا ولا تَتَكَلَّمُوا بِسُوء ليس له ذَنْب (إلى ذِي سُلْطَان) أي صاحب قُوَّة وقُدرة وغَلَبَة وشَوكة (ولا تَسْحَرُوا) بفتح الحاء (ولا تأكلوا الرِّبَا) فإنَّه سَحْق ومَحْق (ولا تَقْذِفُوا) بكسر الذال (مُحْصَنَةً) بفتح الصاد ويُكْسَر ، أي لا تَرْمُوا بالزِّنى عَفيفةً . ... . (ألا تَعْتَدُوا) بتأويل المَصْدَر في مَحَلِّ الرفع على أنَّه مُبْتَدَأ مِن الاعتداء (في السَّبْتِ) أي لا تَتجاوزوا أمْرَ اللَّهِ في تعظيم السَّبْت بأن لا تَصِيدوا السَّمَكَ فيه . ... . (قال) أي صَفْوَان (فَقَبَّلُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ) ﷺ (وقالوا) وفي رواية التِّرمذي في التفسير فَقَبَّلا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وقالا (نَشْهَدُ أنَّكَ نَبِيٌّ) إذْ هذا العِلْم مِنَ الأُمِّيِّ مُعْجِزَة ، لكن نَشْهَد أنَّكَ نَبِيٌّ إلى العَرَبِ (أن تَتَّبِعُوني) بتشديد التاء وقِيل بالتخفيف أي مِن أن تَقْبَلُوا نُبُوَّتي بالنِّسْبَة إلَيْكُم وتَتْبَعُوني في الأحكام الشرعية التي هي واجبة عليكم (قال) لَمْ يقع هذا اللفظ في أكثر النُّسَخ (دَعَا رَبَّهُ أن لا يَزَالَ) أي بأن لا يَنقطع (مِن ذُرِّيتِهِ نَبِيٌّ) إلى يَوْمِ القِيامة فَيَكُون مُستجابًا فَيَكُون مِن ذُرِّيته نَبِيٌّ ويَتَّبِعُه اليَهُود وَرُبَّمَا يَكُون لَهُم الغَلَبَة والشَّوكة (وإنَّا نَخَافُ إنْ تَبِعْنَاكَ تَقْتُلُنَا اليَهُودُ) أي فَإنْ تَركنا دِينَهم واتَّبعناك لَقَتَلَنَا اليَهُودُ إذا ظهر لهم نَبِيٌّ وقُوَّة . وهذا افتراء مَحْض على داود عليه الصَّلاة والسَّلام ، لأنَّه قرأ في التَّوراة والزَّبُور بَعْثَ مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ ، وأنَّه خَاتَم النَّبِيِّين ، وأنَّه يَنْسَخ بِه الأديانَ ، فكيف يَدعو بِخِلاف مَا أخبرَ اللَّهُ تعالى بِه مِن شأن مُحَمَّدٍ ﷺ ؟ ، وَلَئِن سُلِّمَ فَعِيسَى مِن ذُرِّيته وهو نَبِيٌّ باقٍ إلى يوم الدِّين . والحديث يدلُّ على جَوَاز تَقْبيل اليَدِ والرِّجْلِ . قال ابن بَطَّال:اختلفوا في تَقْبيل اليَدِ، فأنكره مالك ، وأنكرَ مَا رُوِيَ فيه ، وأجازه آخرون ، واحْتَجُّوا بِما

رُوِيَ عَن ابن عُمَر أَنَّهُم لمَّا رَجَعُوا مِن الغَزْوِ حَيْثُ فَرُّوا ، قالوا : نَحْنُ الفَرَّارُون ، فقال : " بَلْ أنتم الكَرَّارُون ، إنَّا فِئَةُ المُؤمنين " ، قال : فَقَبَّلْنا يَدَهُ ، قال : وَقَبَّلَ أبو لُبَابة وكَعْبُ بن مالك صاحباه يَدَ النَّبِيِّ ﷺ ، حِينَ تابَ اللَّهُ عَلَيه ، ذَكَرَه الأبهري . وقَبَّلَ أبو عُبَيدة يَدَ عُمَر حِينَ قَدِمَ ، وقَبَّلَ زَيْدُ ابن ثابت يَدَ ابنِ عَبَّاس حِينَ أخذَ ابنُ عباس بِرِكَابِه.قال الأبهري : وإنَّما كرهها مالك إذا كانتْ على وجه التعظيم والتَّكَبُّر ، وأمَّا إذا كانتْ على وَجْهِ القُرْبَةِ إلى اللَّهِ لِدِينِه أوْ لِعِلْمِه أوْ لِشَرَفِه فإنَّ ذلك جائز. قال ابنُ بَطَّال : وَذَكَرَ التِّرمذيُّ مِن حديث صَفْوَان بن عَسَّال أنَّ يَهُودِيَّيْن أتَيَا النَّبِيَّ ﷺ، فَسَألاه عَن تِسْع آيات ، الحديث. وفي آخِرِهِ فَقَبَّلا يَدَهُ وَرِجْلَه . قال التِّرمذيُّ : حسن صحيح)).

وقَالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢] .

قالَ النَّبِيُّ مُوسَى ﷺ لِفِرْعَوْن تَوْبيخًا وتَبْكيتًا : لَقَدْ عَلِمْتَ بالحُجَّةِ والبُرهانِ ، وتَيَقَّنْتَ أنَّ هذه الآيات التِّسْع مَا أنزَلَهَا إلا خَالِقُ السَّمَاوَاتِ والأرضِ ومُدَبِّرُهُمَا ، عِبَرًا ودلائلَ شَاهِدَةً عَلى صِدْقي ، تُبَصِّرُ الناسَ بِقُدرة اللَّهِ وعَظَمَتِه ، ولَكِنَّكَ مُكَابِرٌ مُعَانِد ، وإنِّي لأعتقدكَ يَا فِرْعَوْنُ هالكًا خاسرًا .

وَذِكْرُ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ للدَّلالةِ على أنَّه لا يَقْدِر على إيجاد هذه الآياتِ العظيمةِ إلا الخالقُ المُدَبِّرُ رَبُّ السَّماواتِ الأرضِ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٣٧٦) : ((﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ ﴾ ، يَعْنِي الآيات التي أظْهَرَهَا ، وأنزلَ بِمَعنى أوجدَ ﴿ إلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ ، أي : دَلالات يُسْتَدَل بها على قُدرته ووَحْدَانيته ، وانتصاب ﴿ بَصَائِرَ ﴾ على الحال . قرأ الكِسَائي بِضَمِّ التاء مِن ﴿ عَلِمْتَ ﴾ على أنَّها لِمُوسَى ، ورُوِيَ ذلك عن عليٍّ ، وقرأ الباقون بفتحها على الخِطَاب لِفِرْعَوْن ، ووجهُ القِراءة الأُولَى أنَّ فِرْعَوْن لَمْ يَعْلَمْ ذلك ، وإنَّما عَلِمَه مُوسَى ، ووجهُ قِراءةِ الجُمهور أنَّ فِرْعَوْن كانَ عَالِمًا بذلك،كما قالَ تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[النَّمل: ١٤].

قال أبو عُبَيد : المأخوذ بِه عِندنا فتح التاء ، وهو الأصح للمَعْنَى ، لأنَّ مُوسَى لا يَقُول : عَلِمْتُ أنا ، وهو الداعي ، ورُوِيَ نَحْو هذا عن الزَّجَّاج ، ﴿ وَإِنِّي لأظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ ، الظَّنُّ هُنا بِمَعنى اليَقِينِ ، والثُّبُورُ: الهَلاك والخُسْرَان)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿فَأَرَادَ أن يَسْتَفِزَّهُم مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

فَأرادَ فِرْعَوْنُ أن يُخْرِجَ النَّبِيَّ مُوسَى ﷺ وقَوْمَه (بني إسرائيل) مِن أرضِ مِصْر ، فأغرقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وجُنْدَه أجمعين في البَحْر .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٥ / ٩٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أن يَسْتَفِزَّهُم مِنَ الأَرْضِ ﴾ ، يَعْني فِرْعَوْن ، أرادَ أن يَسْتَفِزَّ بني إسرائيل مِن أرض مِصْر ، وفي مَعْنَى ﴿ يَسْتَفِزَّهُم ﴾ قَوْلان : أحدهما يَسْتَأصِلَهُم ، قاله ابن عباس . والثاني يَسْتَخِفَّهُم حَتَّى يَخْرُجوا ، قاله ابنُ قُتَيبة . وقال الزَّجَّاج : جائزٌ أن يَكُون استفزازُهم إخراجَهم مِنها بالقَتْلِ أو بالتَّنْحِيَة . قال العُلماءُ : وفي هذه الآيةِ تَنْبِيهٌ على نُصْرَةِ رسول اللَّه ﷺ ، لأنَّه لمَّا خَرَجَ مُوسَى فَطَلَبَهُ فِرْعَوْن ، هَلَكَ فِرْعَوْن ، وَمَلَكَ مُوسَى ، وكذلك أظهرَ اللَّهُ نَبِيَّه بَعْدَ خُروجه مِن مَكَّة ، حَتَّى رَجَعَ إلَيها ظاهرًا عَلَيها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : ١٠٤] .

وقالَ اللَّهُ مِن بَعْدِ إغراقِ فِرْعَوْن وجُنْدِه لبني إسرائيل : اسْكُنُوا أرضَ مِصْر التي أرادَ فِرْعَوْنُ أن يَسْتَفِزَّكُم مِنها . فإذا جاءَ يَوْمُ القِيامة جاءَ اللَّهُ بِكُم مِن قُبوركم إلى المَحْشَرِ مُجْتَمِعِين مُخْتَلِطِين ، فِيكُم المُؤمِن والكافر ، والبَرُّ والفاجر ، ثُمَّ يَفْصِل اللَّهُ بَيْنَكُم ، ويُمَيِّز السُّعَدَاءَ مِنَ الأشقياء .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٩٢) : ((﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ ﴾ ، وفي هذا بِشَارَةٌ لِمُحَمَّد ﷺ بفتح مَكَّة معَ أنَّ السُّورة مَكِّية نَزَلَتْ قَبْلَ الهِجْرَة ، وكذلك فإنَّ أهل مَكَّة هَمُّوا بإخراج الرَّسُول مِنها ، كما قالَ تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُسُلِنَا ولا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾ [الإسراء] ، ولهذا أَوْرَثَ اللَّهُ رَسُولَه مَكَّةَ ، فَدَخَلَهَا عَنْوَةً على أشهَر القَوْلَيْن ، وَقَهَرَ أهلَها ، ثُمَّ أطلقهم حِلْمًا وكَرَمًا ، كَمَا أورثَ اللَّهُ القَوْمَ الذين كانوا يُسْتَضْعَفُون مِن بَنِي إسرائيل مَشَارِقَ الأرضِ ومَغَارِبَها ، وأورثهم بِلادَ فِرْعَوْن وأموالَهم وزُرُوعَهم وثِمَارَهم وكُنوزَهم ، كما قال : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إسرائيلَ ﴾ [الشُّعَرَاء : ٥٩] ، وقال هَهُنا : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ ، أي : جَمِيعَكُم أنتُم وعَدُوكم . قال ابنُ عَبَّاس ومُجَاهِد وقَتَادَة والضَّحَّاك : لَفِيفًا ، أي : جَمِيعًا)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٣٧٦) : ((﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ ﴾ ، أي : مِن بَعْدِ إغراقِه ومَن مَعَه ، والمُرادُ بالأرضِ هُنا : أرض مِصْر التي أرادَ أن يَسْتَفِزَّهُم مِنها ، ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾ ، أي : الدَّار الآخِرَة ، وهو القِيَامَة ، أو الكَرَّة الآخِرَة ، أو السَّاعَة الآخِرَة ، ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ ، قال الجَوهري : اللفيف : مَا اجتمعَ مِن الناس مِن قَبائل شَتَّى ، يُقَال : جَاءَ القَوْمُ بِلَفِّهِم وَلَفِيفِهِم ، أي : بأخلاطِهم ، فالمُرادُ هُنا جِئْنَا بِكُم مِن قُبوركم

مُخْتَلِطِين مِن كُلِّ مَوْضِع ، قَد اختلطَ المُؤمنُ بالكافر . قال الأصمعيُّ : اللفيفُ جَمْعٌ ، وَلَيْسَ لَهُ واحد ، وَهُوَ مِثْل الجَمْع)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ اذْهَبَا إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى ﴾ [طه : ٤٣] .

أمرَ اللَّهُ مُوسَى وهَارون _ عَلَيهما الصَّلاة والسَّلام _ أن يَذهبا إلى فِرْعَوْن مِن أجْلِ دَعْوَتِه إلى الإيمان ، فَقَدْ تَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ وَبَلَغَ النِّهايةَ في العُتُوِّ والطُّغيانِ ، وجاوزَ الحَدَّ بادِّعائه الأُلُوهِيَّة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٥٢٣) : ((﴿ اذْهَبَا إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى ﴾ ، هذا أمْرٌ لهما جميعًا بالذهاب ، ومُوسَى حاضر ، وهارون غائب ، تَغْلِيبًا لِمُوسَى ، لأنَّه الأصل في أداء الرِّسالة . وعَلَّلَ الأمرَ بالذَّهَاب بِقَوْلِه : ﴿ إنَّهُ طَغَى ﴾ ، أي : جَاوَزَ الحَدَّ في الكُفْرِ والتَّمَرُّدِ . وخَصَّ مُوسَى وَحْدَه بالأمر بالذَّهَاب فِيما تَقَدَّمَ ، وجَمَعَهما هُنا تَشريفًا لِمُوسَى بإفراده ، وتأكيدًا للأمرِ بالذَّهَابِ بالتَّكرير . وقيل : إنَّ في هذا دَليلًا على أنَّه لا يَكْفي ذَهَاب أحدهما . وقِيل : الأولُ أمْرٌ لِمُوسَى بالذَّهَابِ إلى كُلِّ الناس ، والثاني أمْرٌ لهما بالذَّهَاب إلى فِرْعَوْن)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٤] .

أمرَ اللَّهُ مُوسَى وهَارون _ عَلَيهما الصَّلاة والسَّلام _ أن يَقُولا لِفِرْعَوْنَ قَوْلًا لطيفًا رفيقًا ، لِمَا في ذلك مِن التأثير في الإجابة ، فإنَّ الخُشُونة والقَسْوَة والشِّدَّة في البِداية مِن أعظم أسباب النُّفُور والتَّصَلُّب في الكُفْرِ ، والقَوْلُ اللَّيِّن هو الذي لا خُشونة فيه . وقِيل : كَنِّيَاه وعِدَاه على الإيمانِ نَعيمًا وعُمُرًا طويلًا في صِحَّة ومَصِيرًا إلى الجَنَّة ، لَعَلَّه يَتَذَكَّر عَظَمَةَ اللَّهِ ، أوْ يَخَاف عِقَابَه ، فَيَرتدع عن طُغيانه .

ومَعْنى " لَعَلَّ " هَاهُنا يَعُود إلى حال مُوسَى وهَارون _ عَلَيهما الصَّلاة والسَّلام _ ، أي : اذهبا أنتما على رجائكما وطمعكما . وقَد عَلِمَ اللَّهُ تعالى مَا يَكُون مِنْه . أي إنَّ التَّرَجِّي بالنِّسْبَةِ إلَيهما لِعِلْمِ اللَّهِ تعالى بأنَّ فِرْعَوْنَ لا يَرْجِع .

والفائدةُ في إرسال اللَّه لِمُوسَى وهارون _ عَلَيهما الصَّلاة والسَّلام _ ، والمُبَالَغَة عَلَيهما في الاجتهاد ، معَ عِلْمِ اللَّهِ مُسْبَقًا بأنَّ فِرْعَوْن لا يُؤْمِن ، هي إلزامُ الحُجَّةِ ، وقَطْعُ المَعذرة .

والآيةُ تُوضِّح أهميةَ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهْي عَن المُنكَر ، وأنَّ ذلك يَكُون باللين والهدوء بعيدًا عن الشِّدَّةِ والصُّرَاخ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٠٧) : ((﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أوْ يَخْشَى ﴾ ، هذه الآية فِيها عِبْرَة عظيمة ، وهو أنَّ فِرْعَوْن في غاية العُتُوِّ والاستكبارِ ، ومُوسَى صَفْوَةُ اللَّهِ مِن

خَلْقِه إذْ ذاك، ومعَ هذا أُمِرَ أن لا يُخَاطِبَ فِرْعَوْنَ إلا بالمُلاطَفَة واللين ، كما قال يَزِيد الرَّقَاشِي عِند قَوْلِه : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ : يَا مَنْ يَتَحَبَّبُ إلى مَنْ يُعَادِيه فَكَيْفَ بِمَنْ يَتَوَلَّاهُ ويُنَادِيه ؟ وقال وَهْبُ بنُ مُنَبِّه : قُولا له : إنِّي إلى العَفْوِ والمَغفرةِ أقربُ مِنِّي إلى الغَضَبِ والعُقوبةِ . وعَن عِكْرِمَة في قَوْلِه : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ ، قال : لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وقال عمرو بن عُبَيد عن الحَسَن البَصْرِي : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ ، أعْذِرَا إلَيه ، قُولا له : إنَّ لَكَ رَبًّا ، ولَكَ مَعَادًا ، وإنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ جَنَّةً ونارًا . وقال بَقِيَّة عن عليٍّ بن هارون عَن رَجُل عن الضَّحَّاك بن مُزَاحِم عن النَزَّال بن سَبْرَة عَن عَلِيٍّ في قَوْلِه : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ ، قال : كَنِّهِ ، وكذا رُوِيَ عن سُفيان الثَّوري : كَنِّهِ بأبي مُرَّة. والحاصلُ مِن أقوالهم أنَّ دَعْوتهما لَهُ تَكُون بكلام رقيق لَيِّن سَهْل رفيق ، لِيَكُونَ أوْقَعَ في النُّفُوسِ وأبْلَغَ وأنْجَعَ ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أحْسَنُ ﴾ [النَّحْل: ١٢٥] . وقَوْلُه : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أوْ يَخْشَى ﴾ ، أي : لَعَلَّه يَرْجِع عَمَّا هُوَ فيه مِن الضَّلالِ والهَلَكَةِ ، ﴿ أوْ يَخْشَى ﴾ ، أي : يُوجِد طاعةً مِن خَشْيَةِ رَبِّه . ... . فالتَّذَكُّرُ : الرُّجُوعُ عن المَحذور ، والخَشْيَةُ : تَحصيل الطاعة . وقال الحَسَن البَصْرِي : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أوْ يَخْشَى ﴾ ، يَقُول : لا تَقُلْ أنتَ يَا مُوسَى وأخوك هارون : أهْلِكْهُ قَبْلَ أن أعْذِرَ إلَيه . وهَهُنَا نَذكُر شِعْرَ زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، ويُرْوَى لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت ، فِيما ذَكَرَه ابنُ إسحاق :

وأنتَ الذي مِنْ فَضْلِ مَنٍّ وَرَحْمَةٍ بَعَثْتَ إلى مُوسَى رَسُولًا مُنَاديا
فَقُلْتَ لَهُ : فاذهبْ وَهَارُون فَادْعُوا إلى اللَّهِ فِرْعَوْنَ الذي كانَ بَاغِيا
فَقُولا له : هَلْ أنتَ سَوَّيْتَ هَذِهِ بِلا وَتَدٍ حَتَّى اسْتَقَلَّتْ كَمَا هِيا ؟
وقُولا له : آأنتَ رَفَعْتَ هَذِهِ بِلا عَمَدٍ ؟ أرْفِقْ إذَنْ بِكَ بانيا
وقُولا له : آأنتَ سَوَّيْتَ وَسَطَهَا مُنِيرًا إذا مَا جَنَّهُ الليلُ هَاديا ؟
وقُولا له : مَنْ يُخْرِجُ الشَّمْسَ بُكْرَةً فَيُصبحُ مَا مَسَّتْ مِنَ الأرضِ ضَاحِيا ؟
وقُولا له : مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ في الثَّرَى فَيُصبح مِنْهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رابيا
ويُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ في رُؤوسه ؟ فَفِي ذَاكَ آياتٌ لِمَن كانَ واعيا)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٥ / ٢٨٧ و٢٨٨) : ((قوله تعالى : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ ، وقرأ أبو عِمْرَان الجَوْني وعاصم الجحدري : " لَيْنًا " بإسكان الياء ، أي : لطيفًا رفيقًا ، وللمُفسِّرين فيه خمسة أقوال : أحدها قُولا له : قُلْ : لا إلهَ إلا اللَّهُ وَحْدَه لا شريك له ، رواه خالد

ابن مَعْدَان عن مُعَاذ ، والضَّحَّاك عن ابن عباس . والثاني أنَّه قَوْلُه : ﴿ هَلْ لَكَ إلى أن تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) ﴾ [النازعات]. قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مُقَاتِل. والثالث كَنِّيَاه ، رواه عِكْرِمَة عن ابن عباس ، وبه قال السُّدي ، ... . وفي كُنْيته أربعةُ أقوال : أحدها أبو مُرَّة ، رواه عِكرمة عن ابن عباس ، والثاني أبو مُصْعَب ، ذَكَرَه أبو سُلَيمان الدمشقي ، والثالث أبو العَبَّاس ، والرابع أبو الوليد ، حَكَاهُمَا الثَّعْلبي . والقول الرابع قُولا لَه : إنَّ لَكَ رَبًّا ، وإنَّ لَكَ مَعَادًا ، وإنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ جَنَّةً ونارًا ، قاله الحسن . والخامس أنَّ القَوْل اللَّيِّن أنَّ مُوسَى أتاه فقال له : تُؤْمِن بِما جِئْتُ بِه ، وتَعْبُد رَبَّ العَالَمِين ، على أنَّ لَكَ شَبَابَك فلا تَهْرَم ، وتَكُون مَلِكًا لا يُنْزَع مِنْكَ حتى تموت ، فإذا مِتَّ دَخَلْتَ الجَنَّةَ ، فأعجبه ذلك ، فلمَّا جاء هامان أخبره بما قال موسى ، فقال : قَدْ كُنْتُ أرى أنَّ لَكَ رأيًا ، أنتَ رَبٌّ ، أردتَ أن تَكُون مَربوبًا ، فَقَلَبَه عَن رأيه، قاله السُّدي . وحُكِيَ عَن يحيى بن مُعاذ أنَّه قرأ هذه الآية فقال : إلهي ، هذا رِفْقُكَ بِمَن يَقُول : أنا إلَهٌ ، فكيف رِفْقُكَ بِمَن يَقُول : أنتَ إلَه ؟ . قَوْلُه تعالى : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أوْ يَخْشَى ﴾ ، قال الزَّجَّاج : " لَعَلَّ " في اللغة تَرَجٍّ وطَمَع ، تَقُول : لَعَلِّي أصيرُ إلى خَيْر ، فخاطبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ العِبادَ بما يَعْقِلُون ، والمَعنى عِند سِيبَوَيْه : اذهبا على رجائكما وطمعكما والعِلْمُ مِنَ اللَّهِ تعالى مِن وراء مَا يَكُون ، وقَدْ عَلِمَ أنَّه لا يَتذكر ولا يَخشى ، إلا أنَّ الحُجَّة إنَّما تَجِب عليه بالآية والبُرهان ، وإنَّما تُبْعَث الرُّسُل وهي لا تَعْلَم الغَيْبَ ، ولا تَدْرِي أيُقْبَل مِنها أمْ لا ، وهُم يَرْجُون ويَطْمَعُون أن يُقْبَلَ مِنهُم،ومَعنى" لَعَلَّ " مُتَصَوَّر في أنفسهم ، وعلى تَصَوُّر ذلك تَقُوم الحُجَّة . قال ابن الأنباري : ومَذهب الفَرَّاء في هذا، كي يَتذكر،وروى خالد بن مَعْدَان عن مُعاذ قال: واللَّهِ مَا كانَ فِرْعَوْنُ لِيَخْرُجَ مِن الدُّنيا حتى يَتذكر أوْ يَخشى لهذه الآية ، وإنَّه تَذَكَّرَ وَخَشِيَ لمَّا أدركه الغَرَقُ ، وقال كَعْب : والذي يَحْلِف بِه كَعْب إنَّه لَمَكتوب في التَّوراة : فَقُولا له قَوْلًا لَيِّنًا وسَأُقَسِّي قَلْبَه فلا يُؤْمِن)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ في تِسْعِ آياتٍ إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِين ﴾ [النَّمْل : ١٢] .

وأدْخِلْ يا مُوسَى يَدَكَ في فَتْحَةِ ثَوْبِكَ ، ثُمَّ أخرِجْهَا تَخْرُجْ مُضِيئةً سَاطعةً بَيْضَاءَ تَتَلألأ كالبَرْقِ الخاطفِ دُون مَرَضٍ أوْ بَرَصٍ . وهذه مُعْجِزَةٌ أُخْرَى ــ بَعْد العَصَا ــ للنَّبِيِّ مُوسَى ﷺ تدلُّ على قُدرة اللَّه الباهرة . وهاتان المُعْجِزَتَان " العَصَا واليَد " ضِمْن تِسْعِ مُعْجِزَاتٍ أيَّدَ اللَّهُ بِهَا النَّبِيَّ مُوسَى ﷺ ، وجَعَلَهَا بُرهانًا على صِدْقِه ، لِيَذهَبَ بِها إلى فِرْعَوْن وقَوْمِه ، إنَّهُم كانوا خارجين عن طاعة اللَّه ، مُمْعِنِين في الكُفْرِ والضَّلالِ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ١٨٢) : ((﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ ﴾ ، المُرادُ بالجَيْبِ هُوَ المَعروف . ... . ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ ، أي : مِن غَيْرِ بَرَصٍ أوْ نَحْوِه مِن الآفاتِ ، فهو احتراس ، وقَوْلُه : ﴿ تَخْرُجْ ﴾ جَوَاب ﴿ أَدْخِلْ يَدَكَ ﴾ . ... . قال المُفسِّرون : كانت على مُوسَى مِدْرَعَة مِن صُوف لا كُم لها ولا إزار ، فأدخلَ يَدَه في جَيْبِه وأخرجها فإذا هي تَبْرُق كالبَرْقِ. وقَوْلُه : ﴿ في تِسْعِ آياتٍ ﴾ ، ... . قال النَّحَّاس : أحسنُ مَا قِيل فِيه أنَّ هذه الآية، يَعْني اليَد داخلة في تِسْع آيات ، وكذا قال المَهْدَوي والقُشَيري . ... . ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ ، قال الفَرَّاء: في الكلام إضمارٌ ، أي : إنَّكَ مَبعوث أوْ مُرْسَل إلى فِرْعَوْن وقَوْمِه ، وكذا قال الزَّجَّاج، ﴿ إنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِين ﴾ ، الجُملة تَعْليل لِمَا قَبْلَهَا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِين ﴾ [الذاريات : ٣٨].

وَجَعَلَ اللَّهُ في قِصَّةِ النَّبِيِّ مُوسَىﷺآيةً وعِبْرَةً حِينَ أرسله إلى فِرْعَوْن بِحُجَّةٍ وَاضحةٍ ودَليلٍ باهر.

وقال القُرطبي في تفسيره (١٧ / ٤٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَى ﴾ ، أي : وَتَرَكْنَا أيضًا في قِصَّة مُوسَى آيةً . ... . ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِين ﴾ ، أي : بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ ، وَهِيَ العَصَا ، وقِيل : أي بالمُعْجِزَاتِ مِنَ العَصَا وغَيْرِها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون ﴾ [الذاريات : ٣٩] .

فأعرضَ فِرْعَوْنُ عَن الإيمانِ بالنَّبِيِّ مُوسَى ﷺ بِجُمُوعِه وأجنادِه وقُوَّتِه وسُلطانِه . أي : أعرضَ عَن الإيمانِ بِمَا كانَ يَتَقَوَّى بِهِ مِن جُنودِه، لأنَّهُم كانوا له كالرُّكْنِ الذي يَعتمد عَلَيه البُنْيَان.والرُّكْنُ : مَا يَرْكَن إلَيْه الإنسانُ مِن مالٍ وجُنْدٍ. وفي الآيةِ: ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ ﴾ استعارةُ الرُّكْنِ للجُنُودِ والجُمُوعِ ، لأنَّه يَحْصُل بِهِم التَّقَوِّي والاعتماد ، كما يُعْتَمَد على الرُّكْنِ في البِنَاءِ ، أو استعارة للقُوَّة والشِّدَّة .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٣٧٨) : ((﴿ فَتَوَلَّى ﴾ فأعرضَ وأدبرَ عَن الإيمانِ ﴿ بِرُكْنِهِ ﴾ أي : بِجَمْعِه وجُنُودِه الذين كانَ يَتَقَوَّى بِهِم كالرُّكْنِ الذي يَقْوَى بِهِ البُنْيَان .

وقال فِرْعَوْنُ اللعين في شَأنِ النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ إنَّه سَاحِرٌ ، ولذلك أتى بهذه الخَوَارِقِ، أوْ مَجْنُون ولذلك ادَّعَى الرِّسالةَ ، وإنَّما قالَ ذلك تَمْوِيهًا على قَوْمِه لا شَكًّا مِنْهُ في صِدْقِ النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ١٢٨) : ((﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ ﴾ ، التَّوَلِّي : الإعراض ، والرُّكْنُ : الجانب . ... . قال الجَوْهَري : رُكْنُ الشَّيْءِ جَانِبُه الأقوى ، وَهُوَ يَأوي إلى رُكْنٍ شديد ، أي : عِز ومَنَعَة . وقال ابنُ زَيْد ومُجَاهِد وغَيْرُهما : الرُّكْنُ : جَمْعُه وجُنُودُه الذين كانَ يَتَقَوَّى بِهِم . ... . وقِيل : الرُّكْنُ : نَفْسُ القُوَّةِ ، وبِه قال قَتَادَة وغَيْرُه . ... . ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون ﴾ ، أي:

قال فِرْعَوْنُ في حَقِّ مُوسَى : هُوَ سَاحِرٌ أوْ مَجْنُون ، فَرَدَّدَ فِيما رَآه مِن أحوال مُوسَى بَيْنَ كَوْنِه ساحرًا أوْ مَجنونًا ، وهذا مِن اللعين مُغالطةٌ وإيهامٌ لِقَوْمِه ، فإنَّه يَعْلَم أنَّ مَا رَآه مِنَ الخَوَارِقِ لا يَتَيَسَّر على يَدِ سَاحِرٍ ، ولا يَفْعَلُه مَن بِه جُنون)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيم ﴾ [الذاريات : ٤٠] .

فأخذَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ معَ أصحابِه وجُنُودِه لإعراضهم عن الإيمان ، فَطَرَحَهُم في البَحْرِ لَمَّا أغْضَبُوه وكَذَّبُوا رَسُولَه مُوسَى ﷺ وفِرْعَوْنُ آتٍ بِما يُلام عَلَيه مِنَ الكُفْرِ والطُّغيان ، أوْ : وَهُوَ مَلُوم كافر جاحد فاجر مُعَانِد . والآيةُ تدلُّ على قُدرةِ اللَّهِ المُطْلَقَةِ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ١٢٨) : ((﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ ، أي : طَرَحْنَاهُم في البَحْرِ . وجُملةُ ﴿ وَهُوَ مُلِيم ﴾ في مَحَلِّ نَصْب على الحَال ، أي: آتٍ بِما يُلام عَلَيه حِينَ ادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ ، وكَفَرَ باللَّهِ ، وطَغَى في عِصْيَانه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ [الحَاقَّة : ٩] .

وجاءَ فِرْعَوْنُ ومَن تَقَدَّمَه مِنَ الأُمَمِ الطاغية التي كَفَرَتْ بِرُسُلِها ، والأُمَمُ الذينَ انقلبتْ بِهِم دِيَارُهُم _ قُرى قَوْمِ لُوط ﷺ _، حَيْثُ جَعَلَ اللَّهُ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ ، أي : بالفَعْلَةِ الخَاطِئَةِ المُنْكَرَةِ ، وهي الكُفْر .

والمُؤتَفِكَاتُ هي المُنْقَلِبَاتُ ، وهي قُرى قَوْم لُوط ﷺ ، التي اقْتَلَعَهَا جِبريلُ ﷺ ، وَرَفَعَهَا عَلى جَنَاحِهِ قُرْبَ السَّمَاءِ ثُمَّ قَلَبَهَا ، وكانت خَمْس قُرى : صَعْبَة ، وصَعْدَة ، وعَمْرَة ، ودُومَا ، وسَدُومُ ، وهي أَعْظَمُها .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٥٣٠) : ((قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ ، قُرِئَ بِكَسْرِ القاف ، أي : ومَن عِندَه مِمَّن في زَمَانِه مِن أتْبَاعِه مِن كُفَّار القِبْط ، وقرأ آخرون بِفَتْحها ، أي : ومَن قَبْلَه مِنَ الأُمَمِ المُشْبِهين له . وقَوْلُه تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ ، وهُم الأُمَم المُكَذِّبُون بالرُّسُلِ ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ ، وهي : التَّكذيب بِما أنزلَ اللَّهُ . قال الربيع : ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ ، أي : بالمَعصية ، وقال مُجَاهِد : بالخطايا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ [المُزَّمِّل : ١٥] .

أرسلَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ إلى أهل مَكَّة، شاهدًا على أعمالهم، يَشهَد عَلَيهم بِكُفْرهم وعِصْيانهم ، أوْ : يَشهَد عَلَيهم يَوْمَ القِيَامة بِمَا صَدَرَ مِنهُم مِنَ الكُفْرِ والعِصْيَان ، أوْ : شاهدًا عَلَيْهِم بالتَّبليغ ،

وإيمانِ مَنْ آمَنَ ، وكُفْرِ مَنْ كَفَرَ ، كما أرسلَ إلى ذلك الطاغية فِرْعَوْن الجَبَّارِ رَسُولًا مِن أُولئك الرُّسُلِ العِظَام (أُولي العَزْم) ، وهو مُوسَى بن عِمْرَان ، عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ . وَلَمْ يُعَيِّنْهُ لأنَّ المَقصود لَمْ يَتَعَلَّقْ بِه .

واللَّهُ يُذكِّرهم بِما حَلَّ بالأُمَمِ الباغية التي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم ، وكَيْفَ عَصَتْ وتَمَرَّدَتْ ، فأنزلَ بها مِن أمْرِه مَا أنزلَ . وقَدْ ضَرَبَ لهم المَثَلَ بِفِرْعَوْن الجَبَّار ، مِن أجْلِ الاتِّعَاظِ والاعتبارِ . والعاقلُ مَن اتَّعَظَ بِغَيْرِه ، ولَمْ يُكَرِّرْ أخطاءَ السابقين وخَطَايَاهُم .

وقال الخازن في تفسيره (٤/ ١٦٩) : ((وإنَّما خُصَّ فِرْعَوْن ومُوسَى بالذِّكْر مِن بَيْن سائر الأُمَم والرُّسُل ، لأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ آذاه أهلَ مَكَّة ، واسْتَخَفُّوا بِه ، لأنَّه وُلِدَ فِيهِم ، كَمَا أنَّ فِرْعَوْنَ ازدرى بِمُوسَى وآذاه ، لأنَّه رَبَّاه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ [المُزَّمِّل : ١٦] .

فَكَذَّبَ فِرْعَوْنُ بالنَّبِيِّ مُوسَى ﷺ ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِه ، وعَصَى أمْرَه ، كَمَا عَصَيْتُم يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ ، وكَذَّبْتُم برسالته ، فأهلكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ إهلاكًا شديدًا فظيعًا خارجًا عَن حُدودِ التَّصَوُّر ، وذلك بإغراقه في البَحْرِ معَ قَوْمِه . وتَعْرِيفُ ﴿ الرَّسُولَ ﴾ لِسَبْقِ ذِكْرِه .

وفي الآيةِ تَنبيهٌ عَلى أنَّه سَيَحِيقُ بِكُفَّارِ مَكَّة مَا حاقَ بِفِرْعَوْن وقَوْمِه ، وهذا تَخويفٌ لهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٤٤٧) : ((﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ الذي أرْسَلْنَاه إلَيه وكَذَّبَه ، ولَمْ يُؤْمِنْ بِما جاءَ بِه . ... . والمَعْنَى : إنَّا أرْسَلْنَا إلَيْكُم رَسُولًا فَعَصَيْتُمُوه كَمَا أرْسَلْنَا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَاه ، ﴿ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ ، أي : شديدًا ثقيلًا غليظًا . والمَعْنَى : عَاقَبْنَا فِرْعَوْنَ عُقوبةً شديدةً غليظةً بالغَرَقِ ، وفيه تَخويفٌ لأهلِ مَكَّة أنَّه سَيَنْزِل بِهِم مِنَ العُقُوبة مِثْلُ مَا نَزَلَ بِه ، وإن اختلفَ نَوْعُ العُقوبة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ [الفَجْر : ١٠] .

وفِرْعَوْنَ الطاغيةُ الجَبَّارُ ذِي الجُنُودِ والجُمُوعِ والجُيُوشِ التي تَشُدُّ مُلْكَه . وقَدْ وُصِفَ بذلك لِكَثرةِ جُنودِه وخِيَامِهم التي يَضْرِبُونها في مَنازلهم ، أوْ لأنَّه كانَ يُعَذِّب الناسَ بالأوتاد . والآيةُ تُوضِّح القُوَّةَ الماديةَ الهائلة لِفِرْعَوْن .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦١٨) : ((﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ ، أي: ذُو الجُنود الذين لَهُم خِيام كثيرة يَشُدُّونها بالأوتاد ، أوْ جَعَلَ الجُنودَ أنفُسَهم أوتادًا لأنَّهُم يَشُدُّون المُلْكَ ، كَمَا تَشُدُّ الأوتادُ الخِيَامَ . وقِيل : كانَ له أوتاد يُعَذِّب الناسَ بِها ، ويَشُدُّهُم إليها)) .

إنَّ الأوتاد هُم الجُنود والجُيوش الذين يُثبِّتون مُلْكَه،ويُقَوُّون شَوكَتَه،ويُنفِّذون أوامرَه في قَمْعِ الناس وتعذيبهم.وكما أنَّ الأوتاد تُثبِّت الخَيْمَةَ أمام العَواصفِ والتَّحديات،فكذلك الجُنود يُثبِّتون حُكْمَه أمامَ كُلِّ المُعَارِضِين. وقِيل: كانَ فِرْعَوْنُ يُعذِّب الناسَ بأن يُوتِّدَ أيْدِيَهُم وأرْجُلَهُم في أوتادٍ مِن حَدِيد.

وعن عبد اللَّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عنه في قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ ، قال : ((وَتَّدَ فِرْعَوْنُ لامْرَأتِهِ أربعةَ أوتاد ، ثُمَّ جَعَلَ عَلى ظَهْرِهَا رَحًى عَظِيمًا حَتَّى مَاتتْ)) [٥١] .

هذه الجريمةُ الشنيعة تُشير إلى عقلية الطاغية فِرْعَوْن الرافضة لِنُور الإيمان ، وقَلْبِه المُظْلِم الذي لا يُقِيم وَزْنًا لرابطة الدَّم ، وجَبَرُوتِه الذي أعْمَاه عن إدراك عَظَمَةِ اللَّهِ وقُدرته المُطْلَقَة ، وكانَ غُرورُ فِرْعَوْن وغَطْرَسته عَامِلَيْن في القضاء عَلَيه ، وصارَ مَضْرِبَ المَثَلِ في الطُّغيان المُوصِل إلى الهَلاك والنهاية الأليمة .

ج ــ امرأةُ فِرْعَوْن (آسِيَة)

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُون ﴾ [القَصَص : ٩] .

وقالتْ زَوجةُ فِرْعَوْن له عَن مُوسَى: هذا الغُلامُ فَرْحَةٌ ومَسَرَّةٌ لِي وَلَكَ ، لَعَلَّنَا نُسَرُّ بِهِ فَيَكُون قُرَّةَ عَيْنٍ لَنَا ، لا تَقْتُلْهُ يَا فِرْعَوْن ، وقَدْ خاطبته بلفظ الجَمْع كَمَا يُخَاطَب الجَبَّارُون تَعظيمًا له لِيُساعدها فِيما تُريد ، عَسَى أن يَنْفَعَنَا في الكِبَرِ ، أوْ نَتَبَنَّاه فَنَجعله لَنَا وَلَدًا تَقَرُّ بِهِ عُيُونُنا . وكانتْ لا تَلِد ، فَاسْتَوْهَبَتْ مُوسَى مِن فِرْعَوْن فَوَهَبَه لها ، وهُم لا يَشْعُرُون أنَّ هَلاكَ فِرْعَوْن وجُنُودِه سَيَكُون عَلى يَدَيْهِ وبسببه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٠٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ الآية ، يَعْني أنَّ فِرْعَوْن لمَّا رَآهُ هَمَّ بقتله خَوْفًا مِن أن يَكُون مِن بَني إسرائيل ، فَشَرَعَتْ امرأتُه آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِم تُخَاصِم عَنْه ، وتَذُبُّ دُونَه وتُحَبِّبُه إلى فِرْعَوْن ، فقالت : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ ، فقالَ فِرْعَوْن : أمَّا لَكِ فَنَعَم ، وأمَّا لِي فلا ، فكانَ كذلك،وهَدَاهَا اللَّهُ بسببه،وأهلكه اللَّهُ عَلى يَدَيه . ... . وقَوْلُه : ﴿ عَسَى أن يَنفَعَنَا ﴾ ، وقَدْ حَصَلَ لها ذلك ، وهَدَاهَا اللَّهُ بِهِ ، وأسكنها الجَنَّةَ بسببه . وقَوْلُه : ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ ، أي : أرادتْ أن تَتَّخِذَه ولدًا وتَتَبَنَّاه ، وذلك أنَّه لَمْ

---

٥١ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٥٦٨) برقم (٣٩٢٩) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

يَكُن لها وَلَد مِنْه . وقَوْلُه تعالى : ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُون ﴾ ، أي : لا يَدْرُون مَا أرادَ اللَّهُ مِنْهُ بالتقاطهم إيَّاه مِنَ الحِكْمَةِ العظيمةِ البالغةِ والحُجَّةِ القاطعة)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ١٩٢) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ ، قال وَهْب : لمَّا وُضِعَ التابوت بَيْنَ يَدَي فِرْعَوْن فَتَحُوه فَوَجَدَ فِيه مُوسَى ، فلمَّا نَظَرَ إلَيه قال : عِبْرَاني مِن الأعداء ، فغاظه ذلك ، وقال : كَيْفَ أخطأ هذا الغُلامُ الذبحَ ؟ ، وكانَ فِرْعَوْنُ قد استنكحَ امرأةً مِن بَنِي إسرائيل يُقَال لها : آسِيَة بِنْت مُزَاحِم ، وكانت مِن خِيَار النِّسَاء ، ومِن بَنات الأنبياء ، وكانتْ أُمًّا للمَسَاكين تَرْحمهم وتَتَصَدَّق عَلَيهم وتُعْطيهم ، قالت لِفِرْعَوْن وهي قاعدة على جَنْبِه : هذا الوليد أكبر مِن ابْنِ سَنَة ، وإنَّما أَمَرْتَ أن يُذبَح الوِلْدَان لهذه السَّنَة ، فَدَعْهُ يَكُنْ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي ولَكَ ، ﴿ لا تَقْتُلُوهُ ﴾ . ورُوِيَ أنَّهَا قالت له : إنَّه أتَانَا مِن أرضٍ أُخْرَى لَيْسَ مِن بَنِي إسرائيل ، ﴿ عَسَى أن يَنفَعَنَا أوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُون ﴾ أنَّ هَلاكَهم على يَدَيْه ، فَاسْتَحْيَاه فِرْعَوْنُ، وألقى اللَّهُ عَلَيه مَحَبَّتَه، وقال لامرأته: عَسَى أن يَنفَعَكِ ، فأمَّا أنا فلا أُريد نَفْعَه. قال وَهْب: قال ابن عباس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ : لَوْ أنَّ عَدُوَّ اللَّهِ قال في مُوسَى كما قالت آسِيَة: عَسَى أن يَنفَعَنَا، لَنَفَعَه اللَّهُ ، ولكنَّه أبى للشَّقَاءِ الذي كَتَبَه اللَّهُ عَلَيه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للذينَ آمَنُوا امرأةَ فِرْعَوْنَ إذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ وَنَجِّني مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالمين ﴾ [التَّحريم : ١١] .

هذا مَثَلٌ إلهيٌّ جليل يُبيِّن عَدَمَ تَضَرُّرِ المُؤمِن الصادق الثابت على الحق مِن قريبه الكافر ، مَهْمَا بَلَغَتْ دَرَجَةُ القَرابة . فقد كانت آسِيَة بِنْت مُزَاحِم زَوْجَةً لِفِرْعَوْن أكبر أعداء اللَّه ، الكافر الخالد في جَهَنَّم ، وهي مُؤمِنة في أعلى دَرَجَات الجَنَّة .

وآسِيَة بِنْت مُزَاحِم (امرأة فِرْعَوْن) كانت مُؤمنةً بالنَّبِيِّ مُوسَى ﷺ ورسالته ، ولَمْ يُؤثِّرْ عليها كَوْنُها زَوْجَةً لِفِرْعَوْن اللعين ، لأنَّ الإيمان قَدْ تَجَذَّرَ في قَلْبها ، ودِينُها راسخ ، وطهارتها مُتماسكة ، وصِلَتها باللَّه وثيقة، فهي تَعْبُده وَحْدَه بلا شريك ، وَتَدْعُوه ، وتَتَوَجَّه إلَيه بإخلاص ويقين ثابتَيْن .

وحِين عَرَفَ فِرْعَوْن بإيمانها ،أمرَ بقتلها، فأنقذها اللَّهُ ،ونجَّاها مِن شَر فِرْعَوْن(زَوْجها الكافر)، ولَمْ تَضُرَّها قَرَابتها مِنْه ، واتِّصَالها به ، وهو زعيم الكافرين ، الذي ادَّعى الأُلُوهِيَّةَ .

وهذا المِثَالُ الإيمانيُّ الباهر يُعْتَبر قُدْوَةً عُظمى لَيْسَ للنِّسَاء فَحَسْب ، بل أيضًا للرِّجَال . فهذه المرأةُ عانتْ مِن كُفر زوجها وظُلْمِه ، لكنَّها بَقِيَتْ قويةً ، ومُتماسكةً ، وثابتةً على الحق ، وراسخة الإيمان رَغْمَ ضَعْفِ الأُنثى ، وبُنيتها العاطفية الرقيقة .

وعلاقةُ امرأة فِرْعَوْن المَتينةُ معَ اللَّهِ تعالى ، جَعَلَتْ مِنهَا قُرآنًا مُقَدَّسًا يُتْلَى إلى يوم القِيامة ، وأُنموذجًا طاهرًا شريفًا خالد الذِّكْر ، وقُدوةً تُحْتَذَى في كُلِّ زمان ومكان إلى الأبد .

إنَّها مِثَال لِشَحْذ الهِمَم ، وحَثِّ النُّفُوس على الصبر في طريق الإيمان ، والثباتِ على الحق ، مَهْمَا كانت المُعاناة والأزمات والتهديد والترهيب والعذاب والعِقاب .

وفي هذا المَثَل الإلهيِّ العظيم دُروس جليلةٌ مِنها : إنَّ مُخالَطة الكافرين لا تَضُرُّ إذا وُجِدَتْ ضَرورة لذلك . وإنَّ اللَّه تعالى لا يُؤَاخِذ شَخْصًا بِذَنْب شخص آخَر ، مَهْمَا كان قريبًا مِنه . فامرأةُ فِرْعَوْن كانت زَوجةً لزعيمِ الكافرين، فَلَمْ تتأثر ، لأنَّها كانت مُؤمنة مُتَمَسِّكة بعلاقتها مع اللَّه تعالى . واللَّهُ حَكَمٌ مُنْصِفٌ وحاكمٌ عادل ، لا يُؤَاخِذ أحَدًا إلا بِذَنْبه . ومَعصيةُ الآخرين لا تَضُرُّ الطائعَ .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ١٦٢) : ((يَقُول تعالى ذِكْرُه : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للذين صَدَّقُوا اللَّهَ ووَحَّدُوه ، امرأةَ فِرْعَوْن التي آمنتْ باللَّهِ ، ووَحَّدته ، وصَدَّقَتْ رسولَه مُوسى ، وهي تَحْت عَدُوٍّ مِن أعداء اللَّه كافر، فَلَمْ يَضُرَّها كُفْرُ زَوْجِها، إذْ كانتْ مُؤمنةً باللَّه ، وكانَ مِن قَضاء اللَّه في خَلْقِه أن لا تَزِرُ وَازرة وِزْرَ أُخْرَى ، وأنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ)) .

إنَّ الآية مَثَلٌ لحال المؤمنين ، فقد يَخرُجون أحيانًا مِن باطن الكُفْرِ والضَّلال ، ولا يَضُرُّهم إذا كان لَدَيهم أقارب مِن الكُفَّار ، وأرحام مِن الضَّالِّين . وهذا الأمرُ لا يُؤَثِّر فيهم ، ولا يُنقِص مِن أجْرِهم وثوابهم ، ولا يَقطَع علاقتهم مع اللَّه تعالى ، فَهُم مُتمسِّكون بالإيمان ، ثابتون على الحق . وقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ هذا المَثَلَ العظيم بامرأة فِرْعَوْن_ رَضِيَ اللَّهُ عنها _، فصارت قُدْوَةً للناس جميعًا .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٥٨) : ((أي : جَعَلَ اللَّهُ حَالَ امرأة فِرْعَوْن مَثَلًا لحال المؤمنين ، تَرغيبًا لهم في الثبات على الطاعة ، والتَّمَسُّك بالدِّين ، والصَّبر في الشِّدة ، وأنَّ صَوْلة الكُفْر لا تَضُرُّهم كما لَمْ تَضُرَّ امرأةَ فِرْعَوْن ، وقَدْ كانت تحت أكفر الكافرين ، وصارتْ بإيمانها باللَّهِ في جَنَّات النَّعيم)) .

﴿ إذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ ﴾ . حِينَ دَعَتْ امرأةُ فِرْعَوْن قائلةً: يا رَب، اجْعَلْ لِي قَصْرًا بِجِوَارِ رحمتك في الجَنَّة. وقَد اختارت الجَارَ قبل الدار . وهذا يدلُّ على إخلاصها للَّه ، فَهِيَ تَطْمَع في جِوَار اللَّهِ قَبْلَ القُصُور . وهذا يدلُّ على إيمانها ويقينها وتصديقها بالبَعْث . وقَد استجابَ اللَّهُ لها ، فَبَنَى لها قَصْرًا في الجَنَّة .

إنَّ دُعاء امرأة فِرْعَوْن _ رَضِيَ اللَّهُ عنها _ : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ ﴾ يَدُلُّ على كَمَالِ عَقْلِها ، وقُوَّةِ إيمانِها ، لأنَّها قَدَّمَتْ ذِكْرَ اللَّهِ على البَيت ، فَلَمْ تَقُل : ابْنِ لِي بيتًا في الجَنَّة

عِندَك ، وإنَّما قالت : ﴿ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ ﴾ ، أي بِجِوَار رحمتك ، أو في أعلى دَرَجَاتِ المُقَرَّبين في الجَنَّة ، فاللَّهُ مُنَزَّهٌ عن المكان ، لا يَحُلُّ في الأشياء ، ولا تَحُلُّ الأشياءُ فيه .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٨/ ١٧٨) : ((قَوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للذينَ آمَنُوا امرأةَ فِرْعَوْنَ ﴾ ، واسْمُها آسِيَة بِنْت مُزَاحِم. ... .وقِيل: هذا حَث للمؤمنين على الصَّبْر في الشِّدة، أي : لا تكونوا في الصَّبْر عِند الشِّدة أضعف مِن امرأة فِرْعَوْن ، حِين صَبَرَتْ على أذى فِرْعَوْن ، وكانت آسِيَة آمنتْ بمُوسى ، وقِيل : هي عَمَّة مُوسَى، آمنتْ به. قال أبو العالية : اطَّلَعَ فِرْعَوْنُ على إيمان امرأته ، فخرج على الملأ ، فقال لهم : مَا تَعْلَمون مِن آسِيَة بِنْت مُزَاحِم ؟ ، فأثنَوْا عليها ، فقال لهم : إنها تَعْبُد ربًّا غَيْري ، فقالوا له: اقْتُلْها . فأوتدَ لها أوتادًا، وشَدَّ يَدَيْها ورِجْلَيْها، فقالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ ﴾ ، ووافقَ ذلك حُضور فِرْعَوْن، فَضَحِكَتْ حين رَأتْ بَيْتَها في الجَنَّة ، فقال فِرْعَوْن : ألا تَعْجَبُون مِن جُنونها !، إنَّا نُعذِّبها وهي تضحك ، فَقَبَضَ رُوحَها)) .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٤٨) : ((ومِن فَضائل آسِيَة امرأة فِرْعَوْن أنها اختارت القَتْلَ على المُلْكِ ، والعذابَ في الدُّنيا على النَّعِيم الذي كانتْ فيه . وكانت فِرَاستها في مُوسَى ــ عليه السلام ــ صادقة ، حين قالت :﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لي ﴾ [القَصَص : ٩])) .

﴿ وَنَجِّني مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ . وأنقِذْني مِن كُفر فِرْعَوْن ، وضَلاله ، وعمله السَّيئ ، فإنِّي أبرأ إلَيْكَ مِن عمله ، ﴿ وَنَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالمين ﴾ . وأنقِذْني من الأقباط (أهل مِصْر) أتْبَاع فِرْعَوْن الكافرين ، وعذابِهم . وقال ابن الجَوْزي في زاد المسير (٨/ ٣١٦) : ((﴿ وَنَجِّني مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ ، فِيه قَولان : أحدهما أنَّ عَمَلَه جِمَاعُه ، والثاني أنَّه دِينُه ، رُوِيَا عن ابن عباس. ﴿ وَنَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالمين ﴾ ، يعني أهلَ دِينه المُشركين)) .

وعن أبي هُرَيرة ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ : أنَّ فِرْعَوْنَ أوْتَدَ لامرأته أربعةَ أوتادٍ في يَدَيْهَا ورِجْلَيْهَا ، فكانَ إذا تَفَرَّقُوا عَنْهَا ، ظَلَّلَتْهَا المَلائكةُ ، فقالتْ : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ وَنَجِّني مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالمين ﴾ ، فَكُشِفَ لَهَا عَن بَيْتِها في الجَنَّةِ [٥٢] .

هذا يُشير إلى شِدَّة العذاب الذي لَقِيَتْهُ امرأةُ فِرْعَوْن ــ رَضِيَ اللَّهُ عنها ــ ، وقُوَّةِ تَحَمُّلها ، وصَبْرها على الألم في سبيل اللَّه ، الذي أكرمها بأن جَعَلَ المَلائكةَ تُظَلِّلُها كَرامةً لها ، مِمَّا يدلُّ

---

٥٢ رواه أبو يعلى (١١/ ٣١٦) برقم (٦٤٣١).وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٥٠) : ((ورجاله رجال الصحيح)). وقال السُّيوطي في الدُّر المنثور (٨/ ٢٢٩):أخرجه أبو يعلى والبَيهقي بسند صحيح .

على وُصولها إلى رُتبة إيمانيَّة سَامِيَة ، نالتها بِفِعْلِ ثَبَاتها على طاعة اللَّه في أصعب الظروف ، وأشد الأزمات النَّفْسِيَّة والجسدية .

وقَدْ صارتْ امرأةُ فِرْعَوْن مَضْرِبَ المَثَل في الصَّبر على الطاعة ، والثبات على العقيدة ، فأضحت _ بذلك _ قُدْوَةً للرجال والنِّسَاء على السَّوَاء . وقَدْ أكرمها اللَّهُ بأن جَعَلَهَا قُرْآنًا يُتلَى آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، وخَلَّدَ ذِكْرَهَا الطَّيب إلى الأبد . وصَدَقَ القائل :

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمِثْلِ هَذِي لَفُضِّلَت النِّسَاءُ على الرِّجَالِ

وقَدْ وَرَدَتْ بعضُ الأوصاف لطريقة تعذيبها ، وصَبْرها على العذاب ، وقُوَّة تَحَمُّلها ، وثباتها على الحق . فعن عبد اللَّه بن مسعود _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ قال : ((وَتَّدَ فِرْعَوْنُ لامْرَأتِهِ أربعةَ أوتادٍ ، ثُمَّ جَعَلَ على ظَهْرِهَا رَحًى عَظِيمًا حَتَّى مَاتَتْ)) [سَبَقَ تَخريجُه] .

وعَن سَلْمَان _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ قال : ((كانت امرأةُ فِرْعَوْنَ تُعَذَّبُ بالشَّمْسِ)) [٥٣] .

إنَّ دُعاء السَّيدة آسِيَة بِنْت مُزَاحِم بأن يُنَجِّيَهَا اللَّهُ مِن فِرْعَوْن وعَمَلِه وقَوْمِه الظالمين ، يدلُّ على رفضها للكافرين وأعمالهم السَّيئة بكل أشكالها ، وهذا يَعكِس حِرْصَها على الإيمان ، والتَّمَسُّك بالحق، والتزامها بالهُدى ، حتى اللحظة الأخيرة، بِدُون تَرَدُّد ولا قلق ولا حَيْرَة ولا شَك.

وقد قال النبيُّ ﷺ : ((إنَّ أفضلَ نِسَاءِ أهْلِ الجَنَّةِ خَدِيجةُ بِنْتُ خُوَيْلِد ، وفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّد، ومَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَان ، وآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأةُ فِرْعَوْن ، مَعَ مَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِن خَبَرِها في القُرْآن، ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ وَنَجِّني مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالمين﴾))[٥٤]

إنَّ ذِكْرُ هؤلاء النِّسَاء على هذا النَّحْو لا يَعْني ترتيبهن حَسَب الأفضلية والمَنزلة في الجَنَّة ، لأنَّ حرف " الواو " لا يُفيد التَّرتيب . والحديثُ يدلُّ على عَظَمَةِ هؤلاء النِّساء ، وقُوَّةِ إيمانهن، وكثرة عبادتهن وطاعتهن للَّه تعالى ، وعلاقتهن المتينة به ، ولا شَك أنَّهُنَّ سَيِّدات النِّسَاء في الدُّنيا والآخِرة .

وهؤلاء النِّسَاءُ العظيمات لَمْ يَصِلْنَ إلى هذه المَكانة السَّامِيَة ، والمَنْزِلة الرفيعة ، إلا بالإيمان باللَّه تعالى ، وإخلاص العبادة له ، والصَّبْر على الشَّدائد ، والثبات على الحق ، والتَّحَلِّي بالأخلاق الفاضلة . وَهُنَّ بذلك يُقَدِّمْنَ المَثَلَ الأعلى والقُدْوَةَ الحَسَنَةَ للنِّسَاء في كُلِّ زمان ومكان .

---

٥٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٥٣٨) برقم (٣٨٣٤) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

٥٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣٩) برقم (٣٨٣٦) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

والمَـرْأةُ الحَريصـةُ على رِضَـا اللَّـه تعـالى ، تَقْتَفِـي آثـارَهُنَّ ، وتَتَشَـبَّه بِهِـنَّ ، بَـدَلًا مِـن التَّشَـبُّه بالمُمَثِّلات والمُطْرِبَات في الشرق والغرب .

لَقَدْ كَرَّمَ اللَّهُ عِبادَه المؤمنين في كُلِّ زَمانٍ ومكان ، رِجَالًا ونِسَاءً ، وقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ الكواملَ ، تَنويهًا بِهِنَّ ، وحَثًّا على الاقتداءِ بِهِنَّ .

" إنَّ أفضلَ نِسَاءِ أهْلِ الجَنَّةِ " ، أي : أعْلَى النِّسَاءِ مِن حَيْثُ شَرَفُ الأصْلِ وجَلالةُ النَّسَب ، معَ رِضَا اللَّهِ عَنْهُنَّ ، وتَقَبُّلِهِنَّ بِقَبولٍ حَسَنٍ ، معَ حِيازةِ جَنَّاتِ النَّعيمِ ، والتفاضلِ على أهْلِ الدُّنيا . والنِّسَاءُ الواصلاتُ إلى مَراتبِ الكَمالِ في الاقتداءِ بِهِنَّ ، وذِكْرِ مَحاسنهنَّ ومَناقبهنَّ ، أرْبَعُ نِسَاءٍ : " خَدِيجةُ بِنْتُ خُوَيْلِد " : زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ ، وأوَّلُ مَن آمنتْ برسالته وصَدَّقَتْهُ ، وكانتْ لَهُ خَيْرَ مُعِينٍ وخَيْرَ سَنَدٍ ، وآوَتْهُ وَمَنَعَتْهُ مِنَ المُشركين بِنَفْسِها وحَسَبِها ومَالِها . " وفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّد " : ابنةُ النَّبِيِّ ﷺ ، وأُمُّ سِبْطَيْه ، وهي بِضْعَةٌ وقِطعةٌ مِن أبيها ، ولها شَرَفُ الأصلِ مِنَ أبيها النَّبِيِّ ﷺ ، ومِن أُمِّهَا خديجة رَضِيَ اللَّهُ عنها ، وزَوْجُها أميرُ المؤمنين عَلِيُّ بن أبي طالب ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ . " ومَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَان " : أُمُّ نَبِيِّ اللَّهِ عِيسَى ﷺ ، الصِّدِّيقةُ على مَا اخْتَبَرَهَا اللَّهُ بِهِ مِنَ الآياتِ بالحَمْلِ بالمَسيحِ دُون زَوْجٍ ، معَ تَحَمُّلها افتراءَ بني إسرائيلَ وإيذاءَهم. " وآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأةُ فِرْعَوْن " : وقَدْ آمنتْ برسالةِ مُوسَى ﷺ مُؤثِرَةً مَا عِندَ اللَّهِ تعالى " مَعَ مَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِن خَبَرِها في القُرْآن " : لَقَدْ خَلَّدَ اللَّهُ ذِكْرَهَا في القُرآنِ الكريم إلى الأبدِ ، تَعظيمًا لشأنها، وتَشريفًا لِقَدْرِها، قالَ اللَّهُ تعالى عن آسِيَة بِنْت مُزَاحِم امرأة فِرْعَوْن : ﴿ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ وَنَجِّني مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالمين ﴾ .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٥٣) : ((هؤلاء الأربعة أفضل حتَّى مِن الحُور العِين ، ولو قال: النِّساء، لَتُوُهِّمَ أن المُراد نِسَاء الدُّنيا فقط (خديجة بنت خُوَيلد) تصغير خالد (وفاطمة بنت مُحمَّد ﷺ). قال الشارح العلقمي : هِيَ وأخُوها إبراهيم أفضل مِن جميع الصَّحْب لِمَا فِيهما مِن البَضْعَة الشريفة، أي: وإن كان الخُلَفَاء الأربعة أفضل مِن حَيث جُموع العُلوم وكثرة المعارف، ونُصرة الدِّين ، (ومَرْيَم بنت عِمران) الصِّدِّيقة بِنَصِّ القُرآن، (وآسِيَة بنت مُزَاحِم امرأة فِرْعَوْن). والثانية والثالثة أفضل مِن الأُولَى والرابعة . والأُولَى أفضل مِن الأخيرة. وفي الثانية والثالثة خِلاف مَشهور، فرجَّح البعضُ تفضيل فاطمة لِمَا فِيها مِن البَضْعَة الشريفة، وبعضُهم مَرْيَم لِمَا قِيل بنُبُوَّتها، ولأنه تعالى ذَكَرَها معَ الأنبياء في القُرآن. قال القرطبي: ظاهر القرآن والأحاديث يَقتضي أن مَرْيَم أفضل مِن جميع نِساء العَالَم مِن حَوَّاء إلى آخر امرأة عليها ... . قال ابن حجر في الفتح : هذا

نَصٌّ صريح في تفضيل خديجة على عائشة ، لا يحتمل التأويل . " تنبيه" سُئِل السُّبكي: هل قال أحد إنَّ أحَدًا مِن نِساء النبيِّ ﷺ غَير خَديجة وعَائشة أفضل مِن فاطمة، فقال: قال بِه مَن لا يُعْتَدُّ بقَوله، وهو ابن حَزْم ، فَضَّلَ نِسَاءَه على جميع الصحابة، لأنهنَّ في درجته في الجَنَّة . قال : وهو قول ساقط مردود ، قال : ونساؤه بعد خَديجة وعَائشة ، مُتساويات في الفَضْل)) .

٢٣_ مُوسَى

أ_ أُمُّ مُوسَى

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أنْ أرْضِعِيهِ فَإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ في اليَمِّ وَلا تَخَافي وَلا تَحْزَني إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِين ﴾ [القَصَص : ٧] .

أوْحَى اللَّهُ إلى أُمِّ مُوسَى بِالهامٍ أوْ مَنَامٍ أن أرْضِعِيهِ مَا أمكنكِ إخفاؤُه ، فإذا خِفْتِ عَلَيه أن يَذبَحَه فِرْعَوْن ، فَاجْعَلِيه في صُندوق ، وألْقِيه في البَحْرِ (النِّيل) ، ولا تَخَافِي عَلَيه مِنَ الغَرَقِ ، ولا تَحْزَني لِفِرَاقِه ، إنَّ اللَّهَ سَيَرُدُّهُ إلَيْكِ عَن قَريب بِحَيْث تأمنين عَلَيه ، ويَجْعَلُهُ رَسُولًا يُرْسِلُه إلى الطاغيةِ فِرْعَوْن لِيُنَجِّيَ بني إسرائيل عَلى يَدَيْه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٠٥) : ((ذَكَرُوا أنَّ فِرْعَوْن لمَّا أكثرَ مِن قَتْلِ ذُكور بَنِي إسرائيل ، خافت القِبْطُ أن يُفْنِيَ بني إسرائيل فَيَلُون هُم ما كانوا يَلُونه مِن الأعمال الشَّاقَّة ، فقالوا لِفِرْعَوْن : إنَّه يُوشِك إن استمرَّ هذا الحال أن يَمُوت شُيُوخُهم ، وغِلْمَانُهم يُقْتَلُون ، ونِسَاؤُهم لا يُمْكِن أن يَقُمْنَ بِما يَقُوم به رِجَالُهم مِن الأعمال ، فَيَخْلُص إلَيْنَا ذلك ، فَأَمَرَ بقتل الوِلْدَان عامًا ، وتَركهم عامًا ، فَوُلِدَ هارون عليه السلام في السَّنَة التي يَتركون فيها الوِلْدَانَ ، وَوُلِدَ مُوسَى في السَّنَة التي يَقْتُلُون فِيها الوِلْدَانَ ، وكانَ لِفِرْعَوْن ناس مُوَكَّلُون بذلك ، وقَوَابِل يَدُرْنَ على النِّسَاء ، فَمَن رَأيْنَهَا قَدْ حَمَلَتْ ، أحْصَوْا اسْمَها ، فإذا كان وقت وِلادتها لا يَقْبَلها إلا نِساء القِبْط ، فإنْ وَلَدَت المَرأةُ جاريةً تركنها وذَهَبْنَ ، وإنْ وَلَدَتْ غُلامًا دَخَلَ أُولئك الذَّبَّاحُون بأيديهم الشِّفَار المُرْهَفَة فَقَتَلُوه ومَضَوْا ، قَبَّحَهم اللَّهُ تعالى . فلمَّا حَمَلَتْ أُمُّ مُوسَى بِه عليه السلام ، لَمْ يَظهر عليها مَخَايِل الحَمْلِ كَغَيْرِها ، ولَمْ تَفْطَن لها الدَّايات ، ولكن لمَّا وَضَعَتْهُ ذَكَرًا ضاقتْ بِهِ ذَرْعًا ، وخافتْ عَلَيه خَوْفًا شديدًا ، وأحَبَّتْهُ حُبًّا زائدًا . وكان موسى عليه السلام لا يَرَاه أحد إلا أحَبَّه ، فالسَّعِيدُ مَن أحَبَّه طَبْعًا وشَرْعًا . ... . فلمَّا ضاقتْ بِهِ ذَرْعًا أُلْهِمَتْ في سِرِّها ، وأُلْقِيَ في خَلَدِهَا ، ونُفِثَ في رُوعِها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أنْ أرْضِعِيهِ فَإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ في اليَمِّ وَلا

تَخَافي وَلا تَحْزَني إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِين ﴾، وذلك أنَّه كانتْ دَارُها على حَافَةِ النِّيلِ، فاتَّخذتْ تابوتًا ، ومَهَّدَتْ فيه مَهْدًا ، وَجَعَلَتْ تُرْضِع وَلَدَها ، فإذا دَخَلَ عَلَيها أحدٌ مِمَّن تَخَافه ، ذَهَبَتْ فَوَضَعَتْهُ في ذلك التابوت ، وسَيَّرَتْهُ في البَحْرِ ، وَرَبَطَتْهُ بِحَبْلٍ عِندها ، فلمَّا كانَ ذات يَوْم ، دَخَلَ عَلَيها مَن تَخَافه ، فَذَهَبَتْ فَوَضَعَتْهُ في ذلك التابوت ، وأرْسَلَتْهُ في البَحْرِ ، وَذَهَلَتْ عَن أن تَرْبِطَه ، فَذَهَبَ معَ الماء ، واحْتَمَلَه ، حَتَّى مَرَّ بِهِ على دار فِرْعَوْن ، فالتقطه الجَوَاري ، فَاحْتَمَلْنَهُ فَذَهَبْنَ بِه إلى امرأة فِرْعَوْن ، ولا يَدْرِينَ مَا فِيه ، وَخَشِينَ أن يَفْتتن عليها في فَتْحِه دُونَها ، فلمَّا كُشِفَ عنه إذا هُوَ غُلام مِن أحْسَنِ الخَلْقِ وأجْمَلِه وأحلاه وأبهاه ، فأوقعَ اللَّهُ مَحَبَّتَه في قَلْبِهَا حِينَ نَظَرَتْ إلَيْه ، وذلك لِسَعادتها وَمَا أرادَ اللَّهُ مِن كَرَامتها وشَقَاوَةِ بَعْلِها)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٢٢٨) : ((﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أنْ أرْضِعِيهِ ﴾ ، أي : أَلْهَمْنَاهَا وقَذَفْنَا في قَلْبِها ، ولَيْسَ ذلك هُوَ الوَحْيَ الذي يُوحَى إلى الرُّسُل . وقِيل : كانَ ذلك رُؤيا في مَنَامِها . وقِيل : كان ذلك بِمَلَكٍ أرْسَلَه اللَّهُ يُعْلِمُها بذلك ، وقَدْ أجمعَ العُلماءُ على أنَّها لَمْ تَكُنْ نَبِيَّةً ، وإنَّما كان إرسال المَلَك إلَيها عِند مَن قالَ بِهِ على نَحْوِ تَكْليم المَلَكِ للأقرعِ والأبرصِ والأعمى ، كما في الحديث الثابت في الصحيحَيْن وغَيْرِهما ، وقَدْ سَلَّمَتْ على عِمْرَان ابن حُصَيْن المَلائكةُ ، كما في الحديث الثابت في الصحيح ، فَلَمْ يَكُنْ بذلك نَبِيًّا ، و " أنْ " في ﴿ أنْ أرْضِعِيهِ ﴾ هِيَ المُفَسِّرَة ، لأنَّ في الوَحْي مَعْنَى القَوْلِ ، ويَجُوز أن تَكُون مَصْدَرِيَّة ، أي : بأن أرْضِعِيه ، ... ، ﴿ فَإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ مِن فِرْعَوْن بأن يَبْلُغَ خَبَرُه إلَيه ، ﴿ فَأَلْقِيهِ في اليَمِّ ﴾ ، وَهُوَ بَحْر النِّيل ، ... ، ﴿ وَلا تَخَافي وَلا تَحْزَني ﴾ ، أي : لا تَخَافي عَلَيه الغَرَق أو الضَّيْعَة ، ولا تَحْزَني لِفِرَاقِه ، ﴿ إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ ﴾ عَن قَرِيبٍ عَلى وَجْه تَكُون بِه نَجَاتُه ، ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِين ﴾ الذينَ نُرْسِلهم إلى العِبَاد)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٣ / ٢٢٤) : ((حكى الأصمعيُّ قال : سَمِعْتُ جَارِيَةً أعرابيَّةً تُنْشِد وتَقُول :

أستغفرُ اللَّهَ لِذَنْبِي كُلِّهِ ... قَتَلْتُ إنسانًا بِغَيْرِ حِلِّهِ

مِثْلَ الغَزَالِ نَاعِمًا في دَلِّهِ ... فانتصفَ الليلُ وَلَمْ أُصَلِّهِ

فَقُلْتُ : قاتلكِ اللَّهُ مَا أفْصَحَكِ ! ، فقالتْ : أوَ يُعَدُّ هذا فَصَاحَة معَ قَوْلِه تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أنْ أرْضِعِيهِ فَإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ في اليَمِّ وَلا تَخَافي وَلا تَحْزَني إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِين ﴾ ، فَجَمَعَ في آيةٍ واحدةٍ بَيْنَ أمْرَيْن ، ونَهْيَيْن ، وخَبَرَيْن ، وبِشَارَتَيْن)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أن رَبَطْنَا عَلى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المُؤمِنين ﴾ [القَصَص : ١٠] .

وأصبحَ قَلْبُ أُمِّ مُوسَى خاليًا مِن ذِكْرِ كُلِّ شَيْءٍ في الدُّنيا إلا مِن ذِكْرِ مُوسَى ، وقِيل : طارَ عَقْلُها مِن فَرْطِ الجَزَعِ والغَمِّ حِينَ سَمِعَتْ بِوُقوعه في يَدِ فِرْعَوْن . وقَدْ كادتْ أن تَكْشِفَ أمْرَه وتُظْهِر أنَّه ابْنُها مِن شِدَّةِ الوَجْدِ والحُزْنِ ، لَوْلا أن ثَبَّتَهَا اللَّهُ وألْهَمَهَا الصَّبْرَ ، لِتَكُونَ مِنَ المُصَدِّقِين بِوَعْدِ اللَّهِ بِرَدِّهِ عَلَيها .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١ / ٢٨٤) : ((﴿ وَأصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾ صِفْرًا مِن العَقْلِ لِمَا دَهَمَهَا مِنَ الخَوْفِ والحَيْرَةِ حِينَ سَمِعَتْ بِوُقوعه في يَدِ فِرْعَوْن . ... . أوْ مِنَ الهَمِّ لِفَرْطِ وُثوقها بِوَعْدِ اللَّهِ تعالى ، أوْ سَمَاعها أنَّ فِرْعَوْن عَطَفَ عَلَيْه وتَبَنَّاه ، ﴿ إن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ ، أنَّهَا كادتْ لِتُظْهِرَ بِمُوسَى ، أي : بِأمْرِه وقِصَّتِهِ مِن فَرْطِ الضَّجَرِ أو الفَرَحِ لِتَبَنِّيه ، ﴿ لَوْلا أن رَبَطْنَا عَلى قَلْبِهَا ﴾ بالصَّبْرِ والثَّباتِ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المُؤمِنين ﴾ مِنَ المُصَدِّقِين بِوَعْدِ اللَّهِ ، أوْ مِن الواثقين بِحِفْظِه لا بِتَبَنِّي فِرْعَوْن وعَطْفِه)) .

وعن ابن عباس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ : قَوْلُه تعالى : ﴿ وَأصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾ ، قال: فارغًا مِن كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِ ذِكْرِ مُوسَى ، ﴿ إن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ ، قال : أن تَقُولَ يَا بُنَيَّاه ، ... [٥٥] .

ب ــ قَوْم مُوسَى

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِين ﴾ [الأعراف : ١٤٨] .

واتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِ ذَهَابِه إلى جَبَلِ الطُّورِ لِمُنَاجَاةِ اللَّهِ تعالى ، مِن حُلِيِّهِم التي بَقِيَتْ في أيديهم مِمَّا استعاروه مِنَ القِبْطِ ، عِجْلًا (وَلَد البَقَرَة) حَيًّا لَحْمًا ودَمًا ، لَهُ صَوْتُ البَقَرِ ، أَلَمْ يَرَ قَوْمُ مُوسَى أنَّ العِجْلَ لا يُكَلِّمُهُم ، ولا يُرشِدهم إلى طريق واضح يَسْلُكُونه ، اتَّخَذُوا العِجْلَ إلَهًا ، وكانوا ظالمين لأنفُسِهِم بِوَضْعِ الشَّيْء في غَيْرِ مَوْضِعِه.إنَّهُم كافرون بِوَضْعِ العِبادةِ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا.

---

٥٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٤٤١) برقم (٣٥٢٩) وَصَحَّحَه ، وقال : وحَسَّان هُوَ ابن عَبَّاد ، قَد احْتَجَّا جميعًا به ، وقال الذهبي : حَسَّان بن أبي عَبَّاد لا يُدْرَى مَن هُوَ .

والاستفهامُ في ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ للتَّقريعِ والتَّوبيخِ ، أي : كَيْفَ عَبَدُوا العِجْلَ واتَّخَذُوه إلَهًا معَ أنَّه لَيْسَ فيه شَيْءٍ مِن صِفات الخالق الرازق ، فإنَّه لا يَمْلِك قُدْرَةَ الكلامِ ، ولا قُدْرَةَ هِدايتهم إلى سَبيلِ السَّعَادةِ فَكَيْفَ يُتَّخَذ إلَهًا ؟ . أَلَمْ يَعْتَبِرُوا بأنَّ هذا الذي اتَّخَذُوه إلَهًا لا يَقْدِر على تَكْليمهم فَضْلًا عَن أن يَقْدِرَ عَلى جَلْبِ نَفْعٍ لَهُم أوْ دَفْعِ ضَرٍّ عَنهُم ؟ .

لَقَدْ عَبَدُوا العِجْلَ واتَّخَذُوه إلَهًا ، فكانوا ظالمين لأنفُسِهِم حَيْثُ وَضَعُوا الأشياءَ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، وتَكريرُ الفِعْل " اتَّخَذُوا " لِمَزيدِ التَّشنيعِ عَلَيهم .

إنَّ قَوْمَ مُوسَى ﷺ كانوا أصحابَ عَقيدةٍ مَهزوزة ، ولا يَتَمَتَّعُون بالرُّسوخِ في الدِّينِ والعِلْمِ ، لذلك سَقَطُوا في فِتْنَةِ عِبَادَةِ العِجْل ، ولَمْ يَلتزموا بالتعاليم السَّمَاوِيَّة التي جاءَ بِها النَّبِيُّ مُوسَى ﷺ ، مِمَّا يدلُّ على اضطرابِ شخصيتهم ، وانعدامِ ثِقتهم بأنفُسِهم ، وتَغَلْغُلِ الوثنية في قُلوبهم ، والتي انعكستْ على سُلوكياتهم وتَصَرُّفاتهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٢٩) : ((يُخْبِر تَعَالى عَن ضَلالِ مَن ضَلَّ مِن بَنِي إسرائيل في عِبادتهم العِجْلَ الذي اتَّخَذَه لَهُم السامريُّ مِن حُلِيِّ القِبْطِ الذي كانوا استعاروه مِنهُم ، فَشَكَّلَ لَهُم مِنْهُ عِجْلًا ، ثُمَّ ألقى فِيه القَبْضَةَ مِن التُّرَابِ التي أخَذَهَا مِن أثَرِ فَرَسِ جِبريل عليه السلام ، فصارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَار ، والخُوَارُ : صَوْتُ البَقَرِ . وكان هذا مِنهُم بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى لِمِيقَاتِ رَبِّهِ تعالى ، فأعْلَمَه اللَّهُ تعالى بذلك وهو على الطُّور . ... . وقَد اختلفَ المُفسِّرون في هذا العِجْلِ هَلْ صارَ لَحْمًا وَدَمًا لَهُ خُوَار ، أو استمرَّ عَلى كَوْنِه مِن ذَهَبٍ إلا أنَّه يَدْخُل فيه الهَوَاء فَيُصَوِّت كالبَقَرِ ؟،عَلى قَوْلَيْن، واللَّهُ أعْلَم. ويُقَال : إنَّهُم لمَّا صَوَّتَ لَهُم العِجْلُ رَقَصُوا حَوْلَه ، وافْتَتَنُوا بِه ، وقالوا : هذا إلَهُكُم وإلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ . ... . وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ ، يُنْكِر تَعَالى عَلَيهِم في ضَلالِهم بالعِجْل ، وذُهُولهم عَن خَالِقِ السَّمَاوات والأرضِ ، وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ ومَلِيكِه ، أنْ عَبَدُوا مَعَهُ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَار ، لا يُكَلِّمُهُم ولا يُرْشِدُهُم إلى خَيْر ، ولكنْ غَطَّى عَلى أعْيُنِ بصائرهم عَمَى الجَهْلِ والضَّلالِ)) .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ٥٩) : ((﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ ﴾ مِن بَعْدِ ذَهَابِه للمِيقَات ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ التي استعاروا مِن القِبْطِ حِينَ هَمُّوا بالخُروجِ مِن مِصْر ، وإضافتها إلَيهم لأنَّها كانتْ في أيديهم أوْ مَلَكُوها بَعْدَ هَلاكهم ، ... ، ﴿ عِجْلًا جَسَدًا ﴾ بَدَنًا ذا لَحْمٍ وَدَمٍ ، أوْ جَسَدًا مِنَ الذَّهَبِ خاليًا مِنَ الرُّوحِ . ونَصْبُه على البَدَلِ ، ﴿ لَهُ خُوَارٌ ﴾ صَوْت البَقَرِ . رُوِيَ أنَّ السامريَّ لمَّا صَاغَ العِجْلَ ، ألقى في فَمِهِ مِن تُرابِ أثَرِ فَرَسِ جِبْرِيل ، فصارَ حَيًّا . وقِيل : صَاغَه

بِنَوْعٍ مِنَ الحِيَلِ ، فَتَدْخُل الرِّيحُ جَوْفَه وتُصَوِّت ، وإنَّما نُسِبَ الاتَّخَاذ إلَيهم وَهُوَ فِعْلُه ، إمَّا لأنَّهُم رَضُوا بِه ، أوْ لأنَّ المُراد اتِّخَاذهم إيَّاه إلَهًا . ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ ، تَقْرِيع عَلى فَرْطِ ضَلالتهم وإخلالهم بالنَّظَر ، والمَعْنَى : أَلَمْ يَرَوْا حِينَ اتَّخَذُوه إلَهًا أنَّه لا يَقْدِر عَلى كلام ، ولا على إرشاد سبيل كآحَادِ البَشَرِ ، حَتَّى حَسِبُوا أنَّه خالقُ الأجسامِ والقُوى والقَدَرِ ، ﴿ اتَّخَذُوهُ ﴾ تَكرير للذَّمِّ ، أي : اتَّخَذُوه إلَهًا ، ﴿ وكَانُوا ظَالِمِين ﴾ وَاضِعِين الأشياءَ في غَيْرِ مَوَاضِعها ، فَلَمْ يَكُن اتِّخَاذُ العِجْل بِدْعًا مِنهُم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُون ﴾ [الأعراف : ١٥٩] .

ومِن بَنِي إسرائيلَ جَماعةٌ مُستقيمون على شريعة اللَّهِ، يَدْعُون إلى الحَقِّ، وبالحَقِّ يَحْكُمُون. أي إنَّهُم يَستقيمون عَلى الحَقِّ ويَعْمَلُون ، وبالحَقِّ يُعْطُون ويَأخُذون ويُنْصِفُون مِن أنفُسِهِم فَلا يَجُورون. وقِيل : يَهْتَدُون ويَستقيمون عَلى الحَقِّ ، وبالحَقِّ يَحْكُمُون ، وبالعَدْلِ يَقُومون .

إنَّ القُرْآنَ حَاكِمٌ مُنْصِفٌ ، فَقَدْ أثبتَ أنَّ قَوْمَ النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ لَيْسُوا سَوَاءً ، بَلْ مِنهُم أُمَّة مُؤمنة تَمتاز بالتَّقْوَى والتزامِ الحَقِّ مَنْهَجًا لا مَحِيد عَنْه . يَدْعُون الناسَ إلى الهِدَاية ، ويَعْدِلُون في الحُكْمِ. وهذه الفِئَةُ ثَبَتَتْ على الصِّرَاطِ المُستقيم ، ورَفَضَت الباطلَ ، لذلك اسْتَحَقَّتْ أن تُمْدَحَ في القُرآن، ويُصبح ذِكْرُها خالدًا إلى يَوْمِ القِيامة ، لأنَّ نَاصِرَ الحَقِّ مَنصورٌ ، والقُرْآنُ يُؤَسِّسُ مَنْهَجَ الإنصافِ في إطلاقِ الأحكامِ ، وإعطاء كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّه .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١ / ٦٦) : ((﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ يَعْنِي مِن بَنِي إسرائيل ، ﴿ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ ﴾ يَهْدُون الناسَ مُحِقِّين أوْ بكلمة الحَقِّ ، ﴿ وَبِهِ ﴾ بالحَقِّ ﴿ يَعْدِلُون ﴾ بَيْنَهُم في الحُكْمِ ، والمُرادُ بها الثابتون على الإيمان ، القائمون بالحَقِّ مِن أهْلِ زَمَانِه ، أتْبَعَ ذِكْرُهم ذِكْرَ أضدادهم على مَا هُوَ عادة القُرْآن ، تَنبيهًا على أنَّ تَعَارُض الخَيْرِ والشَّرِّ وتَزَاحُم أهل الحَقِّ والباطلِ أمْرٌ مُستمِر . وقِيل : مُؤمِنُو أهْلِ الكِتَابِ ، وقِيل : قَوْم وَرَاء الصِّين رَآهُم رسول اللَّه ﷺ لَيْلَةَ المِعْرَاج فآمَنُوا بِه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٧٢) : ((قَوْلُه : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ ، لمَّا قَصَّ اللَّهُ عَلَينا مَا وَقَعَ مِنَ السامريِّ وأصحابِه ، ومَا حَصَلَ مِن بَنِي إسرائيل مِنَ التَّزَلْزُلِ في الدِّينِ ، قَصَّ عَلَينا سُبحانَه أنَّ مِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةً مُخَالِفَةً لأُولئك الذين تَقَدَّم ذِكْرُهم ، وَوَصَفَهُم بأنَّهُم ﴿ يَهْدُونَ بِالحَقِّ ﴾ ، أي : يَدْعُون الناسَ إلى الهِدَايَةِ حَالَ كَوْنِهِم مُتَلَبِّسِين بالحَقِّ ، ﴿ وَبِهِ ﴾ ، أي : بالحَقِّ ﴿ يَعْدِلُون ﴾ بَيْنَ الناسِ في الحُكْمِ . وقِيل : هُمُ الذينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ مِنهُم)) .

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أن يَأتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ المَلائِكَةُ إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إن كُنتُم مُؤمِنِين﴾[البقرة:٢٤٨].

وقالَ لَهُم نَبِيُّهُم لَمَّا طَلَبُوا مِنْهُ حُجَّةً عَلى أنَّ اللَّهَ اصْطَفَى طَالُوتَ ومَلَّكَه عَلَيهِم : إنَّ عَلامَة مُلْكِه واصطفائِه عَلَيكُم ، أن يَرُدَّ اللَّهُ إلَيكُم التابوتَ الذي أُخِذَ مِنكُم. والآيةُ : ﴿ يَأتِيَكُمُ التَّابُوتُ ﴾ مِن مَجَاز الكَلام لأنَّ التابوت يُؤْتَى بِهِ ولا يَأتي.والتابوتُ:صُندوقُ التَّوراةِ الذي كانَ النَّبِيُّ مُوسَى ﷺ إذا قَاتَلَ قَدَّمَه ، فكانتْ تَسْكُن نُفُوس بَنِي إسرائيلَ ولا يَفِرُّون . في التابوتِ السُّكُونُ والطُّمَأنينةُ والوَقَارُ ، فلا تَجْزَع القُلوب ولا تَشُكُّ . وفِيه أيضًا بَقِيَّة مِن آثارِ آلِ مُوسَى وآلِ هَارُون ، وهي عَصَا النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ وثِيَابُه وبعضُ الألواحِ التي كُتِبَتْ فِيها التَّوْرَاة تَحْمِلُه المَلائكة . إنَّ في نُزولِ التابوتِ لَعَلامة واضحة أنَّ اللَّهَ اختاره لِيَكُون مَلِكًا عَلَيكُم إن كُنتم مُؤمنين باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١٧٩) : ((﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أن يَأتِيَكُمُ التَّابُوتُ ﴾ ، وكانَ تابوتًا أنزله اللَّهُ تعالى على آدم عليه السلام فِيه صُوَر الأنبياء عليهم السلام ، كانت بَنُو إسرائيل يَستفتحون بِه عَلى عَدُوِّهم ، فَغَلَبَتْهُمُ العَمالقةُ على التابوت، فلمَّا سَألوا نَبِيَّهُم البَيِّنَةَ على مُلْكِ طالوت ، قال : إنَّ آيةَ مُلْكِه أن يَرُدَّ اللَّهُ تعالى التابوتَ عَلَيكُم، فَحَمَلَت المَلائكةُ التابوتَ حَتَّى وَضَعَتْهُ في دار طالوت ، وقَوْلُه : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَبِّكُمْ ﴾ ، أي : طُمَأنينة . كانتْ قُلُوبُهُم تَطمئِن بذلك ، ففي أيِّ مكان كان التابوت سَكَنُوا هُناك ، وكانَ ذلك مِن أمْرِ اللَّهِ تعالى ، ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ ﴾ ، أي : تَرَكَاه هُمَا ، وكانت البَقِيَّةُ نَعْلَي مُوسَى وعَصَاه وعِمَامَة هَارُون ، وقَفِيزًا مِنَ المَنِّ الذي كان يَنْزِل عَلَيهِم ، ﴿ تَحْمِلُهُ المَلائِكَةُ ﴾ ، أي : التابوت ، ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ ﴾ ، أي: في رُجوعِ التابوت إلَيكُم عَلامَةٌ أنَّ اللَّهَ قَدْ مَلَّكَ طَالُوت عَلَيكُم، ﴿ إن كُنتُم مُؤمِنِين ﴾ ، أي : مُصَدِّقِين)) .

إنَّ التابوت لَهُ مَكَانة عالية ، فَوُجُودُه تَثبيتٌ لِقُلوب بني إسرائيل ، وعلامةٌ باهرة على عَظَمَةِ اللَّهِ وتأييده لأوليائه الصالحين . واللَّهُ رحيمٌ بعباده ، يُساعدهم على الثبات ، ويَنصُرهم إذا لَجَؤُوا إلَيه ، ولا يَتَخَلَّى عن أحبابه وأوليائه مَهْمَا طالَ لَيْلُ الطُّغَاة وزادتْ قُوَّةُ الأعداء .

كَمَا أنَّ احتواء التابوت على بعض آثار مُوسَى وهَارون ـ عَلَيهما الصَّلاة والسَّلام ـ مِن شأنه بَعْث الثِّقَة في النُّفُوس ، ودَفْع الناسِ إلى مُوَاجَهَة الباطِلِ بِكُلِّ إصرارٍ وعزيمة وثبات .

وقال القُرطبي في تفسيره (٣ / ٢٣٦) : ((والتابوتُ كانَ مِن شَأنه فِيما ذُكِرَ أنَّه أنزله اللَّهُ على آدم عليه السلام ، فكانَ عِنده إلى أن وَصَلَ إلى يَعْقُوب عليه السلام ، فكان في بني إسرائيل يَغْلِبُون بِهِ مَن قَاتَلَهُم حَتَّى عَصَوْا فَغُلِبُوا على التابوت ، غَلَبَهُم عليه العمالقة : جالوت وأصحابه ، في قَوْل السُّدي، وسَلَبُوا التابوتَ مِنهُم . قُلْتُ : وهذا أدلُّ دليل على أنَّ العِصْيَان سَبَب الخِذلان، وهذا بَيِّن)) .

٢٤_ قارون

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِين ﴾ [القَصَص : ٧٦].

إنَّ قارون كانَ مِن عَشيرةِ النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ وجَمَاعَتِه ، وقَدْ كانَ ابنَ عَمِّه [٥٦] ، لكنَّه لَمْ يَنتفع بهذه القَرَابة، فَتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ عَلى قَوْمِه ، وَاسْتَعْلَى عَلَيهم بسبب مَا مَنَحَه اللَّهُ مِن الكُنوز والأموالِ ، وأعْطَاه اللَّهُ مِن الأموالِ الوفيرةِ والكُنوزِ الكثيرةِ مَا يَثْقُل عَلى الجَمَاعَةِ أصحابِ القُوَّة حَمْل مفاتيح خزائنه لكثرتها وثِقَلِها فَضْلًا عَن حَمْلِ الخَزائنِ والأموالِ. وإذا كانَ هذا شأن مَفاتيح خزائن الأموال، فَمَا بَالُكَ بالأموالِ نَفْسِها ؟! . والآيةُ تَصويرٌ دقيقٌ لِكَثرةِ أموالِ قارون وثَرَائِه الفاحشِ .

وقال لَهُ المُؤمنون مِن بَني إسرائيل : لا تَبْطَرْ ولا تَأشَرْ ولا تَمْرَحْ ، إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ البَطِرِين الأشِرِين الذين لا يَشكُرون اللَّهَ على إنعامه ، ويَتَكَبَّرُون بأموالهم على عِباد اللَّه تعالى .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٢٠) : ((قَوْلُه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ كانَ ابْنَ عَمِّه، لأنَّه قارون بن يَصْهَر بن قَاهِث بن لاوي بن يَعْقُوب عليه السلام، ومُوسَى بن عِمْرَان ابن قَاهِث . وقال ابنُ إسحاق : كانَ قَارونُ عَمَّ مُوسَى ، كان أخا عِمْرَان ، وهُمَا ابْنَا يَصْهَر ، ولَمْ يَكُن في بني إسرائيل أقرأ للتَّوْرَاة مِن قارون، ولكنَّه نافقَ كما نافقَ السامريُّ ، ﴿ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾

---

٥٦ قال الحافظ في الفتح (٦ / ٤٤٨) : ((فَقَدْ رَوَى ابنُ أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عَبَّاس أنَّه كان ابنَ عَمِّ مُوسَى)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٢٣٩) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ ، أي : مِن عَشيرته . وفي نَسَبِه إلى مُوسَى ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه كانَ ابنَ عَمِّه، رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس، وبه قال عبد اللَّه بن الحارث وإبراهيم وابن جُرَيج. والثاني ابن خالته ، رواه عطاء عن ابن عباس . والثالث أنَّه كانَ عَمَّ مُوسَى ، قاله ابن إسحاق)) .

قِيل : كانَ عَامِلًا لِفِرْعَوْن على بني إسرائيل ، فكانَ يَبْغِي عَلَيهِم ويَظْلِمُهم. وقال قَتَادَة : بَغَى عَلَيهِم بِكَثرةِ المال. وقال الضَّحَّاك : بَغَى عَلَيهِم بالشِّرْك . وقال شَهْر بن حَوْشَب : زادَ طُولَ ثِيَابِه شِبْرًا . وَرُوِّينَا عَن ابن عُمَر أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : " لا يَنظُرُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إلى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاء " . وقِيل : بَغَى عَلَيهِم بالكِبْرِ والعُلُوِّ ، ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ ، هِيَ جَمْع مِفْتَح ، وَهُوَ الذي يُفْتَح به الباب، هذا قَوْل قَتَادَة ومُجَاهِد وجَمَاعَة. وقِيل: مَفَاتِحُه خَزَائِنُه ، كما قال: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، أي : خَزَائِنُه ، ﴿ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ ﴾ ، أي : لَتُثْقِلُهُم وتَمِيل بِهِم إذا حَمَلُوها لِثِقَلِهَا . ... ، واخْتَلَفُوا في عَدَدِ العُصْبَة ، قال مُجَاهِد : مَا بَيْنَ العَشَرَة إلى خَمْسَة عَشَر . وقال الضَّحَّاك عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عنهما : مَا بَيْنَ الثلاثة إلى العَشَرَة ، وقال قَتَادَة : مَا بَيْنَ العَشَرَة إلى الأربعين ، وقِيل : أربعون رَجُلًا ، وقِيل : سَبْعُون . وَرُوِيَ عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عنهما، قال : كانَ يَحْمِل مَفَاتِحَه أربعون رَجُلًا أقوى مَا يَكُون مِن الرِّجَال. وقال جرير عن مَنصور عن خَيْثَمَة قال : وَجَدْتُ في الإنجيلِ أنَّ مفاتيح خزائن قارون وِقْر سِتِّين بَغْلًا مَا يَزِيد مِنها مِفْتَاح على أُصبع ، لِكُلِّ مِفْتَاحٍ كَنْزٌ. ويُقَال: كانَ قارون أيْنَمَا ذَهَبَ يَحْمِل مَعَهُ مَفاتيحَ كُنوزه ، وكانت من حديد ، فلمَّا ثَقُلَتْ عَلَيه جَعَلَهَا مِن خَشَب ، فَثَقُلَتْ ، فَجَعَلَهَا مِن جُلود البَقَر على طُول الأصابع ، وكانتْ تُحْمَل مَعَه إذا رَكِبَ على أربعين بَغْلًا ، ﴿ إذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ ، قال لِقَارُون قَوْمُه مِن بَني إسرائيل : ﴿ لا تَفْرَحْ ﴾ لا تَبْطَرْ ولا تَأشَرْ ولا تَمْرَحْ ، ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِين ﴾ الأشِرِين البَطِرِين الذين لا يَشكُرُون اللَّهَ عَلى مَا أعطاهم)) .

إنَّ قارون لَمْ يُقَدِّر النِّعْمَةَ الإلهيَّة فَحَوَّلَهَا إلى نِقْمَة عَلَيه بسبب عدم شُكْر اللَّهِ تعالى ، وقَدْ نَصَحَه قَوْمُه بعدم التَّكَبُّر والطُّغيان ، فاللَّهُ لا يُحِب البَطِرِين الأشِرِين ، لكنَّه غَرِقَ في ضَلاله ، ولَمْ يَستمع للنُّصْح،فكانتْ نِهايته كارثية،وخَسِرَ نَفْسَه إلى الأبد،وزالَ غِنَاه وسَطْوَتُه وَمَجْدُه الوهمي.

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال : ((لَمَّا أتى مُوسَى قَوْمَه أَمَرَهُم بالزكاة ، فَجَمَعَهُم قَارونُ فقالَ لَهُم : جَاءكم بالصَّلاة ، وجَاءكم بأشياءَ فَاحْتَمَلْتُمُوهَا، فَتَحَمَّلُوا أن تُعْطُوه أموالَكُم ؟ ، فقالوا : لا نَحْتَمِل أن نُعْطِيَهُ أموالَنا ، فَمَا تَرَى ؟ ، فقالَ لَهُم : أرى أن أُرْسِلَ إلى بَغِيِّ بني إسرائيلَ فَنُرْسِلَهَا إلَيه ، فَتَرْمِيَهُ بأنَّه أرادها عَلى نَفْسِها ، فَدَعَا مُوسَى عَلَيهِم ، فأمرَ اللَّهُ الأرضَ أن تُطِيعَه ، فقالَ مُوسَى للأرض : خُذِيهم ، فأخذتهم إلى أعقابهم ، فَجَعَلُوا يَقُولون : يَا مُوسَى يَا مُوسَى ، ثُمَّ قالَ للأرض : خُذِيهم ، فأخذتهم إلى رُكَبِهِم ، فَجَعَلُوا يَقُولون : يَا مُوسَى يَا مُوسَى، ثُمَّ قالَ للأرض: خُذِيهم ، فأخذتهم إلى أعناقهم ، فَجَعَلُوا يَقُولون : يَا مُوسَى يَا مُوسَى ، فقال للأرض : خُذِيهِم ،

فأخذتهم فَغَيَّبَتْهُم ، فأوحى اللَّهُ إلى مُوسَى: يَا مُوسَى، سَأَلَكَ عِبَادي ، وتَضَرَّعُوا إلَيْكَ فَلَمْ تُجِبْهُم، وَعِزَّتي لَوْ أنَّهُم دَعَوْني لأجَبْتُهُم . وذلك قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرضَ ﴾ [القَصَص : ٨١] . خُسِفَ بِهِ إلى الأرضِ السُّفْلَى)) [٥٧] .

لَقَدْ سَيْطَرَ عِشْقُ المالِ على قارون ، فأبى أن يُخْرِجَ الزكاةَ ، ولَمْ يَكْتَفِ بهذا ، بَلْ أيضًا حَرَّضَ قَوْمَه على عدم إخراج الزكاة ، فكان فاسدًا ومُفْسِدًا في آنٍ مَعًا . وقَدْ رَسَمَ خُطَّةً شريرة تَتَمَحْوَر حَوْل اتِّهَام النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ بأنَّه راودَ إحدى البَغَايا عَن نَفْسِها ، وهذا يدلُّ على خُبْثِ قارون ، وقَسْوَةِ قَلْبِه ، وانحرافِه الأخلاقيِّ، فكانَ عاقبته أنَّه خُسِفَ بِهِ وبداره ، فصارَ تحت الأرض بَعْدَ أن كانَ مُتَجَبِّرًا يَختال فَوْقَها مُحْتَقِرًا الآخرين . واللَّهُ تعالى لا تَسْتَفِزُّه مَعَاصِي عِبَادِه ، ولا تَضُرُّه مَعَاصيهم ، ولا تَنفعه طاعاتهم . وَهُوَ سُبحانَه أرْحَمُ بِهِم مِن أُمَّهَاتهم ، وَلَو استغاثوا بِهِ لأغاثهم ، ولَكِنَّهُم سَلَكُوا طريقَ الغَوَاية فَحَقَّ عليهم العذاب . ومَنْ لَجَأ إلى نَفْسِه وَكَلَه اللَّهُ إلَيها ، وخَذَلَه ، وقَضَى عَلَيه ، ومَنْ لَجَأ إلى اللَّهِ فإنَّ اللَّهَ سَيَتَوَلَّاه ويُنْقِذُه مِن كُلِّ الأزماتِ والشَّدائدِ والفِتَنِ .

وصَدَقَ القائل :

وإذا العِنَايةُ لاحَظَتْكَ عُيُونُهَا	نَمْ فالمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أمَانُ
مَن يَتَّقِ اللَّهَ يُحْمَدُ في عَوَاقِبِهِ	وَيَكْفِهِ شَرَّ مَن عَزُّوا ومَن هَانُوا
مَن استجارَ بِغَيْرِ اللَّهِ في فَزَعٍ	فَإنَّ نَاصِرَهُ عَجْزٌ وخِذلانُ
فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِحَبْلِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا	فَإنَّهُ الرُّكْنُ إنْ خَانَتْكَ أركانُ

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الفَسَادَ في الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِين ﴾ [القَصَص : ٧٧] .

واطْلُبْ فِيما أعطاكَ اللَّهُ مِن الأموالِ رِضَى اللَّهِ تعالى ، بِفِعْلِ الحَسَنَاتِ والصَّدَقَاتِ ، ولا تَتْرُكْ أن تَعْمَلَ في الدُّنيا للآخرةِ حَتَّى تَنْجُوَ مِنَ العَذابِ ، لأنَّ حقيقة نصيب الإنسان مِنَ الدُّنيا أن يَعْمَلَ للآخرة،وأحْسِنْ إلى عِبَادِ اللَّهِ كَمَا أحسنَ اللَّهُ إلَيْكَ، ولا تَطْلُب الفَسَادَ في الأرضِ بعملِ المَعَاصي، إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُجْرِمين الذينَ يُفْسِدُون في الأرضِ ولا يُصْلِحُون .

---

٥٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٤٤٣) برقم (٣٥٣٦) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٢٩) : ((قَوْلُه : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أي:اسْتَعْمِلْ مَا وَهَبَكَ اللَّهُ مِن هذا المَالِ الجَزيلِ والنِّعْمَةِ الطائلةِ في طاعة رَبِّكَ ، والتَّقَرُّب إلَيه بأنواع القُرُبَات التي يَحْصُل لَكَ بها الثَّوَاب في الدُّنيا والآخِرَةِ ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ ، أي : مِمَّا أباحَ اللَّهُ فِيها مِن المَآكِلِ والمَشارِبِ والمَلابسِ والمَساكِنِ والمَناكِحِ ، فإنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، ولأهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِزَوْرِكَ (زائرك) عَلَيْكَ حَقًّا ، فآتِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّه ، ﴿ وَأحْسِن كَمَا أحْسَنَ اللَّهُ إلَيْكَ ﴾ ، أي : أحْسِنْ إلى خَلْقِه كَمَا أحسنَ هُوَ إلَيْكَ ، ﴿ وَلا تَبْغِ الفَسَادَ في الأرْضِ ﴾ ، أي : لا تَكُنْ هِمَّتُكَ بِما أنتَ فِيه أن تُفْسِدَ بِهِ في الأرضِ ، وتُسِيءَ إلى خَلْقِ اللَّهِ ، ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِين ﴾)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٢٦٦) : ((﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ ، أي : وَاطْلُبْ فِيما أعطاكَ اللَّهُ مِن الأموالِ الدارَ الآخِرَةَ ، فَأنْفِقْهُ فِيما يَرْضَاه اللَّهُ لا في التَّجَبُّرِ والبَغْي ، ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ ، قال جُمهور المُفسِّرين : وَهُوَ أن يَعْمَلَ في دُنياه لآخِرته ، ونَصِيبُ الإنسانِ عُمُرُه وعَمَلُه الصالحُ . قال الزَّجَّاج : مَعْنَاه : لا تَنْسَ أن تَعْمَلَ لآخِرتك، لأنَّ حقيقة نَصِيب الإنسان مِن الدُّنيا الذي يَعْمَل بِهِ لآخِرته . وقال الحَسَنُ وقَتَادَة: مَعْنَاه: لا تُضَيِّعْ حَظَّكَ مِن دُنياك في تَمَتُّعِكَ بالحَلالِ وطَلَبِكَ إيَّاه ، وهذا ألْصَق بِمَعنى النَّظْمِ القُرْآنِيِّ ، ﴿ وَأحْسِن كَمَا أحْسَنَ اللَّهُ إلَيْكَ ﴾ ، أي : أحْسِنْ إلى عِبَادِ اللَّهِ كَمَا أحسنَ اللَّهُ إلَيْكَ بِمَا أنعمَ بِهِ عَلَيْكَ مِن نِعَمِ الدُّنيا . وقِيل : أطِع اللَّهَ واعْبُدْه كَمَا أنعمَ عَلَيْكَ ، ويُؤَيِّدُه مَا ثَبَتَ في الصَّحِيحَيْن وغَيْرِهما ، أنَّ جِبْرِيلَ سَألَ رسولَ اللَّهِ ﷺ عَن الإحسانِ ، فقال : " أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ ، فَإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإنَّهُ يَرَاك " ، ﴿ وَلا تَبْغِ الفَسَادَ في الأرْضِ ﴾ ، أي: لا تَعْمَلْ فِيها بِمَعَاصِي اللَّهِ ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِين ﴾ في الأرض)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالَ إنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أنَّ اللَّهَ قَدْ أهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْألُ عَن ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُون ﴾ [القَصَص : ٧٨] .

لَمَّا وَعَظَه قَوْمُه رَفَضَ نصيحتهم ، وأجابهم رَدًّا عَلَيهم وتَكَبُّرًا عَن قَبول المَوعظة : إنَّمَا أُعْطِيتُ هذا المَالَ عَلى عِلْمٍ عِندي، وَكُنْتُ بهذا العِلْمِ مُسْتَحِقًّا للمَالِ . وَلَوْلا رِضَا اللَّهِ عَنِّي ومَعْرفته بِفَضْلي واستحقاقي لَهُ مَا أعطاني هذا المَالَ ، وكانَ قَارُون أعْلَمَ بَني إسرائيل بالتَّوراةِ بعد مُوسَى وهارُون عليهما الصلاةُ والسلام . وقَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلى قارون : أَوَلَمْ يَعْلَمْ هذا الأحمقُ المَغرورُ أنَّ اللَّهَ قَدْ أهلكَ مَنْ قَبْلَه مِنَ الأُمَمِ الخاليةِ مَن هُوَ أقوى مِنْهُ بَدَنًا وأكثرُ مالًا ؟! .

وهذا الكلامُ خَارِجٌ مَخْرَجَ التَّقْرِيعِ والتَّوْبيخِ لِقَارُون ، لأنَّه قَدْ قَرَأ التَّوراةَ ، وعَلِمَ عِلْمَ القُرُونِ الأُولَى ، وإهلاك اللَّهِ سُبحانَه لهم .

وَلَوْ كانَ اللَّهُ يُعْطِي الأموالَ لِمَن فِيه فَضْلٌ وخَيْرٌ عِندَه ، وَلِرِضَاه عَنْهُ ، لَمْ يَكُنْ يُهْلِكُ مَن أهلكَ مِن أصحابِ الأموالِ الذينَ كانوا أكثرَ مِن قارون مالًا ، لأنَّ مَن كانَ اللَّهُ عَنْهُ راضيًا فَمُحَال أن يُهْلِكَه اللَّهُ وَهُوَ عنه راضٍ ، وإنَّما يُهْلِك مَن كانَ عَلَيه ساخطًا .

ولا حَاجَة أن يَسأل اللَّهُ الكافرين عَن كَيفيةِ ذُنوبهم وكَمِّيتها ، لأنَّه سُبحانَه عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْء ، ولا يَتَوَقَّف إهلاكُه إيَّاهم على سُؤالهم ، بَلْ مَتَّى حَقَّ عَلَيهم العَذابُ أهْلَكَهُم بَغْتَةً . وهُم يَدْخُلون النارَ بِغَيْرِ حِسَاب ولا سُؤال. وقِيل : لا يُسألون سُؤالَ استعلام، وإنَّما يُسألون سُؤالَ تَقْرِيعٍ وتَوْبيخ.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٢٩) : ((يَقُول تعالى مُخْبِرًا عَن جَوابِ قارون لِقَوْمِه حِينَ نَصَحُوه وأرْشَدُوه إلى الخَيْر : ﴿ قَالَ إنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِندِي ﴾ ، أي : لا أفْتَقِرُ إلى مَا تَقُولون، فإنَّ اللَّهَ تعالى إنَّما أعطاني هذا المالَ لِعِلْمِه بأنِّي أستحقه ، ولمحبته لي ، فتقديرُه : إنَّما أُعْطِيتُهُ لِعِلْمِ اللَّهِ فِيَّ أنِّي أهْلٌ لَهُ ، ... . وقَدْ رُوِيَ عن بعضهم أنَّه أراد ﴿ إنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِندِي ﴾ ، أي : إنَّه كانَ يُعَاني عِلْمَ الكِيمياء ، وهذا القَوْلُ ضعيف ، لأنَّ عِلْمَ الكِيمياء في نَفْسِه عِلْمٌ باطل ، لأنَّ قَلْبَ الأعيانِ لا يَقْدِر أحدٌ عَلَيها إلا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . ... . ولَمْ يَثْبُتْ بطريق شَرْعِيٍّ أنَّه صَحَّ معَ أحد مِن الناس مِن هذه الطريقة التي يَتَعَاطاها هؤلاء الجَهَلَة الفَسَقَة الأفَّاكُون ، فأمَّا مَا يُجْرِيه اللَّهُ سُبحانَه مِن خَرْقِ العوائد على يَدَي بعض الأولياء مِن قَلْب بعض الأعيان ذَهَبًا أوْ فِضَّة أوْ نَحْو ذلك ، فهذا أمْرٌ لا يُنكِره مُسْلِم ، ولا يَرُدُّه مُؤمِن ، ولكن هذا لَيْسَ مِن قَبِيل الصِّنَاعات ، وإنَّما هذا عَن مَشيئة رَبِّ الأرضِ والسَّمَاوات واختيارِه وفِعْلِه ، كَمَا رُوِيَ عن حَيْوَة بن شُرَيْح المِصْرِي رَحِمَه اللَّهُ تعالى أنَّه سأله سائل ، فَلَمْ يَكُن عِندَه مَا يُعْطِيه ، ورأى ضَرورته ، فَأخَذَ حَصَاةً مِن الأرض ، فأجالها في كَفِّه ، ثُمَّ ألقاها إلى ذلك السائل ، فإذا هِيَ ذَهَب أحمر ، والأحاديثُ والآثارُ في هذا كثيرة جِدًّا يَطُول ذِكْرُها.وقال بعضُهم: إنَّ قارون كانَ يَعْرِف الاسمَ الأعظمَ ، فَدَعَا اللَّهُ بِه ، فَتَمَوَّل بسببه ، والصحيح المَعْنَى الأوَّل ، ولهذا قالَ اللَّهُ تعالى رادًّا عَلَيه فِيما ادَّعَاه مِن اعتناء اللَّهِ بِه فِيما أعطاه مِنَ المال : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أنَّ اللَّهَ قَدْ أهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأكْثَرُ جَمْعًا ﴾ ، أي:قَدْ كانَ مَن هُوَ أكثر مِنْه مالًا،ومَا كان ذلك عَن مَحَبَّة مِنَّا له،وقَدْ أهلكهم اللَّهُ معَ ذلك بِكُفْرِهِم وَعَدَمِ شُكْرِهِم ، ولهذا قال : ﴿ وَلا يُسْألُ عَن ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُون ﴾ ، أي : لِكَثرةِ ذُنُوبهم . قال قَتَادَة : ﴿ عَلى عِلْمٍ عِندِي ﴾ عَلى خَيْرٍ عِندي . وقال السُّدي : عَلى عِلْمٍ أنِّي أهْلٌ

لذلك . وقَدْ أجادَ في تفسير هذه الآية الإمامُ عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، فإنَّه قالَ في قَوْلِه : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِندِي ﴾ ، قال : لَوْلا رِضَا اللَّهِ عَنِّي ، ومَعرفته بِفَضْلِي ، مَا أعطاني هذا المالَ، وقرأ: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ الآية . وهكذا يَقُول مَنْ قَلَّ عِلْمُه إذا رَأى مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيه : لَوْلا أنَّه يَستحق ذلك لَمَا أُعْطِيَ)).

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١ / ٣٠٤) : ((﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِندِي ﴾ فُضِّلْتُ بِه عَلى الناس ، واسْتَوْجَبْتُ بِهِ التَّفَوُّقَ عَلَيهم بالجَاهِ والمَالِ ، و ﴿ عَلى عِلْمٍ ﴾ في مَوْضِع الحال ، وَهُوَ عِلْمُ التَّوْرَاة ، وكانَ أعْلَمَهُم بِها . وقِيل : هُوَ الكيمياء ، وقِيل : عِلْم التِّجَارَة والدَّهْقَنَة وسائر المَكَاسِب ، وقِيل : العِلْمُ بِكُنوز يُوسُف ، و ﴿ عِندِي ﴾ صِفَةٌ لَهُ أوْ مُتَعَلِّق بِـ ﴿ أُوتِيتُهُ ﴾ كَقَوْلِكَ : جازَ هَذا عِندي ، أي : في ظَنِّي واعتقادي ، ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ ، تَعَجُّبٌ وَتَوْبِيخٌ عَلى اغتراره بِقُوَّتِه وكَثرةِ مَالِه معَ عِلْمِه بذلك ، لأنَّه قَرَأهُ في التَّوْرَاة ، وَسَمِعَه مِن حُفَّاظِ التواريخ ، أوْ رَد لادِّعَائه للعِلْمِ وتَعَظُّمِه به بِنَفْيِ هذا العِلْمِ عَنْهُ ، أي : أعِندَهُ مِثْلُ ذلك العِلْم الذي ادَّعَى ؟! . وَلَمْ يَعْلَمْ هذا حتى يَقِيَ بِهِ نَفْسَه مَصَارِعَ الهالكين ، ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُون ﴾ سُؤال استعلام ، فإنَّه تَعَالى مُطَّلِع عَلَيها ، أوْ مُعَاتَبَة ، فإنَّهُم يُعَذَّبُون بِهَا بَغْتَةً ، كأنَّه لمَّا هَدَّدَ قَارُونَ بِذِكْرِ إهلاكِ مَن قَبْلَه مِمَّن كانوا أقوى مِنْه وأغنى أكَّدَ ذلك بأنْ بَيَّنَ أنَّه لَمْ يَكُن مُطَّلِعًا على مَا يَخُصُّهُم ، بَل اللَّهُ مُطَّلِع عَلى ذُنوب المُجرمين كُلِّهِم ، مُعَاقِبُهُم عَلَيها لا مَحَالة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ في زِينَتِهِ قَالَ الذينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيم ﴾ [القَصَص : ٧٩] .

لَمْ يَعتبر قارونُ بِنَصيحة قَوْمِه (مُؤمني بني إسرائيل)، بَلْ تَمَادَى في تَكَبُّرِه وغُرُورِه، فَخَرَجَ عَلى قَوْمِه في أظهرِ زِينةٍ وأكْمَلِهَا ، فلمَّا رَآهُ ضُعَفَاءُ الإيمانِ مِمَّن تَخْدَعُهُم الدُّنيا ببريقها ، وتُبْهِرُهُم بِزُخْرُفِهَا ، قالوا _ على مَا هُوَ عادة الناس مِن الرَّغبة _ : يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ هذا الثَّرَاءِ والغِنَى الذي أُعْطِيه قارون . وقَدْ تَمَنَّوْا مِثْلَه لا عَيْنَه حَذَرًا مِنَ الحَسَدِ ، إنَّ قارون لَذُو نَصِيبٍ وَافِرٍ مِنَ الدُّنيا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٣٠) : ((يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَن قارون أنَّه خَرَجَ ذات يَوْم عَلى قَوْمِه في زِينَةٍ عظيمةٍ ، وتَجَمُّلٍ باهرٍ مِن مَراكب وملابس عَلَيه ، وعلى خَدَمِه وحَشَمِه ، فلمَّا رآه مَن يُريد الحياةَ الدُّنيا، ويَمِيل إلى زخارفها وزِينتها تَمَنَّوْا أن لَوْ كانَ لَهُم مِثْلُ الذي أُعْطِيَ ، ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيم ﴾ ، أي : ذُو حَظ وافر مِنَ الدُّنيا)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٢٦٦) : ((﴿ فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ في زِينَتِهِ ﴾ ، ... . وقَدْ ذَكَرَ المُفسِّرون في هذه الزِّينة التي خَرَجَ فِيها رواياتٍ مُختلفة ، والمُرادُ أنَّه خَرَجَ في زِينةٍ انبهرَ لَهَا مَنْ رآها ، ولهذا تَمَنَّى الناظرون إلَيه أن يَكُون لَهُم مِثْلُهَا كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنهُم بِقَوْلِه : ﴿ قَالَ الذينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ زِينَتَهَا : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيم ﴾ ، أي: نصيب وافر مِنَ الدُّنيا . واخْتُلِفَ في هؤلاء القائلين بهذه المَقَالَة ، فَقِيل : هُمْ مِن مُؤمني ذلك الوَقْتِ ، وقِيل: هُمْ قَوْمٌ مِنَ الكُفَّار)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَالَ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إلا الصابرون ﴾ [القَصَص : ٨٠] .

وقالَ لَهُم العُقَلاءُ مِن أهلِ العِلْمِ والفَهْمِ والاستقامةِ:ارْتَدِعُوا وانْزَجِرُوا عَن مِثْلِ هذا الكلام، فَإنَّ جَزَاءَ اللَّهِ لِعِبَادِه المُؤمنين الصالحين أفضلُ وأعظمُ مِمَّا تَرَوْنَ وَتَتَمَنَّوْنَ مِن حَالِ قارون، فلا تَتَمَنَّوْا عَرَضَ الدُّنيا الزائلَ وحُطَامَهَا الفاني الذي لا يَدُوم . ولا يُعْطَى هذه المَرتبة العظيمة والمَنزلة الرفيعة في الآخِرَةِ إلا الصابرون على أمْرِ اللَّهِ تعالى ، أي : الصابرون على الطاعات وعَن المَعَاصي .

و" وَيْلَكَ " : دُعَاء بالهَلاكِ ، اسْتُعْمِلَ للزَّجْرِ عَمَّا لا يُرْتَضَى .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٠٩) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه: وقالَ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ باللَّهِ ، حِينَ رَأَوْا قَارُونَ خَارِجًا عَلَيهم في زِينته ، للذين قالوا : يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارون : وَيْلَكُم اتَّقُوا اللَّهَ وأطيعوه ، فَثَوَابُ اللَّهِ وجَزَاؤُه لِمَن آمنَ بِهِ وَبِرُسُلِه ، وَعَمِلَ بِمَا جاءتْ بِهِ رُسُلُه مِن صَالحاتِ الأعمالِ في الآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا أُوتيَ قَارُون مِن زِينته ومَالِه لقارون.وقَوْلُه: ﴿وَلا يُلَقَّاهَا إلا الصابرون ﴾ يَقُول : ولا يُلَقَّاهَا ، أي : ولا يُوَفَّق لِقِيلِ هذه الكَلِمَةِ ، وَهِيَ قَوْلُه : ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ، والهاء والألف كِنَاية عَن الكَلِمَة ، وقال : ﴿ إلا الصابرون ﴾ ، يَعْنِي بذلك : الذين صَبَرُوا عَن طَلَبِ زِينةِ الحَيَاةِ الدُّنيا ، وآثَرُوا مَا عِنْدَ اللَّهِ مِن جَزيلِ ثَوَابِه عَلى صَالحاتِ الأعمالِ ، عَلى لَذَّاتِ الدُّنيا وشَهَوَاتها ، فَجَدُّوا في طَاعةِ اللَّهِ ، وَرَفَضُوا الحَيَاةَ الدُّنيا)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٢٢٣) : ((﴿ وَقَالَ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ ﴾ ، قال ابنُ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنهما : يَعْني الأحبارَ مِن بَني إسرائيل . وقالَ مُقَاتِل : أُوتُوا العِلْمَ بِما وَعَدَ اللَّهُ في الآخِرَةِ ، قالوا للذينَ تَمَنَّوْا مِثْلَ مَا أُوتيَ قارونُ في الدُّنيا : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ ، يَعْنِي مَا عِندَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ والجَزَاءِ خَيْرٌ ﴿ لِمَنْ آمَنَ ﴾ صَدَّقَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ ، ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ مِمَّا أُوتيَ قَارُون في الدُّنيا ، ﴿ وَلا يُلَقَّاهَا إلا الصابرون ﴾ ، قال مُقَاتِل : لا يُؤْتَاهَا ، يَعْني الأعمالَ الصالحة.

وقال الكَلْبي : لا يُعْطَاهَا في الآخِرَةِ . وقِيل:لا يُؤْتَى هَذه الكَلِمَة، وَهِيَ قَوْلُه : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ ، إلا الصابرون على طاعة اللَّهِ وعَن زِينةِ الدُّنيا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِين ﴾ [القَصَص : ٨١] .

فَجَعَلَ اللَّهُ الأرضَ تَغُور بِقَارُون وكُنُوزِه جَزَاءً عَلى كُفْرِه وتَكَبُّرِه وغُرُورِه،فَمَا كانَ لَهُ أَحَدٌ مِن الأنصارِ والأعوانِ يَدْفَعُون عَنْهُ عَذابَ اللَّهِ تعالى ، ومَا كانَ مِنَ المُنْتَصِرِين بِنَفْسِه ، بَلْ كانَ مِنَ الهالكين .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٣ / ٢٨١) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ ، قالَ مُقَاتِل : لمَّا أَمَرَ مُوسَى الأرضَ فابتلعته قالتْ بَنُو إسرائيل : إنَّما أهلكه لِيَرِثَ مَالَه ، لأنَّه كانَ ابْنَ عَمِّه، أخِي أبيه، فَخَسَفَ اللَّهُ تعالى بِهِ وبداره الأرضَ وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام، فأوحى اللَّهُ إلى مُوسَى إنِّي لا أُعِيد طاعةَ الأرض إلى أحَد بَعْدَكَ أبدًا ، يُقَال : خَسَفَ المَكَانُ يَخْسِفُ خُسُوفًا ذَهَبَ في الأرضِ ، وَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الأرضَ خَسْفًا ، أي: غَابَ بِهِ فِيها، ومِنْهُ قَوْلُه تَعَالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ ، وَخَسَفَ هُوَ في الأرضِ وَخُسِفَ بِهِ ، وخُسُوفُ القَمَرِ كُسُوفُه . قال ثَعْلَب : كَسَفَت الشمسُ وخَسَفَ القَمَرُ ، هذا أجْوَد الكلام . والخَسْفُ : النُّقْصَان . يُقَال : رَضِيَ فُلان بالخَسْفِ ، أي : بالنَّقِيصَة ، ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ ﴾ أي:جَمَاعَة وَعِصَابَة ، ﴿ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِين ﴾ لِنَفْسِه ، أي : المُمتنعين فِيما نَزَلَ بِهِ مِنَ الخَسْفِ ، فَيُرْوَى أنَّ قارون يَسْفُل كُلَّ يَوْمٍ بِقَدْرِ قَامَةٍ ، حَتَّى إذا بَلَغَ قَعْرَ الأرضِ السُّفْلَى نَفَخَ إسرافيلُ في الصُّور)) .

وهذه هي النهايةُ الأليمة لقارون الذي غَرِقَ في النِّعَمِ ، ونَسِيَ المُنْعِمَ ، وَجَعَلَ أموالَه طريقًا للكُفْرِ والتَّكَبُّرِ والغُرورِ والخُيَلاء . ولا شَكَّ أنَّ القَناعة كَنْزٌ لا يَفْنَى ، ومَنْ لَمْ تُشْبِعْهُ القَنَاعَةُ لَمْ يَكْفِهُ مُلْكُ قارون . وَصَدَقَ القائل :

هِيَ القَنَاعَةُ لا تَبْغِي بِهَا بَدَلًا ... فِيها النَّعِيمُ وفِيها رَاحَةُ البَدَنِ
انظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنيا بِأجْمَعِهَا ... هَلْ رَاحَ مِنها بِغَيْرِ القُطْنِ والكَفَنِ ؟

٢٥_ سَبَأ ومَلِكَتُهُم بَلْقِيس

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِين ﴾ [النَّمْل : ٢٢] .

أقامَ الهُدْهُدُ زَمَنًا يسيرًا ثُمَّ جاءَ إلى النَّبِيِّ سُلَيمان ﷺ ، فقالَ : اطَّلَعْتُ عَلى مَا لَمْ تَطَّلِعْ عَلَيه ، وَعَرَفْتُ مَا لَمْ تَعْرِفْهُ . والإحاطةُ : العِلْمُ بالشَّيْءِ مِن جَميعِ جِهَاتِه ، يَقُول : عَلِمْتُ مَا لَمْ تَعْلَمْ ، وبَلَغْتُ مَا لَمْ تَبْلُغْهُ أنتَ ولا جُنُودُك ، وَأَتَيْتُكَ مِن مَدِينةِ سَبَأ باليَمَنِ بِخَبَرٍ هام صادق لا شَكَّ فيه . وسَبَأ هُمْ حِمْيَر ، وهُم مُلوك اليَمَن .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١/ ٢٦٣) : ((﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ زَمَانًا غَيْرَ مَدِيد ، يُريد بِه الدَّلالةَ على سُرعة رُجوعه خَوْفًا مِنْهُ ، ﴿ فَقَالَ أحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ ، يَعْنِي حَالَ سَبَأ . وفي مُخاطبته إيَّاه بذلك تَنبيهٌ لَهُ على أنَّ في أدنى خَلْقِ اللَّهِ تعالى مَنْ أحاطَ عِلْمًا بِمَا لَمْ يُحِطْ بِه ، لِتَتَحاقَرَ إلَيه نَفْسُه ، ويَتَصَاغَر لَدَيْه عِلْمُه ، ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأ بِنَبَأ يَقِين ﴾ بِخَبَرٍ مُتَحَقِّق . رُوِيَ أنَّه عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ لمَّا أتَمَّ بِنَاءَ بَيْتِ المَقْدِسِ ، تَجَهَّزَ للحَجِّ ، فَوَافَى الحَرَمَ ، وأقامَ بِها مَا شاءَ ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إلى اليَمَنِ ، فَخَرَجَ مِن مَكَّةَ صَبَاحًا ، فَوَافَى صَنْعَاءَ ظَهِيرَةً ، فأعجبته نَزَاهَةُ أرضها ، فَنَزَلَ بِها ، ثُمَّ لَمْ يَجِد المَاءَ ، وكانَ الهُدْهُدُ رَائِدَه ، لأنَّه يُحْسِن طَلَبَ المَاءِ ، فَتَفَقَّدَه لذلك فَلَمْ يَجِدْهُ إذْ حَلَّقَ حِينَ نَزَلَ سُلَيمان فَرَأى هُدْهُدًا واقعًا، فانحطَّ إلَيه ، فَتَوَاصَفَا وطارَ مَعَه لِيَنظر مَا وُصِفَ لَه، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ العَصْر ، وحكى مَا حكى ، ولعلَّ في عجائب قُدرة اللَّهِ ومَا خَصَّ بِهِ خَاصَّةَ عِبَادِه أشياء أعظم مِن ذلك يَستكبرها مَن يَعْرِفُها ، ويَستنكرها مَن يُنكِرها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنِّي وَجَدتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيم ﴾ [النَّمْل : ٢٣] .

قالَ الهُدْهُدُ : إنِّي وَجَدتُ امرأةً (اسْمُها بَلْقِيس) مَلِكَةً لَهُم ، يَدِينُون بالطاعةِ لها ، وَأُعْطِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الأشياءِ التي يَحتاج إلَيها المُلوكُ مِن أسبابِ الدُّنيا مِن سَعَةِ المَالِ وكَثرةِ الرِّجَالِ وَوَفْرَةِ السِّلاحِ والعَتَادِ، ولَهَا سَريرٌ كبيرٌ مُكَلَّل بالدُّرِّ والياقوتِ .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ٥٠٩) : ((يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَن قِيل الهُدْهُد لِسُلَيْمَان مُخْبِرًا بِعُذره في مَغِيبه عَنْهُ : ﴿ إنِّي وَجَدتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ ، يَعْنِي تَمْلِكُ سَبَأ ، وإنَّما صارَ هذا الخَبَرُ للهُدْهُد عُذرًا ، وحُجَّةً عِند سُلَيْمَان ، دَرَأ بِهِ عَنْهُ مَا كانَ أُوعِدَ بِه ، لأنَّ سُلَيْمَان كان لا يَرَى أنَّ في الأرضِ أحَدًا لَهُ مَملكة مَعَه، وكانَ معَ ذلك ﷺ رَجُلًا حُبِّبَ إلَيه الجِهَاد والغَزْو ، فلمَّا دَلَّهُ الهُدْهُدُ عَلى مُلْكٍ بِمَوْضِع مِن الأرض هُوَ لِغَيْرِه ، وقَوْم كَفَرَة يَعْبُدُون غَيْرَ اللَّهِ ، لَهُ في جِهَادهم وغَزْوهم الأجرُ الجزيل ، والثوابُ العظيم في الآجِلِ ، وضَم مَملكة لِغَيْرِه إلى مُلْكِه حَقَّتْ للهُدْهُد المَعذرة ، وصَحَّتْ لَهُ الحُجَّة في مَغِيبه عَن سُلَيْمَان . وقَوْلُه : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، يَقُول :

وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْء يُؤْتَاه المَلِكُ في عَاجِل الدُّنيا مِمَّا يَكُون عِندَهم مِنَ العَتَادِ والآلَةِ . ... . وقَوْلُه : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيم ﴾ ، يَقُول : ولها كُرْسِيٌّ عَظِيم ، وعُنِيَ بالعَظِيمِ في هَذا المَوْضِع : العَظِيمُ في قَدْرِه ، وَعِظَمُ خَطَرِه ، لا عِظَمُه في الكِبَرِ والسَّعَةِ)) .

وقَد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ تَمْلِكُهُم امْرَأَةٌ)) [٥٨] .

وفي صحيح البُخاري (٤/ ١٦١٠) أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أمْرَهُم امْرَأَةً)).

لَن يَفُوزوا بما يَطْلُبُون إذا وَلَّوْا ومَلَّكُوا أمْرَهم امرأةً ، وذلك لِنَقْصِ المَرْأةِ وعَجْزِها،والوالي والأميرُ مَأمورٌ بالظُّهُورِ للقِيَامِ بأُمُور رَعِيَّتِه، والمَرأةُ لا تَصْلُح لذلك ، فلا يَصِحُّ أن تُوَلَّى الإمَامَةَ ولا القَضَاءَ .

وقال المباركفوري في تُحفة الأحوذي (٦ / ٤٤٧) : (((لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أمْرَهُم امْرَأَةً) قال الخَطَّابي في الحديث: إنَّ المَرْأة لا تَلِي الإمَارَةَ ولا القَضَاءَ، وفِيه أنَّها لا تُزَوِّج نَفْسَهَا ولا تَلِي العَقْدَ عَلى غَيْرِها، كذا قال، وَهُوَ مُتَعَقَّب.والمَنْعُ مِن أن تَلِي الإمَارَةَ والقَضَاءَ قَوْلُ الجُمهور، وأجازه الطبري ، وهي رِوَاية عن مالك وعن أبي حَنِيفة عَمَّا تَلِي الحُكْمَ فِيما تَجُوز فِيه شَهَادَة النِّسَاء)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَجَدتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ للشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُون ﴾ [النَّمْل : ٢٤] .

وَجَدَ الهُدْهُدُ بَلْقِيسَ مَلِكَةَ سَبَأ وقَوْمَهَا مَجُوسًا يَعْبُدُون الشمسَ ، ويَتركون عِبَادَةَ اللَّهِ الوَاحِدِ الأحَدِ ، وحَسَّنَ لَهُمُ إبليسُ عِبَادَتَهُم للشمسِ وسُجُودَهم لها مِن دُون اللَّهِ ، فَمَنَعَهُم بسبب هذا الضَّلال عَن طَرِيقِ الحَقِّ والصَّوَابِ ، فَهُم بسبب إغواء الشَّيطان لا يَهْتَدُون إلى اللَّهِ وتَوْحِيدِه . ومَا لَيْسَ بسبيل التَّوْحيد فَلَيْسَ بسبيل يُنْتَفَع بِهِ على التَّحقيق .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ٥٠٩) : ((قَوْلُه : ﴿ وَجَدتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ للشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، يَقُول : وَجَدتُ هذه المَرْأةَ مَلِكَةَ سَبَأ، وقَوْمَهَا مِن سَبَأ، يَسْجُدون للشمس فَيَعْبُدونها مِن دُون اللَّه.وقَوْلُه: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أعْمَالَهُمْ ﴾ ، يَقُول:وحَسَّنَ لَهُم إبليسُ عِبَادَتَهُم الشمس، وسُجُودَهم لها مِن دُون اللَّه،وحَبَّبَ ذلك إلَيهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾، يَقُول:فَمَنعهم بتزيينه ذلك لهم أن يَتَّبِعُوا الطريقَ المُستقيم،وَهُوَ دِين اللَّهِ الذي بَعَثَ بِهِ أنبياءَه،ومَعْنَاه:فَصَدَّهُم عَن سبيل الحَقِّ ﴿ فَهُمْ لا يَهْتَدُون ﴾ يَقُول: فَهُمْ لِمَا قَدْ زَيَّنَ لَهُم الشَّيطانُ مَا زَيَّنَ مِن السُّجودِ للشَّمْسِ مِن دُون اللَّهِ والكُفْرِ به،لا يَهتدون لِسَبيلِ الحَقِّ ولا يَسْلُكُونه،ولَكِنَّهم في ضَلالهم الذي هُم فِيه يَتَرَدَّدُون)).

---

٥٨ رواه الحاكم في المستدرك (٤ / ٣٢٤) برقم (٧٧٩٠) وَصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ١٩٠) : ((﴿ وَجَدتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ للشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، أي : يَعْبُدُونها مُتجاوزين عِبَادَةَ اللَّهِ سُبحانَه . قِيل : كانوا مَجُوسًا ، وقِيل : زَنَادِقَة ، ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أعْمَالَهُمْ ﴾ التي يَعْمَلُونها ، وهِيَ عِبَادَةُ الشمسِ ، وسائرُ أعمالِ الكُفْرِ ، ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ ، أي : صَدَّهُمُ الشَّيطانُ بسبب ذلك التَّزْيين عن الطريق الواضح ، وَهُوَ الإيمانُ باللَّهِ وتَوْحِيدُه ، ﴿ فَهُمْ لا يَهْتَدُون ﴾ إلى ذلك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُور ﴾ [سَبَأ : ١٥] .

لَقَدْ كانَ لِقَوْمِ سَبَأ في مَوْضِع سُكناهم باليَمَنِ آيةٌ عظيمةٌ دَالَّة على قُدرةِ اللَّهِ تعالى ، حَدِيقتان عَظِيمتان فِيهما مِن كُلِّ أنواعِ الفَوَاكِهِ والثِّمَارِ، عَن يَمِينِ الوادي بساتين ناضرة، وعن شِمَاله كذلك، كُلُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وإنعَامِه ، واشكُروا رَبَّكُم عَلى هَذه النِّعَم ، هَذه بَلْدَتُكُم التي تَسْكُنُونها بَلْدَةٌ طَيِّبة ، كريمةُ التُّربة ، حَسَنَةُ الهَوَاءِ ، كثيرةُ الخَيْرَات ، ورَبُّكُم الذي رَزَقَكُم وأمَرَكُم بِشُكْرِه رَبٌّ غَفُورٌ لِمَن شَكَرَه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٤٥٤) : ((﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأ ﴾ ، المُرادُ بِسَبَأ القَبيلة التي هي مِن أولاد سَبَأ ، وَهُوَ سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطَان بن هُود . ... . وقَرَأ الجُمهورُ: ﴿ مَساكنهم ﴾ على الجَمْع ، واختارَ هذه القِرَاءَةَ أبو عُبَيد وأبو حاتم ، ووَجْهُ الاختيار أنَّها كانتْ لَهُم منازل كثيرة ومساكن مُتَعَدِّدَة ، وقَرَأ حَمْزَة وحَفْص بالإفراد معَ فَتْحِ الكاف ، وقَرَأ الكِسَائيُّ بالإفراد مع كَسْرِها ، وبهذه القراءة قرأ يَحيى بن وَثَّاب والأعمش ، ووَجْهُ الإفرادِ أنَّه مَصْدَر يَشْمَل القليلَ ، والكثيرَ ، أوْ اسْم مَكَان ، وأُرِيدَ بِهِ مَعْنَى الجَمْع ، وهذه المَسَاكِنُ التي كانت لَهُم هي التي يُقَال لها الآن مَأرِب ، وبَيْنَهَا وبَيْنَ صَنْعَاء مسيرة ثلاث لَيَالٍ . ومَعنى قَوْلِه : ﴿ آيَةٌ ﴾ أي : عَلامَة دَالَّة على كَمَالِ قُدرةِ اللَّهِ ، وبَدِيعِ صُنْعِه ، ثُمَّ بَيَّنَ هذه الآيةَ ، فقال : ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ ، وارتفاعُهما على البَدَلِ مِن ﴿ آيَةٌ ﴾ ، قاله الفَرَّاء ، أوْ عَلى أنَّهما خَبَر مُبْتَدَأ مَحذوف ، قاله الزَّجَّاج ، أوْ على أنَّهما مُبْتَدَأ ، وخَبَرُه : ﴿ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ ، واختارَ هذا الوَجْهَ ابنُ عَطِيَّة ، وفيه أنَّه لا يَجُوز الابتداءُ بالنَّكِرَة مِن غَيْرِ مُسَوِّغ. ... . وهاتان الجَنَّتَان كَانَتَا عَن يَمِين وَادِيهم وشِمَالِه، قَدْ أحاطتا بِهِ مِن جِهَتَيْه ، وكانتْ مَسَاكِنُهُم في الوادي ، والآيةُ هي : الجَنَّتَان ، كانت المَرْأةُ تَمْشِي فِيهما ، وعلى رَأسِها المِكْتَلُ ، فَيَمتلئ مِن أنواع الفَوَاكِه التي تتساقط مِن غَيْرِ أن تَمَسَّهَا بيدها . وقال عبد الرحمن بن زيد : إنَّ الآية التي كانت لأهل سَبَأ في مَسَاكنهم أنَّهُم لَمْ يَرَوْا فِيها بَعُوضَةً ولا

ذُبَابًا ولا بُرْغُوثًا ولا قَمْلَةً ولا عَقْرَبًا ولا حَيَّةً ولا غَيْر ذلك مِنَ الهَوَامِّ ، وإذا جاءهم الرَّكْبُ في ثِيابهم القَمْل ماتتْ عِند رُؤيتهم لِبُيوتهم . قال القُشَيري : ولَمْ يُرِدْ جَنَّتَيْن اثنَتَيْن ، بَلْ أرادَ مِنَ الجِهَتَيْن يَمْنَةً ويَسْرَةً في كُلِّ جِهَة بساتين كثيرة ، ﴿ كُلُوا مِن رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ ، أي : قِيل لَهُم ذلك ولَمْ يَكُنْ ثَمَّ أمْر ، ولكن المُراد تَمْكينهم مِن تِلْك النِّعَم . وقِيل : إنَّها قالتْ لَهُم المَلائكةُ ، والمُرادُ بالرِّزْقِ هُوَ ثِمَار الجَنَّتَيْن . وقِيل : إنَّهُم خُوطِبُوا بذلك على لِسَانِ نَبِيِّهِم ، ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ عَلى مَا رَزَقَكُم مِن هَذه النِّعَمِ ، واعْمَلُوا بطاعته ، واجتنبوا مَعَاصيه . وجُملةُ : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُور ﴾ مُسْتَأنَفَة لِبَيَانِ مُوجِب الشُّكْر . والمَعنى : هَذه بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ لِكَثرةِ أشجارِها ، وَطِيبِ ثِمَارها ، وقِيل : مَعنى كَوْنِها طَيِّبة: أنَّها غَيْر سَبَخَة ، وقِيل : لَيْسَ فِيها هَوَام . وقال مُجَاهِد : هِيَ صَنْعَاء ، ومَعنى ﴿ وَرَبٌّ غَفُور ﴾ أنَّ المُنْعِمَ عَلَيهم رَبٌّ غَفُور لِذُنوبهم . قالَ مُقَاتِل : المَعنى : وَرَبُّكُم إنْ شَكَرْتُم فِيما رَزَقَكُم رَبٌّ غَفُور للذُّنُوب. وقِيل: إنَّما جَمَعَ لَهُم بَيْنَ طِيبِ البَلْدَةِ والمَغفرةِ للإشارةِ إلى أنَّ الرِّزْقَ قَدْ يَكُون فِيه حَرَام)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِن سِدْرٍ قَلِيل ﴾ [سَبَأ : ١٦] .

فَأَعْرَضُوا عَن طَاعةِ اللَّهِ وشُكْرِه ، واتِّبَاعِ أوامرِ رُسُلِه ، فأرسلَ اللَّهُ عَلَيْهِم السَّيْلَ المُدَمِّرَ المُخَرِّب الذي لا يُطَاق لِشِدَّتِه وكَثْرَتِه ، فأغرقَ بَساتينَهم ودُورَهم ، وأبْدَلَهُمُ اللَّهُ بِتِلْك البَسَاتين الغَنَّاءِ بساتين قاحلة جَرْداء ، ذَات أُكُلٍ مُرٍّ بَشِع ، وشَيْءٍ مِنَ الأشجارِ التي لا يُنْتَفَع بِثَمَرِهَا كَشَجَرِ الأثْلِ والسِّدْرِ .

والجَدِيرُ بالذِّكْرِ أنَّ تَسْمِيَة البَدَلِ " جَنَّتَيْن " فِيه ضَرْبٌ مِنَ التَّهَكُّم ، لأنَّ الأثْلَ والسِّدْرَ ومَا كانَ فِيه خَمْط لا يُسَمَّى جَنَّةً ، لأنَّها أشجار لا يَكَاد يُنْتَفَع بِها ، وإنَّما جاء التَّعبير على سبيل المُشَاكَلَة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٧٠٠) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أي: عَن تَوْحِيدِ اللَّهِ وعِبَادَتِه وشُكْرِه عَلى مَا أنعمَ بِهِ عَلَيهِم،وعَدَلُوا إلى عِبادةِ الشَّمْسِ مِن دُون اللَّهِ ، ...، وقَوْلُه تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ ﴾ ، المُرَادُ بالعَرِمِ المِيَاهُ . وقِيل : الوادي ، وقِيل : الجُرَذ ، وقِيل : المَاء الغزير ، فَيَكُون مِن باب إضافة الاسمِ إلى صِفته ، مِثْل : مَسْجِد الجامع ، وسعيد كرز ، حَكَى ذلك السُّهَيلي . وذَكَرَ غَيْرُ واحد مِنهُم ابنُ عَبَّاس ووَهْب بن مُنَبِّه وقَتَادَة والضَّحَّاك : أنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لمَّا أرادَ عُقُوبَتَهُم بإرسال العَرِمِ عَلَيْهِم ، بَعَثَ على السَّدِّ دَابَّةً مِنَ الأرضِ ، يُقَال لها

الجُرَذ ، نَقَبَتْهُ . قال وَهْب بن مُنَبِّه : وقَدْ كانوا يَجِدُون في كُتُبِهم أنَّ سبب خراب هذا السَّدِّ هو الجُرَذ ، فكانوا يَرْصُدُون عِنده السَّنانير بُرْهَةً مِنَ الزَّمَنِ ، فلمَّا جاءَ القَدَرُ، غَلَبَت الفَأرُ السَّنانيرَ ، وَوَلَجَتْ إلى السَّدِّ فَنَقَبَتْهُ ، فانهارَ عَلَيْهِم . وقال قَتَادَة وغَيْرُه : الجُرَذُ هُوَ الخُلْد نَقَبَتْ أسَافِلَه ، حتى إذا ضَعُفَ وَوَهَى ، وجاءتْ أيامُ السُّيول ، صَدَمَ المَاءُ البِنَاءَ فَسَقَطَ، فانسابَ المَاءُ في أسفلِ الوادي ، وخَرَّبَ مَا بَيْنَ يَدَيه مِنَ الأبنيةِ والأشجارِ وغَيْر ذلك ، وَنَضَبَ المَاءُ عَن الأشجارِ التي في الجَبَلَيْن عَن يَمِين وشِمَال، فَيَبِسَتْ وَتَحطَّمَتْ ، وتَبَدَّلَتْ تِلْك الأشجار المُثْمِرَة الأنيقة النَّضِرَة ، كما قالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ ، قال ابنُ عَبَّاس ومُجَاهِد وعِكْرِمَة وعطاء الخُرَاساني والحَسَن وقَتَادَة والسُّدي: وهو الأراك ، وأكلة البرير ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ قال العَوْفي عن ابن عَبَّاس : هُوَ الطَّرْفَاء ، وقال غَيْرُه : هُوَ شَجَر يُشبِه الطَّرْفَاءَ ، وقِيل: هُوَ السَّمُر، واللَّهُ أعْلَم . وقَوْلُه : ﴿ وَشَيْءٍ مِن سِدْرٍ قَلِيل ﴾ ، لمَّا كانَ أجْوَد هذه الأشجار المُبَدَّل بِها هُوَ السِّدْر ، قال : ﴿ وَشَيْءٍ مِن سِدْرٍ قَلِيل ﴾ ، فهذا الذي صارَ أمْر تَيْنَك الجَنَّتَيْن إلَيه بَعْدَ الثِّمَار النَّضِيجة ، والمَناظِرِ الحَسَنَة ، والظِّلالِ العَميقة ، والأنهارِ الجارية ، تَبَدَّلَتْ إلى شَجَرِ الأراكِ والطَّرْفَاءِ والسِّدْرِ ذِي الشَّوْكِ الكثيرِ والثَّمَرِ القليلِ ، وذلك بسبب كُفْرِهم وشِركهم باللَّهِ ، وتَكذيبِهم الحَقَّ ، وعُدُولِهم عَنْهُ إلى الباطل)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٤٥٥) : ((﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ عَن الشُّكْرِ وكَفَرُوا باللَّهِ وكَذَّبُوا أنبياءَهم . قال السُّدي : بَعَثَ اللَّهُ إلى أهل سَبَأ ثلاثة عَشَر نَبِيًّا ، فَكَذَّبُوهُم ، وكذا قال وَهْب ، ثُمَّ لمَّا وَقَعَ مِنهُم الإعراض عَن شُكْر النِّعْمَة ، أرسلَ اللَّهُ عَلَيهم نِقْمَةً سَلَبَ بِها مَا أنعمَ بِهِ عَلَيْهِم ، فقال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ ﴾ ، وذلك أنَّ الماء كانَ يَأتي أرضَ سَبَأ مِن أوديةِ اليَمَنِ ، فَرَدَمُوا رَدْمًا بَيْنَ جَبَلَيْن ، وحَبَسُوا الماءَ ، وجَعَلُوا في ذلك الرَّدْمِ ثلاثةَ أبواب ، بَعْضُها فَوْقَ بَعْض ، وكانوا يَسْقُون مِنَ البابِ الأعلى ، ثُمَّ مِن الباب الثاني ، ثُمَّ مِنَ الثالث ، فَأخْصَبُوا ، وكَثُرَتْ أموالُهم ، فلمَّا كَذَّبُوا رُسُلَهم بَعَثَ اللَّهُ جُرَذًا ، فَفَتَقَتْ ذلك الرَّدْمَ حَتَّى انتقضَ فَدَخَلَ المَاءُ جَنَّتَهُم ، فَغَرَّقَهَا ، ودَفَنَ السَّيْلُ بُيُوتَهم ، فهذا هُوَ سَيْلُ العَرِمِ ، وهو جَمْع عَرِمَة ، هي السِّكْرُ التي تَحْبِسُ المَاءَ ، وكذا قال قَتَادَة وغَيْرُه . وقال السُّدي : العَرِمُ اسْمٌ للسَّدِّ ، والمَعنى : أرْسَلْنَا عَلَيْهِم سَيْلَ السَّدِّ العَرِمِ . وقال عطاء : العَرِمُ اسْمُ الوادي ، وقال الزَّجَّاج : العَرِمُ اسْمُ الجُرَذِ الذي نَقَبَ السَّدَّ عَلَيْهِم،وَهُوَ الذي يُقَال له الخُلْد، فَنَسَبَ السَّيْلَ إلَيه لِكَوْنِه سَبَبَ جَرَيَانِه. قال ابن الأعرابي : العَرِمُ مِن أسماءِ الفأر . وقال مُجَاهِد وابنُ أبي نَجِيح : العَرِمُ ماء أحمر أرسله اللَّهُ في السَّدِّ فَشَقَّه

وهَدَمَه . وقِيل : إنَّ العَرِمِ اسْمُ المَطَرِ الشديد، وقِيل: اسْمٌ للسَّيْلِ الشَّديدِ، والعَرَامَةُ في الأصل : الشِّدَّةُ والشَّراسة والصُّعوبة ، يُقَال : عَرَمَ فُلان : إذا تَشَدَّدَ وتَصَعَّبَ . وَرُوِيَ عَن ابن الأعرابيِّ أنَّه قال : العَرِمُ السَّيْلُ الذي لا يُطَاق . وقالَ المُبَرِّد : العَرِمُ كُلُّ شَيْءٍ حَاجِز بَيْنَ شَيْئَيْن ، ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ ، أي: أهْلَكْنَا جَنَّتَيْهِم اللَّتَيْن كَانَتَا مُشْتَمِلَتَيْن على تِلْك الفَواكهِ الطَّيبةِ والأنواعِ الحَسَنَةِ ، وأعْطَيْنَاهُم بَدَلَهما جَنَّتَيْن لا خَيْرَ فِيهما، ولا فائدة لَهُم فِيما هُوَ نابت فِيهما، ولهذا قال: ﴿ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ ، ... . قال الخليل : الخَمْطُ الأراك ، وكذا قال كثير مِنَ المُفسِّرين ، وقال أبو عُبَيدة : الخَمْطُ كُلُّ شَجَرَةٍ مُرَّة ذَات شَوْك ، وقال الزَّجَّاج : كُلُّ نَبْتٍ فِيه مَرَارَة لا يُمْكِن أكْلُه . وقال المُبَرِّد : كُلُّ شَيْءٍ تَغَيَّرَ إلى مَا لا يُشْتَهَى يُقَال له خَمْط ، ومِنْهُ اللَّبَن إذا تَغَيَّرَ . ... . وقال الجَوْهَرِي : الخَمْطُ ضَرْبٌ مِنَ الأراكِ لَهُ حَمْلٌ يُؤكَل ، وتَسْمِيَةُ البَدَلِ جَنَّتَيْن للمُشَاكَلَة ، أو التَّهَكُّم بِهِم ، والأثْلُ هُوَ الشَّجَرُ المَعروف الشَّبيه بالطَّرْفَاء ، ... . قِيل : وَوَصْفُ السِّدْرِ بالقِلَّةِ لأنَّ مِنْهُ نَوْعًا يَطِيب أكْلُه ، وَهُوَ النوع الثاني الذي ذَكَرَه الأزهري . قال قَتَادَة : بَيْنَمَا شَجَرُهم مِن خَيْرِ شَجَر إذْ صَيَّرَه اللَّهُ مِن شَرِّ الشَّجَرِ بأعمالهم ، فأهلكَ أشجارَهم المُثْمِرَةَ ، وأنبتَ بَدَلَهَا الأراكَ والطَّرْفَاءَ والسِّدْرَ.ويَحْتَمِل أن يَرْجِع قَوْلُه: ﴿قَلِيلٍ﴾ إلى جَمِيع مَا ذُكِرَ مِنَ الخَمْطِ والأثْلِ والسِّدْرِ)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إلا الكَفُورَ ﴾ [سَبَأ : ١٧] .

ذلك الجَزَاءُ الفَظِيع الذي عَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِهِ إنَّما كانَ بسبب كُفْرِهم . وتَقديمُ المَفعولِ للتَّعظيمِ لا التَّخصيص . وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٦٥) : ((قَوْلُه : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ﴾ ، يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : هذا الذي فَعَلْنَا بهؤلاء القَوْمِ مِن سَبَأ مِن إرسالنا عَلَيْهِم سَيْلَ العَرِمِ حَتَّى هَلَكَتْ أموالُهم ، وَخَرِبَتْ جَنَّاتُهُم ، جَزَاءً مِنَّا عَلى كُفْرِهِم بِنا ، وتَكذيبِهم رُسُلَنا)) .

واللَّهُ لا يُجازي بِمِثْلِ هذا الجَزاءِ الشَّديدِ إلا الكافرَ المُبَالِغَ في كُفْرِه . ولا يُعَاقَب إلا الكَفُور ، لأنَّ المُؤمِن يُكَفِّر اللَّهُ عَنْهُ سَيِّئَاتِه ، والكافرُ يُجَازَى بِكُلِّ سُوءٍ عَمِلَه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٤٥٦) : ((﴿ وَهَلْ نُجَازِي إلا الكَفُورَ ﴾ ، أي : وَهَلْ نُجَازي هَذا الجَزَاءَ بِسَلْبِ النِّعْمَةِ ونُزولِ النِّقْمَةِ إلا الشَّديدَ الكُفْر المُتَبَالِغ فِيه . ... . وظاهرُ الآيةِ أنَّه لا يُجَازَى إلا الكَفُور مَعَ كَوْن أهل المَعَاصِي يُجَازَوْن. وقَدْ قالَ قَوْم: إنَّ مَعنى الآية أنَّه لا يُجَازَى هذا الجَزَاء وَهُوَ الاصطلام والإهلاك إلا مَن كَفَرَ . وقال مُجَاهِد : إنَّ المُؤمِن يُكَفَّر عَنْه سَيِّئَاتُه ، والكافرُ يُجَازَى بِكُلِّ عَمَلٍ عَمِلَه.وقال طاووس:هُوَ المُنَاقَشَة في الحِسَاب، وأمَّا المُؤمِن فَلا يُنَاقَش. وقال الحَسَن: إنَّ المَعنى إنَّه يُجَازي الكافرَ مِثْلًا بِمِثْلٍ ، ورَجَّحَ هذا الجَوَابَ النَّحَّاسُ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرَى التي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِين ﴾ [سَبَأ : ١٨] .

أنعمَ اللَّهُ عَلَيْهِم بأن جَعَلَ بَيْنَ بِلادِ سَبَأ وبَيْنَ القُرى الشَّامِيَّة التي بارَكَ اللَّهُ فِيها للعَالَمِين قُرى مُتَوَاصِلَة مِنَ اليَمَنِ إلى الشَّامِ ، يُرى بَعْضُها مِن بَعْضٍ لِتَقَارُبِها ، ظاهرة لأبناءِ السَّبيل . أي : يُرى مِن هَذه القَرْيَةِ القَرْيَة الأُخْرَى ، فكانوا يَخْرُجُون مِن سَبَأ إلى الشَّامِ فَيَمُرُّون على القُرى العامرة . وَجَعَلَ اللَّهُ السَّيْرَ بَيْنَ قُراهم وبَيْنَ قُرى الشَّامِ سَيْرًا مُقَدَّرًا مِن مَنْزِلٍ إلى مَنْزِلٍ ، ومِن قَرْيَةٍ إلى قَرْيَةٍ ، وقالَ اللَّهُ لَهُم : سِيرُوا بَيْنَ هَذه القُرى مَتَى شِئْتُم لا تَخَافُون في لَيْلٍ ولا في نَهَارٍ .

وقَدْ كانَ الغادي مِنهُم يَقِيل في قَرْيَةٍ، والرائحُ يَبِيت في قَرْيَةٍ إلى أن يَبْلُغَ الشَّامَ ، لا يَخَاف جُوعًا ولا عَطَشًا ولا عَدُوًّا، ولا يَحْتَاج إلى حَمْلِ زَادٍ ولا ماء، وكانوا يَسِيرون آمِنِين لا يَخَافُون شيئًا.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٧٠٤) : ((يَذكُر تَعَالى مَا كانوا فِيه مِنَ النِّعْمَةِ والغِبْطَةِ والعَيْشِ الهَنِي الرَّغِيدِ والبِلادِ الرَّخِيَّةِ والأماكنِ الآمِنَةِ والقُرى المُتَوَاصِلَة المُتَقَارِبَة بَعْضها مِن بَعْض، معَ كَثرةِ أشجارها وزُروعها وثِمَارها ، بِحَيْث أنَّ مُسافرهم لا يَحتاج إلى حَمْلِ زَادٍ ولا ماء ، بَلْ حَيْثُ نَزَلَ وَجَدَ ماءً وثَمَرًا ، ويَقِيل في قَريةٍ ، ويَبيت في أُخْرَى بِمِقْدَار مَا يَحتاجون إلَيْه في سَيْرِهِم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرَى التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ، قال وَهْب بن مُنَبِّه : هِيَ قُرى بِصَنْعَاء ، وكذا قال أبو مالك . وقال مُجَاهِد والحَسَن وسعيد بن جُبَير ومالك عن زيد بن أسْلَم وقَتَادَة والضَّحَّاك والسُّدي وابن زَيْد وغَيْرِهم : يَعْنِي : قُرى الشَّامِ ، يَعْنُون أنَّهُم كانوا يَسِيرون مِن اليَمَنِ إلى الشَّامِ في قُرى ظاهرة مُتَوَاصِلَة . وقال العَوْفي عن ابن عَبَّاس : القُرى التي بَارَكْنَا فِيها بَيْتُ المَقْدِس. وقال العَوْفي عَنْهُ أيضًا : هِيَ قُرى عربية بَيْنَ المَدينةِ والشَّامِ ﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ ، أي: بَيِّنَة واضحة يَعْرِفُهَا المُسافرون،يَقِيلون في وَاحدةٍ، ويَبيتون في أُخْرَى، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ ، أي: جَعَلْنَاهَا بِحَسَبِ مَا يَحتاج المُسافرون إلَيْه، ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِين ﴾ أي : الأمنُ حَاصِلٌ لَهُم في سَيْرِهِم لَيْلًا ونَهَارًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سَبَأ : ١٩] .

قَابَلُوا النِّعَمَ بالكُفْرَانِ ، أي إنَّهُم حِينَ بَطِرُوا النِّعْمَةَ ، ومَلُّوا العَافِيَةَ ، وسَئِمُوا الرَّاحَةَ ، طَلَبُوا مِنَ اللَّهِ أن يُبَاعِدَ بَيْنَ قُرَاهُم المُتَّصِلَة لِيَمْشُوا في المَفَاوِزِ ، ويَتَزَوَّدُوا للأسفار ، فَعَجَّلَ اللَّهُ إجَابَتَهُم ، بِتَخريبِ تِلْك القُرى،وجَعْلِها مَفَاوِز قِفَارًا،وظَلَمُوا أنفُسَهم بِكُفْرِهِم وجُحُودِهِم النِّعْمَة،فَجَعَلَهُم أخبارًا

تُرْوَى للناسِ بَعْدَهُم ، وَفَرَّقَهُمُ اللَّهُ في البِلادِ شَذَرَ مَذَرَ ، فَصَارُوا يُتَمَثَّل بِهِم في الفُرْقَةِ ، وذلك أنَّهُم ارتَحَلُوا عَن أماكنهم ، وتَفَرَّقُوا في البِلادِ . لَقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ حَديثًا للناسِ وَسَمَرًا يَتَحَدَّثُون بِهِ مِن خَبَرِهِم ، وكَيفْ مَكَرَ اللَّهُ بِهِم ، وَفَرَّقَ شَمْلَهُم بَعْدَ الاجتماعِ والأُلْفَةِ والعَيْشِ الهَنِيءِ ، تَفَرَّقُوا في البِلاد هَهُنَا وهَهُنَا . إنَّ فِيمَا ذُكِرَ مِن قِصَّتِهِم لَعِبَرًا وعِظَاتٍ لِكُلِّ عَبْدٍ صَابِرٍ عَلى البَلاء ، شَاكِرٍ في النَّعْمَاء . أي : لِكُلِّ مُؤمِنٍ ، لأنَّ المُؤمِنَ هُوَ الذي إذا ابْتُلِيَ صَبَرَ ، وإذا أُعْطِيَ شَكَرَ .

والمَقصودُ مِن ذِكْرِ قِصَّةِ سَبَأ تَحذيرُ الناسِ مِن كُفْرَانِ النِّعْمَةِ لِئَلا يَحِلَّ بِهِم مَا حَلَّ بِمَنْ قَبْلَهُم، ولهذا أصبحتْ قِصَّتُهُم يُضْرَب بها المَثَل ، فَيُقَال : " ذَهَبُوا أيْدِي سَبَأ " ، أي : مُتَفَرِّقِين . والعاقلُ مَن اتَّعَظَ بِغَيْرِه ، ولَمْ يُكَرِّرْ أخطاءَ الآخَرِين ، لِكَيْلا يُلاقِيَ نَفْسَ مَصيرهم الأليم ونهايتهم الكارثية .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٤٥٧) : ((ثُمَّ ذَكَرَ سُبحانَه أنَّهُم لَمْ يَشْكُروا النِّعْمَةَ ، بَلْ طَلَبُوا التَّعَبَ والكَدَّ . ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ ، وكانَ هَذا القَوْلُ مِنهُم بَطَرًا وطُغْيَانًا لَمَّا سَئِمُوا النِّعْمَةَ ، ولَمْ يَصْبِرُوا على العَافِيَةِ ، فَتَمَنَّوْا طُولَ الأسفارِ ، والتَّبَاعُدَ بَيْنَ الدِّيَارِ ، وسَألوا اللَّهَ تَعَالى أن يَجْعَلَ بَيْنَهُم وبَيْنَ الشَّامِ مَكَانَ تِلْك القُرى المُتَوَاصِلَة الكثيرة الماء والشَّجَر والأمْن مِنَ المَفَاوِز والقِفَارِ والبَرَاري المُتَبَاعِدَة الأقطار ، فأجابهم اللَّهُ إلى ذلك ، وَخَرَّبَ تِلْكَ القُرى المُتَوَاصِلَة ، وَذَهَبَ بِما فِيها مِنَ الخَيْرِ والمَاءِ والشَّجَرِ ، فكانتْ دَعْوَتُهُم هَذه كَدَعْوَةِ بني إسرائيل حَيْثُ قالوا : ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا ﴾ [البقرة : ٦١] الآية ، مَكَانَ المَنِّ والسَّلْوَى ، وكَقَوْلِ النَّضْرِ بن الحارث : ﴿ اللَّهُمَّ إن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِن عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [الأنفال : ٣٢] الآية . ... . ﴿ وَظَلَمُوا أنفُسَهُمْ ﴾ حَيْثُ كَفَرُوا باللَّهِ، وبَطِرُوا نِعْمَتَه ، وتَعَرَّضُوا لِنِقْمَتِه ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ يَتَحَدَّث الناسُ بأخبارهم. والمَعْنَى : جَعَلْنَاهُم ذَوِي أحاديث يَتَحَدَّث بِها مَن بَعْدَهُم تَعَجُّبًا مِن فِعْلِهِم ، واعتبارًا بحالهم وعاقبتهم ، ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ ، أي : فَرَّقْنَاهُم في كُلِّ وَجْهٍ مِنَ البِلادِ كُلَّ التَّفريق . وهذه الجُملة مُبَيِّنَة لِجَعْلِهِم أحاديث ، وذلك أنَّ اللَّهَ سُبحانَه لمَّا أغرقَ مَكَانَهم ، وأذهبَ جَنَّتَهُم ، تَفَرَّقُوا في البِلادِ ، فصارت العَرَبُ تَضْرِبُ بِهِم الأمثالَ ، فَتَقُول : تَفَرَّقُوا أيْدِي سَبَأ . قال الشَّعْبي : فَلَحِقَت الأنصارُ بِيَثْرِب ، وغَسَّان بالشَّام ، والأزْد بِعُمَان ، وخُزَاعَة بِتِهَامَة ، ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ ، أي : فِيما ذُكِرَ مِن قِصَّتِهِم ، ومَا فَعَلَ اللَّهُ بِهِم لآيات بَيِّنَات ودَلالات واضحات ، ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُور ﴾ ، أي : لِكُلِّ مَن هُوَ كثير الصَّبْر والشُّكْر . وخصَّ الصَّبَّار الشَّكُور ، لأنَّهما المُنتفعان بالمَواعظِ والآياتِ)) .

٢٦ـ عِمْرَان

أـ آل عِمْرَان

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إبراهيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلى العَالَمِين ﴾ [آل عِمران : ٣٣] [٥٩] .

قالت اليَهُود : نَحْنُ مِن أبناءِ إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ونَحْنُ على دِينهم ، فأنزلَ اللَّهُ تعالى هذه الآيةَ ، يَعْني: إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى هَؤلاء بالإسلامِ ، وأنتم عَلى غَيْرِ دِينِ الإسلام .

---

٥٩ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٣٧٤ و٣٧٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ ﴾ ، قال ابنُ عبَّاس: قالت اليهودُ: نَحْنُ أبناءُ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ونَحْنُ عَلى دِينِهم، فنزلتْ هذه الآية . قال الزَّجَّاج : ومَعنى اصطفاهم في اللغة : اختارهم ، فَجَعَلَهُم صَفْوَةَ خَلْقِه ، وهذا تمثيل بما يُرى ، لأنَّ العَرَبَ تُمَثِّل المعلومَ بالشَّيْءِ المرئي ، فإذا سمع السامعُ ذلك المعلومَ كان عِنده بمنزلة مَا يُشاهِد عِيَانًا ، فَنَحْنُ نُعَاين الشَّيْءَ الصافي أنَّه النَّقِيُّ مِنَ الكَدَرِ، فكذلك صَفْوَة اللَّهِ مِن خَلْقِه ، ... . وأمَّا آدم فعربي ، وأمَّا نُوح فأعجمي مُعَرَّب . قال أبو سُلَيمان الدمشقي : اسْمُ نُوح : السَّكَن ، وإنما سُمي نُوحًا لِكَثْرةِ نَوْحِه . وفي سبب نَوْحِه خمسة أقوال : أحدها أنَّه كان يَنُوح على نَفْسِه ، قاله يزيد الرَّقَاشِي ، والثاني أنَّه كانَ يَنُوح لمعاصي أهْلِه وقَوْمِه ، والثالث لِمُراجعته رَبَّهُ في وَلَدِه ، والرابع لِدُعَائِه عَلى قَوْمِه بالهلاك ، والخامس أنَّه مَرَّ بكلب مجذوم فقال : اخْسَأ يا قَبِيح ، فأوحى اللَّهُ إليه : أعِبْتَني يَا نُوحُ أَمْ عِبْتَ الكَلْبَ ؟ . وفي آلِ إبراهيم ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه مَن كانَ عَلى دِينِه ، قاله ابن عباس والحسن ، والثاني أنهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، قاله مُقَاتِل ، والثالث أنَّ الْمُراد " آل إبراهيم " هُوَ نَفْسُه . ... . ذَكَرَه بعضُ أهل التفسير . وفي " عِمْرَان " قَوْلان : أحدهما أنَّه والد مريم ، قاله الحسن ووَهْب ، والثاني أنَّه وَالِد مُوسَى وهارون ، قاله مُقَاتِل . وفي " آلِه " ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه عِيسى عليه السلام ، قاله الحسن . والثاني أنَّ آلَه مُوسَى وهارون ، قاله مُقَاتِل ، والثالث أنَّ الْمُراد بِ " آلِه " نَفْسُه ، ذَكَرَه بعضُ المفسِّرين . وإنما خُصَّ هؤلاء بالذِّكْرِ، لأنَّ الأنبياء كُلَّهم مِن نَسْلِهم . وفي مَعنى اصطفاء هؤلاء المذكورين ثلاثة أقوال: أحدها أنَّ الْمُراد اصْطَفَى دِينَهم على سائر الأديان ، قاله ابن عَبَّاس ، واختاره الفَرَّاء والدمشقي . والثاني اصْطَفَاهُم بالنُّبُوَّة ، قاله الحسن ومجاهد ومُقاتِل ، والثالث اصْطَفَاهُم بِتَفضيلهم في الأُمُور التي مَيَّزَهُم بها على أهل زمانهم ، والْمُرادُ بِ " العَالَمِين " عَالَمُو زمانهم)) .

إنَّ اللَّهَ اختارَ للنُّبُوَّةِ صَفْوَةَ خَلْقِه ، مِنهُم آدم أبو البَشَر ، ﴿ وَنُوحًا ﴾ شَيْخ المُرْسَلِين وأوَّل رَسُول بَعَثَه اللَّهُ إلى أهْلِ الأرض ، ﴿ وَآلَ إبراهيمَ ﴾ ، أي : عَشِيرته وذَوِي قُرْبَاه ، وهُم إسماعيل وإسحاق والأنبياء مِن أولادِهما، ومِن جُملتهم النَّبِيُّ مُحَمَّد ﷺ خَاتَم المُرْسَلِين ، ﴿ وَآلَ عِمْرَانَ ﴾ ، أي : أهْل عِمْرَان ، ومِنهُم عِيسَى ابن مَرْيَم خَاتَم أنبياء بني إسرائيل ﴿ عَلى العَالَمِين ﴾ ، أي : عَالَمِي زَمَانِهِم . وخَصَّ اللَّهُ هؤلاء بالذِّكْرِ مِن بَيْنِ الأنبياء ، لأنَّ الأنبياء والرُّسُل جميعًا مِن نَسْلِهِم .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٧٨) : ((يُخْبِر تَعَالى أنَّه اختارَ هَذه البُيُوتَ على سائر أهلِ الأرض ، فاصْطَفَى آدمَ عليه السلام، خَلَقَه بِيَدِه ، ونَفَخَ فِيه مِن رُوحِه ، وأسجدَ لَهُ مَلائِكَتَهُ ، وعَلَّمَه أسماءَ كُلِّ شَيْءٍ ، وأسْكَنَه الجَنَّةَ ، ثُمَّ أهْبَطَه مِنها لِمَا له في ذلك مِنَ الحِكْمَةِ ، واصْطَفَى نُوحًا عَلَيه السلام ، وجَعَلَه أوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَه إلى أهْلِ الأرضِ ، لمَّا عَبَدَ الناسُ الأوثانَ ، وأشركوا باللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلطانًا ، وانتقمَ لَهُ لمَّا طالتْ مُدَّتُه بَيْنَ ظَهْرَانَي قَوْمِه ، يَدْعُوهم إلى اللَّهِ لَيْلًا ونَهَارًا، سِرًّا وجِهَارًا ، فَلَمْ يَزِدْهُم ذلك إلا فِرَارًا ، فَدَعَا عَلَيهِم ، فَأغْرَقَهُمُ اللَّهُ عَن آخِرِهِم ، وَلَمْ يَنْجُ مِنهُم إلا مَن اتَّبَعَه عَلى دِينِه الذي بَعَثَه اللَّهُ بِهِ ، واصْطَفَى آلَ إبراهيم ، ومِنهُم سَيِّدُ البَشَرِ وخَاتَمُ الأنبياءِ على الإطلاق مُحَمَّدٌ ﷺ ، وآلَ عِمْرَان ، والمُراد بِعِمْرَان هذا هُوَ والد مَرْيَم بِنْت عِمْرَان أُمِّ عِيسَى ابن مَرْيَم عَلَيه السَّلام)) .

ب_ امْرَأةُ عِمْرَان (أُمُّ مَرْيَم)

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [آل عِمران : ٣٥] .

اذكُرْ لَهُم وَقْتَ قَوْلِ امْرَأةِ عِمْرَان (حَنَّة بِنْت فاقود) : رَبِّ إنِّي جَعَلْتُ لِعِبادتك وطاعتك مَا أحْمِلُه في بَطْني ، عَتِيقًا خَالِصًا مِن شَوَاغِلِ الدُّنيا لِخِدْمَةِ بَيْتِكَ المُقَدَّس ، وكانَ هذا النَّذْرُ جائزًا في شريعتهم، وكانَ على أولادهم فَرْضًا أن يُطيعوهم في نَذْرِهِم ، فَتَصَدَّقَتْ بِوَلَدِهَا على بَيْتِ المَقْدِس. فَتَقَبَّلْ مِنِّي مَا نَذَرْتُهُ ، إنَّكَ السَّمِيعُ لِدُعَائي العَلِيمُ بِنِيَّتِي . وماتَ عِمران وهي حامل .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٧٨) : ((قال مُحَمَّد بن إسحاق : وكانت امْرَأةً لا تَحْمِل، فَرَأتْ يَوْمًا طائرًا يَزُقُّ فَرْخَه فاشتهت الوَلَدَ،فَدَعَت اللَّهَ تعالى أن يَهَبَهَا وَلَدًا،فاستجابَ اللَّهُ دُعَاءَهَا فَوَاقَعَهَا زَوْجُها فَحَمَلَتْ مِنْهُ، فلمَّا تَحَقَّقَت الحَمْلَ نَذَرَتْ أن يَكُونَ مُحَرَّرًا، أي خَالِصًا مُفَرَّغًا للعِبَادَةِ وَلِخِدْمَةِ بَيْتِ المَقْدِسِ، فقالتْ : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ أي: السَّمِيعُ لِدُعَائي،العَلِيمُ بِنِيَّتِي،وَلَمْ تَكُنْ تَعْلَم مَا في بَطْنِها: أذَكَرًا أَمْ أُنثى ؟)).

وعن ابن عَبَّاس ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنهما ــ : في قَوْلِه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا في بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ ، تَلا إلى قَوْلِه : ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ ، قال : كَفَلَهَا زَكريَّا فَدَخَلَ عَلَيْهَا المِحْرَابَ ، فَوَجَدَ عِندَهَا عِنَبًا في مِكْتَلٍ في غَيْرِ حِينِهِ، قال زَكريَّا : أنَّى لَكِ هَذا ؟ ، قالت : هُوَ مِن عِندِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، قال : إنَّ الذي يَرْزُقُكِ العِنَبَ في غَيْرِ حِينِهِ لَقَادِرٌ أن يَرْزُقَنِي مِنَ العَاقِرِ الكَبِيرِ العَقِيمِ وَلَدًا ، ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكريَّا رَبَّهُ ﴾ ، فَلَمَّا بُشِّرَ بِيَحْيى ﴿ قالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ ألا تُكَلِّمَ الناسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ قال: يُعْتَقَلُ لِسَانُكَ مِن غَيْرِ مَرَضٍ وأنتَ سَوِيٌّ [٦٠].

ج ــ مَرْيَم ابْنَةُ عِمْرَان

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عِمران : ٣٦].

فَلَمَّا وَلَدَتْ حَنَّةُ مَرْيَمَ ، قالتْ عَلى وَجْهِ التَّحَسُّرِ والاعتذارِ : يَا رَبِّ إنَّها أُنثى ، وكانتْ تَرجُو أن يَكُونَ ذَكَرًا لأنَّه لَمْ يَكُنْ يُقْبَل في النَّذْر إلا الذُّكُور ، فَقَبِلَ اللَّهُ مَرْيَمَ . واللَّهُ أعْلَمُ بالشَّيْءِ الذي وَضَعَتْ قالتْ ذلك أوْ لَمْ تَقُلْهُ ، ولَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنثى في القُوَّةِ والجَلَدِ في العِبَادَةِ وخِدْمَةِ المَسْجِدِ الأقْصَى ، ولا تَصْلُح الأُنثى لِمَا يَصْلُح لَهُ الذَّكَر مِن خِدمته المَسْجِد والإقامة فِيه لِمَا يَلْحَق الأُنثى مِنَ الحَيْضِ والنِّفَاسِ . وَلَيْسَ الذَّكَرُ الذي طَلَبَتْهُ كالأُنثى التي وُهِبَتْهَا ، بَلْ هذه أفضل . والجُملتان مُعْتَرِضَتَان مِن كَلامِ اللَّهِ تَعَالى تَعْظِيمًا لِشَأنِ هَذه المَولودةِ ، وَمَا عُلِّقَ بِها مِن عَظائمِ الأُمُور ، وجَعْلها وابْنَهَا آيَةً للعَالَمِين ، وإنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ، وهذا تَتِمَّةُ كَلامِ امْرَأةِ عِمْرَان ، وفِيه دَلِيلٌ عَلى جَوَازِ التَّسْمِيَةِ يَوْمَ الوِلادةِ ، كما هُوَ الظاهر مِنَ السِّيَاقِ ، لأنَّه شَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا ، وتَمَّ تَقريرُه . ومَعْنَى " مَرْيَم " في لُغتهم : العابدة ، وإنِّي أُجِيرُها بِحِفْظِكَ وأولادَها مِن شَرِّ الشَّيْطَانِ المَلْعُون .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٣٠) : ((﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ ، أي: وَلَدَتْهَا إذا هي جارية ، والهاء في قَوْلِه : ﴿ وَضَعَتْهَا ﴾ راجعة إلى النذير إلى مَا وُلِدَ لذلك أُنِّثَ ، ﴿ قَالَتْ ﴾ حَنَّةُ ، وكانتْ تَرْجُو أن يَكُون غُلامًا : ﴿ رَبِّ إنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ اعتذارًا إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ﴿ وَاللَّهُ أعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ ، بِجَزْمِ التاء إخبارًا عَن اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وهي قِراءة العَامَّة ، وقرأ ابن عامر وأبو بكر ويعقوب : " وَضَعْتُ " برفع التاء ، جَعَلُوها مِن كَلامِ أُمِّ مَرْيَم ، ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى ﴾ في خِدمةِ

٦٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٣١٩) برقم (٣١٥٠) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

الكَنيسةِ والعِبَادِ الذين فِيها لِعَوْرتها وضَعْفِها ومَا يَعْتريها مِنَ الحَيْضِ والنِّفَاسِ ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ ومَرْيَمُ بِلُغتهم : العابدةُ والخادمةُ . وكانتْ مَرْيَمُ أجْمَلَ النِّسَاءِ في وَقْتِهَا وأفْضَلَهُنَّ ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا ﴾ أمْنَعُهَا وأُجِيرُهَا ﴿بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ أولادَها ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ، فالشَّيْطَانُ الطريدُ اللعينُ ، والرَّجِيمُ المَرْمِيُّ بالشُّهُبِ)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١ / ٥٠٥) : ((قَوْلُه : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ ، التَّأنيثُ باعتبار مَا عُلِمَ مِنَ المَقَامِ أنَّ الذي في بَطْنِها أُنثى ، أوْ لِكَوْنِه أُنثى في عِلْمِ اللَّهِ ، أوْ بتأويل مَا في بَطْنِها بالنَّفْسِ ، أو النَّسَمَة ، أوْ نَحْو ذلك ، قَوْلُه : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ ، إنَّما قالتْ هَذه المَقَالَةَ ، لأنَّه لَمْ يَكُنْ يُقْبَل في النَّذْر إلا الذَّكَر دُون الأُنثى ، فكأنَّها تَحَسَّرَتْ وتَحَزَّنَتْ لِمَا فَاتَها مِن ذلك الذي كانتْ تَرْجُوه وتُقَدِّرُه ، و ﴿ أُنثَى ﴾ حَالٌ مُؤَكِّدة مِنَ الضَّمِير أوْ بَدَل مِنْه. قَوْلُه: ﴿ وَاللَّهُ أعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ ، قَرَأ أبو بَكْر وابن عامر بِضَم التاء ، فَيَكُون مِن جُملة كلامها ، ويَكُون مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَه ، وفيه معنى التَّسليم للَّهِ والخُضوع والتَّنْزيه له أن يَخْفَى عَلَيه شَيْء ، وقرأ الجُمهورُ ﴿ وَضَعَتْ ﴾ فَيَكُون مِن كَلامِ اللَّهِ سُبحانَه على جِهة التَّعظيمِ لِمَا وَضَعَتْهُ، والتَّفخيم لِشَأنه، والتَّجليل لها حَيْثُ وَقَعَ مِنها التَّحَسُّر والتَّحَزُّن ، معَ أنَّ هذه الأُنثى التي وَضَعَتْهَا سَيَجْعَلُهَا اللَّهُ وابْنَهَا آيَةً للعَالَمِين ، وعِبْرَةً للمُعْتَبِرِين ، ويَختصها بِما لَمْ يَخْتَصْ بِهِ أحَدًا . وقرأ ابن عباس : " بِما وَضَعْتِ " بكسر التاء على أنَّه خِطاب مِنَ اللَّهِ سُبحانَه لها ، أي : إنَّكِ لا تَعْلَمِين قَدْرَ هذا المَوهوب، ومَا عَلِمَ اللَّهُ فِيه مِنَ الأُمُور التي تَتَقَاصَر عَنْهَا الأفهامُ ، وتتضافر عِندها العُقُول . قَوْلُه: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى ﴾ ، أي : وَلَيْسَ الذَّكَرُ الذي طَلَبْتِ كالأُنثى التي وَضَعْتِ ، فإنَّ غَايَة مَا أرادتْ مِن كَوْنِه ذَكَرًا أن يَكُونَ نَذْرًا خادمًا للكنيسة ، وأمْرُ هذه الأُنثى عظيم ، وشَأنُها فَخِيم . وهذه الجُملة اعتراضيَّة مُبَيِّنَة لِمَا في الجُملة الأُولَى مِن تَعظيمِ المَوضوعِ ، ورَفْعِ شأنه وعُلُوِّ مَنْزلته ، واللامُ في الذَّكَر والأُنثى للعَهْدِ ، هذا على قِراءة الجُمهور وعلى قِراءة ابن عَبَّاس ، وأمَّا عَلى قِراءة أبي بَكْر وابن عامر ، فَيَكُون قَوْلُه : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى ﴾ مِن جُملةِ كلامها، ومِن تَمَامِ تَحَسُّرِها وتَحَزُّنِها، أي: لَيْسَ الذَّكَرُ الذي أرَدْتُ أن يَكُون خادمًا ويَصْلُح للنَّذْر كالأُنثى التي لا تَصْلُح لذلك، وكأنَّها أعذرتْ إلى رَبِّها مِن وُجودها لها عَلى خِلاف مَا قَصَدَتْ . قَوْلُه : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ عَطْف عَلى ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ ، ومَقْصُودُها مِن هذا الإخبار بالتَّسْمِيَةِ التَّقَرُّبُ إلى اللَّهِ سُبحانَه، وأن يَكُونَ فِعْلُها مُطَابِقًا لِمَعنى اسْمِها ، فإنَّ مَعنى مَرْيَم : خادم الرَّبِّ ، بِلُغتهم . فهي وإنْ لَمْ تَكُنْ صالحةً لِخِدْمَةِ الكَنيسةِ ، فذلك لا يَمْنَع أن تَكُونَ مِنَ العابدات . قَوْلُه : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ

وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ عَطْف عَلى قَوْلِه : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ ، والرَّجِيمُ المَطْرُودُ ، وأصْلُه المَرْمِيُّ بالحِجَارَةِ . طَلَبَت الإعاذةَ لَهَا ولولدها مِنَ الشَّيْطَانِ وأعْوَانِه)) .

وعن أبي هُرَيرة ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إلا والشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إيَّاهُ إلا مَرْيَمَ وابْنَهَا)) . ثُمَّ يَقُولُ أبو هُرَيرة : واقْرَؤُوا إنْ شِئْتُم : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [٦١] .

تَعَهَّدَ الشَّيطانُ بالعَدَاءِ الدائمِ والمُستمرِّ لِبَني آدَم ﷺ ، بِشَتَّى الوَسائلِ والطُّرُقِ ، ولا يَألُو جُهْدًا في تَنفيذِ مَا تَعَهَّدَ بِهِ ، مِن أجْلِ غَوايةِ الإنسانِ وإضلالِه حَتَّى يُورِدَه النارَ ، عِيَاذًا باللَّهِ تعالى .

يَذكُر النَّبِيُّ ﷺ مَظْهَرًا مِن مَظاهرِ عَداءِ الشَّيطانِ للإنسانِ ، وحِرْصَه على ذلك ، حَيْثُ أخبرَ النَّبِيُّ ﷺ أنَّ كُلَّ مَولودٍ يَمَسُّه الشَّيطانُ بِيَدِه مِن غَيْرِ حَاجِزٍ، فَيَصْرُخ عِند وِلادته مِن أثرِ هَذا المَسِّ، باستثناء مَرْيَمَ وابْنِها عِيسَى ﷺ ، فإنَّ اللَّهَ عَصَمَهما مِن مَسِّ الشَّيطانِ وطَعْنِه . وفي رِواية أُخْرَى للبُخاريِّ : " غَيْرَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَهَبَ يَطْعَنُ ، فَطَعَنَ في الحِجَابِ " ، والمَقصودُ بالحِجَابِ : الجِلْدَةُ التي فِيها الجَنينُ ، وتُسَمَّى المَشِيمةُ . وقِيل : هُوَ الثَّوْبُ الذي يُلَفُّ فيه المَولودُ . وذلك بِبَرَكَةِ دُعَاءِ أُمِّ مَرْيَم ، كما في قَوْلِه تعالى : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ، ولا يُعَارَض تَفْسِيرُ بُكاءِ الطِّفْلِ بِمَسِّ الشَّيطانِ أوْ طَعْنِه ، بِما يُذكَر مِن بَعضِ الأسبابِ الطبيعية ، كَتَأثُّر الوليد بِدُخول الهواء إلى رِئته وغَيْرِ ذلك ، فإنَّ البُكَاءَ قَدْ يَكُون له أكثرُ مِن سَببٍ ، وإذا كانَ الأمرُ كذلك فإنَّما يَهْتَمُّ النَّبِيُّﷺ بِبَيَانِ مَا هُوَ أهَمُّ،لِمَا فيه مِن تَنبيهِ الناسِ على التَّحَرُّزِ مِنَ الشَّيطانِ.

وهَذا الخَبَرُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أمْرٌ مِن أُمُورِ الغَيْبِ ، ولا مَدْخَل للعقلِ في إدراكِه ، أوْ الوُقوفِ على حقيقته ، وحَظُّ المُؤمنِ فيه التَّصديقُ والتَّسليمُ .

وفي الحَديثِ : فَضيلةٌ ظاهرةٌ لِنَبِيِّ اللَّهِ عِيسَى ﷺ وأُمِّهِ مَرْيَم ــ رَضِيَ اللَّهُ عنها ــ . وفيه : فَضْلُ الدُّعاءِ والحِرْصِ عَلَيه . وفيه : بَيانُ عُمومِ تَسَلُّطِ الشَّيطانِ على بني آدم بَرِّهِم وفَاجِرِهِم ، إلا أنَّ اللَّهَ يَحْفَظ عِبَادَه ، كما وَعَدَ سُبحانَه وتعالى بذلك .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥ / ١٥) : (((كُلُّ بَنِي آدَمَ يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ) أي يَطْعَنُه في جَنْبِه كَمَا بَيَّنَه في الرِّواية الآتِيَة (يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ إلا مَرْيَمَ) بِنْتَ عِمْرَان (وَابْنَهَا) عِيسَى لاستجابةِ دُعاء حَنَّة لها بِقَوْلِها : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ، وعلى هَذا

---

٦١ رواه البخاري (٤/ ١٦٥٥) برقم (٤٢٧٤) واللفظ له، ومسلم (٤ / ١٨٣٨) برقم (٢٣٦٦) .

فالمَسُّ حقيقي ، وقِيل : أرادَ بِهِ الطمعَ في الإغواءِ لا حقيقة النَّخْس ، وإلا لامتلأت الدُّنيا صِيَاحًا . فالاستهلالُ تَصويرٌ وتَخييلٌ لطمع الشَّيطان ، كأنَّه يَمَسُّه بيده ، وعَلَيه فَلا يَرِد مَا قِيل لَوْ كانَ كَذا لَمَا خُصَّا بالاستثناء ، لأنَّ الصالحين كُلَّهُم كَذا ، مَا ذاكَ إلا لأنَّ المُراد كما قال عِيَاض هُمَا وَمَن في مَعْنَاهما ، أمَّا إذا أُريدَ بالمَسِّ حقيقته ، وأنَّه مِنَ الفَضائلِ ، فلا مانع مِن اختصاصهما حتى على المُصْطَفَى ﷺ ، إذ اختصاص المَفضول بِشَيْء لا يُوجِد في الفاضل غَيْرَ عزيز ، كذا قَرَّرَه بعضُ الأفاضل ، وَهِيَ زَلْقَة زَلِقَهَا مِمَّا عَمِلَتْهُ أيْدِي الزَّمَخْشَرِي . قال التَّفْتَازَاني : طَعَنَ الزَّمَخْشَرِيُّ في صِحَّةِ الحديث بِمُجَرَّد أنَّه لَمْ يُوَافِقْ هَوَاه ، وإلا فأيُّ امتناعٍ في أن يَمَسَّ الشَّيطانُ المَولودَ حِينَ يُولَد بِحَيْث يَصْرُخ كما يَرى ويَسْمَع ، فَلَيْسَتْ تِلْك المَسَّة للإغواءِ لِيُدْفَع بأنَّه لا يُتَصَوَّر في حَقِّ المَولود حِينَ يُولَد . قال : ثُمَّ أوَّلَه الزَّمَخْشَرِيُّ على تقدير صِحَّتِه بأنَّ المُراد بالمَسِّ الطمع في إغوائه ، واستثناء مَرْيَم وابْنِها لِعِصْمتهما ، ولمَّا لَمْ يَخُص هذا المَعنى بِهما عَمَّ الاستثناءُ لِكُلِّ مَن يَكُون على صِفَتهما ، وهذا إمَّا تكذيب للحديث بعد صِحَّته ، وإمَّا قول بتعليل الاستثناء والقِيَاس عَلَيه . قال : وَلَيْتَ شِعْرِي مِن أيْنَ ثَبَتَ تَحَقُّق طَمَع الشَّيطان ورجائه وصِدْقه في أنَّ هذا المَولود مَحَلٌّ لإغوائه لِيَلْزَمَنَا إخراج كُلِّ مَن لا سبيل له إلى إغوائه ، فَلَعَلَّه يَطْمَع في إغواء مَن سِوَى مَرْيَم وابْنِها ، ولا يَتَمَكَّن مِنْهُ ، إلى هُنا كلام السَّعْد . قال : وقَد يُشْكِل على ظاهر الحديث أنَّ إعاذة أُمِّ مَرْيَم كانت بَعْد الوَضْع ، فَلا يَحِلُّ حَمْلُها على الإعاذة مِنَ المَسِّ الذي يَكُون حِينَ الوِلادة ، والجَوَابُ أنَّ المَسَّ لَيْسَ إلا بَعْدَ الانفصال وَهُوَ الوَضْع ومَعَه الإعاذة ، غَايَتُه أنَّه عَبَّرَ عَنْهُ بالمُضَارِعِ لِقَصْدِ الاستمرار ، بِخِلاف الوَضْعِ والتَّسْمِيَة)) .

في نَفْسِ المَرجع (٥ / ١٦) : (((كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيطانُ) بِضَمِّ العَيْنِ يَمَسُّه (في جَنْبَيْه) بالتَّثنية (بإصْبَعِه) بالإفراد ، وفي رِواية للبُخاري بالتَّثنية . قال الطيبي : المَسُّ والطَّعْنُ عِبَارة عن الإصابة بِمَا يُؤْذِيه ويُؤْلِمه لا كما زَعَمَه المُعْتَزِلة أنَّ المَسَّ تَخْييلٌ ، واستهلالَه صارخًا مِن مَسِّه تَصويرٌ لطمعه فيه، كأنَّه يَمَسُّه ويَضْرِب بيده عَلَيه ، ويقول هذا مِمَّن أغويه . وأمَّا قَوْلُ ابن الرُّومي :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنيا بِهِ مِن صُرُوفِها ... يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ

إذا أبصرَ الدُّنيا اسْتَهَلَّ كَأنَّهُ ... بِمَا هُوَ لاقٍ مِنْ أذَاهَا يُهَدَّدُ

وإلا فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا فَإنَّهَا ... لأوْسَعُ مِمَّا كانَ فِيهِ وأرْغَدُ

فَمِن باب حُسْن التعليل ، فَلا يَستقيم تَنزيل الحديث عَلى أنَّه لا يُنَافيه . وقال البَيْضَاوي : مَسُّ الشَّيطانِ تَعَلُّقُه بالمَولودِ ، وتَشويشُ حَالِه ، والإصابةُ بِما يُؤْذِيه ويُؤْلِمُه أوَّلًا ، كَمَا قَالَ تَعَالى عَن

أيُّوب : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص : ٤١] ، والاهتمامُ بِحُصول مَا يَصِير ذَريعةً ومُتَسَلَّقًا في إغوائه. اهـ . فَقَوْلُه: يُؤْلِمُه ، بَيَّنَ بِهِ أنَّ المَسَّ حَقِيقي رَدًّا على الزَّمَخْشَرِي (حِينَ يُولَد) زادَ البُخاريُّ في رِوَاية في آل عِمْرَان : فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إيَّاهُ (غَيْرَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَهَبَ يَطْعُنُ فَطَعَنَ في الحِجَابِ) أي: المَشِيمة التي فِيها الوَلَد . قال ابنُ حَجَر : اقتصرَ هُنا عَلى عِيسَى دُون الأُولَى ، لأنَّ هذا بالنِّسْبَة للطَّعْنِ في الجَنْبِ ، وذاكَ بالنِّسْبَةِ للمَسِّ ، أوْ هَذا قَبْلَ الإعلام بِما زادَ ، وفِيه بُعْد. ... . ورواه مُسلِم بِمَعناه في المَنَاقِب)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عِمران : ٣٧] .

فاستجابَ اللَّهُ لِحَنَّة أُمِّ مَرْيَم ذَلِك ، وقَبِلَها اللَّهُ قَبولًا حَسَنًا ، وجَعَلَهَا فَوْقَ غَيْرِهَا مِن أوليائه الصالحين ، وَسَلَكَ بِها طريقَ السُّعَدَاءِ ، وَرَبَّاهَا تَربيةً كاملةً ، ونَشَّأهَا تَنشئةً صالحةً في صَلاحٍ وعِفَّةٍ ومَعرفةٍ باللَّهِ وطَاعةٍ له ، وَجَعَلَ زَكريَّا كَافِلًا لها ، ومُتَعَهِّدًا للقِيَامِ بمصالحها ، حَتَّى إذا بَلَغَتْ مَبْلَغَ النِّسَاءِ انْزَوَتْ في مِحْرَابِهَا تَتَعَبَّد اللَّهَ تعالى، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيها زكريَّا الغُرفةَ التي بُنِيَتْ لَهَا ، أو المَسْجِدَ ، أوْ أشْرَفَ مَوَاضِعِه ومُقَدَّمَهَا ، وَسُمِّيَ المِحْرَابُ لأنَّه مَحَلُّ مُحَارَبَةِ الشَّيْطَانِ ، كأنَّهَا وُضِعَتْ في أشرفِ مَوْضِع مِن بَيْتِ المَقْدِس ، وَجَدَ عِندَهَا فَاكهةَ الصَّيْفِ في الشِّتاءِ ، وفاكهةَ الشِّتاءِ في الصَّيْفِ ، تأتيها بِهِ المَلائكةُ مِنَ الجَنَّةِ ، قال زكريَّا لِمَرْيَم : مِنْ أيْنَ لَكِ هَذا الرِّزْق الآتِي في غَيْرِ أوانِه ، والأبوابُ مُغْلَقَةٌ عَلَيْكِ ؟ ، وَهُوَ دَليل جَوَاز الكَرَامَاتِ لأولياءِ اللَّهِ تعالى ، قالتْ : هُوَ مِن قِطْفِ الجَنَّةِ ، إنَّ اللَّهَ يَرْزَقُ مَن يَشَاء مِن عِبَادِه رِزْقًا واسعًا بِلا تَعَبٍ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧٩) : ((يُخْبِر رَبُّنَا أنَّه تَقَبَّلَهَا مِنْ أُمِّهَا نذيرةً، وأنَّه ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ، أي : جَعَلَهَا شَكْلًا مَلِيحًا ، ومَنْظَرًا بهيجًا ، ويَسَّرَ لها أسباب القَبول ، وقَرَنَهَا بالصالحين مِن عِبَادِه ، تَتَعَلَّم مِنهُم العِلْمَ والخَيْرَ والدِّينَ ، فلهذا قال : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ، ... ، أي : جَعَلَه كافلًا لها . قال ابنُ إسحاق : ومَا ذلك إلا أنَّهَا كانت يَتيمةً ، وذَكَرَ غَيْرُه أنَّ بَنِي إسرائيل أصابتهم سَنَةٌ جَدْب ، فَكَفَلَ زكريَّا مَرْيَمَ لذلك ، ولا مُنَافَاة بَيْنَ القَوْلَيْن ، واللَّهُ أعْلَم . وإنَّما قَدَّرَ اللَّهُ كَوْنَ زكريَّا كَافِلَها لسعادتها ، لِتَقْتَبِسَ مِنْهُ عِلْمًا جَمًّا نافعًا ، وعَمَلًا صالحًا ، ولأنَّه كانَ زَوْجَ خالتها ، عَلى مَا ذَكَرَه ابنُ إسحاق وابنُ جرير وغَيْرُهما . وقِيل : زَوْج أُختها ، كما ورد في الصحيح ، " فإذا بيحيى وعِيسى ، وهُمَا ابْنَا الخَالَةِ " . وقَدْ يُطْلَق عَلى مَا ذَكَرَه ابنُ إسحاق ذلك

أيضًا تَوَسُّعًا ، فعلى هذا كانت في حِضَانة خالتها . ... . ثُمَّ أخبرَ تَعَالى عَن سِيادتها وجَلالتها في مَحَلِّ عِبادتها ، فقال : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ ، قال مُجَاهِد وعِكْرِمَة وسعيد بن جُبَير وأبو الشَّعْثَاء وإبراهيم النَّخَعِي والضَّحَّاك وقَتَادَة والربيع بن أنس وعَطِيَّة العَوْفي والسُّدي : يَعْنِي وَجَدَ عِندَها فاكهةَ الصَّيْفِ في الشِّتاء ، وفاكهةَ الشِّتاءِ في الصَّيْفِ . وعَن مُجَاهِد : ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ ، أي : عِلْمًا ، أوْ قال : صُحُفًا فِيها عِلْم ، رواه ابنُ أبي حاتم ، والأوَّلُ أصَحُّ . وفِيه دَلالة على كَرَامَاتِ الأولياء ، وفي السُّنَّةِ لهذا نظائر كثيرة ، فإذا رأى زكريَّا هذا عِندَها ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أنَّى لَكِ هَذَا ﴾ ، أي : يَقُول مِنْ أيْنَ لَكِ هذا ؟ ، ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾)) اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١ / ٥٠٥) : ((قَوْلُه : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ، أي : رَضِيَ بِها في النَّذْرِ ، وَسَلَكَ بِها مَسْلَكَ السُّعَدَاءِ. وقالَ قَوْمٌ : مَعْنَى التَّقَبُّلِ التَّكَفُّلُ والتَّربيةُ والقِيَامُ بِشَأنها ، ... ، ﴿ وَأنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ، ... ، أي: فَنَبَتَتْ نَبَاتًا حَسَنًا ، والمَعْنَى أنَّه سَوَّى خَلْقَهَا مِن غَيْرِ زِيَادَةٍ ولا نُقْصَان . قِيل : إنَّها كانتْ تَنْبُتُ في اليَوْمِ مَا يَنْبُت المَوْلُودُ في عام ، وقيل: هُوَ مَجَاز عن التَّرْبية الحَسَنَة العائدة عَلَيها بِما يُصْلِحُها في جميع أحوالها. قَوْلُه : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ، ... ، أي : جَعَلَه اللَّهُ كافلًا لها، ومُلْتَزِمًا بمصالحها. ... . قَوْلُه : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ ﴾ ، قَدَّمَ الظَّرْفَ للاهتمامِ بِه ، وكَلِمَةُ " كُلَّ " ظَرْف ، والزَّمَانُ مَحذوف، و" ما " مَصدرية، أوْ نَكِرَة مَوصوفة، والعاملُ في ذلك قَوْلُه: ﴿ وَجَدَ ﴾ ، أي : كُلَّ زَمَانِ دُخوله عَلَيها وَجَدَ عِندَهَا زِرْقًا ، أي : نَوْعًا مِن أنواع الرِّزْق ، والمِحْرَابُ في اللغة : أكْرَمُ مَوْضِع في المَجْلِس ، قاله القُرطبي، وهو منصوب على التَّوَسُّع . قِيل : إنَّ زكريَّا جَعَلَ لِها مِحْرَابًا لا يُرْتَقَى إلَيه إلا بِسُلَّمٍ، وكانَ يُطْلِق عَلَيْهَا حَتَّى كَبُرَتْ ، وكانَ إذا دَخَلَ عَلَيها وَجَدَ عِندَها فَاكهةَ الشِّتَاءِ في الصَّيْفِ ، وفاكهةَ الصَّيْفِ في الشِّتَاءِ ، فقال : ﴿ يَا مَرْيَمُ أنَّى لَكِ هَذَا ﴾ ، أي: مِن أيْنَ يَجِيء لَكَ هَذا الرِّزْق الذي لا يُشبِه أرزاقَ الدُّنيا ؟ ، ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ ، فَلَيْسَ ذلك بعجيبٍ ولا مُسْتَنْكَرٍ ، وجُملةُ قَوْله : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ تَعْلِيلِيَّةٌ لِمَا قَبْلَهَا ، وَهُوَ مِن تَمَامِ كَلامِها ، ومَنْ قال : إنَّه مِن كلام زَكريَّا ، فَتَكُون الجُملةُ مُسْتَأنَفَةً . ... . وأخرجَ عَبْدُ بن حُمَيد وابنُ جَرِير عَن قَتَادَة قال : كانتْ مَرْيَمُ ابنةَ سَيِّدِهِم وإمَامِهِم ، فَتَشَاحَّ عَلَيها أحبارُهم ، فَاقْتَرَعُوا فِيها بِسِهَامِهِم أيُّهُم يَكْفُلُهَا ، وكانَ زكريَّا زَوْجَ أُخْتِهَا ، فَكَفَلَهَا ، وكانتْ عِندَه ، وَحَضَنَهَا. وأخرجَ البَيهقيُّ في سُنَنِه عن ابن مسعود وابن عَبَّاس وناسٍ مِنَ الصَّحَابَة نَحْوَه ، وأخرجَ ابنُ جرير عن ابن عباس : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ، قال : جَعَلَهَا مَعَهُ في مِحْرَابِه)) .

وَعَن ابن عَبَّاس ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنهما ــ قال : ((كَفَلَهَا زَكريَّا فَدَخَلَ عَلَيْهَا المِحْرَابَ ، فَوَجَدَ عِندَهَا عِنَبًا في مِكْتَلٍ في غَيْرِ حِينِهِ ، قال زَكريَّا : أنَّى لَكِ هَذا ؟ ، قالت : هُوَ مِن عِندِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، قال : إنَّ الذي يَرْزُقُكِ العِنَبَ في غَيْرِ حِينِهِ لَقَادِرٌ أن يَرْزُقَنِي مِنَ العَاقِرِ الكَبِيرِ العَقِيمِ وَلَدًا)) [سَبَقَ تَخريجُه] .

وعَن أبي هُرَيْرَة ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((كُلُّ وَلَدِ آدَمَ الشَّيْطَانُ نَائِلٌ مِنْهُ تِلْكَ الطَّعْنَةَ ، وَلَهَا يَسْتَهِلُّ المَوْلُودُ صَارِخًا ، إلا مَا كانَ مِنْ مَرْيَمَ وَابْنِهَا ، فَإنَّ أُمَّهَا حِينَ وَضَعَتْهَا يَعْنِي أُمَّهَا قالتْ: إنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَضَرَبَ دُونَهَا الحِجَابَ فَطَعَنَ فِيهِ ، فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ، وأنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا، وَهَلَكَتْ أُمُّهَا، فَضَمَّتْهَا إلى خَالَتِهَا أُمِّ يَحْيَى)) [٦٢] .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلى نِسَاءِ العَالَمِين ﴾ [آل عِمران : ٤٢] .

واذكُرْ وَقْتَ قَوْلِ المَلائكةِ ، أي : جِبريل ﷺ : يَا مَرْيَمُ إنَّ اللَّهَ اختاركِ مِن بَيْنِ سَائِرِ النِّسَاءِ فَخَصَّكِ بالكَرَامَاتِ ، وأُطْلِقَ المَلائكة ، وأُريدَ بِهِ جِبْرِيل ﷺ وَحْدَه ، فَهُوَ مِن بابِ تَسْمِيَةِ الخَاصِّ بِاسْمِ العَامِّ تَعظيمًا لَهُ ، وَطَهَّرَكِ مِنَ الأدناسِ والأقذارِ ومِمَّا اتَّهَمَكِ بِهِ اليَهُودُ مِنَ الفَاحشةِ ، واختاركِ عَلى سَائرِ نِسَاءِ العَالَمِين لِتَكُوني مَظْهَرَ قُدرةِ اللَّهِ في إنجاب وَلَدٍ بِدُون أب .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٨٢) : ((هذا إخبارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالى بِما خَاطَبَتْ بِهِ المَلائكةُ مَرْيَمَ عليها السلام عَن أمْرِ اللَّهِ لهم بذلك أنَّ اللَّهَ قَد اصطفاها ، أي : اختارها لِكَثرةِ عِبَادتها وزَهَادتها وشَرَفِها وطَهارتها مِنَ الأكدارِ والوَسَاوِسِ ، واصطفاها ثانيًا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةً لِجَلالتها عَلى نِسَاء العَالَمِين)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٣٦) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَإذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ ﴾ ، يَعْنِي جِبْرِيل : ﴿ يَا مَرْيَمُ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ اختاركِ ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ ، قِيل : مِن مَسِيسِ الرِّجَالِ ، وقِيل : مِنَ الحَيْضِ والنِّفَاسِ . قال السُّدي : كانتْ مَرْيَمُ لا تَحِيض ، وقِيل : مِنَ الذُّنُوبِ ، ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلى نِسَاءِ العَالَمِين ﴾ ، قِيل : عَلى عَالَمِي زَمَانِها . وقِيل : على جميع نِسَاء العَالَمِين في أنَّهَا وَلَدَتْ بلا أب ، وَلَمْ يَكُن ذلك لأحدٍ مِنَ النِّسَاء . وقِيل : بالتَّحرير في المسجد ، وَلَمْ تُحَرَّرْ أُنثى)) .

---

٦٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٦٥٠) برقم (٤١٥٨) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

إنَّ اللَّهَ اختارَ مَرْيَمَ عَلَيها السَّلامُ ، وطَهَّرَهَا مِنَ الكُفْرِ والضَّلالِ والدَّنَسِ ، وجَعَلَهَا نَقِيَّةً عابدةً تَقِيَّةً ذات قَلْبٍ صافٍ لا مَكَان فيه للشوائب ، وذات جَسَد طاهر شريف لا مَكَان للحَرَام فِيه . ومَرْيَمُ جُعِلَتْ ذات قلب طاهر وجسدٍ نَقِيٍّ لِكَي تَضطلع بِدَورها المِحْوَري في الدَّعوةِ الإسلاميَّة ، فالهِدايةُ الإلهيَّةُ والنَّجَاسَةُ ضِدَّان لا يَجتمعان ، ونقيضان لا يَلْتقيان . وَلَوْ وُجِدَتْ أدنى شُبهة حَوْلَ مَرْيَم لكانَ ذلك ضَرْبَةً قاضيةً للدَّعْوَةِ الإسلاميَّة ، وبابًا واسعًا لِدُخول المُشَكِّكين الطاعنين في الدِّينِ ، وعِندئذ سَتَؤُول دَعْوَةُ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ إلى الفشل بسبب غِياب الحاضنة الطاهرة ، وهذا مُحَال . إنَّ اللَّهَ اختارَ مَرْيَمَ المَنْبَعَ الصافي والرَّحِمَ الطاهرةَ والجَسَدَ الشَّرِيفَ لاحتضانِ نَبِيِّ اللَّهِ عِيسَى ﷺ ، والمُساهمة في الدَّعوةِ الإسلاميَّة مِن خِلالِ مَوقِف قَوِيٍّ مُتَمَاسِك ، ومنظورٍ إيماني لا تَتَسَلَّل إليه الشُّبُهَات أو الشُّكُوك أو النَّجَاسَات المَعنوية والحِسِّية . والدَّعوةُ تَخْرُج مِن حاضنة طاهرة شريفة لِكَي تكون ذات تأثير وإقناع في الرأي العام ، ولا يُمكِن أن تَنْبُعَ مِن مكان مَشبوه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٥١٠) : ((قِيل : هذا الاصطفاءُ الآخَر غَيْر الاصطفاء الأوَّل ، فالأوَّلُ هو حَيْثُ تَقَبَّلَهَا بِقَبول حَسَن ، والآخَر لِوِلادة عِيسى ، ... . وقِيل : الاصطفاءُ الآخَر تأكيدٌ للاصطفاء الأوَّل ، والمُراد بِهما جميعًا واحد)) .

تَتَجَذَّر الطَّهارةُ كَرُتبة سَامِيَة ومَنزلة عظيمة ، لا يَحْصُل عَلَيها إلا مَن اختاره اللَّهُ لِحَمْلِ مَسؤولية الدِّينِ وتَبليغِه ، وإيصالِ الدَّعْوَة الإسلاميَّة إلى الناس . والسَّيدةُ مَرْيَم عَلَيها السلام لَيْسَت امرأةً عاديَّة حَبِلَتْ وَوَلَدَتْ ، فاللَّهُ اختارها لإجراء مُعْجِزَة خالدة ، حَيْثُ صَارَتْ حُبْلَى بِدُون زَوْجٍ ، وهذا الطِّفْلُ الذي كان في أحشائها هُوَ واحد مِن أعظم أنبياء اللَّهِ تعالى، عِيسَى ﷺ الذي خَلَقَه اللَّهُ بِدُون أب ، لِيَرى الناسُ القُدرةَ المُطْلَقَةَ للَّهِ الخالقِ العظيمِ .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الراكعين ﴾ [آل عِمران: ٤٣].

يا مَرْيَمُ الْزَمِي عِبَادَةَ اللَّهِ وطَاعَتَه شُكْرًا على اصطفائه ، وصَلِّي للَّهِ مَعَ المُصَلِّين . وقَدَّمَ اللَّهُ السُّجُودَ عَلى الرُّكُوع لِكَوْنِه أفضلَ ، أوْ لأنَّها الصَّلاة في شريعتهم ، والواو يُفِيد الجَمْعَ بلا ترتيب .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١/ ٣٨) : ((أُمِرَت بالصَّلاة في الجَماعةِ بِذِكْرِ أركانها مُبَالَغَةً في المُحَافَظَة عَلَيها.وَقَدَّمَ السُّجُودَ عَلى الركوع إمَّا لِكَوْنِه كذلك في شَرِيعتهم ، أوْ للتَّنْبيه عَلى أنَّ الواو لا تُوجِب الترتيبَ،أوْ لِيَقْتَرِن اركعي بالراكعين،للإيذان بأنَّ مَن لَيْسَ في صَلاتهم ركوع لَيْسُوا مُصَلِّين. وقِيل:المُراد بالقُنُوت إدامة الطاعة كَقَوْلِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ الليلِ سَاجِدًا وقَائِمًا﴾ [الزُّمَر : ٩]،وبالسُّجُودِ الصَّلاة،كَقَوْلِه تعالى: ﴿وأدبارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]،وبالركوع الخُشُوع والإخبات)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إذْ يُلْقُونَ أقْلامَهُمْ أيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إذْ يَخْتَصِمُون ﴾ [آل عِمران : ٤٤] .

مَا قَصَّهُ اللَّهُ عَلَيْكَ يا مُحَمَّد مِن قِصَّةِ امْرَأةِ عِمْرَان وابْنَتِهَا مَرْيَم البَتُول ومِن قِصَّةِ زكريا ويَحيى ، إنَّما هُوَ مِن الأنباءِ المُغَيَّبَةِ والأخبارِ الهَامَّةِ التي أوْحَى اللَّهُ بِها إلَيْكَ يَا مُحَمَّد مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا مِن قَبْل ، وَمَا كُنْتَ عِندَهم إذْ يَخْتَصِمُون ويَتَنَافَسُون عَلى كَفَالَة مَرْيَم حِينَ أَلْقَوْا سِهَامَهُم للقُرْعَةِ ، كُلٌّ يُريدها في كَنَفِه ورِعَايته ، ومَا كُنْتَ عِندَهم إذْ يَتنازعون فِيمَن يَكْفُلُهَا مِنهُم .

والمَقصودُ بِـ ﴿ الغَيْبِ ﴾ أنَّها مِنْ خَفِيِّ أخبارِ القَوْمِ التي لَمْ تَطَّلِعْ أنتَ يَا مُحَمَّد عَلَيها ، ولا قَوْمُك،وَلَمْ يَعْلَمْهَا إلا قليل مِن عُلماءِ اليهودِ والنَّصَارى. وهذا يَدُلُّ على صِدْقِ مُحَمَّد ﷺ ، وصِحَّةِ نُبُوَّتِه ورِسَالته ، وأنَّهُ مُؤيَّد بالوَحْيِ الإلهيِّ . والنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ لا يَعْلَم الغَيْبَ إلا إذا أطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيه.

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٨٢) : ((﴿ ذَلِكَ مِنْ أنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إلَيْكَ ﴾ ، أي : نَقُصُّه عَلَيْكَ ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إذْ يُلْقُونَ أقْلامَهُمْ أيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إذْ يَخْتَصِمُون﴾ أي : مَا كُنْتَ عِندَهم يَا مُحَمَّد فَتُخْبِرهم عَنهُم مُعَايَنَةً عَمَّا جَرَى ، بَلْ أطْلَعَكَ اللَّهُ عَلى ذلك كأنَّكَ حَاضِرٌ وشَاهِدٌ لِمَا كانَ مِن أمْرِهِم حِينَ اقْتَرَعُوا في شأن مَرْيَم أيُّهُم يَكْفُلُهَا ، وذلك لِرَغبتهم في الأجر . قال ابن جرير : حَدَّثَنَا القاسم حَدَّثَنَا الحُسَيْن حَدَّثَني حَجَّاج عن ابن جُرَيج عن القاسم ابن أبي بَزَّة أنَّه أخْبَرَه عَن عِكْرِمَة وأبي بَكْر عَن عِكْرِمَة ، قال : ثُمَّ خَرَجَتْ بِها يَعْنِي أُمَّ مَرْيَم بِمَرْيَم تَحْمِلُها في خِرَقِهَا إلى بني الكاهن بن هارون أخِي مُوسَى عليهما السلام ، قال : وَهُم يَوْمَئِذ يَلُون في بَيْتِ المَقْدِسِ مَا يَلِي الحَجَبَةُ مِنَ الكَعْبَةِ ، فقالتْ لَهُم : دُونَكم هذه النَّذِيرَة ، فإنِّي حَرَّرْتُهَا وَهِيَ ابنتي ، ولا تَدْخُل الكَنِيسَةَ حائض ، وأنا لا أَرُدُّهَا إلى بَيْتِي ، فقالوا : هذه ابنةُ إمَامِنا _ وكانَ عِمْرَان يَؤُمُّهُم في الصَّلاةِ _ ، وصاحبِ قُرْبَانِنا ، فقال زكريَّا : ادْفَعُوها لِي ، فإنَّ خالتها تَحْتِي ، فقالوا : لا تَطِيب أنفُسُنَا ، هي ابنةُ إمَامِنا ، فذلك حِينَ اقْتَرَعُوا عَلَيها بأقلامهم التي يَكْتُبُون بِها التَّوْرَاةَ، فَقَرَعَهُم زكريَّا فَكَفَلَهَا . وقَدْ ذَكَرَ عِكْرِمة أيضًا والسُّدي وقَتَادة والرَّبيع بن أنس وغَيْرُ واحد دَخَلَ حديثُ بَعْضِهم في بعض ، أنَّهُم ذَهَبُوا إلى نَهْرِ الأُرْدُن ، واقْتَرَعُوا هُنالك عَلى أن يُلْقُوا أقلامَهم ، فَأيُّهُم يَثْبُتْ في جَرْيَةِ الماء فهو كافلها، فَأَلْقَوْا أقلامَهم، فاحتملها الماءُ، إلا قَلَم زكريَّا ، فإنَّه ثَبَتَ . ويُقَال : إنَّه ذَهَبَ صُعُدًا يَشُقُّ جَرْيَةَ الماءِ ، وكانَ معَ ذلك كبيرَهم وسَيِّدَهم وعَالِمَهم وإمامَهم ونَبِيَّهم،صَلَوَاتُ اللَّهِ وسَلامُه عَلَيه وعلى سائر النَّبِيِّين)) اهـ. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١ / ٥١١) : ((والإشارةُ بِقَوْلِه : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى مَا سَبَقَ مِنَ الأمُور التي أخبرَ اللَّهُ بِهَا .

والوَحْيُ في اللغة : الإعلامُ في خَفَاء ، يُقَال : وَحَى وأوْحَى بِمَعْنَى . قال ابن فارس : الوَحْيُ : الإشارةُ ، والكِتَابَةُ ، والرِّسَالَةُ ، وكُلُّ مَا أَلْقَيْتَه إلى غَيْرِكَ حَتَّى تُعْلِمَه . قَوْلُه : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ تَحْضُرُنَّهُم ، يَعْنِي المُتَنَازِعِين في تَربيةِ مَرْيَم ، وإنَّما نَفَى حُضُورَه عِندَهم معَ كَوْنِه مَعلومًا ، لأنَّهُم أنكَرُوا الوَحْيَ ، فَلَوْ كانَ ذلك الإنكار صحيحًا لَمْ يَبْقَ طريق للعِلْمِ بِهِ إلا المُشَاهَدَة والحُضُور ، وهُمْ لا يَدَّعُون ذلك ، فَثبَتَ كَوْنُه وَحْيًا ، مَعَ تَسْليمهم أنَّه لَيْسَ مِمَّن يَقْرَأ التَّوراةَ ولا مِمَّن يُلابِس أهْلَها . والأقلامُ جَمْعُ قَلَم ، مِنْ قَلَمَه إذا قَطَعَه ، أي : أقلام يَكْتُبُون بِها . وقِيل : قِدَاحهم ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ ، أي : يَحْضُنُهَا ، أي : يُلْقُون أقلامَهم لِيَعْلَمُوا أيُّهُم يَكْفُلُهَا ، وذلك عِند اختصامهم في كَفَالتها ، فقال زَكريَّا : هُوَ أحَقُّ بِها لِكَوْنِ خالتها عِندَه ، وهي أشْيَع أُخْتُ حَنَّة أُمِّ مَرْيَم . وقال بنو إسرائيل: نَحْنُ أحقُّ بِها لِكَوْنِها بِنْتَ عَالِمِنَا، فَاقْتَرَعُوا، وَجَعَلُوا أقلامَهم في المَاءِ الجَارِي عَلى أنَّ مَنْ وَقَفَ قَلَمُه وَلَمْ يَجْرِ معَ المَاءِ فهو صاحبُها، فَجَرَتْ أقلامُهم، وَوَقَفَ قَلَمُ زَكريَّا. وقد استدلَّ بِهذا مَنْ أثبتَ القُرْعَةَ ، والخِلافُ في ذلك مَعْرُوف ، وقَدْ ثَبَتَتْ أحاديث صحيحة في اعتبارها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبين ﴾ [آل عِمران : ٤٥] .

قالَ المَلَكُ جِبريلُ ﷺ : يَا مَرْيَمُ إنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِمَوْلُودٍ يَحْصُل بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ بِلا واسطة أب، والتَّبشيرُ : إخبارُ المَرْءِ بِمَا يَسُرُّه مِنْ خَبَرٍ . اسْمُه عِيسَى ، وَلَقَبُهُ المَسِيح ، لأنَّه مُسِحَ بالبَرَكَةِ ، أوْ مُسِحَ (طُهِّرَ) مِنَ الذُّنُوبِ . ونَسَبَه اللَّهُ إلى أُمِّهِ تَنْبِيهًا على أنَّها تَلِدُه بلا أب ، إذْ عَادَة الرِّجَال نِسْبَتُهُم إلى آبائهم، سَيِّدًا عظيمًا شريفًا ذَا جَاهٍ وَشَرَفٍ وَقَدْرٍ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، وَمِنَ المُقَرَّبين عِند اللَّهِ تعالى . أوْ : ذَا جَاهٍ في الدُّنيا بالنُّبُوَّةِ والآخِرَةِ بالشَّفَاعَةِ والدَّرَجَاتِ العُلا ، وَمِنَ المُقَرَّبين إلى ثَوَابِ اللَّهِ وكرامته. وقِيل: إشارة إلى عُلُوِّ دَرَجَتِهِ في الجَنَّةِ ، أوْ رَفْعِه إلى السَّمَاءِ وصُحْبَةِ الملائكة .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٨٤) : ((هذه بِشَارَةٌ مِنَ المَلائكةِ لِمَرْيَم عليها السلام بأن سَيُوجَد مِنْهَا وَلَدٌ عظيم له شأن كبير . قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ ، أي : بِوَلَدٍ يَكُون وُجُودُه بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ، أي : يَقُول له : كُن ، فَيَكُون ، وهذا تفسير قَوْلِه : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ ، كَمَا ذَكَرَ الجُمهورُ عَلى مَا سَبَقَ بَيَانُه ، ﴿ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ، أي : يَكُون مَشهورًا بهذا في الدُّينا ، ويَعْرِفُه المُؤمِنُون بذلك ، وسُمِّيَ المَسِيحُ ، قال بعضُ السَّلَف : لِكَثرةِ سِيَاحته ، وقِيل : لأنَّه كانَ مَسِيحَ القَدَمَيْن لا أخْمَص لَهُمَا ، وقِيل: لأنَّه كانَ إذا مَسَحَ أحَدًا مِن ذَوِي العَاهَاتِ بَرِئَ بإذنِ اللَّهِ تعالى.وقَوْلُه: ﴿ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

نِسْبَةً إلى أُمِّهِ حَيْثُ لا أب له ، ﴿ وَجِيهًا في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبين ﴾ ، أي : لَهُ وَجَاهَة ومَكَانَة عِند اللَّهِ في الدُّنيا بِمَا يُوحِيه اللَّهُ إلَيْه مِنَ الشَّريعةِ ، ويُنْزِلُه عَلَيه مِنَ الكِتَابِ وغَيْر ذلك مِمَّا مَنَحَه اللَّهُ بِهِ ، وفي الدَّارِ الآخِرَةِ يَشْفَع عِند اللَّهِ فِيمَن يَأذَن له فيه ، فَيُقْبَل مِنْهُ أُسْوَةً بإخوانه مِن أُولي العَزْمِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وسَلامُه عَلَيه وعَلَيْهِم أجمعين)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصالحين ﴾ [آل عِمران: ٤٦] [٦٣] .

ويُكَلِّمُ عِيسَى ﷺ الناسَ طِفْلًا قَبْلَ وَقْتِ الكَلامِ ، ويُكَلِّمُهُم كَهْلًا ، والمَهْدُ: مَضْجَع الصَّبِيِّ في رَضَاعِه . أوْ : يَدْعُو إلى عِبادةِ اللَّهِ وَحْدَه لا شَرِيكَ له في حَالِ صِغَرِه مُعْجِزَةً وآيَةً ، وفي حَالِ كُهُولته حِينَ يُوحِي اللَّهُ إلَيْهِ بذلك . إنَّ عِيسَى ﷺ يُكَلِّمُ الناسَ في هَاتَيْن الحَالَتَيْن كَلامَ الأنبياء مِن غَيْرِ تَفَاوُتٍ بَيْنَ حَالِ الطُّفولةِ وحَالِ الكُهُولَةِ ، وهذا غاية في الإعجاز . وَعِيسَى ﷺ مِنَ الكاملين في التُّقَى والصَّلاحِ ، وَهُوَ مِنَ الصالحين في قَوْلِه وعَمَلِه ، لَهُ عِلْمٌ صَحِيحٌ ، وعَمَلٌ صَالِحٌ . وذِكْرُ أحوالِ عِيسَى ﷺ المُختلفة المُتنافية تَنْبيهًا على أنَّه إنسان ، ولَيْسَ إلَهًا ولا رَبًّا . وَلَوْ كانَ إلَهًا لَمَا تَغَيَّرَ ، وكُلُّ مُتَغَيِّرٍ عَبْدٌ مَخْلُوقٌ حَادِثٌ وُجِدَ بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُنْ . وقال الطبري في تفسيره (٣ / ٢٧٠) : ((وأمَّا قَوْلُه : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ ﴾ ، فإنَّ مَعْنَاه : إنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بكلمة مِنه

---

٦٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٣٩٠) : ((والْمَهْدُ : مَضْجَعُ الصَّبِيِّ في رَضَاعِه ، وَهُوَ مَأخُوذ مِنَ التَّمهيدِ ، وَهُوَ التَّوْطئة . وفي تَكْليمه للناس في تِلْك الحال قَوْلان : أحدهما لِتَبْرِئَةِ أُمِّهِ مِمَّا قُذِفَتْ بِه . والثاني لِتَحقيقِ مُعْجزته الدَّالة على نُبُوَّتِه . قال ابن عباس : تَكَلَّمَ سَاعَةً في مَهْدِه ثُم لَم يَتكلم حتى بَلَغَ مَبْلَغَ النُّطْقِ . ﴿ وَكَهْلًا ﴾ ، قال : ابن ثلاثين سَنَة أرسله اللَّهُ تعالى ، فَمَكَثَ في رِسَالته ثلاثين شَهْرًا ، ثُمَّ رَفَعَه اللَّهُ . وقال وَهْب بن مُنَبِّه: جَاءَه الوَحْيُ على رأس ثلاثين سَنَة ، فَمَكَثَ في نُبُوَّتِه ثلاث سنين ، ثُم رَفَعَه اللَّهُ . قال ابنُ الأنباري : كان عليه السلام قَدْ زادَ على الثلاثين ، ومَنْ أرْبَى عَلَيها فَقَدْ دَخَلَ في الكُهُولة . والكَهْلُ عِند العرب : الذي قَدْ جَاوَزَ الثلاثين ، وإنما سُمي الكَهْلُ كَهْلًا لاجتماع قُوَّتِه ، وكَمَالِ شَبَابِه ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهم : قَد اكتهلَ النَّباتُ . وقال ابنُ فارس : الكَهْلُ : الرَّجُل حِينَ وَخَطَه الشَّيْبُ ، فإنْ قِيل : قَدْ عُلِمَ أنَّ الكَهْلَ يَتَكَلَّم ، فعنه ثلاثة أجوبة : أحدها أنَّ هذا الكلام خَرَجَ مَخْرَجَ البِشَارَةِ بِطُولِ عُمُرِه ، أي أنَّه يَبْلُغ الكُهُولة ، وَقَدْ رُوِيَ عَن ابن عباس أنَّه قال : ﴿ وَكَهْلًا ﴾ ، قال: ذلك بَعْد نُزوله مِن السَّمَاء . والثاني أنَّه أخْبَرَهُم أنَّ الزَّمَان يُؤَثِّر فِيه ، وأنَّ الأيام تَنْقُلُه مِن حال إلى حال ، وَلَوْ كانَ إلَهًا لَمَ يَدْخُل عَلَيه هذا التَّغَيُّر ، ذَكَرَه ابنُ جرير الطبري، والثالث أنَّ الْمُراد بالكَهْلِ : الحليم ، قاله مجاهد)) .

اسْمُه المسيحُ عِيسى ابن مَرْيَم ، وَجِيهًا عِند اللَّهِ ، ومُكَلِّمًا الناسَ في المَهْدِ . ... .وإنَّما عَنَى جَلَّ ثَنَاؤُه بِقَوْلِه : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ ، ويُكَلِّم الناسَ طِفْلًا في المَهْدِ دَلالةً عَلى بَرَاءَةِ أُمِّهِ مِمَّا قَذَفَهَا بِهِ المُفترون عَلَيها ، وحُجَّةً له على نُبُوَّتِه ، وبالغًا كبيرًا بعد احتناكه بِوَحْي اللَّهِ الذي يُوحيه إلَيْه، وأمْرِه ونَهْيِه، ومَا يُنَزِّل عَلَيه مِن كِتابه.وإنَّما أخبرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدَه بذلك مِن أمْرِ المسيح ، وأنَّه كذلك كان ، وإنْ كانَ الغالب مِن أمْرِ الناسِ أنَّهُم يَتكلمون كُهُولًا وشُيُوخًا ، احتجاجًا بِهِ على القائلين فِيه مِن أهْلِ الكُفْرِ باللَّهِ مِنَ النَّصَارَى الباطلَ ، وأنَّه كانَ مُنْذُ أنشأه مَوْلُودًا طِفْلًا ثُمَّ كَهْلًا، يَتَقَلَّب في الأحداث، ويَتَغَيَّر بِمُرور الأزمنة عَلَيه والأيام، مِنْ صِغَر إلى كِبَر ، ومِن حال إلى حال ، وأنَّه لَوْ كانَ كما قال المُلْحِدُون فِيه كان ذلك غَيْرَ جائز عليه ، فَكَذَّبَ بذلك ما قاله الوَفْدُ مِن أهْلِ نَجْرَان الذينَ حَاجُّوا رسولَ اللَّهِ ﷺ فيه ، واحْتَجَّ بِهِ عَلَيْهِم لِنَبِيِّه مُحَمَّدٍ ﷺ ، وأعْلَمَهُم أنَّه كانَ كسائر بني آدم إلا مَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الكَرَامَةِ التي أبَانَه بِهَا مِنْهُم . ... . وأمَّا قَوْلُه : ﴿ وَمِنَ الصالحين ﴾ ، فإنَّه يَعْنِي : مِن عِدَادِهِم وأوليائهم ، لأنَّ أهْلَ الصَّلاحِ بَعْضَهم مِن بَعْضٍ في الدِّينِ والفَضْلِ)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٣٨) : ((﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ ﴾ صَغِيرًا قَبْلَ أوانِ الكَلامِ ، كَمَا ذَكَرَه في سُورة مَرْيَم ، قال : ﴿ إنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الكِتَابَ ﴾ [مَرْيَم : ٣٠] ، وحُكِيَ عَن مُجَاهِد قال : قالتْ مَرْيَم : كُنْتُ إذا خَلَوْتُ أنا وعِيسَى حَدَّثَنِي وحَدَّثْتُه ، فإذا شَغَلَني عَنْهُ إنسان سَبَّحَ في بَطْني وأنا أسْمَعُ قَوْلَه . ﴿ وَكَهْلًا ﴾ ، قالَ مُقَاتِل : يَعْنِي إذا اجتمعَ قَبْلَ أن يُرْفَع الى السَّمَاءِ . وقال الحُسَين بن الفَضْل : ﴿ وَكَهْلًا ﴾ بَعْدَ نُزوله مِنَ السَّمَاءِ ، وقِيل : أخْبَرَهَا أنَّه يَبْقَى حَتَّى يَكْتَهِلَ ، وكَلامُه بَعْدَ الكُهُولة إخبارُه عَن الأشياءِ المُعْجِزَةِ . وقِيل : ﴿ وَكَهْلًا ﴾ نَبِيًّا ، بَشَّرَهَا بِنُبُوَّةِ عِيسَى عَلَيه السَّلام ، وكَلامُه في المَهْدِ مُعْجِزَةٌ ، وفي الكُهُولَةِ دَعْوَةٌ . وقال مُجَاهِد : ﴿ وَكَهْلًا ﴾ ، أي : حَلِيمًا. والعَرَبُ تَمْدَح الكُهُولَةَ ، لأنَّها الحالة الوُسْطَى في احتناكِ السِّنِّ ، واستحكامِ العَقْلِ، وجَوْدَةِ الرَّأيِ والتَّجربةِ ﴿ وَمِنَ الصالحين ﴾ ، أي : هُوَ مِن العِبَادِ الصالحين)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إذا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عِمران : ٤٧] .

قالتْ مَرْيَمُ تَعَجُّبًا واستفهامًا لا شَكًّا وإنكارًا : كَيْفَ يأتيني الوَلَدُ وأنا لَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ ؟ ، أي: لَمْ يُبَاشِرْني رَجُلٌ بالحَلالِ ، فَإنَّ هَذه الكِنَايات إنَّما تُطْلَق فيه ، أمَّا الزِّنَا فإنَّما يُقَال فِيه : خَبُثَ بِهَا وَفَجَرَ . وَسَبَبُ تَعَجُّبِ مَرْيَم عَلَيها السَّلام لأنَّه لَمْ تَكُنْ جَرَت العَادَةُ بأن يُولَد وَلَدٌ لا أب له .

قال لَهَا المَلَكُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في جَوَابِ ذلك السُّؤال : هَكَذَا أمْرُ اللَّهِ عظيم لا يُعْجِزُه شَيْءٌ ، يَخْلُق بِسَبَبٍ مِنَ الوَالِدَيْن وَبِغَيْرِ سَبَبٍ . وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ ، ولَمْ يَقُلْ : يَفْعَل، لِكَيْلا يَبْقَى لِمُبْطِلٍ شُبْهَة ، وأكَّد ذلك بِقَوْلِه : ﴿ إذا قَضَى أمْرًا فَإنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾، أي : إذا أرادَ شَيْئًا حَصَلَ مِن غَيْرِ تأخُّرٍ ولا حَاجَةٍ إلى سَبَب . وكَمَا يَقْدِر اللَّهُ أن يَخْلُقَ الأشياءَ بِتَرتيبِ الأسبابِ والمَوَاد ، يَقْدِر أن يَخْلُقَهَا دَفْعَةً واحدةً مِن غَيْرِ ذلك . و ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ تَمثيل لِكَمَالِ قُدرةِ اللَّهِ تعالى ، ونَفَاذِ مَشيئته في كُلِّ شَيْء ، وخُضُوع الأشياء لإرادته فَوْرًا بلا عوائق .

وقال الطبري في تفسيره (٣ / ٢٧٢) : ((قالتْ مَرْيَمُ ـ إذْ قالتْ لها المَلائكةُ إنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ـ : ﴿ رَبِّ أنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾ ، مِنْ أيِّ وَجْهٍ يَكُون لِي وَلَدٌ ؟ ، أمِنْ قِبَل زَوْج أتَزَوَّجُه وبَعْل أنكَحُه أَمْ تَبتدئ في خَلْقِه مِن غَيْرِ بَعْلٍ ولا فَحْلٍ وَمِن غَيْرِ أن يَمَسَّني بَشَر؟،فقالَ اللَّهُ لها : ﴿ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ ، يَعْني : هَكَذَا يَخْلُقُ اللَّهُ مِنْكِ وَلَدًا لَكِ مِن غَيْرِ أن يَمَسَّكِ بَشَرٌ ، فَيَجْعَلُه آيةً للناس وعِبْرَةً ، فإنَّه يَخْلُق مَا يَشَاء ، ويَصْنَع مَا يُريد ، فَيُعْطِي الوَلَدَ مَنْ يَشَاء مِن غَيْرِ فَحْلٍ ومِن فَحْلٍ ، ويَحْرِم ذلك مَن يَشَاء مِنَ النِّسَاء وإنْ كانتْ ذات بَعْل ، لأنَّه لا يَتَعَذَّر عَلَيه خَلْق شَيْء أرادَ خَلْقَه ، إنَّما هُوَ أن يأمر إذا أرادَ شيئًا مَا أرادَ خَلْقَه ، فَيَقُول له : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ مَا شَاءَ ، مِمَّا يَشَاء ، وكَيْفَ شَاءَ)) .

وَعَن أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال:كانَ رُوحُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مِنْ تِلْكَ الأرواحِ التي أُخِذَ عَلَيْهَا المِيثَاقُ في زَمَنِ آدم ، فَأرْسَلَهُ اللَّهُ إلى مَرْيَمَ في صُورةِ بَشَرٍ ، ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مَرْيَم: ١٧] ، ﴿ قَالَتْ أنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أكُ بَغِيًّا ﴾ [مَرْيَم : ٢٠] ، فَحَمَلَ الذي يُخَاطِبُهَا فَدَخَلَ مِنْ فِيهَا [٦٤] .

جَمَعَهُمُ اللَّهُ لَهُ يَوْمَئِذ جميعًا ، مَا هُوَ كائنٌ إلى يوم القيامة ، فَجَعَلَهُم أرواحًا ، ثُمَّ صَوَّرَهُم ، واستنطقهم ، فَتَكَلَّمُوا ، وَأَخَذَ عَلَيْهِم العَهْدَ والمِيثاقَ ، وأشهَدَهُم على أنفُسِهِم .

وكَمَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِيسَى ﷺ مِنْ أُمٍّ بِلا أبٍ ، فأيُّ غَرَابَة في أن يَخْلُقَ رُوحَه معَ الأرواحِ التي أَخَذَ عَلَيها الميثاقَ ؟! .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَالتي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً للعَالَمِين﴾ [الأنبياء : ٩١] .

---

٦٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٤٠٥) برقم (٣٤١٢) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

واذكُرْ مَرْيَمَ البَتُولَ التي أعَفَّتْ نَفْسَها عَن الفاحشةِ ، وعَنِ الحَلالِ والحَرَامِ مَعًا ، أي إنَّهَا حَفِظَتْ فَرْجَهَا مِنَ الرِّجَالِ عَامَّةً ، وَمِنَ الفَاحشةِ خَاصَّةً ، كَقَوْلِ اللَّهِ تعالى : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مَرْيَم : ٢٠] . وإنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ مَرْيَمَ معَ الأنبياءِ _ عليهم الصلاة والسلام _ وإنْ لَمْ تَكُن مِنهُم ، لأجْلِ ذِكْرِ عِيسَى ﷺ ، ومَا في ذِكْرِ قِصَّتها مِنَ الآية الباهرةِ . والتَّعبيرُ عَن مَرْيَم بالمَوصولِ : ﴿ وَالتي ﴾ لِتفخيمِ شَأنِها ، وتَنْزيهها عَمَّا زَعَمُوه في حَقِّهَا .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٥ / ٣٨٥) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَالتي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ فيه قَوْلان : أحدهما أنَّه مَخْرَج الوَلَدِ ، والمَعْنَى : مَنَعَتْهُ مِمَّا لا يَحِلُّ ، وإنَّما وُصِفَتْ بالعَفَافِ لأنَّها قُذِفَتْ بالزِّنَا . والثاني أنَّه جَيْبُ دِرْعِها ، ومَعْنَى الفَرْجِ في اللغة : كُلُّ فُرْجَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْن ، وَمَوْضِعُ جَيْبِ دِرْعِ المَرْأةِ مَشقوق ، فَهُوَ يُسَمَّى فَرْجًا ، وهذا أبْلَغ في الثَّنَاء عَلَيها ، لأنَّها إذا مَنَعَتْ جَيْبَ دِرْعِها ، فَهِيَ لِنَفْسِهَا أمْنَعُ)) .

فَأمَرَ اللَّهُ جِبريلَ عَلَيه السَّلام ، فَنَفَخَ في فَتْحَةِ دِرْعِهَا (قميصها) ، فَدَخَلَت النَّفْخَةُ إلى جَوْفِهَا فَحَمَلَتْ بِعِيسَى ﷺ بأمرِ اللَّهِ وقُدرته.وأضافَ اللَّهُ الرُّوحَ إلَيْهِ : ﴿ رُوحِنَا ﴾ تَشريفًا لِعِيسَى ﷺ وتَعظيمًا له .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٥ / ٣٨٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾ ، أي : أمَرْنَا جِبريلَ فَنَفَخَ في دِرْعِها ، فَأجْرَيْنَا فِيها رُوحَ عِيسَى ، كَمَا تَجْرِي الرِّيحُ بالنَّفْخِ ، وأضافَ الرُّوحَ إلَيْه إضافةَ المِلْكِ للتَّشريفِ والتَّخصيصِ)) .

وَجَعَلَ اللَّهُ مَرْيَمَ وابْنَهَا عِيسَى عَلامةً وأُعجوبةً للخَلْقِ تَدُلُّ على قُدرةِ اللَّهِ الباهرةِ لِيَعْتَبِرَ بها الناسُ . لَقَدْ جَعَلَهُمَا اللَّهُ آيةً للجِنِّ والإنْسِ ، حَيْثُ وَلَدَتْهُ بِلا رَجُلٍ . ومَنْ تَأمَّلْ حَالَهُمَا تَحَقَّقَ كَمَالَ قُدرةِ اللَّهِ الصَّانعِ عَزَّ وَجَلَّ .

وقَدْ قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ آيَةً ﴾ ، ولَمْ يَقُلْ : آيَتَيْن ، وهُمَا آيَتَان، لأنَّ مَعْنَى الكلام: وَجَعَلَ اللَّهُ شَأنَهما وأمْرَهما وقِصَّتَهُمَا آيَةً للعَالَمِين ، ولأنَّ الآية فِيهما واحدة أنَّها وَلَدَتْهُ مِن غَيْرِ رَجُلٍ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٦١) : ((هَكَذا يَذكُر تَعَالى قِصَّةَ مَرْيَمَ وابْنِها عِيسَى عَلَيهما السَّلامُ مَقرونة بِقِصة زكريَّا وابْنِه يَحْيَى عَلَيهما السلامُ ، فَيَذكُر أوَّلًا قِصَّةَ زكريَّا ، ثُمَّ يُتْبِعُها بِقِصَّةِ مَرْيَم ، لأنَّ تِلْك مَربوطة بهذه ، فإنَّها إيجاد وَلَدٍ مِن شَيْخٍ كبير قَدْ طَعَنَ في السِّنِّ، ومِن امرأة عَجُوز عَاقِر لَمْ تَكُن تَلِد في حَالِ شبابها ، ثُمَّ يَذكُر قِصَّةَ مَرْيَم وَهِيَ أعْجَب ، فإنَّهَا إيجاد وَلَدٍ مِن أُنثى بِلا ذَكَرٍ ، هَكَذَا وَقَعَ في سُورة آلِ عِمْرَان، وفي سُورةِ مَرْيَم ، وهَهُنَا ذَكَرَ قِصَّةَ زكريَّا ثُمَّ أتْبَعَهَا

بِقِصَّة مَرْيَم بِقَوْلِه : ﴿ وَالتي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ ، يَعْنِي مَرْيَم عَلَيها السَّلامُ ، كما قالَ في سُورةِ التَّحريم : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ التي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا ﴾ . وقَوْلُه : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً للعَالَمِين ﴾ ، أي : دَلالة عَلى أنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قدير ، وأنَّه يَخْلُق مَا يَشَاء ، وإنَّما أمْرُه إذا أرادَ شيئًا أن يَقُول لَهُ : كُن فَيَكُون ، ... . قال ابنُ أبي حاتم : حَدَّثَنَا أبي حَدَّثَنَا عمرو ابن عَلِيٍّ حَدَّثَنَا أبو عاصم الضَّحَّاك بن مَخْلَد عَن شُعَيْب ، يَعْنِي ابْنَ بِشْر عَن عِكْرِمَة عن ابن عَبَّاس في قَوْلِه : ﴿ للعَالَمِين ﴾ ، قال : العَالَمِين : الجِنُّ والإنْسُ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ التي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ [التَّحريم : ١٢] .

مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَان مَثَلٌ في الإيمانِ ، حَفِظَتْ فَرْجَهَا وَصَانَتْهُ عَن الفَوَاحِشِ ، فَهِيَ عَفِيفَةٌ شريفةٌ طَاهرة ، لا كَمَا زَعَمَ اليَهُودُ عَلَيْهِم لَعْنَةُ اللَّهِ أنَّهَا زَنَتْ ، وأنَّ وَلَدَهَا عِيسَى ابْنُ زِنَى ، فأمرَ اللَّهُ رَسُولَه جِبريلَ عليه السَّلام فَنَفَخَ في فَتْحَةِ دِرْعِهَا (قميصها) ، فَوَصَلَ أثرُ ذلك إلى فَرْجِها فَحَمَلَتْ بِعِيسَى . وآمَنَتْ بِشَرائعِ اللَّهِ وكُتُبِه السَّمَاوِيَّةِ ، وكانتْ مِنَ القَوْمِ المُطيعين ، العابدين للَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وهذا مَدِيحٌ عظيمٌ لِمَرْيَم عليها السَّلام ، وثَنَاءٌ عَلَيها بِكَثرةِ العِبَادَةِ والطاعةِ والخُشُوعِ .

وتَذكيرُ " القانتين " لِتَغليبِ الذُّكُورِ على الإناثِ ، والإشعارِ بأنَّ طاعتها لا تَقِلُّ عَن طاعة الرجال الكاملين ، حَتَّى عُدَّتْ مِن جُمْلتهم أوْ مِن نَسْلِهم .

وقَدْ قِيل : إنَّ الحِكْمَةَ في أنَّ اللَّهَ لَمْ يَذكُرْ في القُرْآنِ امرأةً باسمها إلا " مَرْيَم " ، هِيَ الإشارةُ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ إلى رَدِّ مَا قاله النَّصَارى مِن أنَّهَا زَوْجَتُه ، فإنَّ العظيم يَأنَف مِن ذِكْرِ اسْمِ زَوْجته بَيْنَ الناس ، وَلِيُنْسَب إلَيْهَا عِيسَى ﷺ باعتبار عَدَمِ وُجود أبٍ له .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٥٠٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ التي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ ، أي : حَفِظَتْهُ وَصَانَتْهُ ، والإحصانُ هُوَ العَفَافُ والحُرِّية ، ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا ﴾ ، أي : بِوَاسطةِ المَلَكِ وَهُوَ جِبْرِيل ، فَإنَّ اللَّهَ بَعَثَه إلَيْهَا، فَتَمَثَّلَ لها في صُورة بَشَرٍ سَوِيٍّ ، وأمَرَه اللَّهُ تعالى أن يَنْفُخَ بِفيهِ في جَيْبِ دِرْعِها ، فَنَزَلَت النَّفْخَةُ فَوَلَجَتْ في فَرْجِها ، فكانَ مِنْهُ الحَمْل بِعِيسَى عَلَيه السلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ﴾ أي : بِقَدَرِه وشَرْعِه ، ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٥٨) : ((﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ التي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ مَعطوف على امرأةِ فِرْعَوْن ، أي : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للذينَ آمَنُوا مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَان ، أي : حالها

وصِفَتها . وقِيل إنَّ الناصبَ لِمَرْيَم فِعْلٌ مُقَدَّر ، أي : وَاذكُرْ مَرْيَمَ ، والمَقصودُ مِن ذِكْرِهَا أنَّ اللَّهَ سُبحانَه جَمَعَ لها بَيْنَ كَرامةِ الدُّنيا والآخِرَةِ ، واصطفاها على نِسَاءِ العَالَمِين مَعَ كَوْنِها بَيْنَ قَوْمٍ كافرين ﴿ التي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ ، أي : عَن الفَوَاحِشِ . قال المُفسِّرون : المُرادُ بالفَرْجِ هُنا الجَيْبُ ، لِقَوْلِه : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا ﴾ ، وذلك أنَّ جِبْرِيل نَفَخَ في جَيْبِ دِرْعِهَا فَحَبِلَتْ بِعِيسَى ، ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ ، يَعْني شَرَائِعَه التي شَرَعَهَا لِعِبَادِه ، ... . وقَرَأ الجُمهورُ : " وكِتَابِه " ، وقَرَأ أهلُ البَصْرَةِ وحَفْص : ﴿ كُتُبِه ﴾ بالجَمْعِ ، والمُرادُ على قِراءة الجُمهور : الجِنْس، فَيَكُون في مَعْنَى الجَمْع ، وَهِيَ الكُتُبُ المُنْزَلَة على الأنبياءِ ، ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ ، قَالَ قَتَادَة: مِنَ القَوْمِ المُطِيعين لِرَبِّهِم . وقال عَطَاء : مِنَ المُصَلِّين ، كانتْ تُصَلِّي بَيْنَ المَغْرِبِ والعِشَاءِ ، ويَجُوز أن يُراد بالقانتين : رَهْطُهَا وعَشِيرَتُهَا الذين كانتْ مِنهُم ، وكانوا مُطِيعين أهْلَ بَيْتِ صَلاحٍ وطاعةٍ ، وقال : ﴿ مِنَ القانتين ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : مِنَ القانتات، لِتَغْليبِ الذُّكُورِ على الإناث)) .

وعَن أبي مُوسَى الأشعريِّ ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : ((كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَان ، وَآسِيَةُ امْرَأةُ فِرْعَوْن ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلى سَائِرِ الطَّعَامِ)) [٦٥] .

أكْمَلُ الناسِ هُمُ الرُّسُلُ عليهم الصلاةُ والسَّلامُ ، وأكْمَلُهم وأفْضَلُهم هُوَ خَاتَمُهم وإمامُهم الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ . وكَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، أي : حازَ كثيرٌ مِنهُم مُنْتَهَى الفَضائلِ والخِصَالِ الحَميدةِ في الدِّينِ ، وتَنَاهَى في خِصَالِ البِرِّ والتَّقْوَى ، وفي العقلِ والعِلْمِ والحَقِّ والعَدْلِ والصِّدْقِ والأدبِ ، فالكَمَالُ في هذه الصِّفَاتِ مَوجودٌ في كثيرٍ مِنَ الرِّجَالِ ، وعَلى رَأسِ هؤلاء الأنبياءُ والأولياءُ ، كالصِّدِّيقين والشُّهَدَاءِ والصالحين ، فإنَّهُم الكاملون المُكَمَّلُون .

وهَذا بِخِلافِ النِّسَاءِ اللواتي لَمْ يَكْمُلْ مِنْهُنَّ سِوَى مَرْيَمَ أُمِّ عِيسَى ﷺ ، فهي التي ضَرَبَ اللَّهُ بِها المَثَلَ في حَصانتها لِنَفْسِها ، وكَمالِ عِبادتها ، وآسِيَةَ امرأةِ فِرْعَوْن ، وذلك لأنَّها آمَنَتْ بالنَّبِيِّ مُوسَى ﷺ حِينَ تَغَلَّبَ على سَحَرَةِ فِرْعَوْن ، فلمَّا كانَ فِرْعَوْنُ أعْتَى أهلِ الأرضِ وأكْفَرَهم ، مَا ضَرَّ امْرَأتَه كُفْرُ زَوْجِها لمَّا آمَنَتْ باللَّهِ تعالى .

وهذا الحَديثُ لا يَقْتَضي حَصْرَ كَمالِ صِفَاتِ الصَّلاحِ والصِّدْقِ والتَّقْوَى فِيهما ، فلا يَمتنع أن يُشاركهما مِن هذه الأُمَّةِ غَيْرُهما .

---

٦٥ متفق عليه. البخاري (٣ / ١٣٧٤) برقم (٣٥٥٨)، ومسلم (٤ / ١٨٨٦) برقم (٢٤٣١) .

" وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلى النِّسَاءِ "، ولَمْ يَعْطِف النَّبِيُّ ﷺ عائشةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عنها _ على آسِيَة ومَرْيَم ، ولكنْ ذَكَرَهَا بِجُملةٍ مُستقلة ، تَنْبِيهًا على اختصاصها بِمَا امتازتْ بِه ، والمُرادُ بالنِّسَاءِ ، قِيل : نِسَاءُ هذه الأُمَّةِ ، وقِيل : أزواجُ النَّبِيِّ ﷺ ، " كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلى سَائِرِ الطَّعَامِ " ، والثَّرِيدُ : الخُبْزُ المُكَسَّرُ الذي وُضِعَ عليه اللحمُ والمَرَقُ ، والمُرادُ بالفَضيلةِ : نَفْعُه ، والشِّبَعُ مِنْهُ ، وسُهولةُ مَسَاغِه ، والالتذاذُ بِه ، وتَيَسُّرُ تَنَاوُلِه ، وتَمَكُّنُ الإنسانِ مِن أخذِ كِفَايته مِنْهُ بِسُرعةٍ ، وغَيْرُ ذلك ، فهو أفضلُ مِن سَائرِ الطَّعَامِ في ذلك .

وهذا مَثَلٌ ، كأنَّ عائشةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عنها _ فُضِّلَتْ على النِّسَاءِ كَفَضْلِ اللحمِ على سائرِ الأطعمة ، وأنَّ فَضْلَها زائدٌ كَزِيَادَةِ فَضْلِ الثَّرِيدِ على غَيْرِه مِنَ الأطعمة ، إشارةً إلى مَا أُعْطِيَتْ عائشةُ _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ مِن حُسْنِ الخُلُقِ ، وحَلاوةِ المَنْطِقِ ، وفَصَاحَةِ اللهجةِ ، وجَوْدَةِ القَريحةِ ، وَرَزانةِ الرَّأي ، ورَصَانَةِ العَقْلِ ، والتَّحَبُّبِ إلى النَّبِيِّ ﷺ، فَهِيَ صالحة للتَّبَعُّلِ (حُسْنِ العِشْرَةِ) ، والتَّحَدُّثِ ، والاسْتِئناسِ بِها ، والإصغاءِ إلَيْهَا ، ويَكْفِي أنَّها عَقَلَتْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مَا لَمْ يَعْقِلْ غَيْرُها مِنَ النِّسَاءِ ، وَرَوَتْ مَا لَمْ يَرْوِ مِثْلُهَا مِنَ الرِّجَالِ .

وفي الحَديثِ : فَضْلُ مَرْيَمَ ابنةِ عِمْرَان ، وآسِيَةَ امرأةِ فِرْعَوْن ، وأنَّهُما أفضلُ الفُضْلَيَاتِ ، وأكْمَلُ الكاملاتِ في عَصْرِهِنَّ ، أوْ في سَائرِ العُصُورِ . وفِيه : فَضْلٌ ومَنْقَبَةٌ لعائشة رَضِي اللَّهُ عنها.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥ / ١٩٨ و١٩٩) : ((يُقَال : كمل ، بفتح المِيم وضَمِّها وكَسْرِها ، ثلاث لُغات مَشهورات . الكسر ضعيف . قال القاضي : هذا الحديثُ يَستدلُّ بِهِ مَن يَقُول بِنُبُوَّةِ النِّسَاءِ ، ونُبُوَّةِ آسِيَة ومَرْيَم ، والجُمهورُ على أنَّهُما لَيْسَتَا نَبِيَّتَيْن ، بَلْ هُمَا صِدِّيقتان وَوَلِيَّتَان مِن أولياءِ اللَّهِ تعالى ، ولَفظةُ الكَمَالِ تُطْلَق عَلى تَمَامِ الشَّيْءِ وتَنَاهِيه في بَابِه، والمُرادُ هُنا التَّنَاهِي في جَميعِ الفَضائلِ وخِصَالِ البِرِّ والتَّقْوى . قال القاضي : فَإنْ قُلْنَا: هُما نَبِيَّتَان فَلا شَك أنَّ غَيْرَهما لا يَلْحَق بِهِمَا،وإنْ قُلْنَا : وَلِيَّتَان لَمْ يَمْتَنِعْ أن يُشاركهما مِن هذه الأُمَّةِ غَيْرُهما، هذا كلام القاضي ، وهذا الذي نَقَلَه مِنَ القَوْلِ بِنُبُوَّتِهِمَا غريب ضعيف ، وقَدْ نَقَلَ جَماعةٌ الإجماعَ على عَدَمِها ، واللَّهُ أعْلَم . قَوْلُه ﷺ : (وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلى سَائِرِ الطَّعَامِ) قال العُلماءُ: مَعْنَاه أنَّ الثَّرِيدَ مِن كُلِّ طعام أفضل مِنَ المَرَقِ ، فَثَرِيدُ اللحمِ أفضلُ مِن مَرَقِه بلا ثريد، وثَرِيدُ ما لا لَحْمَ فيه أفضلُ مِن مَرَقِه ، والمُرادُ بالفضيلةِ نَفْعُه ، والشِّبَعُ مِنْهُ ، وسُهولةُ مَسَاغِه ، والالتذاذُ بِه ، وتَيَسُّرُ تَنَاوُلِه ، وتَمَكُّنُ الإنسانِ مِن أخذِ كِفَايته مِنْه بِسُرعة ، وغَيْرُ ذلك ، فهو أفضل مِنَ المَرَقِ كُلِّه ، ومِن سائرِ الأطعمةِ . وفَضْلُ عائشة على النِّسَاء زائدٌ كزيادة فَضْل الثَّرِيدِ عَلى غَيْرِه

مِنَ الأطعمةِ ، وَلَيْسَ في هذا تصريح بتفضيلها على مَرْيَم وآسِيَة ، لاحتمالِ أنَّ المُراد تفضيلها على نِساء هذه الأُمَّة)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٥١) : (((كمل) بتثليث المِيم ، لكن الكسر ضعيف، والكمالُ المُتناهي والتَّمَام (مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ) لأنَّ كَمَالَ المَرْءِ في سَبْعَة : العِلْم والحَق والعَدْل والصَّوَاب والصِّدْق والأدب والكمال في هذه الخِصَال مَوْجُود في كثير مِنَ الرِّجَالِ بِفَضْلِ العُقُولِ وتفاوتها ، لأنَّ المعرفة تَبَعٌ للعَقْلِ ، والنِّسَاءُ ناقصاتُ عَقْلٍ ، فَعَقْلُهُنَّ على النِّصْفِ مِنَ الرِّجَال ، ولهذا عَدَلَتْ شَهَادَةُ اثنَتَيْن رَجُلًا (وَلَمْ يَكْمُلْ) بِضَمِّ المِيم (مِنَ النِّسَاءِ إلا آسِيَةُ) بِنْتُ مُزَاحِم ، قِيل : مِنَ العَمالقةِ ، وقِيل : مِن بَني إسرائيل مِن سِبْطِ مُوسَى ، وقِيل : عَمَّة مُوسَى ، وقِيل : بِنْت عَمَّة فِرْعَوْن (امْرَأةُ فِرْعَوْن) أعْدَى أعداءِ اللَّهِ الناطق بالكَلِمَة العُظْمَى (وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَان) أُمُّ عِيسَى ، فإنَّهما بَرَزَتَا عَلى الرِّجَالِ لِمَا أُعْطِيَتَا مِن سُلوكِ السَّبيلِ إلى اللَّهِ ، ثُمَّ الوُصُول إلَيْه ، ثُمَّ الاتِّصَال بِه ، والمُرادُ بالكَمَالِ هُنا التَّنَاهي في الفَضائلِ والبِرِّ والتَّقْوَى وحُسْنِ الخِصَالِ. وَتَمَسَّكَ بِهِ مَنْ زَعَمَ نُبُوَّةَ مَرْيَمَ وآسِيَة ، لأنَّ كَمَالَ البَشَرِ إنَّما هُوَ في مَقَامِ النُّبُوَّةِ ، وَرُدَّ بأنَّ الكَمَال في شَيْءٍ مَا يَكُون حُصُولُه للكامل أوْفَى مِن غَيْرِه ، والنُّبُوَّةُ لَيْسَتْ أَوْلَى للنِّسَاءِ لِبِنَائِها على الظُّهُورِ للدَّعْوَةِ ، وحَالُهُنَّ الاستتارُ ، والكَمَالُ في حَقِّهِنَّ الصِّدِّيقِيَّة ، ثُمَّ الظاهر أنَّهما خَيْرُ نِسَاءِ عَصْرِهما ، والتَّفْضِيلُ بَينهما مَسْكُوت عَنْهُ ، وعُلِمَ مِن دليل مُنفصِل أنَّ مَرْيَم أفضل ، وَزَادَتْ عَلَيهما فاطمةُ بزيادة كمال مِن كَمَالِ أبَوَيْهَا (وإنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ) بِنْتِ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق (عَلى النِّسَاء) أي نِسَاء هذه الأُمَّةِ (كَفَضْلِ الثَّرِيدِ) بالمُثلثة (عَلى سَائِرِ الطَّعَامِ) لا تصريح فيه بأفضلية عائشة على غَيْرِها، لأنَّ فَضْلَ الثَّرِيدِ عَلى غَيْرِه إنَّما هُوَ لِسُهولةِ مَسَاغِه ، وتَيَسُّرِ تَنَاوُلِه ، وكانَ يَوْمَئِذٍ جُلَّ طَعَامِهِم)) .

٢٧_ الحَوَارِيُّون

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا باللَّهِ وَاشْهَدْ بِأنَّا مُسْلِمُون ﴾ [آل عِمران : ٥٢] .

فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ عِيسَى ﷺ ورَأى مِنَ اليَهُودِ التَّصْمِيمَ عَلى الكُفْرِ، والاستمرارَ عَلى الضَّلال، والإصرارَ عَلى قَتْلِه ، قال : مَن أنصاري في الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ ؟ ، أوْ : مَن يَتْبَعُنِي إلى اللَّهِ ؟ ، قال الحَوَارِيُّون ، وهُمُ المُؤمِنُون الأصفياء مِن أتْبَاعِ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ: نَحْنُ أنصارُ دِينِ اللَّهِ ، صَدَّقْنَا باللَّهِ وبِمَا جِئْتَنَا بِهِ ، وَاشْهَدْ بأنَّنا مُنقادون لرسالتك، مُخْلِصُون في نُصْرَتِك .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٨٦) : ((يَقُول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى ﴾ ، أي : استشعرَ مِنهُم التَّصميمَ عَلى الكُفْرِ والاستمرارَ عَلى الضَّلال ، ﴿ قَالَ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ ﴾ ، قال مُجَاهِد : أي : مَنْ يَتْبَعُني إلى اللَّهِ . وقال سُفيان الثَّوري وغَيْرُه : أي : مَنْ أنصاري معَ اللَّهِ ، وقَوْلُ مجاهد أقرب ، والظاهر أنَّه أرادَ : مَنْ أنصاري في الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ ؟ . ... . عِيسَى بن مَرْيَم عليه السلام انتدبَ له طائفةً مِن بَني إسرائيل، فآمَنُوا بِهِ ، ووازروه ، ونَصَرُوه ، واتَّبَعُوا النُّورَ الذي أُنزِلَ مَعَه . ... . الحَوَارِيُّون ، قِيل : كانوا قَصَّارين ، وقِيل : سُمُّوا بذلك لِبَيَاضِ ثِيَابِهِم ، وقِيل : صَيَّادِين ، والصحيحُ أنَّ الحَوَارِيَّ الناصر)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٥١٩) : ((قَوْلُه : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ ﴾ ، أي : عَلِمَ وَوَجَدَ، قاله الزَّجَّاج . وقال أبو عُبَيدة : مَعْنَى أحَسَّ : عَرَفَ . وأصلُ ذلك وُجود الشَّيْء بالحَاسَّة ، والإحساسُ : العِلْمُ بالشَّيْءِ ، ... ، والمُرادُ بالإحساسِ هُنا : الإدراك القوي الجاري مَجْرَى المُشَاهَدَة ، وبالكُفْرِ إصرارُهم عَلَيه . وقِيل : سَمِعَ مِنهُم كَلِمَةَ الكُفْرِ . وقال الفَرَّاء : أرادوا قَتْلَه ، وعلى هذا فَمَعْنَى الآية:فلمَّا أدركَ مِنهُم عِيسَى إرادةَ قَتْلِه التي هِيَ كُفْرٍ، قال:مَن أنصاري إلى اللَّهِ . الأنصارُ جَمْعُ نَصِير . وقَوْلُه : ﴿ إلى اللَّهِ ﴾ مُتَعَلِّق بِمَحذوف وَقَعَ حَالًا ، أي : مُتَوَجِّهًا إلى اللَّهِ ، ومُلْتَجِئًا إلَيْه ، أوْ ذاهبًا إلَيْه ، ... . والحَوَارِيُّون جَمْعُ حَوَارِيٍّ ، وَحَوَارِيُّ الرَّجُل : صَفْوَتُه وخُلاصَتُه ، وَهُوَ مَأخوذ مِنَ الحَوَرِ ، وَهُوَ البَيَاضُ عِند أهل اللغة . حَوَّرْتُ الثِّيَابَ : بَيَّضْتُهَا ، والحَوَارِيُّ مِنَ الطعام : مَا حُوِّرَ ، أي : بُيِّضَ ، والحَوَارِيُّ أيضًا الناصر . ... . وقد اخْتُلِفَ في سبب تَسْميتهم بذلك ، فَقِيل : لِبَيَاضِ ثِيابهم ، وقِيل : لِخُلُوصِ نِيَّاتِهِم ، وقِيل : لأنَّهُم خَاصَّة الأنبياء ، وكانوا اثنَي عَشَرَ رَجُلًا . ومعنى أنصار اللَّه : أنصار دِينِه ورُسُلِه . وقَوْلُه : ﴿ آمَنَّا باللَّهِ ﴾ ، استئناف جارٍ مَجْرَى العِلَّةِ لِمَا قَبْلَه ، فإنَّ الإيمان يَبْعَث على النُّصْرَةِ . قَوْلُه : ﴿ وَاشْهَدْ بِأنَّا مُسْلِمُون ﴾ ، أي : اشْهَدْ لَنَا يَوْمَ القِيَامَة بأنَّا مُخْلِصُون لإيماننا ، مُنقادون لِمَا تُريد مِنَّا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وإذْ أوْحَيْتُ إلى الحَوَارِيِّينَ أن آمِنُوا بي وبرسولي قالوا آمَنَّا واشْهَدْ بأنَّنا مُسْلِمُون ﴾ [المائدة : ١١١] .

هذا مِنَ الإنعام الإلهيِّ على النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ والامتنان عليه .

واذكُرْ يا عِيسى حِينَ أمَرْتُ أصحابَكَ ، وألْهَمْتُهُم ، وقَذَفْتُ في قُلوبهم التَّصديقَ بي وبرسولي عِيسَى بن مريم . قال أصحابُ عيسى: صَدَّقْنَا يا رَب بِمَا أمَرْتَنَا ، واشْهَدْ بأنَّنا مُخلِصون في التَّوحيد ، ومُلتزمون بالإيمان ، وخاضعون لأمرك .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٥٧) : ((قَوْلُه : ﴿ وإذْ أوْحَيْتُ إلى الحَوَارِيِّينَ أن آمِنُوا بي وبرسولي ﴾ ، وهذا أيضًا مِنَ الامتنانِ عَلَيه عليه السلام ، بأنْ جَعَلَ له أصحابًا وأنصارًا. ثُمَّ قِيل: إنَّ المُراد بهذا الوَحْي وَحْيُ إلهامٍ . ... . وهكذا قال بعضُ السَّلَفِ في هذه الآية : ﴿ وإذْ أوْحَيْتُ إلى الحَوَارِيِّينَ أن آمِنُوا بي وبرسولي قالوا آمَنَّا واشْهَدْ بأنَّنا مُسْلِمُون ﴾ ، أي : أُلْهِمُوا ذلك ، فَامْتَثَلُوا مَا أُلْهِمُوا . قال الحَسَن البَصْرِي : أَلْهَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذلك . وقال السُّدي : قَذَفَ في قُلُوبِهِم ذلك ، ويَحْتَمِل أن يَكُون المُراد : وإذْ أوْحَيْتُ إلَيْهِم بواسطتك فَدَعَوْتَهُم إلى الإيمان باللَّهِ وبرسوله، واستجابوا لَكَ ، وانقادوا ، وتابعوكَ ، فقالوا : ﴿ آمَنَّا واشْهَدْ بأنَّنا مُسْلِمُون ﴾)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ١٣٣) : ((قَوْلُه : ﴿ وإذْ أوْحَيْتُ إلى الحَوَارِيِّينَ أن آمِنُوا بي وبرسولي ﴾ ، ... . والوَحْيُ في كلام العرب مَعْنَاه الإلهام ، أي: أَلْهَمْتُ الحَوَارِيِّين ، وقَذَفْتُ في قُلُوبِهِم. وقِيل: مَعْنَاه : أمَرْتُهُم على ألسنةِ الرُّسُلِ أن يُؤْمِنُوا بِي بالتَّوحيدِ والإخلاصِ ويُؤْمِنُوا برسالة رَسُولي . قَوْلُه : ﴿ قالوا آمَنَّا ﴾ جُملة مُسْتَأنَفَة ، كأنَّه قِيل: ماذا قالوا ؟، فقال: قالوا آمَنَّا ﴿ واشْهَدْ بأنَّنا مُسْلِمُون ﴾ أي: مُخْلِصُون للإيمان، أي: وَاشْهَدْ يَا رَب أوْ وَاشْهَدْ يَا عِيسَى)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/٤٥٥):((وفي الوَحْي الى الحَوَارِيِّين قَوْلان: أحدهما أنَّه بمعنى الإلهام، قاله الفَرَّاء. وقال السُّدي: قَذَفَ في قُلوبهم. والثاني أنَّه بِمَعنى الأمْرِ،فتقديره: أمَرْتُ الحَوَارِيِّين،و﴿ إلى ﴾ صِلَة، قاله أبو عُبَيدة.وفي قَوْلِه: ﴿ واشْهَدْ ﴾ قَولان : أحدهما أنَّهُم يَعْنُون اللَّهَ تعالى ، والثاني عِيسَى عَلَيه السَّلام. وقَوله: ﴿ بأنَّنا مُسْلِمُون ﴾ أي: مُخْلِصُون للعِبَادَةِ والتَّوْحِيدِ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إذْ قالَ الحَوَارِيُّونَ يا عيسى ابنَ مريمَ هَل يَستطيعُ رَبُّكَ أن يُنَزِّلَ عَلَينا مائدةً مِنَ السماءِ قال اتَّقُوا اللَّهَ إن كُنتم مؤمنين ﴾ [المائدة : ١١٢] .

سَألَ أصحابُ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ : هَلْ يُنَزِّلُ اللَّهُ عَلَينا مائدةً مِنَ السَّمَاءِ أَمْ لا ؟ . وهذا السُّؤال قائم على الاستخبار والتَّثبُّت ، ولا علاقة له بالشَّك في قُدرة اللَّهِ تعالى . والحَوَارِيُّون مُؤمنون مُخْلِصُون . وهُم وُزَرَاءُ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ وأصحابُه وخَوَاصُّه ، وقَدْ نَهَاهُمْ عن اقتراحِ الآيات ، وطَلَبِ المُعْجِزَاتِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٥٨) : ((هذه قِصَّةُ المائدة ، وإلَيْهَا تُنْسَب السُّورة ، فَيُقَال : سُورة المائدة ، وَهِيَ مِمَّا امْتَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلى عَبْدِه ورَسُولِه عِيسَى لَمَّا أجابَ دُعَاءَه بِنُزولها ، فأنزلَ اللَّهُ آيةً باهرةً وحُجَّةً قاطعةً . وقَدْ ذَكَرَ بعضُ الأئمة أنَّ قِصَّتَهَا لَيْسَتْ مَذكورة في الإنجيل ، ولا يَعْرِفُها النَّصَارَى إلا مِنَ المُسْلِمِين ، فاللَّهُ أعْلَم)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢ / ٤٥٦) : ((قال ابنُ الأنباريِّ : ولا يَجُوز لأحَدٍ أن يَتَوَهَّمَ أن الحَوَارِيِّين شَكُّوا في قُدرة اللَّه ، وإنَّما هذا كما يَقُول الإنسانُ لصاحبه : هَلْ تستطيع أن تَقُومَ مَعي ؟ ، وَهُوَ يَعْلَم أنَّه مُستطيع ، ولكنَّه يُريد : هَلْ يَسْهُل عَلَيْكَ ؟ . وقال أبو عليٍّ : المَعْنَى هَلْ يَفْعَل ذلك بِمَسألتك إيَّاه ؟ . وَزَعَمَ بعضُهم أنَّهُم قالوا ذلك قبل استحكام إيمانهم ومعرفتهم ، فَرَدَّ عَلَيْهِم عِيسَى بِقَوْلِه: اتَّقُوا اللَّهَ أن تَنْسُبُوه إلى عَجْز،والأوَّلُ أصَح.فأمَّا المائدة، فقال اللغويون: المائدةُ كُلُّ مَا كانَ عَلَيْهِ مِنَ الأخْوِنَة (جَمْع خِوَان) طَعَام، فإذا لَمْ يَكُنْ عَلَيه طَعَام فَلَيْسَ بِمَائدة. والكأسُ كُلُّ إناء فيه شراب، فإذا لَمْ يَكُن فيه شراب فَلَيْسَ بكأس، ذَكَرَه الزَّجَّاج. ... . قَوْلُه تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إن كُنتم مؤمنين ﴾ ، فِيه ثلاثة أقوال : أحدها اتَّقُوه أن تَسْألُوه البَلاءَ ، لأنَّهَا إنْ نَزَلَتْ وكَذَّبْتُم عُذِّبْتُم ، قاله مُقَاتِل . والثاني أن تَسألوه مَا لَمْ تَسْألْهُ الأُمَمُ قَبْلَكم ، ذَكَرَه أبو عُبَيد . والثالث أن تَشُكُّوا في قُدرته)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قالوا نُريدُ أن نأكُلَ مِنهَا وتطمئنَّ قلوبُنا ونَعْلَمَ أن قَد صَدَقْتَنا ونكونَ عَلَيها مِنَ الشَّاهدين ﴾ [المائدة : ١١٣] .

قال الحَوَارِيُّون (أصحابُ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ): طَلَبْنَا نُزولَ المائدة لنأكل مِنها، وترتاح أنفُسُنا، وَتَسْكُن قُلُوبُنا ، ونزداد إيمانًا بِنُبُوَّتِكَ ورسالتك ، ونَشْهَد أنَّها الآيةُ الدَّالَّة على وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ ، والمُعْجِزَةُ التي تُثبِتُ صِدْقَكَ وصِحَّةَ نُبُوَّتِكَ .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير(٢/٤٥٧ و٤٥٨):((قَوله تعالى:﴿ قالوا نُريدُ أن نأكُلَ مِنهَا ﴾ هذا اعتذار منهم،بَيَّنُوا به سبب سؤالهم حِين نُهُوا عنه.وفي إرادتهم للأكل مِنها ثلاثة أقوال:أحدها أنهم أرادوا ذلك للحاجة وشِدَّة الجوع، قاله ابن عباس . والثاني ليزدادوا إيمانًا،ذَكَرَه ابن الأنباري . والثالث للتَّبرُّك بها، ذَكَرَه المَاوَرْدِي. وفي قوله : ﴿ وتطمئنَّ قلوبُنا ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها تطمئن إلى أنَّ اللَّهَ تعالى قد بَعَثَكَ إلَينا نَبِيًّا.والثاني إلى أنَّ اللَّهَ تعالى قَد اختارنا أعوانًا لَك.والثالث إلى أنَّ اللَّهَ تعالى قَدْ أجابك.وقال ابن عباس:قال لهم عِيسى:هَلْ لَكُم أن تَصُوموا للَّهِ ثلاثين يَوْمًا ثُمَّ لا تَسألونه شيئًا إلا أعطاكم؟،فصاموا ثُمَّ سألوا المائدة، فمعنى:﴿ ونَعْلَمَ أن قَد صَدَقْتَنا ﴾ في أنَّا إذا صُمْنا ثلاثين يومًا لَمْ نَسأل اللَّهَ شيئًا إلا أعطانا.وفي هذا العِلْمِ قَولان:أحدهما أنَّه عِلْمٌ يَحْدُثُ لَهَم لَمْ يَكُن،وَهُوَ قَوْل مَن قال:كان سؤالهم قبل استحكام معرفتهم.والثاني أنَّه زيادة عِلْم إلى عِلْم ، ويقين إلى يقين،وَهُوَ قَوْل مَن قال: كانَ سُؤالُهم بعد معرفتهم. وفي قَوله: ﴿ مِنَ الشَّاهدين ﴾ أربعة أقوال : أحدها مِنَ الشاهدين للَّهِ بالقُدرة وَلَكَ بالنُّبُوَّة. والثاني عِند بَني إسرائيل إذا رَجَعْنَا إليهم وذلك أنَّهُم

كانوا معَ عِيسَى في البَرِّية عِند هذا السُّؤال. والثالث مِنَ الشاهدين عِند مَن يأتي مِن قَوْمِنا بِما شَاهَدْنَا مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على أنَّكَ نَبِيٌّ . والرابع مِنَ الشاهدين لَكَ عِند اللَّهِ بأداءِ مَا بُعِثْتَ بِه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قالَ عيسى ابنُ مريمَ اللهُمَّ رَبَّنا أنزِلْ عَلَينا مائدةً مِنَ السماءِ تكونُ لنا عِيدًا لأوَّلِنا وآخِرِنا وآيةً مِنكَ وارْزُقْنا وأنتَ خَيْرُ الرازقين ﴾ [المائدة : ١١٤] .

عَلِمَ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ أنَّ سُؤال الحَوَاريين لزيادة العِلْم واليقين ، ولَيْسَ عِنَادًا وتَعَنُّتًا، فَقَرَّرَ أن يَدْعُوَ اللَّهَ ، ويَطلُب مِنْهُ إنزالَ المائدة ، لإقامةِ الحُجَّةِ عَلَيهم ، وإلزامِهم بها ، وقَطْعِ عُذْرِهم .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٣/ ٩٨) : ((رُوِيَ أنَّه اغتسلَ ، ولَبِسَ المِسْحَ (كِسَاء مِن شَعْر) ، وصَلَّى ركعتين ، فطأطأ رَأسَه ، وغَضَّ بَصَرَه ، ثُمَّ قال : ﴿ اللهُمَّ رَبَّنا ﴾ ناداه سُبحانَه وتعالى مَرَّتَيْن ، مَرَّة بِوَصْفِ الأُلُوهِيَّةِ الجامعة لجميع الكَمَالات ، ومَرَّة بِوَصْفِ الرُّبُوبِيَّةِ المُنْبِئَةِ عَن التَّربية ، إظهارًا لغايةِ التَّضَرُّع ، ومُبَالَغَةً في الاستدعاء)) .

قال النَّبِيُّ عِيسَى ﷺ: اللهُمَّ رَبَّنَا أنزِلْ عَلَينا مائدةً مِن السماء، يَكُون يَوْمُ نُزُولِها عِيدًا، أي: يَوْم فَرَح وسُرور لنا وَلِمَن بَعْدَنا، نُعظِّمه نَحْن ومَن بَعْدَنا،وآيةً دَالَّة على وَحْدَانيتك وقُدْرتك،وحُجَّةً على صِدْقِ رسولك وصِحَّةِ رسالته ، وارْزُقْنا رِزْقًا نَستعين به على عِبادتك وطاعتك ، وأعْطِنَا مِن فضلك، فإنَّكَ يا رَب خَيْرُ مَنْ يَرزُق ، وأجْوَدُ مَنْ يُعْطي ، لأنَّكَ الغَنِيُّ الحميد ، تُعْطِي الرِّزْقَ بلا مُقَابِل .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢ / ٤٥٨) : ((والمعنى : يَكُون اليوم الذي نَزَلَتْ فيه عِيدًا لنا نُعَظِّمه ، نَحْنُ ومَن بَعْدَنا . قاله قَتَادة والسُّدي. وقال كَعْب : أُنزِلَتْ عليهم يوم الأحَد ، فاتَّخَذُوه عِيدًا . وقال ابن قُتَيْبَة : عِيدًا أي مَجْمَعًا . قال الخليل بن أحمد : العِيد كُلُّ يوم يَجْمَع ، كأنَّهُم عادوا إليه. وقال ابن الأنباري : سُمِّيَ عِيدًا للعَوْد مِنَ التَّرَحِ إلى الفَرَحِ . قَوْلُه تعالى: ﴿ وآيةً مِنكَ ﴾ أي : عَلامةً مِنك ، تدلُّ على تَوحيدك وصِحَّة نُبُوَّة نَبِيِّك . وفي قَوله : ﴿ وارْزُقْنا ﴾ قَولان : أحدهما ارْزُقْنا ذلك مِن عِندك . والثاني ارْزُقْنا الشُّكْرَ على مَا أنعمتَ بِه مِن إجابتك لنا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿قالَ اللَّهُ إنِّي مُنَزِّلُها عَلَيكُم فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُم فإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذابًا لا أُعَذِّبُهُ أحدًا مِنَ العَالَمِين ﴾ [المائدة : ١١٥] .

استجابَ اللَّهُ دُعاءَ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ ، فقالَ : إنِّي سَأُنَزِّل عليكم هذه المائدةَ مِنَ السَّمَاء . فَمَن يُكَذِّب بِنُزولِ هذه الآية العظيمة ، أوْ يُنكِر نُبُوَّة عِيسَى ، أوْ يَجْحَد وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ ، فَسَوْفَ أُعَذِّبُه تعذيبًا شديدًا ، لا أُعَذِّب مِثْلَ ذلك التَّعذيب أحدًا مِنَ البشر . وهذا وَعِيدٌ شديدٌ ، وتَهديدٌ أكيد .

وجَرَتْ عَادَةُ اللَّهِ أنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ آيةً وأُعْطِيَهَا ، ثُمَّ كَفَرَ ، فَإنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُه عذابًا شديدًا مُؤلِمًا بِلا مُهْلَةٍ ولا فُرصة ثانية. وقَدْ أنزلَ اللَّهُ المائدةَ على بني إسرائيل أيام عيسى بن مريم إجابةً مِنَ اللَّهِ لِدُعائه ، وإكرامًا له ، وتَصديقًا لِنُبُوَّتِه ورسالته ، وتَفَضُّلًا عليه وعلى أصحابه .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٤٦٢) : ((وَقَدْ ذَكَرَ المُفسِّرون أنَّ جَمَاعَةً مِن أصحاب المائدة مُسِخُوا . وفي سبب مَسْخهم ثلاثة أقوال : أحدها أنَّهُم أُمِرُوا أن لا يَخُونوا ولا يَدَّخِرُوا ، فخانوا وادَّخَرُوا ، فَمُسِخُوا قِرَدَةً وخنازير ، رواه عمَّار بن ياسر عن النبيِّ ﷺ . والثاني أنَّ عِيسَى خَصَّ بالمائدة الفُقَرَاءَ ، فَتَكَلَّمَ الأغنياءُ بالقبيح مِنَ القَوْلِ ، وشَكَّكُوا الناسَ فيها وارتابوا ، فلمَّا أمسى المُرتابون بها ، وأخذوا مضاجعهم ، مَسَخَهُمُ اللَّهُ خنازير ، قاله سَلْمَان الفارسي . والثالث أنَّ الذين شاهدوا المائدةَ وَرَجَعُوا إلى قَوْمِهم فَأخْبَرُوهم،فَضَحِكَ بِهِم مَنْ لَمْ يَشْهَدْ، وقالوا: إنَّما سَحَرَ أعْيُنَكم ، وأخذَ بِقُلوبكم ، فَمَنْ أرادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا ثَبَتَ على بصيرته، ومَنْ أرادَ بِهِ فِتْنَةً ، رَجَعَ إلى كُفْرِه ، فَلَعَنَهُم عِيسى، فأصبحوا خنازير، فَمَكَثُوا ثلاثة أيَّام ثُمَّ هَلَكُوا ، قاله ابن عباس)).

وعَن عَمَّارِ بن ياسر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((أُنزِلَت المائدةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْزًا ولَحْمًا ، وَأُمِرُوا أن لا يَخُونوا،ولا يَدَّخِرُوا لِغَدٍ، فخانوا، وادَّخَرُوا، ورَفَعُوا لِغَدٍ، فَمُسِخُوا قِرَدَةً وخنازير)) [٦٦] .

خَالَفَ بَعْضُهُمُ الأمْرَ الإلهيَّ ، فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ ، وعَذَّبَهُم ، بأنْ غَيَّرَ صُوَرَهُم الإنسانيَّة ، ونَقَلَهم إلى حالة سَيِّئة ، حَيْثُ مُسِخُوا قِرَدَةً وخنازير ، جَزَاء مَعْصيتهم ، وإعراضهم عن طاعة اللَّهِ تعالى .

وقال المباركفوري في تُحفة الأحوذي (٨ / ٣٤٤ و٣٤٥) : ((قَوْلُه : (أُنزِلَت المائدةُ) قال الراغب : المائدة : الطَّبَق الذي عَلَيه الطعام ، ويُقَال لِكُلٍّ مِنهما مائدة ، أي : على الحقيقة المُشتركة ، أوْ على أحدهما مَجَازًا ، باعتبار المُجَاوَرَة ، أوْ بِذِكْرِ المَحَلِّ وإرادة الحال (خُبْزًا وَلَحْمًا) تَمْييز (وأُمِرُوا) بِصِيغة المَجهول (ولا يَدَّخِرُوا) ، ... ، مِنَ الذَّخيرةِ وَهُوَ التَّخْبِيَة (لِغَدٍ) أي لِيَوْمٍ عَقِب يَوْم نُزول المائدة أوْ لوقت مُسْتَقْبَل بَعْدَه (فَمُسِخُوا) أي : فَغَيَّرَ اللَّهُ صُوَرَهم الإنسانيَّةَ بَعْدَ تَغْيير سِيرتهم الإنْسِيَّة (قِرَدَةً وخَنَازير) مَنصوبان عَلى أنَّهُما مفعول ثانٍ على مَا يُستفاد مِن القاموس حَيْثُ قال : مَسَخَه كَمَنَعَه ، حَوَّلَ صُورتَه إلى أُخْرَى أقْبَح ، وَمَسَخَه اللَّهُ قِرْدًا

---

٦٦ رواه التِّرمذيُّ في سُنَنِه (٥/ ٢٦٠) . وقال القُرطبي في تفسيره (٦/ ٣٤١) : ((إنْ لم يَصِح مَرفوعًا ، فَصَحَّ مَوقوفًا عن صحابي كبير ، واللَّهُ أعْلَم . والمقطوع به أنها نَزَلَتْ ، وكانَ عليها طعام يُؤكَل ، واللَّهُ أعْلَمُ بتعيينه)) .

فَهُوَ مَسْخ ومَسِيخ . ... . قِيل : الظاهر أنَّ شَبَابَهم مُسِخُوا قِرَدَةً وشُيُوخَهم خنازير . ... . تَنبيه : ذَكَرَ التِّرمذيُّ حديثَ عَمَّار المذكور في تفسير قَوْلِه تعالى : ﴿قالَ اللَّهُ إنِّي مُنَزِّلُها عَلَيكُم فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُم فإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذابًا لا أُعَذِّبُهُ أحدًا مِنَ العَالَمِين ﴾ . قال الحافظُ ابن كثير في تفسيره بَعْدَ ذِكْر عِدَّة آثار عن ابن عَبَّاس وغَيْرِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم مَا لَفْظُه : وكُلُّ هذه الآثار دَالَّة على أنَّ المائدة نَزَلَتْ على بني إسرائيل أيامَ عِيسَى بن مريم إجابةً مِنَ اللَّهِ لِدَعْوَتِه ، وكما دَلَّ عَلى ذلك ظاهر هذا السِّياق مِنَ القُرْآنِ العظيم.قال اللَّهُ: ﴿ قالَ اللَّهُ إنِّي مُنَزِّلُها عَلَيكُم ﴾ الآية. وقال قائلون: إنَّها لَمْ تَنْزِلْ ، فَرَوَى لَيْث بن أبي سُلَيم عَن مُجَاهِد في قَوْلِه : ﴿ أنزِلْ عَلَينا مائدةً مِنَ السماءِ ﴾ ، قال: هُوَ مَثَلٌ ضَرَبَه اللَّهُ وَلَمْ يَنْزِلْ شَيْء ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقال : حَدَّثَنَا ابن المُثَنَّى حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن جَعْفَر حَدَّثَنَا شُعْبَة عَن مَنصور بن زاذان عَن الحَسَن أنَّه قال في المَائِدَةِ إنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ ، وهذه أسانيد صحيحة إلى مُجَاهِد والحَسَن . وقَدْ يَتَقَوَّى ذلك بأنَّ خَبَرَ المائدة لا تَعْرِفُه النَّصَارى ، وَلَيْسَ هُوَ في كِتابهم ، وَلَوْ كانتْ قَدْ نَزَلَتْ لكانَ ذلك مِمَّا يَتَوَفَّر الدَّوَاعي عَلى نَقْلِه ، وكانَ يَكُون مَوجودًا في كِتابهم مُتَوَاتِرًا ، ولا أقَل مِنَ الآحَادِ ، ولكنَّ الجُمهور عَلى أنَّها نَزَلَتْ ، وَهُوَ الذي اختاره ابنُ جرير . قال : لأنَّ اللَّهَ تَعَالى أخبرَ نُزُولَها في قَوْلِه تعالى : ﴿ إنِّي مُنَزِّلُها عَلَيكُم فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُم فإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذابًا لا أُعَذِّبُهُ أحدًا مِنَ العَالَمِين ﴾ ، قال: وَوَعْدُ اللَّهِ وَوَعِيدُه حَقٌّ وصِدْقٌ ، وهذا القَوْلُ واللَّهُ أعْلَم هُوَ الصَّوَابُ ، كما دَلَّتْ عليه الأخبارُ والآثارُ عَن السَّلَفِ وغَيْرِهم . انتهى كَلامُه باختصار يسير)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُونُوا أنصارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَائِفَةٌ مِن بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ فَأيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأصْبَحُوا ظَاهِرِين ﴾ [الصَّف : ١٤] .

يا أيُّهَا الذينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ ونُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، انْصُرُوا دِينَ اللَّهِ ، كَمَا نَصَرَ الحَوَارِيُّون دِينَ اللَّهِ حِينَ قالَ لَهُم عِيسَى بن مَرْيَم : ﴿ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ ﴾ ، أي : مَنْ يَنْصُرُني ويَكُون عَوْني لِتَبليغِ دَعْوَةِ اللَّهِ ، ونُصْرَةِ دِينِه ؟ ، ﴿ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ ﴾ ، أي : قالَ أتْبَاعُ عِيسَى ـ وَهُمُ المُؤمِنُون الخُلُّصُ مِنْ خَاصَّتِه المُستجيبون لِدَعْوَتِه ـ : نَحْنُ أنصارُ دِينِ اللَّهِ . والحَوَارِيُّون أصْفِيَاؤُه ، وهُمْ أوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ ، مُشْتَق مِنَ الحَوَرِ ، وَهُوَ البَيَاضُ ، وكانوا اثنَي عَشَر رَجُلًا.والتَّشْبيهُ في الآية مَحمولٌ عَلى المَعنى، أي: كُونوا أنصارَ اللَّهِ كَما كانَ الحَوَارِيُّون أنصارَ اللَّهِ ، فانقسمَ بَنُو إسرائيل إلى جَمَاعَتَيْن : جَمَاعَةٌ آمَنَتْ بِهِ وَصَدَّقَتْهُ ، وجَمَاعَةٌ كَفَرَتْ وكَذَّبَتْ برسالة

عِيسَى ، ﴿ فَأَيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ ﴾ ، أي : فَقَوَّيْنَا المُؤمِنين عَلى أعدائهم الكافرين ، ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِين ﴾ ، أي: حَتَّى صاروا غالبين عَلَيْهِم بالحُجَّةِ والبُرْهان)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤٦٤) : ((يَقُول تَعَالى آمِرًا عِبَادَه المُؤمِنين أن يَكُونوا أنصارَ اللَّهِ في جَميعِ أحوالِهم بأقوالِهم وأفعالِهم ، وأنفُسِهم وأموالِهم ، وأن يَستجيبوا للَّهِ ولرسوله كما استجابَ الحَوَارِيُّون لِعِيسَى حِينَ قال : ﴿ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ ﴾ ؟ ، أي : مَنْ مُعِيني في الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ ، ﴿ قَالَ الحَوَارِيُّونَ ﴾ ، وهُمْ أتْبَاع عِيسَى عليه السلام : ﴿ نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ ﴾ ، أي : نَحْنُ أنصارُكَ عَلى مَا أُرْسِلْتَ بِهِ ، وَمُوَازروك على ذلك ، ولهذا بَعَثَهُم دُعَاةً إلى الناس في بلاد الشَّام في الإسرائيليين واليونانيين ، وهكذا كانَ رسول اللَّه ﷺ يَقُول في أيَّامِ الحَجِّ : " مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِيني حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي ؟ ، فَإنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُوني أنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي " ، حَتَّى قَيَّضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الأوْسَ والخَزْرَجَ مِن أهْلِ المَدينةِ ، فَبَايَعُوه ووازروه ، وشارطوه أن يَمنعوه مِن الأسود والأحمر إنْ هُوَ هاجرَ إلَيهم،فَلَمَّا هاجرَ إلَيهم بِمَنْ مَعَه مِنْ أصحابه،وَفَوْا له بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيه ، ولهذا سَمَّاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُه الأنصارَ، وصارَ ذلك عَلَمًا عَلَيْهِم ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وأرضاهم ــ. وقَوْلُه تعالى : ﴿ فَآمَنَت طَائِفَةٌ مِن بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ ﴾ ، أي : لَمَّا بَلَّغَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم عَلَيه الصَّلاة والسَّلام رِسَالَةَ رَبِّهِ إلى قَوْمِه ، وَآزَرَه مَنْ وَازَرَه مِنَ الحَوَارِيِّين ، اهتدتْ طائفةٌ مِن بَني إسرائيل بِما جاءهم به ، وَضَلَّتْ طائفةٌ فَخَرَجَتْ عَمَّا جاءهم به ، وجَحَدُوا نُبُوَّتَه ، وَرَمَوْهُ وَأُمَّهُ بالعظائم ، وهُمُ اليهود عَلَيهم لعائنُ اللَّهِ المُتتابعة إلى يوم القيامة ، وَغَلَتْ فِيه طائفة مِمَّنْ اتَّبَعَه حَتَّى رَفَعُوه فَوْقَ مَا أعطاه اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ ، وافْتَرَقُوا فِرَقًا وَشِيَعًا ، فَمِن قائل مِنهُم : إنَّه ابْنُ اللَّهِ ، وقائل : إنَّه ثالثُ ثلاثةٍ : الأبُ والابْنُ ورُوحُ القُدُسِ ، ومِنْ قائل : إنَّه اللَّهُ . وكُلُّ هذه الأقوال مُفَصَّلَة في سُورة النِّسَاء . وقَوْلُه تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ ﴾ ، أي : نَصَرْنَاهُم عَلى مَنْ عَادَاهُم مِنْ فِرَقِ النَّصَارى ، ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِين ﴾ ، أي : عَلَيْهِم ، وذلك بِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَه اللَّهُ : حَدَّثَني أبو السائب حَدَّثَنَا أبو مُعاوية عَن الأعمش عَن المِنْهَال يعني ابن عمرو عن سعيد بن جُبَير عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عنهما قال : لَمَّا أرادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أن يَرْفَعَ عِيسَى إلى السَّمَاءِ ، خَرَجَ إلى أصحابه ، وهُمْ في بَيْتٍ اثنَا عَشَر رَجُلًا ، مِنْ عَيْن في البَيْتِ ، وَرَأسُه يَقْطُر مَاءً ، فقال : إنَّ مِنكُم مَنْ يَكْفُر بِي اثنَتَي عَشْرَة مَرَّةً بَعْد أن آمَنَ بِي . قال : ثُمَّ قال : أيُّكُم يُلْقَى عَلَيه شَبَهِي فَيُقْتَل مَكَاني ويَكُون مَعِي في دَرَجَتِي ؟ ، قال : فقامَ شاب مِن أحْدَثِهِم سِنًّا ، فقال : أنا ، فقال له : " اجْلِسْ " ، ثُمَّ عادَ عَلَيهم ، فقامَ الشاب فقال : أنا ،

فقال له : " اجْلِسْ " ، ثُمَّ أعادَ عَلَيهم ، فقامَ الشاب فقال : أنا ، فقال : " نَعَمْ أنتَ ذاك ". قال : فَأُلْقِيَ عَلَيه شَبَهُ عِيسى ، وَرُفِعَ عِيسَى عليه السلام مِن روزنة في البَيْتِ إلى السَّمَاءِ ، قال : وجاءَ الطلبُ مِن اليهود ، فأخذوا شَبِيهَه فَقَتَلُوه ، وصَلَبُوه ، وكَفَرَ بِهِ بَعْضُهم اثنَتَي عَشْرَة مَرَّة بَعْد أن آمَنُوا بِهِ ، فَتَفَرَّقُوا فيه ثلاث فِرَق ، فقالتْ فِرْقَةٌ : كانَ اللَّهُ فِينا مَا شاءَ ثُمَّ صَعِدَ إلى السماء ، وهؤلاء اليَعقوبية ، وقالتْ فِرْقَةٌ : كانَ فِينا ابْنُ اللَّهِ مَا شاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ رَفَعَه إليه ، وهؤلاء النُّسْطُورية ، وقالتْ فِرْقَةٌ : كانَ فِينا عَبْدُ اللَّهِ ورَسُولُه مَا شاءَ اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَه اللَّهُ إلَيْه ، وهؤلاء المُسْلِمُون ، فتظاهرت الكافرتان على المُسْلِمَة فقتلوها ، فَلَمْ يَزَل الإسلامُ طامسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، ﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِن بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ ، يَعْنِي الطائفةَ التي كَفَرَتْ مِن بَني إسرائيل في زَمَنِ عِيسَى ، والطائفة التي آمَنَتْ في زَمَنِ عِيسى ، ﴿ فَأَيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِين ﴾ بإظهار مُحَمَّدٍ ﷺ دِينَهم على دِين الكُفَّار ، هذا لَفْظُه في كِتَابِه عِند تفسير هذه الآية الكريمة ، وهكذا رَوَاه النَّسَائِيُّ عِند تفسير هذه الآية مِن سُنَنِه عن أبي كُرَيْب مُحَمَّد بن العَلاء عَن أبي مُعاوية ، بِمِثْلِه سَوَاء ، فَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ لا يَزَالُون ظاهرين على الحَقِّ حَتَّى يَأتِيَ أمْرُ اللَّهُ ، وهُمْ كذلك ، وَحَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهم الدَّجَّالَ معَ المَسِيح عِيسَى ابن مَرْيَم عليه السلام ، كَمَا وَرَدَتْ بذلك الأحاديثُ الصِّحَاح ، واللَّهُ أعْلَم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٣١٢) : ((حَضَّ سُبحانَه المُؤمنين على نُصْرَةِ دِينه ، فقال : ﴿ يَا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُونُوا أنصارَ اللَّهِ ﴾ ، أي : دُومُوا عَلى مَا أنتم عَلَيه مِنْ نُصْرَةِ الدِّينِ . ... . ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ ﴾ ، أي : انصُرُوا دِينَ اللَّهِ مِثْلَ نُصْرَةِ الحَوَارِيِّين لَمَّا قالَ لَهُم عِيسَى : ﴿ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ ﴾ ، فقالوا : ﴿ نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ ﴾ ، والكافُ في ﴿ كَمَا قَالَ ﴾ نَعْت مَصْدَر مَحذوف ، تقديره : كُونوا كَوْنًا ، كَمَا قال ، وقِيل : الكافُ في مَحَلِّ نَصْب على إضمار الفِعْل ، وقِيل : هُوَ كلام مَحمول عَلى مَعناه دُون لَفْظِه ، والمَعنى : كُونوا أنصارَ اللَّهِ ، كما كانَ الحَوَارِيُّون أنصارَ عِيسَى حِينَ قالَ لَهُم : ﴿ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ ﴾ ، وقَوْلُه : ﴿ إلى اللَّهِ ﴾ ، قِيل : إلى بمعنى معَ ، أي : مَن أنصاري معَ اللَّهِ . وقِيل : التقدير : مَن أنصاري فِيمَا يُقَرِّب إلى اللَّهِ . وقِيل : التَّقدير : مَن أنصاري مُتَوَجِّهًا إلى نُصْرَةِ اللَّهِ . والحَوَارِيُّون هُمْ أنصارُ المَسِيح ، وخُلَّصُ أصحابِه ، وأوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ ، ﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِن بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ ، أي : آمَنَتْ طائفةٌ بِعِيسَى ، وكَفَرَتْ بِهِ طائفة ، وذلك لأنَّهُم لمَّا اخْتَلَفُوا بَعْدَ رَفْعِه تَفَرَّقُوا وَتَقَاتَلُوا ، ﴿ فَأَيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ ﴾ ، أي : قَوَّيْنَا المُحِقِّين مِنْهُم عَلى المُبْطِلِين ،

﴿ فَأصْبَحُوا ظَاهِرِين ﴾ ، أي : عالين غالبين . وقِيل : المعنى : فَأيَّدْنَا الآنَ المُسْلِمِين على الفِرْقَتَيْن جميعًا . ... . وأخرجَ عبد الرَّزَّاق وعَبْد بن حُمَيْد وابن المُنذر عَن قَتَادَة في قَوْلِه : ﴿ يَا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُونُوا أنصارَ اللَّهِ ﴾ ، قال : قَدْ كانَ ذلك بِحَمْدِ اللَّهِ ، جاءه سَبْعُون رَجُلًا ، فَبَايَعُوه عِند العَقَبَة،وَآوَوْهُ ونَصَرُوه حَتَّى أظهرَ اللَّهُ دِينَه،وأخرجَ ابنُ إسحاق وابن سعد عن عبد اللَّه ابن أبي بَكْر بن مُحَمَّد بن عمرو بن حزم قال : قال رسول اللَّه ﷺ للنَّفَرِ الذينَ لَقَوْهُ بالعَقَبَةِ : " أخْرِجُوا إلَيَّ اثنَي عَشَرَ مِنكُم يَكُونون كُفَلاءَ عَلى قَوْمِهِم، كَمَا كَفَلَت الحَوَارِيُّون لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَم". وأخرجَ ابن سعد عن محمود بن لَبِيد قال : قال رسول اللَّه ﷺ للنُّقَبَاءِ: " إنَّكُم كُفَلاءُ عَلى قَوْمِكُم كَكَفَالَةِ الحَوَارِيِّين لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَم ، وأنا كَفِيلُ قَوْمِي " ، قالوا : نَعَم . وأخرجَ ابن المُنذر عن ابن عَبَّاس : ﴿ فَأيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا ﴾ ، قال : فَقَوَّيْنَا الذينَ آمَنُوا . وأخرجَ ابن أبي حاتم عنه ، فَأيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وأُمَّتَهُ عَلى عَدُوِّهِم ، فأصْبَحُوا اليَوْمَ ظاهرين)) .

٢٨_ أصحابُ الأُخْدُودِ

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُتِلَ أصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ [البُرُوج : ٤] .

لُعِنَ أصحابُ الأُخْدُودِ الذينَ شَقُّوا الأرضَ طُولًا ، وَأضْرَمُوا في الأُخْدُودِ نارًا لِيُحْرِقُوا بها المُؤمنين الذينَ رَفَضُوا الرُّجُوعَ عَن دِينِهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦٣٣) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ قُتِلَ أصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ ، أي: لُعِنَ أصحابُ الأُخْدُودِ ، وجَمْعُه أخاديد ، وَهِيَ الحُفَرُ في الأرض ، وهذا خَبَرٌ عَن قَوْمٍ مِنَ الكُفَّارِ عَمَدُوا إلى مَنْ عِندَهم مِنَ المُؤمنين باللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَهَرُوهُم ، وأرادوهم أن يَرْجِعُوا عَن دِينِهِم ، فَأبَوْا عَلَيْهِم ، فَحَفَرُوا لهم في الأرض أُخْدُودًا ، وأجَّجُوا فيه نارًا ، وأعَدُّوا لها وَقُودًا يُسَعِّرُونها بِه ، ثُمَّ أرادوهم فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنهُم ، فَقَذَفُوهُم فيها)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٧٤_٧٧): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ قُتِلَ أصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ أي: لُعِنُوا . والأُخْدُودُ : شَقٌّ يُشَقُّ في الأرضِ ، والجَمْعُ أخاديد . وهؤلاء قَوْمٌ حَفَرُوا حفائر في الأرض ، وأوْقَدُوا فيها النارَ ، وألْقَوْا فِيها مَنْ لَمْ يَكْفُرْ . واختلفَ العُلماءُ فِيهم على سِتَّة أقوال : أحدها أنَّه مَلِكٌ كانَ له ساحر ، فَبَعَثَ إليه غُلامًا يُعَلِّمُه السِّحْرَ ، وكانَ الغُلامُ يَمُرُّ على راهب ، فأعجبه أمْرُه ، فَتَبِعَه فَعَلِمَ بِهِ المَلِكُ ، فَأمَرَه أن يَرْجِعَ عَن دِينِه ، فقال : لا أفْعَل، فاجتهدَ المَلِكُ في إهلاكه فَلَمْ يَقْدِرْ ، فقال الغُلامُ : لَسْتَ بقاتلي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ ، اجْمَع الناسَ في صعيد

واحد ، واصْلُبْني على جِذْع ، وَارْمِني بِسَهْمٍ مِن كِنَانتي ، وقُلْ : بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الغُلامِ ، فَفَعَلَ ، فَمَاتَ الغُلامُ ، فقال الناس : آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ ، فَخَدَّ الأخاديدَ ، وأضرمَ فيها النارَ ، وقال : مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَن دِينِه ، فَأَقْحِمُوه فيها ، فَفَعَلُوا ، وهذا مُخْتَصَر الحديث ، وفيه طُول ، وقَدْ ذَكَرْتُهُ في (المُغْني) و (الحدائق) بِطُوله مِن حديث صُهَيب عَن رسول اللَّه ﷺ . والثاني أنَّ مَلِكًا مِنَ المُلوكِ سَكِرَ فَوَقَعَ على أُخْتِه ، فلمَّا أفاقَ قال لها : وَيْحَكِ كَيْفَ المَخْرَجُ ؟ ، فقالت له : اجْمَعْ أهْلَ مَملكتك فَأخْبِرْهُم أنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَحَلَّ نِكَاحَ الأخَوَاتِ ، فإذا ذَهَبَ هذا في الناس وَتَنَاسَوْهُ ، خَطَبْتَهُم فَحَرَّمْتَهُ ، فَفَعَلَ ذلك فَأَبَوْا أن يَقْبَلُوا ذلك مِنْهُ ، فَبَسَطَ فِيهِم السَّوْطَ ، ثُمَّ جَرَّدَ السَّيْفَ ، فَأَبَوْا ، فَخَدَّ لَهُم أُخْدُودًا ، وأوقدَ فيه النارَ ، وَقَذَفَ مَنْ أبى قَبُولَ ذلك ، قاله عَلِيُّ ابن أبي طالب . والثالث أنَّهُم ناس اقتتلَ مُؤمِنُوهم وكُفَّارُهم ، فَظَهَرَ المُؤمنون ، ثُمَّ تَعَاهَدُوا أن لا يَغْدِرَ بَعْضُهم ببعض ، فَغَدَرَ كُفَّارُهم ، فأخذوهم ، فقال له رَجُل مِنَ المؤمنين : أوْقِدُوا نارًا ، وَأعْرِضُوا عَلَيها ، فَمَن تَابَعَكُم عَلى دِينِكم فذاكَ الذي تُحِبُّون ، ومَنْ لَمْ يَتْبَعْكُم أُقْحِمَ النارَ فاسترحتم مِنْه ، فَفَعَلُوا ، فَجَعَلَ المُسْلِمُون يَقْتحمونها ، ذَكَرَه قَتَادَة . والرابع أنَّ قَوْمًا مِنَ المُؤمنين اعْتَزَلُوا الناسَ في الفَتْرَةِ ، فأرسلَ إلَيهم جَبَّارٌ مِن عَبَدَةِ الأوثانِ ، فَعَرَضَ عليهم الدُّخُولَ في دِينِه ، فَأَبَوْا ، فَخَدَّ لَهُم أُخْدُودًا ، وألقاهم فيه ، قاله الربيع بن أنس. والخامس أنَّ جَمَاعَة آمَنُوا مِن قَوْمِ يُوسُف ابن ذِي نُوَاس بَعْدَمَا رُفِعَ عِيسَى ، فَخَدَّ لَهُم أُخْدُودًا، وأوْقَدَ فيه النارَ، فَأَحْرَقَهُم كُلَّهُم،فأنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قُتِلَ أصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ ، وهُم يُوسُف بن ذِي نُوَاس وأصحابُه ، قاله مُقَاتِل . والسادس أنَّهُم قَوْمٌ كانوا يَعْبُدُون صَنَمًا ، وَمَعَهُم قَوْمٌ يَكْتُمُون إيمانَهم ، فَعَلِمُوا بِهِم ، فَخَدُّوا لَهُم أُخْدُودًا ، وقَذَفُوهم فيه ، حَكَاه الزَّجَّاج . وَاخْتَلَفُوا في الذينَ أُحْرِقُوا على خمسة أقوال : أحدها أنَّهُم كانوا مِنَ الحَبَشَةِ ، قاله عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَه . والثاني مِن بَني إسرائيل ، قاله ابن عباس. والثالث مِنْ أهْلِ اليَمَنِ ، قاله الحَسَن . وقالَ الضَّحَّاك : كانوا مِنْ نَصَارى اليَمَنِ ، وذلك قَبْل مَبْعَثِ رسول اللَّه ﷺ بأربعين سَنَة . والرابع مِنْ أهْلِ نَجْرَان ، قاله مُجَاهِد . والخامس مِنَ النَّبَطِ ، قاله عِكْرِمَة . وفي عَدَدِهِم ثلاثةُ أقوال : أحدها اثنَا عَشَر ألْفًا ، قاله وَهْب . والثاني سَبْعُون ألْفًا ، قاله ابن السائب . والثالث ثَمَانُون رَجُلًا وتِسْعَة نِسْوَة ، قاله مُقَاتِل)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ ﴾ [البُرُوج : ٥] . النارِ العَظِيمةِ المُتَأجِّجَةِ ، ذَات الحَطَبِ واللهبِ ، التي أضْرَمَهَا الكُفَّارُ في الأُخْدُودِ لإحراقِ المُؤمنين . وهذا وَصْفٌ لها بِغَايَةِ العِظَمِ ، وارتفاعِ اللهبِ ، وكَثرةِ مَا فِيها مِنَ الحَطَبِ ، والقَصْدُ وَصْفُ النارِ بالشِّدَّةِ والهَوْلِ .

و ﴿ النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ ﴾ بَدَلٌ مِنَ ﴿ الأُخْدُودِ ﴾ ، كأنَّه قال: قُتِلَ أصحابُ النارِ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٥٨٣) : ((قَرَأ الجُمهورُ : ﴿ النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ ﴾ بِجَرِّ النارِ عَلى أنَّهَا بَدَل اشتمال مِنَ الأُخْدُودِ ، لأنَّ الأُخْدُود مُشتمِل عَلَيها ، وذَاتِ الوَقُودِ وَصْفٌ لَهَا بأنَّها نار عظيمة . والوَقُودُ : الحَطَبُ الذي تُوقَد بِهِ)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٣٨٧) : ((قال الربيع بن أنس : نَجَّى اللَّهُ المُؤمِنِين الذينَ أُلْقُوا في النارِ بِقَبْضِ أرواحِهم قَبْلَ أن تَمَسَّهُمُ النارُ ، وَخَرَجَت النارُ إلى مَن عَلى شَفِيرِ الأُخْدُودِ مِنَ الكُفَّارِ فَأحْرَقَتْهُم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ [البُرُوج : ٦] .

حِينَ هُمْ قاعدون حَوْلَ النارِ لتعذيبِ المؤمنين ، ويُمَارِسُون التَّشَفِّي بإحراقهم ، أي : يَشْعُرُون بالسَّعَادَةِ نِكَايَةً بِهِم كأنَّهُم يَأخُذون ثَأرَهُم مِنهُم .

وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ٥٢٦) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : النارِ ذَاتِ الوَقُودِ إذْ هَؤلاء الكُفَّار مِن أصحاب الأُخْدُود عَلَيها ، يعني على النار ، فقال : عَلَيها ، والمَعْنى أنَّهُم قُعُود عَلى حَافَةِ الأُخْدُودِ ، فَقِيل : على النار ، والمعنى : لِشَفِيرِ الأُخْدُودِ ، لِمَعرفةِ السامعين مَعْنَاه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَهُمْ عَلى مَا يَفْعَلُونَ بالمُؤمنينَ شُهُودٌ ﴾ [البُرُوج : ٧] .

ويَشْهَد الكُفَّارُ ذلك الفِعْلَ الشَّنيع ، أوْ : وَهُمْ عَلى مَا يَفْعَلُون بالمؤمنين باللَّهِ مِنَ تَعْذيبهم بالإلقاء في النار إنْ لَمْ يَرْجِعُوا عَن إيمانِهم حاضرون . أي إنَّ الكُفَّارَ كانوا يَعْرِضُون الكُفْرَ عَلى المُؤمنين ، فَمَنْ أبى أَلْقَوْهُ في النار . وفي ذلك وَصْفُهُم بالقَسْوَةِ ثُمَّ بالجِدِّ في ذلك .

والغَرَضُ تَخويفُ كُفَّارِ قُرَيْش ، فَقَدْ كانوا يُعَذِّبُون مَنْ أسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِم ، لِيَرْجِعُوا عن الإسلام ، فَذَكَرَ اللَّهُ تعالى قِصَّة " أصحاب الأُخْدُود " وَعِيدًا للكُفَّار ، وتَسْلِيَةً للمُؤمنين المُعَذَّبين .

لَقَدْ أخبرَ اللَّهُ تعالى عَن قِصَّة قَوْمٍ بَلَغَتْ بَصِيرَتُهُم في إيمانهم إلى أنْ صَبَرُوا عَلى أن أُحْرِقُوا بالنار في اللَّهِ . وَرُوِيَ أنَّ اللَّهَ أنْجَى المُؤمنين الذينَ أُلْقُوا في النار بقبض أرواحهم قَبْلَ وُقوعهم فيها، وَخَرَجَت النارُ إلى الكافرين القاعدين حَوْلَهَا فَأحْرَقَتْهُم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٨٤) : ((﴿ وَهُمْ عَلى مَا يَفْعَلُونَ بالمُؤمنينَ شُهُودٌ ﴾ ، أي : الذي خَدُّوا الأُخْدُودَ ، وَهُمُ المَلِكُ وأصحابُه عَلى مَا يَفْعَلُون بالمُؤمنين مِنْ عَرْضِهِم على النار لِيَرْجِعُوا إلى دِينِهِم ﴿ شُهُودٌ ﴾ ، أي : حُضُورٌ . أوْ يَشْهَد بَعْضُهم لبعض عِند المَلِكِ بأنَّه لَمْ يُقَصِّرْ فِيما أَمَرَ بِهِ . وقِيل: يَشْهَدُون بِما فَعَلُوا يَوْمَ القِيَامة ، ثُمَّ تَشْهَد عَلَيْهِم ألْسِنَتُهُم وأيديهم وأرْجُلُهُم .

وقِيل : على بمعنى معَ ، والتقدير : وَهُمْ معَ مَا يَفْعَلُون بالمُؤمنين شُهُودٌ . قال الزَّجَّاج : أعْلَمَ اللَّهُ قِصَّةَ قَوْمٍ بَلَغَتْ بَصِيرَتُهُم وحقيقةُ إيمانهم إلى أنْ صَبَرُوا على أن يُحْرَقُوا بالنار في اللَّهِ)) .

وعَن صُهَيْبٍ قال : كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا صَلَّى العَصْرَ هَمَسَ ، والهَمْسُ في بَعْضِ قَوْلِهِم تَحَرُّكُ شَفَتَيْهِ كأنَّه يَتَكَلَّم ، فَقِيل له : إنَّكَ يا رسولَ اللَّهِ إذا صَلَّيْتَ العَصْرَ هَمَسْتَ ؟ ، قال : ((إنَّ نَبِيًّا مِنَ الأنبياءِ كانَ أُعْجِبَ بِأُمَّتِهِ ، فقالَ : مَنْ يَقُوم لهؤلاء ؟ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إلَيْهِ أنْ خَيِّرْهُمْ بَيْنَ أنْ أنتقمَ مِنهُم وَبَيْنَ أنْ أُسَلِّطَ عَلَيْهِم عَدُوَّهُم ، فاختارَ النِّقْمَةَ ، فَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ المَوْتَ ، فَمَاتَ مِنهُم في يَوْمٍ سَبْعُونَ ألْفًا)) . قال : وكانَ إذا حَدَّثَ بهذا الحديثِ حَدَّثَ بهذا الحديث الآخَرِ ، قال : ((كانَ مَلِكٌ مِنَ المُلوكِ ، وكانَ لذلك المَلِكِ كَاهِنٌ يَكْهَنُ لَهُ ، فقال الكاهنُ : انظُرُوا لِي غُلامًا فَهِمًا ، أوْ قالَ : فَطِنًا لَقِنًا ، فَأُعَلِّمُهُ عِلْمِي هذا ، فإنِّي أخافُ أن أمُوتَ فَيَنْقَطِعَ مِنكُم هذا العِلْمُ ، ولا يَكُونَ فِيكُم مَنْ يُعَلِّمُهُ ، قال : فَنَظَرُوا لَهُ عَلى مَا وَصَفَ ، فَأَمَرُوهُ أن يَحْضُرَ ذلك الكاهنَ ، وأنْ يَختلفَ إلَيْه ، فَجَعَلَ يَختلفُ إلَيْه ، وكانَ على طَرِيقِ الغُلامِ رَاهِبٌ في صَوْمَعَةٍ. _ قال مَعْمَر : أحْسَبُ أنَّ أصحابَ الصَّوامعِ كانوا يَوْمَئِذٍ مُسْلِمِين _ . قالَ : فَجَعَلَ الغُلامُ يَسْألَ ذلك الراهبَ كُلَّمَا مَرَّ بِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حتى أخْبَرَه ، فقال : إنَّما أعْبُدُ اللَّهَ ، قال : فَجَعَلَ الغُلامُ يَمْكُثُ عِندَ الراهب ، ويُبْطِئُ عَلى الكاهنِ ، فأرسلَ الكاهنُ إلى أهْلِ الغُلامِ إنَّهُ لا يَكَادُ يَحْضُرُني ، فأخبرَ الغُلامُ الراهبَ بذلك ، فقال له الراهب: إذا قالَ لَكَ الكاهنُ : أيْنَ كُنْتَ ؟ ، فَقُلْ : عِندَ أهْلِي ، وإذا قالَ لَكَ أهْلُكَ : أيْنَ كُنْتَ فَأخْبِرْهُم أنَّكَ كُنْتَ عِندَ الكاهنِ ، قال : فَبَيْنَمَا الغُلامُ عَلى ذلك ، إذْ مَرَّ بجماعةٍ مِنَ الناسِ كثيرٍ قَدْ حَبَسَتْهُمْ دَابَّةٌ ، فقال بعضُهم : إنَّ تِلْكَ الدَّابَّةَ كانتْ أسَدًا ، قال: فَأخَذَ الغُلامُ حَجَرًا ، قالَ : اللهُمَّ إنْ كانَ مَا يَقُولُ الراهبُ حَقًّا فَأسْألُكَ أنْ أقْتُلَهَا ، قالَ : ثُمَّ رَمَى فَقَتَلَ الدَّابَّةَ ، فقال الناسُ : مَنْ قَتَلَهَا ؟ ، قالوا : الغُلامُ ، فَفَزِعَ الناسُ ، وقالوا : قَدْ عَلِمَ هَذا الغُلامُ عِلْمًا لَمْ يَعْلَمْهُ أحَدٌ ، قال : فَسَمِعَ بِهِ أعْمَى ، فقالَ لَهُ : إنْ أنتَ رَدَدْتَ بَصَرِي فَلَكَ كَذَا وكَذَا ، قالَ له : لا أُرِيدُ مِنْكَ هَذَا ، ولكنْ أرأيتَ إنْ رَجَعَ إلَيْكَ بَصَرُكَ أتُؤْمِنُ بالذي يَرُدُّهُ عَلَيْكَ ؟ ، قالَ : نَعَمْ ، قال : فَدَعَا اللَّهُ فَرَدَّ عَلَيْهِ بَصَرَه ، فآمنَ الأعْمَى ، فَبَلَغَ المَلِكَ أمْرُهُم ، فَبَعَثَ إلَيْهِم ، فَأُتِيَ بِهِم ، فقالَ : لأَقْتُلَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنكُم قِتْلَةً لا أقْتُلُ بِها صَاحِبَه ، فَأمَرَ بالراهبِ والرَّجُلِ الذي كانَ أعْمَى ، فَوَضَعَ المِنْشَارَ عَلى مَفْرَقِ أحَدِهِمَا فَقَتَلَهُ ، وَقَتَلَ الآخَرَ بِقِتْلَةٍ أُخْرَى ، ثُمَّ أَمَرَ بالغُلامِ فقالَ: انطلقوا بِهِ إلى جَبَلِ كَذَا وكَذَا، فَأَلْقُوهُ مِنْ رَأسِهِ، فَانطَلَقُوا بِهِ إلى ذلك الجَبَلِ ، فلمَّا انْتَهَوْا بِهِ إلى ذلك المَكَانِ الذي أرادوا أن يُلْقُوهُ مِنْهُ جَعَلُوا يَتهافتون مِن ذَلِكَ الجَبَلِ ، ويَتَرَدَّوْنَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ

مِنهُم إلا الغُلامُ ، قالَ : ثُمَّ رَجَعَ فَأمَرَ بِهِ المَلِكُ أن يَنْطَلِقُوا بِهِ إلى البَحْرِ ، فَيُلْقُونَهُ فِيهِ ، فَانْطُلِقَ بِهِ إلى البَحْرِ ، فَغَرَّقَ اللَّهُ الذينَ كانوا مَعَهُ وَأنْجَاه ، فَقَالَ الغُلامُ للمَلِكِ : إنَّكَ لا تَقْتُلُني حَتَّى تَصْلُبَنِي وَتَرْمِيَني وَتَقُولَ إذا رَمَيْتَنِي : بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ هَذَا الغُلامِ . قالَ : فَأمَرَ بِهِ فَصُلِبَ ثُمَّ رَمَاه ، فقال : بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ هَذَا الغُلامِ ، قال : فَوَضَعَ الغُلامُ يَدَهُ عَلى صُدْغِهِ حِينَ رُمِيَ ، ثُمَّ مَاتَ ، فقالَ أُنَاسٌ: لَقَدْ عَلِمَ هَذَا الغُلامُ عِلْمًا مَا عَلِمَهُ أحَدٌ ، فإنَّا نُؤْمِنُ بِرَبِّ هَذَا الغُلامِ ، قال : فَقِيلَ للمَلِكِ : أجَزِعْتَ أنْ خَالَفَكَ ثلاثةٌ ، فَهَذَا العَالَمُ كُلُّهُمْ قَدْ خَالَفُوكَ ، قال : فَخَدَّ أُخْدُودًا ثُمَّ ألْقَى فِيها الحَطَبَ والنارَ ، ثُمَّ جَمَعَ الناسَ ، فقالَ : مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ تَرَكْنَاهُ ، وَمَنْ لَمْ يَرْجِعْ ألْقَيْنَاهُ في هَذِهِ النارِ ، فَجَعَلَ يُلْقِيهِم في تِلْكَ الأُخْدُودِ . قال : يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالى فيه : ﴿ قُتِلَ أصْحَابُ الأُخْدُودِ(٤) النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ (٥) ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ العَزِيزِ الحَمِيدِ ﴾ ، قال:فَأمَّا الغُلامُ فَإنَّهُ دُفِنَ)). قالَ : فَيُذْكَرُ أنَّهُ أُخْرِجَ في زَمَنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ وإصْبَعُهُ عَلى صُدْغِهِ كَمَا وَضَعَهَا حِينَ قُتِلَ [٦٧] .

كانَ النَّبِيُّ ﷺ رحيمًا بأُمَّتِهِ مُشْفِقًا يَخْشَى عليهم عَذابَ اللَّهِ تعالى . ويُخْبِر صُهَيْبُ بنُ سِنَان ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ : كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا صَلَّى العَصْرَ هَمَسَ ، والهَمْسُ في بَعْضِ قَوْلِهِم تَحَرُّكُ شَفَتَيْهِ كَأنَّه يَتَكَلَّم ، أي : إنَّه يَتَكَلَّم بِكَلامٍ خَفِيٍّ ، فَقِيلَ للنَّبِيِّ ﷺ : " إنَّكَ يا رسولَ اللَّهِ إذا صَلَّيْتَ العَصْرَ هَمَسْتَ ؟ " ، أي : يَستفهمون عَن سَبَبِ هَمْسِه ﷺ ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ : " إنَّ نَبِيًّا مِنَ الأنبياءِ كانَ أُعْجِبَ بِأُمَّتِهِ ، فقالَ : مَنْ يَقُوم لهؤلاء ؟ ، أي : أُعْجِبَ بِهِم وَسَرَّتْهُ قُوَّتُهُم ، يُشيرُ إلى أنَّه عِند إعجابِه بِهِم لَمْ يَعْزُ قُوَّتَهُم إلى اللَّهِ تعالى ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ : " فَأوْحَى اللَّهُ إلَيْهِ " ، أي : إلى هَذا النَّبِيِّ ﷺ ، " أنْ خَيِّرْهُمْ " ، أي : اجْعَلْ قَوْمَكَ يَختارونَ " بَيْنَ أنْ أنتقمَ مِنهُم " ، أي : بالمَوْتِ،" وَبَيْنَ أنْ أُسَلِّطَ عَلَيْهِم عَدُوَّهُم "، أي: يُوقِعَ في صُفوفهم القَتْلَ والهزيمةَ ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: " فاختارَ النِّقْمَةَ " ، أي : المَوْتَ ، " فَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ المَوْتَ " ، أي : فَعَاقَبَهُم بالمَوْتِ ، " فَمَاتَ مِنهُم في يَوْمٍ سَبْعُونَ ألْفًا " .

وفي الحَديثِ : الإرشادُ إلى نِسْبَةِ الأُمُورِ إلى اللَّهِ تعالى ، والتَّبَرُّؤِ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ ، خُصُوصًا إذا رأى الإنسانُ مَا يُعْجِبُه في نَفْسِه أوْ في غَيْرِه .

وقال المُباركفوري في تُحفة الأحوذي (٩ / ١٨٢ ــ ١٨٦) : ((قَوْلُه : (هَمَسَ) مِنْ بَابِ ضَرَبَ أَيْ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ خَفِيٍّ (وَالْهَمْسُ فِي قَوْلِ بَعْضِهِم يُحَرِّك شَفَتَيْهِ كَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ) تَفْسِيرُ

---

٦٧ رواه التِّرمذيُّ في سُنَنِه (٥ / ٤٣٧) برقم (٣٣٤٠) ، وقال : حديث حسن غريب .

الْهَمْسِ هَذَا مِنْ بَعْضِ الرُّوَاةِ . قَالَ فِي النِّهَايَةِ : الْهَمْسُ الْكَلَامُ الخَفِيُّ لَا يَكَادُ يُفْهَمُ . كَانَ أُعْجِبَ بِصِيغَةِ المَجْهُولِ ، مِنَ الْإِعْجَابِ بِأُمَّتِهِ أَيْ مِنْ جِهَةِ الكَثْرَةِ ، يُقَالُ : أُعْجِبَ بِالشَّيْءِ سَرَّهُ الشَّيْءُ وَعَجِبَ مِنْهُ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَيْ ذَلِكَ النَّبِيِّ ، أَنْ خَيِّرْهُمْ بَيْنَ أَنْ أَنْتَقِمَ مِنْهُمْ أَيْ أُعَاقِبَهُمْ ، فَاخْتَارُوا النِّقْمَةَ بِالْكَسْرِ وَبِالْفَتْحِ وَكَفَرْحَةٍ ، هِيَ المُكَافَأَةُ بِالعُقُوبَةِ . اعْلَمْ أَنَّ حَدِيثَ صُهَيْبٍ هَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ هَكَذَا مُخْتَصَرًا مُجْمَلًا ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مُطَوَّلًا مُفَصَّلًا ، فَرَوَاهُ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ المُغِيرَةِ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى هَمَسَ شَيْئًا لَا أَفْهَمُهُ ، وَلَا يُخْبِرُنَا بِهِ ، قَالَ: " أَفَطِنْتُمْ لِي ؟ " ، قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : " إِنِّي ذَكَرْتُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أُعْطِيَ جُنُودًا مِنْ قَوْمِه، فَقَالَ : مَنْ يُكَافِئُ هَؤُلَاءِ أَوْ مَنْ يَقُومُ لِهَؤُلَاءِ ؟ ، أَوْ غَيْرَهَا مِنَ الْكَلَامِ ، فَأُوحِيَ إِلَيْهِ أَنِ اخْتَرْ لِقَوْمِكَ إِحْدَى ثَلَاثٍ ، إِمَّا أَنْ نُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ، أَوِ الجُوعَ ، أَوِ المَوْتَ ، فَاسْتَشَارَ قَوْمَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالُوا : أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ ، فَكُلُّ ذَلِكَ إِلَيْكَ ، خِرْ لَنَا ، فَقَامَ إِلى الصَّلَاةِ ، وَكَانُوا إِذَا فَزِعُوا فَزِعُوا إِلَى الصَّلَاةِ ، فَصَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ : أَيْ رَبِّ ، أَمَّا عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ فَلَا ، أَوِ الْجُوعُ فَلَا ، وَلَكِنِ الْمَوْتُ ، فَسُلِّطَ عَلَيْهِمُ المَوْتُ ، فَمَاتَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا ، فَهَمْسِي الَّذِي تَرَوْنَ أَنِّي أَقُولُ : اللَّهُمَّ بِكَ أُقَاتِلُ ، وَبِكَ أُصَاوِلُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ " . وَرَوَاهُ مِنْ طَرِيقِ عَفَّانَ عَنْ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ كانَ أَيَّامَ حُنَيْنٍ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ بِشَيْءٍ لَمْ نَكُنْ نَرَاهُ يَفْعَلُهُ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّا نَرَاكَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ ، فَمَا هَذَا الَّذِي تُحَرِّكُ شَفَتَيْكَ ؟ ، قَالَ : " إِنَّ نَبِيًّا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَعْجَبَتْهُ كَثْرَةُ أُمَّتِهِ ، فَقَالَ : لَنْ يَرُومَ هَؤُلَاءِ شَيْءٌ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ خَيِّرْ أُمَّتَكَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ ، إِمَّا أَنْ نُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَسْتَبِيحَهُمْ ، أَوِ الجُوعَ ، وإِمَّا أَنْ أُرْسِلَ عَلَيْهِمُ المَوْتَ ، فَشَاوَرَهُمْ فَقَالُوا : أَمَّا العَدُوُّ فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ . وأَمَّا الجُوعُ فَلَا صَبْرَ لَنَا عَلَيْهِ ، وَلَكِنِ المَوْتُ ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمُ المَوْتَ ، فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ سَبْعُونَ أَلْفًا " ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " فَأَنَا أَقُولُ الآنَ حَيْثُ رَأَى كَثْرَتَهُم : اللَّهُمَّ بِكَ أُحَاوِلُ ، وَبِكَ أُصَاوِلُ ، وَبِكَ أُقَاتِلُ " . (قال : وكان إذا حَدَّثَ بهذا الحَدِيثِ حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْآخَرِ قَالَ : " كَانَ مَلِكٌ مِنَ المُلُوكِ " إلخ) . قال الحافظ ابنُ كَثِيرٍ : وَهَذَا السِّيَاقُ لَيْسَ فِيهِ صَرَاحَةٌ أَنَّ سِيَاقَ هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ . قَالَ شَيْخُنَا الْحَافِظُ أَبُو الْحَجَّاجِ الْمِزِّيُّ :

فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ صُهَيْبٍ الرُّومِيِّ ، فإنَّه كانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ أَخْبَارِ النَّصَارَى . انْتَهَى . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ : صَرَّحَ بِرَفْعِ الْقِصَّةِ بِطُولِهَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ وَمِنْ طَرِيقِهِ أَخْرَجَهَا مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَأَحْمَدُ وَوَقَفَهَا مَعْمَرٌ عَنْ ثَابِتٍ وَمِنْ طَرِيقِهِ أَخْرَجَهَا التِّرْمِذِيُّ. انْتَهَى. قُلْتُ: فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : " كانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ " إلخ (غُلَامًا فَهِمًا) أَيْ سَرِيعَ الْفَهْمِ (أَوْ قَالَ : فَطِنًا) أَيْ حَاذِقًا (لَقِنًا) أَيْ حَسَنَ التَّلَقُّنِ لِمَا يَسْمَعُهُ ، وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ الثَّلَاثَةُ بِوَزْنِ كَتِفٍ بِفَتْحِ الْكَافِ وَكَسْرِ الْفَوْقِيَّةِ (فَنَظَرُوا لَهُ) أَيْ لِلْكَاهِنِ (عَلَى مَا وَصَفَ) أَيْ ذَكَرَ لَهُمُ الْكَاهِنُ (فَأَمَرُوهُ) أَيْ فَوَجَدُوا غُلَامًا عَلَى مَا وَصَفَهُ فَأَمَرُوهُ (وَأَنْ يَخْتَلِفَ إلَيْهِ) أَيْ يَتَرَدَّدُ إلَيْهِ (رَاهِبٌ فِي صَوْمَعَةٍ) الرَّاهِبُ وَاحِدُ رُهْبَانِ النَّصَارَى ، وَهُوَ مَنِ اعْتَزَلَ عَنِ النَّاسِ إلَى دَيْرٍ طَلَبًا لِلْعِبَادَةِ ، وَالصَّوْمَعَةُ كَجَوْهَرَةٍ : بَيْتٌ لِلنَّصَارَى يَنْقَطِعُ فِيهِ رُهْبَانُهُمْ (قَالَ مَعْمَرٌ : أَحْسَبُ أَنَّ أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ كَانُوا يَوْمَئِذٍ مُسْلِمِينَ) كما يَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ هَذِهِ الْقِصَّةِ (فَلَمْ يَزَلْ بِهِ) أَيِ الْغُلَامُ بِالرَّاهِبِ (قَالَ : فَأَخَذَ الغُلَامُ حَجَرًا) وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ فَقَالَ : الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا (قَالَ: فَسَمِعَ بِهِ أَعْمَى) وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ : أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بهدايا كثيرة (لأَقْتُلَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنكُم قِتْلَةً) بِكَسْرِ الْقَافِ أَيْ بِنَوْعٍ مِنَ الْقَتْلِ (لَا أَقْتُلُ بِهَا صَاحِبَهُ) صِفَةٌ لِقَوْلِهِ : قِتْلَةً (فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ) بِكَسْرِ الْمِيمِ آلَةٌ ذَاتُ أَسْنَانٍ يُنْشَرُ بِهَا الْخَشَبُ وَنَحْوُهُ (عَلَى مَفْرِقِ أَحَدِهِمَا) الْمَفْرَقُ كَمَقْعَدٍ وَمَجْلِسٍ وَسَطُ الرَّأْسِ وَهُوَ الَّذِي يُفْرَقُ فِيهِ الشَّعْرُ (وَقَتَلَ الْآخَرَ بِقِتْلَةٍ أُخْرَى) وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ : فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَه : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى ، فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ ، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ ، فَقِيلَ لَه : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى ، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ، فَرِوَايَةُ مُسْلِمٍ هَذِهِ تُخَالِفُ رِوَايَةَ التِّرْمِذِيِّ مُخَالَفَةً ظَاهِرَةً ، وَلَمْ يَظْهَرْ لِي وَجْهُ الْجَمْعِ ، فَتَفَكَّرْ وَتَأَمَّلْ (جَعَلُوا يَتَهَافَتُونَ مِنْ ذَلِكَ الْجَبَلِ) أَيْ يَتَسَاقَطُونَ مِنْهُ (وَيَتَرَدَّوْنَ) مِنَ التَّرَدِّي أَيْ يَسْقُطُونَ. وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ : فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا (فَانْطُلِقَ بِهِ إِلَى الْبَحْرِ فَغَرَّقَ اللَّهُ

الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ وَأَنْجَاهُ) وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ : فَذَهَبُوا بِهِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِم بِمَا شِئْتَ فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ ، فَغَرِقُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ (حَتَّى تَصْلُبَنِي) أَيْ عَلَى جِذْعٍ كَمَا فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ . قَالَ فِي الْقَامُوسِ : صَلَبَهُ كَضَرَبَهُ جَعَلَهُ مَصْلُوبًا كَصَلَّبَهُ (فَوَضَعَ الْغُلَامُ يَدَهُ عَلَى صُدْغِهِ حِينَ رُمِيَ ثُمَّ مَاتَ) وفي رواية مُسْلِم : ثُمَّ رَمَاه فَوَضَعَ السَّهْمَ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ (أَجَزِعْتَ) بِكَسْرِ الزَّايِ مِنَ الْجَزَعِ مُحَرَّكَةٌ وَهُوَ نَقِيضُ الصَّبْرِ (أَنْ خَالَفَكَ ثلاثة) أي الأعمى والراهب والغُلام (فَخَدَّ) أَيْ شَقَّ (أُخْدُودًا) بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ الْمُعْجَمَةِ : الشَّقُّ الْعَظِيمُ وَجَمْعُهُ أَخَادِيدُ (يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ) أَيْ فِي شَأْنِ هَذِهِ الْقِصَّةِ : قُتِلَ ، أَيْ : لُعِنَ ، وَهُوَ جَوَابُ الْقَسَمِ ، وَقِيلَ : جَوَابُه : إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيد ، أصحابُ الأُخْدُود أَيِ الْمَلِكُ الَّذِي خَدَّ الْأُخْدُودَ وَأَصْحَابُهُ ، النَّارِ بَدَل اشتمال مِنَ الأُخْدُود ، ذات الوَقُود وَصْفٌ لَهَا بِأَنَّهَا عَظِيمَةٌ لَهَا مَا يَرْتَفِعُ بِهِ لَهَبُهَا مِنَ الْحَطَبِ الْكَثِيرِ وَأَبْدَانِ النَّاسِ ، وبَعْدَه إِذْ ظَرْف لِقُتِل أَيْ لُعِنُوا حِينَ أَحْرَقُوا بِالنَّارِ قَاعِدِينَ حَوْلَهَا ، هُمْ عَلَيْهَا ، أَيْ حَوْلَهَا عَلَى جَانِبِ الْأُخْدُودِ ، قُعُودٌ ، أَيْ جُلُوسٌ عَلَى الْكَرَاسِيِّ ، وَهُمْ أَيِ الَّذِينَ خَدُّوا الْأُخْدُودَ وَهُمُ الْمَلِكُ وَأَصْحَابُهُ عَلَى مَا يَفْعَلُون بالمُؤمنين بِاللَّهِ مِنْ تَعْذِيبِهِمْ بِالْإِلْقَاءِ فِي النَّارِ إِنْ لَمْ يَرْجِعُوا عَنْ إِيمَانِهِمْ شُهُودٌ ، أَيْ حُضُورٌ . رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ أَنْجَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُلْقَيْنَ فِي النَّارِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ قَبْلَ وُقُوعِهِمْ فِيهَا فَخَرَجَتِ النَّارُ إِلَى مَنْ ثَمَّ فَأَحْرَقَتْهُمْ ، وَمَا نَقَمُوا مِنهُم إلا أن يُؤمِنُوا ، أَيْ مَا عَابُوا مِنْهُمْ وَمَا أَنْكَرُوا إِلَّا الْإِيمَانَ ، كَقَوْلِهِ : وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ ، بِاللَّهِ العزيز الحميد) . ذَكَرَ الْأَوْصَافَ الَّتِي يَسْتَحِقُّ بِهَا أَنْ يُؤْمَنَ بِهِ ، وَهُوَ كَوْنُهُ عَزِيزًا غَالِبًا قَادِرًا يُخْشَى عِقَابُهُ ، حَمِيدًا مُنْعِمًا يَجِبُ لَهُ الْحَمْدُ عَلَى نِعْمَتِهِ وَيُرْجَى ثَوَابُهُ (قَالَ فَيُذْكَرُ أَنَّهُ أُخْرِجَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إلخ) . قَالَ ابن إِسْحَاقَ : وَحَدَّثَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ أَنَّهُ حَدَّثَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ كَانَ زَمَانَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حَفَرَ خُرْبَةً مِنْ خُرَبِ نَجْرَانَ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ فَوُجِدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ التَّامِرِ تَحْتَ دَفْنٍ فِيهَا قَاعِدًا وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى ضَرْبَةٍ فِي رَأْسِهِ مُمْسِكًا عَلَيْهَا بِيَدِهِ فَإِذَا أُخِذَتْ يَدُهُ عَنْهَا انْبَعَثَ دَمًا وَإِذَا أُرْسِلَتْ يَدُهُ رُدَّتْ عَلَيْهَا فَأَمْسَكَتْ دَمَهَا ، وَفِي يَدِهِ خَاتَمٌ مَكْتُوبٌ فِيهِ رَبِّيَ اللَّهُ ، فَكَتَبَ فِيهِ إلى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يُخْبِرُهُ بِأَمْرِهِ ، فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَيْهِمْ أَنْ أَقِرُّوهُ عَلَى حَالِهِ ، وَرُدُّوا عَلَيْهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ ، فَفَعَلُوا)) .

٢٩ــ أصحابُ الفِيل

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ ﴾ [الفِيل : ١] [٦٨] .

الاستفهامُ للتَّقريرِ والتَّعْجِيب ، تَعجيبُ النَّبِيِّ ﷺ بِما فَعَلَه اللَّهُ تعالى . أَلَمْ يَبْلُغْكَ يَا مُحَمَّد وتَعْلَم عِلْمًا يَقِينيًّا كأنَّه مُشَاهَد بالعَيْنِ، مَاذا صَنَعَ اللَّهُ العظيمُ بأصحابِ الفِيلِ الذينَ قَصَدُوا الاعتداءَ عَلى البَيْتِ الحَرَامِ وَتَخْرِيبَ الكَعْبَةِ ؟ .

والخِطَابُ للنَّبِيِّ ﷺ ، ويَجُوز أن يَكُونَ لِكُلِّ مَن يَصْلُح له . والمَعنى : قَدْ عَلِمْتَ يَا مُحَمَّد ، أوْ عَلِمَ الناسُ المَوجودون في عَصْرِكَ وَمَنْ بَعْدَهُم بِمَا بَلَغَكُم مِنَ الأخبارِ المُتَوَاتِرَةِ مِن قِصَّةِ أصحابِ الفِيلِ وَمَا فَعَلَ اللَّهُ بِهِم ، فَمَا لَكُم لا تُؤْمِنُون ؟ .

وإضافةُ النَّبِيِّ ﷺ إلى اسْمِ الرَّبِّ سُبحانَه : ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ تَشريفٌ للنَّبِيِّ ﷺ وتَعظيمٌ له ، وإشادةٌ بِقُدرةِ اللَّهِ المُطْلَقَةِ .

والجديرُ بالذِّكْرِ أنَّ اللَّهَ قالَ : ﴿ كَيْفَ فَعَلَ ﴾ ، ولَمْ يَقُلْ : مَا فَعَلَ ، وتَعليقُ الرُّؤيةِ بِكَيْفِيَّةِ فِعْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ لا بِنَفْسِه ، لِتَهويلِ الحادثةِ، والتَّنبيهِ عَلى وُقوعها على كَيْفِيَّةٍ هائلة ، وَهَيْئَةٍ عجيبة دَالَّة عَلى عِظَمِ قُدرةِ اللَّهِ تعالى ، وكَمَالِ عِلْمِه وحِكْمَتِه ، وَشَرَفِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَإنَّ ذلك مِنَ الإرهاصات ، لِمَا رُوِيَ أنَّ القِصَّة وَقَعَتْ في السَّنَةِ التي وُلِدَ فِيها النَّبِيُّ ﷺ .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١ / ٥٣٠) : ((﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ ﴾ ، الخِطَابُ للرَّسُولِ ﷺ ، وَهُوَ وإنْ لَمْ يَشْهَدْ تِلْكَ الوَقْعَة ، لكنْ شاهدَ آثارَها ، وسَمِعَ بالتَّوَاتُرِ أخبارَها ، فكأنَّه رآها ، وإنَّما قال : ﴿ كَيْفَ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : مَا ، لأنَّ المُراد تذكير مَا فِيها مِن وُجوه

---

٦٨ قال الصابوني في صَفوة التفاسير (٢٠ / ١٠٤) : ((رُوِيَ أنَّ " أبْرَهَة الأشرم " مَلِك اليَمَنِ ، بَنى كَنيسةً بِصَنْعَاء ، وأرادَ أن يَصْرِفَ إلَيْهَا الحَجِيجَ ، فجاءَ رَجُلٌ مِن كِنَانَة ، وَتَغَوَّطَ فِيها لَيْلًا ، وَلَطَّخَ جُدْرَانَهَا بالنَّجَاسَةِ احتقارًا لها ، فَغَضِبَ " أبْرَهَة " ، وَحَلَفَ أن يَهْدِمَ الكَعْبَةَ ، وجاءَ مَكَّةَ بجيش كبير على أفيال ، يَتَقَدَّمُهُم فِيل هُوَ أعظمُ الفِيَلَة ، فلمَّا وَصَلَ قريبًا مِن مَكَّة ، فَرَّ أهْلُهَا الى الجِبَالِ ، خَوْفًا مِن جُنْدِه وجَبروته، وأرسلَ اللَّهُ تعالى على جَيْشِ أبْرَهَة طُيورًا سُودًا ، معَ كُلِّ طائر ثلاثة أحجار ، حَجَر في مِنقاره ، وحَجَرَان في رِجْلَيْه ، فَرَمَتْهُمُ الطُّيورُ بالحِجَارَة ، فكانَ الحَجَرُ يَدخُل في رأس الرَّجُل ويَخْرُج مِن دُبُرِه ، فَيَرْميه جُثَّةً هامدة ، حتى أهلكهم اللَّهُ ، وَدَمَّرهم عَن آخِرِهِم ، وكانتْ قِصَّتُهُم عِبْرَةً للمُعْتَبِرِين ــ انظر التفسير الكبير ٣١ / ٩٦ ، والقرطبي ٢٠ / ١٨٧ ــ)) .

الدَّلالة عَلى كَمَالِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالى ، وقُدْرَتِه ، وَعِزَّةِ بَيْتِه ، وَشَرَفِ رَسُولِه عليه الصلاة والسلام ، فإنَّها مِنَ الإرهاصات ، إذْ رُوِيَ أنَّها وَقَعَتْ في السَّنَةِ التي وُلِدَ فيها رسولُ اللَّهِ ﷺ . قِصَّتُهُا أنَّ أبْرَهَة بن الصَّبَّاح الأشرم _ مَلِك اليَمَنِ مِن قِبَل أصْحَمَة النَّجَاشِي _ بَنَى كَنِيسَةً بِصَنْعَاء ، وسَمَّاهَا القُلَّيْس ، وأرادَ أن يَصْرِفَ الحَاجَّ إلَيها ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِن كِنَانَة ، فَقَعَدَ فِيها لَيْلًا ، فأغضبه ذلك ، فَحَلَفَ لَيَهْدِمَنَّ الكَعْبَةَ ، فَخَرَجَ بجيشه ومَعَه فِيل قوي اسمه محمود ، وفِيلَة أُخْرَى ، فلمَّا تَهَيَّأ للدُّخول وَعَبَّى جَيْشَه ، قَدِمَ الفِيل ، وكانَ كُلَّما وَجَّهُوه إلى الحَرَمِ بَرَكَ ، وَلَمْ يَبْرَحْ ، وإذا رَجَعُوه إلى اليَمَنِ أوْ إلى جِهة أُخْرَى هَرْوَلَ ، فأرسلَ اللَّهُ تعالى طَيْرًا ، معَ كُلِّ واحد في مِنقاره حَجَر ، وفي رِجْلَيْه حَجَرَان ، أكبر مِن العَدَسَة ، وأصغر مِنَ الحِمَّصَة ، فَتَرْميهم فَيَقَع الحَجَرُ في رأس الرَّجُل ، فَيَخْرُج مِن دُبُرِه ، فَهَلَكُوا جميعًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ [الفِيل : ٢] .

أَلَمْ يُهْلِكْهُم وَيَجْعَلْ مَكْرَهُم وسَعْيَهُم في تَخريبِ الكَعْبَةِ في ضَيَاعٍ وَخَسَارٍ ؟! . والمَعْنَى أنَّ اللَّهَ أضَلَّ كَيْدَهُم عَمَّا قَصَدُوا لَهُ فَلَمْ يَصِلُوا إلى مُرادهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٧٠٤) : ((أَلَمْ يَجْعَلْ مَكْرَهُم وسَعْيَهُم في تَخريبِ الكَعْبَةِ واستباحةِ أهْلِها في تَضليلٍ عَمَّا قَصَدُوا إلَيْه حَتَّى لَمْ يَصِلُوا إلى البَيْتِ ، ولا إلى مَا أرَادُوه بِكَيْدِهِم ، والهَمزةُ للتَّقرير كأنَّه قِيل : قَدْ جَعَلَ كَيْدَهُم في تَضليلٍ . والكَيْدُ : هُوَ إرادةُ المَضَرَّةِ بِالغَيْرِ، لأنَّهُم أرادوا أن يَكِيدُوا قُرَيْشًا بالقَتْلِ والسَّبْي ، ويَكِيدُوا البَيْتَ الحَرَامَ بالتَّخريبِ والهَدْمِ)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ [الفِيل : ٣] .

وَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِن جُنُودِه طَيْرًا أتَتْهُم جَمَاعَاتٍ مُتتابعة ، بَعْضُها في إثْرِ بَعْضٍ ، وأحاطتْ بِهِم مِن كُلِّ ناحية . وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٥٤٠) : ((﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ كَثيرةً مُتَفَرِّقَةً ، يَتْبَع بَعْضُها بعضًا . وقِيل : أقاطيع كَالإبِلِ المُؤَبَّلَةِ _ اتُّخِذَتْ للقِنْيَةِ _ . قال أبو عُبَيدة : أبابيل : جَمَاعَات في تَفْرِقَةٍ ، يُقَال : جاءت الخَيْلُ أبابيلَ مِن هَاهُنَا وهَاهُنَا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيل ﴾ [الفِيل : ٤] .

تَقْذِفُهُم بِحِجَارَةٍ صَغيرةٍ مِن طِينٍ مُتَحَجِّر، كأنَّها رصاصات ثاقبة لا تَصِل إلى أحَدٍ إلا قَتَلَتْهُ .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٥٤١) : ((قال ابنُ عَبَّاس وابنُ مسعود : صَاحَت الطَّيْرُ وَرَمَتْهُم بالحِجَارَةِ ، فَبَعَثَ اللَّهُ رِيحًا ، فَضَرَبَت الحِجَارَةَ ، فَزَادَتْهَا شِدَّةً ، فَمَا وَقَعَ مِنها حَجَرٌ عَلى رَجُلٍ إلا خَرَجَ على الجانبِ الآخَرِ ، وإنْ وَقَعَ عَلى رَأسِه خَرَجَ مِن دُبُرِه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأكُول ﴾ [الفِيل : ٥] .

فَجَعَلَهُمُ اللَّهُ كَوَرَقِ زَرْعٍ أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ ، فَدَاسَتْهُ ، وفَتَّتَتْهُ ، فَأَهْلَكَهُم عَن بَكْرَةِ أبيهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٥/ ٧٠٦): ((﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأكُول ﴾ ، أي: جَعَلَ اللَّهُ أصحابَ الفِيلِ كَوَرَقِ الزَّرْعِ إذا أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ ، فَرَمَتْ بِهِ مِن أسْفَل . شَبَّهَ تَقَطُّعَ أوصالِهِم بِتَفَرُّقِ أجزائِه . وقِيل : المَعنى : أنَّهُم صاروا كَوَرَقِ زَرْعٍ قَدْ أَكَلَتْ مِنْهُ الدَّوَابُّ ، وَبَقِيَ مِنْهُ بَقَايَا ، أوْ أَكَلَتْ حَبَّهُ ، فَبَقِيَ بِدُون حَبِّه)) .

وهذه القِصَّة تدلُّ على كَرَامَةِ اللَّهِ للكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، وإنعامِه على قُرَيْشٍ بِدَفْعِ العَدُوِّ عَنْهُم ، فكانَ يَجِب عَلَيْهِم أن يَعْبُدُوا اللَّهَ ، ويَشكُرُوه على نَعْمَائِه ، وفِيها معَ ذلك عجائب وغرائب مِن قُدْرَةِ اللَّهِ على الانتقامِ مِن أعدائه .

وكانَ صَرْفُ ذلك العَدُوِّ العظيم عَامَ مَوْلِدِه السعيد ﷺ إرْهَاصًا بِنُبُوَّتِه ، إذْ إنَّ مَجِيء تِلْك الطَّيْر على الوَصْفِ المَنقول ، مِن خَوارِقِ العَاداتِ والمُعْجِزَاتِ المُتَقَدِّمَة بَيْنَ أيْدِي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقَدْ أهْلَكَهُمُ اللَّهُ تعالى بأضعف جُنوده ، وَهِيَ الطَّيْرُ التي لَيْسَتْ مِن عادتها أنَّها تَقْتُل . ولا غالبَ إلا اللَّهُ وَحْدَه لا شريك له .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧١٠) في تفسير سُورة الفِيل: ((هَذه مِنَ النِّعَم التي امْتَنَّ اللَّهُ بِها عَلى قُرَيْشٍ فِيما صَرَفَ عَنهُم مِن أصحابِ الفِيلِ الذينَ كانوا قَدْ عَزَمُوا عَلى هَدْمِ الكَعْبَةِ ، ومَحْوِ أثَرِها مِن الوُجود ، فأبادهم اللَّهُ ، وأرغمَ أُنُوفَهم ، وخَيَّبَ سَعْيَهم ، وأضَلَّ عَمَلَهم ، وَرَدَّهُم بِشَرِّ خَيْبَةٍ ، وكانوا قَوْمًا نَصَارى ، وكانَ دِينُهم إذْ ذاك أقربَ حَالًا مِمَّا كانَ عَلَيه قُرَيْش مِن عِبادة الأوثان ، ولكنْ كان هذا من باب الإرهاص والتَّوْطِئَة لِمَبْعَثِ رسول اللَّه ﷺ ، فَإنَّه في ذلك العام وُلِدَ على أشهَر الأقوال ، ولِسَانُ حَالِ القَدَرِ يَقُول : لَمْ نَنْصُرْكُم يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ عَلى الحَبَشَةِ لِخِيَرَتِكُم عَلَيْهِم ، ولكنْ صِيانة للبَيْتِ العَتِيقِ الذي سَنُشَرِّفُه ، ونُعَظِّمُه ، ونُوَقِّرُه بِبَعْثَةِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وسَلامُه عَلَيه ، خَاتَمِ الأنبياء)) .

وَعَن ابن عباس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ قال : أقْبَلَ أصحابُ الفِيلِ حَتَّى إذا دَنَوْا مِنْ مَكَّةَ اسْتَقْبَلَهُمْ عَبْدُ المُطَّلِبِ ، فَقَالَ لِمَلِكِهِم : مَا جاءَ بِكَ إلَيْنَا مَا عَنَاكَ يَا رَبَّنَا ، ألا بَعَثْتَ فَنَأتِيكَ بِكُلِّ شَيْءٍ أرَدْتَ ؟ ، فقال : أُخْبِرْتُ بهذا البَيْتِ الذي لا يَدْخُلُهُ أحَدٌ إلا أَمِنَ ، فَجِئْتُ أُخِيفُ أهْلَه ، فقال : إنَّا نَأتِيكَ بِكُلِّ شَيْءٍ تُرِيدُ فَارْجِعْ ، فَأبَى إلا أن يَدْخُلَه ، وانطلقَ يَسِيرُ نَحْوَهُ ، وَتَخَلَّفَ عَبْدُ المُطَّلِبِ ، فقامَ على جَبَلٍ ، فقال : لا أشهَدُ مَهْلِكَ هذا البَيْتِ وأهْلِه ، ثُمَّ قال :

اللهُمَّ إنَّ لِكُلِّ إلَهٍ حَلالًا فَامْنَعْ حَلالَكْ
لا يَغْلِبَنَّ مُحَالُهُمْ أبَدًا مِحَالَكْ
اللهُمَّ فَإنْ فَعَلْتَ فَأْمُرْ مَا بَدَا لَكْ

فَأَقْبَلَتْ مِثْلُ السَّحَابَةِ مِنْ نَحْوِ البَحْرِ حَتَّى أظَلَّتْهُم طَيْرٌ أبابيلُ التي قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيل ﴾ ، قال : فَجَعَلَ الفِيلُ يَعُجُّ عَجًّا ، ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأكُول ﴾ [٦٩] .

هذه القِصَّةُ كانتْ في عَامِ ولادة النَّبِيِّ ﷺ ، وكانَ أصحابُ الفِيلِ نَصَارى أهْلَ كِتَابٍ ، وكانَ أبْرَهَة قَدْ صَنَعَ بَيْتًا في اليَمَنِ ، سَمَّاه الكَعْبَةَ اليَمَانِيَّة ، أراد أن يَصْرِفَ بِهِ الحُجَّاجَ عَن مَكَّة إلَيْه ، فَخَرَجَ اثنان مِنَ العَرَبِ حَتَّى قَدِمَا اليَمَنَ ، فَأحْدَثَا فِيها ، أي : جَعَلا فِيها النَّجَاسَةَ ، ولَطَّخَاهَا ، فلمَّا بَلَغَ ذلك أبْرَهَة ، أقسمَ أنَّه يأتي البَيْتَ العَتِيقَ ، فَيُخَرِّبه ، وكان أحَدُ خَوَنَةِ العَرَبِ ، وَهُوَ أبو رِغَال ، أجابَ طَلَبَ أبْرَهَة أن يَدُلَّه عَلى الطريق إلى مَكَّة ، فَاعْتُبِرَ عِند العَرَبِ خائنًا حَتَّى عِند الكَفَرَة مِنهُم . وَلَمَّا مَاتَ وَدُفِنَ صارَ مِن عَاداتِ العَرَبِ إذا مَرُّوا بقبر أبي رِغَال رَجَمُوه بالحِجَارَة، وكُلُّ واحدٍ يَمُرُّ بالقبر يَرْجُمُه بالحِجارة تعبيرًا عَن كُرْهِهم لهذا الخائن الذي دَلَّ أبْرَهَةَ على الطريق، ولا شك أنَّ أهل الكِتاب أحسن حَالًا مِن عَبَدَةِ الأوثان، وَلَمْ تَكُنْ هذه الحادثة كَرَامَةً لأهْلِ مَكَّة، ولا لِعَبْدِ المُطَّلِب ، فإنَّهُم كانوا على الشِّرْكِ ، إنَّما كانتْ كَرَامَةً مِنَ اللَّهِ للبَيْتِ العَتِيقِ ، وكانتْ لَفْتًا لأنظارِ العَالَمِ إلى هذه البُقْعَة التي هي أعظم البِقَاع عِند اللَّهِ تعالى ، وَلَفْتًا لأنظارِ العَالَمِ إلى هذا المَكَانِ الذي سَيُولَد فيه النَّبِيُّ ﷺ . إنَّه حَدَثٌ ضَخْمٌ غَريبٌ عَجيبٌ لَمْ يَسْمَعْ بِهِ العَالَمُ مِن قَبْل ، وَهُوَ أنَّ طُيورًا تَأتي بِحِجَارة ، تَرْجُم جَيْشًا فِيه الفِيَلَة التي تَتراجع مَذعورةً ، والتي تَرْفُض الذهابَ إلى البَيْتِ العتيق ، واقتحامَ الحَرَم ، ويَتساقط الجُنُودُ بهذه الحِجَارة ، والذين لَمْ يَمُوتوا لَحْظَتَهَا ، وإنَّما ماتوا في طريق العَوْدَة ، بِمَن فِيهِم أبْرَهَة . وهذه الحادثة العجيبة سَلَّطَت الضَّوْءَ عالميًّا على مَكَّة في ذلك العام ، كأنَّ اللَّهَ يُريد أن يَلْفِتَ أنظارَ العَالَمِ إلى مَنْ سَيُولَد في ذلك المكان ، ويَكُون لَهُ معَ هذه الكَعْبَة شأنٌ عظيم ، ألا وَهُوَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ ، خَاتَمُ الأنبياءِ والمُرْسَلِين .

والجَديرُ بالذِّكْرِ أنَّ العَرَبَ كانوا يَرْجُمُون قَبْرَ أبي رِغَال الثَّقَفِي الذي كانَ دَليلَ جَيْش الحَبْشَة إلى مَكَّة . قال الشاعر جَرِير :

إذا ماتَ الفَرَزْدَقُ فَارْجُمُوهُ كَمَا تَرْمُونَ قَبْرَ أبي رِغَالِ

---

٦٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٥٨٣) برقم (٣٩٧٤) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

٣٠_ أبو لَهَب وامْرَأتُه

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المَسَد : ١] .

هَلَكَتْ يَدَا ذلك الشَّقِيِّ أبي لَهَبٍ ، وَخَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ عَمَلُه ، ﴿ وَتَبَّ ﴾ ، أي : وَقَدْ هَلَكَ وَخَسِرَ، الأوَّلُ دُعَاءٌ ، والثاني إخبارٌ ، كَمَا يُقَال : أهْلَكَهُ اللَّهُ وَقَدْ هَلَكَ . والتَّعبيرُ بالماضي لِتَحَقُّقِ وُقوعِه . والتَّعبيرُ باليَدَيْن مَجَازًا لأنَّ أكثرَ الأفعالِ تُزَاوَل بِهِمَا . والتَّبَابُ هُوَ الخَسَارُ المُفْضِي إلى الهَلاكِ ، والمُرادُ مِنَ اليَدَيْن صَاحِبُها ، عَلى عَادَةِ العَرَبِ في التَّعبيرِ بِبَعْضِ الشَّيْءِ عَن كُلِّهِ وجَمِيعِه.

وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ٧٣٣) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : خَسِرَتْ يَدَا أبي لَهَبٍ ، وَخَسِرَ هُوَ . وإنَّما عُنِيَ بِقَوْلِه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ ﴾ تَبَّ عَمَلُه. وكانَ بعضُ أهل العربية يقول : قَوْلُه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ ﴾ دُعَاء عَلَيه مِنَ اللَّهِ . وأمَّا قَوْلُه : ﴿ وَتَبَّ ﴾ فَإنَّه خَبَرٌ)) .

وأبو لَهَبٍ الشريفُ القُرَشِيُّ الهاشميُّ، هُوَ أحَدُ أعمامِ النَّبِيِّ ﷺ ، واسْمُه عَبْدُ العُزَّى بن عَبْدِ المُطَّلِب . وسُمِّيَ أبَا لَهَب لإشراق وجهه ، وَامْرَأتُه العَوْرَاء " أُمُّ جَمِيل " أُخْت أبي سُفْيَان ، وَقَدْ كانَ كُلٌّ مِنهما شَدِيدَ العَدَاوَةِ للنَّبِيِّ ﷺ . وقَدْ سَخَّرَ وَقْتَه لِمُحاربة الدَّعْوَةِ الإسلاميَّةِ ، والطَّعْنِ في النَّبِيِّ ﷺ ، وتَشكيكِ الناس به. وَقَدْ حَكَمَ اللَّهُ عَلَيه بالهَلاكِ والخُسْرَانِ . وَلَمْ يَسْتَفِدْ مِنْ دَرَجَةِ قَرَابته للنَّبِيِّ ﷺ ، فالهِدَايَةُ لا علاقة لها برابطة الدَّمِ أوْ قُرْب المَسَافَة ، بَلْ هِيَ مِنْحَة رَبَّانِيَّة خالصة.

والسُّؤالُ الذي يَطْرَح نَفْسَه : لِمَ كَنَّاه وفي التَّكْنِيَةِ تَشْرِيفٌ وتَكْرِمَةٌ ؟ ، فالجَوابُ مِن وُجوه : الأوَّل : أنَّه كانَ مُشْتَهِرًا بالكُنْيَةِ دُون الاسْمِ ، فَلَوْ ذَكَرَه بِاسْمِه لَمْ يُعْرَفْ ، الثاني : أنَّه كانَ اسْمُه "عَبْد العُزَّى" فَكَنَّاه ولَمْ يُسَمِّهِ ، لِمَا في اسْمِه مِنَ الشِّرْك ، لأنَّ العُزَّى صَنَمٌ ، فَلَمْ يُضِف اللَّهُ العُبوديَّةَ إلى صَنَمٍ ، لأنَّ اللَّهَ وَحْدَه المُستحِق للعُبوديَّةِ، ولا تَكُون العُبوديَّةُ إلا للَّهِ بلا شريك ولا نِد. الثالث : أنَّه لمَّا كانَ مِن أهْلِ النار ، وَمَآلُه إلى النار ، والنارُ ذَاتُ لَهَبٍ ، وَافَقَتْ حَالُه كُنْيَتَه ، وكانَ جَدِيرًا بأن يُذكَرَ بِها ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الكُنْيَةَ ﴿ أبي لَهَبٍ ﴾ للتَّصغيرِ والتَّحقيرِ ، فَلَيْسَ المُرادُ تَكْرِيمَه ، وإنَّما إهَانَتُه والتَّشهيرُ بِهِ كأبي جَهْل . وقال القُرطبي في تفسيره (٢٠/ ٢١٦) : ((وإنَّما كَنَّاهُ اللَّهُ بأبي لَهَبٍ عِندَ العُلماء لِمَعَانٍ أربعة: الأول: أنَّه كانَ سُمِّيَ عَبْد العُزَّى ، والعُزَّى : صَنَم ، وَلَمْ يُضِف اللَّهُ في كِتابه العُبُودِيَّةَ إلى صَنَم . الثاني : أنَّه كانَ بِكُنْيَتِه أشهرَ مِنْهُ بِاسْمِهِ ، فَصَرَّحَ بها. الثالث : أنَّ الاسْمَ أشرفُ مِنَ الكُنْيَةِ ، فَحَطَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَن الأشرفِ إلى الأنقصِ . ... . الرابع: أنَّ اللَّهَ تعالى أرادَ أن يُحَقِّقَ نِسْبَتَه بأن يُدْخِلَه النارَ ، فَيَكُون أبَا لَهَبٍ تَحقيقًا للنَّسَبِ ، وإمضاءً للفَأْلِ والطِّيَرَةِ التي اختارها لِنَفْسِه)) .

ولَمْ يَسْتَفِدْ أبو لَهَبٍ مِنْ مَالِه وَوَلَدِه ، فَلَمْ يُنْقِذَاه مِن عذاب النار الشديد . كما أنَّ امرأته أُم جميل كانت داعمةً لزوجها في الكُفْرِ والجُحُودِ ، ومُعِينةً لَهُ على مُعاداةِ الإسلامِ والنَّبِيِّ ﷺ ، لذلك سَتَكُون رَفِيقَتَه في نار جَهَنَّم عُقوبةً لها . وأُمُّ جميل هي أرْوَى بِنْت حَرْب بن أُمَيَّة ، أُخْت أبي سُفيان . كانتْ تأتي بالشَّوْكِ فتضعه في طريق النَّبِيِّ ﷺ . وفي الآخِرَةِ سَيُوضَع في عُنُقِها حَبْلٌ مِن لِيفٍ قَدْ فُتِلَ فَتْلًا شديدًا ، وهذا العذابُ الأليمُ جَزَاءَ أفعالها الشِّريرة ومُساندتها لِكُفْرِ زَوْجِها . والدُّنيا مَزرعةُ الآخِرَةِ ، ولا يُمْكِن لأحَدٍ أن يَهْرُبَ مِنَ اللَّهِ تعالى .

وعَن رَبيعةَ بْنِ عَبَّادٍ الدُّؤَلِيِّ قال : رَأيْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ بِمِنًى في مَنَازِلِهِم قَبْلَ أن يُهَاجِرَ إلى المَدِينَةِ ، يَقُول : ((يَا أيُّهَا الناسُ ، إنَّ اللَّهَ يَأمُرُكُم أنْ تَعْبُدُوهُ ولا تُشركوا بِهِ شَيْئًا)) ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ يَقُول : يَا أيُّهَا الناسُ ، إنَّ هَذَا الرَّجُلَ يَأمُرُكُم أنْ تَتركوا دِينَ آبائِكُم ، فَسَألْتُ : مَنْ هَذا الرَّجُل ؟ ، قِيل : أبو لَهَبٍ [٧٠] .

هذا يَعكِس دَرَجَةَ العَداوة ، ويُنبِئ عن مِقدار الحِقْد الذي يَتَأجَّج في صَدْرِ أبي لَهَبٍ ، عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ ، الذي كانَ يَتْبَعُه أيْنَمَا ذَهَبَ ، مِن أجْلِ التَّشويشِ عَلى دَعْوته الإسلاميَّة ، وتَشكيكِ الناس بها ، والطَّعْنِ في النَّبِيِّ ﷺ ، وإظهارِه بِمَظْهَرِ الفاسدِ الكاذبِ ، خُصوصًا أنَّ أبا لَهَبٍ عَمُّه .

والنَّبِيُّ ﷺ كانَ يُبَلِّغ الرِّسَالةَ السَّمَاوِيَّة كَمَا هِيَ ، دُون زِيادة ولا نُقْصَان ، فَيَدْعُو الناسَ إلى تَوحيدِ اللَّهِ تعالى ، ونَبْذِ عِبادة الأصنام ، لَكِنَّ أبا لَهَبٍ الذي نشأ في بيئة الشِّرْك ، وَتَشَرَّبَ الوثنيةَ حتى الثُّمَالة أخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثمِ ، ونَظَرَ إلى الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ على أنَّها تَهديد لِدِينِ الآباء وتقاليدهم ومِيراثهم الوثنيِّ . وهَذا يَكْشِف دَرَجَةَ التَّقليدِ الأعمى ، واتِّبَاع الآباء بِلا بَصِيرة . وَلَمْ يُقَدِّمْ أبو لَهَبٍ دَليلًا نقليًّا ولا عقليًّا يَدْعَم وِجْهَةَ نَظَرِه ، ويُقْنِع الناسَ بالفِكْرِ الوثنيِّ ، وإنَّما كانَ يَنطلق استنادًا إلى الحَمِيَّة الجاهليَّة، والعَصَبِيَّة القَبَلِيَّة، وحراسة تُراث الأجداد البالي. وهذا دَيْدَن الذين يَفْتقدون إلى الحُجَجِ والبراهين في كُلِّ العُصُورِ ، وأكبرُ إهانةٍ للعقلِ البشري قَبول الأشياء بلا دليل .

والدَّعَاوَى إنْ لَمْ تُقِيمُوا عَلَيْهَا بَيِّنَاتٍ أبْنَاؤُهَا أدْعِيَاءُ

وفي صحيح البُخاري (٤ / ١٧٨٧) عن ابن عَبَّاس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ قال : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِين ﴾ [الشُّعَرَاء : ٢١٤] ، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلى الصَّفَا ، فَجَعَلَ يُنَادِي : يَا بَنِي فِهْرٍ ، يَا بَنِي عَدِيٍّ ــ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ ــ حَتَّى اجْتَمَعُوا ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إذا لَمْ يَسْتَطِعْ أن يَخْرُجَ

---

٧٠ رواه الحاكم في المستدرك (١ / ٦١) برقم (٣٨) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

أرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ ، فَجَاءَ أبو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ ، فقالَ : ((أرَأيْتَكُمْ لَوْ أخْبَرْتُكُم أنَّ خَيْلًا بالوادي تُريدُ أنْ تُغِيرَ عَلَيْكُم، أكُنْتُم مُصَدِّقِيَّ ؟)) ، قالوا : نَعَمْ ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلا صِدْقًا، قال: ((فَإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)). فقالَ أبو لَهُبٍ : تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ ، أَلِهَذا جَمَعْتَنَا؟! فَنَزَلَتْ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) ﴾ .

كانتْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ سِرًّا في بِدايةِ الأمْرِ ، إلى أنْ أمَرَه اللَّهُ تعالى بالجَهْرِ بالدَّعْوَةِ ، فقالَ : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحِجْر : ٩٤] . ومِن جَهْرِه بالدَّعوةِ وتَبليغِه إيَّاها مَا يُخبِر بِهِ عبد اللَّه ابن عَبَّاس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ أنَّه لَمَّا نَزَلَ قَوْلُه تعالى : ﴿ وَأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبين ﴾ ، فَأمَرَ اللَّهُ نَبِيَّه أنْ يَذهبَ لإبلاغِ الدَّعوةِ لِقَرابته ، وهُمْ قُرَيْشٌ ، وهُمْ آلُ عبد المُطَّلِب ، وآلُ هَاشِم ، وآلُ عَبْدِ مَنَافٍ ، وقُصَيٌّ. صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلى جَبَلِ الصَّفَا عِند البَيْتِ الحَرَامِ ، ونادى : " يَا بَنِي فِهْرٍ ، يَا بَنِي عَدِيٍّ ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ " ، والبَطْنُ : أقلُّ مِن القَبيلة ، فاجْتَمَعُوا عِندَه ، ومَنْ لَمْ يَستطع المَجيءَ أرسلَ رَسولًا لِيَرى مَا الأمرُ ، ومَا الذي يُريد أنْ يُخْبِرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ، فلمَّا اجْتَمَعُوا وجاءَ أبو لَهَبٍ وقُرَيْشٌ. قالَ النَّبِيُّ ﷺ : لَوْ أخبرتُكم أنَّ جَيْشًا يُريد أن يَهْجُمَ عَلَيْكُم ، فَهَلْ كُنتم تُصَدِّقُوني؟، فقالوا : نَعَمْ ، وأقَرُّوا بِصِدْقِه ﷺ ، وقالوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلا صِدْقًا ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ : " فَإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ " مِنَ اللَّهِ " بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ " ، فَأُحَذِّرُكم مَا أنتم عَلَيه مِنَ الكُفْرِ قَبْلَ وُقوعِ العَذابِ الشديدِ بِكُم ، فلمَّا سَمِعَه عَمُّه أبو لَهَبٍ قالَ له : تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ ، أي : خَسِرْتَ بَقِيَّةَ اليَوْمِ ، أَلِهَذا جَمَعْتَنَا ؟! ، فكانَ مِمَّنْ أعرضَ عَن دَعوةِ النَّبِيِّ ﷺ ، فأنزلَ اللَّهُ تعالى فيه سُورَةَ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، أي : خَسِرَتْ يَدَاه وخَابَتْ ، وخَسِرَ هُوَ . و (تَبَّ) الأوَّلُ دُعَاءٌ ، والثاني خَبَرٌ ، مِثْل : أهْلَكَهُ اللَّهُ وقَدْ هَلَكَ . والفِعْلُ الماضي يُفيد التَّحَقُّقَ والوُقوعَ الأكيدَ .

وفي الحَديثِ:بَيَانُ سَببِ نُزولِ سُورةِ المَسَدِ.وفيه:أنَّ على الرَّسُولِ الدَّعْوَةَ،وأنَّ الهِدايةَ مِنَ اللَّهِ.

لَقَدْ قَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ حُجَّةً باهرةً عَلى صِدْقِ كَلامِه ، وكَشَفَ للآخَرِين عَن المَنْطِقِ السليم في الحِوَارِ والمُحَاجَجَةِ ، فَقَبْلَ أن يَخُوض في موضوعِ الرِّسَالة ، ضَرَبَ مَثَلًا رائعًا للمُشركين يَتَضَمَّن تَذكيرَهم بأنَّه الصادق الأمين . وَلَوْ أخْبَرَهُم بِمَجِيءِ خَيْلٍ للإغارةِ عَلَيْهِم لَصَدَّقُوه، لأنَّهُم لَمْ يَعْهَدُوه إلا صادقًا، وهذا باعترافهم . وقَدْ بَنَى النَّبِيُّ ﷺ حُجَّتَه على هذا العِبارة، وأخْبَرَهم بأنَّه نذيرٌ مِنَ اللَّهِ لإنقاذهم مِنَ العَذابِ . والإنسانُ الذي لا يَكْذِب على الناس ، مِنَ المُحَال أن يَكْذِبَ على اللَّهِ ، لكنَّ الكُفْرَ عِنَادٌ ، وهُنَا تَدَخَّلَ أبو لَهَبٍ شَاتِمًا النَّبِيَّ ﷺ (ابْنَ أخيه) ، مِمَّا يَدُلُّ على ضَعْفِ شَخصيةِ أبي لَهَبٍ ، وعَدَمِ امتلاكه لوسائل الحِوَار والنِّقَاش ، وعَجْزِه عَنْ تَقديمِ الأدلةِ والحُجَجِ .

وَلَوْ كانَ أبو لَهَبٍ عَاقِلًا لاستفسرَ عن الموضوع ، وطَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أن يُوَضِّحَ كَلامَه ، وَمِنْ أيْنَ جاءَ بِهِ ، ومَن الذي أرْسَلَه نذيرًا ، ومَا هذا العذابُ الذي يَتَحَدَّث عَنْه . وبعد أن يَتَفَكَّرَ في الإجاباتِ والتَّوضيحاتِ بإمكانه أن يَقْبَلَه أوْ يَرْفُضَه ، وهذا هُوَ المَنْطِق ، لكنَّ الجَهْلَ المَمْزُوجَ بالجُحُودِ والأهواءِ والمَصالحِ مِنْ شَأنِه أنْ يُحِيلَ الإنسانَ إلى حَيَوَانٍ غَريزي هائج ، لا يَمْلِكُ العَقْلَ ولا أُسلوبَ الحِوَار ، ولا وسائل التفكير .

وعَن أسماءَ بِنْتِ أبي بَكْرٍ ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنها ــ قالتْ:لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، أقْبَلَتِ العَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبٍ ، وَلَهَا وَلْوَلَة ، وفي يَدِهَا فِهْرٌ ــ حَجَرٌ ناعم صُلْب ــ ، وَهِيَ تَقُول : مُذَمَّمًا أَبَيْنَا ، وَدِينَهُ قَلَيْنَا ، وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا ، والنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ في المَسْجِدِ ، وَمَعَهُ أبو بَكْر ، فَلَمَّا رَآهَا أبو بَكْرٍ قالَ : يا رسولَ اللَّهِ ، قَدْ أَقْبَلَتْ وأنا أخافُ أنْ تَرَاكَ ، فقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إنَّهَا لَنْ تَرَاني)) ، وَقَرَأَ قُرْآنًا فَاعْتَصَمَ بِهِ كما قال ، وَقَرَأَ : ﴿ وَإِذَا قَرَأتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥]، فَوَقَفَتْ على أبي بَكْر، وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فقالتْ : يا أبا بَكْرٍ ، إنِّي أُخْبِرْتُ أنَّ صَاحِبَكَ هَجَاني ، فقال : لا وَرَبِّ هَذَا البَيْتِ مَا هَجَاكِ ، فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُول : قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا [٧١] .

إنَّ أُمَّ جميل بِنْت حَرْب حَمَّالَة الحَطَبِ لَمْ تَقْدِرْ على التَّحَرُّرِ مِن بيئتها الصحراوية البِدائية ، وثقافتها الضَّحْلَة ، وتقاليدِ الآباء الوثنية ، فَبَعْدَ نُزول ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ صُدِمَتْ ، واعْتَبَرَت الأمرَ اعتداءً عليها ، وطَعْنًا في مكانتها الاجتماعية ، فجاءتْ تَحْمِل حَجَرًا بهدف إيذاء النَّبِيِّ ﷺ ، وهي تُرَدِّد عِبَارَاتٍ شنيعة وشتائم سَيِّئة نابعة مِن صَدْرِها الذي يَحترق بالكُفْرِ والحِقْدِ ، فَقَدْ وَصَفَتْ مُحَمَّدًا ﷺ بأنَّه مُذَمَّم ، وكانَ المُشركون لا يُنادون مُحَمَّدًا ﷺ بهذا الاسم لأنَّه مَدْحٌ له إذْ إنَّ اسْمَ " مُحَمَّد " على وَزْن مُفَعَّل ، ويُفيد المُبَالَغَةَ في مَعنى الحَمْدِ ، فكانوا يَعْمَدُون إلى اسم " مُذَمَّم " بهدف الطعن في النَّبِيِّ ﷺ . وهذا هو أسلوب العاجز ، الذي لا يَمْلِك القُدرةَ على مُقَارَعَةِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ ، وتَقديمِ الأدلةِ والبراهين ، وَمَا ضَرَّ السَّحَابَ نُبَاحُ الكِلاب .

وأُمُّ جميل تُوَاصِل هَيَجَانَهَا الهِسْتيري ، فَتَقُول : ((وَدِينَهُ قَلَيْنَا ، وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا)) ، أي إنَّهُم أَبْغَضُوا الإسلامَ ، وعَصَوا الأمرَ النَّبَوِيَّ الشريف ، وهي تفتخر بهذا الباطل بأعلى صَوْتها ، مِمَّا يُشير إلى احتراق صدرها بالضَّغِينةِ والحَسَدِ والعِنَادِ ، وأنَّ الباعث على اندفاعها الطائش هو

---

٧١ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٣٩٣) برقم (٣٣٧٦) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

الأهواء الذاتية ، والمصالح الشخصية ، والحَمِيَّة الجاهلية ، والعصبية العشائرية . ﴿ وَيَأبَى اللَّهُ إلا أن يُتِمَّ نُورَه ﴾ [التَّوْبَة : ٣٢] . والنَّبِيُّ ﷺ رَابِطُ الجَأش ، يَجْلِس في المَسْجِدِ ، لَمْ يَضطرب قَلْبُه لِجَعْجَعَةِ هذه المَرْأة الحاقدة ، وقَدْ خافَ عَلَيه أبو بَكْر الصِّدِّيق مِن أذى أُمِّ جميل ، وفَوْرةِ غَضَبِها المَهْوُوسة ، لكنَّ اللَّهَ تعالى مَنَعَهَا مِن رُؤيةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ تُشَاهِدْهُ ، وَعَصَمَه مِنْ كُلِّ أذى .

إنَّ أُمَّ جميل (زَوْجَة أبي لَهَبٍ) لَعَنَهُمَا اللَّهُ تعالى قَد اعتبرتْ سُورةَ المَسَدِ هِجَاءً لها ، وأنَّ هذا الهِجَاء ألَّفَهُ مُحَمَّد ﷺ . فَقَرَّرَتْ أنْ تَعْتَدِيَ عَلى النَّبِيِّ ﷺ بالقَوْلِ والفِعْلِ . أمَّا اعتداؤها القَوْلِيُّ، فَقَوْلُها : مُذَمَّمًا أبَيْنَا ، يَعْنِي أنَّها تَرفُض مُذَمَّمًا ، وهي تَقْصِد مُحَمَّدًا ﷺ ، إذْ إنَّها قامتْ بِعَكْسِ اسْمِه الشريف . وقَد حَمَى اللَّهُ تعالى اسْمَ مُحَمَّد مِنَ الذَّمِّ والقَدْحِ ، وَصَرَفَ كلامَ المُشركين إلى اسْمِ مُذَمَّم . وقَوْلُها : دِينَه قَلَيْنَا ، يَعْني أنَّها تَرفُض الإسلامَ . وقَوْلُها : أمْرَهُ عَصَيْنَا ، يَعْنِي أنَّها تَرفُض كَلامَه وتعاليمَه . أمَّا الدَّليل على مُحاولة اعتدائها بالفِعْل، فهو حَمْلُها لِحَجَرٍ مِن أجْلِ رَمْي النَّبِيِّ ﷺ بِه وإلحاق الأذى بِه ، وقَدْ أعمى اللَّهُ بَصَرَهَا وبَصيرتها ، فَلَمْ تُشَاهِد النَّبِيَّ ﷺ معَ أنَّه أمامَها. فَمَا كانَ مِنها إلا أنَّها تَحَدَّثَتْ معَ أبي بَكْر حَوْلَ قضية هِجَائها _ كما تَعتقد _ ، فَنَفَى أبو بَكْر ذلك ، وقَدْ كانَ صادقًا ، لأنَّ الهِجَاءَ هُوَ الشَّتْمُ والذَّمُّ شِعْرًا ، والقُرآنُ هُوَ كَلامُ اللَّهِ ، ولَيْسَ شِعْرًا ولا نَثْرًا . والنَّبِيُّ ﷺ لَيْسَ شاعرًا . فَوَلَّتْ وَقَدْ أخَذَتْهَا العِزَّةُ بالإثم ، وأصَابَتْها لَوْثةُ الحَمِيَّةِ الجَاهليَّة وفَوْرَةُ العَصَبِيَّة القَبَلِيَّة ، وَغَرِقَتْ في الفَخْرِ الجاهليِّ الكاذب . وهذه الأمراضُ الاجتماعية تَتَجَلَّى في افتخارها بأنَّها ابْنَةُ سَيِّد قُرَيش (حَرْب بن أُمَيَّة) .

وفي صحيح البُخاري(٣/ ١٢٩٩) عن أبي هُرَيرة_ رَضِيَ اللَّهُ عنه_قال: قال رسول اللَّه ﷺ : ((ألا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ ولَعْنَهُم ؟! ، يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا ، وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا ، وأنا مُحَمَّدٌ)) .

تَكَفَّلَ اللَّهُ سُبحانَه بِحِفْظِ نَبِيِّه مُحَمَّدٍ ﷺ وحِمايته مِنَ الشَّرِّ والأذى المَادِيِّ والمَعنويِّ . وكانَ المُشركون يُعَرِّضُون بالنَّبِيِّ ﷺ باستخدامِ اسْمِ " مُذَمَّم " مَكَانَ " مُحَمَّدٍ " ، " وأنا مُحَمَّدٌ " ، كَثيرُ الخِصَالِ الحَميدةِ التي لا غايةَ لها ، فَمُذَمَّمٌ لَيْسَ اسْمَه ، ولا يُعرَف به ، فكانَ الذي يَقَع مِنهُم مَصروفًا إلى غَيْرِه ، فَيَحْصُل ضِدُّ قَصْدِهم ، ويَرُدُّ اللَّهُ كَيْدَهم في نَحْرِهم . وفي الحَديثِ : تَنْزِيهُ اسْمِه ﷺ مِن أنْ يَعْلَقَ بِه أذى مُشْرِكٍ .

إنَّ اللَّهَ رَفَعَ اسْمَ " مُحَمَّد " عاليًا ، ونَزَّهَه عَن التَّعَرُّضِ للشتائمِ والإهانةِ . والمُشركون يَشْتِمُون مُذَمَّمًا ، ويَلْعَنُون مُذَمَّمًا ، وهذا لَيْسَ اسْمَ النَّبِيِّ ﷺ ، ولا يُعْرَف به . وبالتالي لا يَصِل المُشركون

إلى غَايتهم ، لأنَّ جُهْدَهم في الشَّتْمِ والطَّعْنِ مَصْرُوفًا إلى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، لذلك يُتْعِبُون أنفُسَهم بِلا طائل ، ويُحْرِقُون قُلُوبَهم بلا نتيجة ، ويُضَيِّعُون وَقْتَهم بلا فائدة ، وَيَمُوتون بِغَيْظِهِم وحِقْدِهِم.

وقال الحافظ في الفتح (٦ / ٥٥٨) : ((كانَ الكُفَّارُ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ شِدَّةِ كَرَاهتهم في النَّبِيِّ ﷺ لا يُسَمُّونَهُ بِاسْمِهِ الدَّالِّ عَلى المَدْحِ ، فَيَعْدِلُون إلى ضِدِّه ، فَيَقُولون : مُذَمَّمٌ ، وإذا ذَكَرُوه بِسُوء قالوا : فَعَلَ اللَّهُ بِمُذَمَّمٍ ، وَمُذَمَّمٌ لَيْسَ هُوَ اسْمَه ، ولا يُعْرَف بِهِ ، فكانَ الذي يَقَعَ مِنهُم في ذلك مَصْرُوفًا إلى غَيْرِه)) .

وَعَنْ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ قال : كانتْ رُقَيَّةُ عِنْدَ عُتْبَةَ بْنِ أبي لَهَبٍ ، فَلَمَّا أنزلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، سَألَ النَّبِيُّ ﷺ عُتْبَةَ طَلاقَ رُقَيَّةَ ، وَسَألَتْهُ رُقَيَّةُ ذَلِكَ ، فَطَلَّقَهَا ، فَتَزَوَّجَ عُثمانُ بْنُ عَفَّانَ ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ رُقَيَّةَ ، وَتُوُفِّيَتْ عِنْدَه [٧٢] .

هذا يَدُلُّ على أنَّ رابطةَ الدِّينِ أعظمُ وأعْلَى مِن رَابطةِ القَرَابَةِ ، وإذا فَصَلَ الدِّينُ بَيْنَ شَخْصَيْن، فَلَنْ يَجْمَعَهُمَا شَيْء ، وسَوْفَ يَذهَب كُلُّ طَرَفٍ في طَرِيقِه الخَاصِّ ومَسَارِه المُستقِل عَن الآخَر .

وصَدَقَ القائل :

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ في كُلِّ حَالةٍ ... ولا تَتْرُك التَّقْوَى اتِّكَالًا على النَّسَبِ

فَقَدْ رَفَعَ الإسلامُ سَلْمَانَ فَارِسٍ ... وَقَدْ وَضَعَ الكُفْرُ الشَّرِيفَ أبا لَهَبِ

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مَا أغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المَسَد : ٢] .

لَمْ يُفِدْ أبا لَهَبٍ مَالُه الذي جَمَعَه ، ولا جَاهُه وعِزُّه الذي اكْتَسَبَه ، أي: مَا دَفَعَ عَنْهُ عَذَابَ اللَّهِ مَا جَمَعَ مِنَ المَالِ،ولا مَا كَسَبَ مِنْ جَاهٍ، أوْ : ولا مَا كَسَبَ مِنَ الأولادِ، فَإنَّ وَلَدَ الرَّجُلِ مِنْ كَسْبِه .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١ / ٥٤٥) : ((﴿ مَا أغْنَى عَنْهُ مَالُهُ ﴾ نَفْي لإغناءِ المَالِ عَنْهُ حِينَ نَزَلَ بِهِ التَّبابُ ، أو استفهام إنكار له ، ومَحَلُّها النَّصْب ، ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ وكَسْبُه أوْ مَكْسُوبُه بِمَالِه مِنَ النتائجِ والأرباحِ والوَجَاهَةِ والإتباع ، أوْ عَمَله الذي ظَنَّ أنَّه يَنْفَعُه أوْ وَلَدُه عُتْبَة وقَد افترسه أسَدٌ في طريق الشامِ،وَقَدْ أحدقَ بِهِ العِيرُ.وماتَ أبو لَهَبٍ بالعَدَسَةِ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ بأيَّام مَعدودة،وتُرِكَ ثلاثًا حَتَّى أَنْتَنَ ، ثُمَّ استأجروا بَعْضَ السُّودان حَتَّى دَفَنُوه ، فهو إخبار عَن الغَيْبِ طَابَقَه وُقُوعُه)).

---

٧٢ رواه الطبراني في الكبير (٢٢ / ٤٣٤) برقم (١٠٥٦) ، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٤٧) : ((فيه زُهَيْر بن العَلاء ، ضَعَّفَه أبو حاتم ، وَوَثَّقَه ابنُ حِبَّان ، فالإسناد حَسَن)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٧٢٩) : ((﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ ، أي : مَا دَفَعَ عَنْهُ مَا حَلَّ بِهِ مِنَ التَّبابِ ، وَمَا نَزَلَ بِهِ مِن عَذابِ اللَّهِ ، مَا جَمَعَ مِنَ المال ، ولا مَا كَسَبَ مِنَ الأرباحِ والجَاهِ ، أو المُرَادُ بِقَوْلِه : ﴿ مَالُهُ ﴾ مَا وَرِثَه مِنْ أبيه ، وَبِقَوْلِه : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ الذي كَسَبَه بِنَفْسِه . قال مُجَاهِد : وَمَا كَسَبَ مِنْ وَلَدٍ ، وَوَلَدُ الرَّجُلِ مِنْ كَسْبِه . ويَجُوز أن تَكُونَ " مَا " في قَوْلِه: ﴿ مَا أَغْنَى ﴾ استفهامية، أي: أيُّ شَيْءٍ أغْنَى عَنْهُ ؟، وكَذَا يَجُوز في قَوْلِه: ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ أن تَكُون استفهامية ، أي : وأيُّ شَيْءٍ كَسَبَ ؟ ، ويَجُوز أن تَكُون مَصْدَرِيَّة ، أي : وكَسْبُه . والظاهر أنَّ " مَا " الأُولَى نافية ، والثانية مَوْصُولة)) .

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (٢٠ / ١١٧ و١١٨) : ((رُوِيَ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمَّا دَعَا قَوْمَه إلى الإيمان ، قال أبو لَهَبٍ : إنْ كانَ مَا يَقُول ابنُ أخي حَقًّا ، فإنِّي أفتدي نَفْسِي مِنَ العَذابِ بِمَالي وَوَلَدِي ، فَنَزَلَتْ . قال الألُوسي : كانَ لأبي لَهَبٍ ثلاثة أبناء " عُتْبَة " و"مُعَتِّب" و"عُتَيْبَة" وقَدْ أسلمَ الأوَّلان يوم الفتح ، وشَهِدَا حُنَيْنًا والطائف ، وأمَّا " عُتَيْبَة " فَلَمْ يُسْلِمْ ، وكانتْ " أُمُّ كُلْثُوم " بِنْت رسول اللَّه ﷺ عِندَه ، وأُختها " رُقَيَّة " عِند أخيه عُتْبَة ، فلمَّا نَزَلَت السُّورة قال أبو لَهَبٍ لهما : رَأسِي وَرَأسُكُمَا حَرَامٌ إنْ لَمْ تُطَلِّقَا ابْنَتَي مُحَمَّد ، فَطَلَّقَاهُمَا ، ولمَّا أرادَ " عُتَيْبَة" بالتَّصغير الخُروجَ إلى الشام مع أبيه قال : لآتِيَنَّ مُحَمَّدًا وَأُوذِيَنَّهُ ، فأتاه ، فقال يا مُحَمَّد: إنِّي كافرٌ بالنَّجْمِ إذا هَوَى ، وبالذي دَنَا فَتَدَلَّى، ثُمَّ تَفَلَ أمامَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَطَلَّقَ ابْنَتَه " أُم كُلْثُوم "، فَغَضِبَ ﷺ ودَعَا عَلَيه ، فقال : " اللهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلابِكَ " ، فافترسه الأسَد . وهَلَكَ أبو لَهَبٍ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ بِسَبْعِ لَيَالٍ بمرضٍ مُعْدٍ كالطاعون يُسَمَّى " العَدَسَة " ، وَبَقِيَ ثلاثة أيام حتى أَنْتَنَ ، فلمَّا خافوا العارَ حَفَرُوا لَهُ حُفْرَةً ، وَدَفَعُوه إلَيْهَا بِعُود حَتَّى وَقَعَ فِيها ، ثُمَّ قَذَفُوه بالحِجَارة حتى وَارَوْهُ، فكانَ الأمْرُ كما أخبرَ بِهِ القُرْآنُ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المَسَد : ٣] .

أوْعَدَ اللَّهُ أبا لَهَبٍ بالنار : سَيَدْخُلُ نَارًا حامية ، ذَاتَ اشتعالٍ هائلٍ ، وتَوَقُّدٍ عظيمٍ ، وإحراقٍ شديدٍ ، وَهِيَ نارُ جَهَنَّم . والآيةُ إعلامٌ بأنَّ أبا لَهَبٍ يُتَوَفَّى عَلى كُفْرِه ، نَعُوذ باللَّهِ مِنْ سُوءِ القَضَاءِ وَدَرْكِ الشَّقَاءِ .

وفي تفسير الجَلالَيْن (١ / ٨٢٦) : ((﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ ، أي : تَلَهُّبٍ وَتَوَقُّدٍ ، فَهِيَ مَآلُ تَكْنِيَتِه لِتَلَهُّبِ وَجْهِه إشراقًا وحُمْرَةً)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٩ / ٢٦٠) : ((أي: تَلْتَهِب عَلَيْه مِنْ غَيْرِ دُخَان)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ ﴾ [المَسَد : ٤] .

وَسَتَدْخُل معَ أبي لَهَبٍ نارَ جَهَنَّم، امْرَأَتُهُ العَوْرَاءُ أُمُّ جميل بِنْت حَرْب بن أُمَيَّة أُخْتُ أبي سُفْيَان، التي كانتْ تَحْمِلُ الشَّوْكَ فَتَطْرَحُهُ بالليلِ على طريق النَّبِيِّ ﷺ ، أوْ : إنَّهَا كانتْ تَمْشِي بالنَّمِيمَةِ بَيْنَ الناسِ لِتُفْسِدَ بَيْنَهُم ، وَتُوقِدَ بَيْنَهُم نارَ العَدَاوَةِ والبَغْضَاءِ. و ﴿ حَمَّالَةَ الحَطَبِ ﴾ مُسْتَعَارٌ للنَّمِيمَةِ، وَهِيَ استعارةٌ مَشهورةٌ ، والنَّصْبُ على الذَّمِّ ، أي : أَخُصُّ بالذَّمِّ حَمَّالَةَ الحَطَبِ .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١/ ٥٤٥): ((﴿ وَامْرَأَتُهُ ﴾ عَطْف على المُسْتَتِر في ﴿ سَيَصْلَى ﴾ أوْ مُبْتَدَأ،وَهِيَ أُمُّ جميل أُخْت أبي سُفْيَان ﴿ حَمَّالَةَ الحَطَبِ ﴾ يَعْنِي حَطَبَ جَهَنَّم،فَإِنَّها كانتْ تَحْمِلُ الأوزارَ بِمُعاداةِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَتَحْمِل زَوْجَها على إيذائه، أو النَّمِيمة،فإنَّها كانتْ تُوقِد نارَ الخُصُومَةِ، أوْ حُزْمَة الشَّوْك أو الحَسَك ، فَإِنَّها كانتْ تَحْمِلُها فَتَنْثُرُهَا بالليل في طريق رسول اللَّه ﷺ)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٩ / ٢٦٠) : ((﴿ وَامْرَأَتُهُ ﴾ ، أي : سَتَصْلَى امْرَأَتُهُ ، وَهِيَ أُمُّ جميل بِنْت حَرْب أُخْت أبي سُفيان . وفي هذا دَلالة على صِحَّةِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا عليه الصلاة والسلام ، لأنَّه أخبرَ بهذا المعنى أنَّه وَزَوْجَتُه يَمُوتان على الكُفْرِ ، فكان كذلك ، إذْ لَوْ قالا بألسنتهما : قَدْ أسْلَمْنَا ، لَوَجَدَ الكُفَّارُ مُتَعَلَّقًا في الرَّدِّ على رسول اللَّه ﷺ ، غَيْرَ أنَّ اللَّهَ عَلِمَ أنَّهُمَا لا يُسْلِمَان باطنًا ولا ظاهرًا ، فَأخْبَرَه بذلك . قَوْلُه تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ الحَطَبِ ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدهما : أنَّها كانتْ تَمْشِي بالنَّمِيمَةِ ، قاله ابن عَبَّاس ومُجَاهِد والسُّدي والفَرَّاء . وقال ابنُ قُتَيْبَة : فَشَبَّهُوا النَّمِيمَةَ بالحَطَبِ ، والعَدَاوَةَ والشَّحْنَاءَ بالنار ، لأنَّهُما يَقَعَان بالنَّمِيمَة ، كما تَلتهب النارُ بالحَطَبِ . والثاني أنَّها كانتْ تَحْتَطِب الشَّوْكَ فَتُلْقِيه في طريق رسول اللَّه ﷺ لَيْلًا ، رواه عَطِيَّة عَن ابن عَبَّاس ، وبِهِ قال الضَّحَّاكُ وابْنُ زَيْد. والثالث أنَّ المُراد بالحَطَبِ الخطايا ، قاله سَعِيد بن جُبَير. والرابع أنَّها كانتْ تُعَيِّر رسولَ اللَّه ﷺ بالفَقْرِ ، وكانتْ تَحْتَطِب ، فَعُيِّرَتْ بذلك ، قاله قَتَادَة ، وَلَيْسَ بالقَوِيِّ ، لأنَّ اللَّهَ تعالى وَصَفَه بالمال)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ في جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَد ﴾ [المَسَد : ٥] .

في عُنُقِهَا حَبْلٌ مِن لِيفٍ قَدْ فُتِلَ فَتْلًا شديدًا ، تُعَذَّب بِهِ في نار الآخِرَة . وهذا تَحقيرٌ لشأنها ، وإهانةٌ لها ، وتَصويرٌ لها بِصُورة بعض الحَطَّابَاتِ لِتَجْزَعَ مِنْ ذلك ، وَيَجْزَعَ زَوْجُها ، وهُمَا في بَيْتِ العِزِّ والشَّرَفِ ، وفي مَنْصِبِ المَجْدِ والغِنَى والسِّيَادَةِ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٧٢٩) : ((﴿ في جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَد ﴾ ، الجُملةُ في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحَالِ مِن ﴿ امْرَأَتُهُ ﴾ ، والجِيدُ : العُنُق ، والمَسَدُ : الليف الذي تُفْتَل مِنْهُ

الحِبَال . ... . وقال أبو عُبَيدة : المَسَدُ هُوَ الحَبْلُ يَكُون مِنْ صُوفٍ . وقال الحَسَن : هِيَ حِبَال تَكُون مِنْ شَجَرٍ يَنْبُت باليَمَنِ تُسَمَّى بالمَسَدِ ، وقَدْ تَكُون الحِبَالُ مِنْ جُلودِ الإبِلِ ، أوْ مِنْ أوبارها . قال الضَّحَّاكُ وغَيْرُه : هذا في الدُّنيا ، كانتْ تُعَيِّر النَّبِيَّ ﷺ بالفَقْرِ ، وَهِيَ تَحْتَطِب في حَبْلٍ تَجْعَلُه في عُنُقِها ، فَخَنَقَهَا اللَّهُ بِهِ فَأَهْلَكَهَا، وَهُوَ في الآخِرَةِ حَبْلٌ مِن نار. وقال مُجَاهِد وعُرْوَة بن الزُّبَيْر : هُوَ سِلْسِلَة مِنْ نار تَدْخُل في فِيها ، وتَخْرُج مِن أسْفَلِها . وقال قَتَادَة : هُوَ قِلادَة مِنْ وَدَعٍ كانتْ لَهَا . قال الحَسَن: إنَّما كانَ خَرَزًا في عُنُقِها . وقال سعيد بن المُسَيِّب : كانتْ لها قِلادة فاخرة مِن جَوْهَر ، فقالت : واللاتِ والعُزَّى لَأُنْفِقَنَّهَا في عَداوةِ مُحَمَّدٍ ، فَيَكُون ذلك عَذابًا في جَسَدِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٧٣١) : ((قال العُلماء : وفي هذه السُّورةِ مُعْجِزَةٌ ظاهرةٌ ، ودَلِيلٌ واضحٌ على النُّبُوَّةِ ، فإنَّه مُنْذُ نَزَلَ قَوْلُه تعالى : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ (٤) في جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَد (٥) ﴾ ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمَا بالشَّقَاءِ ، وعَدَمِ الإيمانِ ، لَمْ يُقَيَّضْ لَهُمَا أن يُؤْمِنَا ، ولا واحد مِنْهُمَا ، لا باطنًا ولا ظاهرًا ، لا مُسِرًّا ولا مُعْلِنًا ، فكانَ هَذا مِن أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النُّبُوَّةِ الظاهرة)) .

٣١_ الرُّوم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ [الرُّوم : ٢] .

هُزِمَ جَيْشُ الرُّومِ ، وَهُمْ نَصَارى أهْلُ كِتَابٍ ، غَلَبَتْهُم فارس ، وَلَيْسُوا أهْلَ كِتَابٍ ، بَلْ يَعْبُدُون الأوثانَ ، فَفَرِحَ كُفَّارُ مَكَّة بذلك ، وقالوا للمُسْلِمِين : نَحْنُ نَغْلِبُكُم كَمَا غَلَبَتْ فارسُ الرُّومَ .

كانَ المُشركون يُحِبُّون أنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلى الرُّومِ ، لأنَّهُم أصحابُ أوثانٍ ، وكانَ المُسْلِمُون يُحِبُّون أنْ تَظْهَرَ الرُّومُ على فارس ، لأنَّهُم أهْلُ كِتَابٍ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٣٠٤) : ((قال أهلُ التَّفْسير : غَلَبَتْ فَارِسُ الرُّومَ ، فَفَرِحَ بذلك كُفَّارُ مَكَّة ، وقالوا : الذينَ لَيْسَ لَهُم كِتَابٌ غَلَبُوا الذينَ لَهُم كِتَاب ، وافْتَخَرُوا عَلى المُسْلِمِين ، وقالوا : نَحْنُ أيضًا نَغْلِبُكُم كَمَا غَلَبَتْ فارسُ الرُّومَ ، وكانَ المُسْلِمُون يُحِبُّون أنْ تَظْهَرَ الرُّومُ على فارس ، لأنَّهُم أهْلُ كِتَابٍ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ في أدْنَى الأرْضِ وَهُم مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون ﴾ [الرُّوم : ٣] .

في أقْرَبِ أرْضِ العَرَبِ ، لأنَّ الأرْضَ المعهودة عِند العَرَبِ أرْضُهُم ، والمَعنى : غُلِبَت الرُّومُ في أدْنَى أرْضِ العَرَبِ مِنهُم ، وَهِيَ أطرافُ الشَّام . والرُّومُ مِنْ بَعْدِ انهزامِهم وغَلَبَةِ فارس لَهُم سَيَغْلِبُون الفُرْسَ ، ويَنْتَصِرُون عَلَيْهِم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٣٠٤) : ((ومَعنى ﴿ في أدْنَى الأرْضِ ﴾ ، في أقْرَبِ أرْضِهِم مِن أرضِ العَرَبِ ، أوْ في أقربِ أرضِ العَرَبِ مِنهُم . قِيل : هي أرض الجزيرة ، وقِيل : أَذْرِعَات ، وقِيل : كَسْكَر ، وقِيل : الأُرْدُن ، وقِيل : فِلَسْطِين . وهذه المواضع هي أقرب إلى بلاد العرب مِن غَيْرِها ، وإنَّما حُمِلَت الأرضُ على أرض العَرَبِ ، لأنَّها المَعهود في ألسنتهم إذا أطلقوا الأرضَ أرادوا بها جزيرةَ العَرَبِ. وقِيل : إنَّ الألف واللام عِوَض عَن المُضَافِ إلَيْه ، والتقدير : في أدنى أرضهم ، فَيَعُود الضمير إلى الرُّوم ، ويَكُون المَعنى : في أقربِ أرضِ الرُّومِ مِنَ العَرَبِ . قال ابنُ عَطِيَّة : إنْ كانت الوَقْعَةُ بِأَذْرِعَات ، فَهِيَ مِنْ أدنى الأرضِ بالقِيَاسِ إلى مَكَّة ، وإنْ كانت الوَقْعَةُ بالجزيرة ، فَهِيَ أدنى بالقياسِ إلى أرضِ كِسْرَى ، وإنْ كانت بالأُرْدُن ، فَهِيَ أدنى إلى أرضِ الرُّومِ ، ﴿ وَهُم مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون ﴾ أي: والرُّوم مِنْ بَعْدِ غَلَبِ فارس إيَّاهُم سَيَغْلِبُون أهْلَ فارس)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ في بِضْعِ سِنِينَ للَّهِ الأمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤمِنُون (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾ [الرُّوم] .

في فَترةٍ لا تَتجاوز بِضْعَةَ أعوام ، والبِضْعُ : مَا بَيْنَ الثلاثِ إلى التِّسْعِ ، وَهِيَ هَاهُنَا سَبْع سِنِين، وهذا مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ الذي يَدُلُّ على أنَّ القُرْآنَ حَقٌّ وَصِدْقٌ . للَّهِ الأمْرُ أوَّلًا وآخِرًا ، دائمًا وأبَدًا . للَّهِ الأمْرُ مِن قَبْل أن تَغْلِبَ الرُّومُ ومِن بَعْدِ الغَلَبَةِ ، فَكُلُّ ذلك بِأمْرِ اللَّهِ وإرادته ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنهما إلا بقضاءِ اللَّهِ . والمَعنى : إنَّ غَلَبَةَ الغَالِبِ وَخِذْلانَ المَغلوبِ بِأمْرِ اللَّهِ وقَضَائِه .

وَيَوْمَ يَهْزِمُ الرُّومُ الفُرْسَ ، وَيَتَغَلَّبُون عَلَيْهِم ، ويَتَحَقَّق مَا وَعَدَه اللَّهُ مِن غَلَبَتِهِم، يَفْرَح المُؤمنون بِنَصْرِ اللَّهِ للرُّومِ النَّصَارَى عَلى الفُرْسِ المَجُوسِ ، لأن الرُّوم أهل كِتَاب ، وهُمْ أقْرَبُ إلى المُؤمنين مِنَ الفُرْسِ المَجُوسِ ، وقَدْ صَادَفَ ذلك اليَوْمُ يَوْمَ غَزْوَةِ بَدْرٍ . وكانَ يَوْمُ بَدْرٍ هَزِيمةَ عَبَدَةِ الأوثانِ ، وَعَبَدَةِ النِّيران .

يَنصُرُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه ، وهو العزيزُ بانتقامه مِن أعدائه ، الرَّحِيمُ بأوليائه وأحبابه .

وهذه الآياتُ مِنَ البَيِّنَاتِ الباهرةِ، الشَّاهدةِ بِصِحَّةِ النُّبُوَّةِ، وكَوْن القُرْآن مِنْ عِند اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَيْثُ أخْبَرَ عَن الغَيْبِ الذي لا يَعْلَمُه إلا العَلِيمُ الخَبِيرُ ، وَوَقَعَ كَمَا أخْبَرَ ، أي إنَّ هذه الآياتِ مِن دَلائِلِ النُّبُوَّةِ ، لأنَّها إخبارٌ عَن الغَيْب .

وقال المُفَسِّرُون : كانَ بَيْنَ فارسَ والرُّومِ حَرْبٌ ، فَغَلَبَتْ فارسُ الرُّومَ ، فَبَلَغَ ذلك النَّبِيَّ ﷺ وأصحابَه ، فَشَقَّ ذلك عَلَيْهِم ، وَفَرِحَ المُشركون بذلك ، لأنَّ أهل فارس كانوا مَجُوسًا ، وَلَمْ يَكُن لَهُم كِتَاب ، والرُّومُ أصحابُ كِتَابٍ ، فقال المُشركون لأصحابِ النَّبِيِّ ﷺ : إنَّكُم أهْلُ كِتَابٍ ، والرُّومُ أهْلُ كِتَابٍ ، وَنَحْنُ أُمِّيُّون ، وَقَدْ ظَهَرَ إخْوَانُنَا مِن أهْلِ فارس على إخوانكم مِنَ الرُّوم ، فَلَنَظْهَرَنَّ عَلَيْكُم ، فقال أبو بَكْرٍ : لا يُقِرُّ اللَّهُ أعْيُنَكُم ، فَأنزلَ اللَّهُ : ﴿ وَهُم مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون (٣) في بِضْعِ سِنِينَ ﴾ ، وَقَد التقى الجَيْشَان في السَّنَةِ السَّابعةِ مِنَ الحَرْبِ ، وَغَلَبَت الرُّومُ فارسَ ، وَهَزَمَتْهُم ، وَفَرِحَ المُسْلِمُون بذلك)) .

إنَّ الرُّومَ نَصَارى أهْلُ كِتَابٍ ، أمَّا الفُرْسُ فَهُم مَجُوس يَعْبُدُون النارَ ، لذلك كانت عاطفةُ المُسْلِمين تَمِيل إلى الرُّوم ، فالمُسْلِمُون لَدَيْهِم القُرْآن ، والرُّومُ لَدَيْهِم الإنجيل ، في حِين أنَّ مُشركي العَرَبِ (عَبَدَة الأصنامِ والأوثانِ) كانوا يَميلون إلى الفُرْسِ المَجُوسِ (عَبَدَة النِّيران) .

وَعِندما غُلِبَت الرُّومُ انزعجَ المُسْلِمُون ، وَفَرِحَ المُشركون ، لكنَّ اللَّهَ أخبرَ المُؤمنين في كِتابه العَزيزِ بأنَّ الرُّوم سَيَغْلِبُون الفُرْسَ ، ويَنتصرون عليهم ، في بِضْعِ سِنِين (مَا بَيْنَ الثَّلاث إلى التِّسْع). وكلامُ اللَّهِ حَقٌّ وصِدْقٌ ، لا يَأتيه الباطلُ ، ولا يَعْتريه الكَذِب ، وَهُوَ واقعٌ لا مَحَالة، وكائنٌ بلا شَك، وقَد انتصرَ الرُّومُ في الفَتْرَةِ التي حَدَّدَهَا اللَّهُ تعالى .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ١٦٢) : ((غَلَبَتْ فارسُ الرُّومَ ﴿ في أدْنَى الأرْضِ ﴾ مِنْ أرْضِ الشَّامِ إلى أرْضِ فارس ، ﴿ وَهُم مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ ، يَقُول : والرُّومُ مِنْ بَعْدِ غَلَبَةِ فارس إيَّاهُم ﴿ سَيَغْلِبُون ﴾ فارس ﴿ في بِضْعِ سِنِينَ للَّهِ الأمْرُ مِن قَبْلُ ﴾ غَلَبَتِهِم فارس ﴿ وَمِن بَعْدُ ﴾ غَلَبَتِهِم إيَّاهَا ، يَقْضِي في خَلْقِه مَا يَشَاء ، ويَحْكُم مَا يُريد ، ويُظْهِر مَنْ شاءَ مِنْهُم عَلى مَنْ أَحَبَّ إظهارَه عَلَيْه ، ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤمِنُون (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ ، يَقُول : وَيَوْمَ يَغْلِبُ الرُّومُ فارسَ يَفْرَح المُؤمنون باللَّهِ ورَسُولِه بِنَصْرِ اللَّهِ إيَّاهُم على المُشركين ، ونُصْرَةِ الرُّومِ على فارس ، ﴿ يَنصُرُ ﴾ اللَّهُ تعالى ذِكْرُه ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ مِنْ خَلْقِه عَلى مَنْ يَشَاء ، وَهُوَ نُصْرَة المُؤمنين على المُشركين بِبَدْرٍ ، ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ ﴾ يَقُول:واللَّهُ الشَّدِيدُ في انتقامِه مِنْ أعدائِه ، لا يَمْنَعُه مِن ذلك مانع ، ولا يَحُول بَيْنَه وبَيْنَه حائل ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بِمَنْ تابَ مِنْ خَلْقِه وَرَاجَعَ طَاعَتَه أن يُعَذِّبَه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٣٠٥) : ((﴿ في بِضْعِ سِنِينَ ﴾ مُتَعَلِّق بِمَا قَبْلَه ، ...، والمُرادُ بِهِ هُنا مَا بَيْنَ الثلاثةِ إلى العَشَرَةِ ، ﴿ للَّهِ الأمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ ، أي : هُوَ المُنْفَرِد بالقُدرةِ ، وإنفاذِ الأحكامِ وَقْتَ مَغْلُوبيتهم ووقت غالبيتهم ، فَكُلُّ ذلك بأمرِ اللَّهُ سُبحانَه وقضائه .

قرأ الجُمهور : ﴿ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ بِضَمِّهِمَا ، لِكَوْنِهما مَقْطُوعَيْن عَن الإضافة ، والتقدير : مِن قَبْلِ الغَلَبِ وَمِن بَعْدِه ، أوْ مِن قَبْلِ كُلِّ أمْرٍ وَمِن بَعْدِه . ... . ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤمِنُون (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ ، أي : يَوْم أن تَغْلِبَ الرُّومُ على فارس في بِضْع سِنين يَفْرَح المُؤمنون بِنَصْرِ اللَّهِ للرُّومِ لِكَوْنِهِم أهْلَ كِتَابٍ ، كما أنَّ المُسْلِمِين أهْلُ كِتَابٍ ، بِخِلاف فارس ، فإنَّه لا كتاب لهم ، ولهذا سُرَّ المُشركون بنصرهم على الرُّوم ، وقِيل : نَصْرُ اللَّهِ هو إظهار صِدْقِ المُؤمنين فِيما أخْبَرُوا بِهِ المُشركين مِن غَلَبَةِ الرُّومِ على فارس ، والأوَّلُ أوْلَى . قال الزَّجَّاج : هذه الآية مِنَ الآيات التي تدلُّ على أنَّ القُرْآن مِن عِند اللَّه ، لأنَّه إنْبَاء بِما سَيَكُون ، وهذا لا يَعْلَمُه إلا اللَّهُ سُبحانَه ، ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾ أن يَنصُرَه ، ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ ﴾ الغالبُ القاهرُ ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ الكَثِيرُ الرَّحْمَة لِعِبَادِه المُؤمنين ، وقِيل : المُراد بالرَّحْمَةِ هُنا : الدُّنيوية ، وهي شاملة للمُسْلِمِ والكافرِ)) .

وروى التِّرمذيُّ في سُنَنِه (٥ / ٣٤٣) وصَحَّحَه عن ابن عباس أنَّه قال: غُلِبَتْ وغَلَبَتْ ، كانَ المُشركونَ يُحِبُّونَ أن يَظْهَرَ أهْلُ فَارِسَ عَلى الرُّومِ، لأنَّهُم وإيَّاهُم أهْلُ أوْثَانٍ، وكانَ المُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أنْ يَظْهَرَ الرُّومُ عَلى فَارِسَ،لأنَّهُم أهْلُ كِتَابٍ، فَذَكَرُوهُ لأبي بَكْرٍ، فَذَكَرَهُ أبو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قال : ((أمَا إنَّهُم سَيَغْلِبُون)) ، فَذَكَرَهُ أبو بَكْرٍ لَهُمْ ، فقالوا : اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أجَلًا ، فَإنْ ظَهَرْنَا كانَ لَنَا كَذَا وكَذَا ، وإنْ ظَهَرْتُمْ كانَ لَكُمْ كَذَا وكَذَا ، فَجَعَلَ أجَلًا خَمْسَ سِنِين ، فَلَمْ يَظْهَرُوا ، فَذَكَرَ ذَلِكَ للنَّبِيِّ ﷺ ، قال: ((ألا جَعَلْتَهُ إلى دُونَ ؟ _ قال : أرَاهُ العَشْر ، قال سعيد : والبِضْعُ مَا دُونَ العَشْرِ _))،قال:ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْد،قال:فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) ﴾ إلى قَوْلِه : ﴿ يَفْرَحُ المُؤمِنُون (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾ . قال سُفيان : سَمِعْتُ أنَّهُم ظَهَرُوا عَلَيْهِم يَوْمَ بَدْرٍ .

كانت الفُرْسُ والرُّومُ أكبرَ دَوْلَتَيْن في زمانهما ، وكانَ بَينهما مِن الصِّرَاعِ والحُروبِ الكثيرُ ، وكانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ النصرَ لأتْبَاعِ الرُّسُلِ مِن أهلِ الكِتابِ وهُم الرُّوم على المُشركين وهُم الفُرْسُ ، حتى يَطْمَئِنَّ المُسْلِمُون ويَثْبُتُوا ، وحتى يَغتاظ الكُفَّارُ .

قال عبدُ اللَّهِ بن عَبَّاس _ رَضِيَ اللَّهُ عنهما _ : " غُلِبَتْ وَغَلَبَتْ " ، أي : غَلَبَهُمُ الفُرْسُ أوَّلًا ، ثُمَّ تَغَلَّبَ الرُّومُ على الفُرْسِ آخِرًا ، "كانَ المُشركونَ يُحِبُّونَ أن يَظْهَرَ أهْلُ فَارِسَ عَلى الرُّومِ ، لأنَّهُم وإيَّاهُم أهْلُ أوْثَانٍ " ، حَيْثُ كانَ الفُرْسُ يَعْبُدُون النارَ ، والمُشركون مِنَ العَرَبِ يَعْبُدُون الأصنامَ والأحجارَ ، " وكانَ المُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أنْ يَظْهَرَ الرُّومُ عَلى فَارِسَ ، لأنَّهُم أهْلُ كِتَابٍ ، فَذَكَرُوهُ لأبي بَكْرٍ " ، أي : ذَكَرَ المُشركون كُفَّارُ مَكَّةَ لأبي بَكْرٍ الصِّدِّيق _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ أنَّ كِسْرَى مَلِكَ

فارسَ بَعَثَ جَيْشًا إلى قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ ، فَغَلَبَتْ فارسُ الرُّومَ ، يُشيرون بذلك إلى أنَّهُم لَوْ قاتلوا المُسْلِمِين كَقِتالِ فارسَ للرُّومِ ، سَيَظْهَرُون عليهم وينتصرون ، " فَذَكَرَهُ أبو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قال : ((أمَا إنَّهُم سَيَغْلِبُون)) ، أي : سَتَغْلِبُ الرُّومُ الفُرْسَ بعد هزيمتهم ، " فَذَكَرَهُ أبو بَكْرٍ لَهُمْ " أي : أخْبَرَهُم أبو بَكْرٍ أنَّ الرُّومَ سَتَهْزِم الفُرْسَ كما أخْبَرَه بِهِ رسولُ اللَّهِ ﷺ ، فقالَ المُشركون : " اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أجَلًا " ، أي : مَوْعِدًا مُحَدَّدًا في المُستقبَل يَنْتهي فيه قَوْلُكَ بالنصر للرُّوم ، " فَإنْ ظَهَرْنَا " ، أي : غَلَبْنَا ، وقَدْ جَعَلَ المُشركون أنفُسَهم معَ فريقِ الفُرْسِ ، معَ أنَّ المُشركين مِن أهلِ مَكَّة لا يُقَاتِلُون الرُّومَ ، لأنَّهُم يُحِبُّون ويَرْجُون لهم النصرَ ، " كانَ لَنَا كَذَا وكَذَا " ، أي : مِنَ المال ، " وإنْ ظَهَرْتُمْ " ، أي : وإنِ انتصرْتُم أنتم وفريقُكم مِن أهلِ الكِتابِ " كانَ لَكُمْ كَذَا وكَذَا " أي : مِنَ المال ، قال ابنُ عَبَّاس : " فَجَعَلَ أجَلًا خَمْسَ سِنِين " ، أي : سَمَّى أبو بَكْرٍ لَهُم مُدَّةَ خَمْسِ سِنين يأتي فيها خَبَرُ نَصْرِ الرُّومِ على الفُرْسِ ، " فَلَمْ يَظْهَرُوا " ، أي : لَمْ تَهْزِم الرُّومُ الفُرْسَ في تِلْك المُدَّة ، " فَذَكَرَ ذَلِكَ للنَّبِيِّ ﷺ " ، أي : أخْبَرَه أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه بأجَلِه معَ مُشركي مَكَّة ، فقالَ رسولُ اللَّهِ : ((ألا جَعَلْتَهُ إلى دُونَ ؟)) ، أي : ألا جَعَلْتَ الأجَلَ إلى آخِرِ البِضْع ، وهو تِسْع سِنين ، لِيَكُون أمْكَنَ في تحديد مَوعد وُقوعِ النصر ، واحترازًا مِن تأخُّرِه إلى آخِرِ الوَقْتِ المُحَدَّدِ دُون العَشْر ، " قال : أرَاهُ العَشْر ، قال سعيد " وهو ابن جُبَير الراوي عن ابن عَبَّاس : " والبِضْعُ مَا دُونَ العَشْرِ " ، أي : دُونَ العَشْرِ ، لأنَّ اللَّه تعالى قال : ﴿ في بِضْعِ سِنِينَ ﴾ ، والبِضْعُ مِن الثَّلاثِ إلى التِّسْعِ . قالَ ابنُ عَبَّاس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ : " ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْد " أي : انتصرَتْ بعد تِلْك الخَمْس سِنين ، قال " فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالى : ﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) في أدْنَى الأرْضِ وَهُم مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون (٣) في بِضْعِ سِنِينَ للَّهِ الأمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤمِنُون (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾ [الرُّوم] . قالَ سُفيانُ الثَّوْرِيُّ ــ مِن رُواةِ هَذا الحَديث ــ : " سَمِعْتُ أنَّهُم ظَهَرُوا عَلَيْهِم يَوْمَ بَدْرٍ " ، أي : في غَزوةِ بَدْرٍ ، فَفَرِحَ المُسْلِمُون بِنَصْرِ اللَّهِ لهم على المُشركين ، وبنصره لأهلِ الكِتابِ على الفُرْسِ .

وفي الحَديثِ : بَيَانُ تأييدِ اللَّهِ للنَّبِيِّ ﷺ وتَسْلِيَتِه بالأحداثِ والعِبَرِ معَ غَيْرِه مِنَ الأُمَمِ . وفيه : دليلٌ مِن دَلائلِ نُبُوَّتِه ﷺ . وفيه : بَيانُ مَنزلة أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ في الإسلام .

والجَديرُ بالذِّكْرِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يَعْلَم الغَيْبَ ، لَكِنَّ اللَّهَ يُطْلِعُه على بعض الأمور الغَيْبِيَّة ، مِثْل : انتصار الرُّوم مُسْتَقْبَلًا ، وهذا يُشير إلى أحد جوانب إعجاز القُرْآن الكريم ، وهو الإخبار بالغَيْبِ ، مِمَّا يَدُلُّ على أنَّ القُرْآن مِن عِند اللَّهِ المُسَيْطِر على الزَّمَانِ والمَكَانِ وأحداثِ التاريخ ،

وَلَيْسَ مِن تأليفِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ مُحَمَّد ﷺ ، أوْ أحد الناس . وقَدْ راهنَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيق على انتصار الرُّوم ، _ وكانَ هذا قبل تحريم المُرَاهَنَات_ . ولَمْ يَكُن لِيُقْدِمَ على هذه الخُطوة لَوْلا ثِقَته اليقينية بِكَلامِ اللَّهِ وكَلامِ رَسُولِه ﷺ . وأبو بَكْرٍ يَتَلَقَّى النُّصُوصَ الشَّرْعِيَّة وَاقِعًا مَلموسًا لا غَبَشَ فِيه ، ومَشْهَدًا ماثلًا أمام العِيَانِ لا لَبْسَ فيه ، لذلك سُمِّيَ بالصِّدِّيق .

٣٢_ أصْحَابُ الجَنَّةِ

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِين ﴾ [القَلَم : ١٧] .

إنَّ اللَّهَ اخْتَبَرَ أهْلَ مَكَّة بالقَحْطِ والجُوعِ بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، كَمَا اخْتَبَرَ أصحابَ البُستانِ المُشتمل على أنواعِ الثِّمَارِ والفَواكِهِ ، وكَلَّفَ أهْلَ مَكَّة أن يَشكُروا رَبَّهُم عَلى النِّعَمِ ، كَمَا كَلَّفَ أصحابَ البُستانِ أن يَشكُروا ويُعْطُوا الفُقَرَاءَ حُقُوقَهم . وكانَ أصحابُ البُستانِ قَدْ حَلَفُوا لَيَقْطَعَنَّ ثَمَرَهَا وَقْتَ الصَّبَاحِ ، قَبل أن يَخرُج إلَيهم المساكين .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٣٧٩) : ((قَوْلُه : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ ، يَعْنِي كُفَّارَ مَكَّة ، فإنَّ اللَّهَ ابتلاهم بالجُوعِ والقَحْطِ بِدَعْوَةِ رسول اللَّه ﷺ ، والابتلاءُ : الاختبار ، والمَعنى : أعْطَيْنَاهُم الأموالَ لِيَشكُروا لا لِيَبْطَرُوا ، فلمَّا بَطِرُوا ابْتَلَيْنَاهُم بالجُوعِ والقَحْطِ ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ ﴾ المَعروف خَبَرهم عِندهم ، وذلك أنَّها كانتْ بأرض اليَمَنِ على فَرْسَخَيْن مِن صَنْعَاء لِرَجُلٍ يُؤَدِّي حَقَّ اللَّه مِنها ، فماتَ ، وصارتْ إلى أولاده ، فَمَنَعُوا الناسَ خَيْرَها ، وبَخِلُوا بِحَقِّ اللَّهِ فيها . قال الواحدي : هُمْ قَوْمٌ مِن ثَقِيف كانوا باليَمَنِ مُسْلِمِين ، وَرِثُوا مِن أبيهم ضَيْعَةً ، فِيها جَنَّاتٌ وَزَرْعٌ ونَخِيلٌ ، وكانَ أبوهم يَجْعَل مِمَّا فِيها مِن كُلِّ شَيْءٍ حَظًّا للمَسَاكِين عِند الحَصَادِ والصِّرَامِ ، فقالتْ بَنُوه : المال قليل ، والعِيَال كثير ، ولا يَسَعُنا أن نَفْعَلَ كما كانَ يَفْعَل أبونا ، وعَزَمُوا عَلى حِرْمَان المَسَاكِين ، فصارتْ عَاقِبَتُهُم إلى مَا قَصَّ اللَّهُ في كِتَابِه . قال الكَلْبي : كانَ بَيْنَهُم وَبَيْنَ صَنْعَاء فَرْسَخَان ، ابتلاهم اللَّهُ بأنْ حَرَقَ جَنَّتَهُم . وقِيل : هِيَ جَنَّةٌ كانتْ بِصَوْرَان ، وَصَوْرَان عَلى فَرَاسِخ مِن صَنْعَاء ، وكان أصحابُ هذه الجَنَّة بعد رَفْعِ عِيسَى بيسير ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِين ﴾ أي : حَلَفُوا لَيَقْطَعَنَّهَا داخلين في وقت الصباح ، والصَّرْمُ : القَطْعُ للثَّمَرِ والزَّرْعِ ، وانتصابُ ﴿ مُصْبِحِين ﴾ على الحال مِن فاعل ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ ، والكافُ في ﴿ كَمَا بَلَوْنَا ﴾ نَعْت مَصْدَر محذوف ، أي : بَلَوْنَاهُم ابتلاءً كَمَا بَلَوْنَا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلا يَسْتَثْنُون ﴾ [القَلَم : ١٨] .

وَلَمْ يَقُولوا : إنْ شاءَ اللَّهُ حِينَ حَلَفُوا ، كَأَنَّهُم واثقون مِنَ الأمرِ تمامًا، ومُتَأكِّدُون مِنْهُ كُلِّيًّا .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٣٨٠) : ((﴿ وَلا يَسْتَثْنُون ﴾ ، يَعْنِي : ولا يَقُولون : إنْ شاءَ اللَّهُ . وهذه الجُملة مُسْتَأنَفَة لِبَيَانِ مَا وَقَعَ مِنهُم أوْ حال . وقِيل : المَعْنَى : ولا يَسْتَثْنُون للمَساكين مِن جُملةِ ذلك القَدْرِ الذي كان يَدْفَعُه أبُوهم إلَيْهِم ، قاله عِكْرِمَة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِن رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُون ﴾ [القَلَم : ١٩] .

فَطَافَ على الجَنَّةِ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ لَيْلًا ، وَهُم في غَفْلَةٍ عَمَّا حَدَثَ لأنَّهُم كانوا نِيَامًا ، ولا يَكُون الطائفُ إلا بالليلِ ، وقَدْ أرسلَ اللَّهُ عليها نارًا مِنَ السَّمَاءِ فَاحْتَرَقَتْ وَهُمْ نائمون .

وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ١٩٠) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : فَطَرَقَ جَنَّةَ هؤلاء القَوْمِ لَيْلًا طارقٌ مِنْ أمْرِ اللَّهِ وَهُمْ نائمون، ولا يَكُون الطائفُ في كلام العرب إلا لَيْلًا ، ولا يَكُون نهارًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ [القَلَم : ٢٠] .

فأصبحت الجَنَّةُ كالزَّرْعِ المَحْصُودِ إذا أصبحَ هَشِيمًا يَابِسًا ، والمَعنى : أصْبَحَتْ جَنَّتُهُم مُحْتَرِقَةً سَوْدَاء كَسَوَاد الليلِ المُظْلِمِ، قَدْ حُرِمُوا خَيْرَ جَنَّتِهِم بِذَنْبِهِم .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٩٥) : ((﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ ، كالليلِ المُظْلِمِ الأسْوَدِ. قال الحَسَن : أي : صُرِمَ مِنها الخَيْرُ فَلَيْسَ فيها شَيْءٌ)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٨ / ٣٣٦) : ((قال المُفسِّرون : بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهَا نارًا بالليلِ ، فاحترقتْ ، فصارتْ سَوْدَاءَ ، فذلك قَوْلُه تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ ، وفيه ثلاثة أقوال : أحدها كالرَّمَادِ الأسْوَدِ ، قاله ابن عباس . والثاني كالليلِ المُسْوَدِّ ، قاله الفَرَّاء ، وكذلك قال ابنُ قُتَيبة : أصبحتْ سَوْدَاءَ كالليلِ مُحْتَرِقَةً ، والليلُ هُوَ الصَّرِيمُ ، والصُّبْحُ أيضًا صَرِيمٌ ، لأنَّ كُلَّ وَاحدٍ مِنهما يَنْصَرِم عَن صاحبه . والثالث أصْبَحَتْ وَقَدْ ذَهَبَ مَا فِيها مِنَ الثَّمَرِ ، فكأنَّه قَدْ صُرِمَ ، أي: قُطِعَ وَجُذَّ ، حَكَاه ابنُ قُتَيبة أيضًا)) .

تَمَّ الكِتَابُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالى

فِهْرِس

مقدمة.....5

١_ السَّيْر في الأرض والنظر في عاقبة الماضين[7] ٢_ العِبَر التاريخية في أنباء القُرى [16]

٣_ ابْنَا آدم (هابيل وقابيل) [50] ٤_ نُوح [60] أ_ قَوْم نُوح [60] ب_ الطُّوفان [62]

ج _ امرأة نُوح [65] د_ أصحابُ السَّفِينة [68] ٥_ قَوْم تُبَّع [69] ٦_لُقْمَان وحِكْمَته [71]

٧_ إبراهيم [84] أ_ آل إبراهيم [84] ب_ سَارَة [86] ٨ _ أصحاب الرَّسِّ [89]

٩_ أصحاب القَرْية [90] ١٠_ أصحاب الكَهْف [90] ١١_ الذي أماته اللَّهُ مِئةَ عام [92]

١٢_الذين خَرَجُوا حَذَرَ المَوْتِ[95] ١٣_عاد (قَوْم هُود)[98] ١٤_ثَمُود (قَوْم صالح) [103]

١٥_قَوْم لُوط[112] ١٦_أصحاب مَدْيَن(قَوم شُعَيْب) [121] ١٧_" ابْنَتَا شُعَيْب " [129]

١٨_ ذُو القَرْنَيْن ويَأجُوج ومَأجُوج [138] ١٩_ آل يَعْقُوب [157] ٢٠_ الأسباط [162]

٢١_ امرأة العزيز [164] ٢٢_ فِرْعَوْن [165] أ_ آل فِرْعَوْن[165] ب_ فِرْعَوْن [171]

ج _امرأة فِرْعَوْن (آسِيَة)[184] ٢٣_مُوسَى[190] أ_أُمُّ مُوسَى[190] ب_ قَوْم مُوسَى[192]

ج _التابوت[195] ٢٤_قارون[196] ٢٥_ سَبَأ وَمَلِكَتُهُم بَلْقِيس[203] ٢٦_ عِمْرَان[212]

أ _ آل عِمْرَان [212] ب_ امْرَأةُ عِمْرَان (أُمُّ مَرْيَم) [213] ج _ مَرْيَم ابْنَةُ عِمْرَان [214]

٢٧_ الحَوَارِيُّون [231] ٢٨_ أصحاب الأُخْدُود [240] ٢٩_ أصحاب الفِيل [248]

٣٠_ أبو لَهَب وامْرَأتُه [252] ٣١_ الرُّوم [260] ٣٢_ أصْحَابُ الجَنَّةِ [265]

فِهْرِس.....267

صَدَرَ للمُؤلِّف.....268

صدر للمؤلف

الدراسات الدِّينية :

١_ حقيقة القرآن . ٢_ أركان الإسلام . ٣_ أركان الإيمان . ٤_ النبيُّ مُحمَّد ، صَلَّى اللَّهُ عليه وآلِه وسَلَّم. ٥_ دراسات منهجية في القرآن والسُّنَّة. ٦_ العُلوم والفُنون في القُرآن. ٧_ العمل في القُرآن . ٨_ العلاقات الأخلاقية في القرآن . ٩_ العلاقات المالية والقضائية والسياسية والاقتصادية في القرآن . ١٠_ القصص والتاريخ في القرآن . ١١_ الدَّعوة الإسلامية . ١٢_ دراسات منهجية في القُرآن والتوراة والإنجيل. ١٣_ الإنسان والعلاقات الاجتماعية . ١٤_ بحوث في الفكر الإسلاميِّ . ١٥_ منهج الكافرين في القرآن. ١٦_ التناقض في التوراة والإنجيل. ١٧_ صورة اليهود في القرآن والسُّنَّة والإنجيل . ١٨_ عقائد العرب في الجاهليَّة . ١٩_ نقض عقائد ابن تيمية المخالفة للقُرآن والسُّنَّة

الأدب والثقافة والفكر :

٢٠_ فلسفة المُعلَّقات العَشْر. ٢١_ النظام الاجتماعي في القصيدة (المأزق الاجتماعي للثقافة. كلام في فلسفة الشِّعْر) . ٢٢_ صرخة الأزمنة (سِفْر الاعتراف) . ٢٣_ مشكلات الحضارة الأمريكية . ٢٤_ حياة الأدباء والفلاسفة العالميين . ٢٥_ خواطر في زمن السراب

الشِّعْر :

٢٦_ الأعمال الشعرية الكاملة (مجلد واحد)

٢٧_ سيناميس (الساكنة في عيوني)

الرواية :

٢٨_ أشباح الميناء المهجور

٢٩_ جبل النظيف